إسبانيا بشكل جلي

المنطق التاريخي للبلاد الإسبانية

*

إسبانيا بشكل جلي

المنطق التاريخي للبلاد الإسبانية

تأليف

خوليان ماريّاس

ترجمة

علــي المنــوفي

الفهرست

تقديـــم

كثيرًا ما تم تصوير إسبانيا على أنها لغز أو شيء غامض، وعلى أنها واقع غير مفهوم، وربما متناقض، أو أنه غير متّسق على الأقل ومتأزّم، وتتنازعه توترات لا يمكن تجاوزها، ومُحبط. على هذه الصورة تبدت إسبانيا في عيون الأجانب وكذا في عيون الإسبان أنفسهم، كما نجد أن موضوع "قلق إسبانيا" تحول إلى موضوع يجوب إنتاجنا الأدبي - بمبعد عن إسهامات المؤرخين أو علماء الاجتماع - وكان هذا ابتداء من القرن السادس عشر وحتى يومنا هذا، كما أنه ليس من الصعب أن نجد مؤشرات حول هذا الموضوع خلال العصور الوسطى. وهنا نقول إن بقاء الموضوع بهذا الشكل يوضح وجود طابع جوهري، ألا وهو أنه يبدو أن حالة القلق على الوضع الإسباني قد أصبحت مكوّنًا أساسيًا ضمن الواقع الإسباني، وهذا خلافًا لما يحدث بالنسبة لشعوب أخرى، التي أحيانًا ما تعبّر عن قلقها وكدرها متسائلة عن واقعها الحقيقي.

هل هذا "وضع شاذ"، أو وجع قومي، خلافًا لما عليه الشعوب "صاحبة العافية" في أوربا وقارات أخرى؟ تبدو الإجابة بنعم لتؤكد التأويلات المعتادة وأنها مقبولة على أنها أمر بديهي. غير أنه يأتي على خاطرنا تأمل يقودنا إلى النظر إلى هذا الأمر بشكل مختلف، فالإنسان هو الواقع الوحيد الذي هو عبارة عن تأويل لذاته، وليس الأمر القول بإمكانية وجود نظرية عن الحياة الإنسانية بل إن هذا التأويل غير ممكن، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بتأويل هذه الحياة وفهمها على ما هي عليه. غير أن هذه النظرية لا تضاف إلى الحياة، بل

هي واحدة من مكوّناتها ومقاديرها الجوهرية. نجد إذن أن ذلك لو كان من سمات الحياة الإنسانية الفردية، أي حياة كل واحد منا فإننا نتساءل: ألن يكون ذلك جزءًا من الحياة المشتركة، أي حياة كل مجتمع؟ ألا يمكن أن يكون هذا الإصرار على التأمل من قبل الإسبان حول واقعهم، وهذه الرغبة في إيضاح ماهية إسبانيا وما هي ماهيتها وما هو مصيرها، وهذا الموقف الذي يبدو رغبة ملحة وعقبة في طريق تاريخها العادي هو تلك السمة الإنسانية النوعية لذلك المجتمع الذي نطلق عليه إسبانيا؟ ألا يكمن الأمر في أن حياتنا المشتركة لم تفقد تمامًا سمات الحياة بالمعنى الدقيق للكلمة، أي حياة كل فرد؟ المجتمع هو -كما أوضح ذلك أورتيجا إي جاسيت- "العالم" الاجتماعي. وهو "ما هو إنساني غير مؤنسن". وهنا يمكن التفكير في أن إسبانيا يمكن أن تكون مجتمعًا غير مؤنسن بالكامل، يحتفظ ببعض سمات الحياة الفردية، أي المتعلقة بكل شخص.

ليس من المؤكد أن يكون ذلك ميزة، فربما كان مسار ما هو جماعي يتطلب عدم الأنسنة هنا أو هذا التعدّن. وهنا يمكن التفكير بأن إسبانيا يمكن أن تكون بالكلية مجتمعًا غير مؤنسن بالكامل، وهذا يفسر بعض الصعوبات الشديدة البديهية في إسبانيا على مدار الأعم الأغلب من تاريخها. غير أنه لم يتم القول إن ذلك الطابع يمكن أن يكون سيئًا ولا شيء أكثر. ربما كانت تلك الشخصنة العنيدة، التي نراها في الحياة الجماعية، هي السِّر في بعض الإمكانات غير المتوقعة من إسبانيا والتي تفاجئنا بها من حين لآخر، وهي النبع الخاص بحيوية تتفجر مرة ومرات رغم كل حالات التدهور والانحطاط.

من الطبيعي أن هذه التفسيرات المتلاحقة المتعلقة بإسبانيا والتي هي النتاج الثقافي للقلق القومي[1] ليست كلها ذات طابع دقيق، وعلى نفس الدرجة والقيمة. وليس من

---

(1) يمكن الاطلاع على كتاب دولورس فرانكو، العنوان الأصلي "القلق بشأن ماهية إسبانيا من خلال أدبها" (مدريد ١٩٤٤م). وهو كتاب أعيد طبعه من جديد بعنوان "إسبانيا تقلق" مع الكثير من الإضافات (١٩٦٥). هناك طبعة جديدة أخرى صدرت، وبها إضافات أخرى، عام ١٩٨٠م (دار نشر/ أرجوس بيرجارا - برشلونة). وقد قمت في هذه الطبعة بتقديم الأصول والدلالة المتعلقة بهذا الكتاب.

المؤكد أن تكون جزءًا من واقع إسبانيا ويجب أن توضع في الحسبان على أنها نظريات "تتعلق" بها، بل على أنها جزء أساسي منها. وغير ذلك يمكن أن يكون بمقام محاولة لفهم إنسان دون الاهتمام فيما يفكر فيه بشأنه وكيف يرى نفسه ومن يريد أن يكونه.

عادة ما يتأرجح المؤرّخون بين القبول بهذا، بمعنى القبول بذلك الذي "قاله" بعض الناس، وهم من السياسيين بصفة عامة وأحيانًا من بعض المؤرخين، والعناية بها يمكن أن يكون نوعًا من "السلوكية" المتعلقة بالأحداث، دون أي تفسير لها، وبذلك يبقون على أعتاب التاريخ دون الدخول فيه. وقد زادت حدة هذا التوجه في الآونة الأخيرة لدرجة أنها انحصرت في مجرد بيانات إحصائية دون أي نوع من السردية، بل وصل الأمر إلى إلغاء أسماء الأعلام دون أن يدركوا أن ذلك محط تأويل، مثله مثل أي شيء آخر، مع الفارق المتمثل في انعدام بذل الجهد في تفسير الأمر وتبديده.

تكمن إحدى العقبات الكبرى في أن تاريخ إسبانيا عادة ما تتم صياغته ـ ويفعل ذلك الإسبان أنفسهم ـ من وجهة نظر دول أوربية أخرى، يمكن أن تكون مناسبة لفهم الإسبان (وحول هذا هناك الكثير من القول)، غير أن هذا المنظور لا يتوجّه لفهم الواقع الإسبانيّ، فهناك جزء مهم من "الاستغراب" الذي أثارته إسبانيا، يكمن في هذا الأمر، مثلما هو الحال عندما يجد المرء أن هناك سمكة غريبة للغاية، ويظل على هذه الحال متى يدرك أنها ليست سمكة وإنما طائر.

حاصرتني هذه الفكرة على مدار أعوام طويلة، وعند قراءة أغلب ما كُتبَ عن بلدنا، كنت أشعر بشكل شبه دائم بأن ذلك غير ملائم وغير متسق، ويمكن أن نطلق عليه بأنه صورة من بعيد غير دقيقة التصوير. وفي المقابل بدت لي، أكثر من مرة، واحدة من التجليات التي تطفر على الذهن، وكأنها برق خاطف يساعد على فهم واقع إسبانيا.

فكرت في أن الأمر عبارة عن "النظر" إلى هذا الواقع من الداخل دون ممارسة العنف معه، وأن أترك نفسي لخطوطه الفعلية وتحولاته، وخطر على ذهني عنوان دون أن أتأمل فيه كثيرًا هو: إسبانيا بجلاء. وهذا شيء يبدو وكأنه تحدٍ ومناقض لما هو شائع. وكان

عندي انطباع يقول إنه يكفي أن ينظر المرء بأمانة لواقع إسبانيا، دون أن يقول بأنه مثل فرنسا أو ألمانيا أو إنجلترا، ودون القول إنه واقع غير عادي وغير مفهوم، إذا ما بدا هكذا في طريق البدء في فهمه. غير أن ذلك، أي النظر بتلك الطريق، ربما كان أكثر صعوبة مما يبدو ويتطلب منظورًا ذا نظرية لم تتشكل بعد.

بدأت منذ ٧ سنوات أو ٨ في تأليف كتاب بهذا العنوان، وقد سطرت فيه صفحات قليلة عندما حالت ظروف حياتي الخاصة الصعبة دون الاستمرار فيه. وعندئذ بدأت مرحلة في تاريخنا تنادي بقوة واستعجال استيضاح ما كنّا عليه، وما نحن فيه، وما يمكن أن نكونه، وما يجب أن نكونه، إذا ما أردنا أن نكون نحن.

وهنا أقول إنه من المناسب أن نحاول ذلك بالنسبة لإسبانيا، وهذا التبرير لا يمكن أن يكون "تبريرًا تاريخيًا".

خوليان ماريّاس

مدريد ١٦/ ٨/ ١٩٨٤

الفصل الأول

النشاز المفترض لإسبانيا

عندما يتعلق الأمر بموضوعات إنسانية، يجب أن نضع الجهل في الحسبان، وهنا لا أقصد "ما لا يُعرف"، فهذا دائمًا ما يكون غير محدود، بل أقصد ما هو غير معروف "ويجب معرفته". ويتحول هذا الجهل إلى عنصر غير مريح يتسبب أحيانًا في إزالة ما يعرف، ويقض أساسه، لأنّه يتركه غير كامل ومقطّع الأطراف، ودون تبرير وخارج السياق لدرجة أنه يضحي وكأنه خطأ.

لقد بُذِل جهد كبير في طريق بناء علم تاريخ بهذا الاسم، وهناك كبوات وقعت مؤخرًا أدت إلى إثارة الاضطراب بشأن أغلب ما تم التوصل إليه، ففي فترات زمنية سبقت، كانت هناك حاجة إلى "مواد" وبيانات ومعلومات، وأدت قلتها إلى زيادة صعوبة فهم الواقع التاريخي. أما في زماننا فالعكس هو الذي يحدث، أي هناك كثافة في المعلومات لدرجة أنه لا أحد يقدر على معرفتها، ولا نقول تمثلها. نحن لا نعرف إلا القليل عن الحروب الطبية medicas أو الحروب القرطاجية، لكن لا يمكن أن يكون هناك أحد لم يقرأ عناوين الأخبار والتعليقات حول الحرب العالمية الثانية.

تمثل علم تاريخ إسبانيا بوجود صعوبات ملحوظة حتى وقت قصير، فحتى عام ١٩٢١م كان خوسيه أورتيجا إي جاسيت يقول: "الحديث عن تاريخ إسبانيا هو بمثابة الحديث عن شيء مجهول". والأكثر من ذلك خطورة هو أن الإسبان قد بدأوا منذ القرن

الثامن عشر يتأملون ما كتبه الباحثون الأجانب، خاصة الفرنسيين والإنجليز، ثم تلاهم الألمان بعد ذلك، وقبل ذلك كانت هناك عناية غير معتادة لتعليقات سفراء دول أخرى، وخاصة الدول الإيطالية مثل فينيسيا وفلورنسا. ولا يمكن لعاقل أن يولي عناية كبيرة لما يمكن أن يكون مجرد كلام مرسل، وكلام غير رصين وقيل وقال وحكايات تميل إلى ذلك أكثر من الميل إلى التاريخ. غير أن الصيت الذي عليه ما هو أجنبي وقلة الأخبار أدى إلى خلق اتجاه يقبل بما يقوله هؤلاء السادة على أنه أمر موثوق منه".

وفيما يتعلق بالمؤرخين أو المنظَّرين للسياسة فما لا شكّ فيه أن البعض منهم كان أفضل من الإسبان، لكنهم لم يكونوا إسبانًا: أي أنه ينقصهم ما كان عليه الإسبان، أي الحدس بالواقع. ليس هناك أصعب من معرفة دولة أجنبية، ذلك أن تراكم البيانات لا يحل أبدًا محل الانطباع المباشر ومعايشة نمط حياة. إن معرفة أي دولة أجنبية إنما هو أمر مجرد ومكوّن من أجزاء تستعصي على الفهم في حد ذاتها، اللهم إلا إذا كان قد عاش فيها فترة طويلة. وهنا نجد أن الأغلبية العظمى من هؤلاء الأجانب الذين كتبوا عن إسبانيا لا يعرفونها إلا قليلًا، أو لا يعرفونها على الإطلاق. كانوا إذن يسلطون الضوء على بعض الوقائع أو بعض الأقوال التي تحدث لديهم انطباعًا ما لسبب أو لآخر، ثم يقومون بعد ذلك بتقديم تأويلهم العام للوضع، ولما كان الأعم الأغلب من هذه الأحداث زائفًا أو ليست ذات أهمية، أو أن لها أهمية غير تلك التي تنسب إليها وتتحول بعد ذلك إلى موتور يسهم في تشكيل الصورة العامة، فإن الناتج عادة ما يكون هو الخطأ ببساطة. غير أنه لمّا كان هؤلاء المؤلفون أرفع درجة من حيث الشهرة وتقنيات العمل مقارنة بالإسبان، نجد أن الإسبان يعتمدون عليهم، ونادرًا ما يجرؤون على التخلي عن هذه الأعمال (أو استخدامها بشكل نقدي)، ثم تنتقل هذه التشوهات كاملة إلى رؤيتهم هم - وكان من الضروري الحديث في خفية عن التصرف اللامسئول من إنسان مثل مونتسكيو وعن فقدانه المعرفة والفضول العلمي فيما يتعلق بإسبانيا. وهنا يمكن الإشارة إلى ما أسهم به في إثارة الخلط في أذهان الإسبان.

أرى في كثير من الأحيان أن بعض المؤلفين يذكر واقعة ويذكر نصًا ويقدم خبرًا موثقًا، وهنا تصيبني الرعدة، لماذا إذن ما كان حقيقة؟ السبب ببساطة هو أن ذلك الذي يتم تقديمه إنما هو "عنصر" قابل للمقارنة بألف عنصر آخر مساوية. أما انتباه ذلك القارئ الذي يريد أن يفهم نجده يتركز في هذا الجزء الذي ورد ذكره والذي لا قيمة له، وينطلق من هذا إلى تأويل جزء من واقع يقوم بتشويهه بذلك. بمعنى أن تلك "الحقيقة" المنعزلة عن سياقها والتي تم تسليط الضوء عليها بشكل غير مبرر، نظرًا لغيبة حقائق أخرى كثيرة، تقوم على أنها تزييف يحول دون رؤية حقيقة. هناك مؤلفون لديهم مهارات متميّزة في باب تقديم الأحداث الصغيرة غير ذات الدلالة على أنها أحداث ذات دلالة كبيرة، مثل الاستشهاد البراق الذي يتم استخراجه من نص، وهو لا يكاد يكون ذا أهمية، أو الكلمات الخاوية التي يتفوه بها أحد ما. ثم يقوم هؤلاء المؤلفون باستخدام هذه النقاط في رسم أحداث معينة أو عصر معين أو ملامح بلد بكامله. ويؤيدون مقولاتهم بالهوامش أسفل الصفحة. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة نشر هذا التأويل غير المبرر، وتناقله وتكراره وانتقاله من يد ليد، ويتم الانطلاق من كل هذا وكأنه الواقع نفسه.

هنا نذكر مثلًا واحدًا. ففي "أطلس التاريخ العالمي" الألماني، الذي ترجم إلى لغات أخرى هناك ملاحظة: "خلال الفترة من عام ١٥٩٨ حتى ١٦٢١ ترك فيليب الثالث حكم الدولة المنهكة للرجل محل ثقته، وهو كونت ليرما، أكثر لص في إسبانيا" يشير إلى أن من المسلم به أن الدولة كانت منهكة عند وفاة فيليب الثالث، ويطلق على "كونت ليرما" على "دوق ليرما"، غير أن هذا هو الذي يتم تعريفه على أنه "أكبر لص في إسبانيا" ويكاد الوصف يصبح لقبًا رسميًا. فما هو من هذه التسمية؟ عندما حصل دوق ليرما على درجة الكاردينال عام ١٦١٨، سرى في مدريد منشور ساخر نُسب أحيانًا إلى إي بيّا ميديانا villamediana، كان يقول: "حتى لا يموت شفقًا/ أكبر لص في إسبانيا/ ارتدى ملابس ملونة de Colorado". فهل هذا كاف لينتقل بكل قوة إلى كتاب علمي يتم فيه إصدار حكم مكون من ثلاثة أسطر على مُلْكِ بأكمله؟

يمكن العثور على مئات الأمثلة من هذا القبيل في كتب أجنبية وإسبانية، وقد تكررت بشكل لا حد له، دون أي نقد. غير أنني هنا ألحُّ على أن الأمر الخطير ليس متمثلًا في التزييف المحتمل بل في تشويه "سمعة"، وهو الأمر الذي يعني الاهتمام "الحصري" بوقائع جزئية، وغالبًا ما تكون صغيرة. ولنر ما هي النقاط الرئيسية التي ارتكزت عليها صورة إسبانيا كبلد "نشاز" anormal، وبالتالي فهو بلد غير مفهوم.

المورو:

هذه التسمية الدارجة –المورو– هي اللفظة الأكثر مناسبة وحقيقية، فعندما يجري الحديث عن "العرب" وعن الغزو العربي، وعن إسبانيا العربية، يُنسى أن العرب كانوا أقلية في صفوف الغزاة الذين كانوا من البرابرة في أغلبهم، وهنا لم نتحدث عن الموجات التي أتت بعد ذلك –المرابطون والموحدون– وسيطرت على الأندلس. فالمورو (أو المورسكيون) كانت العبارات المستخدمة في إسبانيا، وهي عبارات دارجة وأدبية، وهنا يبدو من المناسب الحفاظ عليها وعدم إحلال ألفاظ أخرى محلها، والتي تعتبر غير صحيحة في حقيقة الأمر.

حسن، ارتبط المورو بصورة إسبانيا لدرجة أن هناك توجّهًا لشرح كل شيء من خلال ذلك، سواء فيما يتعلق بوجودهم أو غيابهم. وخلال السنوات الأخيرة التي شهدنا فيها أن الدراسات التاريخية الأكثر دقة قد حصرت دور المورو في الإطار الواقعي، ظهر بقوة التأويل الجديد ـ وخاصة القادم من الخارج مدفوعًا برؤية شكلية ـ وربما ذا بعد أوسع وغايات أعمق.

كان من المقولات المتداولة اعتبار المورو على أنهم العنصر "المتحضر" كمقابل للفظاظة البدائية التي عليها إسبانيا المسيحية، وتم التأكيد على أن مصدر الثروة الإسبانية يكمن في الحرفية والمهارة في المجالات الزراعية، مع نسبان الرومنة. وتكرر، بشكل دائم التأويل

"العربي،" أو "المور" لإقليم الأندلس رغم التطور الهائل الذي شهده قبل الغزو بألف عام (ووصل الأمر إلى ألفي عام في بعض الحالات).

أضف إلى ما سبق أنه جرى بشكل غير منطقي، رسم صورة بائسة للقرن السادس عشر. لنر في هذا المقام التعليقات الحديثة حول قصة "شاطر تورمس"، كما أنه جرى تفسير الفقر الذي عاشته إسبانيا خلال القرن السابع عشر، بأن مردّه طرد الموريسكيين عام ١٦٠٩م حيث إنهم كانوا قد حافظوا عليها كمصدر للثروة.

في مقال لخوسيه أورتيجا إي جاسيت بعنوان "فيما يتعلق بالسلبية...." الذي نشر في لندن عام ١٩٣٨ في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، نجده يقول: "في شهر إبريل من هذا العام نجد مراسل صحيفة تايمز في برشلونة يرسل إلى الصحيفة التي يعمل مراسلًا بها تقريرًا يُضمنه البيانات الدقيقة والأرقام المحددة لوصف الموقف.

غير أن السند المنطقي الذي اعتمد عليه المقال والذي تقوم عليه جميع هذه البيانات الدقيقة والأرقام المحددة يرتكز على افتراض، وكأنه أمر معلوم من الدين بالضرورة، ألا وهو أن أجدادنا القدامى هم المورو. وهذا أمر كاف للتدليل على أن ذلك المراسل، بغض النظر عن حرفيته ومهنيته وحياديته، غير قادر بالمرة على الحديث عن واقع الحياة الإسبانية".

كان هذا الإلحاح على وجود المورو كافيًا لفصل إسبانيا عن أوربا، وذلك حتى يمكن النظر إليها على أنها شيء مختلف وبعيد عن السياق. غير أنه لم يتم استخلاص النتيجة من ذلك التي تتمثل في التعرف على خصوصية الوضع، بل تم التوجه في الوقت ذاته إلى تشبيهها بأمم مثل فرنسا أو ألمانيا أو إنجلترا، وتم الحكم عليها استنادًا إلى الصورة التاريخية التي عليها تلك البلاد، وبالتالي زادت وتدعمت الصورة غير الطبيعية ومعها الصورة غير المفهومة وربما اللاعقلانية.

من الواضح أن الغزو الإسلامي لإسبانيا عام ٧١١م واستمرار السيطرة الإسلامية حتى عام ١٤٩٢م واستمرار بقاء بعض السكان الموريسكيين حتى بداية القرن السابع عشر، واستمرار آثار امتدت في جميع مناحي الحياة الإسبانية اللاحقة، واستمرارها حتى يومنا هذا، إنما هي عناصر حاسمة يجب أخذها في الحسبان إذا ما أردنا أن نفهم إسبانيا، كيف كانت وما هي عليه الآن. غير أن وضع ذلك "في الحسبان" وهو بشكل تقريبي نقيض استخدام هذه العناصر كتفسير آلي لكل شيء وكأنه المفتاح -دون دراسة أو تحليل- الذي تصدر منه جميع التأملات بشأن التركيبة والبنية والموروثات والمشروعات المرتبطة بالمجتمع الذي تتم محاولة فهمه.

محاكم التفتيش:

أما الصورة الثانية التي ترتبط بشكل لا يتغير بصورة إسبانيا، فهي محاكم التفتيش. لا يهم في هذا المقام أن تكون هذه المحاكم قد أنشئت خلال القرن الثالث عشر. وقد سبق هذه الفترة نمط آخر منها غير مؤسس، تمثل في مطاردة الملاحدة في جنوب فرنسا خلال القرن السابق على ذلك. وأنها كانت بابوية وأن تأثيرها في فرنسا كان متمثلًا في القضاء على هراطقة مدينة "ألبي" جنوب فرنسا، والهراطقة "القطر" Cataros*، وأن دخول محاكم التفتيش إلى إسبانيا خلال العصور الوسطى قد اقتصر على مملكة أرغن Aragon، ولم يصل إلى قشتالة أبدًا، ولا يهم أيضًا أن محاكم التفتيش الإسبانية التي أقرها الملوك الكاثوليك في نهاية القرن الخامس عشر لم تكن شديدة الاختلاف عن محاكم أخرى كنسية أو مدنية كانت موجودة في جميع أنحاء أوربا، ولا يهم القول إن عدد ضحايا هذه المحاكم كان أقل بكثير من ضحايا الصراعات الدينية في فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا، ولا يهم أن قوتها وسطوتها كادت أن تختفي تمامًا خلال القرن الثامن عشر، بينما استمرت في أوربا تلك الفظائع المتعلقة بمطاردة السحرة في وسط أوربا، ولا يهم أنه مع نهاية القرن

---

* نسبة إلى الهراطقة الداعين إلى التفتيش، عوضًا عن العبادات في العصور الوسطى (المترجم).

الثامن عشر كان يتم فرض عقوبة على جرائم دينية بقسوة شديدة في أماكن أخرى - قارن في هذا المقام عملية التعذيب البدني الذي تعرض له فارس دي لا بارّي في فرنسا "بالمحضر" الذي أدين به أولابيدي والذي حظي بصدى كبير، كما ظل ماثلًا لمدة أطول.

أضف إلى ما سبق أن المرحلة الأكثر نشاطًا في أداء محاكم التفتيش توافقت مع العصر الذهبي، لم تحل بهذا أن ينظر إليها على أنها المسئولة عن "التخلف" الثقافي لإسبانيا، كما لم يؤخذ في الحسبان أن إعدام المثقفين البارزين - مثل توماس مور، وفاييني وميجيل سيرفيت وجيور دانو برونو - لم يكن لمحاكم التفتيش الإسبانية أي صلة به.

حقًا لقد كانت هذه المؤسسة منفّرة، لكنها ليست في هذا المقام أكثر من غيرها الأخريات التي عفا عليها النسيان، أو أنها أفظع من أشكال قمعية أخرى وبربرية وذات طابع أقل استدامة رغم أنها كانت أكثر دموية بشكل كبير، مثل تلك المطاردات الدينية في إنجلترا بين إنريكي الثامن وإيزابيل الأولى، كما استمر الحال بعد ذلك أيضًا. هناك أيضًا الحروب في فرنسا وألمانيا وما بهما من عنف غير مسبوق. والشيء الغريب أن ما أفرزته محاكم التفتيش بصفة عامة أدى إلى حيود في النظر إلى الجوانب الأكثر خطورة وقتامة، وهذا ما سوف أتحدث عنه في مكانه.

تدمير العالم الجديد:

هناك نقطة أخرى ترتبط بصورة إسبانيا وظلت حية طوال قرون ألا وهي أن إسبانيا شعب يقوم "بتدمير" الحضارات الأمريكية، ويقوم كذلك بالقضاء على الشعوب التي تسكن القارة طالما كان ذلك ممكنًا. ويلاحظ أن الصورة والتعبير نفسه لما مصور هو كتاب فراي بار تولو ميه دي لاس كاساس بعنوان "دراسة شديدة الإيجاز حول تدمير الهند" (أشبيلية ١٥٥٢)

وحول القيمة التاريخية لهذا الكتاب وانحيازه ومبالغاته الشيطانية، يمكن أن نشير إلى كتاب رامون مننذث بيدال بعنوان "الأب دي لاس كاساس: ازدواج شخصيته" (١٩٦٣)، وهنا لم يرد هذا الكورس الضخم أن يعنى به، وهو كورس مكون من "كثير من هؤلاء الذين يعنون بهذا السلوك من لطم الخدود وشق الجيوب" على حسب قول مننذث بيدال في مقدمة دراسته.

غير أن ما يبدو مهمًا بالنسبة لي، لا يتمثل في حقيقة أو زيف هذه الاتهامات، بل يتمثل في أنها وقد تعلقت ببعض الوقائع الخاصة بغزو أمريكا، وترجع إلى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر والعقود الأولى من القرن السادس عشر التصقت وبشكل دائم بتاريخ إسبانيا "بالكامل" وحالت دون رؤية "واقع" أمريكا الإسبانية في النصف الغربي للملكية الإسبانية وبالتالي نجد أن هؤلاء الذين عنوا بهذه القضايا أو أرادوا أن يرسموا صورة عن العالم قد أصيبوا بالعمى، اللهم إلا ما ندر.

ومعنى هذا أنه تم النظر إلى إسبانيا على أنها دولة "هدّامة" الأمر الذي أدّى إلى عدم النظر في أنها كانت "البنّاء" الأكبر بعد روما، مما أدى إلى عدم فهم ما كانت عليه أمريكا المتحدثة بالإسبانية (وليست البرتغالية) وما هي عليه، حيث ما زالت ماثلة في الأذهان صورة ومفاهيم لا تكاد تتفق مع الواقع. وقد أدى هذا إلى خلل خطير في رؤية العالم، كما أن الأمر الحاسم هو أن هذا الخلل يؤثر على تلك الدول التي تتعرض لهذا الخلل، ويصل الأمر في هذا المقام إلى أن أبعاد الخطأ بالنسبة لهذه تعتبر العقبة الكبرى التي وجدتها في طريق مسارها التاريخي واستقرارها وازدهارها اعتبارًا من بداية استقلالها.

الانحطاط:

الانحطاط - بالبنط العريض بداهة - هو الملمح الرابع الذي يرافق منذ وقت مبكر التأويلات الداخلية والخارجية المتعلقة بإسبانيا، والأمر المهم في هذا المقام هو البنط العريض. فأن تكون إسبانيا قد عانت انحطاطًا فهذا أمر بديهي وعادي للغاية، وفي هذا

المقام يمكن الإشارة إلى تواريخ جميع الدول تقريبًا لنرى أن البعض منها عانى الانحطاط لفترة طويلة بينما عانت دولة أخرى لفترة قصيرة، غير أن المثير للانتباه في الحالة الإسبانية هو ما يمكن أن نطلق عليه أن الانحطاط "أصبح اسمًا على مسمى". وليس الأمر في أن إسبانيا عانت الانحطاط، بل يبدو الأمر، في نظر الأجانب، وكذا الإسبان، الذين هم ربما ليسوا أقل عددًا من الأجانب بل ربما أكثر، وكأنه "عبارة عن انحطاط".

ليس من الواضح متى بدأ الانحطاط، لكن من الواضح أنه بدأ خلال القرن السابع عشر وربما في منتصفه، غير أنه سرعان ما بدأ توجه لتأخير بداية الانحطاط: أي إلى العقود الأولى من القرن، أي في نهاية القرن السادس عشر، حيث ما زال - آنذاك - فيليب الثاني في سُدَّة الحكم. وبالنسبة للتوجه الحالي بشأن الانحطاط فإنه يمتد حتى عصر الملك كارلوس الخامس -وهنا علينا أن نتذكر التعليقات التي أدلى بها أحد الشُطار- وعادة ما يتم التنويه إلى البدايات الأولية "الهامشية" لذلك إلى عصر الملوك الكاثوليك، وبالتالي فإن "الانحطاط" يختلط بالعظمة والهيمنة والعصر الذهبي، ويتم إلغاء كل هذا. وسوف يفكر البعض في أن هذا غير ممكن، وأنه ليس إلا كاريكاتورًا. وهنا أدعو إلى قراءة فيها بعض الإمعان، ما يُكتب منذ ما يقرب من عشرين سنة وسوف يرى القارئ فيها إذا كان ما أقوله يستند إلى شيء أم لا.

من الطبيعي أن يتساءل المرء عن نهاية الانحطاط، غير أن الافتراض العام المقبول هو أن هذا الانحطاط لم ينته، وفوق هذا أنه لن ينتهي رغم أن هذا المفهوم الأخير لا يتم التصريح به علانية.

وسوف يفكر البعض أن هذه الصورة هي صورة رسمها أجانب عدائيون أو أقليات منشقّة وغير راضية ونقدية ومتعدّدة. لكن الأمر ليس كذلك، فالأنماط التي تقرّظ ما هو إسباني ظاهريًا، أي تلك التي اعتدنا أن نسميها - أي تسمية كل أنواع النقد - بأنها مضادة لما هو وطني، أي تلك الرؤى النقدية التي لم تسمح بإمكانية التشكيك في "عظمة"

إسبانيا هي أيضًا التي قامت، وبإلحاح شديد، على التقليل من شأن كل ما هو ذو قيمة من إنتاج بلادنا، واستخدمت في سبيل ذلك حججًا عدة، مثل البدع والأوربة والثورية والتشاؤم والليبرالية. ووصل الأمر في هذا المقام إلى الرغبة في جعل "نهضة" إسبانيا، بعد عدة قرون من رفض ذلك، تبدأ من الفترة الأكثر إشارة للأسف في تاريخنا ألا وهي الحرب الأهلية، حيث وصل الأمر إلى ذروته في هلاك حيوات كثير من الإسبان وتدمير الأعمال الفنية والإمكانات المتاحة.

وإذا ما كان "الانحطاط" أمرًا جوهريًا في حياة بلد فمن البديهي أن هذا البلد هي نموذج في "النشاز". حسن، نشير في هذا المقام إلى أن هذا المفهوم، الذي لا يجرؤ أحد على صياغته بتلك الكلمات، هو المحور الأساسي للتأويلات الأكثر شيوعًا، وهذا منذ ثلاثة قرون على الأقل، للواقع الإسباني، ويندرج على المستقبل أيضًا.

الفسيفساء:

هناك عنصر خامس نورده في نهاية المطاف، وهو عنصر حديث العهد ويتبدى من خلال الرؤى الأكثر قبولًا عن إسبانيا، كما أنه يدعم الانطباع بالنشاز العميق للبلاد. وترجع أصول هذا العنصر إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر رغم أنه قد تم البحث عن جذور تعضد هذه الرؤية أكثر قدمًا، أي في عصور لم تكن فيها الأمور تُرى على هذا النحو. وكان لهذا العنصر تطور كبير خلال السنوات الأخيرة. وهنا أقصد بالقول الفكرة التي تقول إن إسبانيا بمبعد عن أن تكون أمة هي خليط أو فسيفساء من الشعوب ليس فيه الكثير من التجانس وهي شعوب لا تربطها صلة ببعضها.

أما جذور هذا التأويل فهي مزدوجة، فمن جانب هناك من يرى أن "ما يقال" هو تعبير عن الواقع، دون أن يتوقف ويتساءل عن سبب قول ذلك، وفوق هذا ما إذا كان ما يقال حقيقة أم لا، ومن جانب آخر، هناك الجهل، بمعنى أن الجهل الذي يعانيه كل بلد

عن الآخر يتسم بأنه عظيم، كما أن هناك بعض الأحداث أو الملامح التي تؤثر على المرء ومن المعتاد النظر إليها على أنها أمور تخصه هو وليس لها علاقة بالآخرين.

لا يؤخذ في الحسبان على الإطلاق أن إسبانيا كانت أول أمة أوربية بالمعنى الحديث للكلمة وكانت مخترعة "الأمة"، من حيث هي نمط سياسي واجتماعي، على أنها وحدة تستهدف التعايش وأنها تختلف عن العصور الوسطى، وبالتالي فإن الوحدة الفعلية لإسبانيا كانت شديدة التقدم في عصور كانت فيها باقي الأمم الأوربية بعيدة عن هذا المنال، لدرجة أن وصل الأمر ببعضها أنها كانت بعيدة بعدة قرون.

يتم إلقاء الضوء على بعض الأحداث أو التوجهات "الانفصالية" في إسبانيا ومنها -على سبيل المثال- تلك التي تعود إلى القرن السابع عشر، ولكن دون النظر إلى أن ذلك لم يكن يحدث في أمم أخرى، لأنه لم يتم التوصل إلى الوحدة، بمعنى أن عناصرها التكوينية كانت في حالة انفصال أو انقسام.

ومن جانب آخر، يلاحظ أن الجانب اللغوي هو الجانب الذي يتم الإلحاح عليه، وبالتالي يعتقد أن إسبانيا فسيفساء مكوّنة من عدة لغات. وحقيقة الأمر هي أن التعددية اللغوية للغالبية العظمى من الدول الأوربية، وهي دول أكثر تجانسًا بالمقارنة بالدول الآسيوية والأفريقية، وأن ذلك كان موجودًا في أمريكا قبل عملية الدمج في اللغات الثلاث الكبرى، وهي الإسبانية والبرتغالية والإنجليزية. وهي أكبر بكثير مما هو موجود في إسبانيا. غير أن هذا لا يعرفه إلا القليلون الذين يعتقدون أن اللغات الرسمية يجري التحدث بها بشكل شامل في باقي الأمم الأخرى، وينسون أن تحت هذا الغطاء هناك تنوع كبير من اللغات المحلية، وهو مقيد كما أنه ليس مكتوبًا في كل الحالات. وينسون أيضًا أن الدول التي نجد فيها أن اللغات الرسمية متنوعة إنما يخضع إلى أمر بديهي وهو أن كل شطر من مكونات الأمة يتحدث لغة واحدة وليس اللغات الأخرى. وفي الوقت الذي نجد فيه أن إسبانيا توجد بها لغة عامة مشتركة كما توجد بها لغات أخرى، دون ضرر أو ضرار، يتم التحدث بها وكتابتها محليًا من قبل أشخاص يكتبون الإسبانية ويتحدثون بها.

يمكن القول إن جميع الأمم الأوربية – ما عدا بعض الأمم الصغيرة جدًا ولو أن هذا يجب تأمله عن قرب - إنما هي أمم تمثل وحدة مصغرة مقارنة بإسبانيا، وباستثناء فرنسا، حيث نجد أن إسبانيا بعيدة عن أن تكون فسيفساء مكوّنة من عدة دول صغيرة بل هي أمة ينخرط فيها الأفراد في إطار أقاليم تتسم بقوة الشخصية وحيويتها.

أشرت هناك إلى ملامح خمسة، وإذا ما كانت حقيقية فإنها تشير إلى حالة "نشاز" إسبانية. وحقيقة الأمر أن هذه العناصر كلها تتجلّى بقوة ملتصقة بالفكرة المعتادة عن بلدنا ويشارك فيها عدد غير محدود من الإسبان. وهذا يفسّر السبب في توجهنا الخاص باتخاذ منظور أكثر أمانة وملاءمة إذا ما أردنا أن نفهم إسبانيا. سوف نحاول ذلك.

الفصل الثاني

ما هي إسبانيا؟ صياغة جديدة للسؤال

نحن في إسبانيا، عام ١٩٨٤، إذا ما رجعنا إلى الوراء قرنين أو ثلاثة أو خمسة فمن البديهي أننا ما زلنا في إسبانيا، وإذا ما ذهبنا إلى أبعد من هذا زمنيًا ولو ألف عام فإن الأمر يضحي غير واضح تمامًا، فهل نحن في برافيا أو في أوبيدو أو ليون أو برشلونة أو طليطلة أو قرطبة أو غرناطة؟ هل إسبانيا هي هي إسبانيا المسيحية وإسبانيا الإسلامية؟ وإذا ما ذهبنا زمنيًا إلى أبعد من هذا، أي إلى القرن السادس على سبيل المثال، سوف نجد أن الصعوبات تختلف: فهل كانت إسبانيا هي إسبانيا القوطية؟ يرى أنه تم نفي ذلك مؤخرًا بشكل فيه رسمية ولأسباب لا تنفيها رغم أنها ربما كانت غير كافية. علينا أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، أي إلى نحو ألفي عام قبل هذا التاريخ الذي وضعناه: هنا يبدو أن الأمر يتحوّل إلى مشكلة عويصة عندما نقول إننا في إسبانيا Espania رغم أننا في هسبانيا Hispania في حقيقة الأمر، فهل كان كل من سينكا ولوكانو إسبانًا؟ هناك القليل من الذين يمكن أن يؤكدوا ذلك، وهنا ربما هل سنبقى هادئين إذا ما قلنا ببساطة إنهم لم يكونوا إسبانًا دون أي حذف أو إضافة أو تمحيص؟

إننا ننطلق - وهذا أمر واضح - من المجتمع الحالي، وهو المجتمع الذي لم يتوقف عن التغير، لكن هذه التغيرات - حتى درجة معينة - لا تشير إلى أن هذا المجتمع

ليس "نفسه" (من الطبيعي ألا يكون المجتمع نفسه ولوكان ذلك في فترتين تاريخيتين متقاربتين للغاية). غير أنه إذا ما ابتعدنا بما يكفي، فإننا نجد أنفسنا في مجتمع آخر وبلد آخر رغم أنه قد يكون نفس المكان جغرافيًا: من الواضح أنه في عام ١٥٠٠م لم يكن هناك أحد في الولايات المتحدة أو في الأرجنتين.

ومع هذا، لا يمكن أن نستبعد بشكل مطلق ما تعنيه الأراضي، وخاصة عندما يتعلق الأمر بقطع ليست كبيرة جدًا، كما أنها محدّدة بشكل جلي من الناحية الجغرافية: هناك الجزيرتان البريطانيتان الكبيرتان، وهناك شبه جزيرة إيطاليا أيبريا ووادي النيل Helade (أرض الهلينيين) بما فيها من شبه الجزر والجزر القريبة والأرخبيل الياباني.

وعندما نتأمل وضع إسبانيا، نجد أن الحالة فيها تناقض، وهنا سوف أبادر بالقول إن ما هو أكثر أصالة في واقعها التاريخي هو أنها لا تتألف من أراض في بادئ الأمر، ومع هذا فإن أرض شبه جزيرة أيبيريا كانت ذات دور حاسم في تكوين إسبانيا على ما هي عليه. فمنذ عدة سنوات كتبت مقالة حول الواقع المجسد لإسبانيا حول أنماط المشهد الطبيعي بها[2]، وعند الحديث عن ملامحها البنيوية وجد أنها تشير لا محالة إلى ميلاد الأمة التي أصبحت على ما هي عليه. وليسمح لي القارئ بذكر الفقرات الأكثر أهمية في هذا المقام:

"تتسم إسبانيا بأنها بلد متنوع للغاية، فمن الصعب أن نسافر لمسافة خمسين كيلومترًا دون أن نرى مشهدًا جديدًا وغالبًا ما يكون هذا المشهد مختلفًا عن المشاهد السابقة، وفي هذا نقول بوجود إثني عشر إقليميًا، كل له شخصيته القوية سواء من الناحية الشكلية أو التاريخية....."

---

(2) "أراضي أرض إسبانيا" (في "خمس سنوات من إسبانيا" سلسلة بوريال، دار نشر: إسباسا كالبي ـ مدريد ١٩٨١م)، كتبت المقال بالإنجليزية في كتاب بعنوان:

The land of Europe, A photographic Exploration by Dennis stock (Kodansha International Ltd. Tokyo 1976).

"ومع هذا فإن شبه جزيرة أيبيريا هي وحدة واحدة قوية، وأرض واحدة يحيط بها المحيط الأطلنطي والبحر الأبيض المتوسط، كما أنها منعزلة بواسطة سلسلة جبال البرانس عن باقي القارة الأوربية. إنها أرض واحدة محدودة ومستقلة جغرافيًا ولها أجزاء ترتبط ببعضها ارتباطًا حميمًا..... هناك بنية عامة لشبه جزيرة أيبيريا، ألا وهي الهضبة الأكثر ارتفاعًا، مقارنة بالمتوسط العام الذي عليه الدول الأوربية، تحيط بها سلاسل جبلية أو جبال، أو تتخللها وبها القليل من الأراضي الوطيئة على شكل وديان قديمة لأنهار واهنة تصب في مياه البحر، أو وديان وفضاءات تغطيها الأشجار مثل أشجار البرتقال على الشواطئ الشرقية".

"يؤدي التغير المفاجئ في المشهد الطبيعي إلى أن يدرك من يتأمله أن هناك في المحيط القائم أشكالًا جديدة من الأراضي، وينبع المشهد بجوانب أخرى غير التي تُرى، وبدلًا من أن يكون المشاهد هادئًا في المشهد القائم نراه يشعر بمشاهد أخرى وشيكة، ويتولى كل مشهد منها إضافة أخرى، وهي كلها تترابط ببعضها. ليس الأمر إذن عبارة عن بنية ثابتة بل درامية....."

"الجبال داخل إسبانيا ببساطة ليست متركزة في كتلة واحدة أو منتشرة في جميع الأنحاء، فهناك مساحات واسعة توجد فيها الهضاب ـ وهذا هو الملمح الرئيسي لشبه جزيرة أيبيريا ـ وهناك آفاق مفتوحة ليجول فيها البصر إلى ما لا نهاية وكل هذا تحت سماء زرقاء وغير ملبدّة بالغيوم عادة، لكن هذه الهضاب موزعة أو مقسمة بين المناطق الجبلية التي تهبها التنوع وتحول دون الرتابة، ولا يمكن أن يقوم المرء برحلة طويلة في إسبانيا دون أن يمر بالهضاب، وتبدو جميع المشاهد الطبيعية الأخرى تضاريس لها، وهذا ما يحل محله الهضاب ويجعلها تتنحى عن المشهد ويحاصرها ويجعلها كأنها بين حوائط عالية من الصخور. ويمكن أن نرى انعكاسًا لهذه البنية الجغرافية في التطور التاريخي للبلاد وفي تكوين ملامح الشخصية الإقليمية التي تتسم بالقوة والارتباط الحميم ببعضها...."

"ليست قشتالة إسبانيا قاطبة في حقيقة الأمر، ومع هذا فهي من الناحية الفعلية والتاريخية الجزء المركزي لشبه الجزيرة والوحدة الكبرى سواء من حيث الأرض أو السكان، فقشتالة هي من الناحية التاريخية المكان الذي تلتقي فيه جميع الأراضي الإسبانية...."

"تؤدي ضخامة الهضبة الوسطى، خلافًا لما عليه الوديان من ضيق المساحة وكذلك الجزر والغابات، إلى أن يجول البصر في كل مكان باحثًا عما هو بعيد ويذهب دائمًا إلى ما هو أبعد من المكان القائم. تتابع الأبصار المسار الطويل للأنهار صوب البحر، وتفسر هذه البنية دور قشتالة في تكوين إسبانيا وتوجه الشعب الإسباني في وضع ورسم حدوده الأصلية والذهاب إلى ما هو أبعد من البحار، أي من إسبانيا إلى إسبانيات......" las Españas(البلاد الإسبانية)

"يجد المرء نفسه محاطًا بوجود البلاد بالكامل في أي مكان داخل إسبانيا. وقبل زمن طويل من وجود أي نوع من الوحدة السياسية، نجد أن أيبيريا أو هسبانيا Hispania كانت تعتبر كوحدة واحدة، ولهذا قلت قبل ذلك "داخل" إسبانيا. فقد كانت البنية الجغرافية لشبه جزيرة أيبيريا واحدة رغم أن السكان يمكن أن يكونوا موزّعين إلى شعوب صغيرة في صراع مع بعضها بعضًا وليس لديها جوامع مشتركة. كان السكان موحدين بالمكان الذي يعيشون فيه بينما كانت أجزاء أخرى من أوربا "غريبة".... كانت شبه جزيرة أيبيريا تبدو مؤهلة منذ بداية الزمن لتكون ملاذ الإسبان". وليكن واضحًا أنني ضد جميع أنواع الجبرية الجغرافية ـ جميع أنواع الجبرية. كانت الظروف مهيأة لتصبح على ما هي عليه من كينونة، ومع هذا كان من الممكن ألا تصل إلى ما هي عليه. وبشكل ما نجد أن انفصال البرتغال أحدث "تناقضًا" في الواقع الجغرافي من الناحية التاريخية، وكان أقوى من الواقع.

نجد أن الحرية والمصادفة [3] أمران مهمان في كل ما هو إنساني، وهذا أكثر بكثير من جميع "البيانات" على الطبيعية والاقتصادية والإثنية. ومن جانب آخر نجد التاريخ ينسب للحياة الإنسانية التي تتم في إطار الظروف وربما أمامها، وما لا يمكن القبول به هو ألا نضعها في الاعتبار وإلا لانزلقت خفية ووضعت قناعًا على المشروع الحر والمشروط للحياة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

وعندما نسأل: ما هي إسبانيا؟ فإن السؤال لا يتوجه في حقيقة الأمر إلى الاستفسار عن أرض أو عن وحدة إثنية أو عن "طابع قومي" ولا عن هوية غامضة دائمة، بل "منطلق السؤال هو الواقع"، أي إسبانيا القائمة الآن، أي المجتمع الذي يعيش فيه من يطرح السؤال، ودون ذلك لا يكون للتساؤل معنى، أو أن يكون له مدلول شديد الاختلاف مثلما يحدث عندما يتم التبحر في واقع مجتمع قد "زال". وحتى لو وصلنا إلى هذه الحالة فإن البحث يصبح عديم الجدوى إذا لم ينتقل من يقوم به، خياليًا، إلى ذلك المجتمع عندما كان قائمًا بالفعل، وإذا لم يقم بتخيل العيش فيه.

نتساءل ما هي إسبانيا ونحن ننظر إلى الواقع الذي يحيط بنا ونحن قد تكوّنا منه وهو يدفع بنا من الماضي ويرسل بنا إلى الأفق الخاص بمستقبلنا، أي إلى الغد الخاص بالمشروعات التي نشكل جزءًا منها. وبمقولة أخرى نتساءل عن واقع "تاريخي"، وعن "الدراما الجماعية" التي هي مجتمع. ومن الواضح أنه لا توجد دراما دون شخوص ودون مضمون. وهذا هو ما نستوحشه عادة عندما يجري الحديث عن إسبانيا ـ ولا أقول بوجود ذلك عندما يجري الحديث عن بلاد أخرى ـ وهذا هو بالتحديد ما أريد أن أقوله من خلال الصياغة القديمة: ما هي إسبانيا؟"

(3) انظر في هذا المقام الفصل الرابع والعشرين " الصدفة والخيال والحرية" من كتابي " الأنثربولوجيا ميتافيزيقية" ١٩٧٠- طبعة جديدة- دار نشر اليانثا- ١٩٨٣

الاستمرارية

لنفترض أننا نعود للوراء زمنيًا بما فيه الكفاية لنجد أنفسنا في مجتمع لا يمكن أن نقول عنه بدقة إنه إسبانيا. فهل يمكن أن نعتبر هذا المجتمع غريبًا، وأنه لا يمت لنا بصلة؟ لا يمكن أن يحدث هذا طالما توافر شرط، ألا وهو وجود استمرار بين ذلك المجتمع ومجتمعنا، بمعنى أن مجتمعنا "منبثق" من ذلك، رغم وجود تحولات يمكن أن نعتبرها أخرى، لكن ليست شكلًا آخر أو مرحلة من مراحله.

وعندما يقال على سبيل المثال إن "الأمريكان الحقيقيين" هم الهنود الذين يقطنون الولايات المتحدة، فإن لك ليس إلا زيفًا. فما يفهم على أنهم أمريكيون -أو بمقولة أخرى غير ملائمة أمريكا الشمالية- هم أفراد ذلك المجتمع الذي نسميه الولايات المتحدة. وهنا نقول إن ذلك المجتمع ليس من القبائل الكومانش وكيواس والشنيز والسيوكس... إلخ، بل هو من الآباء الداعمين، Funding Fathers، الذين استقرّوا في أراضي أمريكا الشمالية خلال القرن السابع عشر، كما أن المجتمع الأصلي الذي تألف منهم يرجع إلى المجتمع الإنجليزي (وبشكل أشمل البريطاني). وانضم إلى ذلك المجتمع عدد غير محدود من البشر القادمين من عدة دول من أوربا وآسيا وأمريكا نفسها، ومن بينهم هنود القبائل المذكورة الذين عاشوا على هذه الأرض قبل وصول الأوربيين، بمعنى أن هؤلاء الهنود هم "أمريكيون" (بالمعنى التاريخي للمصطلح" لأنهم ينسبون إلى مجتمع الولايات المتحدة، مثلهم مثل السود الذين أتى بهم كعبيد).

لنقارن الأمر بما حدث في المكسيك حيث تمثل النموذج الكامل ذو الدلالة في أمريكا الإسبانية. نجد المجتمع المكسيكي قام على "نيابة الملك" في "إسبانيا الجديدة"، ابتداء من إيرنان كورتيس، وبالتالي من إسبانيا كارلوس الخامس، ومن خلفوه، وكذا من سبقوه في الماضي الإسباني كاملًا. لكن هذا التكوين لم يكن من ذلك فقط بل كان كذلك من المجتمعات القائمة قبل ذلك وخاصة الأثتيك، أي المجتمعات التي "تطعّمت" بما هو

إسباني وبالتالي وصلت إلى شيء يمكن أن يطلق عليه المكسيك. أريد القول إن المجتمعات السابقة على وصول الإسبان هي ماضي المكسيك مثلما هو الحال بالنسبة لإسبانيا العصور الوسطى والعصر الحديث، وهذا الماضي ـ ماضي المكسيك، يمكن فهمه على أنه "آت" في آن معًا من هذا الأصل المزدوج. ويمكن تطبيق هذا الطرح، مع اختلاف الدرجة والنسبة والزمن، على باقي دول عالم أمريكا المتحدثة بالإسبانية والبرتغالية. وهنا أقول إنني استخدمت لفظة "التطعيم"، ذلك أن الأمر لا يعتبر مجرد ضم، فليس الأمر أن المجتمعات الأصلية قد اتحدت في مجتمع جديد نطلق عليه المكسيك، ذلك أن هناك جزءًا من إسبانيا هو الذي اتحد بالمجتمعات الأمريكية. وبالتالي فإن إسبانيا في جماعها لم تتأثر على الفور بذلك ـ نعم كان التأثير على المدى الطويل ـ إلا أن هذا الجزء كان يحمل معه مبادئ المجتمع الإسباني: المعتقدات والأفكار والتقديرات والمشروع والاستخدامات، إضافة إلى اللغة التي كانت فوق كل شيء، وبهذا نرى في المكسيك عملية انضمام، أي ميلاد مجتمع جديد.

وإذا ما أريد إقناعنا، على سبيل المثال، بأن إسبانيا القوطية لم تكن آنذاك إسبانيا - ومن جانبي فأنا بعيد عن هذه القناعة - فلا يعتبر هذا مبررًا للاستغناء عن تلك، إذ مما لا شك فيه أن إسبانيا تأتي كاستمرار للمجتمع القوطي. وعكس ذلك يحدث إذا ما تأملنا ما عليه Las vacceos أو ilergetes،(كلاهما من طركونة) حيث نجد عدم الاستمرارية الاجتماعية رغم إمكانية الإقرار بوجود استمرارية سلالية: فمجتمعنا لا يأتي من هؤلاء رغم إمكانية وجود دماء من أولئك الشعوب تجري في عروقنا.

غير أنه عندما نتحدث عن الاستمرارية غالبًا ما ننسى الطابع الجوهري لما هو إنساني: أي الكينونة صاحبة المشروع. يتم التفكير في الماضي وهذا ما فعلته حتى الآن، إذ تحدث عن مجتمعات منبثقة من مجتمعات أخرى سابقة، غير أنه من الضروري الآن أن نكمل ذلك المفهوم الخاص بالاستمرارية، حتى يأخذ قيمته الأكثر أصالة ألا وهي الاستمرار والمواصلة، يجب النظر إلى الاستمرارية على أنها تعني أن مجتمعًا ما ينتقل إلى

مجتمع آخر، وبالتالي نتدارك بذلك خطأ فادحًا ظل مسيطرًا على مدى قرنين على التاريخ والحياة التاريخية.

استشراف المستقبل والتقدم

استقرت في منتصف القرن الثامن عشر فكرة سرعان ما تحولت إلى عقيدة اجتماعية: إنها التقدم. فمنذ تورجوت Turgot وكوندورست Condorcet هناك الفكرة القائلة إن الإنسانية تخطو إلى الأمام، بمعنى أن آلية التاريخ هي التقدم. وفي نهاية القرن وعلى مدار القرن التاسع عشر ظلت التقدمية عقيدة معيشة ولها فعاليتها الكاملة. وبغض النظر عن أن التجربة خلال القرن العشرين هدمت تلك العقيدة، وأن لا أحد على يقين من هذه الآلية الجبرية، وبالتالي حلت محلها الفكرة الأكثر دقة والقائلة بإمكانية وجود عدالة ووجود تراجع أيضًا، هنا نجد أمرًا أكثر خطورة من الخطأ السابق، ألا وهو أن التقدمية قد حالت دون وجود الكيانية في عصر، ذلك أن أعينها كانت مسلطة دائمًا على الخطوة التالية وهكذا إلى ما لا نهاية. وبذلك نجد إدخال "مستقبلية" غريبة، لها بعد تعويض ظاهري يتمثل في سراب ما هو "نهائي" وهو بعد يُفْقد الجهود الأكثر ذكاء في فهم التاريخ: إنها الطبيعية عند فولتير، وهي "الناتج" النهائي عند هيجل، أي عندما تصل الروح إلى التعرف على ذاتها وهي حالة إيجابية عند أوجست كونت، أي الأمر النهائي الذي ليس بعده شيء، وهي الشيوعية كحالة نهائية للبشرية عند ماركس.

وعندما تقوم التقدمية بتحويل المستقبلية إلى أمر آلي وميكانيكي فإنها تلغيها، ولهذا تسقط المرة تلو الأخرى في فخ "التطور"، وهو نوع من الكشف عما كان ضمنيًا. ويتألف الوضع "المستقبلي" للإنسان بشكل معاكس، أي أنه ينظر إلى المستقبل على أنه مقدمة تخيلية لما لم يحدث بعد، ولو كان في شكل بذرة، بل هو تجديد ونوع من الميلاد ونوع من الاكتشاف المخترع لإمكانيات أصيلة.

يتسم كل موقف بأنه غير مستقر، بمعنى أنه منبثق عن موقف سابق ومتجه نحو موقف آخر! ولما كانت الحيوات الإنسانية عبارة عن مسارات ومشروعات وضغوط يمكن أن تتمثل صورتها في السهم فإن أي مجتمع هو عبارة عن قوى موجهة، بمعنى أنها ذات منظور vectorial[4]. وهنا فإن البنية الاجتماعية لها مسارها، وهي مبرمجة تأتي من الماضي وتسير نحو مستقبل كلاهما حاضر فيها. كتبت منذ ثلاثين عامًا أقول "لو أخذنا مقطعًا من الزمن لوجدنا أنه يفصح عن الزمنية الجوهرية للبنية، وكأننا عندما نقطع عرقًا يتفجر منه الدم الذي كان يسير فيه".

وعلى هذا فإن أي بنية اجتماعية لا يمكن فهمها إلا من خلال المضمون، ويعني هذا أنه يتم النظر إلى الغاية الجماعية ـ التي لا تنحصر في الغايات الفردية ـ التي تجعلها حية. هذه الغاية التي تنقلنا من موقف لآخر... فإذا رمزنا للاستمرارية التاريخية على أنها مجموعة من الخيوط التي تتداخل في نسيج الحياة فإننا نجد أن هذه الخيوط طويلة، بمعنى أنها تمتد عبر الزمن وتأتي من مسافة بعيدة وتبتعد صوب المستقبل. حسن، إن ما يتعلق بهذه الصورة هو العقدة، فالخيوط تدخل في عقد لكنها لا تنتهي عند العقدة بل تمتد إلى ما هناك في كلا الاتجاهين. ومع هذا هناك شعور قديم يقول إن الموقف هو نوع من تفكك العقد، أي عقد يتم فكها أو قطعها ـ وأحيانًا تُغرق - فك العقدة هو نوع من الحل - الحل هنا بمعنى فك العقدة للدراما، فالبنية العُقِدية للحياة الإنسانية والتاريخ ترتبط بالتوجه الدرامي"[5].

هذا البعد الاستشرافي هو الذي يولد الاستمرارية الأكثر عمقًا وصدقًا، لكن لا يعني أن هذا في مجتمع ما، أو في أمة ما، على سبيل المثال، يتسم بالوضوح في أذهان

---

(4) فيما يتعلق بالمصطلحات والمفاهيم الواردة هنا، راجع كتابي: البنية الاجتماعية (١٩٥٥) والأنثربولوجيا الميتافيزيقية (١٩٧٠).

(5) البنية الاجتماعية.

الأفراد، أي وجود مشروع حيوي له ملامحه، كما أن أنماط مشاركة هؤلاء البشر في المشروع الجماعي تتسم بالتنوع والتعقيد الشديد، إلا أن هذه الغاية هي مكوّن ضمن غاية فرد منهم، بمعنى أنه عندما يستشرف الفرد ذاته من حيث هو رجل أو امرأة يرى أنه إسباني أو ألماني أو فرنسي أو أي شيء آخر ويجعل من الغاية الوطنية نبراسه، رغم أن ذلك يمكن أن يكون في شكل الاختلاف في وجهات النظر.

وعلى هذا نجد أن كل عصر وكل موقف تاريخي هو شكل حياة يتمثل في "الكيان الدرامي" الذي ينسب للحياة الإنسانية وأن هذا النمط يختلف عما يتعلق بالأشياء. وهنا لا يجب الوقوع في الموقف التقدمي ذلك أنه موقف ينتزع من كل موقف معناه ودلالته باسم المرحلة التالية وبذلك يتكرر الأمر إلى ما لا نهاية، وينهي الأمر بهذا الشكل إلى تفريغ التاريخ من معناه واكتماله. لكن ما هو حقيقي هو أن "كل موقف هو مستقبلي" أي أنه يدنو نحو المستقبل ويتوجه إليه، ويسبقه خياليًا، وبالتالي فهذا التوجه نحو الأمام هو ما يشكل المستقبل، وعلى هذا فإن أي مجتمع قد اتحد في إطار الاستمرارية بمجتمعنا، يكون ذلك عندما يتوفر له العنصر الاستشرافي الذي يقود إلى الحاضر من خلال عدة أنماط مُرادة، وبالدرجة التي نتمكن فيها من أن نكتشف في مجتمع ما قديم نزوعًا نحو مجتمع آخر وهذا النزوع قاد إلى آخر، الأمر الذي عكس لنا هذا الواقع الذي نسميه إسبانيا، عندئذ يمكننا القول إن السلسلة كاملة تُنسب إلى هذه المجموعة الدرامية التي تعطي معنى كاملًا للعبارة التي تقول "نحن معشر الإسبان".

موارد ومشروعات:

عند طرح سؤال ما هي إسبانيا، نشعر بالتردد، فليس الأمر عبارة عن "شيء" ولا عن أرض عليها سكانها التي ولدتهم أو الذين قدموا إليها، كما أنها ليست دولة أو كيانًا سياسيًا يمكن أن تتعرض لتغيير جذري، وليس الأمر مجرد وحدة إثنية يمكن ألا تكون موجودة. يعني وجود مجتمع ووجود نظام فيه الكثير من الأمور السارية مثل

التعامل والمعتقدات والأفكار والتقديرات والمشروعات التي يجابهها الفرد وعليه أن يعتمد عليها.

إلا أن هذه الأمور السارية ليست جامدة بل هي في حالة حركة، ولها جذورها وتكوناتها واكتمالها وتوجهاتها وخمولها وحلول أخرى محلها. وبعد مرور فترة من الزمن نجد أن جماع الأمور السارية في مجتمع ما يمكن أن يكون مختلفًا للغاية، وبالتالي فالأمر الحاسم هنا، كما رأينا، هو ألا توجد قطيعة، وأن ينشأ هذا التغير في إطار الاستمرارية التي يعيشها "الفاعل" أي المجتمع نفسه في إطار هذا التاريخ الذي يصنعه.

وهنا نجد أن السؤال المطروح حول مجتمع ما يكتسب بذلك طابعًا إنسانيًا وتاريخيًا واستشرافيًا، ويصل الأمر في هذا المقام إلى الشك فيما إذا كان من الواجب توجيه السؤال بماذا، أم أن من الأولى أن يكون من، وكأننا نسأل إنسانًا. ومع هذا فعندما يتواجه السؤال التقليدي بالسؤال الأكثر ملائمة لا يكفي في هذا المقام أن يُحل من محل ماذا، فلا يمكن أن نوجه السؤال قائلين: من الإنسان؟ فالسؤال الشخصي يجب أن يكون من أنا؟ ومعنى هذا أن عملية إحلال الاسم محل ضمير المتكلم في السؤال، في وظيفته الطبيعية، أمر حاسم كما نقول إننا لا يمكن أن نسأل قائلين: من هي إسبانيا؟ فالحسّ اللغوي يرفضه وهذا أفضل مؤشر في نظري على عدم المواءمة، لماذا؟

إن أي مجتمع، وأي واقع جماعي ليس حياة إنسانية في كمالها ودقتها رغم أنه إنسان، فلا يمكن قول "أنا"، بينما "نحن" هو تفسيري ويقال في كل حالة من خلال "أنا" يتم استشرافه هكذا. نقولها بكلمات أخرى، يتسم عنصر الواقع غير الاستشرافي بأنه حاسم في إطار ذلك الذي نطلق عليه بلدًا، فالمشروعات يجب أن تتوفر لديها الموارد من كل نوع ـ المادية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية القانونية ـ وهذه الموارد تتسم بأنها

مهمة للغاية ولها وزنها النوعي الكبير. وإذا ما أردنا إيضاح ذلك علينا أن نقارن "بلدًا" بالشعب اليهودي في المنفى وقبل تأسيس دولة إسرائيل.[6]

هذا هو الغموض الذي عليه أشكال الحياة الإنسانية التي عادة ما نطلق عليها اليوم الأمم، وهو اسم يزول معناه إذا ما خرجنا من أوربا أو عدنا إلى الوراء، إلى ما بعد العصر الحديث، وأنه يجب أن يحل محل هذا المصطلح مصطلحٌ آخر أكثر ملاءمة في الحالات الأخرى. يتعلق الأمر بالحياة الإنسانية لكنها مشروطة بدرجة كبيرة بأنماط من الظروف "الطبيعية" وتتحول هذه الأنماط بفضل سلسلة من المشاريع تتجلى بوضوح في أمور واقعة أكثر من الأفكار أو الكلمات. وعلينا ألا ننسى في هذا المقام أن الغالبية العظمى من الشعوب التي وجدت في هذا العالم كانت أرضًا، صامتة وساكتة ولا تنبس إلا بالقليل، فمشروعاتها لم تتقولب أو كانت ضئيلة بشكل استثنائي، ولم يؤثر ماضيها إلا قليلًا وبشكل فيه اعوجاج. وهنا علينا أن نتقفى المكوِّن المناظر وهو من، الخاص بكل شيء، أي بين الأشياء والأفعال والأحداث التي هي غير شخصية بدرجة أو بأخرى، غير أنه إذا لم يتم التوصل إلى هذا الخيط الدرامي، أي هذا المضمون الذي يوجد في شكل بلد ما فلا يمكن فهمه، وها نحن نرى الآن ماهية المعنى التاريخي الاستشرافي، لكنه ليس أقل ظرفية، الذي أعطيته للسؤال القديم ما هي إسبانيا؟

---

(6) انظر كتابي: "إسرائيل: عملية بعث" (١٩٦٨) في Obras، الثامن.

الفصل الثالث

المنطق التاريخي

La razon historica

وقائع وهيئات:

من حقائق الأمور أن تاريخ إسبانيا معروف بما فيه الكفاية مثله في ذلك مثل معظم الأمم الأوربية إضافة إلى بعض الأمم الأخرى. كما أن الأحداث التاريخية المهمة لها مسجلة باستثناء بعض الوقائع التي لا تؤثر تأثيرًا كبيرًا على الصورة الإجمالية. كما أن الهيئات وقيامها بوظائفها قد حازت اهتمامًا كبيرًا في القرن الذي نعيش فيه (ق٢٠)، وما كان قبل ذلك غامضًا أصبح واضحًا جليًا، وفي نهاية المطاف نشير إلى أن الجوانب الاقتصادية التي كانت لا تحظى إلا بالقليل من العناية في إطار التاريخ التقليدي أخذت اليوم مكانة ربما كان مبالغًا فيها خلال العقود الأخيرة من القرن. وليس الأمر في أن معرفتها تتسم بالسطحية بل لأنها لا تؤدي عملها دومًا في سياق تاريخي وأحيانًا تبعد عن كتابة تاريخ.

لكن هذا لا يعني أن الأمور واضحة تمامًا، غير أن هذا اللاوضوح مرجعه هو تشويه بعض الأحداث المعروفة وليس جهلًا بها، ففي التاريخ الحديث يتم غمط جوانب مهمة من ماضينا أو يتم إدراج أحداث لم تقع أبدًا، لكن الواقع معروف ومسجل بشكل

سليم ولا نكاد نكون في حاجة إلى القيام ببحث خاص في هذا الشأن. الأمر إذن هو عبارة عن نسيان مقصود، أو أن يحدث العكس، يتمثل في إدراج وقائع غير موثقة واختراعات لا أساس لها، أو القيام بإدخال تعديل على المسميات الملائمة وبالتالي يتم التنويه بتأويل، ليس له أساس، لبعض الجوانب في تاريخنا، وإيجازًا للقول نشير إلى أن جوانب القصور الرئيسية ليس مصدرها قلة المعلومات بل المبالغة في **التشويه**، إلا أن هذا لا يتعلق كثيرًا بعلم التاريخ بقدر ما يتعلق بالسياسة.

نجد أن الانطباع بوجود "نشاز" أو "عدم وضوح" الواقع الإسباني ليس مرده قلة المعلومات المتوفرة لدينا عنه، سواء في الوقت الحاضر أو الماضي. ولما كانت تتوفر لدينا النية في أن نكرر بطريقة جامدة أشياء كانت حقيقة ذات مرة ونخلص إلى أنه لا يوجد ما لا نعرفه، فإننا لا نريد أن نعرف شيئًا عن الجهد الكبير المبذول خلال الستين عامًا أو الثمانين الماضية في باب التنقيب عن تاريخنا. وبصفة عامة نعرف ما كانت عليه إسبانيا منذ العصور الوسطى، وحتى قبلها، رغم الصعوبات الجمّة التي يجب أخذها في الاعتبار والتي تؤثر بصفة خاصة على إسبانيا القوطية، فالحوليات الإسبانية خلال العصور الوسطى تم طبعها ودراستها دراسة دقيقة، وجرت إعادة بناء اللغة الإسبانية (ابتداء بمننديث بيدال وحتى إسهام رفائيل لابيسا) بكل دقة وعمق. وجرت دراسة الأدب دراسة واعية وعميقة وخاصة على يد مننديث بيلايو. حيث يتسم إسهامه في هذا المقام بالعظمة. وكذلك على يد مننديث بيدال وتلاميذه القريبين أو البعيدين عنه بدءًا بأمريكو كاسترو وداماسو ألونسو وانتهاء بالأكثر شبابًا. كما جرت دراسة "المكوِّن" العربي دراسة رائعة - بعد الباحثين خلال القرن الماضي - على يد ميجل أسين بلاثيوس وجرثياجومث ومدرسته. كما أن العناية باللغات الإقليمية في إسبانيا كانت قليلة قبل ذلك، وكذا العناية بتاريخ كل من مملكة قشتالة (أرغن ونابارة) أخذت منحى نشطًا خلال القرن العشرين وحظيت بإسهامات قوية مثل إسهامات أبادال Abadal وسولديفيلا Soldevila وبيثنس بيبس Vicens Vives ودياث بلاخا Diaz Pleya ومارتين دي ريكير M.de Riquer

وباثكيث دي براغا V.de Praga وهذا كله كاف على مدى هذه الرعاية. أما فيما يتعلق بالهيئات الإسبانية فإننا نجد أن مؤرخي القانون، ابتداء بـ إينوخوسا Hinojosa أو جالو سانشيث G.sanchez ومن أتى بعدهما قد فتحوا الطريق. غير أن هناك مدرسة من المؤرخين بالمعنى الحرفي للكلمة كان مصدر إلهامها سانشيث ألبورنوث S.Albornoz وسار على دربها بالدي ابيانو Valdeavellano وتلاميذه، قامت بسبر أغوار هذا الحقل وخاصة المناطق الغامضة منه والحاسمة من أجل فهم التاريخ اللاحق ألا وهو العصور الوسطى.

ورغم كل شيء ما زالت هناك الكثير من الأمور الغامضة، وأذهب إلى أبعد من هذا، هذا إذا سُمِحَ لي أن أقول شيئًا يتناقض مع ما انتهيت من قوله، وهو أن إسبانيا يصعب فهمها اليوم مما كانت عليه عادة ولنقل مما كانت عليه منذ نصف قرن. لماذا إذن؟ رغم أن المعلومات غزيرة عن ذي قبل كما أنه تم استجلاء جوانب مهمة بالنسبة لما كان غير معروف أو غامض؟

السرد

تمثل التاريخ دائمًا في سرد ما حدث، كان تاريخًا سرديًا، ومع هذا فمنذ أن حظيت الوثائق بأهمية أكبر، وأصبحت عديدة ويمكن الوصول إليها ظهر اتجاه يجعل من التاريخ توثيقًا أكثر منه سرديًا. وهنا فعندما نرى الوثائق بشكل منعزل وتراكم الأحداث والبيانات فإن هذا لا يسمح بفهم ما يجري، فالحياة الإنسانية تتوالى أحداثها وهي عبارة عن الأحداث، ولا شيء ذا طابع إنساني يمكن فهمه دون أن تُحكي قصة، ومن التناقضات أن وصل الأمر إلى عمل تاريخ لا يتم فيه سرد أي شيء لك، فإذا ما تمت مقارنة الأعمال التقليدية لتاريخ إسبانيا بتلك التي ظهرت خلال العقود الأخيرة سوف يُرى كيف أن هذه الأخيرة تتسم بنوع من انسحاب العنصر السردي، وتقل "الشخوص"، ويلاحظ ميل لتحويل التاريخ إلى نوع من البحث عن سمات مجتمع من خلال التضاريس الجغرافية

والجوانب الاقتصادية والسكانية والمؤسسية..... إلخ، ويكون ذلك بشكل جامد أقصى ما يمكن تقديمه هو لفت النظر إلى التغيرات في تلك البيانات.

أعتقد أن هذا الصنف من كتب التاريخ يتسم بأنه جليٌّ بدرجة نسبية لأنه يفيد من جوهر الرؤية السردية للتاريخ التي لدى القارئ، بمعنى أن "جوهر" الأمر في فهم هذه الكتب يأتي من القارئ ذي الصلة الحميمة بتاريخ البلاد، أي إسبانيا في الحالة التي نحن بصددها. ويتم "تطبيق" البيانات الإحصائية أو البنيوية، التي يقدمها الكتاب الجديد للتاريخ، على الواقع الذي يتوفر لدى القارئ وهي بيانات ومعلومات معروفة سلفًا. وعلى ذلك فالقضية التي تطرح نفسها ـ والتي يمكن بحثها دون عقبات كثيرة ـ هي ما إذا كان القارئ الشاب الذي تأهل من خلال كتب التاريخ هذه دون الاعتياد على التاريخ السردي بقادر على بلوغ درجة مقبولة من الفهم لها.

وحقيقة الأمر هي أن الوثائق ضرورية حتى يمكن معرفة فحوى ما يجري الحديث عنه، وما هو الواقع الذي يجري الحديث عنه، ونادرًا ما يتم سرده. أضف إلى ما سبق أن البيانات ـ وخاصة البيانات الإحصائية، من الصعب الوصول إليها وقياسها بالنسبة لعصور كثيرة، وأن التأكد من سلامتها إنما يكاد يكون ضربًا من المستحيل، هذه البيانات تعني إيضاحات جزئية بشأن نقاط محددة، وأحيانًا ما تتمثل في قطاعات معتسفة في إطار استمرارية يقع إجماليها في الظل. أريد القول إنه غالبًا ما يتم سرد قصص حول البيانات ويتم اختصار التاريخ في تلك المناطق الخاصة بما هو واقع، وهي مناطق تتسم بميزة الاستحواذ على جزء من الواقع من منطلق أنه تم العثور على بيانات بشأنها بمحض المصادفة أو جرى البحث فيها، وهذا يمكن أن يعني نوعًا من الخلل في الرؤية.

وحتى يتضح ما أريد أن أقوله، أدعو للتفكير في السيرة الخاصة بفرد ما، فإذا ما كانت هذه السيرة معروفة في واقع الأمر، وإذا ما كان هناك نوع من الحدْس بشأنها أو تتوفر لدى المرء الخطوط العامة لهذه الشخصية وأعمالها فإن البيانات سوف تقع في محلها،

وتسهم في إلقاء الضوء عليها، كما أنها - على النقيض من ذلك - تفصح عن وجود جوانب أخرى في الشخصية أو مراحل أخرى في حياتها غامضة نظرًا لغيبة المعلومات المناسبة. غير أنه إذا ما كنا نعرف عن شخص غير معروف بعض الأعمال والبيانات ولا شيء أكثر، وبغض النظر عن كثرتها وأهميتها، فإن الواقع الشخصي الإنساني لهذه الشخصية يضحي غير مرسوم بدقة. سوف نعرف الكثير عن هذا الشخص لكن لا نعرف من كان، وماهيته، وهذا يحدث مع شخصيات عامة معاصرة: فعندما نكون قادرين على تخيلها يبدو لنا أننا نعرفها وتبدو لنا شخصيات مفهومة، وعندما لا يكون ذلك بسبب غموضها أو فقر شخصيتها أو أنها غير معبرة لا يمكن لنا أن نكون صورة خيالية عن الشخصية، وعلى مدار أربعين عامًا لا نعرف ماهية هذه الشخصيات أو كيف كانت وتضحي مجهولة بالنسبة لنا رغم أنه من الممكن أن نعيد بناء نشاطها يومًا بعد يوم وأن كل ما قالته مسجل ومرصود.

المنطق التاريخي La razon historica

ولا يكفي مجرد السرد أيضًا، ويرجع هذا أولًا إلى أنه يجري سرد شيء ولكن إذا ما شئنا الدقة لا نعرف عمّن، وعن أي مجتمع ومن خلال أي بنية ومضمون في حالة التاريخ، وثانيًا أنه من الضروري أن ينخرط السرد في إطار نظام عقلي يسمح بإعطاء الحق لهذا المجتمع dar razon. وحتى يمكن سرد شيء من الضروري التوفر على السمات التي تدرك تلك الشخصية التي يجري الحديث عنها والأفعال التي تروى عنها والواقع الذي يرتبط به ذلك الفعل وحتى يمكن القول إن "الملك ألفونسو الرابع غزا طليطلة" علينا أن نعرف من كان ألفونسو الرابع، وماذا كانت طليطلة قبل ذلك بغض النظر عن غزوها وما معنى فعل "يغزو" بشكل عام وفي إطار السياق الإسباني عام ١٠٨٥م.

إن كل كتابة للتاريخ historiografia تفترض دراسة نظرية لهذا العلم historiologia وهي دراسة هشة بشكل شبه دائم مثلها مثل أي معارف تتوفر لدى المرء

عن أسس نظرية الحياة الإنسانية، التي تتوفر لدى كل منا بشكل مبسط بدرجة أو بأخرى ذلك أنه لا يمكن أن نعيش دون أن نحلل ذواتنا وكيف يكون كل واحد منا رجلًا أو امرأة، دون وجود بنية تجعل هناك معنى لما نقوم به، ويحدث هذا بين الذاكرة والتوقع لما سيحدث الأمر الذي يجعلنا نستشرف ونتخذ القرار.

يعني هذا أن كل فهم للواقع التاريخي يقوم بأداء عمله، سواء عرفنا أم لم نعرف (رغم أن ذلك يمكن أن يكون بشكل أولي) السبب التاريخي، مثلما هو الحال في الحياة الإنسانية الخاصة بالواحد منا أو حياة الغير، حيث نرى الأداء الدائم الذي لا مناص منه **المنطق للعقل** الحيوي la razon vital وليكن معلومًا أن "السبب التاريخي" بالمعنى الدقيق الذي وضعه خوسيه أورتيجا إي جاسيت له ليس السبب "المطبق على التاريخ" بل هو "**المنطق السبب** الذي هو التاريخ"، أو أن نقول ذلك بمعنى آخر إنه التاريخ نفسه الذي يقدم المنطق والذي يسمح بالفهم.

كان خوسيه أورتيجا إي جاسيت يقول منذ نصف قرن (١٩٣٣م) إن التاريخ يعني بمعرفة الكيفية التي كانت عليها الحيوات الإنسانية، لكنه عادة ما يساء فهم التعبير وكأن الأمر عبارة عن البحث في طبيعة البشر، **الحياة ليست شيئًا أو أكثر من الإنسان، بمعنى الفرد الذي يعيش، بل هي دراما ذلك الفرد عندما يجد نفسه وقد أصبح لزامًا عليه أن يحرك ذراعيه وأن يعوم هذا الغريق في العالم.** التاريخ إذن ليس علم نفس، في الأساس، خاص بالبشر **بل عملية إعادة بناء لبنية هذه الدراما التي تنطلق بين الإنسان والعالم.**

ومن هنا فإن السؤال الذي يوجهه يجب أن يكون متعلقًا لا بكيفية تغير الكائنات البشرية **بل بكيفية تغير البنية الموضوعية للحياة**[7]."

---

(7) "حول جاليليو" 27 – v, 26 , الأعمال الكاملة (الحروف المائلة من عندي)

التاريخ من حيث هو resgestae هو بالنسبة للإنسان المساوي لما عليه الطبيعة بالنسبة للأشياء- التاريخ هو نظام التجارب الإنسانية- يضيف أورتيجا إلى ما سبق قوله "التاريخ هو علم ممنهج sistematico للواقع الراديكالي الذي هو حياتي، وبالتالي فهو علم لهذا الواقع المعاصر بكل ما تحمله الكلمة من معنى.... الماضي ليس هناك، في الماضي، بل هو هنا وفي أنا، الماضي هو أنا ـ يفهم منه أنه حياتي". ثم يقول أيضًا "كان التاريخ حتى الآن النقيض للمنطق...." إذ إن الأمر عبارة عن العثور على الأصول والمنطق المحلي في التاريخ نفسه. ولهذا يجب أن تفهم عبارة "المنطق التاريخي" بحذافيرها. فهو ليس منطقًا خارجًا عن التاريخ بحيث يبدو أنه يتحقق في التاريخ، بل وبالحرف، ما حدث للإنسان مشكلًا بذلك كيان المنطق S.razon أي التعبير عن واقع تراسندنتالي بالنسبة لنظريات الإنسان وأن الإنسان نفسه تحت نظرياته.[٨]

لم يتم استخدام هذه الرؤية أبدًا لفهم هذه إسبانيا، وسوف يقال إنها لم تستخدم أيضًا لفهم الواقع في بلدان أخرى وهذا حق. ولست واثقًا من أنه على الرغم من أن تاريخ بعض الأمم يتسم بالكثافة والكمال يمكن لرؤية من هذا المنظور ألا تحدث مفاجآت من العيار الثقيل ودرجة أعلى من الفهم. وكان الأدب بدرجة كبيرة البديل للمنطق التاريخي وأداة تفسير أنماط الحياة، وبالتالي كان القاعدة في رؤية التاريخ بجلاء، ففي الشعر والمسرح والسرد وخاصة الرواية نجد الحياة وقد أضحت مرئية وشفافة. في إسبانيا نجد الرومانث Romancere والمسرح الكلاسيكي والرواية خلال العصر الذهبي هي الأدوات الرئيسية في سبيل فهم الإسبان لبعضهم وأن يستشرفوا المستقبل على هذا النحو أي على أنهم إسبان، كما أسهمت بشكل حاسم في أن تتشكل إسبانيا كمجتمع وكأمة. ليس من السهل المبالغة في أهمية الرواية التاريخية أو الأنواع المماثلة (هناك على سبيل المثال شكسبير أو المسرح الإسباني خلال القرن السابع عشر).

---

(8) التاريخ كنظام (١٩٣٥) الأعمال الكاملة،49 , 44 , VI (الحروف المسودة من عندي)

من الممكن أن نجد في بعض الأمم أن التطور والاستمرارية في الأدب قام - بدرجة ما - بالدور الذي يقوم به المنطق التاريخي، لكنه لم يقم بذلك في إسبانيا بشكل كاف، نظرًا لبعض القحالة والتجريد على مدار فترات طويلة التي عانتها القدرة التخيلية، بمعنى أن الأمر بالنسبة لنا يتطلب الإسراع في هذا المكان، أكثر من أي مكان آخر، بالاستعانة بهذه الأداة العليا للفهم. ولحسن الحظ ـ كنت سأقول بالمصادفة ولكني لست واثقًا من ذلك ـ وُلد هذا المنهج في إسبانيا وتطور بها الأمر الذي يبدو أنه يجبرنا على استخدامه.

هل يتعلق الأمر بإعادة كتابة تاريخ إسبانيا؟ هذه المهمة ليست ضرورية ولا كافية.

قلت قبل ذلك إن علم التاريخ الإسباني يتسم اليوم بأنه مرض، وذلك حتى نعرف - على الأقل - ما الذي حدث في إسبانيا وما الذي فعلناه نحن معشر الإسبان. يمكننا أن نبدأ بما هو معروف ـباستثناء أنه من الضروري تصحيح بعض التأويلات السيئة أو البحث عن إيضاحات جديدة. يكفي أن نعيد التفكير في الأمر، بمعنى أن نتساءل، ما معنى ذلك الذي يُعرَف وهل ليس مفهومًا حقًا. ومن أجل هذا من الضروري أن نضع في اعتبارنا التاريخ بأكمله، إذ في هذا الاكتمال يكمن الطابع النظامي له، وهذا مثلما يحدث في أن الروايات والتواريخ تطالب بقراءتها كاملة، غير أن هناك اختلافًا وهو أن التاريخ ليس له نهاية على ما يبدو حتى الآن.

غير أن هذا الشيء نفسه يذهب بنا إلى ما هو أبعد من التاريخ ـ ولهذا كنت أقول إن إعادة كتابة التاريخ يمكن أن تكون غير كافية ـ أي تذهب بنا إلى الوقت الراهن، حتى اللحظة الحاضرة. وهذا يعني الذهاب بنا إلى الغد من الناحية الاستشرافية.

الأمر إذن وفي المقام الأول عبارة عن القراءة وإعادة التفكير في التاريخ القائم والمعروف دون توقف والسير في ذلك حتى اللحظة الراهنة المرتبطة بمستقبل علينا أن

نتخيله ولكن في اللحظة التي نحاول فيها ذلك نجد أن الخيال كان ضروريًا منذ اللحظة الأولى وليس ابتداء من لحظة الوصول إلى ما نحن عليه اليوم. لماذا؟ لأننا نقرأ ونتذكر ونسترجع الماضي انطلاقًا من اليوم وانطلاقًا من حياتنا الخاصة، ولهذا "نشهد" العصور الماضية من الناحية الاستشرافية ماثلة أمامنا في كل لحظة ونهاية لا تأتي أبدًا.

غير أن هناك إضافة أخرى إلى ما سبق، هل يكفي التاريخ الفعلي في هـذا المقـام؟ هل يمكن أن ترضى بما فعلته إسبانيا وما حدث لها؟ إذا مـا أخـذنا هـذا ببـساطة وإذا مـا حاولنا فقط أن نسرد الماضي "كما حدث" (كان رانك يقول Wie es gewesen ist) فـإن الأمر غير واضح. علينا أن نبحث عما هو أكثر من هذا.

الفصل الرابع

المسارات الفعلية وإسبانيا التي أمكن أن تكون

حياة الفرد وحياة الجماعة:

ليس هناك أمر أكثر خطورة من أن نلقي على الحياة الجماعية سمات وضوابط الحياة الفردية، بمعنى أن ننظر إلى مجتمع على أنه شخص، فالحياة الإنسانية بالمعنى الدقيق، أي حياة كل واحد، تتحرك بين عنصرين لا يتم اختيارهما: أحدهما هو الظروف التي فُرضت علينا، وبالتالي نجد أنفسنا أمامها شئنا أم لم نشأ، أما الثاني فهو الميل الذي لا يُفرض علينا ذلك أننا أحرار أمامه لكنه يتمثل أمامنا وإذا ما كنا غير أمناء بعد اكتشافنا له فإن النتيجة هي عدم الصدق والزيف في حياتنا.

نجد إذن أن مجتمعًا ما وأمة ما في عصر معين هي الظروف، وبالتحديد تلك التي ترتبط بكل واحد من الناس الذين يعيشون على هذه الأرض، هم يلتقون بهذا المجتمع، ومنه تنبثق أغلب مواردهم، فالمجتمع يقدم لهم إمكانياته ويطرح عليهم مشاكله وجوهره التاريخي الاجتماعي الذي هو قائم. وإذا ما كنا نتحدث عن "الميل vocacion، فإن ذلك بشكل تشبيهي يمكن أن ينطبق على مجتمع ما، وهنا علينا أن نفرّق جيدًا، وبحذر، بين ذلك وبين الميل الخاص بكل شخص من سكان المجتمع. ولهذا فإن محاولة تفسير

المجتمعات على أنها "بشر"، ولكن بدرجة مكبرة، تجعلنا نحدث تأثيرًا سيئًا على محاولات فهم الواقع الجماعي.

قلت إن هذا هو الخطر الداهم، غير أن هناك خطرًا آخر ربما كان أكبر من السابق ألا وهو تفسير هذه الوقائع وكأن ليس لها صلة بالحياة الإنسانية، أي بشكل "غير شخصي"، وهذا هو الهوى الذي عليه زماننا. والأمر هو أن "الحياة" الجماعية ليست حياة بالتحديد (ولهذا اعتاد أورتيجا إي جاسيت أن يضع اللفظة بين علامتي تنصيص)، لكن يجب أن نضيف **أنها ليست أمرًا آخر إلا حياة**. وعلى ذلك علينا أن نلجأ إلى بنية الحياة حتى نفهم تلك الأخرى من خلال القيام بتكوين نظرية خاصة ملائمة للهدف الجديد.[9]

وفيما يتعلق بما هو **مسار** الحياة الفردية فقد خصصت له كتابًا ضخمًا،[10] حيث يبدأ على أساس بعد نظري عما هو مسار وجمعيته وطابعه الدرامي والاتصال في المضمون بين كل هذه المصطلحات، وأوضحت معنى الحياة والفكر عند أورتيجا في هذا المنظور الذي يبدو ضروريًا لفهمها. يتضمن الفصل الأول من مدخل الكتاب المذكور موجزًا دقيقًا لسمات المسارات الإنسانية، وسوف ألخص في سطور قليلة الجوانب الأكثر ضرورة لفهم المسارات في حياة أمة.

لا يمكن الخلط بين **الحياة** (الواقع الراديكالي) **والسيرة**، فهذا ممكن لأن الحياة لها بنية تسمح بسردها، أضف إلى ذلك أن من الصعب الخلط بينها وبين **المسار** الخاص بالسيرة، فليس الأمر سواء (أي ما نطلق عليه "واقعًا" أو "فعلي") بل هو عبارة عن أمر جماعي: فلا يمكن لي أن أفهم ما أفعله إذا لم أضعه فوق الخلفية الخاصة بما يمكن أن أفعله، إذا لم أقم بتفسير ما فعلته وما حدث لي ـ المسار "الفعلي" ـ بناء على ما كان يمكن أن أفعله

---

(9) فعلت ذلك في "البنية الاجتماعية" وإليه أشير.

(10) أورتيجا : المسارات (١٩٨٣) أي الذي يكمل كتابي السابق. أورتيجا: الظروف والميل (كلاهما من خلال دار نشر أليانثا).

أو ما أمكن أن يحدث لي. ويحدث هذا المرة تلو المرة على مدار الحياة، بمعنى أن واقع هذه الحياة هو بمثابة تشجير، يصاحبه عدد لانهائي من المسارات الممكنة والمرفوضة والمتوقفة والمبتورة والمتروكة والمنفذة بدرجات وأشكال مختلفة. فالحياة لا تنحصر في **وقائع** بل إن **الإمكانية** في حد ذاتها هي مكوِّن جوهري خاص بها.

للمسارات بنية **زمنية** تقوم بجمعها وتقدم لها نوعًا من الإمكانية، وفي الحياة الفردية نجد هذه المستويات تتوافق مع الأعمار وكأنها مراحل من التموقع instalacion، غير أنه لما كان كل تموقع إنساني له زاوية منظور، فإن كل مسار إنساني يعني وجود هدف مصوب إليه مع وجود عنصر الإصابة أو الخطأ. وهنا يجب أن نضم إلى ما هو قائم ما هو **غير واقعي**، أي ذلك الشيء الذي لم يكن حتى الآن، وهذا يذهب بنا إلى ما هو أبعد مما هو طبيعي، على سبيل المثال، من صورة التشجير التي يجب أن تكتمل بصورة مناقضة للذهاب إلى أبعد مما عليه الاثنتان. لنتصور المسارات وكأنها تيارات تتلاقى في مجرى واحد، وهو مجرى الحياة في وحدتها، الذي هو بداية تنظيمها، أي ذلك المجرى الذي يجعل هذه المسارات ممكنة، ثم يتحول كل ذلك بفعل المصادفة azar، لكنها ليست المصادفة الخاصة بالطبيعة بل الإنسانية التي لا تنفصل عن المشروع والخيال والحرية. وفي نهاية المطاف نجد أن تلك المسارات (حيث إن كل واحدة منها درامية) ترتبط ببعضها من حيث المضمون، كما أن ارتباطها درامي أيضًا، ولهذا يمكن أن يكون هناك تاريخ للمسارات الخاصة بحياة.

لتنقل الآن هذه الملامح إلى الحياة "الجماعية" أي إلى مجتمع أو بلد، ولننظر في أي اتجاه يمكن الحديث عن مسارات وما هو معنى جماعيتها pluralidad الذي هو واقع (مسارات تمت) وغير واقع (مسارات ممكنة، يفهم من هذا أنها ذات إمكانية فعلية للحدوث وليست يوتوبيا).

وإذا ما نظرنا إلى تاريخ بلد، أي تاريخ أمة، على مدار قرون طويلة فإننا نجد دائمًا مسارًا ـ أي ما يسرده لنا علم التاريخ مقسمًا إلى أجزاء مختلفة بوضوح ترتبط بالعصور

المختلفة (المناظرة لمراحل حياة الأفراد)، غير أن هناك اختلافًا جوهريًا وهو أن الحياة الفردية تتسم بأنها ذات بنية محددة كما أنها مغلقة من حيث ارتباطها بالبنية الأمبريقية، هناك عدد محدود من مراحل الأعمار وأحدها هو الشيخوخة التي هي **النهاية**، وبعدها لا يوجد شيء. لكن الأمر لا يحدث على هذه الشاكلة بالنسبة للعصور التي تعتبر غير محددة من حيث المبدأ ولا يرى أي منها على أنه النهاية بالضرورة، فربما ينتهي مجتمع ما، لكن هذا يبدو عرضًا وشيئًا ينسب إلى المضمون الذي يتعلق بالمصادفة في تاريخه بشكل أو بآخر، لكنه ليس بنيويًا. وهنا يمكننا القول إنه لا يوجد "موت طبيعي" للمجتمعات.

وهذا يجعل المسارات الاجتماعية غير "محددة" بالمعنى الذي عليه الأشخاص، مثل فترة الطفولة والشباب والنضج والشيخوخة. وعندما يجري الحديث عن "شعوب شابة" أو "شعوب قديمة" فإنه يتم إدراج تفسير خارجي، الذي هو ثمرة تأمّل نظري، ويمكن ألا تكون له إلا صلة ضعيفة بالشكل الذي يرى به هذا الشعب نفسه. هذا دون أن نضع في الحسبان الاعتساف الذي يعني أن نبتر من بلد ما ماضيًا ينسب إليه، يوجد في الكيان الخاص بالمجتمع الذي أتى منه ذلك الذي نحن بصدد الحديث عنه. وعندما نتحدث - وهذا ما نفعله جميعًا- عن البلاد الشابة في أمريكا ونقابلها بالبلاد "العجوزة" في أوربا التي ولدتهم تاريخيًا فإننا نتساءل: لماذا نرفض على الإسبان أصولهم في العصور الوسطى، أو السلالات المهجنة في العالم الجديد، وننسبهم إلى هؤلاء الذين ظلوا في العالم القديم؟

ومن ناحية أخرى فعندما نتحدث عن بلد بعينه، فإن التوجه هو النظر إليه بشكل منعزل وأن تُرى مساراته وكأنها تنبع منه أو أنها فرضت عليه من آخر من خلال غزو أو احتلال على سبيل المثال. عادة ما يتم الاستغناء عن الأمر القائل إن الشعوب **تتعايش** وإنها مرتبطة بضغط التواجد الذي يظهر وراء حدوده، أي أنها تشكل جزءًا من مجتمعات أكبر حجمًا واستمرارية تقوم بإقرار قواعد يجب أن ترتبط بها المسارات الخاصة. فمجتمع العصور الوسطى الأوربية يلتقي مع المسيحية، والصراع مع الإسلام، والإقطاع. هناك الإمبراطورية المقدسة كسلطة روحية وهناك مجتمع يتحدث اللاتينية في طبقاته العليا

المثقفة وهناك ذكرى روما والثقافة الكلاسيكية....إلخ. فهل ذلك الموقف قابل للمقارنة بوضع أمة خلال القرن الثامن عشر أو بلد أمريكي في عصرنا؟ ولا نقول إذا ما كان ذلك يتعلق بعصور سابقة على عصرنا أي بمجتمع في أفريقيا أو آسيا، الذي يفترض أنه معزول عن جميع المجتمعات الغربية لكنه محاط ومحدد من خلال نظام من المحفزات والضغوط التي تؤثر في مساراته الممكنة وعددها.

وفي نهاية المطاف أشير إلى أن المسار الفرد يبدو أنه وليد الميل vocacion، أي وليد مشروع أو برنامج حيوي ووليد **أنا** يقوم بممارسة الضغط على ظروفه للوصول إلى أن يكون إنسانًا له خياله ورغبته. إلا أن الأمر أقل وضوحًا عندما يتعلق **المقصد الجماعي**، على أنه أصل لمسار اجتماعي. فهذا تعبير غامض، إذ يمكن فهم المقصد pretension من المنظور **الإحصائي المسيطر** من خلال استطلاع آراء أفراد هذا المجتمع. أو المقصد الذي **عليه** الجماعة، وهذا ما يهم في هذا المقام، والذي حوله يلتقي كل فرد سواء اتفق معه أو اختلف، أو راق له أم لا.

وعلى هذا هناك مقصد إسرائيل كشعب مختار، والهيمنة التي عليها روما، والتبشير الذي عليه إسبانيا القرن السادس عشر، والثورية التي عليها فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر.

هذان التوجهان مختلفان لكنهما ليسا قابلين للانفصال عن بعضهما تمامًا ذلك لأن الإنسان يتخذ مسارًا لنفسه بشكل محدد بصفته عضوًا في مجتمع وفي إطار مقصد المجتمع رغم أنه قد يختلف معه، لكن المسار الجماعي يتولد بشكل فيه الكثير من الغموض، كما أنه في حقيقة الأمر ليس جماع المقاصد الفردية. يحدث العكس، فعند تكون هذا المقصد، يوجد في كل مجتمع نظام مشاركة يمكن من خلاله التنويع إلى مقاصد فردية متعددة تقوم في الوقت ذاته بتجسيد المقصد الجماعي وتحدد تطور مساره.

وإذا ما أردنا أن نفهم مجتمعًا ما فإن الأمر الحاسم هو أن ندرك أن ذلك المقصد، والمسارات بالتالي، نادرًا ما يتم الإفصاح عنهما، أو أن ذلك يتم بالتحديد وبدرجة دنيا لدى الأغلبية العظمى للشعوب والعصور، الأمر إذن ليس عبارة عن مسارات **معلنة**، باستثناء عملية بناء التاريخ التي تتسم بأنها تفسيرية، يجد المرء نفسه مع هذه المسارات مثل الراوي أي مع التيار، أو بالأحرى في التيار من حيث كونه نظام ضغوط ودفع وحركات وتقديرات وكتبت في مناسبة أخرى[10] قائلًا: "إن الإسباني في منتصف القرن السادس عشر كان أمامه تنظيم كنسي وجماعات دينية تقوم بأنشطة كبيرة وكانت أمامه محاكم التفتيش ونفحات الحرب في أوربا والذهاب والرواح الذي يقوم به الرهبان إلى العالم الجديد والدراسات اللغوية أو الإثنية الأمريكية والعشور وتأثير رجال الكنيسة ومزاياهم واللاهوتيين والمتصوفة وأسلوب أدبي والمسرحيات الدينية ذات الفصل الواحد والتحالفات السياسية والعداء مع إنجلترا، ومن **خلال كل ذلك** - ولكن ليس بشكل مباشر – كان يرى الطريقة الأكثر راديكالية للاتصال بالمقصد التبشيري والكاثوليكي لإسبانيا. "ليس من المهام السهلة اكتشاف المسارات الفعلية لبلد ما، ويمكن تقصي ذلك بالبدء بالمسارات الشخصية لكن شريطة عدم تماثلها بالمسار الاجتماعي بل الأمر هو أن يكتشف فيها الضغط والأثر القائم الخاص بالمسار الجمعي الذي عادة ما يختفي عن الأنظار ويقوم بدوره في عمق المجتمع ويتوجه نحو غاية متغيرة دائمًا، و يكاد يكون معتمًا، ويتم الشعور به ويقوم بعمله بفضل قوة جذبه.

التوقعات

كان يمكن للأمور أن تحدث بطريقة أخرى فالإمكانيات الخاصة بما هو واقع تتعدد عندما يتعلق الأمر بما هو إنساني، ويزيد على هذا عندما يتعلق الأمر بالتاريخ وذلك لسبب بسيط: هو أن النتائج تتسم دومًا بأنها مستقلة عن الأحداث الفردية بشكل نسبي،

(10مكرر) البنية الاجتماعية، الفصل الخامس، ص ٣٧

ولا نقول بعيدة عن رغبات من يقومون بها. فالخيوط التي ينسجها الواقع التاريخي تتألف بشكل يجعل اللُحمة تذهب إلى ما هو أبعد من الخيوط، كما أن نتائج التصرفات الفردية مشروطة بشكل متبادل، ولها نتائج غير متوقعة وغالبًا ما تكون محض المصادفة. وهنا فإننا إذا ما قارنا المشروعات الخاصة بشركة كبرى "وقد وضعت سلفًا"، أي ثورة مع تطورها وانتهائها سوف نرى أن المسافة يمكن أن تكون شاسعة بين التقديرات الأولية والواقع النهائي الملموس.

لا يمكن درء التكهن بتخيل **ما يمكن أن يحدث** إذا ما تم فعل الشيء أو حدث أمر ما، وإذا ما طبقنا هذا على التاريخ فإن ذلك يمكن أن يوضع في الاعتبار "ما يمكن أن يكون قد حدث"، إذا ما توافرت عدة شروط، أو توفرت عدة وقائع أو زوال بعضها.

إلا أن التوقعات المستقبلية لها قيمة ضئيلة في باب فهم الواقع، فعندما يجري الحديث عن مسارات ممكنة مقارنة بالمسارات الفعلية أو القابلة للتنفيذ، يجب أن نلح على أن الأمر يتعلق بتناول ما هو ممكن في الواقع، أي تلك الإمكانيات المتوفرة آنذاك والتي يمكن السير فيها. والمسار الافتراضي الخاص بي على أنني فارس أو إمبراطور الصين يحتاج إلى هذا "الواقع" الذي هو الإمكانية: ذلك المسار ليس ساريا، ولا ينسب لحياتي من حيث هو كذلك. ويندرج هذا الشيء على بلد ما. فما يظهر من إمكانيات خاصة بإنجلترا لا ينسحب على بولندا ذلك أنه لم تتوفر الظروف بالنسبة لهذا البلد بينما توفرت كطرق مفتوحة بالنسبة للجزر البريطانية. وهناك التوسع في آسيا الذي كان مسارًا ممكنًا ثم أصبح واقعًا بالنسبة لروسيا، غير أنه لم يكن الملمح الأول بالنسبة لفرنسا أو إيطاليا.

يجب أن نبرز أيضًا التحولات **غير المتوقعة** التي أتت بها المصادفة، ويصدق هذا على الأقل على البلاد التي تعيش تلك اللحظة. وهناك مثال مهم للغاية في هذا المقام ألا وهو مصير أمريكا، فأوربتها على يد كل من إسبانيا والبرتغال وإنجلترا كانت حاسمًة في تحديد الجزء الرئيسي من مساراتها، ومع هذا لا معنى للقول إن "إسبانيا الجديدة"

(المكسيك حاليًا) كانت من المسارات الممكنة لدى إمبراطورية الأثتيك. كان أمرًا فعليا، لكن لم يكن **ممكنًا** من منظر ذلك التشجير الذي هو أفق المسارات وقد ارتبطت تلك الإمكانية بالمصادفة الكبرى (وهذا دائمًا من وجهة نظر الأثيتك) المتمثلة في اكتشاف إسبانيا للعالم الجديد وفي هرنان كورتيس الذي بدأ حملته. أمر آخر أن يكون ذلك محض المصادفة في المنظور الإسباني أم لا، وهذه قضية يجب أن ننظر إليها في حينها.

عادت من جديد **الاستمرارية** التي تجلت لنا كشرط أساسي ليكون هناك مجتمع أو مجتمعات تنسب إليها سابقًا، وارتبطت الآن بالمسارات. لا بدّ أن تكون هناك استمرارية بين المسارات ويجب أن تظهر بأنها ممكنة في كل لحظة كبديل لمسارات أخرى، ومن الضروري أن تتهيأ الظروف المناسبة لها، وفي نهاية المطاف، وانطلاقًا من مستوى معين، تبدّى فيما يمكن أن نطلق عليه مفترق طرق تاريخي، بمعنى أن يكون في يد ذلك المجتمع حرية **البدء** بأحد المسارات بغض النظر عن المكان الذي يصل إليه.

إسبانيا التي أمكن الوصول إليها

كتب خوسيه أورتيجا إي جاسيت في كتابه "تأملات حول دون كيخوته" (١٩١٤م) هذا التعبير في إطار سياق يوجد فيه حدس دقيق يتعلق بالقضية التي نتحدث عنها، وكذلك تشخيص موجز للتاريخ الإسباني الذي ربما يمكن النظر إليه بتحفظ. يقول أورتيجا إن لفظة "إسباني" تتعرض لخطر عدم فهمها بكل معانيها، فكل سلالة ليست إثنية، بالمعنى الذي وضعه أورتيجا لهذه الكلمة، بل هي ذات تنوع تاريخي، وكل "شعب" هو "عبارة عن تجربة لطريقة جديدة في العيش ونوع من الحساسية الجديدة". وعندما يأخذ مساره بالكامل نجد أن "الفرع قد تم إثراؤه بشكل غير محسوب، فالحساسية الجديدة تدفع إلى استخدامات جديدة وهيئات أخرى وعمارة جديدة وشعر جديد وعلوم جديدة وطموحات جديدة ومشاعر جديدة وديانة جديدة". غير أن كل هذا يمكن أن

يفشل ولا يصل إلى لحظة الميلاد، ذلك أن هذه الحساسية الخلاقة غير قابلة للنقل. "شعب ما هو أسلوب حياة ومن هنا فإنه يتألف في نمط بسيط ومختلف يتولى تنظيم المادة حوله".

غير أنه يمكن أن تطرأ أسباب خارجية تحدث حيودًا في "المسار المثالي" لهذه الحركة الخلاقة، والنتيجة بشعة ومحزنة: "فكل يوم هو ذلك اليوم ما عدا ما كان يمكن أن يكون". ويرى أورتيجا أن الوطنية بشعة دون منظور، بأن "يقبل ما هو إسباني بكل ما تم إنتاجه على أرضنا بالخلط بين السوءات وبين ما هو جوهري بالنسبة لإسبانيا". ثم يتحدث أورتيجا عن "ثلاثة قرون ونصف القرن من السير خارج القضبان" وعن تقاليد تمثلت في "القضاء التدريجي على إمكانية وجود إسبانيا"، "وهذا وعد كبير تم الوفاء به في حالات شديدة الغرابة"، ثم يختم بقوله "من بين الركام التقليدي يجب علينا أن نقوم بسرعة وتنتشل المادة الأولية للسلالة، أي المُقابل الإسباني hispanico، أي تلك الرعشة الإسبانية البسيطة أمام الفوضى. فما اعتدنا تسميته إسبانيا ليس ذاك بل هو فشل ذاك بالتحديد، ففي حريق هائل ومؤلم يجب علينا أن نحرق الظاهر التقليدي الجامد، أي **إسبانيا التي كانت**، ثم سنعثر بين الرماد الذي غربلناه جيدًا على الجوهرة المتلألئة، **أي إسبانيا التي أمكن أن تكون**:"[11]

يرى أورتيجا بوضوح شديد ماهية الشعوب من حيث هي تنويعة إنسانية ومن حيث هي إمكانية **للإنسان**، ومن حيث هي تجربة كينونة تظهر وتتجلى مثلما يتبدى ما يطلق عليه ثقافة. يدرك الشعب عدم الأمان الذي عليه هذا المشروع وهشاشته ويدرك إمكانية حيوده وغشه وفشله. ويلاحظ أنه يجب اكتشاف ماهية المسار، ويميز بين ما حدث بالفعل وبين **ما كان يجب أن يحدث** في إطار "حاجة" هي الأصالة. غير أنه عند الحديث بشكل موجز عن إسبانيا، نجد أن رفضه شامل، فثلاثة قرون ونصف تبدو عنده

(11) تأملات حول دون كيخوته "الأعمال الكاملة، الجزء الأول، ص٣٦٢-٣٦٣ (الخط المكبر من عندي). يمكن أيضًا الاطلاع على الطبعة التي علقت عليها، الطبعة الثالثة - دار نشر كاتدرا - تأمل أولي، ١٥.

نوعًا "من خروج العجلات عن القضبان"، ونوعًا من الحيود عما كان يجب أن تكون عليه إسبانيا للوصول إلى وعدها الكبير. من المشكوك فيه أن يكون الأمر على هذا النحو، إلا أنه يخطر على بالي اعتراض آخر أكثر خطورة: إذا ما كان الأمر على هذا النحو، هل يمكن البرهنة على ذلك، أي هل يمكن أن يكون بديهيا؟ هل حالة الحيود الممتدة زمنيًا لفترة طويلة والتي تشمل التاريخ الحديث كله، منذ ميلاد الأمة الناضجة والمكونة بكامل أركانها، قابلة للمقارنة؟ ألا يصبح مشكلة ذلك "المسار المثالي" الذي يعلو خياليًا ذلك الذي تحقق بالفعل والذي نتذكره ويسرد علينا التاريخ؟

أظن أن إسبانيا التي **أمكن** أن تكون هي أمر خيالي بدرجة كبيرة من التحديد. أريد أن أقول أي أنه عندما تكون الظروف قد حانت ـ في كل حالة ـ وعندما يوجد هناك مفترق طرق فعلي، في كل واحدة من التفريعات التي يمكن مواصلة الطريق فيها- أو محاولة ذلك على الأقل - ومن جانب آخر أشير إلى أن ما قال به أورتيجا بشأن "الأسباب الخارجية" للحيود يقودنا إلى التفكير في أن الأسباب الأكثر خطورة أخرى، فالأسباب الخارجية، في إطار درجة عدم توقعها وحدوثها بشكل لا مناص منه، تكون بمبعد عن التشكيل الداخلي لبلد ما. وإذا ما أريد، يتم استخدام هذا التعبير، على **مسئوليته التاريخية**، أعتقد أن هذا التدخل والتأثير الخارجي ينسب إلى إطار آخر ليس بالتحديد ذلك الخاص بالمسارات. وهنا علينا أن نميز بدقة بين أسباب وأخرى وذلك حتى تتم رؤية إسبانيا بجلاء، أي أن **نرى ما فعلت** في **إطار ما كان يمكن أن يكون حقيقة**".

مفترق طرق

لا يمكن أن ننظر إلى الأحداث التي قامت بدور أساسي في تكوين إسبانيا كمجتمع والتي هي على هذا النحو "سابقة" وأصبحت خارجة منها على أنها مفترق طرق في تاريخ إسبانيا. وعلى هذا النحو نجد هجرات الشعوب البدائية التي استقرّ بها المقام بشكل متتابع في شبه جزيرة أيبيريا وشكلت لُحْمَة السكان الذين أصبحوا إسبانيا ذات

يوم. وبالشكل نفسه يجب أن نباعد الغزوات التي وصلت وتغوّلت بشكل كبر أم صغر في أجزاء مختلفة من شبه جزيرة أيبيريا أو هسبانيا، رغم أنها تكون قد تركت أثرًا وتقنيات وأسماء أماكن أو تأسيس مدن. وهذا ما نراه في حالة الفينيقيين أو اليونانيين، وبدرجة أكبر يمكن ذكر القرطاجيين الذين هم خير مثال على ما أريد قوله.

كان أمرًا جوهريًا بالنسبة لإسبانيا أن تنتصر روما في الحروب القرطاجية وليس قرطاجنة، وإذا ما كانت نتيجة هذه الحروب مختلفة فإن إسبانيا كانت ستكون مختلفة بشكل كبير، لدرجة أنه يمكن أن تفهم إسبانيا على أنها شيء آخر. ولما كنا نتحدث عن إسبانيا، أي عن إسبانيا الفعلية، فإن الانتصار القرطاجي المفترض على الرومان سوف يكون رفض الافتراض، وسوف يقضي على القضية التي نحن بصددها من الأساس. ومما لا شك فيه أن إسبانيا بها بعض المكونات القرطاجية، مثلها مثل باقي المكونات الأخرى الكثيرة ومن بينها الفينيقية واليونانية، لكن هذه المكونات سابقة على تكون إسبانيا كمجتمع وبالتالي ليس لها محل من الإعراب في مسارات إسبانيا.

وماذا عن الغزوات الكبرى اللاحقة مثل الغزو الجرماني خلال القرن الخامس والغزو الإسلامي في بداية القرن الثامن؟ لا بد من الإشارة إلى فارق مهم. فالغزوات في حد ذاتها تطرأ على المسارات الداخلية لشبه الجزيرة وذلك كنتيجة لخطوات أوسع ودون اتصال بحياة بلدنا، وإذا ما كانت هناك عدة شعوب جرمانية -تتخللها عناصر سلافية أو منغولية- دخلت إلى حدود الإمبراطورية الرومانية وسيطرت على أراضيها، فإنها تعزلها وتقوم بإحلال هيئاتها محل الهيئات الأخرى وتؤثر بشكل قوي على شبه جزيرة أيبيريا. لكن ذلك ظاهرة تاريخية بعيدة كل البعد حيث نجد أن شبه الجزيرة هي مجرد "نقطة للتطبيق". وبشكل مواز نجد أن الغزو الذي قام به العرب الذين تأسلموا خلال القرن السابع واتجه شرقًا وغربًا لا علاقة له بإسبانيا فأن تصل إلى إسبانيا هذه الموجة وتغطيها من خلال هذا التدخل الكبير في مسارات ذلك المجتمع ونتائج ذلك، لم يكن جزءًا من هذه المسارات.

وعلى هذا ليس هناك معنى تاريخي محدد للتساؤل عما كان يجب أن تكون عليه إسبانيا إذا ما كانت قرطاجنة هي القوة الغالبة في الحرب القرطاجية، والشيء نفسه ينسحب على الغزوات البربرية وما إذا كان محمد قد جعل العرب يعتنقون الإسلام أو أنه دفعهم إلى عملية توسع عسكري واسعة النطاق. وعلى العكس من ذلك هناك منطق واضح للتساؤل عما كان يمكن أن تكونه إسبانيا إذا ما كان رد فعلها على تلك الأحداث شيئًا آخر. إن علاقات السكان الإسبان أي الرومان بالقوط وبالشعوب البربرية الغازية والإبقاء على الكاثوليكية في مواجهة السيطرة الآريوسية والتعاون الجزئي معهم وإقامة هيئات لا بد أنها كانت ذات أهمية طويلة الأمد، كل هذا يشكل جزءًا من تاريخ إسبانيا، ويشكل تجسدًا لبعض مساراتها ويسمح لنا بالسؤال كيف يمكن أن يكون الأمر إذا ما كانت الأحداث من هنا وهناك أحداثًا أخرى قابلة للتحقق مثلها مثل غيرها؟

والأكثر من هذا أهمية، كما أنه أكثر إيضاحًا هو حالة الغزو العربي، إذ تكفي مقارنة ما كان عليه حال إسبانيا مع حال الدول التي تم غزوها في شمال أفريقيا ابتداء من مصر وحتى المغرب. الغزو إذن لا ينسب إلى إجمالي المسارات الإسبانية باستثناء حالة بترها وعلى العكس من هذا نجد أن عملية إعادة الغزو Reconquista هي الإجابة الأصلية على هذه الصدمة، وتعتبر نقطة الانطلاق للمسارات التي تتولد بالفعل عن المجتمع الإسباني في نضجه وهي عنصر حاسم في النظر إلى كل تفاصيل تاريخه اللاحق.

وعندما تم تشكيل واضح تكون ما يمكن أن نطلق عليه إسبانيا باستمرارية، نجد أن الأسباب التي تحدد واقعها ومساراتها المختلفة ليست خارجية بالضرورة بل تتشكل في الداخل وتتجاوب مع طريقتها في الشعور بنفسها، وتفسيرها لما هي عليه، ومقاصدها أو مشروعاتها ونظام تقييمها للأمور وفتورها وحماسها. وفي كل لحظة وخاصة في اللحظات الحرجة، أي في اللحظات التي تتبدى فيها مقترحات طرق بالفعل. أو يمكن أن تكون ـ نجد إسبانيا قد سارت في طريق أو آخر وتركت خيارات أخرى كان

يمكن أن تسير فيها وتوقفت في بعض اللحظات وربما تقهقرت وابتكرت مسارات لم تكن واضحة.

وهنا يكون السؤال الخاص بما كان يمكن أن تكون إسبانيا في محله. وبعد طرح السؤال يمكن الفهم بشكل واضح لما كانت عليه إسبانيا. وليس الأمر أن نضرب عرض الحائط بالواقع والأحداث والخطوات الفعلية من أجل أن نتخيل تاريخًا يمكن أن يكون مجرد بناء عقلي، على العكس تمامًا يجب تحليل ما تحقق حتى يمكن رؤيته على الخلفية المتعلقة بالإمكانيات البديلة وذلك في محاولة لفهم ماذا ولماذا وقع ما وقع وتم حجب ما بقي دون تحقق. ومن خلال ذلك فقط سنتمكن من قياس درجة الأصالة لكل جزء من تاريخنا، وكذا الأبعاد المختلفة لواقعنا الحاضر. وبهذا فقط نجد أن هذه المهمة الإنسانية القديمة منذ قرون والتي ما زالت حاضرة والتي نسميها إسبانيا تتضح بجلاء.

الفصل الخامس

تكوّن إسبانيا

gestacion de España

التموقع instalacion

كما كان الأمر متمثلًا في فهم الواقع الخاص بإسبانيا، يجب أن نحول دون تقسيمه إلى "جوانب" توضح ذلك الواقع تحديدًا وتتسم هذه الجوانب بأنها جوهرية ويجب أخذها في الاعتبار لكن في إطار أنها جانب من ذلك الواقع الذي لا يمكن أن ينحصر فيها ولو كان في مجمله. كما لا يمكن تحديد ملامح إسبانيا بما يطلق عليه "ثقافة" وهي كلمة يساء استغلالها كما أنها غير واضحة بما فيه الكفاية في هذا الزمان. غير أنه من الممكن الحديث عن "ثقافة إسبانية"، إلا أن إسبانيا التي أبدعتها ـ رغم أنها لم تكن وحدها في حقيقة الأمر ـ لا تتألف منها.

وهي بالأحرى طريقة تموقع instalacion تُفهم من منظور معين، أي من ذلك الذي يتم البدء منه بشأن كل استشراف للمستقبل. وهنا أقول إنني أفضل هذه الصيغة، أفضل من عبارة "شكل حياة" أو "تنويعة إنسانية" وذلك للحيلولة دون أي تأويل جامد ودائم. الأمر عبارة عن واقع تاريخي ولا يكمن ذلك فقط في المعنى البديهي بأنها موجودة

في التاريخ، ومن خلالها يحدث التغيير، بل إنها تتم في التاريخ وتحدث تاريخيًا، ومن الطبيعي ألا تكون منعزلة ومنغلقة على ذاتها بل هي في حالة تفاعل مع أخريات وكمستوى ـ متغير أيضًا ـ في إطار أوربي الذي سوف ينظر إليه في لحظة ما على أنه غربي.

أريد أن أوضح مضمون لفظة "مستوى" التي أدرجتها في العبارة السابقة، لا يجب أن ننسى أن هناك تدرّجًا بين الشعوب. فـ"المساواة" igualitarismo يمكن أن تكون قاعدة عادلة عندما تعني وجود رغبة في إقرار المساواة في الحقوق، والمساواة أمام القانون والمساواة أمام الفرص المتاحة، غير أن ذلك افتراض كارثي عندما يتعلق الأمر بفهم ما هو واقع، فلا توجد مساواة في واقع، وقيمة جهد وحظ ومصير. وعندما يجري الحديث عن أفراد فإن المساواة المتعددة المجردة والبرجماتية لا تعني أن هناك مساواة في الواقع الفعلي، فهناك شعوب تتسم بأنها بشكل أو بآخر مبدعة وأصيلة وثرية وقادرة "على الاتصال"، ويمكن أن نقول شيئًا شبيهًا يطلق على الصور المتعلقة بكل واحدة من القطاعات الكبرى، أي تلك التي تتسم بأنها ذات مدلول تاريخي متسق عن العالم.

من المهم إذن اختيار منظور دقيق لدراسة ما هو إسباني، بدءًا باللغة شديدة الارتباط بتكوين شكل الحياة ذاك أو التموقع، وهو منظور يسمح بطبعه برؤية واضحة وبسيطة نسبيًا للكثير من المشاكل التي تتسم في الواقع التاريخي المحدد بأنها أكثر تعقيدًا وأكثر تمنعًا عن الإمساك بها. أضف إلى ما سبق أننا نجد أن تاريخ اللغة الإسبانية، ابتداء من الدراسات التي قام بها مننديث بيدال وانتهاء برفائيل لابيسا، قد تم بدرجة من الدقة أو الاكتمال اللذين ينقصان بالنسبة للتكامل الإسباني. يجب وضع اللغة الإسبانية في إطار المنظور العام للغات الرومانية، ويكون موضعها محددا داخل اللغات في شبه الجزيرة، بحيث يشرح ذلك سيطرتها التاريخية ومداها العام. اللغات الرمانثية romances من جانبها ليست جلية إلا من منطلق اللغة اللاتينية، وهذه الأخيرة أيضًا، ليس فقط في إطار اللغات الهندية الأوربية، بل من خلال التعايش التاريخي مع لغات أخرى بما في ذلك لغات من أصول أخرى مثل العربية. ولهذا فالأمر يتجاوز الاعتبار اللغوي بمعنى أنه يدخل اللغة نفسها. فهل ستكون اللاتينية "الشيء نفسه" إذا ما كانت لغة اللاثيو Lacio وليست لغة الإمبراطورية الرومانية؟

إن كل جزء تاريخي مرتبط بآخر في العالم هو ثمرة "عمل" عدد من الشعوب، فهل هي وحدها كل على حدة؟ ليس ذلك على الإطلاق، بل الأمر بالعمل مع الآخرين، فليس هناك من هو مستبعد، وقد أسهم الجميع في صناعة الواقع الفعلي للعالم غير أن هناك البعض الذين استطاعوا تجسيده، وإسبانيا واحدة من هؤلاء، ولهذا فإن لغتها هي واحدة من اللغات التي يمكن أن يطلق عليها يونفرسال "universals"، غير أن هذا لا يعني أن يتحدث بها الملايين، كثروا أم قلوا، ذلك أن هناك بعض اللغات التي يتحدث بها مئات الملايين من الناس وتعتبر "خاصة" وتفتقر إلى "العالمية". فهذه الصفة تنسب فقط إلى تلك اللغات التي تتحدث بها شعوب مختلفة، وكل واحدة من هذه اللغات هي وسيلة لتفسيرات قابلة للنقل متعلقة بالواقع الذي أسهم في تجسيد العالم في صورة حوار مع لغات أخرى ذات وظيفة مناظرة.

يجب أن نرى إسبانيا كدولة أوربية ولكن ليس على أساس أن الجميع على **نهجها**، وهنا فإن النهج الإسباني لأسباب محددة للغاية يتسم بالأصالة القصوى. وفي هذا المقام يمكن القول إن إسبانيا ليست بلدًا أوربيًا "مثل الآخرين"، فالاختلافات بينها في هذه الحالة الخاصة تتسم بدرجة مختلفة. وقد أدى هذا - طالما أن هذه البداهة قد فرضت نفسها - إلى **فصل** إسبانيا عن أوربا، والنظر، على أي حال، إلى إسبانيا على أنها أقل أوربية مقارنة بباقي القارة. وهذا في نظري خطأ أولي: فإذا ما كانت أقل بمعنى ما، فإنها أكثر أوربية بمعان أخرى، ودائمًا ما كانت بطريقة مختلفة انطلاقًا من افتراضات مختلفة وخاصة ما يتعلق بمشروع مختلف.

ولهذا من الضروري النظر إلى الواقع الإسباني، **من الداخل ونحو الخارج**، على أنه ميل إنساني نحو العالم. أما اعتبار المجابهة يمكن أن يؤدي إلى أن يُرسم في إجماليه وخاصة في التشابك الدرامي لمساراته. الأمر هو أن تقول إسبانيا بنفسها، ما هي وماذا أرادت أن تكون (رغم أنها لم تتمكن أو لم يتركوها) وما هي كناتج رغم كل شيء وماذا يمكن أن تكون.

المراحل

هناك وحدة سابقة على تكوين إسبانيا بالمعنى الذي لهذه الكلمة عندنا، لكنها لا تفتقر إلى واقع لهذا: وهو ما يمكن أن نطلق عليه "الأين" بالنسبة لإسبانيا. اتسم توجه التاريخ التقليدي في جميع البلاد الأوربية - فليس الأمر عبارة جانب ضعف إسباني - بأنه عبارة عن تحديد ذلك الفراغ الذي سوف توجد فيه أمة مع الأمة نفسها. وعكس ذلك يحدث أحيانًا حيث يُنظر إلى الوحدة الإسبانية على أنها أمر قريب الحدوث ولاحق على وجود دولة حديثة، أي أنه أمر "مضاف" إلى مجموعة من المجتمعات التي ربما لم تكن إسبانية.

هذان المفهومان المتضادان خاطئان بدرجة واضحة، وهناك مفاهيم بينهما ومفاهيم مذبذبة بعضها يحظى بالقبول، لكنها كلها تدخل في إطار غامض ومشوش ينبغي تبيانه. لقد شهدنا الطابع المتنوع والوحدة القوية، في آن معًا، في شبه الجزيرة الأيبيرية التي تحدّها سلسلة جبال البرانس والبحار ولها بروفيل لا تخطئه العين ودائم وقائم. وهذا ما رآه عامة الجغرافيين والمؤرخين اليونانيين والرومان. ومن الواضح أنه لم تكن هناك وحدة إنسانية إلا بعض السمات العامة رأى بوجودها كل من استرابون أو ترجو بوبمبيُّو Trog Pompeyo أو تيتو ليفيو. فالشعوب التي تسمى بالشعوب الأيبيرية والسلت والسلت أيبيرية - أي القطاع الاجتماعي الأكثر أهمية - إنما هي تفسيرات وحدوية لتنوع نجده في مجتمعات صغيرة، إثنية، ولغوية ودينية وهي لا تشكل بأي حال من الأحوال مجتمعًا يمكن أن نطلق عليه هسبانيًا Hispanica. شبه الجزيرة الأيبيرية هي وحدة ينظر إليها **من الخارج** وهذا ليس قليلًا كما يبدو، لأنها يمكن أن تتحول إلى "إطار" أو إلى ما أطلقت عليه "الأين" لإسبانيا عندما يكون هناك.

إن أول وحدة إنسانية لإسبانيا هي **محصّلة رومنتها**، وهنا يتم الإصرار غالبًا على أن ذلك كان مشوارًا طويلًا تمثل في التوغل إلى الداخل والسيطرة والتنظيم، بمعنى أنه لم يكن مجرد احتلال أو غزو ولهذا كان فعالًا من الناحية الاجتماعية. وقد وضعت روما لشبه

التكوينات الأصلية في كل واحدة من المقاطعات الأفريقية المستعمرة، وكذا عملية تشكّل هذه التكوينات وجماعيتها. أريد القول إن مصادفة الاستعمار الأوربي خلال القرن التاسع عشر قد أحدثت تأثيرها بطرائق شديدة التنوع على مناطق جغرافية نادرًا ما كان فيها "وحدة" شبيهة بما عليه شبه جزيرة أيبيريا، والأكثر من هذا إشكالًا تمثل في أن ذلك العمل الاستعماري كان ذا شبه بالاستعمار الروماني.

ووصل الأمر بوحدة هسبانيا Hispania مع مرور الزمن إلى مجتمع، إلا أن هذا لم يصل آنذاك إلى كونه إسبانيا رغم أن مجتمعنا الحالي منبثق عنه. أما المرحلة الفعلية الثانية التي يمكن أن نطلق عليها إسبانيا، رغم أنها تفتقر إلى الوحدة السياسية ولها الكثير من السمات التي تبدو لنا اليوم بأنها حاسمة، أي أنها **مجتمع إسباني** بالمعنى الدقيق للمصطلح، فإنها - أي المرحلة - ستوجد بعد ذلك بزمن طويل، وليس من الممكن أن تحدد لها تاريخًا موثوقًا به لأن الأمر عبارة عن عملية حَمل اجتماعي طويلة وبطيئة، دون السرعة التي يمكن أن يتجلى بها حقل الحرب أو السياسة، وقد بلغت نضجها في عصور مختلفة طبقًا لأبعاد الحياة الجماعية، وكذا - من جانب آخر - طبقًا لمساحات الأراضي. أريد القول إن تكوّن ذلك "المجتمع الإسباني" في إطار "الوحدة"، أي إسبانيا، ليس متزامنًا بل إن أجزاءه أخذت تتكامل بالدرجة التي تصل فيها إلى المستوى الملائم من الحيوية vigencias أو أن هذه الأخيرة يتم بثها من خلال نواه - أو عدة - إلى تلك المناطق النائية والمنعزلة طوال زمن طال أم قصر.

المرحلة الثالثة الفاصلة هي التكوين، في نهاية القرن الخامس عشر، حيث تكونت من **الأمة الإسبانية** إلى إسبانيا الأمة. ولا يتوافق ذلك الحدث التاريخي ولو من بعيد مع "ميلاد" إسبانيا، التي كانت موجودة على أي حال منذ عدة قرون سابقة على البنية المسماة أمة. وأكثر من هذا، وكما سنرى، كان ذلك متزامنًا مع ظهور أوربا بهذا الشكل من التعايش التاريخي الاجتماعي والسياسي الذي نطلق عليه أمة، ذلك أن هذا سوف يكون

حاسمًا خلال العصر الحديث لدرجة تأثير ذلك على التفسيرات والتأويلات المتعلقة بجميع المجتمعات الإنسانية خارج أوربا أو قبل ذلك التجديد الذي تولد عن عصر النهضة.

تلاحظ الأهمية غير العادية لإسبانيا كأمة، وكذا استمراريتها لما يزيد على خمسمائة عام حتى اليوم واستمرارية ذلك الصنف من البنية على مدار القرون المتوالية بالنسبة للتاريخ وبالنسبة لتوطيد صورة مختلف الدول في أذهان الأجانب وفي أذهان أبنائها، أدى كل ذلك إلى أن يتم النظر إلى إسبانيا على أنها الأمة التي أصبحت على ما هي عليه، ولكن دون ملاحظة أن المجتمع الإسباني هو أكثر قدمًا بكثير وفيه تكمن الجذور الخاصة بالمجتمع الوطني.

غير أن من المهم الوقوف من الآن ضد الخطأ الذي تستهدف هذه الدراسة إيضاحه ألا وهو الاعتقاد بأن الأمة هي المرحلة الأخيرة لإسبانيا. فما يمكن أن يكون حقيقة بالنسبة لأغلب الدول الأوربية لا ينسحب على الحالة الإسبانية. فإسبانيا بعد اللحظة التي تم فيها مباشرة ابتداع الأمة كيفية للتعايش وكشكل سياسي أخذت تذهب إلى أبعد من هذا وتكتشف عملية تجاوز المرحلة، ليس من منظور المضمون ولكن من المنظور الفعلي والتنفيذي.

نجد أن إسبانيا هي ما كانت ابتداء من الأعوام الأخيرة من القرن الخامس عشر حتى الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر، أي الملكية الكاثوليكية أو الملكية الهسبانية Hispania، أي ذلك الاتحاد بين شعوب غير متجانسة لكنها متحدة ولكن ليس تحت راية التاج بل يوحدها مفهوم ذلك التاج الذي يجب أن يوضع في مكانه. إن وصل الأمة الإسبانية بالمعنى المحدد بالتاج الهسباني Hispanica ـ أي بالإسبانيات Españas إذا ما فضلنا هذا التعبير ـ سوف يكون السند والمشكلة في آن معًا لإسبانيا خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، كما أن عدم الفهم الخارجي لذلك الواقع سوف يكون

له تأثيره على الإسبان بشكل يجعلهم - ما عدا بعض الحالات المحدودة - وقد عموا عما هم عليه فيما يتعلق بعملية تكوينهم تاريخيًا. لا يوجد ما هو أكثر تأثيرًا من هذا المجتمع من الشعوب التي تتناقش حول واقعها الذي اقتضته الصور غير الملائمة والمستخدمة في طريق فهمه لذاته.

ولا يظن البعض أن التاريخ ينتهي هنا، فانفصال دول القارة الأمريكية حتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر والذي اكتمل بكوبا وبويرتو ريكو والفيلبين عام ١٨٩٨م، جعل إسبانيا **تبدو وقد عادت لتكون أمة**، على شاكلة أمم أخرى في أوربا مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وفي الوقت ذاته نجد أن الدول التي استقلت في أمريكا تنظر إلى نفسها على أنها "مستعمرات" وذلك من خلال تفسير تم ضخه من الخارج وسيرًا على الأنماط الاستعمارية الفرنسية والإنجليزية خلال القرن التاسع عشر.

يبدو أن إسبانيا نسيت ما كانت عليه طوال ثلاثة قرون وكأن هذه الحقيقة لم تعد تقوم بدورها، ومن جهة أخرى نجد البلاد الأمريكية وقد بدأت طريق تكونها على أنها بلاد مستقلة أو "أمم" انطلاقًا من خطأ فادح: هذا هو أساس الأزمة المستمرة الذي تقع فيه بلد وأخرى، ولو أن هذا يمكن أن يندرج على بعض الأبعاد فقط، اعتبارًا من لحظة الانفصال.

ويلاحظ القارئ أن الأمر الذي يبدو لي كارثيًا، لا يتمثل في الانفصال نفسه، رغم أنه كان مبكرًا، ذلك أن الأمر الخطير هو التأويل الخاطئ للواقع الفعلي سواء في إسبانيا أو أمريكا. ورغم أن الأمر قد ينظر إليه على أنه مبالغة، أقول إن جذور مشاكلنا الأخيرة هي **خطأ ثقافي**.

غير أننا شهدنا أن التاريخ (ولو كان هذا في اللحظة الراهنة على الأقل) لا ينتهي، وأنه لا يوجد مسار أخير للمجتمعات على شاكلة المرحلة الأخيرة من حياة إنسان. ففي التاريخ لا يوجد شيء نهائي ولا حتى ذلك الخطأ الذي تعثرنا به للتو، وهذا يعني أن هناك

وقتًا. وقتًا لماذا؟ أي بأنه لم تحدث الأضرار التي وقعت؟ لا، هناك وقت لأن تنتهي من أن تكون أضرارًا.

المضمون

قد يبدو هذا الفصل الموجز غير ملائم، ففيه يتم تقديم ما سيكون عليه الجزء الرئيسي من هذا الكتاب، رغم أن المقدم في شكل غير مبرر تبريرًا كاملًا. وأعتقد أن التبرير موضح بما فيه الكفاية حتى يمكن أن يكون ما قبل موضحًا بالبداهة، إلا أن هذا لا يعفي من تقديم أدلة وبراهين أكثر كثافة واتساقًا.

وعلى هذا نتساءل: هل هناك مغزى تقديم شيء عما سيكون الجزء الكبير في هذه الدراسة؟ أعتقد أن له مغزى، وفوق هذا يتسم بأنه ضروري. فإذا ما أريد أن تكون صورة إسبانيا جليّة في نهاية المطاف، يجب أن يكون الكتاب الذي يتولّى محاولة هذه المهمة واضحًا وجليًا.

وهنا نقول إن أي شيء إنساني لا يمكن فهمه هو تلك الحركة البندولية التي تذهب من الماضي إلى المستقبل، وبذلك تنير الحاضر أي من ذلك الشيء الذي استقر فيه والذي منه يبدأ وحتى نهاية المشروع الذي يحركنا والذي يؤثر على التركيب الذي يكمن وراء ظهورنا ليجعله مرئيًا.

نقول ما سبق بطريقة أخرى، وهو أن الجلاء في الرؤية يتطلب **مضمونًا** فإذا لم يُر إلى أين نحن ذاهبون لا يُفهم الطريق ولا نقطة الانطلاق. إن فهم الواقع الإسباني، الذي ينادي به السرد -كما شهد قبل ذلك - لا يمكن الوصول إليه من خلال سرد الماضي ببساطة. من الضروري أن تكون هناك نقطة الانطلاق، لا للتاريخ ولكن للسرد، بمعنى الحاضر. غير أن هذا الأخير غير كاف نظرًا للوضع المستقبلي للإنسان: ذلك الحاضر ينظر إلى المستقبل، وموجهًا نحوه ومنه يتلقى الدافع والمغزى.

إذا لم يكن هناك أمام أعيننا أفق إمكانياتنا ومقاصدنا لا يمكن لنا أن نفهم واقعنا الحالي، والأكثر من هذا عدم فهم ماضينا الذي يُرى فقط على ضوء إمكانياتنا ومقاصدنا وليس من أجلها. أعتقد أن هذه الصيغة هي مفتاح ما أريد قوله، فالتقدمية تحول دون الوجود الحقيقي لكل عصر مضى، وبالتالي لكل عصر حيث يفهم أنه فترة "إعداد" للعصر التالي. وهنا فإن الإطار السردي الظاهري للماضي يزيل منه ما كان لديه من شد نحو المستقبل ولا يراه في واقعه الجوهري الذي يعتبر بداية واستشرافًا ولا يراه في واقعه الجوهري المسبق وزاويته.

وفي نهاية المطاف كان من الضروري الهروب من البداية إلى سراب "إسبانيا فقط" ذلك أن إسبانيا منذ أن أصبحت أمة لم تكن أبدًا إسبانيا وحدها. كان يجب أن تُدِخل قبل الولوج إلى عملية إعادة تشريع تاريخنا، شخصيات الدراما.

الفصـل السـادس

الرومنة كأول هسبنة

Hispanizacion

نمط حياة:

تحقق ما لم يكن قد وُجد بين الشعوب البدائية في شبه الجزيرة، وما لم يستطع الوجود الجزئي للفينيقيين أو القرطاجيين أو اليونانيين أن يحدثه، في شكل واقع، عندما دخل الرومان. لم يكن الأمر مجرد احتلال عسكري فقط أو وجود عدة مقارٍّ لتأكيد السيطرة وإدارة الأراضي بل كان أبعد من هذا، إذ تحولت إسبانيا إلى **محافظة** رومانية (محافظة واحدة أو ثلاثة، هذا أمر ثانوي ومجرد إجراء إداري) ونشأ عندئذ نوع من الوحدة وكان هذا فقط في بعض المستويات العليا، ولما أخذت تتوغل وتتكون ببطء جميع طبقات الحياة، فإنه عند الوصول إلى القرن الأول قبل الميلاد، ولا نقول بعده، بدأت تتبدى نمطية حياة وبداية شخصية جماعية. هل هي إسبانية؟ لا، لا حتى تلك اللحظة: **هو نمط حياة رومانية**، وبنية اجتماعية محددة بوضوح في روما، إنها هسبانيا.

الهسبان ليسوا إسبانًا بل **تنويعة من الرومان** ـ بالمعنى الواسع للكلمة ـ وأخذ ذلك ينمو لدرجة أنه يجب الأخذ في الحسبان ظاهرتين مهمتين للغاية ومثيرتين للدهشة. الأولى هي أن هسبانيا شاركت في اتخاذ القرارات في الموضوعات، وكذا تقرير مصدر

وبشأن ما يحدث على الأرض الإسبانية ـ الحرب الأهلية بين يوليوس قيصر وبومبي هي من أبرز الأمثلة على ذلك، أما الثانية هي أن الهسبان Hispani شاركوا بشكل فعال في الشئون الرومانية في روما نفسها وكانت لهم شخصيتهم البارزة وخاصة في حالة الأباطرة الرومان من ذوي الأصول الهسبانية.

وكانت للهسبان بصماتهم القوية والعميقة على الحكومة والفنون والآداب والديانة المسيحية في العالم الروماني هناك سينكا ولوكانو ومارثيال وكينتليانو وإيجينو وكوموميلا وتراجان وهادريان وتيودوسيو وأوسيو وبرودنثيو وأسوريو وبربسيليانو، وهؤلاء جميعهم لم يكونوا "إسبانًا" ـ لأنهم لم يكونوا كذلك في ذلك الحين ـ لكن نتساءل: هل يمكن أن ننكر عليهم وضعًا متميزًا بين الرومان وهو الانتساب إلى تلك المحافظة الفريدة المسماة هسبانيا؟ كما أنهم على وعي بهذا الوضع، وكان ذلك واضحًا بجلاء أحيانًا مثلما هو الحال بالنسبة لمارثيال، ولا نقول إنه أتى بعده برودنثيو. ووصل الأمر ببيليو باتركولو Veleyo Paterculo إلى القول: إن بالبو كور نليو ليس محل ميلاده إسبانيا بل هو "إسباني" أي أنه إسباني حقيقي.

أثرت هذه السمة الخاصة بالمحافظة على اللغة كذلك، وهنا تذكر هذه الجملة التي قالها إنيو Ennio "تذكر أنني أتحدث الإسبانية وليس الرومانية" بمعنى أنني أتحدث "على الطريقة الإسبانية وليس على الرومانية" أي اللاتينية بالطبع.

وعندما تُرى الأمور من منظور آخر يمكن القول إن قطاعًا مهمًا من الرومان كانوا من أصول إسبانية وقد حملوا إلى روما بعض السمات الخاصة بهم وأسلوبهم ووجود طابع خاص بهم كان قد أخذ في التّشكل. كما أن وزن هسبانيا في إطار الجمهورية الرومانية كبير للغاية وزاد أكثر في عصر الإمبراطورية. هناك مدن قديمة سابقة على العصر الروماني مثل قادش أو أشبيلية، كانت تعد من المدن الأكثر أهمية. وقد أشار مننديث بيدال كيف أن استرابون ذهب إلى هسبانيا في إطار تنامي رومانيتها وذكر بالبو،

ابن مدينة قادش، الذي ساهم في كبر حجم مدينته مسقط رأسه، التي أصبحت المدينة الثانية في الإمبراطورية من حيث تعداد السكان، وكان بها، على زمن أوجست، خمسمائة فارس وهم كُثر على شاكلة ما هو موجود في Padua بادوا المدينة التي كان بها عدد أكبر في إيطاليا. كان هناك آل باليو (العم وابن أخيه) أول القناصل الذين يمثلون المحافظات في روما (خلال عام ٤٠ و ٣٢ ق.م). أما الثاني الذي تحدث عنه استرابون فهو أول رجل ليس من شبه جزيرة إيطاليا الذي حاز في روما عمل التتويج بالقصر لانتصاره في أفريقيا عام ١٩.

وما يبدو أكثر أهمية في نظري، ولم يحدث أبدًا أن حظي بدراسة وافية، هو أن تلك المدن وأخرى كثيرة غيرها، ظلت موجودة حتى يومنا هذا، بمعنى أنها أصبحت في لحظة ما **مدنًا إسبانية** (من المعروف أنها لم تكن كذلك خلال العصر الروماني)، وهذا كان يمثل بالنسبة لها تجديدًا تاريخيًا، أي الدخول في إطار جديد. ومن جهة أخرى من البديهي أن إسبانيا أتت من تلك **الاستمرارية** وتشكلت بصفتها مجتمعًا، انطلاقًا من تلك المدن الألفية والتي من خلالها توجد وشائج مع ذلك الماضي البعيد، وإذا ما تم النظر إلى شبه جزيرة أيبيريا في إجماليها سوف يسترعي النظر عدم إمكانية تفكيك المجتمع الإسباني الحالي (أو مجتمع العصور الوسطى) وإعادته إلى مجتمع القرن الثالث الميلادي حيث من المؤكد أنه لم يكن إسبانيا، غير أن هناك بعض المكونات من مجتمعات مختلفة وخاصة الحضرية والتي كانت استمرارية له. وهذا أمر حاسم ويستحق المزيد من الاهتمام.

مدن وطرق:

يشعر المرء بالدهشة من الكثافة الحضرية في هسبانيا مقارنة بباقي المحافظات الغربية للإمبراطورية الرومانية. ورغم أنه ليس من السهل تحديد مساحات المدن وتعداد سكانها خلال العصور المختلفة فإن أهميتها ملحوظة وتشهد على ذلك الأطلال التي ما زالت قائمة وتلك التي اكتشفها ولا تكاد تجري حفائر، في مناطق كثيرة. وما يهمني هنا

هو أن المدن هي المراكز التي ترى بلد ما نفسها فيها وتصبح على وعي بواقعها، وتبرز بشكل موحد. ولا يمكن التوصل إلى شيء من هذا من خلال بنية ريفية. المدن هي أدوات التعايش والحوار وجلاء المشروعات. وتعبر البلاد عن نفسها من خلال المدن ويزداد هذا كلما زادت فيها أماكن اللقاءات والتعايش. هكذا كانت وظيفة **الميادين** في بعض مناطق العالم وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط (الميدان الكبير، الملتقى، الميدان). كانت الرومنة عملية امتداد عمراني دائمًا، وكان هذا الامتداد بدوره العنصر الرئيسي للهسبنة في شبه جزيرة أيبيريا، أي مولد مجتمع هسباني (أو إن شئنا القول هسباني روماني) بالنسبة للتنوع الإثني للأراضي التي كانت مجزأة قبل ذلك.

ويشكل مواز لتلك العلاقة بين الأفراد التي تتمخض عن وجود المدينة، هناك علاقة أخرى بين المدن تقوم بعملية الوحدة والاتساق للأراضي ومختلف سكانها، وهذه هي وظيفة **الطرق**. من الصعب علينا معشر أبناء زماننا هذا أن نتصور وضع **العزلة** التي عاش فيها العالم حتى وقت قليل مضى ولا نقول خلال العصور القديمة. فلم تكن الوسائل الميكانيكية للاتصال هي الغائبة فقط بل كانت الطرق: كانت الأرض غاية في الصعوبة في باب الانتقال عليها باستثناء بعض المسارات القليلة ذات الأولوية. ومن المعروف أن الرومان شيدوا طرقًا رائعة كانت تربط بين شتى أنحاء الإمبراطورية، وكان السبب الأساسي وراء ذلك عسكريًا، ذلك أن عناصر الجيش كانت صغيرة مقارنة بالمساحات الشاسعة للأراضي وامتداد الحدود. كانت الطرق ضمانًا لحركة القوات وكانت العامل الإستراتيجي للميكنة.

غير أن الطرق كانت أيضًا من الأدوات التي تسهل نقل الركاب والبضائع، وكانت تقيم شبكة اتصالات في كل واحدة من المحافظات التي هي جزء من رومانيا وبين بعضها بعضًا وخاصة في كل نقطة في الأطراف بالنسبة لروما. لم تكن الطرق مجرد طرق مرسومة على الأرض ومعبدة بطريقة ماهرة وظلت قائمة لأعوام طويلة وحتى اليوم في كثير

من الحالات، بل هناك في كل ميل الكتل الحجرية التي تحدد الميل (المسافة) وفي كل ثلاثين ميلًا تقريبًا كانت هناك مبانٍ بها مقار للإقامة وخيول وثيران وبغال وعربات.... إلخ. وفي المناطق الوسط بين هذه المباني كانت تتم عمليات الإحلال من خلال أعداد قليلة من الخيل.

كان الرومان يميزون بين **الطرق الحربية** (وكان يطلق عليها أيضًا قنصلية أو قضائية) والطرق **الخاصة بالسكان** التي كانت أقل أهمية لكنها كثيرة الأمر الذي جعل شبكة الاتصالات كثيفة. ويتضمن المسار الذي اتخذه أنطونيو أوجست كاركالا الطرق التي كانت في "سجل الحاكم"، أي الطرق الحربية. هناك ٣٧٢ مسارًا إجماليًا، منها ٣٤ تتعلق بهسبانيا ويبلغ إجمالي أطوالها ٦٩٢٦ ميلًا (أي ما يقرب من أحد عشر ألف كم، فالميل الروماني كان يزيد قليلًا على كيلو متر ونصف طولًا). وعندما نحصي جميع الطرق نجد أنها تبلغ ٢٠ ألف ميل أو أكثر من ٣٠ ألف كم.

تتسم الطرق الرئيسية المكونة من أربعة وثلاثين مسارًا بأنها ضخمة: منها من جبال البرانس الشرقية حتى ليون، ومن طرّكونه حتى إقليم الأندلس، وهناك العديد من المسارات في إطار باطقة، ومن لشبونة حتى ماردة وبراغا، ومن براغا حتى أستورجا مع وجود مسارات عدة، ومن أيامونتي حتى ماردة، ومن ماردة حتى سرقطة، طريق قصرش، وسلمنقة وسامورة وطورو وكوكا وشيقوبية وسيجوينثا وقلعة أيوب، ومن أستورجا حتى سرقطة من خلال عدة طرق أحدها عبر سلياتيرّا وبمبلونة حتى رونشبابيس... ويكتمل هذا مع الطرق المزدوجة للأهالي وعندئذ سوف تتكون فكرة عن الروابط بين الأراضي والسكان في إسبانيا الرومانية. ولأول مرة نجد في شبه الجزيرة الأيبيرية شيئًا يمكن أن يطلق عليه مجتمعًا، وبلدًا وشكلًا من التعايش يمكن من خلاله قيام مشروع تاريخي. لم تصبح حتى ذلك الحين إسبانيا بكل ما تعنيه الكلمة، لكن ليس هناك شك في أن إسبانيا **تأتي** من ذلك المجتمع الذي تحمل اسمه – وهذا ليس مصادفة – وهو هسبانيا.

اللغـــة:

يعتبر التنوع اللغوي واحدًا من الصعوبات الجمة في سبيل تكوين مجتمع وخاصة عندما تكون اللغات التي يجرى التحدث بها على أرض ما غير "شفافة" بل كانت شديدة التنوع وغير قابلة لإحداث الاتصال. كان التنوع اللغوي خلال ما قبل العصر الروماني في شبه جزيرة أيبيريا كبيرًا للغاية ولا شكّ أن هذا العنصر وحده كان كافيًا ليكون عقبة في سبيل تكوين مجتمع موحد. فالتعددية اللغوية في حد ذاتها فقط لا تحول دون تكوين المجتمع وخاصة عندما تكون هناك روابط أخرى أعلى، مثل مشروع تاريخي مشترك وكذا درجة من التطور الثقافي التي تجعل من الممكن تجاوز هذه العقبة من خلال معرفة لغات أخرى رغم أنها قد تكون ضئيلة، غير أنه في إطار المرحلة البدائية نجد أن العقبة كئود وهذا ما يوضحه بجلاء تاريخ الشعوب الأفريقية أو الآسيوية أو الأمريكية.

كانت اللغة اللاتينية هي الإمكانية المتاحة أمام الهسبان ليتحدثوا ليس فقط مع الرومان ولكن فيما بينهم. ومن الواضح أن اللغات المحلية ظلت قائمة طوال زمن طويل، وخاصة في المناطق الريفية أو المناطق التي حظيت بالقليل من الرومنة. سيطرت اللاتينية سريعًا في المدن وانتهى بها الأمر إلى أن غطت على اللغات الأصلية بالكامل، أما في باقي الأراضي، فقد اختفت تلك اللغات إما بشكل سريع أو ببطء ولم تترك إلا بقايا صوتية وبعض المفردات وبعض الأبنية النحوية القليلة وكثيرًا من الآثار المتعلقة بأسماء الأعلام الجغرافية [١٣]

الاستثناء الوحيد هو اللغة الباسكية التي ظلت محافظة على نفسها بطريقة مذهلة حتى اليوم، ومن الواضح أنها تتضمن عددًا كبيرًا من المفردات اللاتينية أو من اللغة الرومانث القشتالية ومن الإسبانية الحديثة بعد ذلك. لكن اللغة الباسكية مع كل

---

(13) انظر في هذا المقام كتابا عظيما هو "تاريخ اللغة الإسبانية" تأليف رفائيل لابيسا ـ الطبعة الثامنة ـ مدريد ١٩٨٠م.

(13مكرر) يمكننا مقارنة ذلك بالوجود الكثيف للأصوات ذات الأصول الإسبانية في اللغة الـ tagalo

الاستعارات المختلفة من اللغات الأخرى ظلت كما هي كلغة حية رغم أنها لم تكد تكون مكتوبة ومختزلة في انتشارها واستخدامها.[١٣]

لم تكن اللاتينية فقط لغة الغزاة بل كانت لغة مجتمع بشري في حالة توسع انتهى به الأمر إلى أن يشمل حوض البحر الأبيض المتوسط والتعمق الواسع في كلا الشاطئين. إنها أول لغة "عالمية" universal مشتركة بين بلاد مختلفة، وتتحدث بها أغلب هذه البلدان، وهي في كل حال لغة اتصال وكتابة على يد أقليات نشطة ومترابطة فيما بينها. كما كانت إضافة إلى ذلك وعاء لثقافات أخرى تمثلها الرومان وضموها إليهم وخاصة الثقافة الهلنستية. أريد القول إن إدخال اللاتينية بين الهسبان جعلهم يدخلون العالم من حيث أنهم قوة رائعة في الانتشار.

هناك أمر آخر هو أن اللاتينية لغة مكتملة اكتمالًا غريبًا، فقد تمت تقويتها من خلال موروث طويل في الجوانب الأدبية والخطابية والقانونية، وهي لغة رائعة في التعبير والدقة والقدرة على توليد صيغ تعيش على مدار قرون وصوتياتها واضحة من السهل استيعابها وهي قابلة للاتصال بها (إنها السمة الكبرى التي تحتاجها لغة رائعة مثل اللغة الإنجليزية والتي كانت ضمن الصعوبات في سبيل انتشارها) كانت اللغة اللاتينية التي تتسم بالدقة الشديدة أداة ملائمة في باب القانون والحقوق المتعلقة بالعقود والعلاقات القانونية من كل نوع، ثم أصبحت بعد ذلك الوسيلة الرائعة في الطقوس المسيحية، وبعد ذلك في اللاهوت وفي الفكر التنظيري بشكل عام. وعند أي مقارنة بين دلالة الرومنة وبين ما تمثل في النفاذ التجاري أو الحربي للفينيقيين أو القرطاجيين أو اليونانيين يجب الإلحاح على الهوة الكبيرة التي تفصل بينها من منظور تشكيل مجتمع سوف يكون إسبانيا في يوم ما. فبفضل الرومنة أصبح سكان شبه جزيرة أيبيريا معًا وفي العالم، بمعنى أنهم في الإطار الذي ستوجد فيه إسبانيا.

الانحطاط الأول للغرب:

لم يحدث دائمًا أن لوحظ أن الوزن النوعي لهسبانيا في إطار الإمبراطورية اليونانية لم يرجع فقط إلى أهميتها الاقتصادية والحربية، بل إلى تطورها الحضري وازدهارها الثقافي والمساهمة في الحياة العامة الرومانية ووصل الأمر إلى أن يخرج من هسبانيا أباطرة. وكان هذا الوزن حاسمًا في باب التوازنات في العالم الذي تسيطر عليه روما. كانت إسبانيا عنصرًا قويًا من عناصر "إضفاء الطابع الغربي" في مواجهة كل ما يعنيه العالم الهلنستي والمهلنس من المنظور السكاني والثقافي، ولم يشمل ذلك اليونان نفسها وآسيا الصغرى بل مصر ومناطق آسيا التي تأثرت في بداية الأمر باليونان ومقدونيا ثم بعد ذلك بالغزوات الرومانية. وعندما يجري التفكير في الإمبراطورية الرومانية يتم ربطها، ولا مناص، باللغة اللاتينية، لكن لا يمكن نكران الفاعلية الكبرى للغة اليونانية في الشرق بالكامل وحتى في روما وخاصة بين المجموعات الأكثر ثقافة.

كان توسع روما نحو الغرب، وهذا يشمل بلاد الغال Galias وخاصة هسبانيا، يمثل دعمًا كبيرًا للاتينية التي تلقت دفعة قوة جديدة من خلال غزو PanoniaوDacia، التي هي رومانيا الحالية وقام بذلك الإمبراطور تراجان ذو الأصل الإسباني.

في مقال قديم نشر عام ١٩٣٦ بعنوان "ماركو أوريليو أو المبالغة"[١٤] حيث انتقدت الإمبراطور الرواقي على هذه الجملة التي قالها: "مدينتي ووطني هي روما مثل أنطونيو، لكنني كإنسان (وطني) العالم". كانت هذه الكونية خطأ، فلم يكن العالم حتى ذلك الحين - وليس هو اليوم - مجتمعًا موحدًا، ولم يكن كذلك الوطن الفعلي. فوطن ماركو أوريليو كانت الإمبراطورية الرومانية، غير أن روما لم تستطع أبدًا أن تنقل بكفاءة مفهوم الدولة ـ المدينة، من الرقعة الحضرية روما، وكان هذا هو السبب الرئيسي في انحطاط الإمبراطورية.

---

(14) في "سان أنسلمو وغير الحصيف" (الأعمال الكاملة، الجزء الرابع).

وهنا نجد أن تحويل كل هذا البناء التاريخي الضخم إلى محافظات أخذ يفرض نفسه بقوة، إلا أنه يمكن القول إن ذلك حدث بطريقة أمبريقية ينقل السلطة إلى المحافظات الهسبانية والأفريقية ـ دون تشكيل مناسب للبنية السياسية والاجتماعية. فقد قام كاراكالا عام ٢١٢ بمنح المواطنة الرومانية لكل رعايا الإمبراطورية: كان ذلك متأخرًا للغاية ولم ينعكس بشكل على الروابط بين المحافظات في سيرها في إطار مشروع تاريخي مشترك، وغير ذلك كان الأمر ضبابيًا. يقول مننداث بيدال[15] "انتهت روما للتو من تسليم الحكومة للشعوب المهزومة على يديها، وهذا حدث لا مثيل له في تاريخ الإمبراطوريات الكبرى، ومع هذا ظل بنيانها قائمًا في منشآتها مثل المعابد والأسوار والطرق وقناطر المياه وكانت في هذا أكثر من تلك **infinita cupidita aidificandi** وما خلفته وراءها للقرون التالية". هذا صحيح، غير أن هناك تلعثمًا في المشروع التاريخي، أخذ يظهر تدريجيًا منذ القرن الثالث ووصل إلى أوجه في القرن الرابع.

لم يتحول الحلم الوحدوي الروماني القديم إلى سراب بالكامل، وفي هذا المقام كتب روتيليو ناما ثيانو، من الغال، يقول: "أقمت حاضرة لما كان قبل ذلك دائرة orbe". ثم يضيف مننداث بيدال بحماس إلى الكلمات السابقة قائلًا: "تمثلت القوى الموحدة غير العادية لهذه المساحة الضخمة في القانون الروماني الذي يحظى بالإعجاب، وكذا البحر الأبيض (بحرنا) الذي أصبح في إطار سيطرة واحدة، فلم يصبح المحيطات المفرِّقة عند هوراس بل أصبح بحر التجمع والقلب الذي كان يجمع بنبضه الحي جميع شعوب تلك الدائرة orbe".

غير أنه على زمن دقلديانوس تحقق الانقسام الذي بدأ في الإمبراطورية حيث انقسمت إلى نصفين، الشرقي والغربي. كان دقلديانوس من دالماتيا: عاش من ٢٣٥ إلى ٣١٣. وقبل وفاته بعشر سنوات، أي عام ٣٠٣، زار روما لأول مرة. ورغم أن سلطانه

---

(15) إسبانيا وتاريخها، مدريد ١٩٥٧م الجزء الأول، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

كان اسميًا الإمبراطورية، احتفظ لنفسه بالإمبراطورية الشرقية مثل أوجست، والتي أصبحت منذ ذلك الحين الجزء الرئيسي، وترك لماكسيمانو الجزء الغربي. أقام دقلديانوس مقره في نيكوميد Nicomediai، في آسيا الصغرى، أما مقر ماكسيميانو فقد كان في ميلان وليس في روما، وبالتالي زالت من حيث كونها الرمز الأعلى للمركز التقليدي والأصيل للإمبراطورية.

كان هذا أول "انحطاط في الغرب". ربما كان الانحطاط الوحيد الحقيقي، ذلك أن الانحطاط الذي أشار إليه سبنجلر منذ ما يقرب من سبعين عامًا، وتكرر ذلك العديد من المرات ويؤدي به، لم يكن إلا ميلا غير مرغوب فيه كثيرًا. أخذت الإمبراطورية الغربية تحتل مكانًا ثانويًا، وسرعان ما جرى غزوها وتقسيمها على يد الغزوات البربرية. أما الشرقية فكانت على العكس من ذلك إذ ظلت تقاوم حتى استيلاء الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣م، واتخذوا عاصمتهم في "روما الجديدة"، وهو الاسم الذي أطلق في الأصل على بيزنطة القديمة عندما أعيد تأسيسها وزيادة رقعتها على يد قسطنطين عام ٣٣٠م، لكن ذلك الاسم الذي كان يمثل الاستمرارية والقطعية في آن معًا لم يستمر طويلًا واحتل مكانه اسم القسطنطينية، مدينة قسطنطين.

يقول مننديث بيدال: "مع كل هذا نجد أن روما لم تسقط فقط بل الغرب بالكامل. وفيما يتعلق بإسبانيا، فإننا نراها وقد فقدت أهميتها السياسية القديمة وأصبحت في نهاية طرف الرقعة المعروفة، دون أن تكون قريبة من أي عدو، ودون أن تحدث مشاكل حدودية، وأخذت تعاني من غربيتها الشديدة". وبالنظر إلى الغال Galias، التي كانت درجة تطورها أقل، وأقل رومنة بالمقارنة فقد أخذت تكتسب أهمية حربية نظرًا لقربها من نهر الراين وضغط الشعوب الجرمانية التي سرعان ما أخذت تنفذ إلى حدود الإمبراطورية.

فات الزمن الذي كان فيه بلينيو Plinio يرى بأن هناك بلدين بارزين هما إيطاليا ثم إسبانيا، وفات الزمن الذي كان فيه سكتو باكوبيو S. pacuvio ـ عندما تلقى من مجلس الشيوخ لقب أوجست عام ٢٧ ق.م ـ ينصِّب الأمير "على طريقة الأيبيريين" وكان الهسبان يشعرون بالحماس لهذا الوضع الجديد، في ظل ملك سوف يحكم من حيث المبدأ الجميع بالتساوي سواء كانوا من الرومان أو من أبناء المحافظات، وفات الزمن الذي أقر فيه فسباسيانو vespasiano القانون اللاتيني على جميع الوحدات البلدية لإسبانيا وكان يقال عنها وخاصة عن باطقة إنها كانت "أكثر رومانية من الرومان".

إسبانيا الآن توجد في طرف قصّي، وقد أقصيت عن روما التي لم تعد روما الحقيقية، وغطت عليها بيزنطة، وأصبحت مهددة من كل مكان. وقد أحدث الانحطاط الغربي أثره على الطرف القصيِّ، على "نهاية العالم"، وهو خطر سوف يعود للظهور المرة تلو الأخرى طبقًا للتحولات الخاصة بالتوازن الدولي. غير أن هسبانيا لم تتأخر كثيرًا في استعادة بروزها غير المتوقع.

الفصل السابع

إسبانيا القومية من حيث هي إعادة بناء

ظهور أوربا:

إذا ما أريد البدء من البداية، وبما هو أولى، وربما كان هو الأكثر أهمية، يجب القول إن الأمر الحاسم الذي تعنيه الغزوات البربرية للإمبراطورية الرومانية بالنسبة لهسبانيا هو أن المنطقة التي نسميها اليوم أوربا أخذت تظهر في تاريخها لأول مرة. فحتى ذلك الحين كان كل من يأتي إلى شبه جزيرة أيبيريا قادمًا من البحر وعبر البحر الأبيض المتوسط هم الفينيقيون والقرطاجيون واليونانيون، حيث أتوا جميعهم إلى الشواطئ الإسبانية، ومن هناك أخذوا في التوغل إلى الداخل للقيام بأعمال التجارة والحرب أو الإقامة. وكانت جبال البرانس حاجزًا جبليًا يفصل شبه الجزيرة عن مجتمع أو مجتمعات، فإسبانيا كانت تفتقد إلى حدود مثلما حدث مع محافظات رومانية أخرى. وقد أدت عملية الغزو السريعة والسهلة لبلاد الغال Las Galias إلى رومنتها وأصبحت تمثل جزءًا من الإمبراطورية.

غير أن ما هو واقع في المنظور الإسباني هو البحر الأبيض المتوسط كوحدة بشاطئيه الصديق أو العدو. ومنذ الهزيمة النهائية التي منيت بها قرطاج انعدمت التهديدات للشواطئ الهسبانية. واعتبارا من السلام الذي أقره أوجست، نجد محافظات هسبانيا تعيش في عالم صداقات "داخل" الإمبراطورية الرومانية، ورغم وضعها في طرف

قصيٌّ في الغرب، أي نهاية العالم، فإن الأمر الذي يمكن التعويل عليه في البداية ليس الجغرافيا وإنما التاريخ، أي أنها ليست أرضًا حدودية.

تغير كل هذا مع بداية القرن الخامس، فقد شهدت نفاذ ودخول وغزو شعوب بربرية لحدود الإمبراطورية، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى تفتيتها في الثلث الأخير من القرن، وأدى إلى أن يدخل إلى "رومانيا" ما كان "بعيدًا عنها" أي hinterland وهو شيء شديد الغموض والضبابية. كان التوسّع الروماني نحو الشمال سهلًا وفاعلًا في الغال، وكان كذلك في بريطانيا ولكن بدرجة أقل، وامتد إلى جرمانيا وإقليم بنونيا Panonia وداشيا Dacia (إقليم على نهر الدانوب) بدرجة جيدة أو سيئة. لكن الضغط الروماني نحو الشمال كان له مقابل وهو رد فعل الشعوب الشمالية على الأطراف الإمبراطورية، وقام بعض هذه الشعوب مثل من هم أكثر بعدًا بسلسلة من الهجرات، أو ما يسمى بـ völker wanderung، من اسكنديناڤيا أو الأقاليم أو الأقاليم السلافية بما في ذلك أقاليم أخرى هي المنغولية وكانت غايتها الاتجاه جنوبًا.

وبهذا سجلت وجودها في العالم اليوناني الروماني بشكل يزيد على طاقة المكان، وليس هذا فقط بل يتجاوز ما كان أفقه التاريخي: آسيا الصغرى وفارس وإسرائيل وحتى الهند، ومن جهة أخرى مصر ونوميديا Numidia من أفريقيا الأطلسية في الشمال. وليلاحظ المرء إلى أي درجة تغير الموقف بالنسبة لإسبانيا: فابتداء من ذلك الحين نجد أن صلتها الأولى سوف تكون بالقارة الأوربية وخاصة من خلال المنخفضين الشرقي والغربي لجبال البرانس. وسوف تكون حدودها التاريخية هي تلك التي تتصل ببلاد الغال، التي ستصبح فرنسا بعد ذلك، ومن خلال البنية الأرضية لأوربا نجد أن الأغلبية العظمي لما هو أوربي سوف يدخل إسبانيا من خلال فرنسا، بينما كانت الاتصالات قبل ذلك مباشرة من مختلف شعوب البحر الأبيض المتوسط دون وسطاء. وفي بداية القرن الخامس نشأ موقف جديد سوف يكون دائمًا منذ ذلك الحين.

وقد أخذ كل ذلك يتدعم بفضل انحدار روما، كما أنها بوضعها أخذت تحدث تأثيرًا أقل بكثير، أخذت بقايا السلطة الإمبريالية تمارس سلطاتها من المحافظات وليس من روما، ورغم أن هسبانيا بعيدة فإن تأثير بيزنطة سوف يكون أكثر واقعًا، عندما بدأ جوستنيان استعادة الإمبراطورية وأصبحت له سيطرة لها اعتبارها في أفريقيا في منطقة مهمة في الجنوب والجنوب الشرقي الإسباني.

اتسم توغل الشعوب البربرية في شبه الجزيرة الأيبيرية بالتعدد والنفوذ: فالغزاة متعددون، كما أن مناطق نفوذهم متغيرة، والمقاومة التي يلقونها كذلك، وهناك عنصر آخر وهو أن الصراعات فيما بينهم جعلت موقفهم هشًا طوال مدة طويلة، وليس هذا فقط، بل أدى إلى عمليات تنقل مستمرة. غير أن الشيء الوحيد الواضح والذي يعتبر التجديد الكبير، هو طريقهم للنفاذ ومن خلاله الاستمرار في العلاقة مع إسبانيا وبذلك أخذ يظهر فيما بعد "باقي أوربا".

القوط

نجد الواندال والسويب suevos والأسدنج asdingos والقوط في نهاية المطاف من الذين نفذوا إلى إسبانيا منذ السنوات الأولى من القرن الخامس. وجدوا سكانًا من الإسبان الرومان مؤهلين قانونيًا وثقافيًا على يد روما، بغض النظر عن التركيبة الإثنية التي هم عليها. وجدوا إدارة إمبراطورية وتنظيمًا محليًا ووجدوا اللغة اللاتينية لغة مشتركة دون الإضرار باللغات السابقة على العصر الروماني في المقاطعات التي لم تنخرط إلا قليلًا في عملية الرومنة، ووجدوا حيوية وبقاء المسيحية بكنيستها المنتشرة والمتأصلة.

تأكدت سيطرة القوط في منتصف القرن، لكن يجب ملاحظة أن المملكة القوطية تضم في البداية قطاعات كبيرة من جنوب فرنسا وأجزاءً من إسبانيا. كما أن تراجع القوط أمام ضغط الفرنجة سوف يكون السبب في انكماش السيطرة القوطية بحيث أصبحت حصرية بالكامل أو بشكل شبه كامل على شبه جزيرة أيبيريا. أعتقد أن النتائج المترتبة على

ذلك كانت أكثر أهمية مقارنة بما اعتدنا من صورة معينة. وكلما كانت تتدعم الملكية القوطية ويمتد سلطانها في أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية، أخذت تفقد صلتها بالغال، أي أن التحول في السلطة السياسية سوف يؤدي إلى توافق الملكية القوطية مع ما كانت عليه إسبانيا الرومانية، وأصبح البداية لما سيكون بعد ذلك بشكل حاسم إسبانيا. فهذا الإطار، الذي تم من خلال الرومنة، والذي تعرض للتقسيم والتهديد بسبب الغزوات البربرية وأدى إلى انهيار الإمبراطورية، أخذ يستقر من جديد في ظل الحكم القوطي. وأخذ يتكون مجتمع - ليس "قوميًا" في حقيقة الأمر - مكوناته هي: السكان الأصليون الذين ترومنوا وأن اللغة هي اللاتينية وأغلبهم يدين بالمسيحية الكاثوليكية. هناك أيضًا بقايا التنظيم الروماني السابق وهناك التنظيم الكنسي النشط، وأخيرًا هناك عنصر إثني - أقلية لكن لها وزنها - هو الجرماني الذي قام بممارسة السلطة السياسية لكنه منفصل عن السكان الأصليين بسبب اعتناقه الأفكار الإلحادية الآريوسية.

يجب إضافة أمر آخر، وهو أن القوط الذين تعايشوا فترات زمنية طويلة مع الرومان في إطار الإمبراطورية كانوا مفعمين بالثقافة اللاتينية وكانوا يتحدثون هذه اللغة جزئيًا والتي سرعان ما أصبحت لغة إسبانيا القوطية مع وجود العدد القليل من الصوتيات الجرمانية التي انتقلت بعد ذلك إلى اللغات الرومانثية التي يجري الحديث بها في شبه الجزيرة، بمعنى أنهم كانوا أكثر قربًا من إسبانيا التي وجدوها مقارنة بباقي الغزاة في أماكن أخرى من أوربا.

يذكر منندث بيدال أنه على زمن ألاريكو Alarico الثاني استقر القوط بالكامل في إسبانيا. وتشير الحولية Cronicon Cesaraugustano أنه في عام ٤٩٤ "دخل القوط إسبانيا" وفي عام ٤٩٧ "أقام القوط في إسبانيا". وعندئذ بدأت عملية توزيع الأراضي بين الهسبان الرومان والقوط، وفي أسماء الأعلام الجغرافية نجد آثارًا لا تحصى من هذا التوزيع والحصص والأثلاث والبلدات القوطية أو الرومانية. ويقال الشيء نفسه عن أسماء الأعلام الجغرافية المنبثقة عن ذلك ـ في كثير من الأحيان نجد villa أو castro ـ ذات الاسم اللاتيني أو القوطي.

رويدًا رويدًا أخذ الانتشار القوطي يمتد نحو إسبانيا فالمركز لم يعد الآن طولوز أو ناربونة، وإنما برشلونة أو طليطلة أو أشبيلية. لكن يجب أن يمر أكثر من نصف قرن حتى تتحول الملكية القوطية إلى قوة كبيرة وأنها وردت بهذا الوصف في حولية خوان دي بيكلارو Juan de Bicalro إلى جوار الإمبراطورية الشرقية. فمن جانب هناك قوط إسبانية، ومن جانب آخر هناك الرومان في القسطنطينية، الذين قام ليو بيخلدو بطردهم من مقّار إقامتهم في إسبانيا. لا توجد حتى ذلك الحين وحدة بين الساكنين والمسيطرين، ولا حتى تلك الوحدة الدينية، إلا أن هناك عنصرًا يثير الحماس أخذ يظهر - يقول مننذث بيدال - في طريق مصير الملكية القوطية، ويمكننا القول إنه هو المشروع المشترك، أي الطريق الذي يجذب كلا الطرفين المختلفين نحو بعضهما اللذين هما في تعايش.

وبلغ هذا المشوار نهايته مع تحول زيكاريدو إلى الكاثوليكية (٥٨٧) أي بعد أعوام قليلة من النزاعات الدينية داخل الأسرة وموت إيرمنخيلدو الكاثوليكي والذي كان متمردًا بشكل ما على والده ليو بيخلدو الذي كان على الطريقة الآريوسية. وعندما اعتنق ريكاريدو الكاثوليكية، سرعان ما سار على منهجه الأساقفة الآريوسيون والنبلاء القوط، وأعلن الملك هذا التحول في المجمع الكنسي الثالث في طليطلة (٥٨٩). وبهذه الخطوة الحاسمة أخذت تزداد روابط الصلة بين القوط والإسبان الرومانيين، وأخذ التفوق الثقافي لهؤلاء يسهم في توطيد دعائم المملكة القوطية. وأخذت الرومنة تتقدم. وكانت شخصية سان لياندرو حاسمة في هذا المقام. أما شقيقه سان ايسيدورو، أسقف أشبيلية (المولود عام ٥٦٠م والمتوفى عام ٦٣٦م) فهو أول شخصية ثقافية في عصره، في إسبانيا وربما في أوربا قاطبة.

ما يمكن أن يطلق عليه "إسبانيا القوطية" يبدأ تاريخه من هنا، ولما تم تدمير هذه الملكية عام ٧١١م فإن وجودها - هو إذا ما وجدت - لم يكد يستمر قرنًا ونصف القرن. وعندما يتم النظر إلى الأمور على طريقة نجم الشُّعرى sirio - الذي هو المنظور المعتاد عندما يجري الحديث عن تاريخ ليس بالحديث - يبدو هذا الوقت قليلًا، لكننا إذا ما

فكرنا في الحيوات الإنسانية التي أثرت في ذلك الزمان، وإذا ما تم التأمل في أنه قد تعاقبت ثمانية أجيال تاريخية أو عشرة، وإذا ما قورنت تلك الفترة بمثلها التي تبدأ من الاتحاد الإسباني تحت حكم الملوك الكاثوليك وحتى وفاة الملك فيليب الثاني، أو قارناها بمقدم أسرة البورجوي حتى الحرب الكارلية الأولى، أو بعصر الملكة إيزابيل الثانية حتى يومنا هذا، فلا يبدو أنها فترة زمنية قصيرة للغاية. وكانت "إضافة إلى ذلك، عملية اكتمال حالة عمل طويل، أي نضج مجتمع كانت مكوناته موجودة وفي حالة تفاعل مع بعضها على مدار ما يقرب من قرنين من الزمان. ويتألف الخطأ، المتكرر كثيرًا في المنظور، من تناول الفترة كاملة والتي تبدأ من الغزوات البربرية الأولى وحتى الهزيمة التي مُني بها السيد رودريجو على يد أتاونو في موقعة جواداليتي. وربما يرجع السبب في ذلك إلى قائمة الملوك القوط التي تعلمناها جميعًا في المدرسة. عندئذ هناك أمر من اثنين فإما أن نأخذ كل ذلك على أنه تاريخ إسبانيا دون قيد أو شرط، وإما أن نرفضه على أنه ليس من هذا التاريخ. وهنا فإن المسألة تستحق النظر إليها بإمعان.

القوط أو إسبانيا القوطية

في عام ١٩٢١، وفي الفصل المعنون "غيبة الأجلاء" من كتابه "إسبانيا المفككة" يعتبر خوسيه أورتيجا إي جاسيت أن العنصر النوعي الحاسم بين البلاد الأوربية خلال العصور الوسطى يتمثل في الجرمان. فإذا ما أخذنا إجمالًا كلًا من إسبانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا لوجدنا ثلاثة مكوّنات: السلالة المحلية نسبيًا، والاستقرار الحضاري الروماني، والهجرة الجرمانية.. فالعنصر الروماني هو عنصر مشترك لدى جميع هذه الأمم ويمكن اعتباره عنصرًا "محايدًا" في جذوره. أما عن العنصرين الآخرين، فدون إنكار الاختلاف النوعي للغال أو الأيبيريين، على سبيل المثال، يرى أورتيجا أن الجرمان هم العنصر الحاسم ذلك أنه العنصر الذي يقرر وهو السلطة التي تفرض نفسها والمنظِّمة، وهو "الشكل" بينما الأصلاء هم "المادة". وهنا فإن الاختلاف بين فرنسا وإسبانيا هو في المقام

الأول الاختلاف القائم بين الفرنجي والقوطي. ويرى أورتيجا أن إسبانيا كانت سيئة الحظ. وفي هذا سوف آتي بالفقرة التي عرض فيها ذلك كاملة:

"الأمر المؤسف أن هناك مسافة شاسعة بين الفرنجي والغالي، وإذا ما أمكن أن نضع الشعوب الجرمانية الوافدة على سلم نتبين فيه درجة الحيوية التاريخية، لوجدنا أن الفرنجي سوف يحتل أعلى درجة، أما القوطي فسوف يحتل درجة أقل بكثير. فهل كانت هذه الحيوية المختلفة بين هذا وذاك أصيلة وترجع إلى المولد؟ ليس ذلك هو الأمر الذي يمكن لنا أن نغوص في أعماقه كما أنه ليس مهمًا بالنسبة للقضية محل الذكر. والأمر هو أن الفرنجي عندما دخل بلاد الغال، والقوطي عندما دخل إسبانيا فإن كل واحد منهما يمثل مستوى مختلفًا في الطاقة البشرية، فقد كان القوطي الشعب الأكثر قدمًا في جرمانيا، وكان قد تعايش مع الإمبراطورية الرومانية في أكثر مراحلها فسادًا، وكان قد تأثر بذلك بشكل مباشر وفاعل، ولهذا السبب كان الأكثر "تحضرًا"، أي الأكثر إصلاحًا وتشويهًا وتصلبًا. فكل "حضارة" يتم تلقيها من السهل أن تكون قاتلة لمن يتلقاها. والأمر هو أن "الحضارة" - خلافًا للثقافة - هي مجموعة من التقنيات الآلية ومن الحوافز الاصطناعية، ومن أنواع البذخ الذي يتكون من التصفية في حياة شعب"، ويواصل أورتيجا قائلًا "كان القوط إذن من الرجال الذين شربوا خمر الرومنة، أي شعب في حالة انحطاط يقوم بشقلبات في الزمان والمكان عندما وصل إلى إسبانيا، التي هي آخر ركن في أوربا حيث وجد بعض الهدوء. أما عكس ذلك نجده في الفرنجي الذي جال على هواه في إقليم الغال وألقى فيها بكل ما له من حيوية".

يرى أورتيجا أن ذلك هو السبب في أن الإقطاع كان غاية في الضعف في إسبانيا، ويرى في هذا الضعف السبب في الوضع الشاذ الذي كانت عليه إسبانيا العصور الوسطى، وهذا هو تفسير سهولة وحدتها في نهاية القرن الخامس عشر، وانحطاطها سريعًا عندما خفت قوة الدافع الأول.

لا ينبغي نسيان أن أورتيجا يكتب كل هذا عندما كانت الفترة التي حكم فيها القوط - وخاصة العصور الوسطى - معروفة بشكل سيئ. وكانت عنده الحصافة في الإشارة إلى أن هذا كان يضم مفتاح ومغزى إسبانيا وينصح بدراسته. أما الخلاصة التي توصل إليها فهي: "أن القوط الذين وصلوا منهكين ومتعبين لم يكن تتوفر لديهم هذه الأقلية من النخبة، فنفخة واحدة من الهواء القادم من أفريقيا مسحت وجودهم في شبه الجزيرة، وعندما خفت حدة المد الإسلامي أخذت تتكون بالطبع ممالك يحكمها ملك ومعه "السافلة"، لكن لم يكن هناك الحد الأدنى الكافي من النبلاء. وربما يقول لي البعض إنه رغم كل شيء استطعنا أن نؤكد عظمتنا على طول ثمانية قرون من إعادة الغزو، وعلى هذا أرد ببساطة بالقول إنني لا أفهم كيف يمكن أن نطلق لفظة إعادة الغزو على شيء استمر ثمانية قرون".[16]

في كتاب لي بعنوان: **أورتيجا. المسارات**[17] علقت بإيجاز على هذه الأفكار التي طرحها أورتيجا وأبديت تحفظي على رأيه. وهنا من الضروري أن نخصّها بمزيد من الاهتمام، ذلك أن المقارنة بين "الغالي" و"الأيبيري" تتطلب بعض التمحيص القوي، إضافة إلى أن تلك التسمية إنما هي تبسيط لوقائع شديدة التعقيد. إنني أقصد بالقول إن المجتمع الذي "يستقبل" الغزاة الجرمانيين، يتوفر لديه عنصر رومنة ذو أهمية بالغة، وهو عنصر أكبر بكثير في هسبانيا مقارنة بالغال، وكانت درجة تشكيل المنطقة الأولى أعلى بكثير، وقد شهدنا كيف أنه وصل الأمر في هذا المقام إلى مقارنة الإمبراطورية الرومانية الشرقية بهسبانيا في الغرب. إنني أريد بهذا الوصول إلى خلاصة تشير بأن الوزن الخاص بالعنصر الجرماني - بغض النظر عن جودته - كان **ضئيلًا** في إسبانيا، نظرًا لفترة الواقع الموجود سلفًا على الأرض، ولنذكر في هذا المقام، باب التطور الحضري وكذا الصور الأدبية أو السياسية التي ولدت في هسبانيا وتأثيرها في الحياة العامة للإمبراطورية. وهذا

---

(16) الأعمال الكاملة، الجزء الثالث، ص ١١١ ـ ١١٨.

(17) الباب الأول، الفصل السادس، بند ٢٨ ص ١١٤ ـ ١١٥.

يجبر أيضًا على الإشارة إلى أن وجود القوط في شبه الجزيرة له دلالة أكبر من مجرد القول بالعثور على مأوى في الركن القصيّ من أوربا: كان هذا الركن هو أكثر الأركان تقدمًا في الغرب، ولم يكن الملاذ مبالغًا فيه، ذلك أنه كان عليهم أن يكافحوا على مدار ما يقارب من قرنين من الزمان ضد السواب Suevos والألان alano والواندال والبيزنطيين.

ومن ناحية أخرى فإن بناء الملكية القوطية ليس بالأمر البسيط، فقد وصلت - وخاصة خلال القرن السابع - إلى أن تكون واحدة من المناطق الكبرى في أوربا الوليدة. غير أن من حقائق الأمور أن القوط كانوا مرومنين من خلال التعايش الطويل داخل الإمبراطورية الرومانية، وفي هذا المقام فإن قواهم الجرمانية الأصلية قد خفت حدتها. لم يكونوا وثنيين بل كانوا مسيحيين (آريوسيين)، وكنوع من "التجديد" كانوا يمثلون توجهًا ليس قوي الشكيمة مقارنة بالفرنجة. غير أنه إذا ما تم النظر إلى الوجه الآخر للعملة لوجدنا أن الدرجة الأعلى في الرومنة لهسبانيا، وكذا الدرجة المعتبرة للغزاة، ساهمتا في عملية دمج أكثر حميمية، وكانت تلك خطوة حاسمة في طريق تكوين **مجتمع** فعلي. وقد لاحظت من خلال كتابي "أن ضعف الملكية القوطية لا يبدو كبيرًا إذا ما تم التفكير في أن الغزوات العربية في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن قضت قضاء مبرمًا، ودون أي عمليات إعادة غزو من أي نوع، على دول شمال أفريقيا، ابتداء من مصر وحتى المغرب وهي مناطق كان قد تم هلنستها أو رومنتها وتمسيحها جميعًا".

هناك موقف آخر حول القوط، يجب أن نضعه في الحسبان ألا وهو الذي اتخذه أمريكو كاسترو في كتابه "**إسبانيا في تاريخها**" (١٩٤٨) إذ لم يرد لهم ذكر على الإطلاق، إلا أنه عند إعادة صياغة هذا الكتاب وظهوره في عنوان آخر هو **الواقع التاريخي لإسبانيا** ١٩٥٤ ظهر لنا فصل جديد، هو الفصل الثالث. عنوانه "لم يكن القوط إسبانًا" (في الفصل الثاني بعنوان "منظور على التاريخ" والفصل المذكور سلفًا يتم إعادة دمج محتوى المقال الذي نشر عام ١٩٤٩ "المنظور التاريخي واللاأسبنة للقوطيين"). في الجزء الأول، (هو الوحيد الذي نشر) من الطبعة الثانية المزيدة" (١٩٦٢)، نجد القضية تعود لتطل من

جديد في الفصل الخامس، "لم يكن هناك حتى ذلك الحين إسبانًا في هسبانيا الرومانية و"القوطية"، ويلح المؤلف على نفي الطابع الإسباني لكل ما سبق على الغزو الإسلامي الذي قام تحديدًا بتدمير المملكة القوطية.

والأسباب التي يسوقها أمريكو كاسترو، والتي يمكن للقارئ أن يرجع إليها في المصادر المذكورة هنا تتسم بأنها خادعة كثيرًا في نظري وقليلة الإقناع. وعادة ما يكون نهجه على النحو التالي: البحث عن شاهد حلو المذاق وبرّاقٍ، سرعان ما تسعفه به ألمعيته العظيمة بشكل شبه دائم، ثم يقوم بتأويله مسلطًا الضوء - في كثير من الحالات - على إحدى التفاصيل التي لا تكاد تُلْمَح، وهذا يجعل انتباه القارئ يتوجه نحو ذلك المعنى، ثم يقوم بتعميم ذلك على التاريخ في مجمله، أو على عصر من العصور، وهي نظرية منعزلة وتكاد تكون ذات أصول أدبية على الدوام. ومن أمثلة ذلك أن أمريكو كاسترو ويذكر فقرة من كتاب "**التاريخ العام**" لألفونسو الحكيم حول مملكة القوط:

"كانت من الضخامة بمكان لدرجة أنها كانت تمتد من البحر إلى البحر، ابتداء من مدينة Tanies في أفريقيا حتى نهر رويدانو Ruedano كانت هذه المملكة رفيعة من حيث النبلاء وواسعة لكثرة ما بها من جميع الأشياء ومملكة متدينة وتعيش في حب ووئام ونقية بفصل المجامع الدينية، والشرف الذي كان عليه الرجل وما لهم من نظام، وبفضل الأساقفة لياندرو وايسيدرو وإيلاديو، وإيوخنيو وألفونسو وخوليان وفولخنثيو ومارتين دي دوميو وإيداليو البرسكوني وتايون السرقسطي وكذا بفضل الدراسات الفلسفية الثرية التي كانت في قرطبة"

حسن، لقد جرى إدخال هذا الفقرة في إطار الجملة التالية "كان كتاب التاريخ العام لألفونسو الحكيم ينظر إلى مملكة القوط على أنها مفخرة بعيدة ليس لها مثيل في الوقت الحاضر"[١٨] هل ذلك هو الانطباع الذي أحدثه لديه النص الذي أورده عن ألفونسو الحكيم؟

---

(18) الواقع التاريخي لإسبانيا (١٩٥٤) ص٧٠

ودون هذا الفخار، هل كانت تُرى تلك الهوة بين مملكة القوط ومملكة ألفونسو الحكيم؟ أشير هنا إلى أن أمريكو كاسترو أورد فقرة سابقة من كتاب **التاريخ العام** حيث يطلق على ملك قوطي أنه "ليو بيخلدو، ملك إسبانيات" Españas دون أي إضافة أخرى.

وفحوى فكرة أمريكو كاسترو هو "أن القوط والإسبان مختلفون، وخاصة من خلال معتقداتهم الدينية ومدى ما يلعبه المعتقد الديني في حياتهم"[١٩] لكن هل كان المعتقد الديني لهؤلاء الإسبان **الخُلص** متجانسًا منذ بداية حرب الاسترداد وحتى اليوم؟ وهل كان الشيء نفسه عند ألفونسو السادس ملك قشتالة، أو ألفونسو الخامس ملك أرغن أو فيليب الثاني أو كارلوس الثالث أو ألفونسو الثالث عشر، أقصد مجتمعات كل واحد منهم؟ وفيما يتعلق بالمسافة الفاصلة بين الملكية القوطية وألفونسو الحكيم، ألم يتضح تفسيرها بعد بما فيه الكفاية بعد مرور خمسة قرون أو ستة بينهما؟ ولو كان ذلك قليلًا ألم تتضح من خلال ممارسة السلطة على يد ليو بيخلدو ذلك الملك الآريوسي، أو أنها الأراضي الإسبانية أصبحت بعد ذلك تحت السيطرة الإسلامية في الأغلب الأعم، أو النصف أو الثلث"، طبقًا للفترات الزمنية؟ إلا أن القضية الأكثر خطورة، والتي يضمها الكثير من الغموض هو أنه لا تعرف ماهيتها. فعندما يقول أمريكو كاسترو" إن القوط لم يكونوا إسبانًا" فليس هناك من قول إلا: نعم بالطبع. كان المسيطرون الجرمان هم الذين يمارسون السلطة السياسية في شبه جزيرة أيبيريا وذلك نتيجة غزو ومرحلة طويلة من الصراع. لكن كاسترو لم يتوقف عند هذا، يقول "نقبل ما قال به مننتث بيلايو إن: القوط لم يكونوا إسبانًا **رغم أن ذلك النفي ينسحب ولا مناص على باقي السكان في تلك المملكة**"[٢٠] هل لا مناص من هذه النتيجة؟ كان مننتث بيلايو يرى أن الهسبان الرومان

---

(19) المصدر السابق ص ٧١

(20) المصدر السابق ص٧٢ (الخط الأسود من عندي)

يضمون في أنفسهم "السلالة الإسبانية الحقيقية والوحيدة". ولأن هذا غير بديهي أعتقد أنه يجب طرح القضية بشكل آخر.

القوط تعني شيئًا، أما إسبانيا القوطية فشيء آخر مختلف. الأولى هي مكونات متغيرة على مدار القرون الثلاثة وتكونت منها الثانية (الشيء الآخر) على مدار زمن طويل. كانت هناك رومنة لإسبانيا وهذا ما رأيناه وكان أول خطوة نحو "أسبنة" حقيقية. لكن بالنسبة لعملية "تقويط" إسبانيا المرومنة، بل حدث العكس أي أسبنة تدريجية للقوط، لدرجة أنه قد لا تُفهم هذه المراحل بطريقة سلبية في أي من الحالات. فقد تمكن الهسبان، في وقت قصير جدًا، من التحدث باللاتينية، لكنهم لم يتحدثوا بعد القرن الخامس لغة جرمانية، بل كان القوط هم الذين تحدثوا اللاتينية أيضًا. كما نجد أن السلت والأيبيريين - سيرًا في هذا على المسميات الثلاثة الكبرى المعهودة - ومعهم الوثنيون قد تمسحوا، لكن سلالاتهم لم تعتنق الآريوسية، وكان القوط هم الذين تحولوا عنها إلى الكاثوليكية. وقد أضاف القوط مملكة إلى البنية البلدية الإمبراطورية الموروثة عن روما، وكانت مملكة انتخابية وهشة، وكان الاغتيال وسيلة شائعة للخلافة ـ حيث كان يمثل مبدأ جديدًا وداخليًا للبلاد التي سوف تحكم من الداخل وليس من روما. وصحب كل هذا العديد من الأنماط القانونية والاستخدامات الاجتماعية.... إلخ.

هذا التعايش الطويل بين أقلية حاكمة، وليست قليلة الشأن عدديًا للغاية - فالإحصائيات الموثوق منها تتحدث عن مائتي ألف قوطي أصيل - لم تكن مجرد جيش بل شعب فيه نساء وأطفال، مع بنية جسدية مركبة لكنه شديد التلاحم مع السكان الهسبان – الرومان- الأمر الذي يؤدي إلى مجتمع من المجازفة القول عنه إنه مجتمع إسباني بالتمام والكمال، غير أن ما هي إسبانيا تأتي من هذا ولا شك في هذا- وتتبدى لنا بهذا الشكل وكأنها مرحلة في هذا الواقع التاريخي الذي لم ينته أبدًا بل هو في حالة تشكل مستمر- أي تبدو أيضًا كواحد من الفصول في دراما ذات مضمون متسق هو التاريخ الإسباني.

يجب طرح سؤال آخر إذا ما أردنا أن يكون هناك بعض الوضوح فيما يتعلق بشأن ميلاد الواقع الإسباني. فإذا ما أخذنا القرون الثلاثة دفعة واحدة، وهي الفترة التي كان فيها القوط محور الحياة في شبه جزيرة أيبيريا، ابتداء من الانفصال عن البنية الإمبراطورية الرومانية وحتى سقوط المملكة القوطية في بداية القرن الثامن، فما هو المضمون الأساسي لهذا الفصل من الدراما الذي أصبح إسبانيا في ذلك الزمان، وما الذي انكسر ابتداء من عام ٧١١م؟

هسبانيا وإعادة بنائها

سوف تصبح أوربا - خلافًا لما عليه الحال في العالم القديم وعالم حوض المتوسط - توليفة من الرومنة والجرمانية: أي انضمام العنصر الجرماني إلى المتوسط. حسن، هذا يحدث في إسبانيا قبل أي مكان آخر كما أنه حدث بطريقة أكثر كثافة. وعند النظر إلى أماكن أخرى، مثل الغال أو بريطانيا أو الأراضي الجرمانية أو الأجزاء الأكثر حداثة في الإمبراطورية مثل بانونيا Panonia أو Dacia ـ كانت الرومنة غير موجودة، وكذلك عناصر من بينها التطور الحضري الملائم، كان ما هو روماني ثقيلًا أكثر من اللازم على إيطاليا نفسها، وفوق هذا ظلت روما على مقصدها الدائم بأن تكون رأس الإمبراطورية الموجودة فقط في عالم الخيال.

في إسبانيا كانت هناك عناصر مثل الرومنة القوية وتمثل أشكالا من حياة رومانية وقوة اللاتينية والمسيحية والوعي بالوحدة الهسبانية في إطار الإمبراطورية، وهذا واضح من برودنثيو Prudencio أو في Osorio، كل هذا جعل من الممكن استقبال حافز جرماني بشكل كانت فيه هسبانيا المجرمنة أول تجربة كاملة لما ستكون عليه أوربا فيما بعد.

أظن أن هذا لم يوضع في الحسبان بشكل كاف وأن النتيجة الأكثر خطورة المترتبة على الغزاة البربر كانت التفتت (الذي وصل في بعض الأحيان إلى وحدات صغيرة جدًا)

الذي أصاب الوحدة الكبرى لرومانيا، فقد أصبح كل جزء (تعرض للتفتت) منفصلًا عن جسم الإمبراطورية ومنعزلًا عنها وليس له إلا موارده وغالبًا ما كانت هذه الموارد شحيحة، ومن أمثلة ذلك الكتب، وهنا فإن هذا هو السبب الرئيسي في الانحطاط الثقافي لأوربا ابتداء من القرن الخامس حتى بداية القرن الحادي عشر.

إسبانيا استثناء في هذا المقام، فرغم أنها كانت تعيش حالة هشة في جوانب كثيرة، إلا أنها تحت ظل الملكية القوطية كانت بمثابة وحدة واحدة، وهذا شيء عظيم إذا ما قارناها بالمناطق الأخرى في العصر نفسه. فالانقسامات كانت كثيرة جدًا في الغرب الأوربي جميع. هناك أيضًا التخلف قياسًا على المستوى الثقافي الروماني، فقد قل عدد المكتبات وأصبحت الكتب نادرة فيها. لكن في إسبانيا يبدو أنها كانت أفضل بكثير ومن أمثلة ذلك طليطلة التي جعلت من الممكن التنظيم القانوني القوطي. وأبرز منها كانت أشبيلية، التي كانت عظيمة القيمة في بداية القرن السابع، ذلك أنها جعلت من الممكن جمع المعارف الواسعة التي خلفها القديس ايسيدورو وخاصة كتاب Las Etimologias فبفضل هذه المعارف نُقل إلى العصور الوسطى جزء كبير من الثقافة الكلاسيكية اليونانية الرومانية. سان ايسيدورو هو من أهم أصول هسبانية رومانية، وكان يشعر أنه قوطي، بمعنى أنه جزء من مملكة عظيمة احتلت أكبر قدر من الاهتمام في كتاب "الحولية اليونفرسال" إلى جوار بيزنطة. غير أن إسبانيا لم تأخذ اسمها من الغزاة الجرمان، وهذا أمر له دلالته القوية، حسب العادة المتبعة في باقي أنحاء أوربا: فرنسا، وبورجونديا (برجونيا) ولومبارديا وأنجليا. نعم كانت هناك محاولة لتسمية إسبانيا قوطيا Gotia، إلا أن أتاولفو الذي شعر بذلك عدل موقفه مدركًا بأنه لا يمكن إبداع قوطيا بدلًا من رومانية، وقرر ضم مملكته إلى التراث الروماني. ولهذا تم الإبقاء على اسم هسبانيا الذي يطلق لا على مملكة على ما هي عليه بمعنى أنها سلطة سياسية وإنما على الإجمالي الذي سوف يصبح باللغة الرومانثية Spannia أي إسبانيا.

تتسم وظيفة الكنيسة بأنها جوهرية من الملكية القوطية ابتداء من تحول ريكاريدو إلى الكاثوليكية، وأصبحت المجامع الكنسية أدوات التعايش والتشريع، ففي المجمع الرابع لطليطلة برئاسة القديس إيسيدورو، تم الإعلان عن وحدة الكنيسة في أنحاء إسبانيا بحيث يكون الأداء واحدًا والطقوس والأهازيج "بالنسبة لكل الذين نعيش وقد ضمتنا ديانة واحدة ومملكة واحدة" qui una fide complictimur etregno. إن الصورة التي ينقلها القديس إيسيدورو سواء في مؤلفه التاريخي، مثلما هو الحال في Laus spaniae، ظل قائمًا حتى بعد زوال الملكية القوطية، فخلال القرون الخمسة كانت السلطة الكبرى، وامتد تأثيرها، أي الصورة، على مدار ألف عام وهذا ما يبرهن عليه وجود ألفي مخطوطة إيسيدورية في زمننا المعاصر في مكتبات العالم.

لا تنحصر إسبانيا القوطية "على القوط" وإنما هي التعبير عن مهمة تاريخية جديدة، يحكمها القوط غير أنها تحققت أساسًا بفضل الهسبان الرومان، وأنها عبارة عن عملية إعادة بناء هسبانيا الرومانية من خلال مبادئ أخرى. يحكمها القوط لكن من الداخل ولا يحكمها إمبراطور يعيش بعيدًا ولا تحكمها سلطات مفوضة. ولنلاحظ أن الصراعات الحزبية العنيفة التي تسببت كثيرًا في تعويق تكوين المملكة ثم أدت بها في النهاية إلى الدمار، **لم تكن بين القوط والهسبان الرومان بل بين القوط**، وهذا ما يبرهن عليه كل من جريجوريو دي تورز، وخوان بيكلارو، وفريد جاريو والقديس إيسيدرو. أما عنصر الاتحاد فقد تمثل في المجامع الكنسية، وبالنسبة لعنصر الصراع نجد "العادة" المشئومة المتمثلة في الخلافة من خلال قتل الملوك، وعندما بدأت تسقط هناك الصراعات بين الجماعات أو الأسر. ومن خلال كل ذلك، نجدها وقد أعيد بناؤها خلال القرن السابع في شكل أصيل وأكثر اكتمالًا بشكل لم يسبق له مثيل، واستقلت عن الإمبراطورية التي أصبحت غير موجودة، أي تلك الوحدة التي أعدتها الجغرافيا دائمًا والتي هي **مجتمع** بوضوح شديد. والآن، أي في هذا الوقت يتدخل القدر بقوة لا مثيل لها في تاريخنا ويقض مضجع استمرارية مشروع تاريخي يتسم بأنه يزداد وضوحًا. وعندما تم الحصول في

إسبانيا على رؤية كاملة، أفضل من أي منطقة أخرى، بشأن ما سيكون عليه بلد أوربي، هناك الغزو العربي والأمازيغي عام ٧١١م الذي كسر المسار الذي بدا وبذلك شكك في أسسه وفي إمكانية حدوثه. إنه المنعطف الأكثر خطورة ودرامية من تلك التي مرّ بها التاريخ الإسباني، أي ذلك التاريخ الذي يجدر أن نتساءل عنه وهو "إسبانيا التي أمكن أن تكون" هذا إذا ما أردنا أن نفهم ما وصلت إليه إسبانيا التي تعيش فيها.

الفصل الثامن

ضياع إسبانيا

حقيقة الأسطورة

هناك الغزو الإسلامي عام ٧١١م وهزيمة الملك القوطي لذريق Rodrigo وتدمير المملكة، والاحتلال السريع لأغلب أجزاء شبه جزيرة أيبيريا وإقامة سلطة إسلامية، كل هذا تم الأسف له والبكاء عليه وورد ذكره على أنه "فقدان إسبانيا". وابتداء من تلك اللحظة ظلت الأسطورة وأصبحت حميمة عند كل الإسبان، وجرى ذكرها آلاف المرات شعرًا ونثرًا: هناك الجميلة فلورندا أو لاكابا Cava ابنة الكونت دون خوليان التي أعجب بها الملك دون رودريجو، وهناك انتقام الأب الذي فتح أبواب إسبانيا أمام المورو، وخيانة الأسقف دون أوباس Don opas، وأبناء فيتيزا vitiza، وهناك دخول موسى وطارق بجيوشهما وموت دون رودريجو أو هربه وندمه.

قام المؤرخون بدراسة دقيقة لجميع مكونات الأسطورة، واتضح أن لا شيء مؤكد، وكل شيء يتسم بعدم دقة فاضحة. فلا يُعرف فيما إذا كان والد Cava هو أوليان Olian أو ullan أو ربما أوربانو urbano. لكن الشيء المؤكد أنه لم يكن كونتا، والاحتمال قليل في أن اسمه كان خوليان Julian. ولا يُعرف فيما إذا كان قوطيًا، أو من الأمازيغ أو بيزنطيًا، وما إذا كان حاكم سبقه باسم مملكة القوط أو أنه كان يتبع الإمبراطورية

البيزنطية، أو كان سيد قبيلة مسيحية البربرسك Beberiscas. كما أن دور أبناء فيتيزا vitiza لم يكن واضحًا، ولا يُعرف ما هو الاسم الحقيقي للسيد أوباس، وفيما إذا كان أسقفًا. ومن جانب آخر فيما إذا كانت هناك تهديدات عربية سابقة ومحاولات للغزو أو غارات على الأقل.

ومع هذا فإن إجمالي الأسطورة، وهذا هو المهم، حقيقي، وفي الفترة الحاضرة يتوافق التاريخ الأكثر دقة مع الخط العام لها [21] فالدقة exactitud ليست سمة ما هو إنساني - ولا حتى سمة ما هو واقع - والدقة البالغة Rigor أمر آخر. ودائمًا ما لفت انتباهي بشدة أنه توجد في الأناجيل روايات مختلفة للوّح الذي وُضع على صليب المسيح بالعبرية واليونانية واللاتينية: هذا هو يسوع ملك اليهود (إنجيل متى)، ملك اليهود (مرقص)، هذا هو ملك اليهود (لوقا)، يسوع الناصرة ملك اليهود (يوحنا) Juan. هذه "الاختلافات" هي عندي علامة على الأصالة: فإذا ما قالت الأناجيل الأربعة الشيء نفسه، نظرًا لأنه لم يكن أحد يكتب ملاحظاته، يجب التفكير في أنهم اتفقوا أو أنهم نقلوا عن بعضهم. الجميع يقول الشيء نفسه: "ذلك" هو ما كان مدونًا على اللوح، من خلال كلمات أو أخرى.

وبشكل مناظر هناك "مضمون" الحدث الرهيب عام ٧١١م حيث جرى انعكاسه في تفسير الأسطورة، وهناك أمر أكثر أهمية: بهذه الطريقة عاش الإسبان الحدث منذ ذلك الحين ولهذا يشكل جزءًا من واقعنا بشكل فيه صرامة: كان عنصرًا وليد التأويل نفسه ووليد الإسقاط التاريخي، أي وليد نظام كامل من التقديرات. ثم إن الإبداعات الأدبية حول الموضوع طوال العصور الوسطى وخاصة في القصائد الشعبية Romancero، وما بعد ذلك (مثلما هو الحال بالنسبة لفراي لويس دي ليون) كانت أحد المكونات التي تعبر عن إحساس الإسبان وفهم تاريخهم.

---

(21) انظر على سبيل المثال "تاريخ إسبانيا" تأليف بالدي أبيآنو.

وبالنسبة لي، فإن هذه الأسطورة لها قيمة خاصة ربما لم تتم الإشارة إليها. فالشيء الذي يثير التساؤل كثيرًا خلال العصر القوطي (أي الذي جعل من الممكن وضع إسبانيته موضع تساؤل) هو أنه على الرغم من التوثيق القوي للأسطورة لم نفهمها بعد، ولا يمكن تخيل ما إذا كان عليه العيش في إسبانيا في ذلك الزمن. والسبب في ذلك هو قلة عدد الأعمال الإبداعية فهي التي تساعدنا على فهم أنماط الحياة في عصور بعيدة أو في ثقافات غريبة علينا. يتولى الخيال الإبداعي من شعر ومسرح وسرد قصصي (وأعلاها الرواية في حالة وجودها) اختراع الشخصيات ويضفي الحياة، وعليه أن يعيد بناء ظروفها ويجعلها محتملة وبالتالي تصبح جلية حيواتها، بمعنى أن الإبداع يجد نفسه مجبرًا على إعادة بناء ذلك العالم الذي كانت فيه تلك الحيوات ممكنة. وعندما يغيب هذا الإبداع الأدبي خلال القرون التي حكم فيها القوط يصبح السبب الرئيسي لغموض الفترة، بحيث لا تستطيع الأبحاث الدقيقة أن تزيل هذا الغموض، وقد سار هذا النوع من البحث شوطًا مهمًا خلال العقود الأخيرة: هناك مننِدث بيدال وسانشيث ألبورنوث وبالديابيّانو وفونتين ومانويل دياث ودياث.

حسن، أصبحت أسطورة ضياع إسبانيا نوعًا من الإحياء الخيالي اليتيم للعالم القوطي. وعلى أساس تدمير مملكة القوط، أخذ الأدب يطلق نظرة حنين إلى الماضي عليه ويتخيله، ويعيد إبداعه وربما يخترعه. وبفضل هذه الأسطورة وأبنيتها المتتابعة، ثبتت في أذهان الإسبان رؤية لما كان عليه ماضيهم - ماض بشكل نهائي، تم تدميره وفُقِدَ الذي سوف يلهم استشرافهم التاريخي، وتصورهم للمستقبل. ويمكن رؤية الأصداء الأخيرة في "نبوءة نهر التاج" لفراي لويس دي ليون:

كان الملك رودريجو يتبختر

مع الجميلة كابا على ضفاف

التاج، خلسة.

وتمخض عن ذلك الحدث كانت هناك:

نيران، وآلام وحروب

وموت ودمار وغضب جم

سوف يقع على جميع الإسبان الذين عددّهم:

على هؤلاء الذين هم في القسطنطينية

حيث تضيع الأراضي الخصبة التي يرويها

نهر أبرو، لسان سوينيو

المجاورة، ولوسيتانيا

وكل إسبانيا الواسعة الحزينة

وفي نهاية المطاف يلخص المعركة ونتائجها كما شعر بها الناس على مدار قرون:

أيها المريخ التعس

خمسة أشعة تصدر عنك، تفرق

كل جزء على حدة

والجزء السادس، آه! يدينك

آه يا وطني الغالي! تساق إلى قيد بَرْبري.

لا يمكن نسيان أن "كل إسبانيا الواسعة والحزينة" أصبحت تساق "إلى قيد بربري". هذا هو عقب الموضوع وتأويل الإسبان لواقعهم، ومفتاح رد فعلهم على هذه المصادفة التاريخية الضخمة ـ من المنظور الإسباني ـ التي تمثلت في القوات الإسلامية وهي تنزل أرض شبه الجزيرة.

خطأ

لم يفت المؤرخين عنصر الخطأ الذي كان عليه الغزو العربي في إسبانيا، من منظور الذين وقع عليهم الغزو، لكن لم يسلطوا عليه الضوء الكافي حتى يتجلى الأمر، وتتوجه إليه الأنظار ويتم وضعه في السياق العام.

تنقل الأسطورة خلاصة من الصراعات الداخلية من الكراهية والانتقام، والتي أدت إلى إتاحة الفرصة للسيطرة الإسلامية، لكنها لا تضم أي نسبة لها صلة بالنتائج الفعلية. هناك عنصر آخر يشار إليه دائمًا وهو رضا اليهود أو تعاونهم، وهم الأقلية المهمة في إسبانيا القوطية وتعرضوا للمضايقات بل والمطاردات خلال الأزمنة الأخيرة وخاصة على زمن الملك سيسبوتو sisbuto، وحدثت وقائع لتدخل رجال الدين وعدم التسامح الديني - وهذا شيء شديد الشبه بما سوف يكون أحد السمات البارزة لإسبانيا الحقيقية، أي إسبانيا نهاية العصور الوسطى وكذا عصر النهضة يبدو أن كل هذا غير كاف ليؤدي إلى دمار الملكية القوطية وسيطرة إسبانيا على يد شعب مختلف تمامًا وليس شعبًا مسيحيًا، بل هو شعب ذو ديانة معادية ومحاربة. هل كان ذلك هو الذي يريده السكان القوط، الهسبان الرومان أو اليهود في شبه الجزيرة؟ هذا أمر موضع شك كبير.

أعتقد أنه يجب أن نضع في الأذهان عدم الاستقرار الشديد الذي كان عليه الملوك القوط، الذين كان يسهل إقصاؤهم من خلال دسيسة، أو مؤامرة بسيطة أو اغتيالهم إذا ما اقتضت الضرورة. والاحتمال كبير في أن يؤدي الغضب عليهم إلى إقصاء رودريجو عن العرش بمساعدة المسلمين. ومن المعقول أن ينتظر اليهود تحسن أوضاعهم. ومن اللافت للنظر أن بعض الشخصيات المهمة تلقت تبرعات أو مزايا من الغزاة. فقد سعد ابنا فيتيزا بثلاثة آلاف قصر أو قرية، ويا له من تعويض ضئيل عن مملكة. هناك انطباع بأن من قاموا بالغزو أو المتآمرين كانوا على أمل انسحاب سريع للمسلمين وقد حملوا معهم الغنائم وربما بعض مناطق النفوذ.

هذا يمكن أن يكون تأكيدًا عملاقًا بأن التاريخ لا يمكن أن ينحصر في الأحداث الناجمة بشكل مباشر عن الإرادات الفردية، فعدة قرارات تصدر عن قليل من الأفراد، ليست لهم قيمة كبيرة، تبدو في حد ذاتها مثارًا للاستهزاء داخل المجتمع الذي تنسب إليه، لكنها تغير مسار التاريخ الإسباني على مدار ثمانية قرون وتهيمن عليه بعد ذلك دون حدود متوقعة.

الأمر جدّ مختلف من المنظور الإسلامي، فالديانة التي دعا محمد العرب إليها حولت هذا الشعب وبث فيه توجهًا جماعيًا لم يكن يتمتع به قبل ذلك على الإطلاق: إنه التوسع الإسلامي، الجهاد أو الحرب المقدسة، وتكوين ما سُمي بعد ذلك "بالأمة العربية" وأنه مجتمع المؤمنين سواء كانوا عربا أم لا. وعلى أساس هذا المشروع العربي في الأصل، والإسلامي في تنفيذه الفعلي، فإن إسبانيا ليست إلا استمرارًا للتوسع السريع الذي بدأ قبل ذلك بقرن: فبعد شمال أفريقيا، نجد الشاطئ الآخر للبحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك الجزر وهي صقلية وسردينيا. وعلى الجانب الآخر من مضيق جبل طارق، نجد شبه جزيرة أيبيريا التي لا تعد نهاية المطاف، وهذا ما يؤكده التوغل العربي في الأراضي الفرنسية حتى تمكن كارلوس مارثيل من إيقاف زحفهم في بواتييه وذلك بالتحالف مع طقس ومشهد مختلفين عما هو عليه الأمر لدى الشعوب الغازية.

نجد أنفسنا أمام نتيجة فيها تناقض وهي أن الغزو العربي لإسبانيا كانت له دلالات جد مختلفة عند الغزاة وعند من وقع عليهم الغزو. وليس الأمر لأن أحدهم هو المطرقة بينما الطرف الآخر هو السندان، أو أن ذلك كان حدثًا طيبًا بالنسبة لطرف ومشئومًا بالنسبة لطرف آخر، بل لأن المواقف لهذا الطرف وذاك هي مواقف غير متوقعة، والسبب هو أن كل واحد من الطرفين لم يدرك ما يريد، وما يأمل، ويفعل الطرف الآخر. ولهذا هناك خطأ فادح للغاية في اللحظة شديدة الدقة في تاريخنا. وبالنظر للجانب الحربي للغزو نجده يؤكد هذا. فقد لوحظ دائمًا، ودون شعور كاف بالمفاجأة، ضعف المقاومة القوطية والسرعة غير العادية التي تمكن من خلالها العرب من السيطرة على البلاد بشكل شبه كامل. هذا غير مفهوم لأنه يتناقض مع مؤشرات أخرى للمقاومة أكبر بكثير، أمام البيزنطيين أو الجيش الروماني أو حرق وتدمير القوات العربية على زمن بامبا vamba. ما يمكن فهمه فقط بالنسبة لغيبة المقاومة هو القول إن القوط لم يدركوا جوهر الأمر. وعندما أدركوا ذلك كان الوقت قد فات، فالجيش غير منظم وفاقد للمعنويات بينما تمكن الغزاة من احتلال المواقع التي تؤكد لهم السيطرة.

ليس من غير المناسب تذكر السلوك المختلف للإسبان أمام الغزوات الفرنسية عام ١٨٠٨ وعام ١٨٢٣. فالنسبة للأولى جرت مقاومتها مقاومة عنيفة وبطولية. وكان على القوات النابليونية أن تقوم في بعض المدن باحتلالها منزلًا منزلًا، بتدمير كل شيء (سرقسطة وجيرونا) ولم يسيطروا إلا على الأرض التي يطئونها بأقدامهم، كما أن حرب الاستقلال استمرت ستة أعوام حتى تم طرد الفرنسيين الذين كانوا يريدون السيطرة على الأمة، ويقصوا ملوكها بأن يضعوا أخًا لنابليون ويغيروا من النظام الموضوع.

ويحدث عكس هذا فعندما جرى الانشقاق في إسبانيا بسبب الحروب الأهلية بين الليبراليين والاستبداديين دخلت القوات الفرنسية لمساندة أحد الطرفين وذلك لإعادة فرناندو السابع للعرش واستعادة حقوقه المطلقة، وعندئذ نجد المقاومة ضعيفة. ووصلت قوات دوق أنجوليما D.Angulema حتى قادش في سرعة تسترعي الانتباه. إنها الأمم نفسها، أي الغازية والمغزوة، مع خمس عشرة سنة كفارق زمني، وفي الحالة الأولى وجدنا الميزة المزدوجة المتمثلة في الشهرة والألمعية الحربية لنابليون. كما أن رد الفعل لا يمكن أن يكون مختلفا ذلك أن هذا الذي يطلق عليه "غزوًا" ينظر إليه الإسبان بشكلين مختلفين تمامًا.

وسوف يقال إنه إذا ما أراد الفرنسيون في عهد الملك كارلوس العاشر أن يبقوا في إسبانيا وأن يحكموها هم ويحولوها لكانت المقاومة قد اشتعلت مثلما حدث عام ١٨٠٨م. هذا ممكن لكننا بذلك ندخل في باب التكهنات بشأن ما هو مستقبلي. وفي حالة القوط يجب أن يوضع في الحسبان الوحدة الهشة للمملكة وبالتالي قلة "مرونتها" الاجتماعية وعدم الاتصال بين الأجزاء المختلفة وبطء وصول الأخبار. ويشير مننديث بيدال إلى أن ريكاريدو لا يبلغ البابا بخبر تحوله إلى الكاثوليكية وتحول مملكته معه حتى عام ٥٩٠م، أي بعد ثلاث سنوات من وقوع الحدث. تمت أول محاولة لنفاذ المسلمين إلى الداخل عام ٧١٩م وقام بها طريف، وتم صدها وأصبح اسم المكان فيما بعد "طريفة والجزيرة"، وفي العام الثاني أرسل موسى طارقًا ومعه جيش كبير (يقدر عدده بسبعة

آلاف رجل). وكانت هذه الجملة شبيهة بالحملة السابقة وتلاحمت الصدف: فهناك رودريجو المحاصر بتمرد الباسكون بالقرب من بمبلونة، يرسل ابن أخيه سانشو إلى الجنوب فلقي حتفه الأمر الذي أجبر الملك على السير نحو باطقة، ثم يتلقى طارق مددًا هو خمسة آلاف رجل. ويحكي العرب أن الجيش القوطي كان أكثر من ذلك بكثير، لكن كان ضمن صفوفه أبناء فيتيزا وقد وضع مؤلف عربي على ألسنتهم هذه العبارة التي نقلها مننديث بيدال: "هذا الفتى ابن المرأة السيئة سيطر على أرضنا دون أن يكون من السلالة الملكية. والغزاة الذين سوف نقاومهم لا ينوون البقاء في بلادنا بل يريدون غارة والحصول على غنائم ثم يرحلون. ولنبدأ إذن الهرب من المعركة وسوف يُهزم ابن المرأة السيئة".

وهذا ما حدث على ما يبدو، وتم النصر على رودريجو وربما توفى إلى جوار نهر جوادا ليتي. قرر المسلمون الإفادة من هذا النصر السهل وغير المتوقع فواصلوا تقدمهم من خلال الاستعانة بمدد جديد. لم يعيدوا المُلك إلى آل فيتزيا بل قاموا بإرضائهم بعطايا لا قيمة لها، وملئوا الفراغ الناجم في السلطة على هذا النحو. هذا هو الخطأ الفادح الذي أدى إلى "ضياع إسبانيا".

إسبانيا الضائعة

رغم أن الأمر يبدو فيه تناقض ظاهري إلا أن العنصر الجوهري وراء حرب الاسترداد، ومحرك إعادة إسبانيا المسيحية ـ وكان هذا يعني آنذاك أوربا الغربية ـ تمثل في فقدان إسبانيا المفاجئ وغير المتوقع على يد الاجتياح الإسلامي. لم تكن إسبانيا القوطية قوية للغاية وسقطت مع أول صدام بالغزاة القادمين من الشمال الأفريقي. وأصبح شكلها أو شبحها وصورتها التي ترنو إليها واقعًا تاريخيًا من الدرجة الأولى ويتمتع بقوة غريبة وعناد شديد.

وقعت ظاهرة غريبة، وعملية انتقال جديرة بالإعجاب تساعد على فهم الأداء الفعلي للتاريخ، فإسبانيا **الضائعة** أو التي دمرها العرب تحولت إلى **مشروع**. فلا يوجد الحنين فقط: فقد انتقل من الماضي إلى المستقبل، كانت إسبانيا ترى نفسها وقد "ضاعت" وفي الوقت نفسه يتم "البحث عنها" أي (Zetaumene exprstome) طبقًا لأرسطو.

ويلاحظ أن الواقعة الرئيسية التي لم يتم تسليط الضوء عليها بشكل كاف - وذلك حتى يدلف إلى وعي الإسبان ويحدث أثره - هو أنه لم يتم القبول أبدًا بأن تكون إسبانيا بلدين، أي بلد مسيحي وآخر إسلامي، أو بلدين مجتمعين أو كونفدراليات متجاورة. لم يكن الغزو العربي محل قبول على الإطلاق عند المسيحيين ولا حتى "قبول الأمر الواقع"، أريد القول إنه تم النظر إليه على أنه أمر **عارض** بما في ذلك بعد مرور قرنين أو ثلاثة على استقرار المسلمين في شبه الجزيرة، في الفترة التي كانوا يحتلون فيها الجزء الأكبر من أراضيها. وكان خوسيه أورتيجا على حق عندما قال إنه لا يفهم كيف يمكن أن يطلق مسمى "إعادة الاسترداد" على شيء استمر وجوده ثمانية قرون: فإذا ما كان يفهم إعادة الاسترداد على أنه حملة حربية فمن البديهي أن يتم التفكير على هذا النحو. لكن إذا ما تم النظر إلى حرب الاسترداد على أنها **مشروع جماعي** ودائم لإسبانيا المسيحية، سواء تم أم لا، أو كان حيًا أو خافتًا، فإن واقعه أمر واضح للعيان وله قوة السيادة. وهنا أريد أن أضيف أن ذلك مكوِّن شديد الخصوصية من عند أورتيجا إي جاسيت، بمعنى أنه يجيب على ما كان أورتيجا يفهمه على أنه مجتمع، في معرض دفاعه عن الأمة على أنها "مشروع جذاب للحياة المشتركة".

تمثلت حرب الاسترداد بأنها متعددة، إذ تم القيام بها من مختلف المناطق الشمالية التي تحررت من السيطرة الإسلامية، وكان هذا انطلاقًا من الأراضي التي تعرفها اليوم باسم استورياس وفاسكونيا ونابارة وأعالي أرغن وقَطالونيا البرانس. غير أن هذه التعددية هي نقطة الانطلاق لا يجب أن تحول دون رؤية ما كان جوهريًا: أي وحدة **الهدف**، فمن الواضح أنه لا يتم استرداد الممالك التي ترجع إلى العصور الوسطى، التي لم

تكن موجودة وإنما كانت في مرحلة التكوين بفضل حرب الاسترداد، فما يتم استرداده إذن هو إسبانيا، أي إسبانيا الضائعة التي تقف أمام نواظر العدد القليل من المسيحيين الذين كانوا يعيشون على أرضهم وغير خاضعين للسيطرة الإسلامية. ولهذا يمكننا القول إن مولد إسبانيا على مدار العصور الوسطى كان **بعثًا**. ولا يُنسى في هذا المقام أن البعث ليس مماثلًا دائمًا لذلك الذي يتم بعثه وربما ليس مثله أبدًا، بل هو بالضرورة شيء جديد.

الأمر المهم هو أن ذلك هو ما كانت تفتقده أمم أوربية، وهذا يفسر، رغم تناقضه، أن تكوينه بدأ متأخرًا. أريد القول إن باقي البلاد الأوربية واصلت مسارها العادي، دون تدخل الغزو الإسلامي الذي كان مؤقتًا وهامشيًا في كل من صقلية وفرنسا ـ وكانت تتحرك في إطار العالم المسيحي، بينما الإسلام كان "خارجها"، وكانت الوحدات الصغيرة تتصارع فيما بينها وتتوحد أو تنفصل عن بعضها. فلم تكن فرنسا أو إيطاليا أو ألمانيا أو إنجلترا موجودة بهذا الشكل، فما كان موجودًا هو التنوع وكان فوضويًا في الأعم الأغلب، وهو عبارة عن ممالك أو إمارات أو دوقيات أو كونتات أو إقطاعات أو جمهوريات، كلها غير مستقرة وفي حراك مستمر وفي خصومة إن لم تكن في حرب ضروس مع بعضها. هناك بعض مراكز التنظيم والتي حولها سوف ينتهي الأمر إلى تكوين الأمم، غير أن صورة هذه الأمم كانت غير موجودة حتى ذلك الحين.

هذا الواقع لم يكن قائمًا في إسبانيا حسبما يقال. من الواضح أنه ليس كذلك، لكن نعم هناك غيبة هذا الواقع وذكراه وصورته- وما هو واقع - أي أن شبه الجزيرة التي يحتل أغلب أراضيها "المورو" تائهة وضائعة ـ مرفوض انطلاقًا من مشروع إعادة هذه الوحدة التي لا توجد، والتي تتجلى للخيال وكأنها شيء أكثر توحّدًا وحقيقيًا مما كانت عليه إسبانيا القوطية بالفعل.

تتشكل إسبانيا مثل ذلك الذي يجب البحث عنه لأنه فُقِد، أي أنها مشروع أكثر وضوحًا بشكل لم يسبق له مثيل. من الواضح بجلاء غيبة إسبانيا، تتأكد وتنادي المسيحيين

الذين ظلوا بمبعد عن المد الإسلامي، وهنا سوف يكون من المهم للغاية التأكد، فيما إذا كان ذلك ممكنًا، من الدرجة الخاصة بهذا الموقف الذي اتخذوه، وإلى متى ظلوا عليه أي المسيحيين الذين كانوا يعيشون على الأرض الإسلامية من المستعربين أو المنفيين أو الذين اختلط عليهم الأمر واللامبالين، ومنذ متى بدأوا القبول بالأمر الواقع الذي وجدوا أنفسهم عليه.

كانت إسبانيا الضائعة تتلألأ على مدار سبعة قرون طويلة تومض وتحث كل هؤلاء الذين سوف يكونون إسبانًا. كانت هذه **الإمكانية** التي ترى أنها غير واقعية وغير موجودة، المحرك لحياة شعب يصنع نفسه بناء عليها. وربما كان هذا من أفضل الأمثلة على مكانة ما هو غير واقع في الحياة الجماعية. أما بالنسبة للحياة الفردية فقد كان الأمر واضحًا منذ عشرات السنين وأن المشروع اللاواقعي والذي يمثل نوعًا من الإرهاصة أو المستقبل أو المقصد هو أحد مكونات الحياة. وعندما يتعلق الأمر بمجتمعات فإن هذا أقل بداهة. وخلال الأزمنة الأخيرة جرى الإلحاح كثيرًا على البيانات والموارد والعزائم الفعلية حيث هناك اتجاه لتلاشي الحدث الجوهري القائل إن الحياة الجماعية هي **حياة** مهما كانت شدة درجة الاختلاف في الحياة الفردية ـ أو على الأقل أنها **ليست إلا حياة** ـ وأنها تضم السمات الرئيسية للجماعية. فإسبانيا التي "بقيت" بعد تدمير مملكة القوط وظلت تحيا في صورة شوق وتوقع ربما كانت ذلك الجزء من التاريخ الذي يتضح فيه بجلاء الطابع الجماعي والمستقبلي لذلك الذي هو مجتمع مشبع، أي بلد. وفي هذه الحالة فإنه ما سوف يصعب في أمة ليواصل طريقه دون توقف عند ذلك الشكل التاريخي.

الفصـل التاسـع

المسيحية والإسلام

انشقاق البحر الأبيض المتوسط

يعتبر تفتت رومانيا النتيجة الأكثر خطورة للغزوات التي تمت خلال القرن الخامس، كما أن الكسر الذي حدث في وحدة البحر الأبيض المتوسط هو الحدث الأكبر خلال القرن الثامن. مرة أخرى يتولى التاريخ تغيير الجغرافيا دون تغيير الطبيعة، فكل شيء يسير على ما كان عليه، أي الأرض والبحر، لكن مسارح الحياة تشهد تغيرًا عميقًا، فالعالم الذي إليه نُنسب كان هو البحر المتوسط بشاطئيه في البداية، ومن خلاله أخذت الشعوب المطلة عليه تعيش في اتجاهات مختلفة إلا أن الاتصال فيما بينها كان دائمًا. ولا يُنسى أنه خلال عصر لم يكن فيه محركات ولم يكن فيه طرق كثيرة كان البحر وسيلة الاتصال الأكثر سهولة، إذ كان كله طريقًا وكانت السفن، الصغيرة في نواظرنا اليوم، ذات حمولات كبيرة مقارنة بالعربات أو الدواب. كانت الرياح هي الموتور الجاهز بشكل شبه دائم، وكانت الأداة في ادخار الجهد البشري والحيواني. وقد شهدنا أن الطرق الرومانية قد حلت محل البحر على اليابسة، وكان ذلك مكلفًا من حيث الجهد والمال.

هنا يمكن تخيل دلالة الاحتلال الإسلامي للشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط وامتداد ذلك إلى إسبانيا وصقلية، والانقسام الذي حدث بحيث لم يعد هناك ما يسمى

"بحرنا"، بل **بحرنا وبحركم** (عندما يكون هناك حوار). وكان هذا يشمل أغلب الوقت.

وما كان الوحدة المتميزة أصابه التصدع إلى جزأين متواجهين ومتعاديين. يمكننا أن نفهم هذا الموقف إذا ما قارناه بما حدث خلال الأربعين سنة الأخيرة حيث إن الساتر الحديدي هو الذي قصم الوحدة الأوربية القديمة، وقطع الاتصال بين نصفيها وحال دون التناضح العادي، من خلال الحواجز الحدودية القابلة لذلك وفي الوضع الحالي فإن الانفصال ليس ثنائيًا بشكل دقيق، ذلك أن الغرب مفتوح، أما الإقفال فكان منوطًا بالشرق. كان الفصل أقوى خلال العصور الوسطى.

أدى هذا التقسيم إلى أن يكتسب داخل الأراضي Hinterland المتوسطية في الشمال أهمية جديدة، حيث نجد المزيد من "الكثافة"، إذا ما كانت اللفظة مناسبة، أي أن هذه الأراضي أخذت تعتمد على "المؤخرة" في القارة، وأخذت الشعوب الشمالية تدخل إلى المسرح، وأخذت عمليات التبادل التجاري تزداد معهم، وزادت التداخلات والارتباطات وأخذت تتكون مجتمعة وليست مجتمعات متوسطية فقط، إذ كانت في بعض الأحوال غير متوسطية على الإطلاق. وأخذت منطقة الأطلنطي وبحر الشمال، ثم بحر البلطيق، تنضم إلى ذلك العالم نفسه. ويلاحظ أن هذا المسار يعتبر جوهريًا في ميلاد أوربا.

لم تعد الإمبراطورية الرومانية موجودة، لكنها ظلت تومض بجلالها، فعندما يتم عمل شيء جديد تمامًا يبدو ظاهريًا أنه تم إصلاحه. وهنا فإن الإمبراطورية الرومانية المقدسة الجرمانية لا تشبه الإمبراطورية الرومانية إلا في القليل، وسوف تكون واحدًا من العناصر التي تشكل أوربا، لكن اسمها يعكس استمرارية البناء العقلي الذي ظل قائمًا في هذا السياق. أما الرابط الرئيسي لأوربا في لحظات تشكلها فإنه سيكون المسيحية. وقد تجلى هذا في العنوان الرومانثي لنوفالس Die christenheit oder Europa: المسيحية تعني أوربا. وكان ذلك حقيقة طوال قرون.

أما الآن، فإن تصدّع المتوسط لم يعن اختفاء الشاطئ الجنوبي أو زواله، فها هو هناك وكأنه منطقة محظورة وممنوعة ولا يمكن الولوج إليها، لكنها قائمة. أضف إلى ذلك أنها مصدر تهديد وفي حالة ترقب دائم. ولا يُنسى، بغض النظر عن الغزوات الكبرى، أن كانت الغارات والاعتداءات الإسلامية دائمة ولم تنته إلا بعد مرور فترة طويلة من القرن التاسع عشر، فحوض البحر الأبيض المتوسط غير آمن للسفن المسيحية، وأخذت البلدان المطلة على شواطئه تعاني من الهجمات المفاجئة وتعاني الموت والنهب والحرائق والخطف. وأصبحت مسألة الأسرى هاجسًا يصل إلى درجة الهوس وموضوعًا دائمًا في الأدب على مدار ألف عام، أي أن أوربا التي تعيش حالة التشكل لن تكون مفهومة دون الإشارة الدائمة للإسلام. العدوان لا يقلل من أهمية التواجد، فالبلاد الإسلامية المتعددة الأطراف والثقافة (العربية والأمازيغ والأتراك بعد ذلك) ليست أوربا، لكنها لا تنفصل عنها: إنها عنصر رئيسي لعالم الأوربيين، وليس للمسيحيين ولكن للمسيحية من حيث كونها وحدة اجتماعية وتاريخية.

الجرمان والعرب

هل يمكن مقارنة الغزو العربي لإسبانيا بالغزوات الجرمانية السابقة؟ هل يمكن القول إن إسبانيا انتقلت من السيطرة القوطية إلى العربية طبقًا للصورة الشائعة؟ وعلى التوالي "حلّ" الجرمان والعرب محل العالم اليوناني الروماني، الذي كان الإطار السابق والمسرح التاريخي الذي دخلوه، حيث نجد الأول في البداية، وبعد ذلك بقرون أتى الآخرون. لم نجد الجرمان أو العرب وحدهم في عزلتهم البدائية، وبشكل أدق قبل التاريخ، ولو كان التاريخ العام على الأقل، حيث نجد أن إطاره هو الإمبراطورية الرومانية.

أعتقد أن خوسيه أورتيجا إي جاسيت رصد هذا الموقف بدقة، هناك أيضا تواز تاريخي مثير للانتباه بين الجرمان والعرب، وقد ارتدى ذلك قناعًا يتمثل في الاختلافات

الضخمة بينهما. ففي المقدمة التي كتبها للترجمة التي أعدها إميليو جارثياجومث للكتاب الشهير طوق الحمامة لابن حزم القرطبي[22] يدرج أورتيجا بعض الأفكار التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار. فعند تسمية ابن حزم العربي "بالإسباني" يلاحظ أورتيجا أنه تنسب إليه العربية بشكل جاد والإسبانية بشكل ظاهري. "ومن جانبي فأنا لست على استعداد للمجازفة بإطلاق لقب "إسباني" على أي إنسان ولد في شبه جزيرة أيبريا رغم أنه قد يكون من دم السكان الأصليين ورغم أنه عاش على هذه الأرض طوال حياته". وعكس ذلك يمكن أن يكون إسبانيا عظيمًا دون أن يرى حتى الأرض الإسبانية أو أن دمه الذي يجري في عروقه به القليل من دم سلالتنا أو ليس به على الإطلاق. ويوضح أورتيجا قائلًا "أفهم أن المجتمع هو مجموعة من البشر يخضعون لنظام معين". ولهذا عليه أن يقول إن "المجتمع العربي في الأندلس كان مختلفًا" ومجتمعًا آخر غير المجتمعات غير العربية التي كانت تعيش في إسبانيا آنذاك". لكن "مجتمعنا تعايش على مدار قرون مع ذلك المجتمع الأندلسي جنبًا إلى جنب في احتكاك وتلاحم دائم من القبلات، ومندفعًا في إطار الأخذ والرد أو تلقي التأثيرات والتأثير". ويختتم قوله إن "من المهم أن نحدد بشكل واضح ومنفصل بنية كل واحد من هذين المجتمعين وذلك حتى نستوضح ما عليهما من مواجهات وتناغم".

الأمر المهم في هذا المقام هو أن أورتيجا لم يقف عند الحالة الإسبانية بل عممها على أوربا قاطبة، وبالتالي فإن المشكلة يتم طرحها بشكل أعمق، وبالتالي بشكل فيه جلاء: "العصور الوسطى الأوربية لا تنفصل في حقيقة الأمر عن الحضارة الإسلامية ذلك أنها تتمثل أساسًا في التعايش الإيجابي والسلبي في آن معًا، من المسيحية والإسلامية في منطقة مشتركة مفعمة بالثقافة اليونانية الرومانية". "هذان العالمان، المسيحي والإسلامي، هما إقليمان فقط من عالم جغرافي تلقى معلومات قبل ذلك من الثقافة اليونانية الرومانية. كما

---

(22) هذا التقديم الذي نشر عام ١٩٥٢م، ضمن الأعمال الكاملة لأورتيجا، الجزء السابع ص ٤١ ـ ٥٥.

أن الديانة الإسلامية نفسها تنبثق عن المسيحية، لكن هذا لم يكن يحدث هو الآخر، إذا لم تكن الشعوب الأوربية والعربية قد دخلت في المنطقة التي احتلتها الإمبراطورية الرومانية على مدى قرون. كان الجرمان والعرب شعوبًا تعيش على الأطراف وتقيم على حدود تلك الإمبراطورية، كما أن تاريخ العصور الوسطى هو تاريخ ما يحدث لتلك الشعوب، طبقًا للدرجة التي تنفذ بها إلى العالم الإمبراطوري الروماني، وتقيم فيه وتتمثل جزءًا من ثقافته التي نضبت وماتت".

الفارق الأكثر أهمية هو أن العرب تلقوا ثقافة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بينما تلقى الأوربيون الثقافة الرومانية الغربية، وظل الأمر حتى القرن الثالث عشر "حيث توقف ذلك بين العرب الذين جفت حضارتهم وتحجرت بقوة القرآن والصحراوات". ويواصل أورتيجا قائلًا "تتمثل فكرتي إذن هو أنه عند بداية ما يسمى بالعصور الوسطى نجد أن ما هو جرماني وما هو عربي جسمان تاريخيان متجانسان بشكل كبير فيما يتعلق بالموقف الأساسي لحياتهما، وبعد ذلك فقط، وبشكل وئيد، أخذا يختلفان حتى وصلا في هذه القرون الأخيرة إلى عدم تجانس راديكالي". كانت الثقافة الكلاسيكية ضامرة وتوقف نموها، ولم تعد حيوية وكانت اختصارًا لنفسها ad usum definis "كان الدلفين هو الجرماني وهو العربي"، فلم يتمكن لا هذا ولا ذاك من فهم أنماط هذه الحياة فهمًا جيدًا، فهي أنماط أكثر تعقيدًا ودقة من الأنماط التي هم عليها، ذلك أنهما ولدا من جذور بعيدة وكانت لهما خبرة مختلفة، لكنها أنماط كانت تفرض نفسها عليهما لأسباب نفعية وكذا لصيتها الواسع. ولهذا فإن الحياة لدى هذين الشعبين سوف يكون لها طابقان أولهما تركيبة الاستخدامات المتأصلة والمعاشة بأصالة، وثانيهما السلوكيات المثالية التي يحذو الناس حذوها: "الحياة كعادة" في مواجهة "الحياة كما ينبغي".

هذه الرؤية التي وضعها أورتيجا -هذا إذا ما عدنا لإسبانيا- تبرز بشكل غير متوقع، فما هو نظام تعايش "على البعد"، حظي في شبه الجزيرة بتقارب فريد: حيث التقى الجرمان والعرب على أرض مرونة وفي مجتمع يعرف الثقافة الكلاسيكية، وانضما إليه

حيث فعل القوط هذا قبل ذلك من خلال الوظائف التي رأيناها. وبدرجة كبيرة، فإن ما يحدث في عالم العصور الوسطى باستقلال نسبي بين هؤلاء وأولئك، نجده في إسبانيا يحدث بينهما "جسدا لجسد" وبكثافة غير معهودة. ولن يتأتى أن إسبانيا، التي ينظر إليها على أنها أقل أوربية بسبب الوجود العربي فيها، هي خلاصة ما كانت عليه أوربا، وكأنها تركيز لما سوف يكون في جذوره العصور الوسطى ولكن بشكل مخفف.

مضمون العصور الوسطى

يجب أن يكون حاضرًا في الأذهان أن العرب كانوا عددًا ضئيلًا جدًا، فمن حيث الأصل هم أساسًا من البدو، ومن شبه جزيرة، صحراوية معظم أراضيها. هذا يعني أن غزواتهم لم تكن عملية **هجرة** شعب ينتقل إلى أراضٍ أخرى مثل البربر ابتداء من القرن الخامس بل كانوا حملات حربية، وجيوشا _ ثم مفرزات بعد ذلك _ مكونة من محاربين بأعداد ضئيلة نسبيًا ودون رفقة نسائية ثم يقومون بالسيطرة على مساحات من الأراضي ويعملون على أسلمتها بدرجة كبيرة أو صغيرة.

تغير طبع العرب تغيرًا عميقا بتأثير محمد (الذي يكاد يكون معاصرًا للقديس إيسيدورو). ورغم أن المسلمين يطلقون على العصر السابق على محمد في شبه الجزيرة العربية العصر الجاهلي، فإن التطور الثقافي لسكانها لم يكن قليلًا، وكانوا على اتصال كبير بثقافات كل من Helade(الهلننست) وفارس وما بين النهرين. ما تغير بشكل راديكالي، مع اعتناق الإسلام، هو **المشروع التاريخي** لمن هم المسلمون اليوم. هناك أمثلة قليلة أكثر وضوحًا بشأن الفعالية الضخمة، والتي لا تقارن بالعناصر الجغرافية والاقتصادية، للعقلية ولطريقة فهم الحياة واستشراف مستقبل. وابتداء من عصر محمد أخذ العرب يتحركون خارج أراضيهم الأصلية بحثًا عن الغنيمة والثروة والسلطة وانتشار الإسلام، وكذا بحثًا عن دخول الجنة إذا ما ماتوا في في أثناء المهمة. وهذه الأخيرة هي الأمر الحاسم، وسوف تقوم بتنفيذها شعوب ليست لها صلة بالعرب سواء من الناحية الإثنية أو الموروث الثقافي.

ومن الأفضل أن يُطلق مسمى "المتأسلمون" islamizados على هؤلاء الذين يتعايشون ويواجهون المسيحيين أثناء العصور الوسطى. وما حدث هو أن العنصر العربي هو الخميرة لكل ذلك، كما أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية لتلك السلطات والوعاء الثقافي الذي جرى خلقه بالاتصال الحميم بالشعوب الأخرى. كما أن استمرارية الفكر اليوناني هي أصل الفلسفة العربية أي العلم الذي منه تطورت وتم بثها بين العرب في المشرق وفي إسبانيا.

كان على أوربا المسيحية أن تتعامل مع هذا العالم، شاءت أم أبت، بندية لا تحول دون الاتصال والاستعارات الثقافية وتلقي أوربا للفكر اليوناني الذي تم نقله عبر السريانية أو العربية. ويدخل في هذا الصراعات ومنها، على سبيل المثال، الحروب الصليبية التي هي العنصر الأقوى في التوغل المتبادل.

ومن الطبيعي أنه كلما قويت أوربا وقيام الممالك بتوحيد السلطات الإقطاعية الصغيرة وازدهار الثقافة - الرومانية والقوطية والجامعات - وأن تشكل كل من الإمبراطرية المقدسة والكنيسة قوتين كبيرتين موحَدتين وموحِّدتين، فإن استقلال العالم العربي أخذ يتضاءل. ومن جانب آخر، أخذ هذا العالم يستنفد طاقاته وقدراته الخلاقة، وبالتالي فالتهديد أقل والتوقع أقل. وأخذت أوربا تزداد "اكتفاء"، لكن ليس بشكل زائد عن الحد، ذلك أن انزواء العرب ترك الباب مفتوحًا أمام الأتراك ـ هم مسلمون أيضًا رغم أنهم يختلفون بشكل عميق ـ قام الأتراك "بخلافة" العرب خلال القرن الخامس عشر، وفي منتصفه سيطروا على الإمبراطورية الشرقية وغزوا القسطنطينية عام ١٤٥٣م ودمروا التنظيم السياسي والاجتماعي لنصف العالم المسيحي الذي صغر حجمه قليلًا. لم يتوقف الحوار المثير للجدل بين المسيحية والإسلام، رغم تغيير الأبطال والمحتوى حتى مجيء العصر الحديث "أي حتى نهاية القرن السابع عشر."

وإذا ما كان الأمر كذلك نجد صورة إسبانيا "غير العادية" وقد توارت بشكل كبير. فهناك الغزو العربي لشبه الجزيرة وهناك الإقامة الطويلة للمسلمين وهناك الصراع الذي دام ما يقرب من ثمانية قرون حتى انتهاء حرب الاسترداد. رأت الدول الأوربية كل ذلك على أنه "نشاز" إسباني، يجعل هذا البلد مختلفًا عن باقي البلاد جميعًا. وحقيقة الأمر أن هذا التفسير خطأ في المنظور ورؤية داخلية محضة من قبل هذه البلاد الأوربية التي يوصف تاريخها من منظور الافتراضات المتعلقة بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وجرى تطبيق هذه الافتراضات على العصور الوسطى، المعروفة بشكل غير جيد، وكذا المستبعدة من الأفق على اعتبار أنها "عصور ظلام". أمر غريب أن يُرى هذا التشويه من قبل عصر النهضة، حيث يجعل العصور الوسطى واحدة من العناصر الأكثر سلبية في الثقافة الأوربية الحديثة.

لم تتمكن إسبانيا من ارتكاب ذلك الخطأ رغم أنها ربما وقعت في خطأ مقابل وهو المبالغة الشديدة في المكون العربي. هناك استمرارية حرب الاسترداد والارتباط بين نهايتها وبين الوحدة الوطنية وبقاء الموريسكيين على الأراضي الإسبانية حتى عملية طردهم على زمن فيليب الثالث، وبعد ذلك بدرجة أكبر، وهناك حيوية العنصر العربي في الأدب، ووجود أعمال معمارية كبرى على أرضنا، أبقى كل هذا الوعي يقظًا بأن فترة طويلة من تاريخ إسبانيا ارتبطت بالعرب وكان هناك أثر عميق لتلك التجربة: كما أن هناك صورة أوربا "النقية" التي لم يمسها الإسلام، مع وجود عنصر يهودي يكاد يكون غير معروف أو مرفوض، وهذه صورة لم تكن ممكنة في إسبانيا، غير أنه لما كانت هذه زائفة، فإن ذلك الوجود الحي بغض النظر عن كونه نشازًا ـ قد ظهر، إذا ما أريد أن تُرى الأمور بشكل جيد، وكأنه أمانة النظر إلى الواقع، ودخول أكثر دقة في أوربا التي جرى تكوينها على مدار القرون الوسطى. ثم تنفيذ مضمون هذه الفترة من التاريخ بقوة غير عادية وظل حيًا في إسبانيا أكثر من أي مكان.

المسيحية والإسلام لم ينفصلا عن بعضهما منذ القرن الثامن وحتى نهاية العصور الوسطى. غير أن هذه العلاقة هي علاقة **استقطاب**، أريد القول إنهما لا ينصهران أو يختلطان، وأن نفاذ كل واحد منهما في أرض الآخر نسبي أبقى على تبادل الأدوار alteridad، والأكثر من هذا أن العلاقة مكونة من ذلك وبوعي كامل. وإذا ما كان هذا أو ذاك فكل واحد يؤكد ذاته في إطار واقعه في مواجهة الآخر الذي يضعه في الحسبان. هناك اهتمام في العالم المسيحي بالإسلام، وهو اهتمام متغير حسب البلاد والعصور، والعكس صحيح. هناك إعجاب وعدوانية وحب، ومنافسة دائمة.

فالإسلام الذي تغذّى على اليهودية ثم المسيحية بشكل أكبر (وبالتحديد هو نوع من الهرطقة للديانتين السابقتين، وهو من الناحية التاريخية أكثر قوة من الأخريات لأنه ظهر في شعب محارب وتوسعي) غير موقفه بدرجة ما. كان منطلقه التوراة والعهدين القديم والجديد، ويؤمن بالرسل -آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد في النهاية- غير أنه يرى في محمد أنه خاتمهم وأن القرآن هو مجمع الإيمان وكذلك مجمع العادات والقوانين لدرجة اعتباره الكتاب الوحيد الضروري وغيره من الكتب يصبح غير ذي معنى، وكان ذلك يزداد خصرية، وهنا يجب ألا يُنسى الطابع المثير للجدل للمبادئ الإسلامية: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد".هذا إعلان الوحدانية ولكن **بالنفي** (وهذا لرفض تعدد الآلهة في عصر ما قبل الإسلام عند العرب)، كما أنه ضد عقيدة التثليث (في مواجهة المسيحية). واليهود والمسيحيون ليسوا هم السابقون بل هم "غير المؤمنين".

اليهودية والمسيحية والمحمدية هي الديانات الثلاثة للكتاب، لكن يرجى الانتباه إلى اختلاف مهم. فالعهد القديم المكتوب بالعبرية قد جرت ترجمته إلى اليونانية على يد يهود (ترجمة السبعينيات setenta)، وبهذا كان منتشرًا بشكل كبير وسط الطوائف

اليهودية. وبالنسبة للعهد الجديد الذي يرتبط بمجتمع لغته هي الآرامية _ وليست العبرية- فقد كُتب باليونانية وهو النص الأصلي الوحيد الموجود. وسرعان ما تمت ترجمة العهدين إلى اللاتينية على يد القديس جيرونيم، كما أن هذه الترجمة Vulgata سوف تصبح الترجمة المستخدمة في الكنيسة اللاتينية حتى زماننا هذا، دون الإضرار بالترجمات إلى اللغات الأوربية وإلى اللغات الأخرى خلال العصر الحديث، بمعنى أن المسيحية تشعر أنها ديانة الكتاب، ففيه قد وضع ما جاء من الوحي لكنه لم يرتبط بالحرفية. وكان الكتاب المقدس يُقْرأ منذ البداية بعدة لغات ـ وهنا يمكن ذكر نسخ التوراة المكتوبة بلغات شتى خلال عصر النهضة بدءًا بنسخة الكومبلوتنسي complutense.

غير أن هذا ليس الأمر نفسه في حالة القرآن. فقد كتب بالعربية وهو شديد الارتباط بهذه اللغة لدرجة اعتبار اللغة الفصحى هي "القرآنية"، وهي الوحيدة، وما عداها من تنويعات لغوية ينظر إليها على أنها "لهجات" يعتورها الكمال. هناك أيضًا مقاومة شديدة، على مدار قرون، لترجمة القرآن إلى لغات أخرى، رغم أن ذلك مطلب أساسي استجابة لتوسع الإسلام في الشرق والغرب. من حيث المبدأ أن القرآن كتاب عربي ينحصر في نصه.

يدخل هذا الموقف المنغلق والحصري للإسلام، والذي ظل حتى أيامنا هذه، الأمر الذي أثار دهشة من نسوا طبيعته العميقة، في استقطاب مع الآخر، الغريب ويثبت موضعه. كان من الممكن أن يعيش المسيحيون في سلام لهم دينهم وفي عالمهم ومعنيون بما لديهم واختلافاتهم ومشاريعهم المختلفة. لكن كان الإسلام أمامهم، وهذا يؤدي إلى توتر وإلى بعض التصلب في الديانة المسيحية. يشعر الأوربيون أنهم مسيحيون وليس هذا في باب الدين فقط وإنما في جميع مناحي الحياة ذلك أن وجود الديانة الأخرى ووجود الأسلوب الحيوي الآخر يدعم إيمانهم ويجعله يكون كل أفقهم.

أعتقد أن ما يساعد على فهم هذه الظاهرة جيدًا هو المقارنة بالماركسية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. فنظريات ماركس (وكذا إنجلز الذي لا يقل أهمية عن الأول) هي "أفكار" (اجتماعية واقتصادية وفلسفية بشكل ما) تم التفكير فيها وكتابتها باللغة الألمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر، إضافة إلى أفكار عديدة أخرى، بعضها أقل عمقًا وبعضها أكثر، ولها شهرة وانتشار قابل للمقارنة بأفكار أخرى لكنها أقل بكثير. ويمكن رؤية الفضاء الذي تشغله هذه الأفكار في العالم الثقافي، وفي البيبليوغرافيا العامة حتى وقت متقدم من القرن الذي نعيش فيه. أما الآن، أي في عام ١٩١٧ تبدأ الثورة الروسية، التي يقودها لينين أيديولوجيا، تتلاشى شخصية إنجلز بالكامل تقريبًا: بقي ماركس، والماركسية أكثر من هذا، وتحركت روسيا تحت هذه الراية، وقامت بثورتها ومدتها إلى بلاد أخرى وأخذت تتصرف في مناطق أخرى في العالم بطريقة محاربة. هذا هو المدلول الحالي للماركسية والتي لم تكن لتبلغ ما بلغته دون التغيير الذي حدث لها بالتحول إلى محرك فعلي للثورة الروسية والحركة الشيوعية.

وهذا الشيء نفسه يحدث بالنسبة لعقيدة محمد التي تتحول إلى حافز يدفع الشعب العربي نحو العالم، ومن المعروف أن هناك عددا كبيرا من العقائد التي اعترتها هرطقات قوية أو ضعيفة انتشرت في العالم خلال القرون الأولى بعد الميلاد.

أعتقد أنه يجب أن يوضع هذا في الحسبان بالنسبة للاختلاف العميق القائم بين الإسبان الرومان وبين القوط، وما تلا ذلك بين مملكة القوط المحتلة وبين غزاتها من المسلمين. وه هو يُرى التمثل الكامل لدور العرب على شاكلة دور اليهود في العالم المسيحي الذي يعني النسيان الكامل للواقع.

الفصــل العــاشــر

تجربة الآخر واختيار المصير التاريخي

الغزاة

التعبير الأكثر ملاءمة بالنسبة لغزاة شبه جزيرة أيبيريا، ابتداء من عام ٧١١م، هو المورو، كانوا أقلية من العرب ـ ومن أصول متعددة غالبًا ما تكون في حالة عداء فيما بينها، هناك آخرون من السوريين، أما الأغلبية فهم من الأمازيغ من أصول مختلفة وخاصة من قبيلة جوميرة Gomera. ولم يكونوا أيضًا عربًا من الناحية اللغوية ذلك أن الأفارقة الذين تأسلموا - وبشكل شديد السطحية - كانوا يتحدثون عدة لهجات ولا يكادون يعرفون لغة الحكام العرب. ويجب ألا يُنسى أن غزاة إسبانيا كانوا قد تعرضوا قبل ذلك بقليل للغزو، خلال القرن السابع وتحولوا إلى الإسلام وتعربوا وانضموا إلى المهمة الحربية الكبرى (وهي في أذهانهم مهمة غامضة ذات طابع سياسي وديني) التي هي التوسع الإسلامي.

وعلى أي حال كان للقليل منهم من العرب الأصلاء. هنا يلاحظ أن بالدي أبيانو الذي يتسم بالدقة يشير إلى أن الغزو والاحتلال "لم يعن إقامة سكان مسلمين ذات أعداد كبيرة"، ويرى أن المسلمين الذين جاءوا إلى إسبانيا خلال السنوات الأولى ربما لا يتجاوز عددهم ٣٥ ألفًا، وأن تعداد جيش طارق كان يتراوح بين عشرة آلاف وسبعة عشر ألف من

الأمازيغ الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا، وإليهم انضم ما يتراوح بين عشرة آلاف وثمانية عشر ألفًا، هم من العرب في هذه الحالة - الأغلبية منهم على الأقل - قدموا مع موسى بن نصير. وبعد ذلك، أي في أثناء العقود التالية، قدم المزيد من المسلمين إلى الأندلس، لكنهم كانوا قليلي العدد، وتمثلوا أساسًا في قوات بمعنى أنهم رجال دون رفقة النساء أو الأطفال.

الطابع نفسه نجده في الغزوات المتتالية، المتأخرة زمنيًا، من تلك التي قام بها المرابطون (في نهاية القرن الحادي عشر) والموحدون (خلال الثلث الأول من القرن الثاني عشر)، لكن الشيء الأكثر أهمية هو أن الغزوات لإسبانيا المسيحية لم تكن كثيرة على شاكلة الغزوات الإسلامية للأندلس التي قام بها السكان الأفارقة، وهم سكان لم تكن لهم إلا صلة ضعيفة بالسكان الأصليين سواء من الناحية الإثنية أو الثقافية، رغم أنه قد تم "استدعاؤهم" من قبل المسلمين الإسبان الذين يشعرون بالتهديدات المسيحية.

والنتائج التي أخذت تفرض نفسها تدريجيًا على الباحثين هي أن سكان إسبانيا الإسلامية لم يكونوا، من حيث التكوين، شديدي الاختلاف عما هو قائم في إسبانيا المسيحية. فالإسبان الرومان على صلة حميمة وفي تلاحم مع بعضهم بعضًا، ويصحب ذلك عنصر قوطي قليل العدد ومختلط بالسكان الأول بطريقة غير منتظمة، هذان هما البنية لأغلبية السكان. يجب أن يؤخذ في الحسبان أن الشمال كان يضم مجموعات من أهل إقليم كانتبريا والباسكون الذين لم يترومنوا كثيرًا وغير مختلطين بالحياة العامة لمملكة القوط، وليس جميعهم قد تمسّح، وبالتالي فإن انضمامهم إلى التركيبة السكانية أخذ مسارًا بطيئًا. ويحدث العكس في الجنوب، حيث الغزاة من الساميين أو الحاميين يفرضون على الطبقات العليا اللغة العربية والديانة الإسلامية، وعادة ما يتزوجوا بنساء من الإسبانيات القوطيات.

ومن المنظور اللغوي، هناك اللاتينية اللغة الرسمية ولغة الثقافة، ولغة الكهنوت في مملكة القوط، وقد أخذ يعتريها التغير قبل الغزو العربي بزمن طويل، سواء من الناحية الصوتية أو المعجمية لدرجة أن اللاتينية لم يعد يتحدث بها الشعب بل كانت لغة الحديث مجموعة من اللغات الرومانثية، وهي متنوعة وليس هذا فقط بل متذبذبة ودون ثبات. أما في الأندلس،

فهناك العربية الرسمية ومعها كان الإسبان Spani، يتحدثون الرومانث، وهذا النوع من الرومانث أخذ يتطور بطريقة مختلفة وانتهى الأمر بتسميتها **الرومانث المستعرب**، وهي لغة شائعة بين المسيحيين الذين احتفظوا بديانتهم على أرض المورو، رغم أن الاستغراب في مثل هذه الحالة كان كبيرًا بين السكان الذين اعتنقوا الديانة الجديدة المسيطرة.

تم تسليط الضوء دائمًا على سرعة السيطرة العربية على معظم أنحاء إسبانيا، والهدف من هذا عامة هو إبراز الضعف الذي كانت عليه الملكية القوطية أو أنها كانت ملكية لا تضرب بجذورها في الأرض جيدًا. وحول هذا قلتُ قبل ذلك كلمة. غير أن هناك جانبًا آخر من القضية، وهو أن هذا التسارع جعل السيطرة الإسلامية تستقر على أغلب أنحاء إسبانيا ـ وسوف نرى أهمية عبارة "أغلب أنحاء" ـ وبذلك اختفت الملكية القوطية، وجميع أنواع السلطات غير الإسلامية. وإلى العنصر السابق هناك ثالث هو أن الدولة الإسلامية استقرت وتدعمت **دون أن يكون هناك وقت للتعريب أو الأسلمة**، بمعنى أن المورو، ولنسمهم بهذا الاسم، يحكمون بلدًا ما زال هو، مؤقتًا، ـالبلد الذي كان قبل الغزو. ولتتم مقارنة هذا مع الخطوات البطيئة للغزو الروماني التي سارت في خط مواز للرومنة الفعلية، ومع الإقامة المطولة والمؤلمة للقوط تمت "أسبنة" الحكّام الجدد.

الذين تعرضوا للغزو

في كتابي، **صورة الهند**، قلت منذ سنوات طويلة إن الإنجليز كانوا هم القوط في الهند الحديثة. كانوا هم الذين فرضوا على تعددية لا حدود لها الوحدة - وهي وحدة خارجية في حقيقة الأمر - وبفضل ذلك كان من الممكن أن تظهر الهند المعاصرة، التي تتمتع بوحدة بها مشاكل وصعوبات، أصبح هناك إدارة، ونظام قضائي، وتنظيم تربوي وخدمات عامة. ورغم أن ذلك قد "فُرِضَ" إلا أن هناك وحدة السلطة: فهل كان من الممكن الوصول إلى وحدة الهند دون "نيابة الملك" البريطانية التي مارست سلطاتها المخولة لها من إمبراطور الهند في لندن؟

أشرتُ قبل ذلك إلى أن المسلمين سيطروا بسرعة على "معظم" أنحاء إسبانيا، وتعتبر نتائج هذا الموقف حاسمة بالنسبة لتاريخ العصور الوسطى عامة، فلا يوجد هناك أي تمرد أو وقوف في وجه سلطة الإمارة أو الخلافة في إسبانيا التي تأسلمت- فقد جرت هزيمة المقاومة المحلية- وفي كثير من الحالات تم قبول السلطة بشكل كبير. لكن بقيت هناك بقية حرة لم تخضع للسلطة الإسلامية وهي شمال شبه الجزيرة الأيبيرية والأقاليم الجبلية والرطبة البعيدة كثيرًا عن المشهد الأصلي الذي كان عليه الغزاة. وفوق تلك الأراضي ظل المسيحيون في "البيت" مثلما كانوا سابقًا رغم أنهم قد حُرموا من الملكية القوطية الكبرى. لم يتغير إيقاع الحياة اليومية، ولم يشعر الناس - ربما - بتغير كبير. ويجب ألا يُنسى أنها مناطق معزولة دائمًا، وشديدة البدائية وريفية، فلا توجد مدينة واحدة ذات أهمية في تلك المقاطعات التي لم تتعرض للغزو. يصعب الوصول إليها وخاصة في أستورياس، وهناك بعض الشخصيات من الإسبان القوط من ذوي الأهمية البسيطة ما زالوا يعيشون على الذكرى والصورة والحنين إلى الملك الذي تم تدميره.

ويبدو أنه بعد فترة وجيزة جدًا من الغزو هناك بوادر تمرد في أستورياس كان يقودها بيلايو، وهو حارس espatario قديم لكل من فيتيزا ورودريجو. ويبدو أن رغبة الوالي الأمازيغي لخيخون، ويدعى مونوزا Munuza، في الزواج بإحدى شقيقات بيلايو التي جرى إرسالها إلى قرطبة لتسهيل الأمور، وعودة بيلايو إلى أستورياس هربًا من قرطبة، ومقاومته من الجبال، كانت على ما يبدو بداية المقاومة وشديد الرمزية للموقف عامة. كان هذا الحدث قليل الأهمية لكن يجب الأخذ في الحسبان ما جاء بعد ذلك.

وبعد أعوام قليلة، عام ٧٢٢م، جرى تنظيم حركة مقاومة حاول العرب السيطرة عليها، وكان الحظ حليفا لهم في الصدام الذي حدث في كوبا دونجا. ويلاحظ أن هذه الواقعة التي كانت ذات أهمية لدى المسيحيين لا يكاد يكون لها ذكر في تاريخ المسلمين، كما أنها لا تظهر في الحولية المستعربة لعام ٧٥٤م. لكن الرواية المسيحية اللاحقة أعلت من شأن الواقعة وأشارت إلى أنها كانت حاسمة.

كان هذا الصدام الصغير أساس نشأة مملكة أستورياس التي أخذت تظهر في شكل محاولة لاستعادة مملكة القوط. وهنا بدأ نشاط صورة **إسبانيا الضائعة** كهدف، وكمثال وغاية أساسية لعمليات كفاح، كان ينظر إليها من جانب قرطبة على أنها ذات أهمية محدودة. وبالنسبة لحولية الملك ألفونسو الثالث، لعام ٨٨٣م، فهي تحمل العنوان التالي: تاريخ جوتورم Gothorum، وفيها يقال إن المملكة الصغيرة لبيلايو يجب أن تكون نجدة إسبانيا Salus Hispanae، ذلك أنها سوف تحارب "ليل نهار حتى تقرر العناية الإلهية الطرد النهائي للمشارقة". هذه العبارة هي الصيغة الأكثر وضوحًا وتبكيرًا في التعبير عن برنامج حرب الاسترداد.

برهن المؤرخون المحدثون على كيف أنه ابتداء من القرن الثامن، عصر ألفونسو الأول، نشأت "مملكة أستورياس" التي مدت نفوذها على قطاع مهم من جليقية وسانتانديرو بعض الأراضي التي سوف تكون قشتالة بعد ذلك، كما يشيرون إلى أن قطاعًا كبيرًا من الأراضي التي أمكن اقتطاعها من المسلمين أصبحت شبه مقفرة من السكان، فلا المسلمين أو المسيحيين قد أبقوا على هذه الأرض أي نوع من التنظيم السياسي والإداري والحربي، هذه "الصحراء الضخمة المكونة من مئات الكيلومترات المربعة فصلت مملكة أستورياس عن إسبانيا الإسلامية، ودعمت الموقف الإستراتيجي لتلك" طبقًا لما يقول بالديا أبيانو Valdeavellano، متفقًا في هذا مع سانشيث ألبورنوث. هذا أمر لا جدال فيه، لكن ما يبدو لي أكثر أهمية هو أن هذه العزلة دعمت الوعي بالاستقلال الذاتي، ووجود واقع منفصل ومختلف تمامًا عن مملكة أستورياس. لم يعد الأمر مجرد "تمرد" أو "مقاومة" محلية داخل إسبانيا المتأسلمة، بل هو وجود مملكة - مهما كان صغرها - توجد فيها **إسبانيا المفقودة**، وهي بذلك تنتقل من باب الذكرى والحنين إلى الماضي إلى عالم الواقع. **وانطلاقًا منها** سوف يمكن البدء في استعادة إسبانيا المسيحية، واستعادة إقامة مملكة القوط بدرجة ما.

يلاحظ منندث بيدال، وأعتقد أنه على حق في هذا، أن ظهور العرب يشير إلى مرحلة حاسمة في تاريخ إسبانيا، وأحدث فيها تعديلًا عميقًا، وهذا ما سوف يحدث بعد

ذلك عند اكتشاف أريكا، أو مرحلة "مناهضة الإصلاح" contrarreforma. غير أن "الفهم التاريخي الكامل يتطلب النظر إلى حياة شعب على أنها استمرارية لا تنقطع نظرًا لاستمرارية تعاقب الأجيال". ويضيف "من البديهي أن ذلك الشعور بنبل الدم القوطي في إسبانيا والذي ظل على مدار قرون، له أساس فعلي ضعيف وفيه الكثير من الخيال، **غير أن نوعًا من الحنين الذي لا يخبو مثل هذا ليس كله حنينا**، وإذا ما كان الفخر **بالسلالة** القوطية في إسبانيا مجرد خيلاء في الأعم الأغلب فإن الـ etnos، أي الشعب الذي على علم بالدم والتعايش الوطني القومي، إنها هو واقع أساسي، وقام خلال القرون المختلفة بإيقاظ سمات مهمة في الأمة الإسبانية".

ومع هذا فإن الأمر الأكثر دلالة، هو ما يضيفه بعد ذلك على التوالي متنقلًا إلى الواقع في حد ذاته: "لم يتسبب الغزو الإسباني أبدًا في القطيعة مع الماضي القوطي، فقد ظل المستعربون، وكذلك المسيحيون في الشمال يعيشون في إطار الثقافة القوطية وفي داخلها فقط اللهم إلا ما ندر وظلوا على ذلك طوال أربعة قرون، فالكتب الدينية التي كان يقرؤها هؤلاء وأولئك وينسخونها كذلك كانت تلك التي ألفها القديس إيسيدورو. والتاريخ الذي يكتبون كانوا كذلك يعملون على أن يكون استمرارًا لما كتبه القديس، دون أن يتخذوا نموذجًا جديدًا في علم التاريخ العربي الأكثر تقدمًا. أما القوانين التي كان يسير على نهجها المستعربون ودول الشمال فهي القوطية في أغلبها. إلا أن هناك أمرًا يلفت الانتباه بقوة، وهو أن تدمير مملكة طليطلة أدى إلى نتائج عكسية تتعلق بتدمير التيار القوطي، فبدلًا من أن يؤدي إلى نسيان الروح الجرمانية أو إضعافها أعاد التأكيد عليها وبثها بقوة. قام إينوخوسا وبعض المؤرخين المشاهير في تاريخ القانون، بدراسة تلك الظاهرة شديدة الغرابة والتي تشير إلى أن مملكة RecesvintosوErvigiosوEgicos احتفظت بعادات الشعب الحاكم، ولكن بشكل ملموس رغم أنه على استحياء، ذلك أنها - أي العادات - كانت بربرية وبالتالي يرفضها التشريع المرومن في ظل التأثير القوي للكنيسة، وأنه بعد الغزو الإسلامي الذي أدى إلى اختفاء الدولة الإسبانية القوطية

وتوقف المجامع الطليطلية نجد أن العادات القوطية أخذت تتطور وتنتشر بقوة مذهلة وهذا ما نراه في القوانين الخاصة بكل من القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر".[٢٣]

هذه القوطية الجديدة الأستورية، والتي ستكون أكثر جلاء بعد ذلك في مملكة ليون هي عنصر قوي للربط بالموروث الخاص بالمملكة التي دمرها الغزو عام ٧١١م، وتعتبر حافزًا حتى تتحول المقاومة الضعيفة للمسلمين إلى مهمة على مدار ما يقرب من ثمانية قرون، وهي حرب استرداد إسبانيا، أي المشروع الدائم طوال العصور الوسطى.

لم يظهر هذا العنصر بالوضوح الكافي في مناطق المقاومة الأخرى ضد السيطرة الإسلامية: مثل الأراضي التي ترومنت بشكل غير كاف، والتي كان انضمامها لمملكة القوط غير قوي حيث كانت شديدة البعد (في إطار ظروف العصر) عن المراكز الرئيسية للسلطة والثقافة - طليطلة أو أشبيلية - وهي أراض لم تعش بشكل حي وقوي التراث السابق ولها رؤية محلية للأحداث. تشبه مقاومة المسيطرين تلك التي كانت مناهضة للرومان، ثم القوط بعد ذلك. وتتسم مناطق المقاومة الصغيرة في كل جبال البرانس الأرغنية بأنها ذات طبيعة مشابهة للسابقة. وفيما يتعلق بجبال البرانس الشرقية، ظهر عنصر جديد، جعل من حرب الاسترداد هذه مختلفة عن تلك التي بدأت في أستورياس.

هنا نجد أن القوطية الأستورية تأثرت بالفرنجة وخاصة خلال عصر شارلمان. واعتمدت الحركات التي تتجه إلى النيل من السيطرة الإسلامية على القوى القادمة من وراء جبال البرانس. وسوف تحصل منطقة الحدود الإسبانية على حريتها من قرطبة، لكنها تابعة للملكيات الفرنجية أو السادة الإقطاعيين الذين يدورون في فلكها ويتّسمون بالاستقلال بدرجة ما، ومن هنا فإن ارتباطها بالملكية القوطية القديمة يتسم بالضعف وبالتالي إجمالي انتسابها إلى جماع إسبانيا المفقودة.

---

(23) إسبانيا وتاريخها، الجزء الأول ص٢٨٧ ـ ٢٨٩. سلطت الضوء على جملة.

أخذ هذا الاختلاف الذي لا يدحض في البداية، في التلاشي والزوال في وقت قصير، أي عندما قام إقليم نابارّة بتنظيم نفسه والحصول على شخصيته من خلال ملوك في بمبلونة وقامت المقاطعات الكائنة وسط جبال البرانس بتدعيم موقفها متخذة من مملكة أستورياس نبراسًا لها ودخلت في علاقات معها. وفيما يتعلق بالمقاطعات القطلانية سرعان ما سوف يلاحظ الحافز الاستقلالي في **مواجهة الفرنجة**، وسوف تقوم قطالونيا الوليدة بدورها في إعادة استرداد الأراضي التي غزاها المورو، وبالتالي سوف تكون عنصرًا آخر في باب المهمة العامة.

يقول مننداث بيدال "لم تتسبب ممالك العصور الوسطى في كسر الوحدة القوطية بطريقة معتسفة بل كان دورها علاج ما تهدم من هذه الوحدة". ويلاحظ أن جميع الحوليات تقوم بتعداد مناطق المقاومة بطريقة متسقة ابتداء من أستورياس وحتى قطالونيا مرورًا ببثكايا، وألديا وجيبوثكوا، وأرغن، وسوبرازبي، ورِيباجورثا. جاء هذا في حوليات طليطلة، ولوكاس دي توي، أو التودي، وفي الحوليات النابارية أو القطلانية.[٢٤]

التجربة الحية للآخر

أدت هذه العلاقة "اللصيقة جسدا لجسد" بين المسلمين والمسيحيين، من خلال الصراعات واحتلال المدن وفقدانها والغارات التي يقوم بها فريق ضد فريق آخر والانسحاب أمام ضغط العدو وتقليد كل طرف للآخر والحب والزواج وعدوى الممارسات اليومية والموضات والمهارات والكلمات، نقول أدت هذه العلاقة إلى أن يتمكن المسيحيون الإسبان من التّمثل العميق للآخر، أكثر من أي شعب أوربي، أي لهذا الآخر الذي يعتنق ديانة أخرى وتقاليد أخرى وعادات أخرى ومفهومًا آخر للحياة.

---

(24) أنظر خ. أ. مارابال " مفهوم إسبانيا خلال العصور الوسطى" (١٩٥٤) ص ٢٦٩-٢٧٠

عندما يتم الإلحاح على الأثر العميق الذي تركته الشعوب الإسلامية في إسبانيا فهذا بديهي وسوف يستمر أثره على مدار قرون في التاريخ اللاحق بها في ذلك بعد انتهاء عملية الاسترداد بوقت طويل. وسوف يتحوّل العقد الحَدَويّ القوطي إلى واحد من الرموز المهمة للعمارة العربية، وسوف يكون التأثير الإسلامي ملحوظًا في العمارة المدجنة وفي المفردات اللغوية المتعلقة بحقل الزراعة والمهن وأسماء الأعلام الجغرافية والأدب. إلى هذا يضاف وجود اليهود - وهذا شكل آخر من "التغير" سواء بالنسبة للمسلمين أو المسيحيين - في جزئي إسبانيا، وله تأثير شديد الفعالية في كليهما كما أن له تأثيرًا على العبرانيين أنفسهم، ها هو ابن ميمون يؤلف بالعربية **هدى الحائرين**، إضافة إلى أمر شبيه بالنسبة إلى أعمال يهودية في أراضي الأندلس. كذلك معروف ثراء الأدب اليهودي بالقشتالية.

هذه التجربة الحية لا تقارن بالتجربة الخاطفة والضئيلة التي تمثلت في احتكاك مسيحيين آخرين من أوربا بالعالم الإسلامي. وهنا فإن الحروب الصليبية، على سبيل المثال، تمثل جزئية بسيطة للغاية مقارنة بالاتصال الذي كان قائمًا بين المسيحية والإسلام في شبه جزيرة أيبيريا. ويمكن أن يضاف إلى ما سبق أنه في أثناء تقدم عملية إعادة الاسترداد وحتى نهايتها عام ١٤٩٢م، أخذ المسيحيون يحتلون الأراضي التي كانت إسلامية، وبهذا دلفوا تدريجيًا إلى عالم إسلامي مليء بآثار هذه الثقافة، وبه عدد مهم من السكان الموريسكيين رغم أن السكان في معظمهم أخذوا ينتشرون ويعيدون السكن في هذه المناطق مع مسيحيين من الشمال.

أضفى هذا العمل الضخم، سواء من حيث الضخامة أو الاستمرارية، على إسبانيا طابعًا غير موجود في باقي أنحاء أوربا، ومن المشروع تسليط الضوء عليه بكل قوة. أضف إلى ذلك أعتقد أن هذه التجربة كانت حاسمة في تشكيل شعب يصعب فهم تاريخه الوطني اللاحق على حرب الاسترداد بعد اكتمالها تمامًا بمبعد عنها. وبعيدًا عن

"نسيان" التجربة الإسبانية المتعلقة بالإسلام يجب أن تكون هذه التجربة ماثلة وأن تؤخذ في الحسبان عند دراسة تاريخنا.

لكن هذا يعني وضع التجربة في مكانها، وتحديد ماهيتها وتأثيراتها الفورية والنتائج التي ترتبت عليها لاحقًا. هناك اتجاه يقول إنها أثّرت على "أوربية" إسبانيا وهذا ما كان. لكن ما يجب أن يُنظر إليه هو ما إذا كان هذا التأثير سلبيًا - كما يتم التسليم بذلك عادة - أو ايجابيًا وهي أنها كانت تجربة مكثفة وخلاقة. وهنا يُلاحظ أنه كلما يزداد الإلحاح على الوجود الإسلامي في إسبانيا أي على المسار التاريخي لتاريخ العصور الوسطى للممالك الإسبانية وعلى إسبانيا الموحدة، ازداد وضوحًا رد الفعل الإسباني على هذا، واتضح كذلك المشروع التاريخي الذي أخذ يتكون على مدار العصور الوسطى ثم استمر وامتد بشكل غريب ابتداء من عصر النهضة.

رفض الأسلمة

هناك عبارة توكيدية لخوسيه أورتيجا إي جاسيت كانت تزعج أمريكو كاسترو، وقد وردت هذه العبارة في كتابه "**إسبانيا اللافقارية** E.invertebrada يقول كاسترو "ظهرت إسبانيا القرن السابع عشر وكأنها التبت في الغرب، حسبما يرى أورتيجا إي جاسيت، حيث أطلق على الإمبراطور تراجان بأنه أشبيلي، وعلى "السيد"EL CID بأنه قوطي، وفي الوقت ذاته يؤكد على أن العرب لم يكونوا أحد المكونات في تاريخ إسبانيا" ثم يقول بعد ذلك في عبارة أخرى وبوضوح: "لست أدري كيف أمكن لخوسيه أورتيجا إي جاسيت ألا يذكر دور الإسبان اليهود أو أن يكتب هذه الجملة التي ما زالت تظهر في طبعة ١٩٥٢م من كتابه "إسبانيا اللافقارية" (ص١١٠) سيرًا على طبعة عام ١٩٢٢ (ص١٤٦): نظرًا للجهل الذي نعانيه معشر الإسبان بالتاريخ من الملائم **أن نلاحظ أن العرب لم يكونوا مكونًا جوهريًا في تكوين هويتنا الوطنية كما أن حكمهم يمكن أن يكون تفسيرًا لحالة الإقطاع الضعيف في شبه جزيرة أيبيريا"**، لكن تاريخ إسبانيا الذي يقوم على

عدم وجود القوط، ويتجاهل تسعمائة عام من الوجود السامي، كيف يمكن إذن معرفة واقع ذلك التاريخ؟ هذا لا يحول دون أن يكون كتاب **إسبانيا اللافقارية** أحيانًا ما يضم الكثير من الأحكام الجديرة بالتقدير والتأمل".[25]

لم يقل أورتيجا أبدًا إن إسبانيا القرن السابع عشر هي "التبت الغربي" بل أشار إلى أن ذلك العصر شهد "إضفاء الطابع التبتي على إسبانيا" بمعنى الانغلاق والميل للعزلة. ولم يقل إن العرب لم يكونوا مكونًا في "تاريخ الإسبان"، بل قال ما ذكره أمريكو كاسترو بعد ذلك. واعتقد أنه على حق فيما يقول: أي لم يكن العرب مكونًا **جوهريًا في ميلاد هويتنا الوطنية**، كما شهدنا، بل كانوا عنصرًا حاسمًا في تاريخنا، غير أن **هويتنا الوطنية** قد تشكلت في مواجهتهم، وكأنها شيء **بعيد** عنهم يقوم في الأساس **على الرفض الدائم للأسلمة**. فلم يسمح المسيحيون الذين لم يتعرضوا للسيطرة العربية هنا يقول هذا في أي لحظة، أو حتى بالقبول به كأمر واقع ولا مناص منه ولم يميلوا إلى **التعايش** مع بلد آخر أو مجموعة من البلدان من ذوي الطابع الإسلامي. تعايشوا مع **سكان الأندلس**، وتعاملوا مع مقامها، وكان هناك بعض التسامح عندما كانت الممالك الإسلامية تؤدي الضرائب، كانوا يدفعون الجبايات ويعترفون بملك قشتالة كعاهل لهم. لقد ألححت كثيرًا على العلاقة الحميمة في التبادل وفي تجربة العيش مع الآخر لكن على أساس أنه الآخر. تتشكل **القومية الإسبانية** انطلاقًا من رفض ما هو إسلامي وهذا هو الخط الأساسي في المشوار الطويل الذي يؤدي إلى الوعي بإسبانيا المفقودة، أي إلى الأمة الإسبانية للملوك الكاثوليك.

وهناك تساؤل عن التأثيرات العربية، هل هي عربية بالفعل؟ أليس من الأدق القول إنها كانت لإقليم الأندلس Andaluzas أو بالأدق أندلسية Andalusies؟ إذا ما تم الأخذ في الحسبان استمرار المكون الإسباني الروماني القوطي في إسبانيا "العربية"، أي دور المستعربين هناك، وحيوية قصائد الرومانث للإسبان spani، ثم الرومانث

---

(25) الواقع التاريخي لإسبانيا (١٩٦٢) ص ٤٢.

"المستعرب" بعد ذلك، ولغة الحوار اليومي وظاهرة الموشحات التي درسها ستيرن stern وجارثيا جومث وداماسو ألونسو ومنندث بيدال[26] يجب التفكير في أن التأثير الفعلي كان أندلسيًا وبقوة شديدة. وسوف يكون من المهم أن يقوم المتخصصون في الدراسات العربية بإجراء دراسات دقيقة تتعلق بالاختلاف بين إقليم الأندلس Andalucia وباقي إسبانيا الإسلامية. الانطباع من الخارج - وبالتالي غير مسئول - يقول إن هذه الاختلافات كبيرة جدًا. يبدو أن الأندلس Andalucia قبل الرومنة، أي عندما تحولت إلى "باطقة" Betica، ثم أصبحت بعد ذلك في إطار المملكة القوطية أشبيلية القديس لياندرو والقديس إيسيدورو، كانت ذات شخصية قوية ولها ملامح أساسية تثير الدهشة، وهنا فإن الصورة "المعرّبة" لإقليم الأندلس Andalucia لا تخلو من أساس، غير أنه يجب أن نأخذ في الاعتبار وبجدية هذه العبارة: إقليم الأندلس "المعرّب" ليس عربيًا، وبعيدًا عن أن يكون إبداعًا عربيًا، فإنه ـ أي إقليم الأندلس ـ كان موجودًا قبل الغزو بآلاف السنين لقد غطاها (الغزو) وترك فيها آثارًا عميقة، غير أن قسطًا كبيرًا مما يعتبر عربيًا كان أندلسيًا Andaluz ببساطة وعثر عليه الحكام الجدد كغيره من العناصر الأخرى القديمة. ورؤي أن نصل إلى المبالغة المحاربة التي اتخذها كلاوديوسانشيت ألبورنوث في أيامه الأخيرة[27] يجب أن نقلل كثيرًا من التفسيرات القائمة وتعود للنظر إلى إقليم الأندلس Andalucia على أنه عنصر حاسم في شخصية إسبانيا وميلادها.

المصير المختار

تؤكد إسبانيا التي ظلت مسيحية بعد غزو ٧١١م ذاتها، وكان هذا ضد التوقعات ودون أي احتمال في النجاح، وجعلت من هذا الأمر مشروعها التاريخي الذي تتألف منه وإذا

---

(26) انظر "إسبانيا، كحلقة وصل بين المسيحية والإسلام (١٩٥٦م) وخاصة "الأغنية الأندلسية Andaluza عند المستعربين منذ ألف عام".

(27) من إقليم الأندلس الإسلامي إلى إقليم الأندلس اليوم (١٩٨٣).

ما تم النظر إلى الوضع الذي كانت عليه شبه جزيرة أيبيريا في بداية القرن الثامن لبدا كل شيء لا معقولًا، فالقوة العربية لا يمكن إيقافها كما أن ضعف الدولة القوطية ترك أمامها (أي القوة العربية) الطريق مفتوحًا في غضون فترة وجيزة ودون أن يتبقى أي أثر للسلطة السابقة. وقد ذكرت قبل ذلك أنه لم تنج أي مدينة ذات شأن من السيطرة الإسلامية.

حينما حل العرب بقوا في المكان، وها هو شمال أفريقيا قاطبة، الذي كان جزءًا من العالم المسيحي وتلقى جرعة قوية من الهلنستية في الشرق وررومنة قوية في الغرب (والشرق أيضًا عندما أصبح جزءًا من الإمبراطورية الرومانية) نقول ها هو شمال أفريقيا كان يشبه الموقف الذي وقع لإسبانيا. ومع هذا فإن الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط تلقى الإسلام وتقبله، ثم التعريب لغويًا وثقافيًا بشكل دائم حتى اليوم. أصبحت كل البلدان التي كانت مسيحية حيثما كان يجري الحديث باليونانية واللاتينية، والتي أسهمت بشكل كبير في اللاهوت المسيحي وكذا في البدايات الفلسفية الجديرة بهذه التسمية - القديس أغسطين - إسلامية ابتداء من القرن السابع وأصبحت لغتها عربية وأصبحت تشكل جزءًا من العالم المشرقي. وهذا ما كان "يجب" أن يحدث في إسبانيا، أي ما كان من الناحية المنطقية أمرًا لا مناص منه.

نعرف أنه لم يكن هكذا، إذ عندما أحدثت السيطرة العربية أثرها على معظم أنحاء إسبانيا تركت ركنًا، سرعان ما لحقت به أركان أخرى منعزلة ظلت فيها قائمة أنماط الحياة السابقة، وهنا يجب ألا يُنسى ضعف هذه الأنماط. وكان ذلك كافيًا للإبقاء على الصورة التي هي غير حقيقية جزئيًا، **لإسبانيا المفقودة**. وحول هذه الصورة سوف تنشأ نمطية أخرى للعيش، أي مشروع كان يمكن أن يوصف بأنه مجنون، وأنه رغبة صارمة في **أن يكونوا مسيحيين**، وكان هذا يعني أن يكونوا **أوربيين غربيين**.

منذ سنوات كثيرة وأنا أكرر البديهية القائلة إن إسبانيا، ربما تكون أقل أوربية مقارنة ببلاد أخرى نظرًا لفترة الطويلة مع المورو لكنها أكثر أوربية من أي بلد آخر. ففي

واقع الأمر هو أن الدول الأخرى أو أوربية، فماذا يمكن أن تكون غير ذلك؟ ألا يمكن لها أن تكون شيئًا آخر، فهذا هو وضعها ببساطة. لكن الأمر مختلف في الحالة الإسبانية، فإسبانيا أوربية لأنها أرادت ذلك، ولأنها أصرت على هذه الورقة عندما كان يبدو أنها غير موجودة وعندما كانت احتمالات استعادة إسبانيا المفقودة غير موجودة على الإطلاق.

في جميع أنحاء أوربا نجد الأوربية أمرًا "طبيعيًا" - وأعتذر عن هذا التعبير غير الدقيق فلا شيء إنساني طبيعي وذلك لتسليط الضوء بدلًا من ذلك على أنها "تميل"، أو "تم استقبالها" وهو أمر يجده كل امرئ مع نفسه. الأوربية في إسبانيا هي نتاج قرار، وخيار. كان يمكن أن تكون بلدًا إسلاميًا مشرقيًا ـ وحقيقة الأمر أنها لم تكن لتكون شيئًا آخرـ ومع هذا فضّلت ما كان يبدو بعيد المنال وغير قابل للتحقق وما قد وصل إلى درجة اليوتوبيا. وإذا ما تم النظر جيدًا فإن الطابع الاستشرافي لأي مجتمع من حيث أنه سمة من سمات الحياة الإنسانية، قائم في الحالة الإسبانية بقوة ووضوح وجلاء.

ولدت إسبانيا جرّاء مشروع درجة الاحتمالية فيه شديدة الضعف ومن تطلع خيالي لأمل، يراه الآخرون من خلال المفهوم القديم للعبارة وهو الخداع واللاواقعية "التخيلية" التي عاشها المسيحيون بالمعنى الذي عليه الكلمة في اللغة الإسبانية الحديثة، على أنه رغبة ذات مضمون تضرب بجذورها في الأفق المستقبلي للإنسان وكذلك في وضعه العِشْقي.[٢٨]

وليلاحظ القارئ أن هذا المشروع لا ينفصل عن الواقعية الضخمة، المتمثلة في الغزو العربي لإسبانيا الذي يتسم بأنه كان ذا أهمية حاسمة. أما فيما يتعلق بالمضمون فإنه مشروع **مختلف** divergente، فإسبانيا **تختار** ألا تكون إسلامية أو مشرقية بل أن تنفذ ميلها الأصيل في أن تكون شعبًا مسيحيًا، وهذا يعني في العصور الوسطى أن تكون شعبًا أوربيًا غربيًا.

---

(28) انظر كتابي "الموجز في باب الأمل illusion" (١٩٨٤م)

لا شك أن إسبانيا القوطية قد دُمِّرت، لكن عندما يتم تذكرها من منظور الحنين إلى الماضي، ورؤيتها على أنها مفقودة، فإنها تكون حاضرة في صورة متخيلة في عيون المسيحيين وسوف تكون الهدف الذي تُصوب إليه سهامها وبرنامج عدد لانهائي من الأحداث ـ التي تتسم بأنها جزئية ومنعزلة ولا صلة لبعضها ببعضها الآخر ـ التي تتم محاولتها من خلال الاسترداد. هذه الصورة اللاواقعية هي التي توحد ما كان في حقيقة الأمر غير موحد بسبب ضعف الصلة بين أجزائه أو انعدامها. أعتقد أنها حالة استثنائية، وربما وحيدة في التاريخ، أي في تاريخ شعب يبحث عن ذاته ويبذل قصارى جهده للوصول إلى أن يكون ما يريد أن يكونه الأمر الذي انتقلت به هذه الصورة من الذاكرة إلى دائرة الأمل.

إنني أفكر أنه إذا لم يتم البدء من ذلك، فلا يمكن فهم واقع إسبانيا ولن يُفهم ماهية التكوين البطيء للأمة الإسبانية الذي تحقق في نهاية القرن الخامس عشر، ولن تُفهم المسارات التاريخية التي سار فيها وحاول وتركها ثم فشلت أو تحققت في القرون التالية. من المثير للدهشة أن إسبانيا كانت في عيون الإسبان وفي عيون الأجانب بلدًا "نشاز" متأزمًا بشأن تكوينه، أي غير مفهوم وأنه قد تم النظر إلى تاريخ إسبانيا على أنه خلط فوضوي.

لكن حدث العكس تمامًا. لقد تحددت ملامح إسبانيا منذ بداياتها من خلال مشروع جَليّ من حيث هو، وكانت أكثر من مجرد "نتيجة" تأثيرات ومواقف فعلية، أي مصير تاريخي.

لكن لما كان ذلك على شاكلة ما هو إنساني فإنه مشروع مقبول وتم اختياره ضمن إمكانيات أخرى مثل تلك الإمكانيات الصحيحة التي يجب السير فيها. وهذا ما يطلق عليه مصطلح محدد "الميل" vocacion. وعند النظر إلى إسبانيا بطريقة ملائمة فهي التنفيذ الدرامي لميل تاريخي ولإرادة تحاول أن تفتح لها طريق وسط اللاآمال.

الفصـل الحـادي عشـر

حرب استرداد إسبانيا المفقودة

إسبانيا التي أمكن أن تكون

لا يوجد مثال أوضح على تعددية المسارات وشدة صلتها بكل شكل من أشكال الحياة الفردية أو الجماعية، وكيف أن المسار "الفعلي" لا يبلغ مدلوله إلا بالمقارنة بالمسارات الأخرى الممكنة التي لم تتحقق، إلا بحرب الاسترداد والبدء فيها واجتياز مراحلها المختلفة. وبالنظر إلى التاريخ الإسباني منذ القرن الثامن نلمس الإمكانية بل والاحتمالية أو الحاجة إلى ـ القائلة إن إسبانيا كان يمكن أن تكون بلدًا إسلاميًا مثلها مثل بلاد أخرى، أي أنها حلقة في السلسلة الإسلامية الطويلة. كانت على وشك الوصول إلى هذا، بل أقول إنها كانت قد بدأت في أن تكونه. وإذا قمنا في لحظة ما بتغيير المنظور، فبدلًا من أن نتموضع ـ كما نفعل حتى الآن ـ في المكان الصغير الذي ظل مسيحيًا حرًا لم يداهمه الغزو، ثم ننظر إلى شبه الجزيرة في إجماليها نرى أن إسبانيا **كانت** إسلامية ومشرقية في أغلب أجزائها ولفترة زمنية طويلة.

ظهرت حرب الاسترداد على أنها **تصحيح** وعلى أنها قلب لهذا المسار الذي بدأ، وجاء ذلك من الجزء الأصغر ذي الموارد القليلة الذي يؤكد **مشروعًا** مختلفًا كان غير محتمل في البداية، وفرض مسارًا جديدًا تُوِّج بالنصر. وبهذا يتجلى العنصر الحيوي **للحرية**

في التاريخ وهذا نادر الحدوث. وهذا البلد "إسبانيا التي أمكن أن تكون" ـ أي الإسلامية والمشرقية ـ هو هناك، أمام الأعين لأنه بدأ في أن يكون وخلال ما يقل عن قرنين من الزمان كان له الكثير من الواقع "الفعلي" مقارنة بإسبانيا الأخرى. أضف إلى ذلك أنها قد تلقت بعد ذلك دعمًا أفريقيًا قويًا مرتين متتاليتين بينما لم تقم أوربا المسيحية بأي دور حتى ولو كان المؤخرة لإسبانيا التي كانت تقوم بحرب الاسترداد بطريقة مؤلمة. وهذا يوضح مرة أخرى أن التاريخ ليس مجرد **أمر واقع** factico، ولا ينحصر في الأحداث والموارد بل إن المكون الرئيسي هو **المشاريع** التي تقوم الموارد بخدمتها.

ليس الأمر محاولة إزالة العنصر العربي أو الإسلامي أو نسيانه ضمن الواقع الإسباني، فهذا الواقع لا يتضح بجلاء إلا به، وفي هذا تختلف إسبانيا عن باقي الدول الأوربية. غير أن هذا عادة ما يتم فهمه بطريقة سيئة، وهنا أجرؤ على القول بقلب الاتجاه: لأن إسبانيا قد صنعت نفسها **ضد** هذا العنصر – وهذا ما ستفتقده باقي البلاد – وسوف يتمثل جوهر الأمر في **الحيلولة دونه** وفي تأكيد الذات، مثلما يؤكد الآخر ذاته، أي ألا تكون مسلمة، مع كل ما يترتب على ذلك، بل يجب أن تكون مسيحية متصلة بجميع مكونات التراث القوطي والروماني.

وإسبانيا التي أمكن أن تكون ليست دائمًا هي نفسها، إذ هناك اتجاه غالب للتبسيط بشأن كل واحدة من الإسبانيتين، وذلك بإدخال التجانس عليها. وابتداء من طارق بن زياد وموسى بن نصير حتى آخر ملوك بني الأحمر هناك مجموعة من الشخصيات المختلفة في إسبانيا العربية وكل واحدة منها كانت تمثل إمكانية، وميلاً بالنسبة لإسبانيا المسيحية التي يجب رفضها – والتي تقع فيها بعض الحالات- يمكن دراسة ذلك ويجب أن يفعله المتخصصون في دراسات العصور الوسطى والمتخصصون في الدراسات العربية، أي يمكن دراسة تاريخ العصور الوسطى الإسبانية على أنها سلسلة من الشخصيات التي تقدّمها إسبانيا الإسلامية، وكذا الطرائق المختلفة المتعلقة برد الفعل على ذلك في الممالك المسيحية، وقد تُرى حينئذ ماهية الحافز للميل في كل حالة وكذا السلوكيات المختلفة- ففي بعض

الحالات هناك بهاء القوة الحربية التي لا تقاوم وهذا شيء شبيه بما سيطلق عليه في عصرنا مسمى "اتجاه التاريخ" - وفي حالات أخرى هناك الإعجاب الشديد بالثقافة الرفيعة وربما كانت جاذبية بعض أنماط الحياة والرقة أو الحساسية أو الشيء الغريب exotismo، وفي حالات أخرى هذا الود نحو المناوئ الذي يحظى بالاحترام، وأخيرًا هناك الميل النفعي للخاضع قليل الخطورة الذي يدفع الضريبة.

أعتقد أن وجهة النظر هذه سوف تسمح بفهم الكثير من الأمور: مثل فترات النشاط والخمول عند الملوك، وتنوع سلوكيات الممالك طبقًا لدرجة الوعي بالمشروع المتكامل وشكله، ومشاكل "تأنيب الضمير" التي يعانونها بسبب التخلي المؤقت عن مقصد الاسترداد، والشعور "بالتلوث" والانسياق وراء الهوى- وأعتقد أنه إذا ما دُرِست بعمق سوف يتم اكتشاف انطباع غامض **بالزيف**- وسوف يقال إنه نادرًا ما تم إدراج هذه المفاهيم والمستويات في دراسة التاريخ أو لم يحدث ذلك على الإطلاق. هذا صحيح، وصحيح أيضًا أنه نادرًا ما تم فهم ذلك على أساس أنه **نمط للعيش الإنساني**. وحتى وقت قصير جدًا كانت الدرجات التي يمكن بها فهم التاريخ غير معروفة لدرجة أنها لم تُر في سماتها الجوهرية.

المراحل

عندما تتم دراسة تواريخ الوحدات السياسية والاجتماعية خلال العصور الوسطى كل على حدة، فمن الصعب أن تكون هناك رؤية واضحة للعلاقات القائمة بينها وزيادة على ذلك ما يتعلق بإسبانيا التي يتم **الكفاح فيها ومن أجلها**. ولقد ألح منندث بيدال على ضرورة استحضار جميع المجموعات المسيحية، ومن الضروري أيضًا أن يوضع المسلمون أمام هذه المجموعات وبالتوازي، ذلك أن تاريخهم معقد ومتفلت elusiva

وحتى يمكن فهم حرب الاسترداد بكل ما بها من ضخامة وغرابة فإن أول شيء هو أنه **لا يتم استرداد ممالك العصور الوسطى** لسبب بسيط وهو أنها لم تكن موجودة - ولا حتى كانت موجودة قبل ذلك - بل تتشكل في هذا المشوار الطويل: إنها النتائج الجزئية لحرب استرداد إسبانيا.

وها هي مملكة أستورياس و"عاصمتها" برافيا Pravia، التي انتقلت في نهاية القرن الثامن إلى أوبيدو، في بلاط ألفونسو الثاني، تقابل الإمارة الإسلامية بشكل تقريبي (أي إمارة الولاة التابعة، وكذا الإمارة الأموية المستقلة)، بمعنى أن ذلك استمر حتى القرن العاشر. وهناك مناطق أخرى للاسترداد معاصرة لذلك، وهي نابارّة وكذا مقاطعات أرغن القطلانية الشديدة التبعية للشارلمانيين في فرنسا كما أنها شديدة التمزق: يلاحظ أن القوائم التي يقدمها كل من فالس - سولدبيلا وبالدي ابيانو تتسم بالتعقيد الشديد وتذكر أسماء كل من كونت برشلونة، وجيرونا، وأوسونا (Vich) وبيسالو، ومردينيا كونفلنت، وأورخل، وأمبورياس، وردسيون، وبايارس (بايارس العليا والسفلى). هناك أهل ريباجورثا الذين انضموا إلى أرغن، وكذا سوبراربي. أخذت هذه الشرذمة التي ترى في مساحة صغيرة من الأرض تتجاوز الوضع الذي هي عليه ببطء تحت هيمنة كونتات برشلونة الذين كانوا أخذوا يستقلون عن الشارلمانيين في بداية القرن العاشر.

وخلال السنوات الأولى من القرن العشرين انتقل مركز حرب الاسترداد المسيحي من أوبيدو إلى ليون، وعلى مدار ما يزيد على قرن من الزمان سوف تكون مملكة أستورياس في البداية، ثم مملكة ليون، الأمر الذي لا ينفي وجود المسمى المزدوج (أي مملكة أستورياس وليون، بالشكل الذي جرى فيه الحديث أيضًا -في بعض الأحيان- وتحت قيادة الملك نفسه عن مملكة جليقية) وتتوافق هذه المرحلة توافقًا شبه كامل مع فترة الخلافة في قرطبة، أي الفترة التي كانت فيها الأندلس تعيش أقصى فترات قوتها وازدهارها. إذن هناك ليون وقرطبة وهما المركزان الرئيسيان في جزئي إسبانيا. وبشكل

مواز بدأ تَدعّم مملكة نابارّة وتحولت مقاطعة أرغن إلى مملكة - ذات مساحة صغيرة جدًا ودون مدن مهمة - واستغلت المقاطعات القطلانية وعلا نجم مقاطعة برشلونة.

وفي تلك الفترة، أي خلال الثلث الأول من القرن الحادي عشر، هناك مقاطعة قشتالة التي أخذت قوتها تتنامى وتأثيرها كذلك قبل ستين أو سبعين عامًا، أي منذ عصر فرنان جونثالث وجارثي فرنانديث، حتى أصبحت مملكة توحدت مع مملكة ليون تحت اسم مملكة قشتالة وليون، وهي مملكة سوف تسيطر على المهمة الكبرى لحرب الاسترداد التي أخذت منذ ذلك الحين تضغط بقوة على إسبانيا الإسلامية ما عدا بعض حالات التقهقر الثانوية. ويتوافق مع هذه الفترة الأزمة التي عاشتها الخلافة في قرطبة وتفكك أرضها في صورة ملوك الطوائف. وقد أدى هذا التفكك إلى تدمير ذلك الإبداع السياسي العظيم للخلافة، ودخل ملوك الطوائف في صراعات فيما بينهم وكانوا في كثير من الأحيان تابعين للمسيحيين، وأكثر تبعية في هذا لمساعديهم (الغزاة بمعنى أصح) من الأفارقة. قويت شكيمة كل من مملكة نابارّة وأرغن ومقاطعة برشلونة وأخذت تتقدم في طريق حرب الاسترداد للأراضي الشرقية. تمكن ألفونسو السادس من غزو طليطلة (١٠٨٥م) وجعل حدود قشتالة تصل إلى نهر التاج. كما قام "السيد" Cid بغزو بلنسية. وبعد ذلك بنصف قرن من الزمان تزوجت بترونيلا الأرغنية بكونت برشلونة رامون بيدنجر السادس، وبذلك تكوّن الاتحاد الكبير للدول الكائنة في شرق شبه الجزيرة وهي أرغن وقطالونيا في إطار مملكة أرغن.

أدت المبادرة المسيحية الكبرى، أي بداية اتحاد المالك، وكذا الانقسامات في الجانب الآخر إلى ضعف السلطة الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى تغييرات جوهرية في ميزان القوى في شبه جزيرة أيبيريا. وأخذ معدل حرب الاسترداد يتسارع، وجاء هذا من جانب كل من قشتالة وأرغن، وقد أدى هذا الضغط إلى نشوء الموجات المتتالية المضادة من المرابطين والموحدين، غير أننا إذا ما نظرنا لهذا البعد مليًا نجد أنه يرجع في الأساس إلى

الشئون الداخلية للمسلمين، فتمرّد الموحدين على المرابطين أفريقي، ثم امتد إلى الأراضي الإسبانية التي يسيطر عليها المرابطون. وهنا يُرى بوضوح الرابطة التي تربط ما يسمى بإسبانيا الإسلامية بأفريقيا الإسلامية، ويرى كذلك الطابع المؤقت لذلك المجتمع المثقف والراقي في كثير من جوانبه والذي تشكل في شبه جزيرة أيبيريا تحت السيطرة العربية.

كانت موقعة العُقاب Navas de Tolosa (1212) هي قول الفصل بين الجانبين لأسباب عديدة، وليس الأمر هو أن هزيمة الموحدين تعني نهاية أي إمكانية في وجود قوة إسلامية كبرى بل لأن انتصار ألفونسو الثامن، ملك قشتالة، تحقق بفضل تعاون الإسبان جميعًا: أهل نابارّة تحت إمرة سانشو السابع القوى، والأرغنيون بقيادة بدرو الثاني الكاثوليكي، وقوات السيد دييجو لوبث دي أرو، سيد بيثكايا، أضف إلى هؤلاء مشاركة فرسان كل من منطقة ليون وجليقية والبرتغال، وكذا الجماعات العسكرية. في بداية الأمر، كانت هناك قوات قادمة من وراء الجبال، أي من دول أوربية أخرى وذلك لأنه تم تصوير الأمر على أنه معركة صليبية ضد الموحدين. غير أنه كان هناك جزء من هذه القوات يشكو من قلة المؤن وجزء آخر من أن الإسبان لم يسمحوا بنهب "قلعة تراب" Calatrava المهزومة الأمر الذي أدى إلى عودة أغلب المحاربين الذين أتوا من وراء جبال البرانس إلى بلادهم وتركوا الميدان قبل المعركة الفاصلة. وعلى هذا بقي الإسبان وحدهم: هسبانيا وحدها Soli Hispaniطبقًا للتاريخ القوطي لرودريجو خيمنث دي رادا. وهذا هو الحدث الأول المهم الذي تتجلى فيه الوحدة العميقة للممالك الإسبانية بغض النظر عن الأسماء وعن الدور الكبير الذي لعبه ملوك كل من ليون أو قشتالة الذين يمثلون الموروث التراثي القوطي، وكذلك المقصد الأساسي في استعادة إسبانيا المفقودة.

كان القرن الثامن يعني نهاية حرب الاسترداد عند كل من الأرغنيين والقطلان وخاصة تحت حكم خايمي الغازي ومن خلفوه: بلنسية وميورقة ومنورقة ومرسية (بمساعدة ألفونسو العاشر ملك قشتالة، للأسباب الشهيرة التي أوردها خايمي الأول

للوصول إلى إبراز أهمية هذا التعاون)[٢٩]. يعتبر التاج الأرغني حرب الاسترداد منتهية بمجرد استعادة تلك الأراضي، ثم أخذ في عملية التوسع نحو حوض البحر الأبيض المتوسط غير أن قشتالة ترى الأمور بشكل آخر: فلا توجد هناك "أراض" يجب استردادها، وسوف نرى البعد الحاسم لهذا الأمر، وعلى ذلك فحرب الاسترداد لم تنته وذلك حتى تعود إسبانيا كاملة، ذلك البلد المسيحي الذي كان والذي يجب أن يكون- كانت أشبيلية أبرز وأهم ممالك الطوائف ضمن ممالك الطوائف الصغيرة من ملوك الأمازيغ أو السلافيين-ومن المعروف أيضًا أن الغزو المرابطي والموحدي بعد ذلك قد أحدث نوعًا من الوحدة السياسية، والعسكرية خصوصًا، في إسبانيا الإسلامية. غير أن الاجتياح القوي الذي قام به فرناندو الثالث جعل قشتالة تسترد جميع أجزاء الجزء الغربي من إقليم الأندلس، أي قرطبة، وأشبيلية على الأخص التي تحولت إلى أول مركز قشتالي، سوف تظل مملكة غرناطة في وضع سداد الجزية لقشتالة أو ابتداء من وفاة ألفونسو الحادي عشر عام ١٣٥٠م، وبعد معركة نهر سالادو Salado، فقدت حرب الاسترداد الحافز الحيوي وأخذ نورها يخبو. لم تعد غرناطة خطرا بل مصدر دخل، هي مقاطعة جبلية وتعتورها - عسكريًا - مصاعب جمة للسيطرة عليها، وكان ملوك قشتالة يتلقون الإتاوة Parias من الغرناطيين: وهذا هو أقرب الأشكال إلى نمطية إقليم تحت الحماية، الأمر الذي يفسر السبب في أنه على طول قرن ونصف قرن من الزمان نجد تاريخ حرب الاسترداد قد أصبح ثقيل الحركة، لكن لم يتوار الوعي أبدًا بأنه الواجب الرئيسي والمبرر التاريخي لإسبانيا التي هي في موضع إعادة بناء. وبدأ الطريق الطويل الخاص بعدم الكفاءة في "العمل الذي نعمله"، أي الرأس غير الصحيحة طبقًا لمقولة أورتيجا إي جاسيت. وسوف يكون من الضروري أن تتولى الوحدة بين قشتالة وأرغن القيام بدفعة جديدة، وذلك باستخدام تقنيات حربية جديدة وروح جديدة وبذلك تنتهي حرب

(29) في الكتاب المسمى Libre delsfeyts en Jacme يقول "المرة الأولى في سبيل الله وبفضلكم وبفضلنا يمكن إنقاذ إسبانيا. ويجب الإيمان بالله، عند أهل قطالونيا التي تعتبر أفضل إقليم في إسبانيا، أي الأكثر شرفًا والأكثر نبلاً".

الاسترداد بالاستيلاء على غرناطة ٧م ١٤٩٢م بعد "حرب خاطفة" دارت عشر سنوات فقط. غير أن هذه النهاية لا تنسب إلى قشتالة وحدها: كانت إسبانيا هي التي انتهت من استرداد نفسها في الوقت الذي كانت تلتقي فيه مع نفسها وتتجاوز في كل الجوانب فقدانها عام ٧١١م.

ومن الطبيعي ألا يكون ذلك ممكنًا إلا من خلال مشوار سياسي طويل ومن خلال الاكتشاف البطيء للبُنى التي سوف تحملها الممالك الإسبانية إلى مملكة إسبانيا. من الضروري أن نرى الآن ماهية **المضمون** argumento الداخلي، الاستشرافي لإسبانيا المسيحية الذي أخذت مكوناته تتجمع بشكل مؤلم وعلى مدار عدة قرون من الابتكار والخبرات والمحاولات والأخطاء والعثرات، وأن تكون النظر إلى داخل شبه الجزيرة وإلى الخارج أي إلى أوربا التي قررت إسبانيا أن تنسب إليها.

عمليات الانضمام

أشرت قبل ذلك إلى تحفظات لديّ بشأن النظر إلى تاريخ إسبانيا وخاصة خلال العصور الوسطى، وجاء ذلك في كتاب **"إسبانيا اللافقارية"** لأورتيجا إي جاسيت. غير أنه يجب التعرف في هذا الكتاب على اثنتين من النجاحات المهمة في تفسير الأمور: أولهما، رؤيته لتكوين المجتمع الإسباني بشكل كامل ووطني، على أنه نظام انضمام incorporaciones، أما الثاني إشارته إلى خطر داهم مضاد ومتربص دائمًا ألا وهو الفردية particularismo. لنر الآن المشوار الذي ولدت بمقتضاه الأمة الإسبانية.

اتخذ أورتيجا المضمون الذي أورده مومسن Mommsen في كتابه المعنون Römische Geschichte والذي أشار إليه من خلال المصطلح اليوناني Synosikismos، والذي ورد في الترجمة الفرنسية لعمله العظيم بلفظة غير تقنية هي incorporacion أي الانضمام. يرى مومسن أن التاريخ الروماني هو سلسلة من عمليات الانضمام وكلمة Synosikismos تعني، بداية، أن يعيش رجل وامرأة سويًا، أي الزواج.

غير أنها تطبق أيضًا - مثلما هو الحال بالنسبة للمصطلح الأكثر شيوعًا Synoikia - على اجتماع القرى في مدينة، وأحيانًا تشير إلى **تأسيس** مدينة بالشكل المتعارف عليه، وبالتالي فإن أفضل ترجمة في هذه الحالة للمصطلح هي "بلدية ayuntamiento إذا لم يكن هذا المصطلح قد أخذ في لغتنا معنى محددًا أكثر من اللازم. وهنا فإن اللفظة الإسبانية Incorporacion (الانضمام) هي لفظة مناسبة إذا ما تم التفريق بينها وبين مصطلح آخر هو "الضم" anexion (أي Anschluss بالألمانية) الذي يعني قيام مجتمع أكبر أو أكثر قوة بضم مجتمع آخر أقل قوة بمعنى أن ذلك الأخير يتلاشى كمجتمع ويتم إدراجه في الأول.

الانضمام هو أمر آخر، فليس مجرد امتداد أو توسع لمجتمع بل هو الجمع أو الوصل بين اثنين articulacion أو أكثر من التجمعات المختلفة لتصبح **وحدة عليا** تعمل في إطارها العناصر التي تجمع بينها integrantes. وهنا فإن الشعوب التي "تنضم" تختلف عن الشعوب التي يتم "ضمها"، أي أنها تظل قائمة كشعوب مختلفة فيما بينها لكنها تشكل جزءًا من الوحدة الواحدة، وهذا النوع من التوحيد لا يعني موت مكوناتها.

ينقل أورتيجا النمط الروماني الذي أورده مومسن إلى إسبانيا، كما أنه يدرك منذ اللفظة الأولى أن هذا الدافع ليس ميكانيكيًا بالضرورة، أو أنه لا رجعة فيه بل أنه إذا ما تضاءلت القوة المركزية التي تقوم بتشكيل تمثال الأمة تمرد من جديد قوة الانفصال secesionista. "إن تاريخ انحطاط أمة هو تاريخ عملية تفكك واسعة النطاق". يتولى الحافزان إدخال عنصر من الدرامية واللاأمان على التاريخ.

وهذا يفهم بشكل أفضل في ضوء بعض الأفكار التي لم تكن واضحة حتى ستين أو سبعين عامًا مضت، وهي الأفكار التي استخدمتها حتى الآن من أجل فهم الواقع الإسباني. وأرجو التأمل فيما لاحظته سابقًا: لم تتلق إسبانيا تسميتها من مدن الغزاة الجرمان، فليست جوتيا Gotia (قوطية) مثلما نجد فرنسا أرض الفرنجة (وهذه اللفظة أوضح بالألمانية frankreich) ومثلما نجد في بورجونيا Borgona أرض البورجنديين، أو إنجلترا أرض الأنجلوس. كما أنها لا تسمى قشتالة مثلما هو الحال بالنسبة لتسمية القسط

الأكبر والأقوى في جغرافيتها - فهذا ما حدث مع فرنسا التي كانت في الأصل يطلق عليها L'ile de France ثم بعد ذلك el royaume de France واستمر ذلك على مدار قرون، وأطلق الاسم على منطقة أصغر بكثير من فرنسا الحالية، ومن الأمة الفرنسية. ها هي هسبانيا وإيطاليا الكتلتان الأكثر تقدمًا ونضجًا في الإمبراطورية الرومانية، وقد استمرت تسمية كل بينها اختفى مسمى "غاليا" Galia.

الأمر الحاسم في هذا المقام هو الوجود المثالي للصورة الكاملة لإسبانيا، أي "إسبانيا المفقودة"، وهذا هو الافتراض الأساسي للسلسلة الطويلة من الانضمامات. ولنتأمل قبل أي شيء الجزء الأكبر والأكثر دلالة في مشوار إضفاء الطابع القوطي nacionalizados، **فالوحدات المتتالية التي ستفصح عن وجود قشتالة سوف تكون في فضاء مثالي وسوف تشغله**. أول هذه الوحدات هو أستورياس التي انضمت إليها في وقت مبكر الأراضي الواقعة في أقصى الطرف الشمالي الغربي، وهي جليقية- كانت جليقية "بعيدة" دائمًا، وليس ذلك لبعدها المكاني عن المركز بل بسبب تضاريسها الجغرافية التي ضاعفت من المسافة الطويلة- وهنا من المهم الإشارة إلى أن انتشار الاعتقاد في ضريح سانتياجو الرسولي، ابتداء من القرن التاسع الميلادي، سوف يحول هذه المدينة إلى مركز جذاب رائع، ولم يقتصر ذلك على شبه الجزيرة بل شمل جميع أوربا المسيحية. وسوف يكون عنصرًا تاريخيًا فعالًا في باب "التقارب"، إضافة إلى الشهرة العريضة والصيت الواسع لمملكة أستورياس وهي شهرة تشمل **أيضًا** جليقية في أول عملية انضمام قوية.

وعندما أخذت حرب الاسترداد الأستورية تتقدم صوب الجنوب، أي عندما تم تجاوز حدود ليون - المدينة الرومانية القديمة المسماة Legio Septima Gemina - وجرت حمايتها من المسلمين من خلال منطقة عازلة غير مأهولة، فإن مركز الثقل انتقل إلى المدينة هذه، التي أصبحت مقر ملوك "أستورياس وليون" وبعد ذلك بوقت قليل أصبحت تسمى فقط ليون نظرًا للأهمية الكبرى والشهرة العريضة لها، الأمر الذي يدعم المقصد القوطي للمملكة الأستورية. وسوف تشعر مملكة ليون بأنها استمرار أو استرداد

للمملكة القوطية لكن يجب ألا يُنسى أن في داخل هذه المملكة تتعايش كل من أستورياس وجليقية.

أدى ظهور مقاطعة مستقلة جديدة، قشتالة، التي تتمتع بوجود عناصر باسكية سوف تكون لها أهمية كبيرة - في منتصف القرن العاشر - إلى وجود مبدأ جديد، الجديد فيه هو العنصر اللغوي والأدبي والسياسي الذي يعارض الموقف الارستقراطي المحافظ والذي يحلم بالأزمنة الخوالي، في ليون. وعندما تحولت قشتالة إلى مملكة فإنها لم تفعل ذلك بشكل منفرد – ما عدا لحظات جرت بعد ذلك - بل بالانضمام إلى ليون ابتداء من عصر الملك فرناندو الأول (١٠٣٧ ـ ١٠٦٥)، ورغم الأحداث الدرامية التي تلت موته وتوزيع أجزاء المملكة، إلا أنه أعيد الأمر إلى نصابه مع الملك ألفونسو السادس، ملك "السيد" Cid.

حدث تغير ذو مغزى في أثناء ولاية ذلك الملك، ففي نحو عام ١٠٠٠م كانت الحدود قد استقرت عند نهر الدويره: أي أنه في عام ١٠٠٢ - وعن يقين مطلق بهذا التاريخ - وقعت معركة Calatañazor وموت المنصور بن أبي عامر في مدينة سالم. وهذه أول أزمة خطيرة في دائرة السلطة القرطبية، التي دفعت بالقوات التي يقودها الجنرال العربي حتى شنت يقب، وجرى خلع نواقيسها التي استخدمت في صنع ثريات وضعت في مسجد قرطبة. كما نجد أيضًا أن استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة عام ١٠٨٥ قد مدّ حدود قشتالة حتى نهر التاج، واعتبارًا من ذلك الحين سوف يكون هناك فصل في التسمية بين قشتالة **القديمة** وقشتالة **الجديدة**، لكنها دائمًا قشتالة. وعندما استعادت قوة الدفع الخاصة بحرب الاسترداد حيويتها في عصر فرناندو الثالث تم استرداد أغلب أجزاء غرب إقليم الأندلس Andalucia ـ أي المسمى الأدق لما كان يطلق عليه Andalus الأندلس ـ. وسوف يطلق على هذا القطاع مسمى قشتالة **الجديدة جدًا**.

هذا يعني أمرًا شديد الأهمية والذي من دونه لا يتم فهم الواقع الإسباني، ألا وهو أن قشتالة **ليست أرضًا** بل هي **مشروع** أخذ يتنقل ويذهب إلى مناطق أخرى.

واعتبارًا من منتصف القرن الثالث عشر أصبحت أشبيلية هي المكان الذي يقضي فيه الملوك القشتاليون أغلب أوقاتهم ولم يخطر على بال أحد التفكير في أنهم كانوا يعيشون "خارج" أرضهم مثلما قد يشعر بذلك أحد أبناء أرغن أو قطالونيا.

وقبل ذلك بوقت طويل، على زمن الملك ألفونسو السابع، الرجل الذي حكم من ١١٢٦م حتى ١٢٥٧م، حدث تغير سياسي عبارة عن استحداث نمط جديد "للانضمام" أكثر نعومة- سوف يلقب **بالإمبراطور**- وقد عنى مننندث بيدال بدراسة معنى هذا ووظيفته في طريق التوحيد لإسبانيا، وهي دراسة سوف أعود إليها لاحقًا. ما أريد أن أذكرِّ به هنا هو أنه يستخدم أحيانًا لقب إمبراطور الديانتين وكذا **إمبراطور الديانات الثلاث**، هنا يظهر المسيحيون والمسلمون واليهود على أنهم ثلاث مجموعات في إطار المملكة وهي مجموعات تعترف بملك قشتالة كعاهل لها وهو كذلك يعترف بها. ومما لا شك فيه أنه الملك العظيم لقشتالة وقائد حرب الاسترداد والذي قلب مشوار الأسلمة الذي بدأ عام ٧١١م والذي لم يقلب أبدًا رأسًا على عقب. غير أن مملكته تضم رجالًا ونساءً من غير المسيحيين: وهم المورو الذين ظلوا في الأراضي التي تم استردادها، وكذلك اليهود الذين كانوا يقيمون فيها أو قبل ذلك على أيام الممالك المسيحية. وهذا الاعتراف بالأديان الثلاثة في إطار وحدة عليا هي المسيحية إنما هو نمط اجتماعي للانضمام وليس نمطًا أرضيًا.

غير أن المشوار لم يقتصر على السلسلة التي تمخضت في النهاية عن قشتالة، فهناك نابارّة ذات التاريخ المتشابك والمرتبطة بالباسك من ناحية وبفرنسا من ناحية أخرى، أي أنها مشدودة إلى اتجاهات متعددة، وهناك غموض، لكنه لا يحول دون التعرف على مكانها في مشوار التكامل، أي ابتداء من عام ١٠٠٠م، في عصر سانشو الثالث الكبير. ثم نجدها من جديد خلال القرن الثاني عشر من خلال الإسهام الفعال لسانشو السابع القوي في معركة العقاب ١٢١٢م التي كانت بمثابة اللحظة الحرجة في طريق وحدة هسبانيا. وبين هذه اللحظة وتلك السابقة عليها نجد نابارّة ترتبط بأرغن ارتباطًا شديدًا في عدة مواقف،

في إطار مشوار يتسم بالتذبذب والتقدم والتقهقر. ولا يجب أن يُنسى أن الممالك الإسبانية قد اختلطت ببعضها وتداخلت فيما بينها لدرجة أن أي محاولة حاسمة للانفصال إنما هي نوع من التزييف. هناك مدينة مثل ناخيرا Najera ـ هذا على سبيل المثال ـ كانت تنسب إلى نابارّة وكانت أرغنية يحكمها السيد دييجو لوبث دي أرو، سيد بيثكايا، باسم ملك قشتالة، وكانت قشتالية طوال فترة طويلة.

وفيما يتعلق بالمقاطعات الصغيرة الأرغنية والقطلانية نجد أنها تقوم بسلسلتين من الانضمام وذلك حتى تشكلت مملكة أرغن من ناحية، ومقاطعة برشلونة من ناحية أخرى. كان زواج بترونيلا الأرغنية من كونت برشلونة، رامون بيدنجر الرابع، عام ١١٣٧م، بمثابة الإعداد لعملية "الانضمام" الكبرى الشرقية، وتدعم هذا من خلال ابنهما الملك ألفونسو الثاني اعتبارًا من عام ١١٦٢م. وابتداء من ذلك الحين نجد مملكة أرغن التي تحمل هذا اللقب بسبب أسبقية وضعها على مقاطعة برشلونة، أي أن هذه المملكة سوف تكون شديدة القطلانية والأرغنية، وعاشت الوحدتان السابقتان وتعايشتا تحت التاج نفسه، والسبب في هذا أنها عملية انضمام وليست عملية ضم، أو عملية توسع غير عضوية لهذه الوحدة أو تلك. والدليل الأكثر وضوحًا على ذلك هو أن استعادة أرض جديدة ـ أي بلنسية تحت حكم الملك خايمي الأول، ثم ميورقة، ومنورقة على زمن ألفونسو الثالث جرت في إطار ممالك انضمت إلى التاج الأرغني. وهنا يبرز دور بلنسية بشكل دائم من حيث إنها القوة أو الوحدة الثالثة تحت التاج.

أما فيما يتعلق بالأراضي التي يطلق عليها اليوم "بلاد الباسك" فإن الوحدة الإثنية واللغوية لم تؤد أبدًا إلى تكوين وحدة سياسية موحدة، ويرجع السبب الكبير في هذا إلى غيبة وجود المدن المهمة وتشتت السكان في أراضٍ مفككة جغرافيًا رغم صغر مساحتها. وعند النظر إلى الوحدات الثلاث الكبرى في هذه المنطقة، التي كانت كل واحدة منها تعيش انقسامات داخلية، وهي ألبا Alva وجيبوثكوا Guipuzcoa وبيثكايا vizcaya، نجد أنها سرعان ما ارتبطت بالوحدة المسيحية لأستورياس. ثم إن هناك بعد

ذلك علاقات شديدة القرب بمقاطعة قشتالة. وأحيانًا ما تنضم إلى نابارّة: وبعد ذلك انضمت إلى التاج القشتالي اعتبارًا من عصر الملك ألفونسو السادس، وكان ذلك بشكل كامل ونهائي على عصر الملك ألفونسو الثامن، ومعها كذلك ألبا. ظلت بيثكايا- تحت حكم آل لوبث دي آرو - على علاقة وطيدة بقشتالة، ابتداء من معركة العقاب، ثم انضمت بشكل نهائي إلى مملكة خوان الأول، خلال القرن الرابع عشر. وكان ذلك مصحوبًا بشكل دائم "بالأعراف" والمزايا الأخرى الخاصة بالاستقلال الذاتي. أما هؤلاء الباسك الذين كان يطلق عليهم وصف عام هو، الباسكيون vizcainos فكانت لهم إسهامات قوية في حياة قشتالة، ثم في إسبانيا المتحدة ابتداء من عصر الملوك الكاثوليك، ولم يقتصر الأمر على حدود شبه جزيرة أيبيريا بل تعداه إلى عمليات اكتشاف أمريكا واستعمارها، وكذلك الأمر بالنسبة للأراضي الأخرى المكتشفة والمنضمة إلى المملكة الإسبانية.

هذه هي النتيجة النهائية أو شبه النهائية لسلسلة طويلة من الانضمامات. غير أن أكثرها أهمية وذات التأثير الكبير تمثل في مملكتي قشتالة وأرغن بسبب زواج إيزابيل وفرناندو عام ١٤٧٤م. يرجع تاريخ الأمة الإسبانية إلى هذه التواريخ، ولم يكن ذلك فقط بسبب الوحدة الشخصية بين المملكتين بل بسبب التحول العميق الذي حدث على الصعيدين السياسي والاجتماعي، وجاء ذلك في إطار مشوار ربما لم يحظ بالاهتمام الكافي أو العناية اللازمة.

غير أن تاريخ هذه السلسلة من الانضمامات لا ينتهي عند هذا الحد، فشبه الجزيرة الأيبيرية تتوافق مع نهاية حرب الاسترداد: أي أن الاستيلاء على غرناطة في الثاني من يناير لعام ١٤٩٢م يغلق الفترة التي بدأت عام ٧١١م، وبذلك يضم آخر مملكة إسلامية إلى إسبانيا الملوك الكاثوليك. فهل انضمت؟ أليس ذلك مجرد غزو حربي؟ سوف نرى كيف أن مملكة غرناطة - حتى وهي إسلامية - كان يتم الشعور بها على أنها جزء من

إسبانيا. ومن المؤشرات ذات المغزى المهم هو أن ترس الملوك الكاثوليك - أو ترس في إسبانيا - يشير إلى غرناطة الرمزية.

وبعد ذلك، هناك أسلحة صقلية التي حلت محلها سلاسل نابارّة (كنوع من التذكر لخيمة ميراما ماندولين، التي هاجمها سانشو القوي في أثناء معركة العقاب) عندما قام فرناندو الكاثوليكي بضم نابارّة المجاورة لجبال البرانس cipirenaica إلى قشتالة عام ١٥١٢م وذلك من خلال عملية غزو سهلة التنفيذ قام بها دون ألبا. غير أنه في عام ١٥١٥م نجد البلاط يعترف بالواقعة، وبذلك تتحول عملية الضم إلى انضمام ووصل الأمر في هذا إلى احتفاظ نابارّة بوضعها كمملكة، وتم إعلان الملوك الإسبان ملوكًا في نابارّة. وبذلك تنتهي السلسلة الطويلة من عمليات الانضمام والتي تُوّجت في النهاية بالأمة الإسبانية. لكننا سوف نرى أن الأمر لم ينته عند هذا تحديدًا وهذا هو أكبر نوع من الأصالة في الواقع التاريخي لإسبانيا والذي تم إهمال النظر إليه كثيرًا.

الفصل الثاني عشر

تلاقي ممالك العصور الوسطى

إسبانيا المسيحية:

عندما تتأمل الوضع الذي وصلنا إليه يصبح من البديهي أن إسبانيا الفعلية من الناحية *التاريخية* هي إسبانيا المسيحية. فكلما زاد الإلحاح على الوجود العربي أو الإسلامي أو المكون العبري وعلى تأثيرهما وأثرهما الذي لا يمحي، زاد ذلك من وضوح معالم المشروع التاريخي لإسبانيا خلال العصور الوسطي وطبيعة المشروع المسيحية. ويصل الأمر في هذا المقام إلى أن ذلك المشروع الذي تم الإبقاء عليه بقوة أثمر واقعا أعلى من ذلك الذي كان يتمثل في إسبانيا القوطية، وهو واقع حيّ على مدار أكثر من سبعة قرون يسمى "إسبانيا المفقودة" التي تتم محاولة إحياؤها. يتم الانتقال من الماضي إلى المستقبل كهدف وأفق لحرية الاسترداد. وفي هذا السياق يمكن القول إنه ليست هناك إلا حالات شديدة الوضوح مثل حالة هذا المشروع تبين كيف أن الحاضر يعود ليحدث أثره على الماضي ويحوله، أو إذا ما شئنا القول يحدث تأثيره على الطابع الدرامي (وليس مجرد الوضع الفعلي) للحياة الإنسانية. وما يتبدى بجلاء في الحياة الفردية نجده مرئيا وبشكل كبير في هذا المثال الخاص بالحياة المشتركة.

إننا إذا ما ألقينا إطلالة شاملة على العصور الوسطى الإسبانية في مجملها لوجدنا حالة شديدة الغرابة متمثلة في رد الفعل على عملية غزو. ويلاحظ أن أغلب عمليات الغزو، على مدار التاريخ، تتسم "بالنجاح"، بمعنى أنها تفرض نفسها وتغير المجتمع الذي تم غزوه، وهذا هو حال جميع الغزوات الإسلامية خلال القرنين السابع والثامن باستثناء هذه الحالة. في بعض الحالات الأخرى يحدث أن يتم صد الغزو، أي أنه لم يتم، ويفشل بفضل الشعب الذي تعرض للغزو، أو بفضل تولّد قوة أخرى تتدخل للمساعدة. اتسم الغزو الإسلامي عام ٧١١م بأنه نجاح عسكري، ولم يتم صده، وكانت الدفاعات القوطية فاشلة وتمكن العرب من السيطرة على أغلب جغرافية شبه جزيرة أيبيريا. لكن هذا الغزو لم يتم قبوله أبدًا.

كان هذا الغزو على العكس تماما إذ كان الحافز والمبدأ المنظِّم لإسبانيا التي ترى نفسها أنها مسيحية وتؤكد على هذا، وأنها ترتبط بالمملكة القوطية وتعمل على إحيائها رغم أنها في واقع الأمر سوف تخلق شيئا مختلفا تماما، لكنها لا تعود إلى الوراء أبدا. غير أن أصالة إسبانيا التي تُرى وهي تتكون خلال حرب الاسترداد (مقارنة بالأمم الأوربية الأخرى) ترجع في المقام الأول إلى أنها اتكأت على المملكة القوطية كنموذج: أي أن الأمر يقوم بدوره من حيث وجود فضاء مثالي سوف يمتلئ بمضمون يقوم بدور الإطار الذي يجعل هناك معنى ومغزْي لجميع القطع التي تم استعادتها في أثناء حرب الاسترداد. وأقول هنا "قطع"، ذلك أن كل قطعة منها تشير إلى هذه الوحدة الشاملة التي تسبق جميع القطع. وهنا يمكننا القول إن عملية إعادة الغزو هي "التكامل بالأجزاء" لإسبانيا المفقودة، مستخدمين في هذا ذلك التعبير الرياضي.

هذا الطرح يفصح عن الخطأ في الطرح الذي يضع على قدم المساواة كلا من إسبانيا المسيحية وإسبانيا الإسلامية. نعم كانت هذه الأخيرة هي المسيطرة على مدار ما يقرب من قرنين من الزمان، وكانت الرئيسية على مدار قرن آخر، غير أن ما اتضح أنه إسبانيا، كانت إسبانيا الأخرى، التي هُزِمت وكادت تكون معدومة، والتي لم يكن لها في بداية الأمر إلا

واقعا مبرمجا، غير أن مشروعها دائم وثابت وسوف يتحقق. يبدو من غير العدل أن ننفي صفة الإسبان عن سكان الأندلس، والخلافة الأولى وملوك الطوائف. لن أناقش هذا الظرف، يمكن، مع بعض التحفظات اعتبار سكان "إسبانيا" الإسلامية على أنهم إسبان باستثناء عدم توفر هذه الصفة على المرابطين والموحدين. غير أن الأمر الذي يثير المزيد من الشكوك حوله هو أن تكون هذه إسبانيا، فربما كانت تحتل جزءا متغيرا منها أي من هسبانيا القديمة، أي أن أغلب سكانها كانوا من الإسبان الرومان مع وجود العنصر القوطي، يضاف إليه عدد قليل من العرب والأمازيغ، وأنها، على علاقة مستمرة بإسبانيا المسيحية سواء كانت علاقات سلمية أو حربية.

أما بالنسبة لليهود، فإن مقارنتهم بإسبانيا المسيحية أو الإسلامية من حيث اعتبارهم العنصر الثالث المناظر فهذا أمر يخلو من المنطق.

لم يكن هناك وجود "لإسبانيا اليهودية" على الإطلاق، وفي الوقت ذاته نجد إسبانيا المسيحية تتكون أمام إسبانيا الإسلامية، ويتمثل مشروعها التاريخي في الحلول محل هذه الأخيرة وإزالتها من حيث إنها دخيل غير مقبول، لكن لا شيء من هذا يمكن تطبيقه على اليهود الذين هم أقلية دينية داخل إسبانيا المسيحية (وبشكل مواز أيضًا في الأندلس)، وكانت أقلية تحظى بتعاملات شديدة التنوع ابتداء بالتسامح – ويشمل التميز الشخصي – وانتهاء بالمطاردة. كان عدد اليهود ضئيلا للغاية مقارنة بعدد المسيحيين أو المسلمين، أي كانت له طبيعة أخرى، وهذا ربما كان كافيا لاستبعاد الحديث عن العناصر الدينية على أنها ثلاثة في إسبانيا العصور الوسطى. غير أن السمة الإسبانية لليهود في إسبانيا المسيحية فهي غير محل نقاش، وهذا يعتبر أمرا جوهريا في باب تفسير مدلول الانشقاق الديني فيها، وكذا بالنسبة للمعاملة التي سوف يتلقاها اليهود عندما يطرأ تغير على الموقف الخاص بالعصور الوسطى حيث يحل محله موقف آخر على زمن الملوك الكاثوليك.

إن الحديث عن "المسيحيين والمورو اليهود" من حيث هي عناصر متجانسة وقابلة للمقارنة فيما بينها يعتبر نوعا من الممارسة العنيفة ضد واقع إسبانيا العصور الوسطى،

ونوعا من تفكيك بنيتها، وخاصة ما يتعلق بطابعها الذي يستشرف المستقبل، أي ذلك البعد التاريخي. إن ما نفهمه بالنسبة لإسبانيا، هو إسبانيا المسيحية التي لم تقبل أن تتأسلم وحاربت الإسلام بنجاح وفشل أو بحماس وخمود همة، وكان ذلك ابتداء من بداية القرن الثامن وحتى نهاية القرن الخامس عشر دون أدنى انقطاع لهذا المشروع **التكويني**، ونحن ننطلق في هذا من الحاضر الذي يتسم بأنه حاضر موحد ولا مناص في ذلك فيما يتعلق بالعصور الوسطى كما سبق أن أوضحنا ذلك مرات عديدة.

تعتبر إسبانيا حالة استثنائية، وربما كانت حالة فريدة، لبلد تتحدد ملامحه من خلال برنامج **واضح** ومستمر على مدار قرون بشكل يثير الانتباه. إنها بلد يتكون من حيث البداية من **مضمون**- المضمون الأكثر إنسانية قدر التصور – وإليه تُنسب درجة غير محتملة من **الجلاء**. ويصل الأمر في هذا المقام إلى أن هذا الجلاء كان على درجة تسمح بقياس مستوى تنفيذ ذلك المقصد الدائم، ويرافق هذا تبرير كل مرحلة تاريخية وصدقها. كان الملوك على وعي كامل بأنهم أمناء لما **يجب عليهم أن يكونوا**، وأنهم قد يكونون وقعوا رهن ميول متنوعة – النزق والكلل والمصالح الاقتصادية والطموحات التي تتجاوز ما هو إسباني- وهنا اعتقد أن هذا العنصر كان حاسما في إقرار تدرّج بين الممالك المسيحية واضح للعيان ومعترف به من الجميع. كما أن هذا البرنامج الإسباني سوف يمتد بصيغ مختلفة بعد انتهاء حرب الاسترداد بمعنى الاستعادة الكاملة لإسبانيا المسيحية، كما أنه سوف يكون مفتاح التذبذبات والأخطاء التي تحدث على مدار تاريخها خلال العصر الحديث، وهو أيضًا المفتاح لقدرتها الضخمة قبل التجديد وعلى ميولها، التي تحدث بين الحين والآخر، صوب النمطية القديمة.

المقصد حول إسبانيا:

يُلاحظ أن مقصد الوصول إلى مُلْك إسبانيا – أو الوصول إليه يوما ما – كان القاسم المشترك بين الممالك الإسبانية التي كانت تعيش كل واحدة بمعزل عن الأخرى،

وإذا ما كان تم الاعتراف - في حينه - بأن قشتالة هي الأقوى وأنها الأجدر بشرف الإمبراطورية، فإن ذلك لا يعني أن فكرة وحدة إسبانيا كانت قشتالية صرفة.

منذ عصر ألفونسو الثالث تتردد مقولة "يجب أن يحكم إسبانيا جميع"، كما أن ألفونسو السادس قد لقبّ نفسه خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر أنه "إمبراطور الأمم التي تشكل إسبانيا أو إمبراطور إسبانيا جميعها". هذا المقصد سوف يكون مؤكدا وبقوة في عصر ألفونسو السابع. غير أنه في عام ١١١٠، نجد أن الملكة أورّاكا، بعد أن تزوجت "ألفونسو المحارب" ملك أرغن تقول عنه: "ألفونسو هو بفضل الله ملك ليون وملك جميع إسبانيا، وهو زوجي العزيز". وفي عام ١١١٤ نجد أن الملك المذكور يلقب نفسه، بعد إبطال زواجه، بأنه الإمبراطور...الذي يحكم قشتالة وبمبلونه وأرغن in Saperavi vel Ripacurcia، وفي عام ١١٢٣م يقول "أنا autem ألفونسو بفضل الله إمبراطور قشتالة necnon ملك أرغن ونابارّة".[30]

وابتداء من عصر ألفونسو السابع، توقفت المقاصد "الإمبراطورية" المختلفة عن مقصده، فقد اعتبر كل الملوك الإسبان أنفسهم "تابعين" له، بما في ذلك المقاطعات curia الرومانية التي تعترف بلقبه ملك هسبانيا Hispaniarum rex بينما نرى لقبا آخر في نصوص ليست إسبانية هي "إمبراطور هسبانيا". غير أنه مع وفاة ذلك الملك اختفت الفكرة الإمبراطورية ففي "حولية ريبول Ripoll نجد المسمى على هذا النحو؟! في ١١٩٥م، عام ١١٥٧ مات ألفونسو إمبراطور قشتالة وجميع إسبانيا". وهذا التاريخ المزدوج يشير إلى العصر الهسباني والعصر المسيحي، وكان هذا عاما في جميع أنحاء أوربا. ويشير منندث بيدال، الذي أورد هذا النص، إلى أن ذلك سوف يكون آخر ذكر لهذه التسمية. حيث يبدأ عصر جديد.

---

(30) انظر "الإمبراطورية الهسبانية والممالك الخمس، (١٩٥٠م).

كتب مننذث بيدال يقول "إن ضياع الفكرة الإمبرالية هو نتيجة انضمام إسبانيا الكامل إلى أوربا القريبة على يد الملك ألفونسو السابع الذي بذل جهدا كبيرا في توسيع إمبراطوريته خارج شبه جزيرة أيبيريا. وعلى هذا فبعد التطوير الرائع الذي حدث للفكرة الإمبراطورية الإسبانية القديمة على يد حفيد ألفونسو السادس نجد أنها (أي الفكرة) تموت فجأة وكأنها جذوة أطفأتها العاصفة التي أوقدتها".

لكن الوعي بوحدة إسبانيا لم يخب، بل أنه بعد فترة من التذبذب ينهض في شكل آخر من خلال التعاون "بين الإسبان وحدهم" في معركة العقاب (١٢١٢م). وهذا الشكل الجديد هو الممالك الخمسة.

هناك مبدأ المساواة بين الممالك المسيحية حيث يسود الاحترام المتبادل، وفي بعض الحالات تحدد الأجزاء المتبقية من إعادة الغزو. الممالك الخمسة هي: ليون وقشتالة ونابارّة وأرغن والبرتغال. وهي مجموعة يُنظر إليها بشكل جماعي يختلف عن أي مملكة وراء جبال البرانس مساوية لإسبانيا. "الممالك الخمس" هي تسمية تعني الشيء نفسه لمعنى "جميع إسبانيا". ووصل الأمر في هذا المقام أنه بعد أن أصبحت الوحدة بين قشتالة وليون كاملة ولا رجعة فيها، وبالتالي هناك مملكة ناقصة، ظل المسمى المشار إليه، إلا أنه قد تم وضع غرناطة ضمن هذه التسمية حتى يتم تبرير استمرار الاستخدام لها رغم أنها – أي غرناطة – كانت إسلامية وكانت تدفع الجباية tributo لقشتالة وتعتبر "محمية" تابعة لملك قشتالة. ومن الواضح أن هذا الضم لآخر مملكة إسلامية ضمن عدد الممالك الخمس يؤكد على هويتها الجماعية على أنها إسبانيا كاملة، والتي كانت تعتبر – افتراضيا – أنه تم استردادها رغم أن هذه المهمة لم تنته إلا في عام ١٤٩٢م.

هناك نقطة أشار إليها مننذث بيدال وهي أن أسماء الملوك الإسبان التي تتكرر كثيرا، وهي اسم ألفونسو، واسم سانشو، إنما تُفسَّر بسلسلة نسبها المشترك وهي ألفونسو العظيم

النسهاوي وسانشو الكبير النابـارّي. وبعـد سرد قـصة زواج بنـات "الـسيد"EL CID بطـل الملحمة التي تحمل هذا الاسم نجد القصيدة تقول في أحد أبياتها:

اليوم، ملوك إسبانيا هم أقربائهن.

كما أن الزيجات الملكية تتم في أغلبها من خلال النساء الإسبانيات وكان هذا خـلال القرن الخامس عشر بشكل حصري (بما في ذلك البرتغاليين بالطبع). فكل الملوك الإسبان أصهار، وقد قالها موثتاثيير lena carny lena sang من لحم ودم". وعندما نتناول كتاب "التاريخ الإسباني" لمؤلفه رودريجو خيمنث دي رادا، أسـقف طليطلـة وابـن رجـل مـن نابارّة وأم قشتالية، ومولود في نابارّة لكنه تربّى في قشتالة نجده يقول في معرض الحـديث عن السيطرة العربية: "العناء من أجل إسبانيا قاطبـة **وبـسبب هـذا توزعـت عـلى خمـس ممالك**".

هذه الملكيات الخمس تُفَسَّر **داخل إسبانيا** الأرض المشتركة وفي الوقت ذاته هـؤلاء من يقومون باستعادة السيطرة عليها. وهنا تتجلى إرادة الوحدة المرة تلو المـرة مـن خـلال الزيجات التي وضعت نمطية للصلات الأسرية الملكية شديدة التعقيـد ووصـل الأمـر في هذا المقام إلى أن صلات الدم كثيرا ما تطلبت إعفاءات كنسية، كما أنها ليست واضـحة في كل الحالات. فعلى سبيل المثال هناك "وعد كاسبي C. de Caspe" حيث يـتم فيـه اتخـاذ قرار بخلافة "مارتين الإنساني" على عرش أرغن، وهذا خـير مثـال عـلى العلاقـات بـين الممالك ومجتمع الأسر الملكية. فالملك الذي تم اختيـاره هـو فرنانـدو الأول، وقـد سـمى فرناندو دي أنتكيرة، أمـير قـشتالة، كـان ابـن الملـك خـوان الأول مـن زوجتـه ليونـور **"المخلوق الرائع الجمال"**، طبقا لما ورد في وصفها في حوليـة والـده الملـك مـارتين ملـك أرغن.. وبالتالي فإن الملك الجديد هو حفيد بدرو الرابع الملقب بـ "الولوع بالرسميات"، وهو حفيد حفيد ألفونسو الرابع، وواحد من سلسلة أحفاد خايمي الثاني، أي أنـه سـليل ملوك أرغن وملوك قشتالة. وفي هذا المقام يمكن الإطلاع على دراسة ممتازة لمنندث بيدال

بعنوان "**وعد كاسبي، تقرير مصير شعب** (١٤١٠ – ١٤١٢) التي هي مدخل للجزء الخامس عشر من كتاب "**تاريخ إسبانيا**" الذي نشر تحت إشرافه (١٩٦٤م)، وهو بحث يعتبر كتابا حقيقيا مكونًا من مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ومن المؤسف أن قد أسدل على هذه الدراسة ستار الصمت على مدى عشرين عاما.

هناك أمر آخر له دلالته، على شاكلة ما سبق، لكنه أمر يكاد يكون منسيا وهو أنه بعد نصف قرن من ذلك التاريخ، أي عام ١٤٦٢م، نجد القطلانيين وقد تمرّدوا على الملك خوان الثاني، يعلنون تولي إنريكي الرابع ملك قشتالة، كما أن أعضاء مجلس الجنراليتاد في قطالونيا يُقْسمون "بأبدية que sie feta، وانضمام هذه الإمارة إلى مملكة قشتالة" ومن المهم أن نلاحظ أن كلمة "انضمام" استخدمت في هذا النص، وهي ذات دلالة في طريق تكوين الأمة الإسبانية[31].

المعنى الحقيقي للاسترداد:

رأينا أن الاسترداد، ذلك المقصد الدائم للمسيحيين منذ اللحظة الأولى للغزو الإسلامي، تمثل في استعادة إسبانيا وليس استعادة الملكيات خلال العصور الوسطى التي لم تكن موجودة. الأمر إذن هو عبارة عن مهمة **موحدة** منذ البداية، كما أنها تستمد من ذكرى "إسبانيا الضائعة" المدد والحافز والتبرير.

---

(31) انظر تلك الدراسة المشار إليها لمنندث بيدال، ص CLX. وقد ورد في أحد الهوامش ما يلي: "كان السفراء يتقدمون بالكثير من المبادرات للمطالبة بأن يلقب إنريكي الرابع نفسه "ملك أرغن وكونت • • برشلونة"، إلا أن الماركيز دي بينا، وأسقف طليطلة كانا يريدان مواصلة تأييد ملك أرغن، وبالتالي عارضا إطلاق هذا اللقب (في نهاية ديسمبر لعام ١٤٦٢م) أي إنري دل كاسيتو، حولية إنريكي الرابع، الفصل ٤٦، ٤٨. وقد لُقِّب ذلك "العاجز impotente، بـ Rex castellae, legionis...comes Barchimone et Dominus Principatus "Cataloniae

وهو لويس التاسع ملك فرنسا، وقد جاء ذلك في معرض لقاء بإنريكي الرابع جرى على حدود Fuenterrabia وأقنعه أن يتخلى عن تلك الوحدة وأن يترك قطالونيا، لكن هذه الوحدة التي ربما كانت سابقة لأوانها فرضت نفسها على كل الأصعدة في الحياة وتمت بشكل كامل بعد ذلك بجيل.

لكن إسبانيا تلك **لم تكن موجودة**، وبغض النظر عن أن وحدة المملكة القوطية كانت هشة، فإن حالة الغزو التي عليها شبه الجزيرة كانت تختلف بشكل واضح عما قام بتدميره ذلك الغزو. ومن جانب آخر نجد امتداد عملية الاسترداد على مدار زمن طويل وتأثيرها على الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لكن لم يقتصر ذلك على شبه جزيرة أيبيريا بل امتد إلى أوربا حيث إسبانيا تشكل جزءا منها وإليها تنسب من حيث الوضعية التاريخية كبلد يريد أن يكون مسيحيا. كما أنه لا يمكن أن يكون التحول الذي عاشته الدول المسيحية الإسبانية خلال العصور الوسطى منعزلا عما عاشته أوربا والتي كانت إسبانيا المسيحية على علاقة دائمة بها. وتعليقا على الأهمية والتفسير الخاص الذي أولاه أمريكو كاسترو لسانتياجو أجد أثورين* يقول لي "نعم، نعم، لكن في إسبانيا هناك ثلاث وأربعون وثلاثمائة بلدة اسمها سان مارتين". ومن جانب آخر فإن سانتياجو تعني الانتساب إلى أوربا تحديدا، أي طريق سانتياجو* الذي كان يبدأ من شارع سان جاك في باريس لينهى عند يقب Compostela.

وعند الحديث عن الأبعاد المعمارية والأدبية وجميع أشكال ثقافة العصور الوسطى نجد إسبانيا شديدة الارتباط بباقي أوربا وتتلقى تأثيراتها وتطبقها (يكفي في هذا المقام أن نتذكر إشعاع مدرسة المترجمين في طليطلة). كما أن النظام الاجتماعي وأنماط الحياة السياسية ليست استثناء. ومع بعض الاختلافات الشديدة الأصالة والتي ترجع في الأساس إلى مشروع إعادة الاسترداد وإلى التعايش مع المورو أخذت تتكون ممالك خلال العصور الوسطى تمر بمراحل مختلفة لكنها في تواز جزئي مع ما كان يحدث في باقي أوربا.

ومعنى هذا أنه في إسبانيا المجتمع وليس الدولة أخذت تتولد وحدات سياسية قادرة على القيام بعبء حرب الاسترداد. كان واضحا في قشتالة التي حدد ذلك المشروع ملامحها أن هناك سلسلة ذبذبات" إذا ما صح التعبير، تعبر عن تناقض ظاهري في البنية

---

* كاتب إسباني معاصر ينسب إلى الجيل المسمى جيل ١٨٩٨م. (المترجم)

* هو طريق الحجيج إلى ضريح سانتياجو الرسول في شنت يقب. (المترجم)

السياسية، وهذه الذبذبات مفهومة بشكل ما بناء على البحث عن الفعالية، ومن هنا يُفهم تمرّد مقاطعة قشتالة على مملكة ليون، وقد تأسست على طابع أكثر حيوية وتقدمية وتجديدا كمقابل لثقل الموروث القوطي في مملكة ليون. انتصر هذا التمرد رغم أنه قد عانى حالات السقوط وانتهى به الأمر إلى إعادة وحدة المملكتين مع سيطرة قشتالية. وبشكل مناظر نجد أن مفهوم الوحدة الذي عليه المملكة سوف يستخدم رؤيته المتعلقة بالموروث التي ستقود إلى تقسيم نابارّة أو قشتالة، بمعنى أنها تؤدي إلى تقسيم الأراضي إلى عدة ممالك تقوم بدور فعّال في عملية إعادة الاسترداد وعلى درجة من المنافسة يمكن تأجيجها.

سوف تبدو هذه المحاولة خطأ المرة تلو الأخرى، وسوف يتم إقرار الوحدة مرة أخرى، ورغم هذا ففي مثل تلك الحالات توجد تكتيكات ليست عسكرية، بل هي سياسية جميعها، في باب السير في استعادة إسبانيا المسيحية التي احتلها المورو. ومن الأمثلة الأكثر بروزا ووضوحا هو ألفونسو السادس الذي أعاد للمملكة وحدتها بعد الانقسام الذي حدث بينه وبين إخوته، وذلك بغزو طليطلة عام ١٠٨٥م مما زاد من السلطة الملكية وأدى إلى الصدام بأبرز رجاله من المحاربين وهو "السيد" Cid الرجل الذي ظل يواصل عمليات إعادة الاسترداد وهو في المنفى حتى وصل إلى انتزاع بلنسية من السيطرة الإسلامية. لكن سوف يعود مبدأ الوحدة ليسود وكذلك الأولوية للملك الذي يقدم إليه "السيد"، بصفته التابع الأمين، حصاد غزواته "غير الرسمية"، إذا ما كان من الجائز استخدام هذه المفردة.

حدث هناك تغير، وقد شمل هذا المنظور الخاص بوحدة الممالك أو تفتتها، وكذلك العلاقة مع ملوك الطوائف والتحالفات المؤقتة أو القبول "بالحماية" مقابل الجباية أو الإتاوات. ومن جانب آخر هناك نوع من التذبذب بين تحديد "مناطق للاسترداد" لكل مملكة والتعاون فيما بينها جميعا في أثناء الأزمات – مثل معركة العقاب – أو القيام باستكمال إحدى هذه المناطق في اللحظات المواتية – مساعدة خايمي الأول لألفونسو العاشر في استرداد مرسية أو المساهمة الأرغنية والبرتغالية في معركة Salado.

يمكننا القول إن الممالك المسيحية خلال العصور الوسطى كانت الأدوات المستخدمة في إعادة استرداد إسبانيا. ولا بد أن يصب "نجاحها"، ولا مناص في ذلك، في اندماجها، أو انضمامها. فانتصار كل مملكة يمكن أن يكون عبارة عن اختفائها كوحدة كافية، لتذوب في الوحدة الأكبر وهي إسبانيا، التي لم تعد مفقودة بل تم استعادتها أو إعادتها إلى وضعها وإلى نفسها، أريد أن أقول إعادتها إلى مشروعها التاريخي الذي لم تتخل عنه أبدا.

ومن الطبيعي أن تتعدد التعرجات في مثل هذه الفترة الطويلة، والأكثر من هذا الإشارة إلى وجود مسارات بدأ العمل فيها لكنها فشلت أو تم التخلي عنها، وكانت هناك رغبات وأخطاء فادحة يتم تصحيحها كلما أمكن.

سرعان ما ستأخذ البرتغال مسارا آخر، وهو الميل إلى عدم النظر نحو إسبانيا، فأراضيها صغيرة الحجم ومتجانسة – هي المملكة الوحيدة في شبه جزيرة أيبيريا التي تتخذ لغة واحدة – كما أن هناك تحفظا دائما تجاه قشتالة الأكبر والأقوى، الأمر الذي حفز إلى الاتجاه مبكرا نحو التحول إلى أمة، وسوف يكون ذلك بعدا جوهريا في عظمتها غير المتوقعة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، غير أن هذا الاتجاه أصبح عقبة أمام انخراطها في وحدة أكبر، وأدى بها إلى العزلة والتهميش بعد ذلك. ومن جهة أخرى هناك تذبذب نابارّة بين إسبانيا وفرنسا، كما أن شخصيتها الإسبانية سوف تكون متذبذبة في العديد من المرات. هناك مملكة أرغن بأجزائها الأصلية الثلاثة (هي مملكة أرغن وإمارة قطالونيا ومملكة بلنسية) التي سوف تعيش توترا مستمرا وسوف ينتهي بها الأمر إلى التوجه المتوسطي – ميورقة ومنورقة وصقلية وسردينيا واليونان بشكل عارض ونابولي – وسوف تعيش قشتالة الميل للنزاعات الداخلية وخمود الهمة في باب المهمة المعلقة أي الاسترداد الكامل. وفي هذا المقام نجد أنه بعد وفاة ألفونسو الحادي عشر أخذت تتضاءل درجة التوتر الخلاق، وأخذت تضيع الشهامة وظل الأمر كذلك حتى تمكن الملوك الكاثوليك. حدث شيء شبيه بهذا في أرغن بعد وفاة فرناندو الأولى حيث تتوجت الفرقة

الداخلية بالصراعات بين القطلانيين مع خوان الثاني، وكذلك مع وجود صورة شخصية أمير بيانا Vina في الخلفية.

ومع هذا نجد أن تلاحم ممالك العصور الوسطى بفرض نفسه بسبب مطالبات المشروع الأعلى الذي كان حافزا لها، وقد جاء ذلك تحديدا في الوقت الذي بدا فيه أن كل شيء غير موات، أي عندما كانت هناك مشاكل قائمة بدت مستعصية. الأمر أن ذلك لم يكن ممكنا إلا إذا تم الوفاء به أي بهذا التلاحم، رغم النوايا السلبية أو حالات خنوع الإرادة.

الفصل الثالث عشر

أسبنة قشتالة وابتداء الأمة الإسبانية

هل هي قَشتَلة؟

تمثلت صورة مشوار توحيد إسبانيا خلال عصر الملوك الكاثوليك والتي تم بثها مع نهاية القرن التاسع عشر، خاصة بين المؤرخين الذين ينتمون إلى التاج الأرغني بأنها كانت عملية إضفاء "الطابع القشتالي" على الممالك الإسبانية الأخرى. وطبقا لهذه الرؤية فإن قشتالة قد "فرضت" لغتها وقوانينها وأسلوبها على باقي أنحاء إسبانيا بفضل ضخامة حجمها وتعداد سكانها وثروتها وقوتها.

أين الحقيقة في مثل هذه الرؤية للأمور؟ يتسم تأثير قشتالة بأنه كبير جدًا خلال العصور الوسطى كما شهدنا، فقد ساد الشعر الشعبي القشتالي، الرومانث، على غيره، فلم يندرج الرومانث الأستوري (نسبة إلى استورياس) أو الليوني تحت لواء الأول – رغم وجود سمات لهذا أو ذاك فيه – وإنما نجد أن الرومانث الأرغني، الذي كان يعيش خارج الحدود السياسية لقشتالة، سرعان ما يتوافق مع القشتالي. كما نفذ هذا الأخير إلى كل من جليقية وبلنسية رغم استمرارية الرومانث ذي الطبيعة الخاصة بكل واحدة منها. هناك كتاب بعنوان "قصائد في مديح العذراء las trobes en la hors de la V.M" الذي يعتبر أول كتاب مطبوع في بلنسية عام ١٤٧٤م، أي قبل وحدة الممالك، يتضمن هذا

الكتاب قصائد مكتوبة بالقشتالية من لدن شعراء بلنسيين كان لكل هذا أسباب لغوية وأدبية ذات قيمة لكنها لم تكن سياسية.

ومن جهة أخرى نجد أن الجدارة الإمبراطورية تنسب إلى ملوك ليون وبعدها إلى ملوك قشتالة بعد الانضمام بين المملكتين، وتم الاعتراف بذلك من جانب الملوك المسيحيين الإسبان. هناك مجموعة من العناصر التي تجعل من قشتالة المرجعية لمختلف المالك وعنصر الربط بينها وهي الموقع المركزي لقشتالة ودورها الكبير والمسيطر في حرب الاسترداد وتمثيلها للمشروع الرئيسي لإسبانيا المسيحية.

ولهذا فإن الأمر لا يعني "إضفاء الطابع القشتالي"، وفي الجانب المقابل يجب الإشارة إلى انفتاح قشتالة على المالك الأخرى وعلى مكوناتها الثقافية. هناك الدور العظيم للغة الجليقية في أشعار الملك ألفونسو الحكيم – في **"أغاني العذراء مريم"** وفي الشعر غير الديني، وهناك الاهتمام بالشعراء البلنسيين والقطلانيين وهناك ترجماتهم إلى القشتالية، والثنائية اللغوية التي عليها الكثير من الكتاب البرتغاليين، والتي ظلت على هذا المنوال حتى مرحلة متقدمة من القرن السادس عشر وبعدها أيضًا، وهناك الترجمات لقصائد الرومانث إلى كل لغات إسبانيا، كما أن النص القشتالي الأول المعروف لكتاب **شروح القديس ميان** .. Glosas Emilianenses... يتضمن مفردات باسكية. هذا كله يوضح حالة التعايش والتداخل المتبادل بين التعددية اللغوية في جميع أنحاء إسبانيا، بغض النظر عن أن القشتالية أخذت تزداد انتشارا على أنها اللغة العامة في زمن لم يكن هناك محل من الإعراب للحديث عن لغة "رسمية".

ربما لم يكن ممكنا الوصول إلى الوحدة الإسبانية من خلال مشوار "القشتلة"، فلو حدث لكان مناقضا للمشروع العام خلال العصور الوسطى، وكذلك لسلسلة عمليات الانضمام التي تؤدي إلى إقامة المملكتين الكبيرتين وهما قشتالة وأرغن. وعندما يقول أورتيجا إي جاسيت في كتابه **"إسبانيا اللافقارية" España invertebrada** إن قشتالة صنعت إسبانيا، ثم يضيف أن "قشتالة قد فككتها" فإنه يجب أن يُفهم كل هذا في السياق،

فالصراع المستمر على الحدود الذي ظل عليه القشتاليون مع "الهلال"، أي مع حضارة أخرى يسمح لهؤلاء بالكشف عن الوشائح التي كانت تربطهم بالممالك الأيبيرية الأخرى بغض النظر عن الاختلافات المحسوسة: هناك الوجه واللهجة والفكاهة والمشهد الطبيعي. فقد ولدت إسبانيا الواحدة بهذا الشكل في ذهن قشتالة ولم تكن مجرد حَدْس لشيء واقع – فإسبانيا لم تكن واحدة في حقيقة الأمر – بل كانت نمطا مثاليا لشيء **قابل للتحقق**، أي مشروعا محفزا للهمم، وصباح في الخيال لديه القدرة على السيطرة على اليوم وتوجيهه، بالشكل الذي يجعل الهدف محل جذب للسهم وبالتالي يتم شد القوس"[32]. إلا أن هذه المهمة لم يكن من الممكن أن تكون **قشتالية فقط**، فهذه الأخيرة كانت عملية انضمام حاسمة وممكنة عندما قام فرناندو الأرغني بتبني السياسة القشتالية: "فقد أدركت الثعلبة الأرغنية العبقرية أن قشتالة كانت على حق"، **"الوحدة الإسبانية كانت في المقام الأول توحيد السياستين الكبريين الدوليتين اللتين كانتا في شبه الجزيرة الأيبيرية**. أي علاقة قشتالة بأفريقيا ووسط أوربا، وعلاقة أرغن بحوض البحر الأبيض المتوسط. ولأول مرة في التاريخ يتم التوصل إلى Welt Politik، أي أن الوحدة الإسبانية جاءت لمحاولة ذلك"[33].

كما أن الارتباط بالمهمة المشتركة العظيمة لإسبانيا غير القشتالية تمثل ليس فقط في إمكانية تحقق المهمة بل في ذلك الذي **تتكون** منه، وبالتالي فإن إضفاء الطابع القشتالي على الباقين كان يمكن أن يكون بمثابة حافز لرفض مشوار الانضمام والتخلي عنه وعدم بلوغه. وهنا يمكن القول إنه لم يتم فقط إضفاء الطابع القشتالي على غير ما هو قشتالي (وخاصة بالنسبة للتاج الأرغني) بل حدث العكس، أي حدث تحول من جراء الوحدة أحدث أثره **أولا** على قشتالة. وهذه النقطة هي التي لم يتم بحثها بحثا جيدا، الأمر الذي حال دون الفهم الصحيح لتشكّل إسبانيا كأمة والتأثير بالتالي على مجمل تاريخها الحديث.

---

(32) الأعمال الكاملة، الجزء الثالث، ص ٦٢.

(33) المصدر السابق، ص ١٦٣.

"**قشتالة جعلت نفسها إسبانيا**".

استخدمت هذه العبارة عام ١٩٧٤ لأول مرة وبناء على العبارة التي قالها خوسيه أورتيجا بأن "قشتالة صنعت إسبانيا وقشتالة فككتها"، وكذا عبارة سانشيت ألبورنوث التي قالها طبقا لما يذكر ذلك عام ١٩٧٤ في البرلمان خلال عام ١٩٣١م والقائلة إن "قشتالة صنعت إسبانيا وأسبانيا فككت قشتالة" اقترحت هذه الصيغة "**قشتالة جعلت نفسها إسبانيا**" وبعد ذلك بقليل أوضحت العبارة قائلا "كان نشاط قشتالة غير متمثل في صناعة إسبانيا بل في أن تجعل **نفسها إسبانية**، ما معنى هذا؟

أخذت قشتالة تتكون في نظر إسبانيا منذ وقت طويل سابق على الوحدة، فهناك السمة القشتالية (أو القشتالية الليونية) التي أخذت تذوب عند انضمام مساحات ضخمة ذات أصول متعددة إلى المملكة، فمنذ القرن الثالث عشر هناك العنصر الأندلسي الذي يمثل دورا حاسما، كما أن إجماليه ينظر إليه من خلال أشبيلية، فها هو الطابع المدجن يتنامى بشكل متدرج، ثم ينضم إلى الطابع القشتالي الأصلي، ووصل الأمر إلى وجود تنويعتين للغة القشتالية: الأولى قشتالية (الخاصة بقشتالة القديمة أو طليطلة) والثانية أندلسية والتي يمكن أن يرمز إليها في أسماء كل من خوان دي بالدس وأنطونيو بنريخا. ولم تأخذ هذه التنويعة في الحسبان تلك الأخرى في أرغن، الأمر الذي سوف يؤدي إلى ما كانت عليه اللغة من كونها "قشتالية" إلى اعتبارها لغة "إسبانية" (وهما مصطلحان متماثلان في الاستخدام فكذا في العنوان الذي وضعه كوباروبياس covarrubias "**كنوز اللغة القشتالية أو الإسبانية**").

غير أن الأمر الأهم هو وحدة الممالك، فبعد زواج فرناندو وإيزابيل عام ١٤٦٩م، حيث بدأت عملية أسبنة قشتالة. وقبل وفاة إنريكي الرابع، أي عندما كانا أميرين، بدأ تأثير فرناندو الأرغني وبدأت الرؤية الشاملة لكل الشئون القشتالية. وخلال السنوات الخمس (١٤٧٤-١٤٧٩) التي حكم فيها كل من فرناندو وإيزابيل سويا في **قشتالة**، وقبل

أن يرث فرناندو عرش أرغن، أخذ التقدم في طريق التنظيم الجديد للمملكة يتضح بقوة سواء على الصعيد الحربي - أي تكوين جيش وطني لمحاربة البرتغاليين وتوطيد مركز الملوك الجدد - مثل تبعية النبلاء لنمط جديد من أنماط الدولة وخاصة في إقليم الأندلس وجليقية، الأمر الذي جعل من قشتالة عام ١٤٧٩م تتجاوز كونها مملكة من ممالك العصور الوسطى فتصبح جزءا - الجزء الأكبر - من إسبانيا الحديثة. ها هي عملية أسبنة قشتالة تأخذ شوطا بعيدا عندما يبدأ التأثير - المحدود للغاية - لإيزابيل ومملكتها على الأراضي التابعة للتاج الأرغني.

كان ميل إيزابيل لفرناندو الأرغني أمر يقاسمها فيه شعبها ويلح كتاب الحوليات على هذا، كما يرى بوضوح أن ذلك كان في الطابع "الإسباني" لمن تقدم لها. هناك كتاب لفرناندو دل بولجار F. del Pulgar بعنوان "حولية الملوك الكاثوليك" حيث يشار في الصفحة الأولى منه إلى أن الأميرة إيزابيل "تزوجت بأمير أرغن بناء على موافقة ملك تلك المملكة، وبعد ذلك، بعد أن تزوجا وأصبحا ملكين حكما جميع هذه الممالك والمقاطعات التي تعتبر أغلب أجزاء الإسبانيات Las Españas وهذا حسبما نورده".

ومن ناحية أخرى نجد أن أندرس برنالدث، قِسّ دي لوس بالاثيوس، يقدم لنا في الفصل السابع من مذكرات ملك الملوك الكاثوليك صورة حية للمناخ الذي سبق هذه الزيجة:

"بعد أن بدأت الحروب في قشتالة بين الملك السيد إنريكي وبين فرسان ممالكه، وقبل أن يتزوج الملك السيد فرناندو بالملكة إيزابيل، كانت هناك قصيدة تنشد في قشتالة، يرددها الناس الجدد من هؤلاء الذين تعجبهم الموسيقى وكان ذلك بإيقاع جميل:

"زهور من أرغن، من قشتالة، زهور من أرغن، من قشتالة.

بينما يحمل الأطفال البيارق الصغيرة وأحصنة من البوص يركبونها ويقولون:

"وأنا كنت أقول له وقلت ذلك أكثر من خمس مرات.

وعلى هذا الحال، دخلت الزهور وبيرق أرغن إلى قشتالة للاحتفال بالزواج المقدس بالملكة إيزابيل. وتمكن هذان الملكان من ملك قشتالة وأرغن في غضون ثلاثين عاما حكما فيها سويا وتمكنا من جمع الكثير من المال والأشياء العظيمة وحققوا المعجزات الكثيرة التي رأيتموها معشر الأحياء"[34].

يقصّ فرناندو دل بولجار F. del Pulgar كيف أنه عند وفاة إيزيكي الرابع عام ١٤٧٤، جرى إعلان إيزابيل ملكة شيقوبية Segovia قائلا: "قشتالة، قشتالة من أجل الملك السيد فرناندو والملكة السيدة إيزابيل زوجة ومالكة هذه الممالك!". وبالتالي فإن الملك الذي كان في أرغن ذهب إلى شيقوبية وهناك "أقسموا نفس يمين الولاء الذي تم للملكة واستقبلوه على أنه ملكهم وسيدهم وعلى أنه زوج الملكة امرأته والوريثة الشرعية ومالكة هذه الممالك"[35].

ثم يحدد بعد ذلك الكيفية التي يجب أن يحكما بها الممالك ذلك أنه كان يدور نقاش حول ما إذا كانت تُنسب للملك من حيث هو الذكر، أو للملكة من حيث هي المالكة. "الملك لا يمكن له أن يحكم ذلك الذي ليس من حقه. وتحديدا لا يمكن له أن يمنح عطايا أو أن يتولى ملك الحصون أو إدارة الشئون المالية والأملاك الملكية". غير أن فرناندو دي بولجار يضع هذا التصريح على لسان الملكة "يا سيدي، ليس من الضروري الحديث في هذا الأمر فاعتبارا من اليوم هناك اتفاق بفضل الله، بين حضرتك وبيني وهو أنه لن يكون هناك أي فرق بيننا. وبالتالي فإن أي شيء تريده أن يكون فإنكم بصفة حضرتك زوجي فأنت ملك قشتالة وسوف يتم ما تأمر به. وأن هذه الممالك سوف تكون بفضل الله بعد وفاتنا لأبنائك وأبنائي" "وبعد الاستماع إلى حديث الملكة كان الملك يعرف أنه

---

(34) أذكر هنا طبعة م. جومث مورينو، وخوان دي م. كارّياثو ١٩٦٢م.

(35) الفصل الحادي والعشرون (طبعة خوان دي م. كارياثو – دار نشر إسباسا-كالبي عام ١٩٤٣م).

حديث من القلب صفق كثيرًا. واعتبارًا من تلك اللحظة وكلاهما بأن لا يثار هذا الموضوع مرة أخرى، واتفقا على أن جميع الرسائل التي تصدر سوف تكون باسمهما معا وأن يكون الختم واحدا يشمل أسلحة قشتالة وليون. والشيء نفسه حدث بالنسبة للعملة التي أمر بسكها حيث تظهر صورته وصورتها واسم كل واحد منهما". غير أن فرناندو دل بولجار يضيف في ذلك الفصل نفسه ما يلي "وعلى هذا فلما رأى الملك الكفاءة العظيمة التي عليها الملكة أسند إليها جميع الأمور التي تتخذ فيها قرارات وكذا معالجة تلك الأمور التي تحدث في كل من ممالك أرغن وصقلية وتلك القضايا الساخنة وذات الأهمية الكبرى". ويختتم مقولته بأنه في كثير من الأحيان هناك وجود أحدهما في أحد الأجزاء ووجود الآخر في الأخرى، كانا منفصلين "ولكن رغم ضرورة بعد الواحد منهما عن الآخر فإن الحب هو الذي يجمع إرادتهما"[٣٦].

سيطرت روح التوحيد منذ اللحظة الأولى على سياسة الملوك الكاثوليك، وشاركت أرغن في هذا قبل أن يتحقق التوحيد. ففي الفصل الرابع والأربعين من الحولية التي كتبها فرناندو دل بولجار نجد سردا تفصيليا لزيارة فرناندو لوالده الملك خوان الثاني ملك أرغن، فقد التقيا ببلدة فيتوريا، وأراد الابن أن يقبل يد والده الأب وأن يضعه على الجانب الأيمن، لكن الأب لم يسمح بذلك. وقال له "حضرتك أيها السيد الابن أنتم السيد الأكبر للبيت الملكي وعلينا نحن واجب الطاعة والخدمة مثلما نقوم بذلك نحو سيدنا الكبير من الأقرباء. والواجب مني نحوكم يتجاوز مجرد الولاء بدرجة القرابة الواجبة عليكم بصفتي والدكم، وعلى هذا اجلس في أي مكان تشاء وأنا سأرافقك إلى مسكنك فهذا ما يحتمه الواجب".

كان تنظيم الجماعات الأخوية يمثل تحولا حاسما في الحياة في الأراضي القشتالية، وكان نوعا من القطيعة مع العادات المتبعة خلال العصور الوسطى وكان الانتقال إلى مفهوم جديد

---

(36) الفصل الثالث والعشرون.

جدير بأمة حديثة. وكان هذا التوجه هو الذي عليه الحملة الموجهة لغزو الكناري غزوا نهائيا. وبشكل دائم نجد أسماء "إسبانيا" و"إسبانيات" تظهر بشكل دائم، كما أن الملوك الكاثوليك كانوا يلقبون بملوك إسبانيا بغض النظر عن المسميات الرسمية التي يحظون بها.

نذهب إلى أبعد من هذا من خلال ما نجده في بداية الفصل الخامس والستين CXXVI من الحولية، حيث يتم فيها شرح بداية حرب غرناطة عام ١٤٨٤م "بعد أن حكم الملك والملكة بفضل الله كلا من مملكة قشتالة وليون، وعلى وعي كامل **بأنه لا يمكن خوض أي حرب إلا من أجل الدين والأمن** وقر في ذهنهم بشكل دائم الرغبة الكبرى في غزو مملكة غرناطة، **وأن يبعدوا من جميع الإسبانيات حكم المورو** واسم محمد. غير أن المهمة كانت صعبة، وكانوا مشغولين في الحرب التي خاضوها ضد ملك البرتغال وفي تنظيم الأمور داخل قشتالة وبالتالي لم يكن من المستطاع الوفاء بها يفكرون فيه، وطبقا لما ورد في الجزء الثاني من هذه الحولية فإنهم أجلوا الدخول ضد المورو لعدة أعوام".

سوف تكون مهمة غرناطة "قشتالية" وهذا ما أرادته وخططت له كل من إيزابيل وفرناندو اللذان كانا يحكمان **قشتالة وليون**، لكن الأمر يتمثل في طرد المورو والإسلام من جميع **أنحاء إسبانيات**. إنها إذن مهمة قشتالة **الإسبانية** وهي مهمة تذهب إلى ما هو أبعد من مصالحها الخاصة خلال العصور الوسطى، وتبدأ على الفور في استشراف تحولها القومي. وعلى هذا، وفي إشارة جانبية، فإن ما جعل قشتالة قشتالة هو الولاء لمشروعها الأصلي، أي في عدم النظر إلى الأمر كأنها "أرض" بل عبارة عن "موقف" وإرادة تكامل.

وبعد ذلك بعدة أعوام ١٤٨٩م – أي عندما كان قد بقي أكثر من عامين بقليل على الاستسلام النهائي لغرناطة نجد السلطان "سولدان العظيم" يرسل سفارة إلى البابا حتى يقوم هذا الأخير بطلب وقف الحرب من قبل الملوك الكاثوليك. وأرسل البابا سفارته مع مبعوث خاص به وذلك حتى يرسلوا له بالرّد مع هذين الراهبين. وطبقا لما ورد في الفصل CCXLI من الحولية أنه "بعد أن استقبل الملك والملكة مبعوث البابا والخطاب

والسفارة التي أرسلها إليها "سولدان العظيم" قاما بالرّد على البابا بأن قداسته يعرف جيدا، ومن المعروف لدى الدنيا كلها أن الإسبانيات في الزمن القديم كان لها حكامها الذين تولوا أمرها progenitores، وإذا ما كان المورو يحكمون الآن إسبانيا تلك الأرض الخاصة بمملكة غرناطة، فإن ذلك الوضع كان اعتداء ولم يكن قانونيا وأنه لكي يتم رأب صدع هذا التعدي فإن عاهلي قشتالة وليون المجاورين لهذه المملكة كانا يستهدفان دائما استعادة سيطرتها وإعادة الحال إلى ما كان عليه سابقا".

هناك مشهد آخر سجله فرناندو دل بولجار في الفصل CXIX من حوليته وهو مشهد يلقي المزيد من الضوء على المشوار الذي أقوم بدراسته ألا وهو أسبنة قشتالة، ومنظورها القومي في إطار أملاكها دون التدخل في شئون التاج الأرغني، غير أن عينيها مصوبتان نحو مصالحها ومشاريعها التاريخية. وفي عام ١٤٨١، حيث أصبح فرناندو ملكا لأرغن، وصلت للتو أخبار عن أن "التركي" كان يقوم بإعداد أسطول قوي لمهاجمة صقلية – التي كان فرناندو عاهلها قبل زواجه بإيزابيل. اتفق الملوك الكاثوليك "على إعداد أسطول لدعم الملك السيد فرناندو سيد نابولي، والدفاع عن مملكة قشتالة". وأرسلوا هؤلاء المسئولين عن "الجماعات الأخوية" ليطوفوا بكل من "بيثكايا وجيبوثكوا والمناطق الجبلية" في سبيل إعداد ذلك الأسطول. وفي برغش اجتمع المسئولون عن البلدات الواقعة في إطار المدن الحرة behetrias، وهي بلدات لا تقدم بحّارة بل نقودا. وذهب المفوضون إلى بيثكايا وجيبوثكوا "وقاموا بجمع الفرسان وتابعيهم والمندوبين من جميع البلدات والأماكن في تلك الأراضي. وأبلغوهم كيف أن الملك والملكة أمرا بتجهيز أسطول لحرب الأتراك والدفاع عن مملكة صقلية، والتي كان التركي يريد غزوها، كما أن الهدف كذلك هو أن يتمكن ملك نابولي من استرداد مدينة أوترانتو Otranto التي غزاها الأتراك".

وما سنورده يتسم بأنه أكثر أهمية مما سبق فقد قال المندوبون لأهل كل من بيثكايا وجيبوثكوا إنهم "أناس على معرفة بفن الإبحار وهم أناس معروفون ببأسهم في المعارك

البحرية ولهم سفنهم وتجهيزاتها وهم بذلك الدعامات الرئيسية، في هذه المجالات الثلاثة، في الحرب البحرية. وأنهم أكثر تأهيلا مقارنة بأي أمة في العالم". وذكروهم أنه إذا ما كانوا قد انتصروا في حروبهم على إنجلترا وغيرها من الأمم فإن "أغلبهم يجب أن يقوم بذلك في هذه المعركة ذلك أنها لخدمة الله والملك والملكة ودفاع عام عن المسيحية جمعاء وإعلاء لشأن ديننا الكاثوليكي" ويواصل فرناندو بولجار: "إن سكان هذه الأراضي هم أناس يتشككون كثيرا فيما يقال" ويضعون العراقيل في مسائل تتعلق بالأجور المقدمة، ويقولون "إن ذلك ضد المزايا التي يتمتعون بها وضد حرياتهم الكبرى وأن أهل تلك الأرض يتمتعون بمزايا قدمها لهم ملوك إسبانيا السابقون على الملك والملكة".

كان الهرج والمرج كبيرين لدرجة أن عرّضت حياة المندوبين للخطر، وقام هؤلاء "بكلمات معسولة" بشرح الموقف وأنهم لم يأتوا "ليقضوا علي ما لديهم من مزايا" بل جاءوا من أجل الحفاظ عليها بشكل أفضل، وأن عليهم أن يتقدموا لله شاكرين على ما حباهم به من أمر عظيم، وأنهم مجبرون على فعله" طالما كانت معرفتهم قوية بفن الإبحار وطالما كان لهم بأس في المعارك البحرية". وقدموا لهم نموذج الإنجليزي والبرتغاليين: "إذا ما تمكنتم من تحمل هذا العناء مثلما فعل البرتغاليون بشرف في ذهابهم في هذه المهمة المقدسة، فأنتم معشر القشتاليين أكثر عددا وأكثر بأسا وأكثر خبرة في فن الإبحار، ومع هذا إذا ما قررتم البقاء في بيوتكم فابقوا أيها السادة ومبارك لكم هذا". "وبسوق هذه الحجج الأخرى هبت البلدان على قدم رجل واحد وصمت شكهم فجأة وتحول إلى كبرياء وتحولت ذرائعهم إلى عمل متسارع. وأصدروا أوامرهم بتجهيز الأسطول. وقد تم تجهيز خمسين مركبا في محافظتي بيثكايا وجيبوثوكوا.... واجتمعت مع الأسطول في كل من جليقية وإقليم الأندلس الذي وصل إلى عشرين مركبا بمعنى أن بلغ إجمالي الأسطول سبعين سفينة".

تحرك القشتاليون لإنقاذ صقلية المملكة التابعة للتاج الأرغني، وتحرك معهم كل أهل المقاطعات البحرية في المملكة من الباسك والجليقيين وأهل إقليم الأندلس، ونرى كيف أن

الباسك غير الواثقين والمتمردين والغيورين على مزاياهم وحرياتهم يقاومون، ثم يتولى المندوبون إقناعهم بالثناء على مزاياهم ومهاراتهم وقدراتهم ويقارنوهم بغيرهم ويؤكدون لهم أن الأمر ليس ضد حرياتهم ويستثيرون فيهم أنهم **قشتاليون**. ليس هناك إلا القليل من النصوص، مثل هذا الذي عرضناه لتبيان الوظيفة الفعلية للأجزاء المختلفة لمملكة قشتالة في هذه المرحلة التي تمثل الأسبنة الكاملة والحاسمة لها، أي عندما تتبنى جميع مهام إسبانيا التي كانت مفقودة قبل ذلك ثم نهضت من جديد وتجعلها جزءا من مهامها.

الأمة والأمم:

كانت "أسبنة" قشتالة أول خطوة نحو التحول إلى قومية nacionalización، ونحو الإبداع واكتشاف هذا الشكل الجديد من المعايشة التاريخية، ونحو المجتمع والدولة التي ستصبح **الأمة** لم تكن هناك أمم في العصور القديمة أو العصور الوسطى، بل كانت هناك أمور أخرى – ابتداء من الأحجام الصغرى وانتهاء بالأحجام الضخمة، ابتداء بالمدن اليونانية وانتهاء بالإمبراطورية الرومانية، وابتداء بممالك الطوائف وانتهاء بالخلافة في الشرق أو الخلافة في قرطبة. كما لا يوجد هذا في قارات أخرى اللهم إلا إذا تم النظر إلى تلك الوحدات الاجتماعية التي تستلم نموذج الأمم الأوربية الحديثة. غير أن هذه القومية nacionalización التي أتحدث عنها لم تكن أمة قشتالة – التي لم تكن أمة أبدا مثلها في هذا مثل أي مملكة في شبه جزيرة أيبيريا وكذلك الأمر في أجزائها – بل كانت أمة إسبانيا. وهنا فإن ارتباط هذه الممالك بالمشروع الأصلي، هو الذي سيجعل من تكوين الأمة الإسبانية أمرا ممكنا، ودون ذلك فإن زواج الملوك الكاثوليك لم يكن ليتجاوز هذا النوع من الوحدة بين مملكتين مثله في هذا مثل غيره من الزيجات.

لم تكن هناك أمة أخرى قبل إسبانيا، وقد بدأت عملية التحول إلى أمة- خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر في الدول الواقعة في غرب أوربا. نجد أن الأمر في البرتغال، التي تتسم بصغر الحجم والتجانس، يشير مبكرا، لكن يغيب العنصر الحاسم

الخاص بعمليات الانضمام. وفي إنجلترا هناك الطابع الخاص بها كجزيرة الذي يجبذ الخطوات نحو الأمة لكن ما تحول إلى أمة هي إنجلترا بالمعنى الحرفي للكلمة، وهي England ولم تكن "بريطانيا العظمى" بأي حال من الأحوال، حيث لن تكون لها صفة الأمة إلا في نهاية القرن السابع عشر. ولم يكن الأمر بالنسبة لأسكتلندا شديدة الاختلاف والمستقلة، أو حتى الغال Gales التي انتسبت لفترة طويلة إلى الأمة، وكانت علاقاتها بلندن متباعدة وضعيفة. أما بالنسبة لفرنسا فإن الأمر معقد – حيث أسهم اسم France في تعقيد الأمور وهو اسم يغطي سلسلة من الواقع مختلفة فيما بينها، ابتداء مما يسمى ile de France وحتى ما يسمى royaune de F.، الذي يتسم بحدود متغيرة للغاية، حتى الوصول إلى **الأمة** *الفرنسية*. وهنا لا يجب أن ننسى أنه خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان لإنجلترا موطئ قدم في فرنسا – وأحيانا وضعت قدميها الاثنتين – وبعد ذلك نجد في الأراضي الحالية بورجونيا التي كانت شديدة الأهمية على زمن الدوقات، مثلها مثل فرنسا وبيارن Bearn والفرانكو كوندادو Franco Condado الذي سوف يكون إسبانيا بعد ذلك، ونابارّة حيث إن الجزء الفرنسي منها كان له تأثير كبير ولم ينته به الأمر إلى الانتساب إلى الأمة الفرنسية حتى عصر إنريكي الرابع. وبغض النظر عن ذلك ففي عصر لويس الحادي عشر (الذي توفي عام ١٤٨٣م) لا يمكن الحديث عن أمة فرنسية التي لم توجد بهذا الشكل إلا عصر لويس الثاني عشر (الذي حكم حتى عام ١٥١٥م) وأنا هنا أتحدث عن أوليات مجموعات الأمم الأوربية، ذلك أن الأخريات خرجن إلى النور بعد ذلك بوقت طويل.

غير أنه عندما نقول – وهذا حق – إن إسبانيا أول أمة أوربية، علينا أن نُدخل تعديلًا على الفور ألا وهو أن لفظة "أمة" لا توجد في صيغتها المفردة. فالجمع، الأمم، يعني وجود علاقات بينها، علاقات بين **أجانب وسياق** توجد فيه. ولهذا لم توجد أمم في العصور الوسطى لأن المسيحية لم تكن تحديدا سياقا اجتماعيا ولم تكن هناك علاقات أجانب بين الممالك في العصور الوسطى أو بين وحداتها الصغرى، وربما كان ذلك

موجودا بين المجتمعات التي تحولت بعد ذلك إلى الأمم التي يطلق عليها إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا... ويحدث الشيء نفسه بالنسبة لكلمة "أمة" على شاكلة ما حدث بالنسبة لكلمة "أخ": أي أنها تعني آخرين وما حدث هو أن الأهمية أو الأخوية قد تأثرتا سلبا منذ أن كان هناك فرد: لنقل إنه "الابن البكري" رغم أنه "الابن الوحيد" ذلك أن الابن الأول يسبق آخرين سيكونون إخوة له – الأمم هي تنويعة مما هو إنساني وتحديدا مما هو أوربي: إنها مكونة من أوربا أي من هذا القاسم المشترك، ولهذا فإن كل أمة تحاول أن تكون الأفضل: هناك عنصر جوهري يتمثل في التنافس الأخوي والكفاح من أجل الوصول إلى الصورة التي يحتذي بها (وهذا ما نفتقده الآن). وسوف يكون من المهم القيام بدراسة دقيقة كتأثير الأمة الإسبانية **الوليدة** في إطار مشاريع الأمم الأخرى في تحولها إلى هذه الصفة، والتي ربما أخذت تتعلم من حيث كونها أمة. اتخذت الدبلوماسية طابعا جديدا مختلفا عن السفارات التي أحيانا ما كان يبعث بها الملوك إلى آخرين. فلأول مرة هناك تمثيل لأمم أمام أمم أخرى.

كان شوبنهور(٣٧) يقول "كل أمة تسخر من الأخريات وكلهن على حق". هذه لمحة عبقرية، فالأمم هي حصاد عملية "ولادة متعددة" لكنها ليست ولادة متزامنة في وقت واحد بل متعاقبة ذلك أن رحم التاريخ ليس رحما بيولوجيا، فالأمم لا تولد دفعة واحدة. ولو كان هناك تاريخ إسلامي لأوربا لألقى الكثير من الضوء على كل واحدة من الأمم وتفاعلها، ويمكن أن تُرى على أنها "طبقات" مختلفة تُدْخِل في الإطار العام ما يمكن أن يطلق عليه "اختلاف الاحتمالية" وهذا العنصر لم يكن ليوجد إذا ما كانت حالات الولادة متزامنة في وقت واحد. ولا يجب أن ننسى أن مشوار التحول إلى أمة قد اتسم بالبطء وأنه على مراحل وليس هذا فقط بل هناك بعض أجزاء أوربا لم يبلغ ذلك الأمر ولم تكن أبدا أمما حقيقية. وربما مرت المرحلة التاريخية التي جعلت من ذلك ممكنا ولا يمكن العمل على

---

(37) Aphorismen Zur Lebensweisheit الفصل الرابع.

تكوين أمم جيدة بل من الضروري الانتقال من الأمم الموجودة إلى أشكال أخرى للمجتمع. فإذا ما تم النظر إلى الحاضر من هذا المنظور، يمكن أن نفهم في آن معا غيبة المدلول التاريخي لبعض التوجهات الأخيرة للتحول إلى أمة، وعدم جدوى الجهود الاقتصادية حصريا لإيجاد اتحاد أوربي، أي المفاهيم الداخلية القديمة التي تكمن في الكثير من المفاهيم التي تحاول أن تكتسب صفة المعاصرة.

اختراع الأمة الإسبانية:

كان وضع مملكة قشتالة وأرغن مؤسفًا عشية الوحدة الوطنية، وأحد هذه العوامل كان - قلة عدد السكان - كان يلزم مرور الكثير من الوقت للتفكير في أنه من الملائم إنتاج الكثير من كل شيء ما عدا الأفراد، وهناك تفوق فرنسا خلال العصور الوسطى، والذي تم الحفاظ على أغلبه بعد ذلك نظرا لزيادة تعداد السكان وأن سكانها يزيدون كثيرا عن متوسط السكان في أوربا. هناك أيضًا الأوبئة التي اتسمت بكثرتها وقوتها التدميرية مما أدى إلى فرملة النمو أو فرض عراقيل أمام التقدم. وفي هذا المقام نجد أن أرغن ظلت مزدهرة حتى نهاية القرن الثالث عشر، وخلال العقود الأولى من القرن الرابع عشر، لكنها عاشت حالة انحطاط خلال النصف الثاني من القرن الأخير. وقد أثر الانحطاط الاقتصادي والثقافي والسياسي على قطالونيا خلال القرن الرابع عشر بينما يوجد ازدهار واضح للعيان في بلنسية وتوافق معه ازدهار أدبي، هناك جوانرث مارتوريل وأوسياس مارك، وجوردي دي سان جوردي، وجاوحي رويح. هناك الصراعات بين القطلان والملك خوان الثاني، وهي صراعات ظلت حامية الوطيس وممتدة. في قشتالة نجد أن الموقف ليس أفضل، وكان ذلك على أيام إنريكي الرابع، وكان محبطا للمعنويات العامة بكل ما تعنيه الكلمة، فلا شيء يُحترم أو يبدو أنه محترما، هناك سلبية ونزق - أشعار البروفنسيال، آه أيتها الخبازة، أو قصائد الهجاء. لم يكن هناك حل للموقف في أرغن أو قشتالة، ولو كان لفكر فيه أي قشتالي أو أرغني ذكي.

كيف حدث إذن أن أصبحت إسبانيا بعد عقود قليلة القوة الأولى في أوربا وبالتالي في العالم؟

هل كان هؤلاء الأرغنيون والقشتاليون مخطئون؟ بالطبع لا، كانوا على حق: لم يكن هناك حل قشتالي أو حل أرغني، بل كان هناك **الحل الإسباني** لكلتا المملكتين. وهنا فإن التحديد الراديكالي، أي الانضمام الأخير الذي اتسم بأنه خلاق، والذي كان رمزه نبات الشمرة التي كان يطلق عليه في أرغن finojo (بفاء فرناندو) وفي قشتالة hinojo الذي عادة ما كان يكتب بحرف Y، أي هكذا Ynojo (أي حرف Y لإيزابيل Ysabel وهو الاستخدام الأولى الشائع) كان هذا النبات يرمز إلى اسمي فرناندو وإيزابيل الكاثوليكيين.

وصل الأمر بفرناندو دل بولجار إلى القول إن "الملك والملكة ولدا طفلة" وهذه فرحة تبين الثنائية الدائمة في جميع المواقف الملكية. غير أن ما أنجبه كل من الملك والملكة معا كان واقعا جديدا هو الأمة الإسبانية. وابتداء من ذلك الحين لن تكون هناك سلطة أخرى غير السلطة الملكية بمعنى سلطة الدولة. ولن يكون هناك جيش آخر إلا الجيش الملكي أي الجيش الوطني، وسوف يتم تنفيذ الدفاع عن صقلية وسوف تتم مواصلة عملية استرداد غرناطة ومواصلة حملات جونثالو دي قرطبة، وهو الجنرال القشتالي، للدفاع عن الأراضي الإيطالية ومواصلة حملات جونثالو دي قرطبة، وهو الجنرال القشتالي، للدفاع عن الأراضي الإيطالية التابعة للتاج الأرغني والتي هددتها فرنسا. هناك الأمن من خلال جماعات الأخوة، وهناك الوحدة الدينية التي كانت المطلب الحديث لمواجهة التعددية خلال العصور الوسطى، والتي تم التوصل إليها جزئيا ولكن بثمن مرتفع للغاية على يد محاكم التفتيش، هناك انتشار للغة القشتالية التي سرعان ما تحولت إلى الإسبانية. هذه كلها ملامح لتكوين واقع من نمطية مختلفة عن نمطية العصور الوسطى وقد أخذ هذا الوضع يتبدى ويتشكل تحت البنى القديمة التي كانت تقاوم الزوال. إنها مهمة جديدة التي تجذب جميع شعوب إسبانيا نحو شيء جرى البحث عنه دوما ولم يتم قبل ذلك التوصل إليه بشكل حقيقي.

ربما أمكن أن نرى ذلك بوضوح من خلال موقف أنطونيو دي نبريخا (١٤٤١ - ١٥٢٢م) ففي الإهداء الذي أورده في "قاموسه" اللاتيني الإسباني ووجهه إلى السيد خوان دي إستونيجا (١٤٩٢) يتحدث بفخار عن تعليمه القواعد في "إستود سلمنقة، المكان الأكثر رفعة في إسبانيا وبالتالي الأرفع في الجوار جميعًا"، إنه يتحدث عن إسبانيا مرات ومرات ويذكر قرطبة ونهر الوادي الكبير وأستورياس وأرغن وسيجورلي وطرّكونة وكلها على قدم وساق. ثم يقول نبريخا بوضوح وقوة في مقدمته لكتاب "القواعد القشتالية" متوجها إلى الملكة إيزابيل الكاثوليكية "إنها الملكة والسيدة الطبيعية لإسبانيا والجزر الكائنة في بحرنا" (أغسطس عام ١٤٩٢م، أي قبل اكتشاف أمريكا:" (اللغة القشتالية) امتدت بعد ذلك إلى أرغن ونابارّة ومن هناك إلى إيطاليا وسارت برفقة الأمراء الذين نرسلهم للحكم في تلك الممالك. وهكذا نمت حتى أصبحت مملكة وسلاما ننعم به جميعا بفضل العناية الإلهية، وتمت كذلك بفضل الصناعة والعمل وألمعية جلالتك. إنه حسن الحظ والطالع الذي ينعم به **الأعضاء وأجزاء إسبانيا الذين كانوا موزعي الشتات لكنهم اجتمعوا وأصبحوا جسدا واحدا ومملكة موحدة. وأصبح الأمر شديد الاستنباط بعروة وثقى تمتد إلى قرون عديدة ولن ينال منها الكيد أو الزمان"**.

تولد طريقة جديدة للعيش ومجتمع جديد ومفهوم جديد لـ "نحن"، فلم يعد الأمر متعلقا "بنا معشر القشتاليين"، أو بنا "معشر الأرغنيين" (والأقل من هذا نحن "معشر القشتاليين القدامى" أو "معشر الأندلسيين" أو "معشر القطلان"). سوف يكون "نحن معشر الإسبان" ويدخل ذلك في "نحن" الذي يضم الجميع.

لكن يجب أن نلاحظ أن نبريخا يتحدث عن "أعضاء وأجزاء إسبانيا التي كانت مبعثرة في أماكن كثيرة". تظهر إسبانيا كوحدة سابقا، تكسرت ثم أخذت تستعيد وحدتها، إنها إسبانيا المفقودة، التي عادت لتتحد وتجد نفسها. لكن سوف نرى أن ذلك الـ "نحن" الجديد قد خطا أول خطواته.

الفصل الرابع عشر

إسبانيا في أوربا الحديثة

إسبانيا كمحفّز Catalizador:

عادة ما تؤدي قراءة ما كتبه المؤرخون الأوربيون عن العصور الوسطى إلى انطباع بعدم الرضا، فهم يأتون بالكثير من البيانات والمعلومات، ويأتون في الآونة الأخيرة بالإحصاءات، لكن نادرا ما يسمحون **بالفهم**، ولا يهدفون لهذا دائما. كما أن الأغلبية العظمى منهم ترصد الزيادة الكبيرة في قوة إسبانيا خلال القرن السادس عشر، وهذا لا مناص منه، إضافة إلى جزء من القرن السابع عشر، ومع هذا يمكن أن يستشف من عرضهم **أنه لم يكن من الممكن أن يكون**. وهنا ألا يفقد القارئ أثر الفصل الأول من هذا الكتاب بعنوان "افتراض" النشاز المفترض لإسبانيا" ذلك أن تلك الفرضيات التي طرحتها كانت عنصرا فاعلا في الصورة التي تكونت عند أوربا عن إسبانيا (وعن إجمالي مكوناتها). من المثير للاستغراب أن نجد الكتب التي تدرس "رجحان كفة إسبانيا"! أو "سيطرتها" تتضمن من البداية عناصر سلبية يمكن **أن تجعل من هذا الرجحان أمرا مستحيلا**، فهناك الفقر وقلة عدد السكان والكسل وكبرياء النبلاء أو الميل للفروسية والتعصب الديني والقضاء على السكان الوحيدين من المهرة والفنيين (اليهود والموريسكيين). وإذا ما كان الأمر كذلك، فكيف تمكنت إسبانيا في غضون عقود قليلة أن

تتحول إلى القوة الأولى في أوربا وتسيطر فعلا على قطاع كبير من أوربا؟ كيف تقوم بالاكتشاف والاستكشاف والغزو والإعمار والتنظيم وأن تضم إلى مملكتها قطاعا كبيرا من عالم كان مجهولا حتى ذلك الحين؟

عندما يتوفر لدى أوربا **الحديثة** الوعي بحداثتها تعتبر إسبانيا وكأنها شيء "بعيد" وبالتالي فهي شيء متخلف. وابتداء من القرن الثامن عشر تم النظر إلى إسبانيا على أنها بقاء لشيء – ما زال قويا آنذاك – لا يبدو أنه "عصري بالكامل". أي أن إسبانيا تُرى على أنها شيء ينسب إلى "ما قبل الحداثة"، وأنها "خارج السياق الأوربي" قياسًا على الدرجة التي تعتبر أوربا فيها نفسها حديثة، مع تناسي خطير لواقعها. وأحيانا ما يتم النظر إليها على أنها جسد غريب موجود في ذلك المكان دون معرفة سبب وجوده على الأرض الأوربية ولا تدري ما الذي يمكن العمل حياله. وهنا فإن فولتير يعتبر نموذجا جيدا يعبر عن هذا الموقف، غير أن مونتسكيو ليس عنه ببعيد رغم ما عليه من عظمة الحسّ المسئول. كما يمكن قول شيء من هذا القبيل بالنسبة للمؤرخين الإنجليز.

تلقى الإسبان هذا الموقف واتخذوه دون نقد يذكر. وعندما كان هناك انتقاد له فإنه كان ضئيلا، وهذا فيه تناقض، كما أنه أسهم في إضافة خطأ آخر ذي طابع معاكس، وهنا يمكن ذكر فورنر Forner. فلا يمكن فهم شيء من هذا اللهم إلا إذا كان هناك عنصر حاضر ويكاد يكون حاسمًا بشكل دائم: إنه الجهل. من المريح اختصار تحليل شخصية أو هيئة أو عصر كامل في **لمحة ذكاء**، أو من خلال مقولة ساخرة "لحظة طيبة"، وعندما يقوم الإسباني بضربة واحدة ويجرد من الأهلية شيئا أو فردا فإنه يشعر بالسعادة. أي سعادة التدمير إذ من خلال ذلك يوفر على نفسه أن يضع ذلك في الحسبان لاحقا. إنه يصدر "حكمه عليه" بجملة واحدة، ثم يمضي. ومن أمثلة ذلك مجموعة ملوك إسبانيا الحديثة، إذ نجد أن الأغلب الأعم من الإسبان "المثقفين" يضع لكل واحد من الملوك عبارة لا تكاد تصل إلى عشر كلمات، وهي عبارة سلبية في الأعم الأغلب وكفى الله المؤمنين شر

القتال. وإذا ما سئلوا، أي هؤلاء المثقفين، عما يعرفونه عن هؤلاء الملوك سوف يرى أنهم لا يعرفون إلا هذه العبارة ولا شيء أكثر. ومن جهة أخرى فإن معرفتهم بباقي الأمم الأوربية تنحصر في الواجهة الرسمية وفي الصورة التقليدية والجذابة، كم من هؤلاء يظن أن الحروب الأهلية كانت في هذه الدول – فرنسا وإيطاليا وإنجلترا والدول السلافية – أكثر شيوعا بدرجة لا تقارن وكانت أطول وأقسى مما كان في إسبانيا؟ من يربط صورة الحرب الأهلية أو المطاردة الدينية بفرنسا أو إنجلترا؟

والأخطر مما سبق هو أن هذه البلاد تُرَى على أنها أمم قابلة للمقارنة بإسبانيا وعند البعض أفضل منها. هل هو هذا؟ عندما أصبحت إسبانيا أمة بالمعنى الحديث للكلمة كانت فرنسا وإنجلترا بعيدتين عن بلوغ الوحدة وعن بلوغ شكل الدولة التي ترتبط بالأمة. فقد أخذ ملوك فرنسا رويدا رويدا وبشكل تعتوره صعوبات جمة في تأكيد سلطانهم على الأرض التي نطلق اليوم عليها فرنسا وأنها كانت حتى وقت متقدم من القرن الخامس عشر تحت السيطرة الإنجليزية في أغلب أجزائها، وقد احتفظ الإنجليز بكاليه Calais حتى منتصف القرن السادس عشر. أضف إلى ذلك هناك بورجونيا التي تمثل قوة مهمة للغاية وكانت مناوئا لفرنسا، ووصل بها الأمر إلى أن تكون الأقوى في بعض الحالات ولم تنضم إلى المملكة أو كان ذلك بشكل جزئي بمعنى انضمام "الدوقية الأصلية" عام ١٤٨٢م أي في نهاية حكم لويس الحادي عشر. وقبل ذلك بعام كان قد تمت إضافة مقاطعة بروفنسا. وبعد ذلك، أي خلال حكم كارلوس السابع، جاء الدور على إقليم بريطانيا مع ما صحب ذلك من العثرات ولم يكتمل هذا بشكل جيد إلا في عصر فرانثيسكو الأول. وإذا ما أردنا المزيد من التحديد لأمكن القول إن وحدة فرنسا لم تكتمل إلا قبل وقت قصير على وفاة إنريك الرابع (١٦١٠م) لدرجة وجود بعض الاستثناءات التي تخرج عن السيطرة الملكية، أي حتى السنوات الأولى من حكم فيليبي الثالث في إسبانيا.

وبالنسبة لإنجلترا نجد أنها تقضي القرن الخامس عشر في صراعات داخلية مستمرة وانتهت بالحرب طويلة الأمد المسماة حرب "الوردتين" Las dos Rosas (يورك ولانكستر). ولم تتمكن إنجلترا من دعم السلطة الملكية والبدء في العمل إلا في عهد آل تودور Tudor ابتداء من إنريك السابع، بمعنى ابتداء من عام ١٤٨٥م، وتصبح بذلك أمة حديثة. لكن ذلك كان البدء فأمر يتعلق بإنجلترا بالمعنى المحدد Englend، أما بلاد De Gales فقد قام الإنجليز بغزوها ووجدوا صعوبات جمة وحالات تمرد مستمرة، ولم يصل الأمر إلى وجود علاقات طبيعية مع إنجلترا إلا في عام ١٤٨٥م، وكان عليها أن تظل على هذا الحال حتى ١٥٤٢م حيث انضمت بشكل نهائي إلى المملكة. ومن الطبيعي أن تكون اسكتلندا مختلفة ومستقلة طوال فترة أطول، ففي عام ١٦٠٣م فقط أصبح ملك إسكتلندا ملك إنجلترا أيضا، وكان أول ملك لبريطانيا العظمى هو كارلوس الأول عام ١٦٢٥م.

لا نريد الحديث عن كل من إيطاليا وألمانيا اللتين كانتا مفككتين طوال قرون وظلتا كذلك حتى عام ١٨٧٠م، ولا نريد أن نتحدث عن الأعداد الغفيرة من الممالك والإمارات أو الدوقيات أو الجمهوريات الصغرى. الشيء الوحيد هو أن البرتغال أصبحت أمة في موقف مبكر – وهذا يفسر سرّ توسعها السريع، في تواز مع إسبانيا، خلال القرن الخامس عشر، غير أن حجمها الصغير وتجانسها (ليست خلاصة سلسلة من الانضمامات) تفرض عليها مسارها لاحقا وكذا تأثيرها في أوربا.

ما يهمني هنا هو تبيان أن إسبانيا هي العنصر الذي يستحث مشوار التحول إلى أمة وكذا الحداثة بالنسبة لباقي أوربا، ولهذا فإنني أتحدث عن الوظيفة التحفيزية لهذا الدور. فوجود إسبانيا الموحدة ذات ملكية تمارس دورها الفعلي بالكامل خلافا لما عليه الحال في ممالك العصور الوسطى حيث كان الملك شخصية تبز قليلا أقرانه من السادة الإقطاعيين. ولها جيشها الحديث بوحدة قيادته وانضباطه وتسليحه (فوحدات الجيش الإسباني المسماة Tercios كانت تتوفر على أسلحة نارية أكثر بكثير من الجيوش الأوربية)،

وإسبانيا هي مشروع تاريخي متسق يتجلى في مهام تذهب إلى ما هو أبعد من الشأن المحلي. وهذا كله يجبر البلاد الأخرى على الدخول في مواجهة مع واقع جديد، من الناحية النوعية، وذي بعد آخر. ورغم أن أغلب المؤرخين قد أسدلوا عليه الستار فإن الرؤية المتأنية سوف تؤكد أن وجود إسبانيا قد أضفى طابع السرعة على عملية تحول باقي أوربا حيث انتقلت من الأنماط التي كانت تعيش فيها خلال العصور الوسطى إلى تلك السمات التي سوف تكون سمات الحداثة. وعندي شك، لا أستطيع تأكيده في هذه اللحظات، في أن القطيعة مع موروث العصور الوسطى التي نراها بوضوح في قطاع كبير من عصر النهضة الأوربية يرجع في أحد أسبابه إلى وجود محفز خارجي قام بإدخال "عملية تحفيز" غريبة، وهذه لم تكن في إسبانيا ذلك أن الأمر كان عبارة عن مشوار داخلي. وسوف تكون هناك ميزة خاصة بإسبانيا وهي أنها لم تشهد أي نوع من القطيعة، وكذا الحفاظ على الأشكال السابقة التي تتعايش مع ما هو جديد: أي استمرار ما هو قوطي حتى وقت متقدم من القرن السادس عشر، فهناك القالب الشعري الرومانث الذي يتعايش مع القوالب الشعرية الإيطالية حتى يومنا هذا، وهناك ازدهار مواز لفلسفة علم الكلام مع التوجهات الخاصة بالدراسات الإنسانية. أي أن الأمر باختصار هو عبارة عن "الثمار المبكرة" و"الثمار المتأخرة" التي اهتم بها مننندث بيدال كثيرًا.

جرى الحديث عن إسبانيا على أنها البلد الذي "لم يعش عصر النهضة"، وأصبح هناك اتجاه يقول إن إسبانيا "لم تكن حديثة"، وأنها لم تقبل بالحداثة وأنها "بقيت في المؤخرة" بشكل دائم. يتطلب كل هذا مراجعة عميقة. ويمكن فهم الأحداث التي أدت إلى ذلك النوع من التأويلات بشكل آخر. وهنا ألا يتمثل الأمر في أن أوربا أخذت تتباعد خلال العصر الحديث عن شيء تخيلته إسبانيا وبدأت تنفيذه هي أولا، وربما كان موجودا لدى باقي الشعوب الأوربية؟ ألا يوجد عنصر خيبة الأمل في إسبانيا القرن السابع عشر، حيث جرت "خيانة" مهمة كانت هي البادئة بها؟ هل أصبحت إسبانيا "في المؤخرة" كما يفكر فيها الكثيرون على هذا النحو، أم أنها لا تشعر بالميل للدخول في مسارات لا ترى

فيها أصالة؟ ويمكن التفكير في أنه رويدا رويدا – فليس الأمر حدثا مباغتا – ومن خلال خطوات محسوبة، أخذت إسبانيا تقول لنفسها بصوت خفيض عملا عملاقا: "ليس هذا، ليس هذا" عندما كانت تتأمل مسارات أوربا خلال القرن السابع عشر. وربما كان الخطأ التاريخي لإسبانيا قول ذلك بصوت خفيض، وفعل ذلك بالعدول عنه، أي أنها لم تقل باختصار "ليس هذا بل ذاك الآخر".

سياسة عالمية Universal:

لأول مرة منذ عصر روما نشهد سياسة عالمية ومن يقوم بها هو إسبانيا، فمنذ نهاية القرن الخامس عشر، وبشكل متزايد على مدار قرن ونصف توجد إسبانيا في كل مكان. والتقت جميع شعوب أوربا الغربية بها أو على أراضي تلك الدول أو في مهامها، وسرعان ما سيتعين توسعة هذا النظام ليشمل جزءا كبيرا من العالم المعروف آنذاك والذي ستقوم إسبانيا بالتعريف به. وإذا ما كان الأمر كذلك فمن المثير أنه في أغلب جوانب التاريخ الأوربي الحديث نجد إسبانيا تحتل مكانا صغيرا، لدرجة يبدو معها أن ذلك حالة استثنائية. سوف يتوجب فهم كل هذا، ذلك أن كانت له تأثيرات لا تنكر في المسارات اللاحقة لإسبانيا وأحدث تأثيرا على مواضعها حتى اليوم.

وفي الوقت الذي نجد فيه أغلب الزيجات الملكية خلال العصور الوسطى إسبانية، فاعتبارا من حكم الملوك الكاثوليك بدأ عصر الزيجات الأجنبية، فإسبانيا التي كانت منكفئة على ذاتها ومكرِّسة جهدها من أجل مهمة استرداد نفسها والعودة إلى سابق عهدها، أخذت تغير من وضعيتها التاريخية بعد أن انتهت للتو من اكتمال وحدتها: فها هي في أوربا بقوة وحيوية لا مثيل لها في باقي البلاد. قبل ذلك حدثت عمليات "خروج" مثل تلك الحملة التي قام بها القطلانيون والأراغنة نحو الشرق في بداية القرن الخامس عشر، غير أن الأمر الأهم والأبقى هو أملاك التاج الأرغني في صقلية ونابولي. هناك أيضا الاستيلاء القشتالي على جزر الكناري. غير أن الأمر الآن هو عبارة عن الوجود الدائم

للأمة الإسبانية الجديدة في إيطاليا – في مواجهة محاولات السيطرة الفرنسية – وفي روسيون Rosellon وفي "المقاطعة الحرة" والأراضي البورجونية وميلان Milanesado وإنجلترا وشمال أفريقيا والأتراك. ولن نتحدث عن تلك الأراضي التي تنسب إلى التاج الإسباني والتي ورثها كارلوس الخامس عن جده ماكسيماليانو، وكذا ما كان لملك إسبانيا عندما تم اختياره إمبراطورا حيث كان ضالعا في جميع الشئون الألمانية وكان في تنافس دائم مع فرنسا. ولن نقول إنه منذ عام ١٥٨٠م، أي بعد انضمام البرتغال بإمبراطوريتها للمشاركة في حرب الثلاثين عاما والمشهورة بحرب مناهضة الإصلاح Contrarreforma. كما أنه قبل ذلك كان هناك وجود إسباني واضح في حوض البحر الأبيض المتوسط على رأس القوى المسيحية، وذلك لإيقاف الاندفاع التركي القوي.

وما يمكن أن نقوله في باب ما يسمى الانتقال الاجتماعي والتاريخي لإسبانيا في أوربا فهو من الناحية الكمية لا يقارن بما حدث مع أي بلد آخر، كما أنه لم ينته – وهذا مضاد لما كان معتادا – بل ظل حتى نهاية القرن الثامن عشر، غير أن هذا كان خفيف الوطأة ومن الضروري التأمل فيه لاحقا. ومن الناحية النوعية فإن التجديد لم يكن قليلا، إذ قد بدأ أسلوب جديد من الدبلوماسية والتجارة والحرب ونظام من التحالفات لم تكن معروفة خلال قرون العصور الوسطى، وتعاون الوحدات الاجتماعية الصغرى – ومن أمثلة ذلك المدن الإيطالية – مع القوى العظمى. ويمكن القول إن أسلوب العصر الحديث كان إبداعا إسبانيا في أغلب جوانبه، كما أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن إسبانيا أصبحت بعد ذلك في وضع غير مريح في إطار الأنماط الخاصة بالحداثة وهذا أمر يدعو إلى التأمل بشأن المسارات الممكنة والتي تم تنفيذها بدرجات مختلفة. وهنا يمكن القول: لماذا لا نتساءل أيضًا عن **أوربا التي أمكن أن تكون**؟ هل من البديهي أن أوربا كانت على ما يجب أن تكون ولم تكن أمامها إمكانية أخرى غير التي تحققت أو أنها ظلت أمينة على مصيرها التاريخي؟ هل كان ذلك مسارها الصحيح التي واصلت فيه سيرها؟

يمكن أن تكون عملية المقارنة بالبرتغال مفتاحا لوضوح الأمور. مما لا شك فيه أن تلك المملكة الواقعة غرب شبه جزيرة ايبريا عاشت تجربة الآخر ولكن بدرجة أقل، فقد بلغت في وقت مبكر البنية "القومية" رغم أنه تم تعديلها، مثلما ألمحت إلى ذلك سلفا، بسبب صغر أراضيها وأنها ليست حصيلة عمليات انضمام، الأمر الذي يعني زيادة درجة التجانس وغيبة التوترات الداخلية، وما يمكن أن نطلق عليه "اختلافات الاحتمالية". أضف إلى كل ما سبق فإن الموقع الجغرافي للبرتغال يعزلها عن القارة الأوربية ما عدا إسبانيا، حيث كانت البرتغال تنظر إليها بتوجس وعدم ثقة، وبالتالي كان توجهها نحو المحيط الذي هو وسيلة الاتصال مع إنجلترا أو مع فلاندس خلال العصور الوسطى. كما اتسم التوسع الرهيب الذي حققته البرتغال خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن السادس عشر بأن له طابع "العصور الوسطى" بشكل يثير الدهشة وهو طابع قريب لذلك الذي ورد في قصص كتب الفروسية، إذ إنه مختلف بشكل واضح عن السياسة الحديثة التي انتهجها فرناندو الكاثوليكي ومن خلفوه. ليس الأمر عبارة عن رؤية شاملة لأوربا ونظام سلطاتها أو أنه عبارة عن سياسة يونفرسال على شكل لعبة شطرنج ذات مدى طويل بل هو عبارة عن سلسلة مغامرات تنتهي إلى "القصر الكبير" والسباستيانية بعد ذلك Sebastianismo.

لم تكن هذه العناصر بمبعد عن إسبانيا وخاصة فيما يتعلق باستكشاف العالم الجديد وغزوه، ومع هذا فإن الاختلافات عميقة في هذا المقام بين الحركتين التوسعيتين لكل من إسبانيا والبرتغال. وكان لهذا تأثيره على مشوار استقلال الشعوب الأمريكية وعلى حياتها لاحقا وظل ذلك حتى اليوم. لكن يجب ألا يُنْسىَ أن وجود بعض سمات "العصور الوسطى" في العملية الاستعمارية الإسبانية سوف يكون واحدا من المفاتيح لفهم العملية التاريخية المتعلقة بانضمام أمريكا إلى العالم الغربي.

إن السمة التي عليها الأمة الإسبانية، والتي أبدعها الملوك الكاثوليك تتمثل في الرؤية الشاملة وتوسيع الأفق، الأمر الذي يحمل معه بعض مبادئ الحكم التي سوف

تتجلى على مدار عدة قرون رغم أنها قد تعرضت للعدوان من الناحية الإنسانية. وهنا ينبغي تذكر العبارة التي قالها فرناندو دل بولجار والتي ذكرتها في الفصل السابق "الملك والملكة.... كانا على وعي بأنه لا يمكن خوض حرب إلا في سبيل الدين أو من أجل الأمن..." أي أن الدين والأمن هما الأسباب الوحيدة المشروعة للحرب. ألا يعني هذا الذهاب إلى ما هو أبعد من أي أمبريقية، وما هو أبعد من أي برجماتية من أجل أن يتم إدخال مطلب التبرير في الحياة العامة؟ يمكننا أن نضع هذه العبارة في سياق متسق ومرتبط بإيزابيل الكاثوليكية، ألا وهو الذي أورده بلتزار كاستيجليوني B. Castiglione في الكتاب الثالث من "El Cortesanó" على مدار صفحتين كاملتين تنتهيان بهذه العبارات: "يؤكد كل هؤلاء الذين عرفوها أنهم وجدوا فيها طريقة محمودة للغاية في الحكم، لدرجة كان يبدو معها أن إرادتها كانت كافية لتكون أمرا، ذلك أن كل واحد كان يقوم بواجبه في صمت ولم يكن هناك أحد في حضرتها يمكن له، ولو بشكل سري، أن يفعل شيئا يمكن أن يسبب كدرها... وبهذا فإن جميع الشعوب أولتها طاعة قصوى مختلطة بالحب والخوف وهذا أمر كان متملكا من القلوب لدرجة أنهم يكادون يصدقون أنها تنظر إليهم من علياء السماء، ومن هناك تمدحهم أو تذمهم بما فعلوه من خير أو شر. وعلى هذا فمن خلال اسمها والقوانين التي وضعتها يتم حكم تلك الممالك لدرجة أنه لو فارقتها الحياة فإن سلطانها باق وكأنه عجلة تم تحريكها وظلت تدور لفترة طويلة حيث تعود هي إلى وضعها رغم أن لا أحد يقوم بتحريكها أكثر من ذلك".

لا يمكن أن يكون هناك وصف أفضل من ذلك للسلطة خلافا لمجرد وجود السلطان Poder، وأنها تمارس قوتها عن بعد ودون جهد، من خلال الإعجاب والصيت والقواعد الداخلية الواجب اتباعها وعيشها. ربما كانت هذه هي الطريقة التي عليها أوربا.

المشروع المسيحي:

عند الحديث عن الملوك الكاثوليك، عادة ما يطرأ على الذهن مناهضة الإصلاح، والصراع ضد البروتستانت، ويتوافق ذلك العنوان مع قطاع من المسيحيين. وكأنه "انقسام"، في مواجهة مسيحيين آخرين دون التوقف لبرهة بالنظر إلى أن ذلك قام بمنحه أليخاندرو السادس عام ١٤٩٤م عندما كان لوتيرو يبلغ من العمر أحد عشر عاما، وكان مرتبطا بالتالي بالمفهوم **الكاثوليكي**، اليونفرسال وبالمسيحية التي بدأت إسبانيا في نشرها في كل من أفريقيا وأمريكا.

كانت الدول الأوربية الأخرى مسيحية، لكن لم تكن ترى في ذلك كينونتها وتكوينها التاريخي، وقد شهدنا أن الحافز الذي كان وراء إسبانيا العصور الوسطى تمثل في قرار استعادة كيانها كمسيحية وإزالة السيطرة الإسلامية. وعندما تمت آخر عملية انضمام كبرى وتم إنشاء الأمة الإسبانية، توافق ذلك مع بدء مفهوم جديد للدولة والسلطة الملكية والمجتمع والانخراط في أوربا، أي أن ذلك توافق أيضًا مع بداية العصر الحديث، وهنا فإن إسبانيا لم تفقد هويتها المبرمجة ولم تتخلص مما كان جزءا من هويتها وكان موتور تكوّنها التاريخي.

يجب أن يُفهم التاريخ الإسباني على ضوء هذه الملامح البنيوية خلال القرن السادس عشر وما تلا ذلك. وقد درس مننדث بيدال في كتابه **الفكرة الإمبراطورية لكارلوس الخامس** أصول ومضمون أفكاره عن الإمبراطورية بكل دقة وذكاء سواء من حيث قدمها بشكل يتجاوز ما هو معهود عنها أو من حيث المحتوى الذي يختلف عن المحتوى المقبول عادة. قدم كارلوس الأول إلى إسبانيا وكان عمره سبعة عشر عاما، أي عام ١٥١٧م دون أن يعرف الإسبانية أو أن يعرف الكثير عن ممالكه، وقد أحاط به مستشارون من الفلامنك وخاصة كل من Chiévres, Gattinara, Mercurine من إقليم بيامونتسي الإيطالي. وعلى هذا ففي مثل هذا الموقف أصبح مرتبطا بهم تماما حيث كانوا ينوهون له بما يجب أن

يفعل ويبحثون عن مصالحهم الخاصة وذلك في واحد من الحالات الفاضحة للغاية على مدار التاريخ في باب الطموح ومحاباة الأقارب.

غير أنه سرعان ما بدأ تحول كارلوس. وهنا يشير مننددث بيدال إلى أن فكرة Gattinara تمثلت في **الملكية اليونفرسال** من خلال الحصول على الأراضي. وسرعان ما سيقابل هذا التأثير ردا من الدكتور "موتا" وهو شخصية مهمة للغاية ولم يحظ إلا بالقليل من الدراسة. كان السيد بدرو رويث دي لاموتا، قد ذهب بناء على تفاهم مع فرناندو الكاثوليكي إلى بروكسيل عام ١٥٠٨م وظل إلى جوار كارلوس طيلة أربعة عشر عاما، أي حتى عام ١٥٢٢م. كان هذا الرجل أسقف بطليوس في إسبانيا وكان هو نفسه الذي رأس بلاط شنت يقب ولاكورونيا عام ١٥٢٠م، وذلك بعد الاحتجاجات الإسبانية إزاء النية في أن يكون الرئيس فلامنكيا. أوغر موتًا للملك يسمط آخر من الحكم الإمبراطوري، أنه الإمبراطورية المسيحية، أي La universitas Christiana، وليس ذلك طموحا في الغزو وإنما نوعا من التوافق بين الأمراء المسيحيين. كان الدكتور موتا رجلا واسع الثقافة وعارف بالتاريخ ويتحدث عدة لغات وله خبرة دبلوماسية كبيرة وسفيرا لماكسميليانو في فرنسا وإنجلترا.

وقد تم إسناد خطاب افتتاح برلمان شنت يقب، إلى السيد بدرو درويث دي لاموتا في ٣١/ ٣/ ١٥٢٠م، أي قبل أن يرحل الملك كارلوس الأول إلى Aquisgrán لتتويجه إمبراطورا وإعلان اسمه الجديد كارلوس الخامس. تولى مننددث بيدال تحليل الموقف بالتفصيل[٣٨]. وهنا فإنني سوف أنقل العناصر التي تبدو لي جوهرية لفهم المشوار الذي كان على إسبانيا أن تسير فيه خلال العصر الحديث. لم يكن السيد كارلوس ملكا مثل كل الملوك، فهو ليس مجرد ابن الملوك بل حفيد ما يزيد على سبعين منهم (تنويها بالتراث القوطي) وهو ملك الملوك، وإسبانيا الدولة الرئيسية من بين دوله، وفيها سوف يحيا

---

(38) إسبانيا وتاريخها، الجزء الثاني، ص ٦٨ – ٧٤.

وسوف يموت. وفي هذا المقام يقول الدكتور موتا باسم الملك: "إنها إرادته الحازمة في أن يكون وأن يحيا في هذه الممالك لأنني أراها حصني ودفاعي وسوري(من السور) وسندي وأمني المكين من بين جميع ممالكنا ومقاطعاتنا" وعلى هذا "اتخذ قرارا بالعيش حتى الموت في هذه الممالك، ويشمل هذا القرار البقاء الآن ولاحقا طالما كنت حيا، وهكذا تعلم لغتك وتمثل عاداتك واتخذ نفس ممارساتك في الفروسية" والتي تتمثل في "التخفيف من الجوانب السيئة في ديننا" والعيش في سلام مع جميع الملوك المسيحيين والعمل ضد غير المؤمنين وهذا بفضل الله وعونه من خلال شخصه الملكي". "والآن وقد استعادت إسبانيا عظمة إسبانيا التي ظلت لسنوات طويلة مضت نائمة". واختتم الملك بقوله: "كل ما قاله لكم أسقف بطليموس قاله بناء على أوامري".

هذا البرنامج الأصلي الذي تم جزئيا، مثلما هو الحال في كل شيء إنساني، سوف يكون أمرا لا ينفصل عن التاريخ الإسباني على مدار ما يقرب من ثلاثة قرون، أي أنه خط المرجعية والذي بمقتضاه يتم الحكم على السلوك الفعلي للأشخاص وسوف يكون المعيار الخاص بالنجاح أو الفشل. وهذا يبدو لي حاسما في فهم الواقع الإسباني وخاصة في أثناء حكم الأسرة النمساوية، غير أنه مع بعض التمحيص يشمل أيضًا الأسرة البوربونية خلال القرن الثامن عشر. غير أن تداخل بعض الرؤى يحدث خللا في قراءة تاريخنا. وهذا بالتحديد هو ما يحدث من قبل بعض السياسيين والمؤرخين الأوربيين، ومن خلال تأثيرهم يسير الإسبان على هذا النهج دون أي استثناء يكاد يكون موجودا. وسوف تأتي اللحظة التي نجد فيها المسافة شاسعة بين مقاصد البعض والبعض الآخر وسوف ينشأ سوء فهم. ونادرا ما حدث ذلك الخلط الكبير المتعلق بشأن الرغبة العميقة لإسبانيا وتقدير مكاسبها وفشلها في أعين أغلبية الأوربيين وكذلك الكثير من الإسبان معهم. ولما كانت إسبانيا قد ظلت واقعًا قويًا وضخمًا فإن هذا الخلط قد أدى إلى "حالة من الخطأ" أسفرت لبس في رؤية العالم الذي كان فيه الإسبان على مدار قرن ونصف من الزمان، وامتد هذا إلى أنماط أخرى حتى يومنا هذا. لكن إذا ما تم النظر للأمور بشكل جيد فإنها

لن تكون أقل بكثير من باقي ما هو موجود لدى باقي الأوربيين، ويشمل الأمر أبعد من هذا إذ يشمل البلاد الإسبانو أمريكية منذ بداية حركات الاستقلال.

أثارت هذه الإسبانيا الغريبة الحديثة وذات القدرة الواسعة التي تبدو أنها متعددة وموجودة في كل مكان وذات النشاط المثير والتي تقوم بخدمة مشروع مسيحي الحيرة في أوربا هذه التي تمارس تأثيرها – أي إسبانيا – عليها. هناك خلطة من الإعجاب المشوب بالخوف والرقص والحماس. أما الفهم فليس بالكثير. ويرجع السبب الرئيسي في هذا إلى أن إسبانيا تدخل فجأة على المسرح الأوربي، وقد حققت تقدما أعلى من أي دولة أخرى وواثقة من نفسها وكأنها تعرف مغزى التاريخ. فمن أين خرجت؟ لدي الانطباع بأن هناك انطباعا بظهور شيء جديد مختلف وصادر عن قشتالة وأرغن اللتين تعتقدان معرفة شيء جليّ، هذا إذا ما استثنينا بعض الرجال الذين كانت لهم خبرة إسبانية طويلة (مثل بدرو مارتر دي أنجليزيا وبلتزار كاستجليوني على سبيل المثال). من الواضح أنه لم تؤخذ في الاعتبار تلك القصة الغريبة التي حاولت سردها، ألا وهي فقدان إسبانيا وعودة إسبانيا إلى بريقها المفقودة أمام أعين المسحيين الإسبان: أي صورة أسباب المسيحية التي كانت المضمون الخاص بالعصور الوسطى، وهو مضمون عبرت عنه ببلاغة لا نظير لها إيزابيل الكاثوليكية. ومع نهاية القرن الخامس عشر وجدت أوربا أن هذه الصورة قد أصبحت واقعا يستشرف جميع أنحاء القارة، أو على الآخرين وهذا هو الأدق. والجديد غير العادي في الأمر هو استمرارية شيء، كان موجودا مسبقا على مدار قرون طويلة، وهو الشيء الذي لم يوضع في الحسبان الذي معه لم يكن من المعروف جيدا العثور عليه. إنه أمر يحدث كثيرا في التاريخ وهو أن ما كان يراه الأوربيون "مشكلة إسبانيا" كان قبل أي شيء مشكلة ثقافية.

الفصل الخامس عشر

من أمة في أوربا إلى تجاوز الحدود الأوربية

العصور الوسطى وعصر النهضة:

لا يمكن أن نفهم جيدًا تكوين الأمة الإسبانية وانتقالها إلى ما كانت (أي تجاوز ما هو أوربي في كلا جزئي العالم) إذا لم يؤخذ في الحسبان التغير الذي طرأ على شكل الحياة بين العصور الوسطى وعصر النهضة. ولقد عنيت بهذه الهضبة بشيء من التفصيل منذ بضعة أعوام[39]. وما أريده الآن هو تحديد تلك الملامح التي هي على صفة مباشرة بمرحلة الانتقال تلك على زمنين، أي الانتقال من ممالك العصور الوسطى إلى الأمة الحديثة، ومن هذه إلى مرحلة التجاوز من حيث هي مجموعة من الشعوب غير المتجانسة، لتصبح المملكة الكاثوليكية أو المملكة الإسبانية أو باسم أكثر دقة الإسبانيات، Las Españas.

إذا ما تم النظر إلى واقع الحياة خلال العصور الوسطى في جميع أنحاء أوربا فإن أول ما يتبدى أمام النواظر هو الدرجة القصوى من **اللاأمان** وهي درجة تبدو مقبولة بالنسبة لمعشر أبناء هذا الزمان، والأمر المفاجئ أيضًا هو **الاستقرار**، واستمرار الكثير من الملامح الخاصة بالعصور الوسطى على مدار قرون. وإذا ما أردنا تحديدًا فإن الاستقرار لا

---

(39) "أفكار ومعتقدات خلال العصور الوسطى" و"النهضة والتجديد" (الأعمال الكاملة، الجزء العاشر، ص ٣٤٥ - ٣٩١).

يؤثر على الحياة، أي على **كل حياة** بل على **شكل الحياة**، إذ يمكن لإنسان العصور الوسطى أن يحدث له أي شيء وخاصة الشيء السيئ لكن هذا لا يقضّ مضجعه كثيرًا لأن ذلك كان منتظرًا ومأخوذا في الحسبان، أي **أنه واثق من اللا أمان**.

ويرجع السبب الأساسي في ذلك إلى أن الإنسان خلال العصور الوسطى لا يؤسس حياته على **أفكار** تتسم بدرجة كبيرة من الإشكاليات وعدم الاستقرار، بل يؤسسها على **نظام متكامل من المعتقدات**. فالمسيحيون والمورو واليهود شركاء في المعتقدات الأساسية وهي: التوحيد والخلق والخلاص والوحي الذي يتضمّنه النص المقدس. ليس لديهم الشريعة نفسها ولهذا يتصارعون لكن لديهم المعتقد نفسه، أي نفس النمط من الاعتقاد، لا يعتقدون في الشيء نفسه لكنهم يعتقدون بالطريقة نفسها، ولهذا فهم يتفاهمون ـ بشكل يزيد على الحد ـ ويتصارعون فيما بينهم.

رغم أن مسمّى عصر النهضة له سوابق شديدة القدم فإنه لو لم يعمّ حتى منتصف القرن التاسع عشر (ميشيلت Michelet وبورخارد). وبعد ذلك زاد انتشاره بشكل واسع لأنه مصطلح سعيد الحظ بشكل أفضل مما هو عليه من النظرة الأولى. فالسابقة لهذا المصطلح Renaciment التي هي Re تنبئ بشيء سيء هو التكرار والعودة إلى شيء. إلا أن باقي المصطلح nacimiento هو مضاد للعودة والتكرار، إنه "**التجديد الأعلى**". إذا ما دققنا جيدًا في المصطلح re-nacimiento لوجدنا أنه الصيغة الكاملة للاستمرارية التاريخية: أي الميلاد من جديد، البدء ولكن ليس من الصفر: أي **مواصلة البدء**.

قبل أن نتمكن من الحديث عن نهضة، ونحن على حق، من البديهي وجود أزمة العصور الوسطى، ولهذا فإن النهضة تظهر كعصر مثير للجدل ويعتبر بمثابة ردّ فعل على النمط السابق للحياة، ويلاحظ أن كتابة التاريخ خلال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والقرن التاسع عشر اتجهت لاعتبار النهضة أمرًا "لا دينيًا" وغير شديد القرب للمسيحية. لكن هل يمكن النظر إلى ذلك العصر هكذا وهو عصر بدأ من أيام توماس

دي كمبس حتى لوتيرو والقديس ايجناثيو دي ليولا أي أبرز عصر شهد الحروب الدينية التي بلغت درجة غير مسبوقة من العنف.

إن أبرز ما يتغير هو الشكل الخاص بممارسة الدين credencial، وهناك الكثير من معتقدات العصور الوسطى التي أخذت تتلاشى أو تنحسر، والأكثر من هذا هو وجود العديد من القضايا لم يتم البت فيها ولا يوجد اعتقاد بشأنها.

وإذا ما تمت رؤية هذا الوضع من الجانب الإيجابي فإنه يعني وجود عملية تجديد ضخمة، وامتداد للحياة. فإنسان عصر النهضة يشعر بالضياع أمام كل ما هو جديد، لكن التناقض الكبير هو أن ما هو جديد بالنسبة لإنسان القرن الخامس عشر هو القديم: أي الكلاسيكية التي جرى استردادها. هناك الأطلال والكتب والمخطوطات اليونانية واللاتينية واللغة اليونانية وقد أتى البيزنطيون بكل هذا عندما هربوا من الأتراك.

كانت بنية عالم العصور الوسطى معدة سلفًا، لكن ها هو الوضع وقد أصبح لغزًا، أي كشيء يجب اكتشافه، ولهذا فإن نهاية القرن الخامس عشر هي عصر الاكتشافات الكبرى التي يجب العمل على تفسيرها. لا توجد دوافع اقتصادية أو تقنية حتى تقوم البرتغال وإسبانيا وشعوب أخرى جاءت بعد ذلك لتنطلق نحو اكتشاف العالم، ولو يكن هناك تعداد كبير للسكان بل كان العكس، فالثروة التي تعاني نقصًا كانت الثروة البشرية (وفي هذا كانت الميزة التي تمتعت بها فرنسا على باقي أجزاء أوربا). وكانت الوسائل التقنية غاية في البساطة وبدائية: إذ هناك سفن شراعية ولها وسائل أولية في التوجيه، ووسائل النظافة تعتورها المشاكل وأسلحة غير قوية الفعالية ولا توجد أي مصادر للطاقة إلا طاقة الرياح أو الإنسان أو الحيوانات، وهناك صعوبات في التزود بالمؤن والمياه. كانت إسبانيا والبرتغال في طليعة التجديد الاجتماعي والسياسي، وانطلقت في طريق الاكتشافات عندما كانت الحياة تبدو في عيونها كأنها اكتشاف.

سيطر الشغف باللانهائي على إنسان عصر النهضة. وكانت هذه الكلمة تثير الحماس، فليس لها حدود أو قيود وتسمح بجميع أنواع الرحابة. ففي إسبانيا كانت تتردد

عبارة: رحبة هي قشتالة. وفي إطار النهضة تُفهم هذه العبارة رحب هو العالم. فالتجديد العملي والفعلي الذي قام به الإسبان سوف يُفهم بمعناه الحرفي، فأمام عبارة نهاية العالم وليس هناك ما هو أبعد من هذا Non plus ultra التي نجدها فوق أعمدة هرقل، نجد عبارة هناك ما هو أبعد Plus ultra التي توجد على الترس الجديد لإسبانيا. هذا يمكن أن يكون شعار عصر النهضة.

والأمر الحاسم هو أنه عندما اكتشف أمريكا وعندما دخل على أرض المسرح عالم **جديد** به بشر ينسبون إلى تراث مختلف تمامًا، ويكون التساؤل بالنسبة لهؤلاء فيما إذا كان من المناسب الخلاص وإذا ما كان الطرف الذي يعيشون فيه إنسانيًا بالتحديد، وهنا تطفر مسألة **حدود ما هو إنساني**، فهل سكان العالم الجديد بشر مثلهم مثل الآخرين؟ الإجابة الإسبانية هي توكيدية وكانت حاسمة بشكل نموذجي، وهذا يعني **رحابة ما هو إنساني**. ووصل الأمر في هذا المقام إلى عملية التبشير **حتى قبل الاكتشاف**. ألف نبريخا كتاب القواعد للهنود الحمر حتى يتعلموا القشتالية وذلك قبل أن تبحر سفن كريستوفر كولومبس. وكانت وردت في أذهان الملوك الكاثوايك، وبقوة في ذهن ايزابيل، فكرة احتكار الأراضي التي سوف يتم اكتشافها على أنها محل للتبشير وهذا يعني - علينا ألا ننسى ذلك - في تلك الفترة الانضمام إلى نمط الحياة، وإلى ما نطلق عليه اليوم الثقافة الأوربية في صيغتها الإسبانية. فالقرار الإسباني الأصيل في أن يكونوا مسيحيين كان يعني في الوقت ذاته أن يكونوا أوربيين وليسوا مشارقة.

لكن يجب التساؤل: هذا الاستعجال في تبشير هؤلاء الهنود المجهولين، هنا لا يكفي القول إن واجب كل مسيحي القيام بالتبشير ـ docete omnes gentes ـ ألم يكن هناك هؤلاء الأفارقة والآسيويون من غير المسيحيين؟

أعتقد أن الأمر هو ذاك: كانوا **هناك** وكانوا "هناك دومًا" وذلك خلال العصور الوسطى تحديدًا. أما الهنود فعلى العكس، إذ يدخلون إلى أرض المسرح فجأة في أثناء عصر

النهضة في اللحظة التي كان فيها الأوربيون وخاصة الإسبان في حالة اكتشاف وتجديد واكتشاف رحابة العالم الذي يتبدى أمامهم وهذا أكثر من رؤيته على أنه نظام أو مهمة للقيام بها. ظهر سكان أمريكا على أنهم خامة للتمسيح، لكن، وهنا مكمن الأصالة الكبيرة ـ نجد أن الموقف الخاص بالعصور الوسطى يختلط وينصهر ببعض عناصر العصور الوسطى، فمحتوى المهمة هو التنصير، أي أنه مشروع إسبانيا جميع خلال العصور الوسطى.

ولنقارن ذلك بموقف بعض الدول الأخرى المستكشفة في الفترة نفسها أو بعدها، فالتبشير في أحسن الأحوال عنصر ثانوي وهامشي أي هو جزء من حضارة تنتقل إلى البلاد التي كانت مجهولة قبل ذلك. ويدخل في ذلك البرتغال التي لم تول اهتمامًا كبيرًا بنشر المسيحية. فما هي عملية التبشير في البرازيل تتم عندما تنتسب إلى إنتاج الإسباني أي في الفترة من عصر فيليب الثاني حتى فيليب الرابع، وقام بهذه المهمة في أغلبها المبشرون الإسبان، شاركت إسبانيا أيضًا مشاركة فعّالة في الهند (هناك القديس فرانثيسكو خابيير الذي وصل حتى إلى اليابان). وبعد ذلك بوقت قصير وصل التبشير إلى جزر الفلبين وجزر المحيط الهادي ولكن بنجاح كبير.

هذه هي رؤيتي للتلاقي بين العصور الوسطى وعصر النهضة في بداية مسار إسبانيا الحديثة: أي أن المشروع الخاص بالعصور الوسطى مستمر وممتد حتى بعد الاسترداد الكامل لإسبانيا المفقودة. ورغم أن إسبانيا قد أزالت السيطرة الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية فإنها ما زالت ترى نفسها مسيحية كما أن هذه السمة المسيحية ترتبط بهويتها الوطنية مع ما في ذلك من مخاطر، وعندما انطلقت القوة غير العادية لإسبانيا نحو العالم، أي نحو welt politik، وخاصة الأوربية، وهي الخاصة بالأمة الحديثة، ينضم إلى ذلك، خارج الحدود الجغرافية، تلك الغاية القديمة من التبشير.

وشيئًا فشيئًا يبدو أكثر وضوحًا أن السياسة "الحديثة" لإسبانيا تم تخيلها وتنفيذها في الأساس بناء على مبادرة فرناندو الكاثوليكي، وأن المهمة الخاصة بأمريكا

والمفهومة في البداية من حيث الذهاب بالإنجيل إلى الشاطئ الآخر من المحيط كانت هي التي نوهت بها إيزابيل وبحماس شديد. هذا ليس غريبًا، ذلك أن أرغن قد بدأت منذ القرن الرابع عشر، مع شدة الإيقاع خلال القرن الخامس عشر، في توسعها في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانت تنافس فرنسا، بمعنى في باب السباق في إطار المسيحية. أما قشتالة فكانت على العكس، فمنذ أصولها الأستورية وحتى انضمامها في نهاية المطاف كانت عبارة عن برنامج إعادة الاسترداد. وانطلاقًا من الوحدة نجد المهام مشتركة: غرناطة وإيطاليا وأمريكا، لكن تصب الرياح على أشرعة المركب الجديدة قادمة من العصور الوسطى المحافظة ومن عصر النهضة الوليد.

أسباب الحملة الأمريكية:

لماذا ولم ذهب القشتاليون لاكتشاف وغزو وتعمير بلاد الهنود وإقامة مدن وممالك فيها؟

كُتِبَ الكثير حول هذا الموضوع، ففي عام ١٩٤٠م نشر مننذث بيدال مقالة رائعة بعنوان "هل هو جشع لا يرتوى؟ أم هي ملاحم شريفة؟"[40] وهو مقال يلخص في صفحات قليلة تلك المسألة محل النقاش. يرى مننذث بيدال أن أصل هذه الميول المثارة حول هذه القضية هو ب. بارتولوميه دي لاس كاساس "وهو رجل واسع الهمة لدرجة تثير الإعجاب ورجل غير عادي سواء في الطيبة أو الميل السيئ". أعتقد أن تلك هي أول دراسة يخصصها لهذا الرجل وهي مقدمة لمقال مطول لاحق حول بيتوريا Vitoria وحوله وخاصة عن الكتاب الضخم والمهم والذي لم يحظ في الوقت ذاته بالاهتمام اللازم.

يلخص مننذث بيدال ما يتوجب دراسته لاحقًا بإسهاب وخاصة سَوْقه البراهين: أي الانحياز الشديد الذي كان عليه بارتولوميه دي لاس كاساس وكراهيته

---

(40) في إسبانيا وتاريخها، الجزء الثاني، ص ١١٤ – ١٢٦.

للإسبان وعدم اتساقه ومدائحه للهنود وإدانته الشاملة ودون تحفظ أو استثناء للاستعمار، وثنائه على شيبير Chievrs وعلى باقي الفلامنكيين الذين رافقوا كارلوس الخامس الذين كانوا يبتزون إسبانيا ويطلقون على الإسباني "الهندي الخاص بي"، يقول لاس كاساس "كلهم، في حقيقة الأمر، كانوا فرسانًا أجلاء". يمقت لاس كاساس "الطموح الغريزي" و"الجشع الذي لا يرتوي" الذي عليه المكتشفون، وكان ذلك هو الباعث للمهمة الأمريكية طبقًا لتأويله.

يقوم منندث بيدال بمضاهاة وجهة النظر هذه "برأي جندي" هو برنال دياث دل كاستيو. **القصة الحقيقية لغزو إسبانيا الجديدة**، هو عنوان أحد الكتب المهمة في هذا المقام. كتب هذا الجندي ابن بلدة Medina del Campo مذكراته وهو طاعن في السن، عن تلك الحملة التي لا تصدق والتي قام بها هرنان كورنيس. كان واحدًا ضمن أربعمائة وخمسين إسبانيا بدأوا حملة غزو هذه الأراضي الشاسعة. وهنا يجب ملاحظة أن عملية اكتشاف أمريكا وغزوها لم تكن تجارة جيدة عند من قاموا بتنفيذها، فهناك الجهود والتعب والمعاناة التي لا حدود لها، هناك بُعد المكان وصعوبات التضاريس، الغابات والصحراوات وسلاسل الجبال والأنهار والحيوانات المفترسة والذباب العدواني. هناك أيضًا الحروب ضد الهنود وبين الإسبان بعضهم بعضًا، وهي أمور شائعة. كذلك هناك مخاطر الإبحار عبر المحيط على متن سفن شراعية يكاد وزنها يصل إلى مائة طن. كل هذا أدى إلى صعوبات جمّة أمام هؤلاء الرجال الذين يبذلون جهدًا خارقًا. وكانت إمكانيات البقاء تصل إلى الحد الأدنى وهم يعرفون ذلك. وإذا ما أُخذ ذلك في الحسبان لوجد أن معظم المكتشفين بذلوا الغالي والنفيس في هذه المهمة وبالتالي فإن النفعية والجشع ليسا تفسيرًا كافيًا.

كانت روح المغامرة حاسمة، ومعها الرغبة في القيام بأعمال ملحمية غير عادية وجديرة بأن يذكرها التاريخ وأن يكون المرء فخورًا بالانتساب إلى أقلية قادرة على فعل

أمور عظيمة. تناول برنال دياث دل كاستيو في مقدمة كتاب تاريخ، "تلك الأعمال البطولية والملاحم التي قمنا بها عندما انتصرنا في إسبانيا الجديدة ومحافظاتها برفقة البطل العظيم الكابتن إيرنان كورتيس" ثم يعلن أنه سوف يكتب بصفته شاهد عيان "بفضل الله كل هذا بإسهاب دون الميل إلى هذا الجانب أم ذاك، ولما كنت طاعنًا في السن وأزيد على أربعة وثمانين عامًا فقد السمع والبصر، ولسوء حظي لا يتوفر لي أي مال أتركه لأبنائي وأحفادي اللهم إلا هذه الشهادة الحقيقية........"

وفي الصفحة الأولى من شهادته يقول برنال "لقد قمنا بخدمة جلالته من خلال الاكتشاف والغزو وإحلال السلام وتسكين جميع المحافظات في إسبانيا الجديدة التي تعتبر واحدة من الأماكن الجيدة التي تم اكتشافها في العالم الجديد، وقد قمنا باكتشاف ذلك بجهدنا دون أن يصل ذلك إلى علم جلالته". علينا أن نتوقف عند الأفعال الأربعة التي استخدمها: **يكتشف ويغزو وإحلال السلام والتسكين**" هو يفهم بهذه الطريقة المهمة المكلف بها. ثم يضيف "ولما كانت هناك شهرة لها ذكراها لما قمنا به من غزوات فهناك قصص لأحداث بطولية وقعت في العالم فمن العدل أن يكون لقصصنا الشهيرة هذه مكانتها بين أشهر القصص التي وقعت". هنا نشير إلى عبارة **أحداث بطولية**. ويذكر برنال المخاطر الجمة وموت الزملاء والمعاناة و"اعتناق المئات من البشر للدين وهم بذلك قد نجوا وكل يوم ينجو آخرون" ولم ينس "الثروات الضخمة التي نرسلها من هنا في شكل هدايا لجلالته".

وفيما يتعلق بالواقعة الشهيرة التي تمثلت في إحراق السفن أو غرقها نجد برنال يكتب في الفصل LVIII ما يلي: هنا حيث يقول المؤرخ جُمارا إنه عندما أمر كورتيس بخرق السفن، لم يكن يجرؤ على أن يقول للجنود إنه يريد الذهاب إلى المكسيك بحثًا عن مونتزوما العظيم Montezuma. لم يحدث الأمر طبقًا لهذه الرواية، وإلا فمن نحن معشر الإسبان حتى لا نتقدم ولا نتجاسر ولا نفيد ولا ندخل الحرب؟" هناك نموذج اليوناني والروماني وهناك الرغبة في أن تكون على شاكلتهم أو يزيد، ويتجلى هذا في ذكريات

الفروسية خلال العصور الوسطى وفي الرومانث الشعبي، وكذلك في رجال لا يجيدون الكلام مثل برنال دياث دل كاستيو. يقول كورتيس "من الأفضل الموت بشرف بدلًا من العيش في الذل".

لم يكن الوازع الديني بمبعد عن هؤلاء الرجال، لا عن الرهبان فقط ولكن كذلك الغزاة. وفي الفصل LXXVII هناك فقرة ذات أهمية بالغة، فعندما قام القادة المحليون وعلى رأسهم شيكوتنجا الطاعن في السن والكفيف، بأخذ بناتهم للإسبان "وذلك حتى يكنّ نساءكم وتلدن، لأننا نريدكم كأشقاء فأنتم طيبون وجادون"، عندئذ فكر هرنان كورتيس ـ وهذا ما يقول للأب دي لا ميرثيد الذي كان حاضرًا ـ في أن هذه فرصة طيبة للتأثير على الهنود حتى يتخلوا عن أصنامهم وأضحياتهم، ومن خلال "لغاتهم" أو المترجمين قامت السيدة مارينا إي أجيلار بشرح الديانة المسيحية لهم، فهناك إله واحد وأم الرب سيدنا "التي تتضرع لابنها المبجل من أجلنا". وكانت إجابة القادة المحليين من الهنود أنهم يفهمون ويؤمنون بأن ذلك الإله وهذه السيدة العظيمة طيبان للغاية وأنه "بمرور الزمن سوف نفهم المزيد وبوضوح عن أموركم ونرى كيف تكون وسوف تفعل ما فيه الخير"، لكنهم الآن لا يستطيعون أن يتركوا ما كان عليه آباؤهم من آلهة، ولو فعلوا ذلك لحل الدمار بالمحافظة من الجوع والحروب والأوبئة. وهنا فإن الأب دي لا مرثيد، "الذي كان رجل دين فيه الكثير من العقلانية" يقول لإيرنان كورتيس: "سيدي، لا تحاول حضرتك أن تضغط عليهم أكثر في هذا، فليس من العدل أن نجبرهم على أن يكونوا مسيحيين، كما أن ما فعلت في ثيمبوال Cempoal من تحطيم أصنامهم، فلا أريد أن أفعل ذلك مرة أخرى حتى يكونوا على علم بديننا".

يتولى برنال تقديم خلاصة للقصة التي رواها وهي خلاصة تثير المشاعر (الفصل CCX) يتوجه إلى Fama ويقص عليه أنه في عام ١٥٦٨م، الذي يكتب فيه هذه القصة، المتعلقة بأربعمائة وخمسين جنديًا انتقلوا مع كورتيس من جزيرة كوبا حيث توفوا جميعًا ولم يبق على قيد الحياة إلا خمسة "أما الباقون فقد ماتوا في المعارك على يد الهنود وتم التضحية

بهم كقربان للأصنام، ومات الآخرون موتهم. وعندما يتعلق بسؤالك عن أماكن دفنهم أقول إن مقابرهم كانت أمعاء الهنود الذين أكلوا سيقانهم وأفخاذهم وأذرعهم ورئاتهم وأقدامهم وأيديهم، وما بقي فقد تم دفنه، أما أمعاؤهم فقد ألقوا بها للفهود والثعابين والصقور التي كانت توجد لديهم في المنازل العظيمة، وهذا ما كان من مقابرهم، وها هي هناك شعاراتهم". ولم يتبق من ألف وثلاثمائة رجل تحت إمرة بانفليد ودي نارفايث إلا عشرة أو أحد عشر من الأحياء، ومن ألف ومائتين من رجال فرانثيسكو دي جاراي، لم يتبق أحد على قيد الحياة وكذلك الخمسة عشر الذين كانوا تحت إمرة لوكاس باثكث دي أيلون.

يختتم برنال دياث دل كاسيتو روايته بعبارة فيها صدق وواقعية: "وما أتخيله في نظري هو أن تكتب أسماء كل هؤلاء بالذهب، ذلك أنهم ماتوا ميتة شنعاء في سبيل الله، ودفاعًا عن جلالته، وأن ينير لمن هم في الظلمات وكذلك بسبب الثروات التي نبحث عنها جميعًا معشر البشر"

حفّزتني هذه العبارة للتفكير في ذلك الجندي البسيط من أبناء Medina del Campo، وبالتحديد في شيء دقيق للغاية قاله باسكال بعد قرن من الزمان في Pensees (مذكراته). يقول: الإنسان يقضي حياته دون أن يمل وهو يلعب قليلًا كل يوم. أعطوه في الصباح المال الذي يمكن أن يكسبه شريطة ألا يلعب به، وسوف تجعلون منه تعسا، وربما يقال إن ما يجري البحث عنه هو التسلية باللعب، وليس المكسب. اجعلوه يلعب مقابل لا شيء فلن يتحمّس وسوف يمل، من اللازم أن يتحمس وأن يغضب نفسه متصورًا أنه سوف يكون سعيدًا لأنه كسب ما لم يكن يريد أن يعطوه إياه شريطة ألا يلعب.[41]

---

(41) «Tel homme passe sa vie sans ennui, en jouant tous les jours peu de chose. Donnez-lui tous les matins l'argent qu'il peut gagner chaqué jour, à la charge qu'il ne joue poínt: vous le rendez malheureux. On dira peut-être que c'est qu'il recherche l'amusement du jeu, et non pas le gain. Faites-le donc jouer pour ríen, il ne

ما قام به المكتشفون والغزاة كان تجارة غير رابحة: فأغلبهم ماتوا ميتة بشعة أما من بقوا على قيد الحياة بعد الكثير من العناء والشقاء والمصائب فهم يعانون شيئًا قريبًا جدًا من الفقر. كانوا يريدون التبشير في العالم الجديد وخدمة الملك وبلوغ المجد والشهرة وتحقيق بطولات لم تحدث قبل ذلك والقيام بمغامرات وحمل الروح على الكف واكتشاف الجديد. أضف إلى ذلك كانوا يريدون لعب ورقة اليانصيب من أجل الثروة، والأمل في أن يعودوا ذات يوم إلى قشتالة وإلى إقليم الأندلس وإلى إكستريما دورا، وإلى أرض الباسك وهم يحملون الكثير من الذكريات ومعهم بعض الذهب. كانوا يعرفون في حقيقة الأمر أنهم لن يتمكنوا من ذلك، وأنهم سوف يموتون في أمريكا بترك عظامهم هناك ولحمهم في أمعاء أحد الهنود أو في حوصلة أحد الجوارح. غير أنه دون هذا الأمل هل كانوا سوف يتحركون حتى يواجهوا هذه المصائب؟ والأكثر من هذا هل كانوا سيعرفون تبرير هذه المغامرة غير المحسوبة؟

فعالية

بعد مرور ثلاثين عامًا بالتحديد على أول حملة قام بها كريستوفر كولمبوس التي قادت إلى اكتشاف أمريكا، نجد الكانو Elcano بالمركب الصغرى المسماة Victoria يكمل الدوران حول العالم، يبدو من الصعب تصديق ذلك. فخلال تلك الفترة تم اكتشاف وسبر أغوار أراض شاسعة في الأنتيل وأمريكا الوسطى والمكسيك، وكذلك عمليات توغل كبرى في أمريكا الجنوبية، وصحب ذلك بالطبع تأسيس مدن في جميع المناطق. وفي منتصف القرن السادس عشر، سيطر الإسبان على أغلب مناطق أمريكا الجنوبية (ما عدا

---

s'échauffera pas et s'y ennuiera. Ce n'est donc pas l'amusement seul qu'il recherche: un amusement languissant et sans passion l'ennuiera. Il faut qu'il s'y échauffe et qu'il se pipe lui-même, en s'imaginant qu'il serait heureux de gagner ce qu'il ne voudrait pas qu'on lui donnât à condition de ne point jouer...» (*Pensées*, 205, Pléiade, p. 879-880).

البرازيل) وعلى أمريكا الوسطى بالكامل وعلى إسبانيا الجديدة وعلى جزء مهم مما يطلق عليه اليوم الولايات المتحدة الأمريكية. هناك مدينة أمريكية مر عليها زمن في انتظار ما هو قوطي، إنها سانتو دومنجو. وقامت المطبعة بطبع كتب كثيرة في المكسيك، ففي المكسيك عام ١٥٥١م وبعد "الدراسة العامة لسانتو دومنجو" تم تأسيس جامعة المكسيك وجامعة سان ماركوس وي ليما (هارفارد، ١٦٣٦م ويالي ١٧٠١م) وبعد أن اكتشف نوتيث دي بابوا المحيط الباسفيكي (١٥١٣م)، قام ماجلّان بعد ذلك بخمس سنوات بالإبحار فيه من الجنوب، ومات في الفلبين، وتواصلت الاكتشافات واستمر "الكانو" حتى طاف حول العالم (أما الطواف الثاني حول العالم فقد قام به فرانسيس وراك بعد ذلك بثمانية وخمسين عامًا ١٥٨٠م). امتلأت أمريكا بالمدن التي أسسها الإسبان والكنائس والقصور والأعمال الفنية (يقدر عدد اللوحات التي تم رسمها في مدرسة كوثكدنيا بحوالي ستمائة ألف لوحة وكان ذلك على مدار ثلاثة قرون من حكم نيابة المملكة) جرت دراسة اللغات المحلية، وجرى نحت مفردات منها، وجرت دراسات جغرافية دقيقة وكذا في باب عالم الحيوان والنبات والمناجم.

جرت عمليات سبر أغوار المحيط الباسفيكي، وجزر مارمياس وسالمون وإيبرداس الجديدة، وغينيا الجديدة، وأستراليا. أما الفلبين وكارولينياس وبلاوس فقد انضمت إلى التاج واستمرت على هذا الحال حتى نهاية القرن التاسع عشر.

كل هذا يتسم بأنه أمر غير متوقع: فكلما زادت دراسة الأمر والتدقيق فيه والأخذ في الحسبان الضخامة والصعوبات كلما كان من الصعب تمثله عقليًا. ويجب ألا يُنسى أن نشاط إسبانيا في أوربا (وشمال أفريقيا) اتسم كذلك بالكثافة والضخامة وكان أكثر بكثير من نشاط أي بلد أوربي آخر، وأن أغلبية الإسبان مشغولون بالمهمة الأمريكية، التي لم يكن لها انعكاس كبير لدى الرأي العام، بمعنى أن التوسع فيها وراء البحار كان أمرًا يكاد يكون هامشيًا في نظر الإسبان.

وإذا ما أمكن من خلال وحدة للطاقة الإنسانية قياس ما فعلته إسبانيا في أقل من قرن، باستخدام التقنيات البسيطة خلال ذلك العصر، ودون استخدام الموارد التي تعطي بعض الأمان للتصرفات الإنسانية لانتابتنا الدهشة التي ربما كانت بداية الفهم. ما الذي حدث حتى تنطلق كل هذه **الفعالية** في زمن قصير؟! إن هذه الكلمة تعبر عن واحدة من المفاهيم المفضلة في العصر الحديث ويتم التعبير عنها بكلمات مختلفة (performance, leislung, Rendimiento) وتجلى العنصر الخاص بعصر النهضة في إسبانيا الملوك الكاثوليك وفي عصر كارلوس الخامس متمثلًا في هذا الانتشار للفعالية بشكل غير مسبوق.

إنه أمر لا نظير له ذلك أن النموذج الوحيد الذي يمكن أن يكون مقابلًا لذلك (الإمبراطورية الرومانية) كان أكثر محدودية من حيث المكان، كما أنه تطور في الدائرة نفسها وليس في قارات منعزلة وبعيدة، واتسم بالبطء الذي لا يسمح بوجود مقارنة، أي أنه لا يمكن أن يقارن بالتوسع الاسكتشافي. كما أن البرتغال لا يمكن أن تمثل شيئًا مشابهًا من حيث عمق التوغل وتحويل الأراضي والمجتمعات الأصلية وبناء المدن وإقامة بلاد جديدة.

اعتقد أن الأمر عبارة عن مشكلة إنسانية، أنثربولوجية في نهاية المطاف، فما هو أمامنا يجبرنا على التفكير في الوضع البشري وعدم التوازن بين الأسباب والنتائج التي تتمخض عن الجهد البشري، ويُرى هنا كيف أن ما هو إنساني يرتبط فقط وبشكل جزئي للغاية **بالموارد** من كل صنف (الاقتصادية والتقنية والسكانية). ويتسم النشاط الإسباني الذي بدأ مع نهاية القرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السادس عشر أو نهايته بأنه يستعصي على الفهم إذا ما قسناه بدرجة الفعالية التي عليها إسبانيا التي كانت حتى ذلك الحين، أو قسناه بما عليه أي بلد أوربي آخر (وربما إجمالي هذه الدول إذا ما أخذنا في الحسبان شبه جزيرة أيبيريا كاملة). كما أن الاعتراف بعد الجلاء لهذا الموقف يمكن أن يساعد على تجاوزه هذه إذا ما أخذنا في الحسبان عناصر أخرى ذات طبيعة إنسانية وتاريخية، بمعنى أن **المشروعات** من حيث كونها عنصرًا قادرًا على توليد مصادر الطاقة وإلا لما وجد ذلك. إن ما هو غير واقعي وما هو متخيل ومرغوب فيه يصبح العنصر الرئيسي للواقع الإنساني، بطريقة غير متوقعة، وبالتالي جزءًا من التاريخ.

الإسبانيات Las Españas (البلاد الإسبانية)

يتسم الامتداد الإسباني إلى ما وراء المحيط بأنه ذو بنية اجتماعية وسياسية أصيلة للغاية، وهو يكاد يكون ناجمًا عن مبادرات فردية يقوم بها أفراد أو مجموعات ذات إمكانيات محدودة للغاية (ابتداء من السفن الثلاث لكريستوفر كولومبس، حيث كانت أكبرها مائة وأربعون طنًا وانتهاء بأربعمائة وخمسين جنديًا استطاع كورتيس أن يهزم بهم إمبراطورية الأثتيك، وتمكن بالتعاون مع الشعوب المكسيكية الأخرى أن يبني ذلك البلد العظيم الذي أطلق عليه مملكة إسبانيا الجديدة). لا يتعلق الآخر بحملات كبيرة رسمية أو مفارز وجيوش أرسلتها الدولة، وليست مرسلة من قبل شركات كبرى ذات طبيعة اقتصادية في الأعم الأغلب.

إلا أن المستكشفين والمغامرين Exploradores والغزاة والسكان الجدد مرتبطون جميعًا منذ البداية بالتاج والكنيسة، كما أنهم يعملون متضامنين مع بعضهم بعضًا. هناك الصك bulq البابوي الذي يوضح الفرق بين إسبانيا والبرتغال وهو عبارة عن الفصل بين المهام التبشيرية، وهي السمة الخاصة بهذه المهمة فيما وراء البحار. وفي الوقت ذاته فإن كل ما يتم هو باسم الملوك (أو باسم الملك بعد ذلك) ويفهم من هذا أنه يتعلق بتاج قشتالة ذلك أنه هو الذي بدأ عمليات الاكتشافات وما ترتب عليها.

غير أنه يجب إيضاح أمرين، أولهما أنها قشتالة الإسبانية وليست قشتالة العصور الوسطى الفردية عن باقي الممالك في شبه جزيرة أيبيريا. إنها قشتالة المؤسبنة التي تبنت مشاريع الآخرين (ومنها إيطاليا على سبيل المثال)، كما أنها لا تشعر أنها غير مؤيدة بباقي المملكة التي لن تتحدث أبدًا عن "قشتالة ـ أمريكا" ولا عن أي شيء من هذا القبيل. ومن جانب آخر، لن يُفهم أبدًا أن الأراضي الأمريكية يمكن أن تكون ملكًا لملوك إسبانيا، وليست ملكًا لإسبانيا بهذه الحيثية، فلم يُنظر إليها أبدًا على أساس أنها "مستعمرات"، وهذه كلمة لم تكن مستعملة، ومن الفريد أن الذي استخدمها هم الاستقلاليون

والإسبانو أمريكيون آخذين في الاعتبار النموذج الخاص بالمستعمرات الإنجليزية والفرنسية في آسيا وأفريقيا، في أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كانت بالتالي **محافظات أو ممالك** تنتسب إلى التاج نفسه، أي أنها بلاد لها **نفس المَلِك**.

كانت قشتالة والهند الجديدة تشكلان ملكية هسبانية (أو كاثوليكية) في نصفي الكرة الأرضية، أي أن الأمر عبارة عن اتحاد شعوب غير متجانسة ومختلفة عن بعضها في أمور كثيرة، لكنها متحدة في سبيل مهمة مشتركة وتحت نفس التاج. وفي هذا المقام نجد أن القليل من الإسبان يعرفون أن الملك فيليب الرابع قام في عام ١٦٣٠ بترجمة **تاريخ إيطاليا** كاملًا الذي ألفه فرانثيسكو جيشيار ديني F.Guicciardini وهو كتاب يقع في ألفي صفحة مطبوعة، وفعل ذلك في وقت فراغه عندما يفرغ من تدبير شئون الحكومة، وكان هدفه من وراء ذلك أن يتعلم الإيطالية جيدًا وكذلك تكريم ذلك المؤرخ العظيم. وحول هذا الموضوع الذي لا يعرفه إلا القليل والذي لا يحظى إلا بقدر يسير من التحليل، كتبت مقالتين منذ فترة[42]. حسن، في مقدمة هذه الترجمة، وهي "مقدمة موجزة" كتبها فيليب الرابع، يشرح فيها سبب قيامه بهذه الترجمة، يشير إلى نفسه على أنه "ملك الإسبانيات وكثير من الإمبراطوريات" ويتحدث عن شغل الوظائف ومواقع الممالك التي تنسب إلى هذا التاج. وبعد أن قال إنه يود لو أن أهل هذه الممالك تمكنوا من الحديث إليه بلغتهم، دون أن يتحتم عليهم تعلم لغة الملك، أضاف "وبهذا تعلمت لغات إسبانيا وعرفتها جيدًا وهي لغاتي وهي الأرغنية والقطلانية والبرتغالية. ولن أرضى بها فقط ذلك أنه بمقارنة ذلك بما تملكه هذه المملكة خارج إسبانيا **يصبح ما لديها جزء ليس بالكبير**". ثم يتحدث بعد ذلك عن "أخبار يهمنا أن نعرفها لتحسين الحكومة اليونفرسال في هذه الممالك والدول التي تملكها هذه المملكة"[43]

---

(42) "فيليب الرابع، المترجم". و"فيليب الرابع و اللغات".

(43) **تاريخ إيطاليا** بقلم فرانثيسكو جيشيار ديني. مترجم عن اللغة الإيطالية، الإسبانية وكذا حياة الكاتب المترجم هو السيد/ فيليب الرابع، ملك إسبانيا ـ المكتبة الكلاسيكية ـ مدريد ١٨٨٩م. ظلت مخطوطة هذا الكتاب لعدة قرون في

تهيئ لنا هذه النصوص تصور كيفية رؤية ملك إسبانيا **المملكة من الداخل**، وكيف كان يلاحظ التعددية في شبه جزيرة أيبيريا وأنها كلها كانت "جزءًا ليس بالكبير" من المملكة في إجماليها.

هذه **الممالك** كانت تعني إسبانيا، وتلك **الممالك** كانت تعني باقي المملكة، وخاصة الممالك الأمريكية. وكان ملك إسبانيا ملك كل هذه وتلك وهذا ما كان يتم إبرازه في اللقب التعدادي enumerativo الذي ظل حتى عصر كارلوس الرابع، كما ينعكس في التعريف الدستوري لإسبانيا في صياغة أول دستور ديمقراطي، وهو دستور قادش عام ١٨١٢م. ولما كان الملك يعيش في إسبانيا فإن نواب الملك كانوا يمثلونه في كل مملكة وراء البحار وكانوا يقومون بأداء المهام باسمه وبتفويض منه. كما كانت هذه الممالك **بلادًا** حقيقية ودولًا ذات حقوق يديرها "مجلس الهند الجديدة" C.de Indias من خلال قوانين دقيقة ومفصلة تنظم الحياة القانونية للأراضي الجديدة، سيرًا على نموذج قشتالة- وقد بدأت قوانين الهند الجديدة عام ١٤٩٢م من خلال ما يسمى "استسلام سانتا في Capitulaciones de Santa Fe، والتي تم تطويرها من خلال **قوانين برغش** (١٥١٢م) **والقوانين الجديدة** (١٥٤٢ ـ ١٥٤٣م) وأخيرًا من خلال **"جمع قوانين ممالك الهند الجديدة"** (١٦٨٠). وقد استمر نظام نواب الملك والقادة العسكريين capitanias والمحاكم ونظام الزوار visitadores عن إقامة نظام حكم لبلاد لم يكن فيها حاميات إسبانية وكانت لهذه البلاد شخصيتها في أنها غير منعزلة وأن لها رأسًا مشتركة.

هل كانت تطبق هذه القوانين المثيرة للإعجاب؟ ويعتبر الأمريكي جول ليدي فيلان من أفضل وأذكي المؤرخين والدارسين لأمريكا الإسبانية، وقد أبرز رؤيته بشكل جلي فيما يتعلق بأداء الجهاز الإداري واستخدم تركيبة جيدة. أشار ذلك المؤرخ إلى هيجاه

المكتبة الملكية ثم الوطنية، بخط يد الملك، حتى هذه الطبعة التي صدرت في ثمانية أجزاء، ولا تشير الطبعة إلى من قام بها ووضعها تحت عنايته. وأعتقد أنها كانت مبادرة من أنطونيوباس دال كاستيو.

وقال إن النظرية tesis هي رغبات سلطات إسبانيا التي تتحقق من التعليمات الموجهة إلى القضاة فيما وراء البحار، أما المضاد لذلك antitesis فهو تلك التركيبة المعقدة من الضغوط التي كان على الموظفين الملكيين أن يأخذوها في الحسبان. وخلاصة القول، أي أن ما كان يحدث في الحقيقة هو: التزام، نادرًا ما يكون مرضيًا للطرفين، لكنه عادة ما يكون متبعًا ووسطًا بين ما كانت تريده السلطات المركزية وما كانت تسمح الضغوط المحلية. وفي أغلب الحالات فإن الضغوط المحلية كانت ذات دور حاسم مقارنة بمقاصد السلطات المركزية. تساعد هذه الصيغة الهيجلية كثيرًا على فهم المسافة الشاسعة بين القارات ومراعاة تطبيقه.»[44]

وتحولت نيابة الملوك Capitanias generales إلى بلاد حقيقية، وجاء ذلك بشكل تدريجي وبسرعة مذهلة وخاصة في كل من إسبانيا الجديدة والبيرو، وكانت البداية للدول التي ظهرت بعد الاستقلال. غير أن هناك استثناء، وهو أن هذه البلاد الأخيرة

---

(44) «The dialectic of Spanish bureaucratic politics can be summed up in the Hegelian formula noted previously. The thesis is the wishes of the central authorities in Spain, embodied in their instructions to the magistrates overseas. The antithesis is that complex of pressures in colonial society which the royal bureaucrats had to take into account. The synthesis is what actually happened: a seldom mutually = = satisfactory but usually workable compromise between what the central authorities intended and what local pressures would permit. In more cases than not, local pressures played a more decisive role than did the intentions of the central authorities. This Hegelian formula does much to explain the wide gap between the law and its observance» *(The Kingdom of Quito in Seventeenth Century,* Bureaucratic Politics in the Spanish Empire, The University of Wisconsin Press, 1967, p. 336). Phelan, muerto hace unos años, es autor de dos libros de gran interés: *The Millennial Kingdom of the Franciscans in the New World,* 2nd. edition, University of California Press, 1970; y, sobre todo, el admirable estudio *The Hispanization of the Philippines,* Spanish Aims and Filipino Responses, 1565-1700, University of Wisconsin Press, 1967.

كانت تفتقر إلى الصلة المتبادلة ووحدة للقيامة والمشروع التاريخي الذي كان لدى أعضاء الملكية الإسبانية.

وبعد سنوات قليلة على ابتداع مفهوم الأمة كصيغة سياسية واجتماعية جديدة تقوم المملكة الإسبانية باكتشاف جديد شديد الأصالة وله تأثير لا يكاد يكون محسوسًا، كما أنه سوف يظل يعمل على مدار زمن طويل مفاهيم غير ملائمة تلقي بظلالها على الواقع الحقيقي، وحتى بداية القرن التاسع عشر، أي على مدار ثلاثة قرون هي تاريخها الحديث، لن تكون إسبانيا أمة ببساطة، مثلها مثل باقي الأمم التي جاءت بعدها، أي أمة داخل أوربا intraeuropea، بل هي **أمة سوبر تتجاوز السياق الأوربي**، أي مجموعة من الشعوب تربطها ببعضها وشائج غير مفهومة بشكل جيد حتى الآن، ولها مشروع تاريخي يتسم بالاتساق والتعددية وما نفعله على مدار قرنين من الزمان هو محاولة طمسه، ربما كان ذلك هو المعضلة الكبرى في تاريخ إسبانيا المعاصر وتاريخ باقي الشعوب الإسبانية hispanicos: أي فقدان الهوية الحقيقية ووضع قناع على تركيبتها الحقيقية ونسيان المدلول الكامل لمسمى الإسبانيات Las Españas.

الفصل السادس عشر

القطيعة مع المسيحية ومع مشروع إسبانيا

إسبانيا المسيحية ومن هم غير المسيحيين

علينا أن نواجه الآن قضية، والأفضل القول عدة قضايا ذات أهمية كبيرة، وغير مطروحة جيدًا بشكل شبه دائم: إنها البعد الديني لإسبانيا الحديثة. فاسترداد غرناطة كان خاتمة نهاية السيطرة الإسلامية وابتداء من ذلك الحين **فإسبانيا مسيحية**. واعتبارًا من تلك اللحظة هناك خطورة تتمثل في ارتكاب مغالطة سافرة، فلما كانت إسبانيا مملكة مسيحية يتم الاستنتاج بأن **الإسبان مسيحيون**، أو هذا ما يجب أن يكونوا عليه على الأقل.

لم يكن منهج التفكير على هذا النحو خلال العصور الوسطى، وتحديدًا فإن من كانوا يسمّون أنفسهم بأنهم مسيحيون كانوا يعرفون جيدًا أنهم لم يكونوا جميعًا كذلك، فقد كان هناك المسلمون الذين يقفون في مواجهتهم فيحاربونهم، وفي كلا قطاعي إسبانيا هناك أقلية من اليهود. فرجل العصور الوسطى كان على وعي بالتنوع والتعددية. وبالنسبة للعصر الحديث الذي أخذ يسيطر على النهج العقلاني أخذ يظهر مبدأ الوحدوية والتماثل، وأخذت تسيطر الفكرة القائلة إنه لما كانت إسبانيا مسيحية فإن الجميع يجب أن يكونوا مسيحيين، وتسللت إلى الأذهان الفكرة الواضحة بشكل ما والقائلة إن من ليس مسيحيًا، ليس إسبانيا كاملًا، وأنه بشكل أو بآخر "غير أمين" desleal وهذا ما لم يخطر على بال إنسان في العصور الوسطى.

كانت هناك أقليات كبرى من غير المسيحيين مع نهاية القرن الخامس عشر، وخاصة من المسلمين، فهناك الغالبية العظمى من سكان مملكة غرناطة الذين سوف يطلق عليهم مسمى الموريسكيين، كذلك كان هناك اليهود (وهم الآن أكثر من ذي قبل ذلك أنهم قد انضموا إلى من كانوا في مملكتي قشتالة وأرغن اليهود الذين كانوا يعيشون في غرناطة.)

أخذ هذا يبدو وكأنه أمر خطير وغير ملائم، وموقف يثير القلق ويجب مواجهته، وقد أشار فرناندو دل بولجار في كتابه **رجال من ذوي القامات (في إسبانيا أو قشتالة)**– هذا حسب الطبعات، ١٤٨٦م– إلى العرقية التي كانت عليها شخوص عمله بشكل طبيعي للغاية: فها هو السيد بدرو فرناندث دي بيى سكو، كونت آرو، "الرجل النبيل الأصل والأصلي antiguo"، والماركيز دي سانتيانا "ذو الأصل القشتالي النبيل الضارب في القدم"، والسيد خوان باتشيكو، ماركيز بيينا ورئيس رهبانية في شنت يقب "كان من أمة برتغالية ومن أكثر الناس نبلًا في تلك المملكة"، والسيد/ خوان دي توركيمادا، كاردينال سان سكستو "حيث كان أجداده من أصول يهودية من هؤلاء الذين اعتنقوا ديانتنا المسيحية المقدسة"، والسيد خوان دي كارباخال، كاردينال سان أنجلو من أصول عريقة onnes fijodalgo (ابن ناس)، والسيد/ ألفونسو دي سانتا ماريا، أسقف برغش، الذي هو ابن السيد بابلو أسقف برغش حيث أنجبه والده من امرأته الشرعية قبل أن يدخل السلك اللاهوتي. كان هذا الأسقف، السيد بابلو، من أصول يهودية وكان عالمًا كبيرًا وقد حظي برعاية الروح القدس وفضلها". هناك السيد فرانثيسكو أسقف قورية Coria "الذي كان من أبناء طليطلة وكان أجداده من أصول يهودية من هؤلاء الذين اعتنقوا الديانة الكاثوليكية"، والسيد الفونسو أسقف أبيلا Avila "الذي كان من بلدة مادريجال، وأصوله بسيطة من الطبقة العاملة"، وعندما يرد ذكر النسب والنبل فإنه من أسرة عريقة أو من العاملين وقشتالي أو من نابارّة أو برتغالي أو يهودي فقد كان هذا من الأمور الطبيعية. ويمكن أن يكون هذا بمثابة دليل لنا على ما كان يعنيه ذلك في إسبانيا في

تلك الفترة تحديدًا ـ سوف نرى لاحقًا الخطأ المفترض من تعميم ذلك على عصور مختلفة، وخاصة إذا ما كان ذلك صادرًا عن فرناندو دل بولجار، على فرضية ذلك.

نراه يسير على درجة الوضوح نفسها وربما أكثر منها، عندما أشار إلى الأصول اليهودية للسيد بابلو دي سانتا ماريا بيرث دي جوثمان، في مؤلفه **أجيال وقامات** (١٤٥٠) بقوله: "كان السيد بابلو، أسقف برغش، عالمًا كبيرًا وجهبذًا في باب العلم، من مواليد برغش وكان عبريًا من أصول عريقة من تلك الأمة، وقد تحوّل "بفضل الله إلى المسيحية بناء على معرفة بالحقيقة وكان عالمًا في قوانين الطرفين، كان مطران تريونيو Teruino، وبعد ذلك أسقف كارتايينا Cartaiena، وأسقف برغش في نهاية المطاف، ثم بعد ذلك قاضي القضاة في قشتالة". لكن الشيء الأكثر أهمية هو ما يقوله بيرث دي جوثمان ذو الأصول القشتالية النبيلة عن هذه القضية المتعلقة بمن اعتنقوا المسيحية. إذ إن هذه المقولة مضادة لهذا الرأي الذي يقول به، دون تمييز أو اختلاف ـ هؤلاء الذين يدينون أو يشوهون بدرجة كبيرة هذه الأمة من المسيحيين الجدد على زماننا. يرى فرناندو بيرث دل بولجار أن هؤلاء الذين ولدوا وتربوا وربما هَرِموا وهم على العهد القديم ثم أجبروا على اعتناق الجديد، لم يكونوا على درجة كافية من الكاثوليكية الجمة أي لم يكونوا على شاكلة هؤلاء الذين ولدوا وتربوا عليها، ووصل الأمر ببعض تلاميذ الرب إلى الشك في حسن عقيدتهم التي أصبحوا عليها بفضل الروح القدس، وما زالت هناك لديهم آثار من عادات وممارسات قديمة موروثة. لكن المؤلف يؤمن بفضيلة "الحياة المقدسة للتعميد" ورأى أنه كان هناك من بين هؤلاء من هم على خلق ودين، وأنهم قاموا بأعمال عظيمة في الأديرة أو في صفوف الجماعات الدينية التي كان يعتورها الفساد. ويعتقد أن هؤلاء لم يكونوا يفعلون ذلك خوفًا من الملوك أو رجال الدين، لأن المراقبة والخوف من القانون اليوم ليسا بالشدة التي تدفع بهم إلى اجتناب الشر وفعل الخير من باب الخوف. ورغم أنهم لم يكونوا من المسيحيين الذين حَسُنت مسيحيتهم فإن الجيل الثاني ومن يأتي بعده سوف يكون كاثوليكيًا ثابت الإيمان".[٤٥]

---

(45) أجيال وقامات – سلسلة "القشتاليون الكلاسيك"، ص ٨٩ – ٩٥.

تجلّى هذا الموقف الذكي والعقلاني الذي تم اتخاذه بعناية وحصافة قبل ذلك بثلاثين عامًا، أي قبل الفترة التي عاش فيها فرناندو دل بوليجار. وهنا نراه في مؤلفه **"حوليات الملوك الكاثوليك"** الفصل CXX عندما يتحدث عن تجاوزات محاكم التفتيش عام ١٤٨١م يشير إلى القسوة والنقمة التي يتم بها تسيير القضايا ويرى التشويه الذي يعم الجميع، ثم يقول "عندما ننظر إلى رحمة الله وما تأمر به الكنيسة المقدسة في مثل هذه الحالات من القول والموعظة الحسنة وسوق الأسباب الجيدة والنماذج فإن ذلك سوف يجذب هؤلاء الضالين إلى الإيمان، وبمواصلة السير على القواعد والمبادئ التي عليها التعاليم المقدسة يجب تقليص العقوبات التي تنص عليها هذه العقوبة المتعلقة بالإلقاء في النار".

هناك موقف آخر مختلف تمامًا، لكنه مهم للغاية، اتخذه أندرس برنالدث، قِسّ بلدة بلاثيوس، وهو مؤلف حولية تتسم بأنها مشوقة وطريفة عنوانها **"مذكرات مُلْك الملوك الكاثوليك"** قام بالتعريف بها رودريجو كارو، وقام كل من مانويل جومث مورينووخوان دي مارتا كارياثو، في عام ١٩٦٢م، بإصدار طبعة محققة رائعة لها تتفوق على باقي الطبعات السابقة (رغم غيبة فهرست الفصول).

كان أندرس برنالدث قسا لبلدة لوس بلاثيوس القريبة من أشبيلية على مدار سنوات طويلة وظل في ذلك حتى عام ١٥١٣م، وكان صديقًا لكريستوفر كولومبس، فقد استضافه وتلقى منه الكثير من المعلومات باكتشافاته. كان رجلًا واسع الفطنة شغوفًا ونشطًا وكثيرًا ما تتجلى فيه الغلظة. علقت منذ فترة[٤٦] على ما سرده برنالدث في الفصل XLIII حول تأسيس محاكم التفتيش ومطاردة اليهود في أشبيلية وليسمح لي القارئ بأن أعيد نقل جزء مما كتبته آنذاك وأكمله.

---

(46) "تغيير العادة هودلموت" في صحيفة مدريد أول مايو ١٩٨٤م.

وغني عن القول الإشارة إلى أن هذا كان يبدو له جيدًا جدًا وأنه كان يعبر عن الموقف بشكل لا رحمة فيه، لدرجة يشيب لها الولدان. من المهم أيضًا الإشارة إلى الانطباع الذي يتركه وهو ذلك القائل إن كل ذلك بدأ بطريقة فيها عفوية شديدة، بناء على غيرة البعض التي أصابت آخرين بالعدوى نفسها، وانتهى الأمر بجرّ الملوك معها. هناك انطباع بأنه كان من السهل أن تحدث الأمور بطريقة مختلفة، أي أكثر إنسانية وأكثر ذكاء وأكثر مسيحية، وهذا هو المهم. يبدو إذن أن حدوث شيء بمثل هذا الحجم والنتائج التي ترتّبت عليه، كان عفو الخاطر، ومع هذا ينتشر ويستمر لمدة طويلة إلى هذا الحد. غير أننا إذا ما نظرنا إلى ظواهر نعرفها بشكل أفضل، وأكثر قربًا منا، بما في ذلك بعض الأحداث شديدة الخطورة التي ظلت حتى أيامنا هذه (ومن يدري كم ستستمر)، بعد أن نفكر في أن الأمر ليس بهذه اللامعقولية التي تبدو. نحن نعرف أن القصور الذاتي في علم الفيزياء مدروس جيدًا منذ أيام جاليليو، وهنا أشير إلى أن القصور الذاتي الاجتماعي والفيزيائي ما زال في حاجة إلى البحث.

يتحدث قس بلدة لوس بلاثيوس عن اعتناق اليهود للمسيحية والتي حفز عليها خلال القرن السابق القديس بيثنت فيرير بدرجة كبيرة، وكيف أنه تم الخلط بين المطاردة والإكراه، ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى الخلط بين المطاردة والعنف، والنتيجة التي لا مناص منها هي الشك في صدق نوايا من تحوّلوا إلى المسيحية، وتراجع من اعتنقوا المسيحية عنها (أي السقوط في الهرطقة مرة أخرى). ويقول إن اليهود كانوا يهربون من العقيدة الكنسية ويهربون من العادات التي عليها المسيحيون، وكذلك من كان عليهم أن يعمدّوا أبناءهم ولم يكونوا يفعلون ذلك، ومن قاموا بالتعميد، ثم قاموا بغسلهم في البيت تطهيرًا لهم".

يبدو الأمر قابلًا للاحتمال وعاديًا، وبالتالي يميل المرء إلى القبول بهذه المقاومة للتعميد وللديانة المسيحية، وهنا يتولى أندرس برنالدث إضافة شيء بذكاء يثير الإعجاب

ويبدو ذا أهمية في نظري: عليكم أن تعرفوا أن عادات البسطاء من الناس من بينهم كانت قبل محاكم التفتيش هي العادات نفسها التي كان عليها اليهود النتنون، الأمر الذي كان السبب في التحول عن الديانة التي كانوا عليها. وكانوا شرهين وأكولين ولم يتخلوا أبدًا عن الأكل على الطريقة اليهودية من الأطعمة مثل أطباق "الدفين" adefinas، وكذا البصل والثوم المقلي بالزيت وكانوا يطبخون اللحم بالزيت حيث كانوا يستخدمونه بدلًا من شحم الخنزير والدهون ابتعادًا عن طعام الخنزير. ويستخدمون الزيت مع اللحم وكذا في طهي الأطعمة الأخرى وكانت ذات رائحة كريهة. وعلى هذا كانت رائحة منازلهم وأبوابهم كريهة بسبب هذه الأطعمة. كما كان اليهود أنفسهم يحملون هذه الرائحة بسبب ما يأكلون ولعدم تعميدهم".

هذه الفقرة رائعة للغاية، فالأمر الحاسم فيها هو "الأطعمة" والطهي باستخدام البصل والثوم المقليين وكل ذلك بالزيت. كان برنالدث يرى أن رائحة هذه الأطعمة كريهة للغاية مثلما يكره الأوربيون في شمال أوربا رائحة مطبخ البحر الأبيض المتوسط. وعندما تحدث عن "النتانة اليهودية"، فإن القارئ المعاصر في وقتنا هذا يفكر في عملية إدانة أخلاقية، لكن الأمر يتمثل في المقام الأول في أن رائحتهم كانت سيئة بسبب القلي بالزيت ويزكم هذا أنوف من اعتادوا على شحم الخنزير في الطهي. كانت إسبانيا حتى وقت متأخر من القرن الثالث عشر، أي حتى الغزوات التي قام بها فرناندو الثالث المقدس، منطقة تقل فيها زراعة الزيتون وكان الشحم الشائع الاستخدام هو شحم الخنزير، وهذا لم يكن يروق لليهود سواء ممن اعتنقوا المسيحية أو من لم يفعلوا ذلك. كما أن الجمع، في جملة واحدة، بين المطعومات والتعميد ("كما كان اليهود أنفسهم يحملون هذه الرائحة بسبب ما يأكلون ولعدم تعميدهم") هو في نظري أمر غاية في الروعة، وجوهرة.

وبعد ذلك بقليل يوجه قس بلدة بلاثيوس تهمة أخرى لليهود: "ومن الشائع أن يكون معظمهم من الناس الذين يتقنون أكثر من صنعة وحرفة لأنهم جميعًا كانوا يعيشون

من حرف تدر عليهم دخلًا وفيرًا ويعيشون على البيع والشراء ولا يراعون إلًّا ولا ذمة في حق المسيحيين. لم يرغبوا أبدًا في ممارسة حرفة الحرث والحفر أو التنقل في الحقول وتربية القطعان أو تعليم أبنائهم اللهم إلا الحرف التي تعلموها وأن يجلسوا ويكسبوا لقمة عيشهم بالقليل من العمل".

ما معنى هذا؟ يعني ببساطة أن اليهود كانوا يعملون في قطاع يطلق عليه في أيامنا هذه "القطاع الثالث"، أي قطاع "الخدمات" وهو قطاع يعمل فيه أغلب سكان الدول المتقدمة والمزدهرة "كانوا إذن في طليعة التنظيم الاقتصادي والذي إليه يعود تقدم العصر الحديث بأكمله كما توطدت أركانه في أيامنا هذه.

وإذا ما كان الأمر كذلك، أليس هناك، آنذاك، خلط كبير بين العقيدة الدينية والعادات الاجتماعية؟ وعند تحويل اليهود والموريسكيين إلى المسيحية، ألم يكونوا يريدون أيضًا أن يسيروا أيضًا على **عادات** من كانوا يسمون، بعبارة غير مستحبة، "المسيحيون القدامى" أي الإسبان في الوسط والشمال؟ وعندما يقول برنالدث إن اليهود كانوا يغسلون أبناءهم في المنزل بعد تعميدهم، فإنه يفهم أنهم يفعلون ذلك "لمسح" التعميد. هذا ممكن لكن هناك سؤال يطرح نفسه: ألا يمكن أنهم كانوا **يغسلونهم**؟ وردت نصوص في تاريخ الحروب الغرناطية ضد الموريسكيين المتمردين ـ هذا ما ورد عند أورتادو دي مندوثا توحي بقوة بأن الغرض المقصود من ذلك هو مسح التعميد في الكثير من الحالات.

الأمر المثير للاستغراب هو أن أندرس برنالدث الرجل الذكي، كان شديد الهوس بانحيازه بحيث لا يفكر في هذا الأمر، وخاصة إذا ما وضع في الحسبان أنه **فكّر** فيه ثم كتبه ـ مهما بلغت درجة الاستغراب ـ دون أن تؤثر هذه القصة المحزنة في رؤيته، فقبل الفقرة التي أوردتها بفقرات قليلة يقول قس بلدة لوس بلاثيوس بالحرف الواحد ما يلي "وعلى هذا ظلوا يعملون ولم يجد ذلك نفعًا، فكل **كان يفعل ما اعتاد عليه وأن تغيير العادات هو الموت"**.

وإذا ما كان الأمر كذلك فإن برنالدث كان يعرفه، فكيف لا يدرك أنه لا يمكن أن يطلب من شعب أن يغير من عاداته وأن يبتعد عن ذاته وأن يكون غريبًا في بيته؟ كتبت منذ سنوات طويلة مضت عن الحرب الأهلية الإسبانية[47] وأبرزت كيف أن الشيء الذي لم يستطع الكثير من الناس تحمله سواء في هذه المنطقة من الحرب أو من الأخرى (وخاصة المنطقة الجمهورية التي وصل فيها هذا التوجه إلى أقصى درجة) تمثل في التغيير المفروض على العادات، وفي شكل الملبس والتحية وكذلك في العبارات المتداولة. وهؤلاء الذين قبلوا بالتحول السياسي أو الاقتصادي لم يكونوا يتحملون فقدان العفوية الحيوية، وأن عليهم أن يتخلوا عما "كان لهم" بالنسبة لتفاصيل الحياة اليومية، وما كان ينشأ في واقعهم المعيشي المتمثل في العادات. هل كان هناك ألم شديد وظلم بين إذا ما أمكن الحيلولة دون هذا آخذين في الحسبان أن تغيير العادات هو الموت؟

كان فراي ايرناندو دي طلبيرة يريد أن ينصر اليهود والموريسكيين من خلال الوعظ والإلحاح Persuacion، لكن هذا كان يتطلب وقتًا، وكانت الروح تنفخ في الوقت الذي تريد والمكان الذي تريد. كان الكاردينال ثيسنيروس رجلًا جديرًا بالإعجاب، وهو واحد من أعظم الرجال على زمانه، لكنه كان غير صبور وأراد التسريع بعملية التنصير. وإذا ما كان من الضروري الضغط من أجل هذا فإنه لا يرعوي. كان الأمر يبدأ بالإفراط في الطلب وينتهي بالتهديد والعنف. هذه هي القصة المحزنة التي لا يمكن إغفالها أو التجاوز عنها. هي قصة محزنة لكنها ليست استثنائية أو حصرية. فمن المعروف جيدًا أن المرسوم الصادر عن الملوك الكاثوليك يتضمن الأمر بطرد اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية، وكان هذا بعد الاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢ بشهور قليلة الأمر الذي أدى بعدد من الإسبان أن يقتلعوا منها وبآخرين أن يعتنقوا المسيحية وهم غير صادقين. لم يُرَ أنه لا يمكن المطالبة بشيء لا يمكن طلبه.

---

(47) "الإسباني" (في "الإسبان" ١٩٦٢م – أعيد طبعه في الأعمال الكاملة، الجزء السابع.

أضف إلى ذلك، قلت قبلا إن مفهوم عبارة "المسيحي القديم" هو مفهوم اجتماعي أو تاريخي لكنه ليس دينيًا، وليس مسيحيًا. فكل المسيحيين جدد فلا أحد بمسيحي قبل التعميد، فلا يمكن لأربعين جيلًا من المسيحيين أن تجعلني مسيحيًا. وهذا التمييز بين "المسيحي القديم" و"المس برنالدث وآخرين غيره عندما تم الخلط بين العقيدة والعادات.

كانت إنجلترا أول بلد أوربي يطرد اليهود جماعات جماعات، وكان ذلك على زمن إدوارد الأول (١٢٩٠م) أي قبل الملوك الكاثوليك بقرنين من الزمان. سارت فرنسا على الدرب عام ١٣٠٦م في محاولتين لقبول ذلك خلال القرن نفسه، لكنهما كانتا فاشلتين. لم تحدث عملية الطرد بشكل عام في ألمانيا لكن وقعت مذابح رهيبة وانتهت بالوباء الأسود (١٣٤٨ ـ ١٣٤٩م). وعلى هذا انتقل الكثير من اليهود إلى بولندا وأصبحوا بعد ذلك يشكلون واحدة من الطوائف الكبرى خلال عصر القياصرة، وكانت اللغة المستخدمة هي Yedelisch. وبعد وقت قصير على القرار الإسباني بالطرد وقع ذلك في البرتغال عام ١٤٩٦م، ثم تلا ذلك ما حدث في نابارّة التي لم تكن قد انضمت بعد إلى التاج الإسباني (١٤٩٨م). والشيء الغريب – مع بعض الاستثناءات – هو أن البابوات دافعوا عن اليهود خلال العصور الوسطى وخلال عصر النهضة، وأن اليهود وجدوا الملاذ والمال الأفضل في "دور الكنيسة" Estados de la Iglexia.

غير أن الجانب الذي أحدث تأثيرًا عميقًا على تاريخ إسبانيا الحديث، هو الدور الذي قام به اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية أو من يسمون بالمسيحيين الجدد حيث بقي الأعم الأغلب منهم في بلدنا وهم الذين تنصروا.

زاد الاهتمام، خلال العقود الأخيرة بمن تنصّروا أو "بالمسيحيين الجدد" وكان ذلك – بشكل كبير – بفضل الإلحاح الذي جاء من لدن أمريكو كاسترو. ولا شك أن هذا عنصر يجب أن يوضع في الحسبان وأنه لم يدرس بشكل جيد. ومن جانب آخر،

كشفت الأبحاث وجود شخصيات مهمة كان أجدادها من اليهود (لكن الموريسكيين بدرجة أقل). وكان للوائح "التطهير العرقي" تأثير مهم في الحياة على طول القرنين السادس عشر والسابع عشر كما أنها عنصر مثير للجدل.

إلا أن المبالغة سرعان ما تمكنت من هذه الرؤية الجديدة وهي رؤية لها ما يبررها. ففي المقام الأول، ومن خلال موقف يذكر بالقومية الاشتراكية تم اعتبار من هو "يهودي" ذلك الذي كان له ماض من هذا القبيل رغم أنه قد يكون جدًا واحدًا من بين أربعة أجداد أو ثمانية. وعندما يجري الحديث عن القديسة تيريسا أو عن فراي لويس دي ليون على أنهما "يهوديان" أو من "المسيحيين الجدد" لا يمكن درء التفكير في أن هناك أسبابًا كثيرة تجعل من المناسب اعتبارهم "مسيحيين قدامى" - هذا إذا ما كان لهذه العبارة معنى مقبولًا - ومن جانب آخر فإن الذين تنصروا كانوا في أغلبهم متنصرين بالفعل، كما أن سلالتهم اللاحقة كانوا مسيحيين مثل أي مسيحي آخر. وإذا ما وضع هذا في الحسبان فلا مانع في ذلك، بل هناك مكسب في النظر إلى أصولهم شريطة ألا يتم التوصل إلى استنتاجات لا أساس لها.

هناك مخاطرة أخرى تتمثل في أنه عندما يتم اكتشاف أن أحدًا من أصول يهودية يجري تفسير أعماله وحياته كاملة على ضوء هذا رغم أن ذلك لم يكن موضع اعتبار على مدار قرون من الدراسات مثل أن يتم اكتشاف تلك الوثيقة غير المتوقعة. وأبرز الأمثلة على هذا هو الخاص بـ لويس بيبس L.vives الذي أشرت إليه في معرض الحديث عن خوسيه أورتيجا في إطار "المسارات". وليسمح لي القارئ أن أورد هنا بعض الفقرات التي قلتها في ذلك المقام.

"لا شك في يهودية أسرة بيبس، وهذا جزء من ظروفه مثلما أن يولد في بلنسية عام ١٤٩٢م. لكن الأمر الحاسم هو ميله، وهو الميل الذي تدعو إليه الظروف التي تؤثر سلبًا أو إيجابًا. كانت ميول بيبس واحدة من الميول الثقافية القوية التي كانت موجودة....."

"وإذا ما كان الأمر كذلك، فما العمل إزاء يهوديته؟ كان ذلك أمرًا حاسمًا ضمن ظروفه لكن من كان ذلك متعلقًا بميوله وموهبته؟ لا شكّ أنه بسبب ذلك عاش بعيدًا عن إسبانيا أغلب فترات حياته وهو بالغ. لكن هل كان يهرب من محاكم التفتيش أو اليهودية؟ ألم يكن يريد - ربما - ألا يختلط بالدراما التاريخية التي تمثل ذلك الأمر والتي كان لها وقع رهيب على أسرته؟ هو من سلالة هذه الأسرة لكنه كان متجهًا نحو ذاته، وهو سلسال يهود تحولوا إلى المسيحية. وإذا ما كان سؤالنا عمن هو بيبس، وإذا ما تساءلنا عن أناه الشخصي وليس الاجتماعي وعن موهبته فإن المشكلة ما زالت قائمة. وإذا ما كان شعر بأنه مرتبط بالعالم اليهودي سوف يفهم جيدًا لماذا غادر إسبانيا مثله مثل آخرين، وذلك حتى يتمكن من الانتساب إلى هذا العالم بحريته. لكن لا يوجد أي أثر لذلك.

"يمكننا التفكير في أن ميل بيبس حمله على الابتعاد عن القضية، ويبدو بديهيا أن مصير والديه قد آلمه وأنه لا يقبل بالمطاردة التي عانياها والتي كانت تهدد الآخرين - والتي يمكن أن تهدده هو - لكنه لم يكن يشعر أنه ينتسب إلى هذا العالم، ولم يكن يحاول القيام بمشروع حيوي محدد من أجل هذا الغرض. وربما كان هذا العنصر الخاص بظروفه غير موات له من منظورين: من أجل العيش في وطنه حتى يقوم بالتدريس في أشهر جامعات الدراسات الإنسانية آنذاك وكذا حتى يكون من هو وما يجب أن يكون. يمكننا التفكير في أنه كان بحاجة إلى التخلص من ذلك الظرف المؤقت وذلك حتى ينفك عقال أناه البراجماتي ويتحرر، والذي كان يجب أن يكون وفيًا له. كان من الضروري من أجل ذلك أن يهيل التراب على ما مضى وأن يقيم في مكان آخر بعيد ويحاول من هناك أن يكون لويس بيبس ببساطة، أي مسيحي هادئ وجاد لديه موهبة ثقافية مهمة، ولديه رغبة في العيش في سلام حقيقي، أي أن يكون على صلة بالناس القريبين منه، غارقًا في كفيه وفي الرفقة الجميلة والودية لمارجريتا بالداورا.

"كل ذلك هو محض افتراض وأنا أقدمه على النحو الذي هو عليه، لكن ما يهمني إيضاحه هو الطابع الخاص بالافتراض الذي يعود إلى الماضي" الذي عليه التحليلات

الحديثة لبيبس والتي يعتقد الباحثون أنها مؤكدة لأنها تقوم على وثائق، وأنها لسبب ما كانت تبدو غير ضرورية لفهم بيبس قبل أن يتم اكتشافها."[48]

أعتقد من الضروري مراجعة منهجية تحليل التاريخ بأن ندخل فيها منظور **الحياة الإنسانية بطابعها الشخصي**، وهذا يعني البعد **الاستشرافي** الذي لا ينحصر في مجرد "البيانات" مهما كانت موثقة. إن التحليل المتفهم للواقع التاريخي لا يمكن أن يتناقص مع البيانات لكن لا يخرج عنها، فالواقع لن يكون كذلك عندما تكون البيانات.

يمكن لهذه الرؤية أن تحول دون الوقوع في خطأ كبير يتم ارتكابه في علم التاريخ المعاصر عندما تتم معالجة مفاهيم "المتنصرين" أو "المسيحيين الجدد" بشكل متجانس عندما تتم ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن السابع عشر، وفي بعض الحالات حتى القرن الثامن عشر. والسبب هو **أن هناك تغيرًا في الدلالة**، في حقيقة الأمر، في هذا الظرف، وهو أمر يكاد يقلب وظيفته ذلك التغير في الحياة. **الأمر غاية في البساطة** وسوف أحاول شرحه خلال فترة قد لا يكون من السهل تحديدها لكنها قريبة من عمليات التغير القهرية وربما غير الصادقة، أي في نهاية القرن الخامس عشر والعقود أول من السادس عشر ولوحظ أن المتنصر والجيل اللاحق عليه مباشرة يعرفون جيدًا من هم ويدركون جيدًا الوضع الذي هم عليه ويتعثرون ببعض العقبات ويحاولون إخفاء ما هم عليه. هذا هو الموقف **الأولي** الذي من المعتاد أن يوضع في الحسبان.

ولكن مع مرور الزمن وُجِدَ أن هذا الظرف الذي يتسم بأنه يتم إخفاؤه ما أمكن، يُنسَى. فأبناء المتنصرين ليسوا بمتنصرين، بل هم مسيحيون منذ بداية حياتهم، وعادة ما يكونون على الفور والقوة نفسها التي عليها "المسيحيون القدامى" الذين يختلطون بهم. أريد القول إن الغالبية العظمى لهؤلاء الذين يُنظر إليهم **اليوم** على أنهم "مسيحيون جدد" لم يكونوا يشعرون بأنهم كذلك، **ولم يكونوا يعرفون ما كانوا عليه.**

---

(48) أورتيجا إي حاسيت: المسارات (١٩٨٣) بند ٩٧ – ص ٤١٦ – ٤٢٢.

إن ما يحدث، وهذا هو الأمر الحاسم، هو أن الوجود الاجتماعي للوائح الخاصة بالتطهير العرقي والتي كانت مطلوبة من أجل الوصول إلى الكثير من المناصب أو الدرجات الرفيعة، إنما يعطي أهمية خاصة لهذا الطرف المنسي وهذا ينسحب، مع بعض الاستثناءات، على إجمالي السكان الإسبان. فقبل ذلك نجد أن من كانوا من أصول يهودية أو إسلامية يعرفون الأمر جيدًا وبالتالي لا يخشون من سوء النتائج. وبعد ذلك، أي ابتداء من منتصف القرن السابع عشر تقريبًا نجد أن لا أحد يكاد يعرف فيما إذا كان له أحد الأجداد من المتنصرين أنه وصل على هذا النحو، ويستثنى من هذا البرتغاليون الذين يتصرفون في إطار التاج الملكي منذ انضمام البرتغال بين عامي ١٥٨٠و١٦٤٠م. ومن كانت له صلة بالأمر من بعيد أو قريب يشعر أنه معرض لاكتشاف شيء هو نفسه يجهله وأنه يمكن أن يؤثر على مقاصده ومن هنا الكدر الذي يعم من جراء فعالية هذه اللوائح، لكن ليس هذا بين "المسيحيين الجدد" بل بين هؤلاء الذين يعتقدون أنهم ليسوا كذلك، رغم أنهم غير واثقين مما يمكن البرهنة عليه أو ما يمكن أن يتهموا به.

أدت التجربة التي خاضتها الولايات المتحدة إلى أن أفهم هذا الجانب شديد الأهمية في التاريخ الإسباني، خلال العصور الوسطى، فأغلب الأمريكان من أصول أوربية لهم أصول متعددة: فأجدادهم هم من الإنجليز والاسكتلنديين والأيرلنديين والألمان والاسكندينافيين والإيطاليين والبولنديين واليهود من أصول مختلفة ـ كما أن الكثير منهم لهم أجداد من جيل وآخر ينسبون إلى نصف خريطة أوربا. أضف إلى ذلك أن أغلبهم لا يعرفون ذلك جيدًا ولديهم فكرة هلامية عن أصولهم، ولا يهمهم هذا بشكل كبير، ونادرًا ما يكونوا شديدي الثقة بالأصول. ولكن إذا ما كان لهذا نتيجة محددة عندما يريد أن يحصل على منحة أو الالتحاق بالجامعة أو أن يتم انتخابه في مناصب معينة أو الوصول إلى الجنرالية أو أن يدير صحيفة، وعليه أن يثبت أن أصوله من بلد معين فإن الأمريكان سوف يقلقون بشكل إلى إزاء الأمر، وما كان يبدو غير ذي قيمة عندهم يتحول إلى مسألة خطيرة وإلى عنصر مثير للقلق والانقسام.

هذا هو ما يحدث في إسبانيا على مرحلتين يجب التمييز بينهما، وهما مرحلتان لكل طابع يكاد يكون مضادًا للأخرى. كان هذا هو أول خطأ خطير في حياة إسبانيا الحديثة وكانت له نتائجه الطويلة والمؤلمة، فكيف يمكن تفسيره؟

عند تأمل مشروع إسبانيا خلال العصور الوسطى، وهو التطابق مع الطابع المسيحي، فإنه ينقل الشعور بأن كل ابتعاد عن العقيدة إنما هو انتقاص ومخاطرة. وأدى الشك حول هذا الظرف إلى القلق والضيق والكرب. كما أن الروح "السابقة على العقلانية" التي عليها الحداثة تتسم بالنهم إلى التناسق ولا ترضى بتنوع ما هو واقعي، وبدأت عملية شغف بالوحدوية ـ التي اتسمت بأنها أكثر حدة في أماكن أخرى منها فرنسا على سبيل المثال ـ وأصبحت هذه سمة الزمن الجديد. ويمكن أن نضيف على ما سبق عنصر المصادفة azar وهو عنصر حاسم في التاريخ وفي الحياة الفردية، وكذا عنصر القصور الذاتي الذي يسهم في امتداده إلى ما هو أبعد من المتوقع، وبعيدًا عن الحدود التي كان من الممكن أن تكون ذات معنى. وفي نهاية المطاف هناك "الإرهاب" الذي يتمثل في التسليم بشيء ليس بديهيا لكن لا يمكن مناقشته، هنا نجد واحدة من نقاط الانحناءات في المسارات وتتمثل في أنها واحدة من اللحظات التي ليس فيها إسبانيا أفضل مما كان يمكن أن تكون عليه.

الإصلاح

ولما كان التاريخ يشهد تداخلًا غريبًا بين تيارات من أصول واتجاهات مختلفة تجتمع بالمصادفة، وتؤثر في بعضها بعضًا نجد أن الأزمة التي أثيرت في إسبانيا بسبب وجود أقلية غير مسيحية ـ أو وجود مسيحيين مشكوك في صدق إيمانهم ـ في إطار من اللاتسامح، تمتد وتتعقد بفضل تجلي ظاهرة مختلفة تمامًا وبعيدة من حيث المبدأ عن المجتمع الإسباني، غير أنها من خلال مصادفة أخرى تكتسب بعدًا كبيرًا.

من الواضح أنني أشير هنا إلى "الإصلاح البروتستانتي" الذي بدأه لوتيرو عام ١٥١٧م من خلال الخمسة وتسعين بندًا لويتبرج witterberg، أي العام نفسه الذي وصل فيه إلى إسبانيا كارلوس الأول. سرعان ما امتدت هذه الحركة إلى أوربا وتجلت في أشكال مختلفة مثل نظريات كلفينو وزيونجلو Zwinglo وجماعات أخرى مختلفة، والانشقاق ثم ما تلاه من إصلاح في عصر إنريكي الثامن في إنجلترا، وكان هذا يعني الانشقاق الديني في أوربا التي تمثلت المسيحية خلال العصور الوسطى، وها هي الآن تبدو مقسمة إلى فريقين متعارضين بقوة من حيث المفاهيم اللاهوتية، ويكسرون وحدة الكنيسة ويتحاربون بعنف باستخدام السلاح.

لم تتأثر إسبانيا في البداية باللوترية. لكن كارلوس الأول تم اختياره إمبراطورًا وتم تنصيبه رسميًا عام ١٥٢٠م في أكيسجران Aquisgran. في الوقت الذي تم فيه طرد لوتيرو من الكنيسة. وفي العام الثاني تم افتتاح مؤتمر أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة Dieta de Worm وهو أول حدث لكارلوس الخامس بصفته إمبراطورا. حضر لوتيرو هذه المناسبة وتم نفيه ولجأ إلى حصن Wünzburg ـ تحت حماية فيدريكو دي ساخونيا. وبدأ الصراع علنًا.

وإذا ما كان كارلوس ملك إسبانيا فقط - أي الإسبانيات - فإن الإصلاح كان قد بدا حدثًا بعيدًا عن إسبانيا بشكل نسبي، غير أن وضعه كإمبراطور في خضم الأزمة أدى إلى تأثره بشكل عميق بالبروتستانتية. وانعكس الانقسام الديني والسياسي الذي عليه الإمبراطورية على الممالك الإسبانية ورغم البعد فإن إسبانيا سوف تتخذ موقفًا. ولنتذكر هنا أن المشروع التاريخي الذي كان وراء تكوين إسبانيا على مدار العصور الوسطى كان هو صفتها كمسيحية. وليس الأمر أن الإسبان كانوا مسيحيين وإنما كانوا يتفاهمون فيما بينهم على هذا الوضع ويؤكدون وضعهم أمام شكل آخر من أشكال التدين والمجتمع والثقافة ومعنى الحياة. فرغم أن الإسلام سيطر في معظم أنحاء إسبانيا فإنه كان غير مقبول في نظر المسيحيين الإسبان. فكيف إذن سوف يقبلون بالشقاق المسيحي

والمزدوج على روما والبابا ورفض التعاليم الدينية المهمة التي بها تقولبت حياتهم على مدى قرون؟

كان رفض الإسبان للحركات البروتستانتية أكثر قوة واتساقًا مقارنة بأي شعب من الشعوب الأوربية، وهذا أمر مفهوم تمامًا ذلك أن الولاء لكنيسة ولكنيسة واحدة يكمن فيه مدلول الأمة الجديدة وسبب وجودها وهي الأمة التي تتوج مشوارها بانتهاء حرب الاسترداد. وعند الإسبان من الممكن النقاش حول أمور كثيرة، وهذا ما كان بالفعل، وكان من الممكن أن يكون هناك فقد حاد لرجال الدين ورغبة جارفة في الإصلاح، وهنا فإن كتابات إيراسمو حظيت بالانتشار والقراءة وكذا بالسمعة الطيبة. غير أن كل شيء كان في إطار الكنيسة الأم دون أي نقاش حول مبادئ العقيدة وسلطة البابا من حيث كونه الحبر الأعظم.

أما الإصلاح - اللوتري أولًا، وكذا الإصلاحات الأخرى على وجه الخصوص- فقد كان أمرًا آخر، فعندما وقع الانشقاق، شعرت إسبانيا أنها مرتبطة بالكنيسة بالضرورة وهي التي حاربت من أجلها المسلمين للدرجة التي كان يجب عليها أن تكون. لم تكن الحركة الإصلاحية مجرد حركة نقدية، أو كانت هرطقة في إطار المجتمع المسيحي بل كانت ابتعادًا وقطيعة. ولو كانت إسبانيا قد قبلتها لبدا الأمر وكأنه إثم في حق العقيدة وليس هذا فقط بل كان سيبدو خيانة للصفة الإسبانية وخروجًا على المشروع التاريخي الطويل الذي حققته.

هناك لا يمكن أن تكون هناك مفاجأة بشأن القوة والمثابرة التي ظلت عليها إسبانيا من أجل الحفاظ على الوحدة الدينية تحت إمرة البابوية. وعلى هذا مثلما كان الموقف بشأن الذين تنصروا يعني الخلط بين ما هو ديني وما هو اجتماعي فإن الدخول المشئوم لمبدأ عدم التسامح، الذي هو في نهاية المطاف عدم ولاء للقبول القديم للواقع الذي أدى "بإمبراطور الديانتين أو الثلاث ديانات" إلى التأكيد غير المشروط على الكاثوليكية ومعارضة لا تكل للفُرقة المسيحية، وكان ذلك وفاء بالمطلب الرئيسي الذي هو مصداقية إسبانيا autenticidad.

والأمر الخطير هو أن ظهور اللوترية في الأفق الديني أسهم في امتداد موقف الارتياب بشكل لا مبرر له، والذي أدى إلى الشك في عدم مصداقية تحول اليهود والموريسكيين إلى المسيحية وامتدت مع هذا روح محاكم التفتيش. وإذا ما كان من الممكن الانتظار حتى مرور عدة سنوات وانتهاء المرحلة الأولى فإن الأمور كانت ستكون عادية ويعود التسامح إلى الشأن الديني. وأدى ظهور بوادر الحركة اللوترية ـ أو تلك التي تم تفسيرها على هذا النحو ـ إلى إيجاد حلقة صلة بين مشكلة "المسيحيين الجدد" ومخاطر حركة الإصلاح، الأمر الذي أدى إلى استمرار التوتر ومعه محاكم التفتيش التي تغذت على روح غريبة من الاستمرارية، وكانت هذه الروح رائعة في بعض الحالات وفي بعضها الآخر شؤمًا، فيما يتعلق بالنتائج التي تمخضت عنها. اتسمت الكاثوليكية الإسبانية بطابع مثير للجدل وفيه ميل للصراع الذي نادرًا ما فقده إضافة إلى الظروف الخطيرة غير المواتية بشكل مؤقت، كما أنه أحدث أذى في باب كمالها الديني plenitude

الأتراك

يجب إضافة عنصر حاسم إلى ما سبق قوله، وهو عنصر غالبًا ما يتم نسيانه في زماننا، وهو انطباع بأنه مع استرداد غرناطة عام ١٤٩٢م زال التهديد الإسلامي ـ وهذا صحيح فيما يتعلق بداخل إسبانيا. لكن الإسلام قد استعاد قوة جديدة قبل ذلك بعدة عقود، ولم يكن ذلك على يد العرب بل على يد شعب مختلف تمامًا من الناحية الإثنية والثقافية، إنه الشعب التركي الذي اعتنق الديانة الإسلامية وقدم لها توسعًا جديدًا وقويًا.

إن الاستيلاء على القسطنطينية يشير إلى السيطرة التركية على شرق حوض البحر الأبيض وإلى التهديد الدائم لأوربا، وأصبحت الشعوب الإسلامية المطلة على البحر المتوسط تابعة الآن للسلطان، واصطدم بهم المسيحيون. حاربت إسبانيا في شمال أفريقيا منذ عصر الملوك الكاثوليك. ولكن ابتداء من عصر سليمان العظيم - الذي يتوافق مع عصر

كارلوس الأول - نجد الأتراك يحتلون بلجراد ومدنًا مجرية وكذلك بودا(بست) Buda ويحاصرون فينا (١٥٢٩م).

ولم يكن لدى فرانثيسكو الأول، في فرنسا، أي مانع في التحالف مع الأتراك. وابتداء من تلك اللحظة وحتى معركة ليبانيو ١٥٧١م، كانت إسبانيا على رأس المقاومة المسيحية للأتراك: فهي لأسباب مختلفة تجد نفسها مرة أخرى ذات هوية مسيحية.

وعندما أخذت تكتمل ملامح الأمم الأوروبية وتبدى على الساحة أخذت تظهر معها المواجهات القومية، كما أن المنافسات الحديثة سوف تتوافق في أغلبها مع الانقسامات الدينية. فها هي إنجلترا وإسبانيا تتصارعان من أجل السيطرة على أمريكا والإبقاء على المسارات البحرية في الأطلنطي غير أن هذا يتضافر مع التعارض الديني القائم بين فيليب الثاني وإيزابيل الأولى. ومن جهة أخرى هناك البروتستانتية التي عليها البلاد الوطيئة تدخل في تحالف مع رغبتها في الاستقلال ومع الرغبات الهولندية في التوسع فيما وراء البحار. هناك الصراع والمنافسة القومية الفرنسية التي انزلقت في بعض الأحيان إلى الدخول في تحالف مع الأتراك ومع البروتستانت في حرب الثلاثين عامًا. وغير خفي الإشارة إلى الحروب الدينية الرهيبة في فرنسا بين الكاثوليك والهوجونيت hugonotes(البروتستانت الفرنسيون من اتباع كلفينيو) الأمر الذي جعل الأمور تتسم بوجود تواطؤ مع قوى أجنبية أي صراعات أسرية.

كان الأمر بالنسبة لإسبانيا محسومًا: هناك تضافر بين مجموعة من العناصر سواء الخاصة بإسبانيا أو البعيدة عنها، حيث نجد جوهريًا وبعضها الآخر بالمصادفة، الأمر الذي أدى إلى الحيلولة دون استمرارية المشروع الأصلي على مدار قرنين كاملين من الزمان ثم على مدار قرن آخر تلا ذلك، وهو المشروع الذي بدأ مع بداية القرن الثامن الميلادي ألا وهو إعادة البناء المسيحي لإسبانيا المفقودة وعلى مدار سنوات طويلة سوف يشعر الإسبان بأنهم ضالعون في إنقاذ أوربا التي هي على وشك الضياع.

الفصل السابع عشر

الأسطورة السوداء ونتائجها

ما الأسطورة السوداء؟

انتشرت عبارة الأسطورة السوداء بشكل موسع ابتداء من نشر الكتاب الـذي يحمـل هذا العنوان عام ١٩١٤ وهو كتاب ألفه خوليان خوديرياس J. Judérias. ويـرتبط الاسـم نفسه بأمر نفي أو دحض تلك الأسطورة، وإبراز زيفها ذلك أن من قاموا بإشـاعتها أو مـن قاموا بالعمل على استمراريتها لم يطلقوا عليها هذه التسمية أبدًا. كما أن جميع المراجع المتعلقة بالأسطورة السوداء تكاد تكون عبارة عن مجموعة من الجهود المتمثلـة في البرهنـة عـلى أنهـا غير صحيحة وتقوم برسم مسارها. ومن الأعمال المهمة في هذا السياق نجد ما قـام بـه كـل مـن رومولـو د. كاربيـا R.D.Carbia ولـويس هانـك L. Hanke وسـفركر A. Sverker أرنولدس، وفيليب دبليو باول F.W. Powell، كما أنها إسهامات تلقي الكثـير مـن الـضوء على التاريخ الإسباني في أوربا وأمريكا. يحتوي كتاب هذا المؤلف الأخير، وعنوانه Tree of Hate[49] على معلومات ممتازة تتعلق بالموضوع مصحوبة بقائمة بالمراجع.

---

(49) الترجمة الإسبانية: شجرة الكراهية: الأسطورة السوداء ونتائجها في باب العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم المتحدث بالإسبانية، مدريد ١٩٧٢م.

لكن ما يهمني هنا، وبشكل ثانوي، زيف الأسطورة السوداء، وعدم وجود أساس لها، أو تشويه الواقع. ما يهم هو أن نفهم فحوى ما يمكن تسميته بالأسطورة السوداء، وهو أمر شديد الأصالة ولا يمكن خلطه بالعدوانية والهجمات والتشويه والسب. تعرضت جميع الشعوب، التي تحظى ببعض الأهمية، في بعض لحظات تاريخها، لمثل هذا الصنف من التعامل. غير أن ليس لهذا علاقة بما هو أسطورة سوداء، وهذا أمر غير شائع على الإطلاق لدرجة أنني أعرف حالة أخرى، إضافة إلى الحالة الإسبانية: إنها حالة الولايات المتحدة في الفترة الأخيرة وبالتالي فهي فترة قصيرة نسبيًا. وإذا ما نحينا جانبا ما ينظر إليه على أنه ظاهرة تاريخية وما لها وما عليها، يجب أن نتساءل: ما هي؟ يقول خوليان خوديرياس "إن معنى الأسطورة السوداء هو المناخ الذي ينشأ عن الحكايات الفانتازية والتي خرجت إلى النور وتناولت بلدنا في أغلب بلدان العالم. هناك الوصف الجروتسكي لطابع الإسبان كأفراد وكجماعة من الناس، كما أن هناك الرفض أو، على الأقل، التجاهل المتعمد لكل ما هو مشرّف ومواتٍ لنا ويتجلى في الثقافة والفن، هناك أيضًا الاتهامات التي تُكال لإسبانيا في كل لحظة، والتي تقوم لهذا الغرض، على أحداث مبالغ فيها وأُسيء تأويلها وأنها زيف من الألف إلى الياء، وفي النهاية هناك التأكيد الذي ورد في كتب تبدو جديرة بالاحترام وموثوق منها وتصدر في طبعات مُختلفة وتحظى بتعليقات في الصحف الأجنبية متحدثة عن أن وطننا يعتبر استثناء من منظور التسامح والثقافة والتطور السياسي، وهو استثناء مؤسف في إطار الأمم الأوربية.

"وفي كلمة واحدة نفهم الأسطورة السوداء على أنها أسطورة إسبانيا محاكم التفتيش، وإسبانيا الجاهلة والمتعصبة وغير القادرة على أن تكون في مصاف الشعوب المثقفة سواء كان ذلك الآن أو قبل ذلك، وأنها على استعداد دائم للقيام بالأعمال القمعية العنيفة. وهي عدوّة التقدم والتجديد. أو يمكن قول ذلك بطريقة أخرى وهو أن الأسطورة التي بدأت تنتشر خلال القرن السادس عشر أثر الإصلاح ظلت مستخدمة ضدنا منذ ذلك الحين وخاصة في اللحظات الحرجة في حياتنا الوطنية.

هذا التعريف الذي أورده خوديرياس عام ١٩١٤، وهو الفترة التي كانت شديدة الهدوء في حياتنا القومية، يتسم في إجماليه بأنه سليم، لكنه لا يشير إلى ما أعتبره أمر مهما. خوديريّاس يصرّ على زيف الأسطورة السوداء، ويأتي هذا بشكل ثانوي من خلال الترديد والتكرار والإطالة بهوس.

وهنا أرى أن السمة المميزة لهذه الظاهرة الغريبة هي التجريد من الأهلية لبلد بشكل كامل، ويقوم هذا على أحداث سلبية، لكن لا يهم كثيرا أن تكون أحداثا حقيقية أو مزيفة. في جميع بلاد العالم وقعت أحداث (وأظن أن سوف تقع في المستقبل لسبب أو لآخر) تعكس القسوة والتصرف الأخرق واستغلال السلطة وانعدام الوازع والجشع والتعصب. يمكن أن تكون هذه الأحداث حقيقية، وربما تتم المبالغة فيها بسبب العداء أو الرغبة في أن يكون الأمر فاضحا أو نتاج خيال جامح عندما ينتقل الحدث من يد إلى أخرى. كما أنها يمكن أن تكون أحداثًا زائفة ومخترعة واتهامات مفبركة بخبث. ومن الطبيعي أن تكون هذه الاختلافات شديدة الأهمية لكنها – مهما استغربنا – جديرة بالازدراء بالنسبة لما أحاول إيضاحه: "تكوين" الأسطورة السوداء بشكل عام.

لنفترض جدلا أن الأحداث السلبية المنسوبة إلى بلد ما حقيقة. وهنا أريد القول إن من الطبيعي عندما لا تكون هناك أسطورة لن تترتب أي نتائج تذهب بعيدا عن تلك الوقائع، فتاريخ أوربا كلها، ولا نقول تاريخ جميع القارات، مليء – خلال العصور الوسطى وعصر النهضة وحتى في بداية العصر الحديث – بالأحداث العنيفة غير المسبوقة وبنماذج من القمع والمطاردات والقسوة في إدارة العدالة حيث يتم اعتبار بعض السلوكيات جرائم وهي في حقيقة الأمر لا تستحق هذا التوصيف. كانت الصراعات بين المدن الإيطالية عنيفة للغاية ودموية، لكن هذا لم يؤثر سلبا بأي حال من الأحوال على صورة إيطاليا كدولة ذات ثقافة رفيعة وتقدم لا نظير له في الفن والحياة. هناك الحروب الدينية في فرنسا وهي حروب امتدت طوال القرن السادس عشر وانتهت بليلة القديس

بارتولوميه، كانت حروبا طويلة ولا هوادة فيها وكلفت شلالا من الدماء. ويمكن قراءة بليز دي مونلوك Blaise de Monluc حيث نجد أن تعليقاته أكثر من كافية رغم أنها لا تغطي جميع الصراعات التي دارت. ولا تنسى أيضًا القسوة الفظيعة التي اتخذها القضاء طوال القرن الثامن عشر[50]، والرعب في أثناء الثورة الفرنسية وتمرد La Commune وعمليات القمع التي تلت ذلك. هذه كلها أحداث ذات طابع غاية في العنف لكنها لم تؤثر على سمعة فرنسا قرنا وراء قرن ولم تحل دون النظر إلى فرنسا على أنها أمة تثير الإعجاب وأمة خلاّقة وذات حضارة عظيمة. يمكن القول بشيء مشابه عن إنجلترا، البلد الذي يتسم بأن له تاريخًا من أكثر التواريخ عنفا وقسوة خلال العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر، ووصل إلى الذروة في عصر إنريكي الثامن وهي فترة من الصعب تجاوزها. ثم من بعد ذلك هناك قانون جنائي غاية في القسوة ظل معمولا به حتى وقت متقدم من القرن التاسع عشر، وهناك تاريخ استعماري أنا لست على استعداد لتجاهله، لكنه كان مصحوبًا بعناصر سلبية جمة وظلت قائمة حتى وقت قريب. كل هذا هو أمر معروف، ويتم أخذه في الحسبان لكن التحليل التاريخي يتوقف كثيرا عند إصدار شهادة الوفاة للحضارة البريطانية. ويحدث عكس هذا، بمعنى أنها ظلت طوال فترة طويلة من الزمن على أنها النموذج العظيم المقدم يحذو حذوه الآخرون. وحتى ننتهي من تعداد الدول التي كان لها وجود مهم في التاريخ الغربي نذكر ألمانيا، وهي الدولة التي يحتوي تاريخها على الكثير من العنف مثل الأخريات مثل حروب القرويين على زمن لوتيرو، وحرب الثلاثين عاما ومحاكمة السحّرة حتى نهاية القرن الثامن عشر، ثم نصل إلى يومنا هذا لنرى المشهد الذي لا يُتَصور والمتمثل في القومية الاشتراكية. ورغم هذا جرى الحديث باحترام شديد – له ما يبرره – عن "ألمانيا الضليعة في العلوم" المبدعة لأفضل شيء في الثقافة الأوربية خلال الفترة من ١٧٨٠ وحتى ١٩٣٠م، ولم تستطع الهتلرية بكل

---

(50) انظر كتاب جون ماكمانرز Death and the Enlightenment كلاردون برس – أكسفورد ١٩٨١م.

ما فعلت أن تُفْقد ألمانيا الاحترام والتقدير، وهـي اليـوم تحظـى بهـما معـا. لم تكـن هنـاك أسطورة سوداء تتعلق بأي من هذه البلدان.

الأسطورة السوداء عبارة عن الانطلاق من نقطة محددة يمكن اعتبارها حقيقة، ثـم تمتد الإدانة والتجريد من الأهلية للبلد جميعًا وعلى مدار تاريخها بما في ذلك مستقبلها. وهنا مكمن السمة الرئيسية للأسطورة السوداء، وفي حالة إسبانيا نجد أنها قد بدأت مع بدايـة القرن السادس عشر، وأصبحت أكثر قوة وكثافة خلال القـرن الـسابع عـشر، ثـم تعـود للظهور من جديد خلال القرن الثامن عشر – وهنا سوف يكون من الضروري التساؤل: لماذا – ثم تنتعش ثانية تحت أي ذريعة دون الاستغناء عنها مطلقًا.

لماذا هذا الطابع الاستثنائي، وهذا التفرّد في إطـار الـدول الأوربيـة؟ وحتـى تنـشأ الأسطورة السوداء من الضروري توافر ثلاثة عنـاصر في آن. أولهـا أن يكـون هـذا البلـد شديد الأهمية حتى يكون لـه حـضور في أفـق الـبلاد الأخـرى التـي يجـب أن تـضعه في الاعتبار، ثانيها: وجود إعجاب سرّي بهذا البلد لكنه غـير معلـوم، ثالثـا: وجـود تنظـيم (يمكن أن تكون هناك عدة أنظـمة تتواءم مع بعـضـها أو يخلـف بعـضها بعـضا). وإذا لم تتوافر هذه الشروط لن تزدهر الأسطورة السوداء أو لن تبدأ على الإطلاق أو لن يـستقيم عودها أو أنها سرعان ما تسقط. هناك النموذج الألماني في عصرنا هذا وهو أفضل مثال في هذا السياق لإيضـاح الفكرة.

الظروف الإسبانية:

عرفنا المكانة التي تحتلها إسبانيا في العالم منذ وحدتها الوطنية. وسرعان ما نجدها في كل مكان مثل أوربا وأمريكا. وبعد ذلك في المحيط الباسـفيكي وآسـيا الـشرقية. وتقـوم بنشاط وعلى كفاءة من الصعب فهمها وتتوالى أفعالها. وبالنسبة لقشتالة وأرغن لم يكن من الضروري أخذ ذلك في الحسبان ذلك أنهما كانتا مشغولتين بالشأن المحلي في شبه الجزيـرة

أو الامتداد قليلا حتى البحر الأبيض المتوسط أو المحيط الأطلنطي (جزر الكناري)، إلا أن الأمر بالنسبة لإسبانيا كان شيئًا آخر إذ فجأة تتم مشاهدتها في كل مكان وبشكل كبير مع نهاية القرن الخامس عشر وخلال العقود الأولى من القرن السادس عشر. هذا التسارع في الأداء يبدو لي أمرا غاية في الأهمية لأنه يتضمن عنصر المفاجأة والشيء غير المتوقع والغريب، وهذا يعني أن يُعاش ذلك على أنه عُتُوّ: يبدو عتوا أن تتجلى إسبانيا التي كان لها مكان في الأفق العام بشكل سريع وكأنها شيء لم يكن متصوَّرا (لنتذكر حالة السخط التي نجمت عن فعلة ثربانتس، الرجل الذي قام وهو في الثامنة والخمسين من العمر بنشر الجزء الأول من عمل عبقري، هو دون كيخوته بعد أن كانت صورته المعروفة عند الدنيا أنه كاتب جيد ومتواضع).

لم تتعرض البرتغال وهي البلد التي كانت لها توسعات ضخمة فيما وراء البحار وموازية لإسبانيا لمثل هذه الأسطورة السوداء. لماذا؟ **لأنها لم تكن موجودة في أوربا**، بل كانت موجودة على أرضها وفي المناطق التي دخلت إليها. كانت "الرؤية للبرتغال" أقل بكثير وبالتالي كان السخط عليها قليلا. غير أنه عندما اتحد التاجان عام ١٥٨٠م، أي عندما أصبح "الفِلِيبيُّون" الثلاثة ملوكا لإسبانيا والبرتغال وبالتالي لجميع الممالك التابعة نجد أن الهوة شاسعة بينهما وبين أي أمة أوربية أخرى، كما أن التدخل سوف يمتد إلى العالم بأسره، أضف إلى هذا أن الحافز هو أقوى بكثير عن ذي قبل.

يثير هذا السلطان العظيم الإعجاب، فهناك القوة الحربية وهناك الشهرة بأنها لا تهزم وقد بلغت فرقها،Tercios وهناك عمليات الإبحار التي لا تصدق والغزوات الأسطورية لإمبراطوريات ضخمة باستخدام عدة مئات من الرجال، وهناك واقع – وشهرة – الثروة والذهب والفضة المجلوبين من الهند الجديدة وهناك المسارعة في تأسيس العديد من المدن في العالم والسيطرة المباشرة على أجزاء كبيرة من أوربا في العالم الجديد والسيطرة المباشرة على أجزاء كبيرة من أوربا وانتشار اللغة الإسبانية – وهذه ظاهرة فريدة بين الأوربيين – وهناك شهرة الموضات والكتاب والأساليب المعيشية. كل هذا كان سببًا

في الإعجاب وكثيرا ما يثير التصديق غير المعلن عليه لكنه تصديق مشوب بالحقد. هناك حالة نجد فيها الإعجاب واضحا وكريما مثلما نراها مع الكونت بلتزار كاستيجليوني الرجل الذي اتسم سلوكه كرجل نبيل، ومعه زوجه، بأنه يتضمن عناصر إسبانية. غير أن هناك حالات أخرى كثيرة هناك إعجاب يطلق عليه **rentrée** ومشوب بالنقمة ويتحول إلى حقد وعداء.

وفي نهاية المطاف نجد التنظيم، وبالنسبة لهذا الوضع نجد أنه متعدد أو متزامن أو متتابع وتصاحبه فعالية غريبة. ومن بين مزايا الكتاب الذي ألفه فيليب باول هو الإلحاح على تعدد أصول الأسطورة السوداء والتي لا تقتصر على أمريكا بل لها جذور في إيطاليا وألمانيا وفرنسا وفلاندس وإنجلترا. وكانت لها جذور، في حينها، في المالك الإسبانية في أمريكا.

ورغم أنه نادرا ما يتم التفكير في الأمر فإن إيطاليا تعتبر واحدة من المصادر الرئيسية، فوجود أرغن على أراضيها منذ ما قبل الوحدة الوطنية في شبه الجزيرة الأيبيرية ومع قشتالة بعد ذلك، (نذكر في هذا المقام ما قامت به سفن جونثالو دي قرطبة التي كثيرا ما هزمت الفرنسيين على الأراضي الإيطالية) كان من العناصر الحاسمة في هذا الإطار. بدأ الناس ينظرون إلى الإسبان على أنهم مسيطرون متغطرسون، وأحيانا ما يتسمون بالفظاظة، والشيء الغريب أنه كان يُنظر إليهم على أنهم يهود أو قد اختلطوا بهم. هناك نقمة بعض الإيطاليين والتي أفاد منها الفرنسيون وأحيانا ما ساند ذلك بعض البابوات المعادين لآل بورخا أو بورخيا Borja, Borjia وقد ساعد كل هذا على بدء الحملة بقوة. كان اليهود يشعرون بالألم لما عانوه من مطاردات في أثناء محاكم التفتيش، وكذلك مرسوم الطرد الذي أبعدهم عن أرضهم الحقيقية، وبالتالي أصبحوا عنصرا فعالا وقويا ضد إسبانيا، سواء في إيطاليا أو في باقي أنحاء أوربا، من خلال نشر الأسطورة. فعل الشيء نفسه البروتستانتيون ذلك أن إسبانيا قد أيدت بشكل حاسم القضية الكاثوليكية. وإلى الأسباب الدينية هناك أسباب سياسية وهي مقاومة السلطة الإسبانية في فلانوس،

ومناوأة فرانثيكو الأول الفرنسي لكارلوس الخامس إمبراطور إسبانيا، وحروب إنجلترا التي كانت تستهدف الصراع في أوربا ومنازعة إسبانيا في أملاكها الأمريكية.

وفي منتصف القرن السادس عشر، أي عندما كانت جميع العناصر مجتمعة ومنظمة ومتوائمة بدأ يظهر كتاب **"الموجز في تدمير الهند الجديدة"** لفراي بارتولوميه دي لاس كاساس (إشبيليه ١٥٥٢م). سوف يكون هذا الكتاب الصغير العنصر الجامع الشامل ومفتاح التحليل والمحور الذي سوف يشد عود الأسطورة، ينسحب على جميع الاتجاهات وعلى إجمالي التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل. تكاثرت طبعات هذا الكتاب وترجم إلى كل اللغات وأضيفت إليه لوحات متخيلة يقشعر لها البدن (مثلما عليه طبعة تيودور دي بري) وذلك حتى يكون تأثيره أكثر فعالية. وسرعان ما تم تنظيم سير القديسين Lascasiana التي ما زالت قائمة حتى الآن وربما ما زالت في أوْجها. من المهم الإشارة إلى أن الكتاب المهم الذي ألفه مننداث بعنوان **"بادري دي لاس كاساس: ازدواج شخصيته"**، مدريد ١٩٦٣ ظل مهملا وواراه النسيان رغم الأهمية الكبرى والسمعة، التي لا تقارن، الذي عليها المؤلف، ووصل الأمر في هذا المقام إلى أن الكتاب لم يطبع مرة أخرى على مدار ثلاث وعشرين سنة ولست أدري فيما إذا كانت الطبعة الأولى منه قد انتشرت ونفدت أم لا.

لم تُفْهم جيدًا تلك الرؤية النقدية الحادة التي اتخذها مننداث بيدال، ويبدو أنه كان هناك افتراض يقول إنه قد أصابه الغيظ من هذا المؤلف غريب الأطوار والمعادي لما هو إسباني ألا وهو الأب دي لاس كاساس. لم يكن ذلك هو قول الفصل: فما أخرج مننداث بيدال عن شعوره وهو الرجل الدقيق والمتأني والمثقف، إلا اللامسئولية المطلقة التي كان عليها أسقف تشياباس، ومبالغته الدائمة والباثوليجية ولجوؤه للتشويه بشكل دائم ليس فقط للواقع وإنما لما هو ممكن. وإذا ما كان هذا الأسقف قد فعل الشيء نفسه لصالح الإسبان فإني اعتقد أن نفور مننداث بيدال منه لن يكون أقل من موقفه الذي اتخذه منه. يشير باول إلى البروفسور الأمريكي جون تات لاننج J.T.Lanning، الذي يقول فيما

يتعلق بالأسقف: إذا ما كان كل إسباني من هؤلاء الذين تضمهم قائمة برمودث بلاتـا في كتابه "مسافرون إلى الهند الجديدة" على مدار نصف القرن الثاني لتاريخ الاكتشاف لكـان قد قام بقتل هندي كل يوم عمل وقتل ثلاثة أيام الآحاد، وكان من الـضروري أن يمـضي جيلٌ لبلوغ العدد الذي ينسبه له رفيقه في المواطنة".

هذا هو المحور الأصلي، الذي تم إحكامه ودعمه من خلال تضافر عدة تنظيمات تواجه المشروع التاريخي الذي شكّل إسبانيا. قضي الأمر، وأخذت الأسطورة مسارها. وابتـداء مـن ذلك الحين واستنادا إلى ما بها من قصور ذاتي كانت موجهة لتنمو وتزدهر. لكن لم تغب عناصر دعم لاحقة: هناك، كل منافس لإسبانيا، سواء كان أوربيا أم غير أوربي، وهناك كـل مجموعـة كانت تشعر أن مصالحها تعرضت للخطر بسبب الإسبان، وهناك كل منشق في أي حقل ولأي سبب، فقد وجد كل هؤلاء العربة سابقة التجهيز يقومون بتمرير عدائهم أو حقدهم.

وفي الحالة الإسبانية نجد الشروط التي أشرت إليها والتي تعتبر شروطًا جـوهرية وضـرورية لمـولد وتدعـيم الأسطـورة السـوداء قد اكتملت sine quibus non (ومثـل هذا حدث مرة أخرى خلال القرن العشرين في حالة الولايات المتحدة)(٥١).

النتائج:

من البديهي أن حملة ممتدة وقوية مـن العـداء والتـشويه قـد أحـدثت تأثيرهـا عـلى العلاقات الدولية لإسبانيا وعلى أنشطة الإسبان وتقدير أعمالهم، غـير أن هـذا لـيس هـو المهم ولو كان كثيرًا، فالأمر الخطير كان قد تحدد في أن الإسبان قد تأثروا بـشكل أو بـآخر بهذا التحليل لواقعهم التاريخي والحالي وانسحب ذلك على رؤيتهم للمستقبل.

---

(51) يشير مننندث بيدال إلى أنه خلال سبعة عقود صدرت الترجمات التالية من كتاب "تدمير" (هناك عدة طبعات مصحوبة بلوحات رسمها تيودور دي بوي): ٢١ طبعة بالهولندية و٨ بالإيطالية و٦ بالفرنسية و٤ بالألمانية و٢ بالإنجليزية و٢ باللاتينية. ومن جانب آخر فإن التوجه الوطني الاشتراكي الألماني استخدم هذا العمل عام ١٩٣٦ وترجمة (أ. ميلر لايبزج) بعنوان تحت راية الصليب، تدمير الهند الغربية، بمعنى القضاء على هنود الجنوب جماعات جماعات وكذا على هنود وسط أمريكا طبقاً لشهادة بارتولوميه دي لاس كاساس. أسقف تشياباس عام ١٥٥٢).

يمكننا الحديث في المقام الأول عن الذين "أصيبوا بعدوى" هذه الأسطورة السوداء، أو هؤلاء الذين اعتقدوا أنها حقيقة أو تأثروا على أقل تقدير بالشكوك الخطيرة وتأثروا ولو بشكل متوسط بالتبريرات التي جاءت بها أو أنهم قد أخذوا بالمثل القائل "عندما يسمع صوت النهر فإنه يحمل المياه أو الحجارة" وهؤلاء هم الإسبان الذين عاشوا أو يعيشون في حالة اكتئاب تاريخي.

هناك مجموعة ثانية ألا وهي مجموعة الساخطين الذين رفضوا التشويه في حد ذاته بشكل مطلق ودون أي تمحيص، هم غير المتسامحين الذين يطلق عليهم خلال القرن الثامن عشر "المناصرون" الذين يدافعون عن الطيب والخبيث دفاعًا حتى النهاية ويشمل ذلك أيضًا الدفاع عما هو عدل وظلم، وهم في الأعم الأغلب من هؤلاء الذين يحتقرون الغير.

لكن هناك بعض الإسبان الذين نجوا من هذين الموقفين، أي هؤلاء الذين حافظوا على حريتهم إزاء الأسطورة السوداء دون القبول بها أو ممارسة لعبة نقدها على أساس عدم وجود خلفية للعلم بها، ودون الردّ أيضًا من منطلق الانغلاق إلى غير ذلك من أشكال عدم التسامح، أي هناك في نهاية المطاف من ظلوا منفتحين على الحقيقة. ويمكن أن يكون نوعا من المغامرة القيام بإعداد قوائم ثلاث للإسبان (وابتداء من نهاية القرن الثامن عشر من الإسبان والأمريكيين) الذين ينسبون إلى هذه الفئات: ربما تكون القائمة الأولى والثانية طويلتين، أما الثالثة فهي للأسف أقصر وهي آخر الثلاثة.

كان هذا الموقف خطيرًا بدرجة لا حدود لها بالنسبة لحياة إسبانيا (وكذا للشعوب المستقلة المتحدثة بالإسبانية وذلك من خلال آلية غريبة سوف يتوجب دراستها لاحقا). استطاعت الأسطورة السوداء، أو تلقيها، بالأحرى، أن تدمر أو تغلق الباب أمام عدد كبير من الإمكانيات، وقادت نحو غموض غريب وخطير يتعلق بالواقع نفسه وطريقة الإحساس به من جانب المجتمع صاحب التاريخ. لن يبقى الأفق الخاص بهذه الشعوب مفتوحا حتى يتم استيضاح هذه الصورة المشوهة بشكل كامل، وحتى يعرف المتحدثون بالإسبانية ما هي المرجعية بالنسبة لواقعهم. وهذا الكتاب يريد أن يسهم بشيء في هذا المقام.

كان كيبيدو واحدا من أوائل الذين كان لهم رد فعل واضح على الأسطورة السوداء. ففي عام ١٦٠٩م كتب مؤلفا بعنوان **"دفاعا عن إسبانيا"**(٥٢). والشيء المهم في هذا المقام هو أن القلق الذي عليه كيبدو يتمثل في أن تنتشر بين الأجانب الذين يهاجمون إسبانيا ويسبّونها وبين الإسبان الذين يسيرون على نهجهم أو يجهلون واقعنا أو يكتبون عن تاريخنا وهم غير مؤهلين، وهذا أسوأ بكثير من امتناعهم عن الكتابة. أي أن كيبيدو كان واعيا للإسهام الإسباني في الموقف الذي كان في مرحلة التكوين. وسوف أنقل هنا بعض العبارات ذات الأهمية في هذا المقام:

"الطموح الضئيل لإسبانيا، من أن يتم تحميل الذنب على العباقرة فيها، يحمل في يد النسيان الأشياء التي كانت جديرة بأن تكون شهيرة وذات صوت مسموع..."

"يا ابن إسبانيا، اكتب مفاخرك، فعند الحديث عنها من المؤلم أنه تم طمسها، ولم تعد تبدو مناسبة للبث والذيوع في أي من العيون..."

"أعرف جيدا أنني أخالف الكثيرين وأعرف جيدا من سيتسلحون ضدي، ولم أكن لأكون إسبانيّا لو لم أبحث عن المخاطر بالتعبير عن ازدرائهم في البداية قبل هزيمتهم لاحقا..."

"ليس هناك طموح لإبراز العبقرية هو الذي حدا بي إلى هذا الموضوع، فما دفعني هو ما شهدته من سوء معاملة فظة يتعرض لها وطني من قبل الأجانب، وها هو زمن أبناء هذا الوطن، وليس هناك أي باعث للإبقاء على الأجانب الحقودين ولا على أبناء البلد الملعونين المولعين بهذا. والصمت مع الآخرين إذا ما عادوا وسمعنا لهم من خلال تواضعنا وصمتنا".

---

(52) العنوان الكامل لهذا العمل له مغزاه وهو "دفاعا عن إسبانيا وعن الزمن المعاصر وضد السباب الذي يكيله أدعياء التجديد والمثيرون للفتن". ويمكن الإطلاع على هذا عند دولوروس فرانكو: إسبانيا كقلق" (الطبعة الثالثة – أرجوس بيرجارا – برشلونه ١٩٨٠م ص ٣٨-٤٠). نجد في هذا الكتاب النصوص الرئيسية لرد الفعل على الأسطورة السوداء ابتداء من القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين.

"أي شيء طيب ولد في إسبانيا في عيون أمم أخرى، أو ماذا خلق الله فيها شيئا يبدو في نظرهم أنه من عمل يدهم؟"

"آه يا إسبانيا صاحبة الحظ التعس! أقلب ألف مرة في ذكريات مآثرك القديمة وأحداثك ولم أر أي شيء يجعلك محل هذه الإهانة! وعندما أرى أنك أم لهؤلاء الأبناء يبدو لي أنهم - فأنت من قمت بتربيتهم - ومعهم الغرباء يرون أنهم على حق في قول السوء عنك لأنك تسمحين لهم بذلك..."

إذن، لقد حان وقت الاستيقاظ وأن نستخدم جزءا من وقت الفراغ لنبرهن من خلاله على ماهية إسبانيا وما كانت عليه قبل ذلك وأنها حققت النصر بفخار بالسيف والقلم كما لم تحققه قبل اليوم، يحكمها السيد/ فيليب الثالث، سيدنا. علينا معشر الإسبان أن نبكي على أمرين: أولاها ما لم يُكتب عن أمورنا، وثانيها هو أن ما يكتب حتى الآن كان سيئا للغاية، حيث تعيش تلك الأمور سعيدة بالنسيان ولم يجرؤ مؤرخونا على انتشالها بحجة أنهم ينبشون ما هو مقدس ولا يعطونه الأولوية. وعلى هذا، فعقابا من السماء سمح الله بكل هذه المصائب ليتم القضاء على ذاكرتنا. وما تم حتى اليوم الكشف عنه وغزوه والسيطرة عليه من قِبَلنا في الهند الجديدة تعرض للتشويه من خلال كتاب صدر في جنيف مؤلفه من ميلان يدعي خيروينمو بنثون وعنوانه (الذي يتواءم مع الحرية المتاحة في المكان ومع بذاءة المؤلف) هو "حكايات جديدة عن العالم الجديد، عن الأشياء التي فعلها الإسبان في الهند الغربية حتى الآن وعن قسوتهم وطغيانهم ضد هؤلاء الناس، إضافة إلى الخيانة والقسوة التي عامل بها الإسبان الفرنسيين في فلوريدا".

هذا النص الذي كتبه كيبيدو يوضح كل شيء، والشيء المهم فيه في نظري هو الشكوى المرة لجهل الإسبان بواقعهم ووصل الأمر في هذا المقام إلى أنه يفضل النسيان بدلا من الصورة التي رسمتها أغلب النصوص الموجودة. مرّ نحو ثلاثة قرون، وما زالت كلمات كيبيدو تحتفظ بصدقها حتى اليوم.

أود أن أذكر شاهدا آخر يرجع إلى القرن السابع عشر، بعده بقليل، ألفه دييجو سابدرا فاخاردو، بعنوان **فكرة أمير سياسي مسيحي، ممثلة في مائة مهمة** (١٦٣٠م)، في المهمة أو المقصد الثاني عشر يمكن أن نقرأ ما يلي:

"كلما كانت الممالك كبيرة زاد ارتباطها بالكذب، كما أن قوة لمعان الثروة الضخمة يثير ضده ضباب الهمهمة. فكل شيء يتم تفسيره بسوء، ويكال السباب للإمبراطوريات الضخمة. وما لا يمكن أن توهن من عضده القوة، تتم محاولة الوصول إلى ذلك من خلال السِّباب... أي تشويه وضيع، وأي تظاهرات زائفة، وأي مفاخر متخيلة، وأي منشورات لئيمة لم تقذف بها مملكة إسبانيا! لم تستطع المباهاة أن تنال من شرف حكمها العادل في الممالك التي لها في أوربا ذلك أنه على رؤوس الأشهاد، وحتى تتمكن من إحداث الكراهية لحكم إسبانيا وعدم التوصل إلى حل لعصيان الأقاليم المتمردة من خلال الزيف الذي يصعب التأكد منه نشرت تفترض فيه وجود سوء معاملة للهنود، ألفه أسقف تشياباس وجعلته ينتشر في إسبانيا أولًا وكأنه طبع في إشبيليه وذلك لترسيخ الأكذوبة، ثم تمت ترجمته بعد ذلك إلى كل اللغات".

كان كيبيدو يتحدث عن كتاب ألفه بنزوني، أما سابدرا فاخاردو فكان يتحدث عن كتاب الأسقف دي لاس كاساس. والشيء المهم في كتاب سابدرا هو أنه يبرز أن ما لا تكون له قيمة حول أوربا "على رؤوس الأشهاد" يقال عن بلاد بعيدة حيث من الصعب أو من المستحيل التأكد مما يقال. وهذا تكتيك نشهده في وقتنا الحاضر.

يعترف سابدرا بأن الغزوات الأولى ربما اعتورها بعض الخلط والتجاوز وقام الملوك الكاثوليك بإصلاح المعوّج والعقاب لمن أساء. ثم يذكر في سطور وجيزة العمل التحضّري الضخم الذي أوعز به الملوك وقام به "رجال رسوليون". ثم يختتم قائلا: "ومنذ تلك الفترة حافظ ملوك إسبانيا على ذلك بالعدل والسلام والتدين والاستقرار السياسي الذي تتمتع به ممالك قشتالة".

يعكس لنا سابدرا فاخاردو الموقف الذي كان عليه القرن السابع عشر، إذ تم تشكيل نيابات الملك، كما أن رؤيته تتوافق مع رؤى المؤرخين المسئولين (هاريخ، وفيلان وباول وآخرون كثيرون، هذا دون أن نذكر الإسبان والأمريكان ابتداء من بيريرا أو كابويا وانتهاء بالإسبان في عصرنا هذا).

أزمة المشروع التاريخي:

لم تُجرَ دراسة جيدة لأهمية وتأثير الأسطورة السوداء على الواقع الإسباني ابتداء من القرن السابع عشر، أي عندما بدأت تكون هناك نتائج داخلية، إذ لم يُرَ أنها أحدثت تأثيرا عميقا وتحولا في المشروع التاريخي لإسبانيا الذي عملت على إبرازه وإيضاحه.

أدخلت الأسطورة السوداء نوعا من البلبلة في أذهان الإسبان الذين تحملوا مسئولية توجيه وتفسير الملامح الخاصة بإسبانيا ومدلولها في التاريخ. وقد كانوا حتى ذلك الحين على توافق مع المشروع وقاموا بصياغته بتلقائية وبساطة، كما أن هذا المشروع ظل فاعلا كمعتقد أساسي بالنسبة لجماع الشعب الإسباني في بنية معقدة من الإسهام والتي يمكن أن تكون مثيرة عملية تحديد ملامحها وإمعان النظر فيها. أخذت إسبانيا تتكون على إيقاع هذا المشروع الذي أحدث نقلة من إسبانيا المفقودة إلى أن أعاد إليها وضعها وامتد ذلك بالطبع في إسبانيا القومية الموحدة وإلى تجاوز ما كانت عليه لتصبح، تحت التاج نفسه – تجسّد ملامح ذلك المشروع – مجموعة من الشعوب غير المتجانسة يُنظر إليها على أنها أعضاء أو ممالك أو أقاليم في هذه المملكة ذات الصفة الرئيسية وهي الكاثوليكية.

أصبح كل ذلك محل جدل عندما شوهدت انعكاساته في الرأي العام الأجنبي، وهو رأي له تأثير كبير كما أنه منسق، ويطبق بشكل منتظم على كل ما هو إسباني، ويؤدي إلى نوع من البلبلة بين الإسبان الذين يعرفون به. كما أنهم – أي هؤلاء الإسبان – سوف يتخذون موقفا وهم يحملون هذا القلق في داخلهم، لكنهم على أي حال قد فقدوا العقوبة. أريد القول إن هؤلاء الذين يرفضون ذلك التحليل السلبي يفعلون ذلك من

منطلق موقف صراع. فلم يعودوا ثابتين على القناعة التي كانت تحفز الإسبان منذ بداية العصور الوسطى، ويشكل فيه متعة ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر - وهنا نتذكر على سبيل المثال كلمات نبريخا أو كلمات فرناندو دل بولجار - بل إنهم يؤكدون ما هم عليه من خلال الجدل في مواجهة مؤلفي الأسطورة ومواجهة الكثير من الإسبان الذين يقبلون بها أو أنهم قد تأثروا بها على الأقل نظرًا لقوته وصِيْتها.

اتسمت القرون الأربعة الأخيرة من تاريخ إسبانيا بحالة من التشويش والقلق وكان هذا الموقف هو أكثرها، وهو موقف لم ينج منه إلا الإسبان الذين أطلقت عليهم صفة "الأحرار"، أي هؤلاء الذين حافظوا على رباطة جأشهم واستقلالهم أمام هذا الموقف. كما أننا يجب أن نقوم بمزيد من التحديد لمثل هذا الموقف ألا وهو أن تلك الحرية كان عليهم أن يصلوا إليها ويحصلوا عليها من خلال بذل جهد شائك في البحث عن الحقيقة والقيمة الأخلاقية. لم يكونوا أحرارا بل كان عليهم أن يتحرروا وهذا يعني أن تلقائيتهم قد تأثرت هي الأخرى رغم أنهم انتصروا على المَيْلين المعارضين. وابتداء من القرن السابع عشر نجد أن كل إسباني على وعي بمشاكل بلده كان عليه أن يعيش حالة اليقظة وأن يكون في موقف دفاع أو هجوم، أي ألا يكون تلقائيا وأن يتحلى بدرجة غير جيدة من رحابة الصدر - ودائما ما فكرت أن رحابة الصدر هي الشرط الأساسي للإبداع الحقيقي.

لم يتم التوصل حتى الآن إلى حل مناسب لهذه المشكلة. فهل يمكن أن يكون هناك حل؟ أعتقد أنه من الممكن، وأن ذلك الحل هو حل ثقافي في المقام الأول intelectual، فلا يوجد تفسير له فعاليته بالنسبة لإسبانيا يمكن الإمساك به، نظرًا لوجود عيب راديكالي في تاريخنا حتى القرن الحالي، وذلك نظرًا للرؤية الجزئية للواقع الإسباني - أريد القول الهسباني - نظرا لنسيان ما كانت عليه إسبانيا بالفعل طوال العصر الحديث، ونظرًا لطرح أنماط غير مناسبة داخل أوربا تتعلق بتحليل وضع بلدنا. وعندما تم القيام بخطوات حاسمة، خلال السنوات التي مضت من القرن العشرين، في طريق التوصل إلى صورة

واضحة، وهي خطوات جديرة بالإعجاب وقعت واقعتـان مـدمرتان: أولاهمـا الحـرب الأهلية التي كانت سببا أو ذريعة لتظهر الأسطورة السوداء من جديد، وذلك باسـتخدام مواد جديدة ذات أهمية لم تكن متوقعة، كما هي العادة فإن كلا الطـرفين المتحـاربين بـذلا جهدهما لأسباب حزبية في إذكائها وتدعيمها حتى وصلت إلى آفاق ربما لم تصل إليها قبل ذلك، أما الواقعة الثانية، وهي الأقل قوة فقد تمثلت في إدخـال منـاظير تـشويهية ومثـيرة للجدل في الرؤية التاريخية، الأمر الذي حال دون النظرة الهادئة ورحابة الصدر والـصدق وهذه كلها عناصر كانت قد بدأت في أن تكون واعدة من أجل استقرار جديـد مبـدع في إطار واقعنا القومي.

ولنفكر في الأهمية الكبيرة المتمثلة في ضرورة الوصـول إلى رؤيـة متـسقة وصـادقة وجلية لما كانت عليه إسبانيا وبالتالي لما يمكن أن تكون.

الفصل الثامن عشر

عدم الفهم الأوروبي للأصالة الإسبانية

البراجماتية السياسية والتأويل النظري

يمكن النظر إلى علاقات أوربا بإسبانيا خلال العصر الحديث، وخاصة منذ الوحدة الوطنية وحتى أزمة النظام القديم عام ١٨٠٨م، من منظورين مختلفين، يتسم أحدهما - بداهة - بأنه ثانوي لكنه أخذ يزداد أهمية وسوف يصل إلى إحداث تأثير حاسم على المنظور الآخر. إنني هنا أتحدث العلاقة **السياسية** التي عليها القوى الأخرى بإسبانيا، وتحالفاتها ومنافسيها ومراعاتها. ومن جانب آخر هناك **التأويل النظري** الذي يقوم به بعض المثقفين حول الواقع الإسباني. وربما يبدو حجم هذا المنظور الأخير غير ذي قيمة، وبالفعل حدث ذلك إزاءه. غير أنه توجد لحظة يكون فيها وزن **الأفكار** أكبر بكثير، أريد القول والإشارة إلى **القوة الاجتماعية** للأفكار وهو لا يتفق بأي حال من الأحوال مع جودة الأفكار من الناحية الثقافية، وأكثر من هذا لا يتفق مع ما تتضمنه الأفكار من حقائق. يعتبر القرن السابع عشر، كما يبدو اليوم بديهيا، بأنه قرن الإبداع العظيم في الفكر الأوربي، أما القرن الثامن عشر فهو أقل بكثير (باستثناء الظهور المتأخر لكانط في ألمانيا) إضافة إلى أن هذا القرن كان في المقام الأول عبارة عن تكرار أو بث - غير دقيق في بعض الحيان - لأفكار جرى طرحها خلال القرن السابق. غير أن الانتقال من نمط حياة كان في البداية **أخويا** إلى نمط آخر أخذت فيه الأفكار تكتسب قوة وسلطانا، كما أنه قد بدأ فيه

الاستخدام **الاعتيادي للأفكار**، الأمر الذي جعل من أعمال "المثقفين" ذات أثر حاسم في الحياة الاجتماعية وكذا في الحياة السياسية.

من المهم ألا نخلط بين الأمور أو بين العصور، وأن نفحص الوزن الذي عليه التحليلات النظرية بالنسبة لإسبانيا في الواقع التاريخي خلال العصر الحديث، وأن يكون ذلك ابتداء من القرن السابع عشر على وجه الخصوص، أي عندما بدأت تتدعم الصورة التي لدى بعض الشعوب عن الشعوب الأخرى – لنتذكر في هذا المقام ما قام به جراثيان من رسم الملامح القومية – وأن تلك الصورة تحدث تأثيرها في السلوك الفعلي.

لا تتسم عملية التشويه للوجود الإسباني في أمريكا والتي نجدها في نهاية القرن السادس عشر في كتابات مونتين **Essais** في الفصل الثاني من الكتاب الثالث بالأهمية، فما هي إلا مجرد انعكاس – دون نقد – للأسطورة السوداء التي أخذت تطوف أنحاء أوربا، وهي تكرار "لما يقال" دون أن تكون هناك معلومات من مصادر أولية أو تكون هناك رؤية شخصية.

وبعد ذلك نجد بعض الآراء لكبار الشخصيات الأوربية في عالم الفكر وهي آراء لم تدرس إلا قليلا، إذا لم أكن مخطئا في تقديري. وأبرز هذه الآراء هي التي تنسب إلى هؤلاء "المثقفين" – وهنا أستخدم مصطلحا حديثا – كانوا يقومون بنشاط مزدوج فهم سياسيون بشكل أو بآخر أو أنهم كانوا على صلة ما بالقرارات السياسية التي تتخذ، أي في تلك الحالات التي يمكن أن نرى فيها التداخل بين المنظورين اللذين يجب أن يؤخذا في الاعتبار. سوف أفحص في هذا المقام رؤية اثنين من المؤلفين، أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي، حيث يبدوان لي مهمين من حيث إنهما يعكسان الموقف بشكل جيد للغاية وأحدثا تأثيرهما على سياسة البلدين، وبالتالي على السلوك العام لأوربا تجاه إسبانيا في لحظات حرجة في تاريخها.

فرانسيس بيكون أمام إسبانيا:

نعرف أن فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٥٦) هو أول شخصية كبيرة في الفلسفة الإنجليزية الحديثة. فمن خلاله تستخدم اللغة الإنجليزية بكاملها في عالم الفكر (رغم أنه لم يتخل عن اللاتينية) وصحب ذلك الانفصال بين ما هو بريطاني وما هو متعلق بقارة أوربا، وكان لهذا نتائج طويلة الأمد ما زالت واقعا مرئيا حتى يومنا هذا. وخلال العصور الوسطى نجد أن المفكرين الإنجليز الذين يكتبون باللاتينية مثلهم مثل الآخرين ويقومون بالتدريس سواء في الجامعات البريطانية أو الأوربية ويقرأ الجميع أعمالهم يشكلون جزءا من تقليد وحيد. وسوف يكون بيكون هو الذي سيضع بقوة نقطة الاختلاف والتي ربما لم تكن جيدة بما فيه الكفاية وخاصة بالنسبة للفلسفة الإنجليزية.

أضف إلى ما سبق أن بيكون كان كاتبا عظيما – فعلى مدار سنوات جرى التفكير بشكل جاد في أن ينسب إليه أنه هو مؤلف أعمال شكسبير – غير أنه فوق كل هذا كان رجل دولة، تأهل في كامبريدج، وأقام ردحا طويلا من الزمن في فرنسا وعمل مستشارًا للملكة إيزبيل وعضوا في البرلمان، وكانت له صلة – زائدة عن الحد – بموضوع إيسكس **Essex** حيث حظي منه على بعض الفضل والعطايا، إلا أنه كان هو الذي قام بالتحقيق في القضية التي أدت إلى اختفائه، وهو الرجل الذي يحظى بالكثير من المناصب والتكريم بما في ذلك ما جاء من لورد Conciller، بارون فيرليم Virulam ونائب كونت سانت ألبان St.Alban. وفي عام ١٦٢١، أي تاريخ الحصول على هذا اللقب، كان سقوطه، إذ تم اتهامه بالفساد ومخالفة واجباته، وتم سجنه في برج لندن وحرمانه من وظائفه العامة. وبعد ذلك بقليل، وخلال العام نفسه، أمر الملك بالإفراج عنه وأعيدت إليه أمواله المصادرة. وفي عام ١٦٢٤م، أي قبل وفاته بعامين حصل على العفو الكامل والشامل. نرى إذن أن هذا الفيلسوف موجود في الحياة السياسية لإنجلترا زهاء أربعين عامًا.

نشر بيكـون، في عـام ١٦٢٣، كتابـا لـه بعنـوان **De dignitate et augmentis scientiarum** وهو عمل جرى إعداده منذ سنوات طويلة مضت، ثم نشر بشكل جزئي بالإنجليزية عام ١٦٠٥م. وفي عـام ١٦٢٥م نـشر **Essays or Counsels Cèvil and Moral**. يتحدث في هذين العملين عـن إسبانيا ويقـول في كلـيهما الـشيء نفسه، ففـي الكتاب الثاني، الفصل التاسع والعـشرون، يتحـدث عـن ("العظمـة الحقيقيـة للممالـك والدول")، حيـث يتحـدث بيكـون عـن المـستعمرات مـن حيـث كونهـا طريقـة لجعـل الإمبراطوريات كبيرة، وبالتالي ليس من الدقيق القول إن الرومان هم الذين امتد نفوذهم إلى العالم، وإنما العالم هو الذي مدّ نفوذه على الرومان، ثم يضيف قائلا "أحيانا ما أعجبت بإسبانيا وكيف أنها أصبح لها أملاك كثيرة من خلال عدد ضـئيل مـن الإسـبان مـن أبنـاء البلد. غير أن الامتداد العظيم والتوسع الكامل لإسبانيا ما هو إلا جـذع ضـخم لـشجرة وهو أكبر بكثير مما كانت عليه روما وإسبرطة في البداية. أضف إلى ذلك أنهم رغـم عـدم لجوئهم إلى استخدام التجنيس بحرية، كان لديهم أمر شديد الـشبه بـذلك، أي اسـتخدام جنود عاديين من جميع الأمم وضمهم إلى ميليشياتهم. هذا صحيح، كما أنهم استخدموهم في القيادات العليا في بعض الأحيان. كما يبدو أنهم في هذه اللحظات يشعرون بحـساسية قلة أبناء البلد الأصليين وهذا ما يبرهن عليه "قانون الموافقة" الذي نشر الآن"[٥٣].

---

(53) «I have marveled sometimes at Spain, how they clasp and contain so large dominions with so few natural Spaniards; but sure the whole compass of Spain is a very great body of a tree; far above Rome and Sparta at the first. And besides, though they have not had that usage to naturalise liberally, yet they have that which is next to it; that is, to employ almost indifferently all nations in their militia of = = ordinary soldiers; yea, and sometimes in their highest commands. Nay it seemeth at this instant they are sensible of this want of natives; as by the Pragmatical Sanction, now published, appeareth.» *The Philosophical Works of Francis Bacon*, London 1905, p. 772. Por cierto, en una nota de Ellis al texto paralelo del *De dignitate et aumentis scientiarum* se señalan los nombres Bourbon, Prosper Colonna, Pescara, Egmont, Castaldo, Parma, Piccolomini, Spinola; pero añade: «De éstos, sin embargo, uno o dos podrían casi llamarse españoles.» Y sin «casi». La

وبعد ذلك بقليل يشير بيكون إلى أنه لكي يتم التوصل إلى الإمبراطورية والعظمة فإن أهم شيء هو أن تقوم أمة بحمل السلاح على أنه أعلى وسام لها وتدرسه وتعنى به. هكذا فعل الرومان وإسبرطة والفارسيون في فترة ما ومقدونيا، وبعض الوقت عند الخال والجرمان والقوط والسكسون والنورمانديين وغيرهم. ثم يضيف أن الأتراك يفعلون هذا اليوم بشكل فيه انحدار كبير. "وفيما يتعلق بأوربا المسيحية، فإن الوحيدين الذين يملكون هذا هم الإسبان"[54] ثم يضيف بعد ذلك بقليل شرحا يقول إن زمن الأتراك قد مضى: "فقد أوقفت معركة ليبانتو عظمة التركي"[55].

يجب ألا ننسى أن هذا قد كتب عام ١٦٢٢م، أي في بداية حكم فيليبي الرابع عندما كان يفترض أن إسبانيا كانت في حالة انحطاط كامل، يتم القبول بأنها كانت فترة تتسم بالازدهار الثقافي والأدبي والفني، لكن يجرى التفكير في أن القوة العسكرية والسياسية لإسبانيا قد انتهت، ولنتأمل كيف يرى بيكون ذلك، وهو الرجل الذي كان يعرف عن أي شيء يتحدث، رغم أنه لم يفهم جيدًا دلالة الأحداث التي يعرضها.

يمكن أن يكون كل ذلك أكثر وضوحا إذا ما جرت دراسة نص له عظيم الأهمية وغير معروف كثيرا حسب ظني، ألا وهو **"الاعتبارات السياسية لخوض حرب على إسبانيا"** الذي وجهه في عام ١٦٢٤م إلى أمير غالس Gales (وهو كارلوس الأول مستقبلا)[56]. كان بيكون من أشد المناصرين لقيام إنجلترا بشن حرب على إسبانيا، ويعتقد بوجود الأسباب – وربما كانت أسبابا كثيرة – ثم يقوم برصد الحجج لتبيان أن النصر ممكن. إنه يحاول أن يقضي على الاعتقاد – الذي كان سائد وحيا حسبما نرى – بالقوة

Pragmática Sanción nombrada es de 1622, y concedía ventajas a los casados, sobre todo si tenían seis hijos.

(54) «Of Christian Europe, they that have it are, in effect, only the Spaniards», *ibid.*, p. 773.

(55) «The battle of Lepanto arrested the greatness of the Turk. »

(56) قام بترجمتها إلى الفرنسية موجارس، المستشار والأمين والمترجم للملك باللغة الإنجليزية. هذه الترجمة التي أتحدث عنها كانت موجهة إلى الكاردينال Richelieu وهذا له دلالته (Cramoisy عام ١٦٣٤) كما نشرت في "أعمال بيكون" التي نشرها ج. أ. بوشون – باريس ١٨٣٦م. ص ٦٣٥-٦٥١.

العظمى لإسبانيا، التي تُرى على أنها "عملاق". والأمر الغريب أنه يضع أغلب آماله على الموقف الدولي والعداء لإسبانيا من قبل البلاد الأخرى، وهذا يعني أنه يمكن أن يحظى بمساعدة البعض وربما بانضمام الكثيرين. وهنا نجد أن بيكون اعتمد على مراجع كثيرة عن اليونانيين والرومان وقام برسم صورة للقوى الأوربية وخاصة للمملكة الإسبانية التي عليه أن يحاربها.

"جلالتكم – يقول في البداية – لكم لقب الإمبراطور، هناك كارلوس الذي جعل من فرنسا إمبراطورية لأول مرة، وهناك كارلوس آخر نقل إسبانيا في هذا المقام، فلم لا يكون لبريطانيا العظمى دورها أيضًا؟" هذا هو التوجه، غير أنه إذا ما تم النظر إلى ذلك على أنه شديد الخطورة نجد بيكون يضيف قائلًا "الإسباني ليس بعملاق مثلما يحاولون أن نعتقد ذلك، ومن يفكر في أن إسبانيا أكثر قوة بكثير من هذه الدولة التي تحظى بالمساندة على ما هي عليه وعلى ما يمكن أن تكونه فليس برجل دولة عظيم". ويحتج بيكون على هواه **afecto** سيرا على المثل الإسباني القائل Desvario Sempre con la calientura، فلم يكن هناك أبدًا ميل إلا وكان مصحوبا ببعض جوانب القصور" وبالتالي فإن بيكون يوضح أنه كان أقل ثقة في إسبانيته مقارنة بآرائه الحربية.

يرى بيكون وجود ثلاثة أسس رئيسية للحرب على إسبانيا "استعادة الملكية palatinada، والخوف الحقيقي من النفور من دولتنا، إضافة إلى خوف محقق من النفور من كنيستنا ومن ديانتنا" ثم يوضح أنه عندما يكون هناك خوف حقيقي دون أن **يكون هناك غزو أو هجوم** إنما هو مبرر كاف للحرب" كما أن إنجلترا لديها هذه المخاوف المبررة. من جانب آخر نجد بيكون يشير في موضع آخر – ولست أدري فيما إذا كان ذلك أو إسهاماته في هذا المقام – إلى نظرية التوازن وهي ما يطلق عليها الإنجليز مصطلح Balance of Power، ويذكّر أن إنريكي الثامن ملك إنجلترا وفرانثيسكو الأول ملك فرنسا وكارلوس الخامس إمبراطور إسبانيا وملكها سرعان ما يكسب أمدهم موطئ قدم

على الأرض يتولى الاثنان الآخران بذل كل جهودهم المتخيلة لإعادة الأمور في أوربـا إلى توازن متساو.

ويواصل بيكون قائلًا "لديه خوف مبرر من أن يتم تدميره على يد إسـبانيا" ويـبرهن على ذلك بقوله: "هل تظنون ذلك أمرًا سهلا، أي قيام التاج الإسباني بمد نفوذه منـذ سـتين عاما بشكل أكبر بكثير مما فعله العثمانيون؟ ولا أقول إن ذلك حدث من خـلال التحالفـات أو الاتحاد بين الأجزاء المختلفة وإنما من خلال الأسلحة والامتلاك والغزو. هنـاك غرناطـة ونابولي وميلان والبرتغال والهند الشرقية والغربية وهذه كلها مناطق اغتصبها ذلك التاج". ويرى أن إسبانيا في الوقت الحاضر لديها شراهة أكثر من أي وقت مضى وأنها سـتنقض عـلى ما يحلو لها.

وفيما يتعلق بتمرد subversión الكنائس مـن قبـل إسـبانيا "فهـذا شيء منطقـي – يقول بيكـون – طالمـا أن الأمـراء الكاثوليـك يـسعدون بالإبقـاء عـلى ديـانتهم في إطـار سيطرتهم، ولا يختلطون بالرعية التابعة لأمراء آخرين. غير أن الأسـباب يفعلـون عكـس ذلك إذ هم منذ عصر كارلوس الخامس ومنذ زمن التحالف مع فرنسا liga، وهـم حتـى اليوم معنا، يصرون على التدخل من خلال معاهدات مع الدول الأجنبية وإعلان أنفسهم حماة عموم لحزب الكاثوليك في العالم وكأن التاج الإسباني يريد أن يفرض بقـوة الـسلاح قانون البابا، كذلك يفعل العثمانيون الشيء نفسه بالنسبة لدين محمد".

يلاحظ أن الجزء الأكبر في هذه **الاعتبارات** إنما هو مكرّس للقـول إن مـا هـو أكثـر عدلا – أي الحرب على إسبانيا – هو أمر **ممكن**. ويبذل بيكون جهدا في إقناع أمير جـالس بأن إنجلترا خرجت منتظرة في مواجهاتها مع إسبانيا ويلح في هذا المقام على ما حدث مـع الأسطول الإسباني عام ١٥٨٨م. تعتبر هذه الصفحات ذات أهمية كبيرة كما أنهـا جـديرة بالدراسة، لكنها لا تؤثر على شيء مما أحـاول شرحـه. هنـاك ملاحظـة ينبغـي أن نـسلط الضوء عليها وهي أنه – طبقًا لقوله – يجب اكتشاف ملاحظة شديدة الزيف، وهي مقبولة

عامة من الجميع، وتناقض العلاقة الحقيقية للمكان والتجارب وهي "أن الإسباني عندما يكون له موطئ قدم في أي مكان فلن يخرج منه على الإطلاق أو نادرا ما يحدث ذلك". "لا يوجد هناك ما هو أكثر زيفا من هذا"، هكذا يقول بيكون. ثم يقوم بعد ذلك بتعداد سلسلة من الهزائم التي منى بها الإسباني ورغم أنها عديمة القديمة فإنها تؤكد النظرية التي يريد تكذيبها.

ومع هذا، يقوم بيكون بإضافة بعض الملاحظات المهمة. وهنا فإنه يفكر في الأرقام ويترك قيمة الشيء جانبا. يقول "إسبانيا بلد قليل التعداد السكاني وسبب من أسباب هذا يرجع إلى عدم خصوبة أرضها كما يرجع إلى السكان الذين تم سحبهم منها للقيام بعدة وظائف، في تلك الأراضي الشاسعة التي يملكونها". وبالنسبة للمال يعترف بيكون بأن إسبانيا لديها المال، غير أنه إذا ما تم القيام بهذه الحرب التي يقترحها عن طريق البحر فإنها ستكون ذات جدوى وذات مزايا كبيرة: فعندما تبدأ فإنها سوف تستمر بقوة الدفع، وفي نهاية المطاف فإن أغلب أمراء أوربا سوف يجدون لديهم دافعا للشكوى والحقد، وسوف تقل ثقتهم وصداقتهم لإسبانيا. ورغم أن إسبانيا لم تفشل في الهند الغربية (اللهم إلا إذا كان مع إنجلترا) ولجميع الأمراء أطماع في الهند الغربية. ثم يختتم بيكون بالإشارة إلى أن أحد مستشاري الدولة في إسبانيا قال للملك: "سيدي، سوف أقول لجلالتك هذه الكلمة لإرضائك: لك عدوّان فقط، أولها العالم كله على وجه العموم، أما الآخر فهو وزراؤكم".

تبدو وجهة نظر بيكون ذات أهمية كبيرة وهو رجل على درجة عالية من الذكاء النظري، وفي الوقت ذاته فهو سياسي نشط وليست لديه موانع كثيرة escrupulos. يرى بوضوح الأمر الأكثر بروزا: إنه القوة العظمى لإسبانيا، والسيطرة المثيرة والملفتة لمساحات ضخمة من الأقاليم ومع هذا فتعداد السكان قليل، كما أن هناك إصرارا على الحفاظ على أرضهم وموقفهم من الدين. وهذا الأخير مختلف بوضوح عما عليه باقي الأمراء الكاثوليكيين. لم يدر بخلده في أي لحظة أن إسبانيا في حالة انحطاط، بل هو

العكس تماما، فعندما يقوم بتعدد الانتصارات البحرية لإنجلترا ابتداء من عـام ١٨٥٥م، أي منذ هزيمة الأسطول الإسباني يناقش اعتراضا على هذا، يقول "يمكن أن يقال لنا إنـه خلال الأزمنة الأولى التي تحدثنا عنها لم تكن إسبانيا على هذه الدرجة من القوة التي عليها اليوم، كما أن إنجلترا كانت تتوفر على جميع الأدوات والوسائل للقيام بمهمتهـا". سـوف يشرح بيكون أن الأمر ليس على هذا النحو وأن موقف إنجلترا له ميزات أكثر، لكـن كـم من الإسبان في يومنا هذا يرون أنهم كان يُرَون على هـذا النحـو عـام ١٦٢٤م، مـن قبـل إنجلترا وأنه يُخشى أن تقوم إسبانيا بالهجوم عليها وتدميرها؟

لكن رغم الخبرة والألمعية التي عليها بيكون لا يفهم طابع الملكيـة الإسـبانية، فهـو يراها على أنها أمة مثل غيرها من الأمم في أوربا والفارق هـو أن لهـا أملاكـا شاسـعة "في الخارج"، أي أنه لا يدرك فكرة "الإسبانيات" Españas ولا يدرك "هذه الممالـك وتلـك الأخرى". يرى إسبانيا على أنها إمبراطورية لكنها إمبراطوريـة جاتينـارا Gattinara، أي الملكية اليونفرسال التي تم الوصول إليها من خلال الغزوات. هو لا يفهم الفكـرة التـي قدمها أسقف بطليوس Badajoz، السيد بدروروبث دي لاموتا، باسم كارلوس الخامس واسم بلاط شنت يقب عام ١٥٢٠م، ثم جـرى تطويرهـا بعـد ذلـك، في **universitas cristiana**، والتناغم بين أمراء المسيحية. أنها عملية قطيعة ذلـك مـن خـلال الإصـلاح البروتستانتي، إذ قامت بإدخال ضرورة مواصلة الكفاح من أجل وحدة الكنيسة ووحدة أوربا، وهذا هو تفسير أن إسبانيا لا تقتـصر عـلى دولـة الـدين في أملاكهـا. كـما لا يـرى فرانسيس بكون مشوار عمليات الانضمام الذي قاد إلى تكوين الأمة الإسبانية، ثم استمر ذلك حتى تأسس مجتمع الشعوب غير المتجانسة تحت إمرة التاج الكاثوليكي نفسه. ولم ير كذلك ذلك المشروع التاريخي الذي جرى الدفاع عنه من منطلق مسيحي – والذي سوف تحدده البروتستانتية على أنه كاثوليكي – وأنه مشروع يتجاوز المـصالح الوطنيـة ويـذهب بإسبانيا إلى انتهاج سياسة لن يتم فهمها من قبل الدول الأوربيـة الأخـرى، لأنهـا ليـست

سياسة "دولية". نجد إذن أن كل ما يشكل الأصالة التاريخية والسياسية لإسبانيا خرج عن نطاق رؤية باقي الأوربيين، بما فيهم الأكثر شهرة، خلال القرن السابع عشر. أما خلال القرن الثامن عشر فإن الأمور سوف تكون أسوأ، أي أنني أرى أنها سوف تصبح أكثر بُعدا عن الواقع.

فينلون أمام الأزمة الكبرى:

وبشكل غير متوقع نعثر على تأملات مهمة حول إسبانيا تأتي من لدن مفكر فرنسي من حيث كونها إمكانية مبتورة للأسف: أي انضمام الديكارتية_ Cartesianismo إلى اللاهوت، وإلى الفكر الكاثوليكي عامة. كان فينلون (١٦٥١ - ١٧١٥م) أسقف كامبراي Cambrai، ولد بعد عام من وفاة ديكارت، ويكاد يكون معاصرا تماما لليبنز Leibniz مؤلف كتاب مهم **"كتاب وجود الله"**، وهو في هذا يدخل في جدل مع بوسيت Bossuet ويمثل عملية الانتقال إلى القرن الثامن عشر.

لم يكن فيلون، رغم تكوينه الروحي في البداية، بعيدًا عن الشئون السياسية وخاصة ما يتعلق بتأهل دوق بورغونيا Borgona، حفيد لويس الرابع عشر، ووالد لويس الخامس عشر، الذي ولد عام ١٦٨٢م، ثم توفي عام ١٧١٢م قبل مؤدبه. كتب فينلون لتلميذه **"محاسبة الضمير حول الواجبات الملكية royauté** لكن هذا المُؤَلَف لم يَحظ برضا لويس الرابع عشر ولم ينشر إلا في عام ١٧٣٤م بعنوان **"محاسبة الضمير عند ملك"** لكن الحكومة أمرت بإلغاء هذه الطبعة. صدرت عدة طبعات، إحداها في لندن، وترجمت إلى الإنجليزية لكن انتشارها لم يأخذ الشكل الطبيعي إلا في عام ١٧٧٤م بناء على "موافقة كتابية من الملك" (لويس السادس عشر) طبقًا لما أشار إليه الناشرون. كما كتب فينلون عدة مذكرات memorias بمناسبة حرب الاستخلاف في إسبانيا. وهنا نجد من المناسب كيف رأى فينلون الحاد الذكاء واقع بلدنا في وقت من الأوقات الحرجة في تاريخها، أي عندما انتهت فترة انحطاطها في عهد كارلوس الثاني، وانتهى عصر الأسرة النمساوية

الحاكمة في إسبانيا وبدأ حكم فيليبي الخامس من أسرة البوربون في خضم حرب عالمية طال أمدها وكانت مصحوبة بعناصر من الحرب الأهلية.

يتحدث فينلون في كتابه **محاسبة الضمير** عن "ضرورة تكوين تحالفات سواء كانت هجومية أو دفاعية ضد قوة أجنبية تطمح علانية في الملكية اليونفرسال". وهنا تظهر نماذج إسبانية ترجع إلى عصور أخرى. يعتقد فينلون أن من الحق والواجب الحيلولة دون زيادة مبالغ فيها في حجم الجار، لأن ذلك "يحدث تغييرا في النظام العام لجميع الأمم". أي أن هناك فكرة توازن القوة كطريقة للتعايش، وفي هذا يقول "هناك على سبيل المثال جميع عمليات الاستخلاف التي عاشتها أسرة بورجونيا، فبعد أن أقاموا الأسرة النمساوية غيروا وجه أوربا بالكامل، إذ أصبحت أوربا كلها تخشى الملكية اليونفرسال تحت حكم كارلوس الخامس، وخاصة بعد هزيمة فرنثيسكو الأول وأسره في بافيا Pvía. من المسلّم به أن أمة لم تكن على خلاف أو نزاع مباشر مع إسبانيا كان من حقها، من منطلق الحرية العامة، الحيلولة دون حظر هذه القوة السريعة التي كانت على استعداد لالتهام كل شيء". ثم يواصل قائلًا "ومن أمثلة ذلك، الملك فيليبي الثاني ملك إسبانيا، فبعد أن غزا البرتغال أراد أن يسيطر على إنجلترا. أعتقد أن حقه كان يقوم على غير أساس، ذلك أنه كان يتكئ فقط على ما لزوجته ماريا، التي توفيت دون أن تنجب. أما إيزابيل غير الشرعية فلم يكن من الواجب أن تحكم. كان التاج ينسب إلى ماريا إستوارد وابنها. وفي نهاية المطاف فعلى افتراض أن حق فيليبي الثاني كان أمرا لا مراء فيه فإن أوربا بكاملها كان يمكن أن تكون على حق في معارضتها له بغزو إنجلترا، فهذه المملكة القوية لو انضم إلى دول إسبانيا وإيطاليا وفلاندس والهند الشرقية والغربية لأصبحت في وضع تفرض القانون، وخاصة من خلال قوتها البحرية، على جميع القوى المسيحية"[٥٧]. يُفهم جيدا أن هذه الأفكار لم تَرُق للويس الرابع عشر الذي كان في أوج توسّعاته وليس من أنصار وضع حد لما يقوم به.

---

(57) «Par exemple, toutes les successions qui sont entrées dans la maison de Bourgogne, puis celles qui ont élevé la maison d'Autriche, ont changé la face de toute l'Europe. Toute l'Europe a dû craindre la monarchie universelle sous Charles-

الأمر الواضح في الموضوع هو أن إسبانيا عند فينلون كانت تبحث خلال القرن السادس عشر عن الملكية اليونفرسال من خلال الغزوات (وعلى هذا النحو يرى انضمام البرتغال إلى التاج دون أدنى إشارة إلى حقوق فيليبي الثاني، وحتى لو افترض ذلك بالنسبة لأوربا فإن ذلك سوف يبدو غير ذي بال أمام خطر الهيمنة). غير أن النظام الذي طرحه جاتينارا، والذي استبعد منذ بداية حكم كارلوس الخامس، هو الوحيد الذي يضعه في الاعتبار، مع الجهل الكامل للمسار الفعلي لإسبانيا، التي كانت أكثر التصاقا بمشروع الدكتور موتا Mota. ومرة أخرى نجد أن التاريخ الأصيل لإسبانيا من مناظير بعيدة عن إلهامها الحقيقي، أي بعيدا عما كان أصليا عندها.

إلا أن كل هذا يتعلق بزمن مضى، فالمذكرات الخاصة بحرب الاستخلاف تتابع الأحداث عن كثب، خلال الفترة من ١٧٠١م حتى ١٧١٢م. وهنا يجب أن نلاحظ "المركزية الفرنجية" المطلقة عند فينلون، ورؤيته الفرنسية بشكل حصري دون أدنى اهتمام بإسبانيا، فعنده عنها فكرة مؤسفة، أي على أنها بلد غير قادر، وأنها فقدت قدرتها على اتخاذ القرار، فلم يعد ذلك في يديها. ويحذر لويس الرابع عشر من مخاطر حرب الاستخلاف، ويعتقد أنه بإمكانه الحيلولة دونها عام ١٧٠١م. يقول "عليكم أن تدافعوا عن جسد ميت

Quint, surtout après que François I eut été défait et pris à Pavie. Il est certain qu'une nation qui n'avait ríen à démêler directement avec l'Espagne ne laissait pas alors d'être en droit, pour la liberté publique, de prevenir cette puissance rapide que semblait préte á tout engloutir.» «Par exemple, Philippe II, roí d'Espagne, après avoir conquis le Portugal, veut se rendre le maltre de l'Angleterre. Je sais bien que son droít étaít mal fondé, car il n'en avait que par la reine sa femme, morte sans enfants. Elisabeth, illégitime, ne devait point régner. La couronne appartehait á Marie Stuart et á son fils. Mais enfin, supposé que le droit de Philippe II eüt été = incontestable, l'Europe = entiére aurait eu raison néanmoins de s'opposer á son établissement en Angleterre; car ce royaume si puissant, ajouté á ses États d'Espagne, d'Italie, de Flandre, des Indes orientales et occidentales, le mettait en état de faire la loi, surtout par ses forces maritimes, á toutes les autres puissances de la chrétienté.» *Oeuvres de Fénelon,* Firmin Didot, París 1870, vol. III, p. 347-348.

لا يستطيع الدفاع عن نفسه. وعندما تدافعون عن جسم حي فإنه يدافع عنكم أيضًا، وأنتم أكثر قوة به مما لو كنتم وحدكم. إن إسبانيا تترككم تعملون، ولا تكاد تفعل شيئا، فليس لديكم منها إلا الوزن مثل أي جسد ميت. هذا سوف يكون ثقيلا عليكم وسوف يستنزفكم". هناك عائق آخر وهو "أن هذه الأمة ليست أقل حقدا وحذرا suspicaz بل هي بلهاء وحقيرة. ففرنسا لا يمكن لها أن تعامل جميع الأمة الإسبانية مثلما يعامل الملك حفيده ملك إسبانيا. فالإسبان لم يكن لهم قامة بل كانوا "كومبارس"، حتى يكون لهم موقف. هم أرادوا أن يحصلوا على معونة ولا يريدون الخدمة، فلا يمكن فرض سيطرة مطلقة على الإسبان على المدى الطويل. اتركوهم يعملون ولن يفعلوا شيئا جيدا وسوف يجذبونكم إلى الأسفل معهم"(٥٨).

يصل الأمر بفينلون إلى افتراض أن الإسبان الساخطين والغيورين يمكنهم أن يَسُمُّوا فيليبي الخامس، ثم يتأمل النتائج الكارثية لهذا على فرنسا(٥٩).

هذه الكتابات كلها تتنفس الازدراء والاحتقار لإسبانيا وما لديها من إمكانيات. وسوف يقول الأعداء "إن إسبانيا ليست إلا ألعوبة في يد ملك فرنسا". ويجب الإلحاح على الإسبان بأن هذا الملك يقاوم تفكك إسبانيا لصالح الإسبان، رغم أن من مصلحتها

(58) «Vous avez á défendre un corps mort qui ne se défend point. Quand vous défendez un corps vivant, il vous défend aussi, et vous étes plus fort avec lui que vous ne seriez tout seul. Mais l'Espagne vous laisse faire, et ne fait presque ríen; vous n'en avez que le poids, comme d'un corps mort: elle vous accable, et vous épuisera.» «Cette nation n'est pas moins jalouse et ombrageuse, qu'imbécile et abâtardie. La France ne peut point traiter toute la nation espagnole comme le roi traite le roi d'Espagne, son petit-fils. Les Espagnols n'on pas, tous de concert, compté de se mettre en tutelle; ils ont voulu obtenir du secours, et no pas se mettre en servitude. L'autorité absolue sur les Espagnols est insoutenable á la longue. Laissez-les faire, il ne feront rien *de* bon, et vous feront succomber avec eux.» *Ibid.*, p. 395.

(59) «Leur jalousie naturelle n'est point éteinte, et on hasarde terriblement la vie du jeune roi. Les poisons d'Espagne sont bien subtils; il y en a jusque dans les odeurs; et on ne peut se précautionner sur toutes choses.» Ibid., página 396.

تفككها لمصلحة الإسبان، رغم أن المصلحة تكمن في تفككها بعض الشيء. "الفرنسيون يفقدون صبرهم ويتحدثون باحتقار شديد عن الإسبان، وعندما جرت في عام ١٧١٠م محاولة قيام فيليب الخامس بالتنازل عن عرش إسبانيا والعودة إلى فرنسا ليكون خليفة محتملا للعرش بصفته ابن فرنسا، وذلك لأسباب تتعلق بمصلحة فرنسا، لم تؤخذ في الاعتبار المصالح الإسبانية أو رأي الإسبان. يجب إرسال إسبانيا إلى الرجل الأكثر دهاء وذلك حتى يقنع الملك الشاب ويبرهن له أن ليس له أي حق مباشر في التاج الإسباني "وأنه تلقى التاج الإسباني على أساس تنازل رخيص تماما من قبل الملكوmonsena"، أضف إلى ذلك فإنه لا يزال واحدا من أبناء فرنسا وله حق الخلافة على كرسي العرش، وأنه قد تم صراحة الحفاظ عليه من أجله. ثم يقوم بتعداد الآثار السلبية الكبيرة التي سوف تقع على إسبانيا إذا ما فقد فيليبي الخامس مساندة فرنسا[60].

لم يدر بخلد فينلون أن فيليبي الخامس يمكن أن يشعر بأنه إسباني وأن عليه واجبًا تجاه رعيّته الجديدة، وأنه يريد أن يحتفظ بتاجه على رأسهم. ولا حتى يأخذ في اعتباره أن إسبانيا ربما كانت تمر بفترة انتقالية تتسم بالإحباط وغيبة الاتجاه الواضح والأزمة، وأنها هناك، وحتى لو لم تكن سليمة معافاة إلا أنها موجودة، أي هذه القوة العظيمة التي كنت مهيبة الجانب كما تبدو له خلال القرن السادس عشر، أي في زمن كارلوس الخامس أو فيليبي الثاني، وأنها على وشك أن تبدأ مسارا جديدا في خضم حرب عالمية حيث جميع الأمم في صراع حولها وعلى حسابها، وأنها سوف تسيطر طوال القرن الثامن عشر. سوف تتأتى عملية ثبات، وسوف يرى الأوربيون إسبانيا على أنها دولة مستنزفة وغير قادرة وفي حاجة، وعندما تبدأ المرحلة خاصة فإنها أكثر صحة وتماسكا في تاريخها هذا إذا لم تقل أنها في حالة من التجلي.

(60) المرجع نفسه ص ٤١٢ والصفحات التالية.

ومع هذا هناك استثناء يبدو مهما للغاية في نظري، ففي ذلك العام نفسه، ١٧١٠م، كتب دوق شفروز chevreuse عدة **ملاحظات** حول المذكرات التي انتهيت للتو من التعليق عليها. هذه الملاحظات تتضمن بعض الملامح الخاصة بالتاريخ الإسباني وواجبات فيليبي الخامس نحو الإسبان.

ويشير الدوق شفروز إلى أن الحجج التي تم سوقها ضد فيليبي الخامس قوية للغاية، إلا أنه عندما يتم فحصها فحصا دقيقا فإن هناك اعتبارا واحدا يبدو أنه ينسفها جميعا.

"من المعروف أن الممالك إما أن تكون انتخابية، أي أن الملك ليس له إلا المنصب طيلة حياته، أو أن تكون وراثية بمعنى أن الملك يفعل ما يشاء في ملكه، وإما أن تكون استخلافية بمعنى أن الملك لا بدّ أن يكون له من يخلفه وهو وريث العرش الأقرب إليه أسريا (ويفضل في هذا المقام الخط المباشر، ويتم الاحتفاظ بسن البلوغ) سواء كان ذكرا فقط أو امرأة في حالة غيبة الذكر: وهذا الخط الأخير هو الذي يُرى وقد استقر في إسبانيا منذ نحو ألف عام. إذن فإن فيليبي الخامس هو سليل مباشر للملكين الأولين الذين لجآ في أماكن مختلفة في جبال المنطقة الشمالية بدأوا في الوقت ذاته في استرداد إسبانيا من المورو نحو عام ٧١٧م. كما أن رباط الزواج قد جمع أسرتيهما في أسرة واحدة، وقد تولوا الحكم دائما منذ ذلك الحين.

"ولهذا السبب سيقال إن على لويس دلفين ومن بعده لويس، دون بورجونيا، يجب أن يكونا ملوك إسبانيا: هذا صحيح، غير أنه في الوقت الذي يُسمح فيه لملك بأن يتنازل عن عرشه، فمن باب أولى يجب أن يتنحى هذان الأميران، ويتنازلا عن تاج إسبانيا، الذي لا يتوفر لهما حتى الآن.

وعلى هذا نقول: **أولًا**: يجب على فيليبي الخامس أن يغامر بفقدان فرنسا إذا ما تطلب ذلك مصلحة إسبانيا، **ثانيًا**: وعندما يفعل ذلك فليس سيئا من قبل من يقوم بذلك

الذي لم يستطع ولم يتمكن من سن قانون آخر إلا قانون الحفاظ على مصالح الإسبان بلا قيد أو شرط تطبيقا لمبدأ المساواة. **وثالثا**: وعلى هذا يجب أن يفضل، **لا الحفاظ على عظمته** بل مصلحة إسبانيا، طبقا لما يتوافق مع فرنسا، وبيته ووالديه ومن قاموا بتربيته..."(٦١).

يبدو أن دوق شفروز، الرجل الذي يجد أمامه الاستمرار المباشر لملوك إسبانيا ماثلا منذ بداية مرحلة الاسترداد قد توغل في دائرة جدارة هذا التاج، وأنه غير مستعد كثيرا للاعتقاد بأنه يمكن أن يتم السيطرة عليه من الخارج. وتتمثل فكرته الأساسية في أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إجبار فيليبي الخامس أن يتنحّى عن العرش كملك إسبانيا، بل إنه يحفزه ويحفز إسبانيا على ضرورة هذا التنازل، ويحث ملك إسبانيا على التنحي الاختياري والذي تسمح به الرعية.

---

(61) «Les raisons ici allegúées contre Philippe V sont très fortes; mais, sans les examiner en detail, une seule considération semble les détruire toutes.

»On sait que les royaumes sont, ou électifs, dont le roí n'est qu'usufruitier á vie; ou patrimoniaux, dont le roi dispose comme il veut; ou enfin successifs, dont le roi a toujours pour successeur nécessaire son plus proche héritier, descendant du premier roi (la ligne directe est préférée, et le droit d'aînesse gardé), soit mâle seulemente, soit filie á défaut de mâle: et c'est ce dernier usage qu'on voit établi en Espagne depuis mille ans; car Philippe V descend en ligne directe des deux premiers rois, qui, refugies en différents lieux des montagnes du nord, commencérent en même temps à reconquérir l'Espagne sur les Maures vers 717, et dont les familles se réunirent ensuite par mariage en une seule, qui a toujours régné depuis...

»Par cette raison, dira-t-on, Louis dauphin, et, après luí, Louis duc de Bourgogne, devaient étre rois d'Espagne: il est vrai; mais comme il est permis à un roir d'abdiquer sa couronne, á plus forte raison ces deux princes pouvaient-ils ceder personnellement celle d'Espagne, qu'ils n'avaient pas encoré...

»Ainsi, 1.° Philippe V doit hasarder la perte de la France, si l'intérêt de l'Espagne le demande. 2.° En le faisant, il n'est point ingrat envers son donateur qui n'a pu ni dû lui prescrire d'autre loi que celle de soutenir, suivant l'équité, l'intérét des Espagnols envers et contre tous, sans reserve. 3.° Il doit done pré-férer, non *sa propre grandeur,* mais le bonheur de l'Espagne, *au salut de la France, de sa maison, de ses pères et bienfaiteurs, etc.» Ibid.,* p. 415-416.

هذه النصوص، غير المعروفة إلا للقليلين، إنما تعبر بوضوح عن موقف بعض الشخصيات المهمة إزاء إسبانيا. هناك مساحة مرئية بين العقد الثالث من القرن السابع عشر، عندما لم يكن هناك أي ملمح من ملامح الانحطاط، والعقد الأول من القرن الثامن عشر، أي عندما تراءى الشعور بأن ذلك الانحطاط قد انتهى. والأمر الأسوأ هو النظر إلى هذا على أنه نهائي ولا مناص منه. لكن هذا لا يعني أنه لا ينبغي أن تؤخذ إسبانيا في الحسبان خلال القرن الثامن عشر – وسوف نرى إلى أي درجة أن هذا لم يكن على هذا النحو – غير أنها كان ينظر إليها ثقافيا بأنها قد انتهت، أو أنها vista منذ المنظور الفكري لن تقدم شيئا. واعتبارا من اللحظة التي انتهت للتو من الحديث عنها بدا هناك **تراجع عن** التفكير حول إسبانيا، ولم يفعل هذا حتى هؤلاء الذين كانت لديهم الأسباب القوية لفعله. حقا إنها الفترة التي يسيطر فيها، في أوربا وبشكل وشيك في فرنسا، نوع من اللامسئولية الثقافية.

الفصل التاسع عشر

الغضب الإسباني من أوربا والانكماش

الأفق مفتوح:

يشعر الإسبان منذ حكم الملوك الكاثوليك أنهم دخلوا أفقا مفتوحا، وربما غير محدود. إنها أمور ممكنة لا حصر لها، لم تكن موجودة قبل ذلك، والأكثر من هذا أنها تحققت بسرعة مذهلة فهناك التحول الداخلي لإسبانيا يفضل "الطريقة الإلهية للحكم" من لدن الملكة إيزابيل، والقوة الحربية لإسبانيا في غرناطة وإيطاليا، والتوسع الضخم فيما وراء البحار الذي أدى إلى إنشاء عدد من الدول الهسبانية التي انضمت إلى المهمة التي بدأت في إسبانيا، وازدهار الفن والأدب والفكر وتطور اللغة التي تحولت إلى أداة رائعة بعد تلك الدفعة التي قام بها ألفونسو الحكيم في هذا المقام خلال القرن الثالث عشر. وقد أدى هذا إلى تأثير انفعالي شديد عاشه الإسبان، وهو نوع من التلألؤ المصحوب بالحماس.

يشير المؤرخون المحدثون إلى المشكلات والعقبات والآلام والمتاعب المتعددة التي تحاصر إسبانيا حتى وهي تعيش أفضل لحظات عظمتها، ثم يستخلصون النتائج بأن هذه العظمة ليست حقيقية بل هي مجرد أمر ظاهري، وربما كانت سرابا. وهنا أعتقد أنهم أصابوا وأخطأوا في آن معا.

أصابوا حين رأوا أن إسبانيا كانت بعيدة عن أن تكون فردوسا، وأن لا يـزال هنـاك الكثير من العناصر السلبية وأضـيفت إليهـا أخـرى وأن الحيـاة لا زالـت صـعبة بـشكل ملحوظ. وأخطأوا حين ظنوا أن ذلك كـان يمحـو العظمـة، وأن تلـك العظمـة ليـست حقيقية، والسبب في ذلك هو نوع من "المثالية" التي تـسرّبت إلى الأذهـان الأوربيـة منـذ القرن الثامن عشر، ثم أخذت تزداد منذ ذلك الحين، وتتألف المثالية في افتراض أن الواقع يجب أن يتسق مع رغبات معينة لدى الإنسان، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإنه يجـب النظـر إلى الواقع على أنه سيئ وغير مقبول. كما أن تشويه **الواقع** هو ملمح مستمر خلال القرنين الأخيرين، فكل شيء سيء، أي أن كل مرض وشيخوخة وفقر تبدو أنها أمور **غير عادلـة**. وفي زماننا تُكال حياة الشعوب بمكيال تسير عليه شعوب قليلة ومنذ زمن قـصير بفـضل الجهود الضخمة والمستمرة. هناك أيضًا اتجاه للتفكير في أن كل شيء يقع أسفل هذا يتسم بأنه سيئ وليس هذا فقط بل هو عدم العدل[62]. ولا يخطر على البال تصور حيـاة الإنـسان على الأرض في ظروف بدائية بل في ظروف تقنية دون أن تكاد تتوفر القدرة على الـسيطرة على الطبيعة مع توفر الحد الأدنى من الثروات الطبيعية، وبالتالي فإن الوضع الإنساني ظل طوال آلاف السنين يتسم بالفقر وعدم القدرة على الدفاع عن النفس وعـدم الأمـان. ثـم أخذت الشعوب رويدا رويدا وبشكل غير متساو مع بعضها، ببذل جهد لتكـوين ثـروة، وأدوات ومهارات وأنماط من التعايش والتنظيم والسلطة، كما قامت في آن بتفكيك تلـك الأشياء. كانت الصعوبات هي العنصر الطبيعي أمام الإنسان وما زالت كذلك رغـم أنـه تجري مقاومتها بفضل جهود جبارة وخلاقة.

كان إنسان العصور الأخرى يعرف ذلك جيدًا، وعـلى هـذا كـان الإسـبان خـلال العصور الوسطى والقرن السادس عـشر. هنـاك متاعـب مـن كـل لـون مثـل الإرهـاق والمعاناة، ولا شيء من هذا كان يعتبر اعتراضا على ما هو **واقع العظمة** التي يرونها في كـل

(62) انظر كتابي العدل الاجتماعي وعدالة أخرى، (سلسلة أوسترال ١٩٧٩م).

مكان، وأنها كانت تعني امتدادا لا يتصور في الأفق الحيوي لهم. وإذا ما تأملنا قائمة أفعال الإسبان خلال زمن طويل جدا، وهو ما يجب أن نحاول تحديده، أي أنه أطول من قرن، لوجدنا أنها مثيرة للدهشة، وإذا ما قارناها بأي عصر من العصور السابقة أو بما عليه بلد أوربي آخر فهذا لا يكاد يصدّق. أضف إلى ذلك أن هذا حدث بسرعة غير مسبوقة خلال العقود الأولى، بمعنى أن الإسبان لم يكد يتوفر لديهم الوقت لإدراك ذلك، بمعنى أن الأحداث كانت تسبق الأخبار التي تأتي ببطء.

وفي نهاية المطاف يلاحظ أن ذلك كان يعني في نظر المؤلفين استمرار للمشروع الأصلي، والتأكيد على المسيحية في إسبانيا في المقام الأول ثم خارجها بعد ذلك، كما أن المصالح القومية مأخوذة في الحسبان لكن ليس في **المقام الأول**: هناك وعي بأنهم في خدمة شيء أغلى من هذا، ألا وهو بث العقيدة الدينية والتي يرتبط بها خلاص الإنسان. هذا الأمر مأخوذ في الاعتبار بشكل مطلق رغم أن ذلك يمكن أن يكون صعبا على مفاهيم معاصرينا. البرهان الذي يدل على أن الأمر على هذا النحو نجده في أن السياسة الإسبانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تسير بدرجة كبيرة للغاية ضد المصالح "القومية" الإسبانية، وهذا نوع من اللوم الذي وجِّه إليها كثيرا وعن حق إذا ما تم التفكير في أن تلك المصالح حاسمة – ذلك أن إسبانيا كانت ترى نفسها تقوم بمهمة تتوافق مع مشروعها الأصلي الذي بدأت به.

ومن جانب آخر نجد عناية فائقة بمراحل العنف أو الغضب. جرت الأقلام كثيرا بالكتابة حول المجتمعات Comunidades– من خلال تحليلات تتغير بشكل جوهري كل عدة عقود وقد تأثرت بالميول السياسية التي كانت تسود في كل حقبة – ولا شكّ أن أهميتها كانت عظيمة، ونتائجها كانت درامية. لكن القليل من الأقلام كانت تدرك أن ذلك كله استمر لمدة عامين، وأنه خلال تلك الفترة جرى غزو المكسيك وتم اكتشاف مضيق ماجلان واكتمل نشاط ذلك الرجل عندما قامت مركب El cano بالطواف حول العالم. ومن ناحية أخرى، نجد أنه إذا ما تمت مقارنة تمرّد comuneros المستوطنين والقمع

الذي تعرضوا له بالصراعات الدينية، التي لا تنتهي، في إنجلترا أو ألمانيا أو فرنسا، فإن تلك الفترة تبدو حقبة وجيزة. ويمكن قول الشيء نفسه حول التحولات التي حدثت في أرغن على زمن الملك فيليبي الثاني (١٥٩١م).

شهدنا كيف أن المكتشفين والغزاة في أمريكا كانوا يتوفرون على أغلب الاحتمالات، وكانوا شبه متيقنين من أنهم سوف يموتون في أثناء محاولاتهم، إلا أن هذا لم يكن يحول دون الحماس في التوغل، والبرهان على ذلك هو الكتابات والوثائق المتعلقة بتلك الفترة.

لم يكن الواقع مستبعدا باسم مبادئ غامضة أخذت تحتل مكانها في العقلية الأوربية - دون استبعاد العقلية الإسبانية - ولهذا يتم ارتكاب أكثر الأخطاء خطورة إذا لم يُرَ التغير الحاسم الذي طرأ على **نمط الحياة** في إسبانيا ابتداء من العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر، واستمر ذلك كحد أدنى حتى وقت طويل من القرن السابع عشر: أي الحياة كوعد وإمكانية وانفتاح وتحفيز. لكن لم تكن في المقام الأول نجاحا والأدنى من هذا أنه لم يكن يُنظر إليها على أنها راحة أو غيبة العوامل غير المواتية، وعندما يبدأ الحزن والكدر بشكل مستتر، طبقا لمقولة دون كيخوته التي تعتبر قول الفصل: "سوف يمكن للسحرة أن ينتزعوا مني السعادة لكن من المستحيل أن ينتزعوا الجهد والرغبة".

المنظور:

عندما يتعلق الأمر بمجتمعات بعيدة، وخاصة من المنظور الزمني فإن أصعب الأمور هو إدراك ماذا كان عليه المنظور الواقعي لهؤلاء البشر الذين ينتمون إلى هذه المجتمعات، من حيث الاهتمام المركز على البعض - الذي كثيرا ما يحدث بمحض المصادفة - ففي العصر الذي نعيش فيه والذي يتم تناقل الأخبار على الفور يصعب أن نتصور أن هذه الأخبار قد وصلت متأخرة وببطء يساعد على التقليل من آثارها. أضف إلى ما سبق، هناك عنصر آخر يتسم بالبساطة لكنه كثيرا ما يُنسى وهو أن القرب يجعل من الأشياء الصغيرة تحتل مكانة أكبر في الأفق المرئي لأشياء أكبر وأضخم لكنها بعيدة.

يحدث هذا بشكل خاص مع التوسع الإسباني فيما وراء البحار، فأنباء أمريكا أو المحيط الباسفيك تأتي متأخرة للغاية وتصل إلى عدد قليل للغاية. أما أحداث أوربا فهي شديدة القرب وتتطلب الكثير من الاهتمام. كما أن الأخبار المحلية أشد قربا من سابقتيها. ومن هنا فإن أعظم شيء، بلا منازع، في تاريخ إسبانيا - أي انضمام العالم الأمريكي إليها - ليس مرئيا بما فيه الكفاية. أضف إلى ذلك أنه بعد انتهاء الغزو فإن أغلب الأراضي الأمريكية جرى تنظيمها بشكل مستقر في صورة نيابات الملك ومناطق تابعة لقيادات عامة، وأخذت تعيش حياة سلمية دون مشاكل كبرى ودون "أخبار" مثيرة (حيث يكاد يكون أبرزها تلك الهجمات التي قام بها الإنجليز والهولنديون على الموانئ الأمريكية أو على السفن المسافرة إلى الهند الغربية، وكان هذا منذ منتصف القرن السادس عشر). لا توجد حاميات إسبانية، ولا يوجد نقل للجيوش إلى الممالك الكائنة فيما وراء البحار، ذلك أنها كانت في شغل شاغل في أوربا وفي حوض البحر الأبيض المتوسط ضد الأتراك.

وقد رأينا أن الموضوع الأكبر هو ذلك الخاص الخلل الذي حدث في الوحدة المسيحية بسبب الإصلاح البروتستانتي. هذه القضية ومعها التهديد الإسلامي الجديد، ألا وهو تهديد السلطان كانا يشغلان محور الرؤية الإسبانية على مدى قرنين من الزمان. أحدثت البروتستانتية تأثيرها المباشر على إسبانيا لأن الملك كارلوس الأول هو الملك كارلوس الخامس كما أنه الإمبراطور، وبالتالي أصبح ضالعا في ذلك المسار اللاهوتي والسياسي - وسرعان ما سينضم إليهما المسار الحربي - للوثرية. غير أنه عندما أخذت الإمبراطورية تبتعد عن التاج الإسباني، اعتبارا من عصر فيليبي الثاني، فإن الانشقاق الديني أحدث تأثيره على البلاد الوطيئة التي شعرت إسبانيا أنها مسئولة عنها، ألا وهي أن عملية استخلاف إنريكي الثامن ملك إنجلترا تتعلق بفيليبي الثاني نظرا لزواجه بماريّا. واعتبارا من تلك اللحظة سوف يكون مسئولا عن الزيجات الكاثوليكية في الجزر، وعن عملية التحول لما كان خروجا دينيا إلى إصلاح بروتستانتي ذي تنويعة إنجيلية (أو كلفينية) وأصبح الأمر أكثر مدة عندما قطع رقبة ماريا إستواردو في عصر الملكة إيزابيل.

أما بالنسبة للأتراك فإن تهديداتهم لم تقتصر فقط على الشمال الأفريقي وعلى عمليات القرصنة الجزائرية أو على وهران أو تونس أو مالطة، بل امتدت لتصبح قوة رهيبة موجهة ضد المسيحية الأوربية. ومن خلال هذا الطريق أخذت إسبانيا تعود من جديد إلى مشروعها الذي كان خلال العصور الوسطى بحماس شديد على أساس أنهم - أي أولئك الأتراك - ليسوا مسيحيين. تم النظر إلى موقعة كليبانو ١٥٧١م على أنها التجسيد الأنصع والأكثر قوة في تاريخ إسبانيا. وهنا فإن أعمال ثربانتس بكاملها تعكس بشكل رائع ولا لبس فيه هذا المنظور الإسباني.

أعتقد أنه يجب أن نولي أهمية لعلاقة إسبانيا بالنمسا، فأن نطلق مسمى بيت العائلة النمساوية على الأسرة الحاكمة في إسبانيا ابتداء من عصر الملك فيليبي الأول حتى كارلوس الثاني، فهذا يُدخل بعض اللبس على الأمور، فقد حكم فيليبي الوسيم (بصحبة السيدة/ خوانا الملكة التي تحمل هذا اللقب بصفتها الوريثة للعرش) في قشتالة فقط طوال عامين (١٥٠٤ - ١٥٠٦م) أي منذ وفاة إيزابيل الكاثوليكية حتى موت زوجته. وقد اجتمع التاجان في كارلوس الأول، في حقيقة الأمر، وهما التاجان الإسبانيان، وبالتالي سوف يكون الملك الحقيقي لإسبانيا. وفيه نجد فيه اجتماع كل من الموروث البورجوني أي بيت هابسبوج أو العائلة النمساوية، لكن الذي ليس أقل من ذلك هو الصلة المباشرة وهي أسرة ملوك قشتالة وأرغن. وعندما يدور الحديث بأن وفاة الأمير السيد رضوان قد قطعت حبل استمرار الأسرة المالكة الإسبانية فهذا فيه مبالغة كبيرة للغاية، فذلك الأمير كان قد تزوج مارجاريتا، أخت فيليبي، فإذا حكم فإن الوراثة كانت ستكون هي هي: أي وريث الملوك الكاثوليك دوريث ماكسيمليانو، وهذا أمر لا يهم في إسبانيا لو كان عن طريق الأم.

وعلى هذا لا توجد علاقة مبالغ فيها بين النمسا وإسبانيا لأسباب تتعلق بالعائلات الملكية. الأمر ببساطة هو أن الإمبراطورية مستمرة في ولائها للكاثوليكية. أصبحت

مدريد وفيينا مركزين للدفاع عن الكاثوليكية في مواجهة البروتستانتية. كما أن إسبانيا والنمسا كانتا القوتين الوحيدتين الكبيرتين اللتين لم تتأثرا بالإصلاح. كان دورهما واضحا في حرب الثلاثين عاما. لكن، ماذا عن فرنسا؟ هذا ما سوف نتحدث عنه – إنها قضية شديدة الحساسية إذ سوف تكون النموذج والبداية التي تعكس بوضوح الغضب من أوربا، وسوف يصل هذا الغضب إلى غضب عام، كما أنه سوف يحمل إسبانيا على ارتكاب أكبر الأخطاء التاريخية في تاريخها الحديث.

من فرانثيسكو الأول حتى ريشليو Richelieu:

كان فرانثيسكو الأول ملك فرنسا أول خيبة أمل لإسبانيا في أوربا. ولم يكن ذلك بالطبع، بسبب صراعاته مع كارلوس الخامس، ولا بسبب نقضه لمعاهدة مدريد بعد سجنه الذي طال بعد هزيمته في بافيا Pavía (١٥٢٥م) بل بسبب تحالفاته، لمرتين، مع سلطان تركيا وكذلك مع البروتستانت. كان من المنتظر من الملك المسيحي أن يكون له مسلك آخر. لكن ها نحن نرى أنه يجعل الدين لاحقا لمصالحه: وهذا هو ما يبحث عنه لدى البروتستانت حتى ترأس "عملية إعدام الملحدين بالحرق" عام ١٥٣٥، كما عمل على إقامة تحالف مع جماعة Small Kalada، أو مع ملك الدانمارك أو وعد الأتراك بالمساعدة ضد إسبانيا. وهذا هو ما لم تفهمه إسبانيا وبالتالي سوف تشعر بعدم ثقتها في أمة كاثوليكية لا تجد أي مانع في التعاون مع أعداء الدين. هذا الوضع الذي عليه فرنسا والذي يتمثل في غموض موقفها الذي تتنازعه الحروف التي استمرت على مدار القرن السادس عشر بالكامل، وكذا الذبذبة التي عاشتها بين السيطرة الكاملة للهوجوتت وبين المطارات الأكثر درامية، كل هذا سوف يكون مثار حيرة لدى إسبانيا.

انتهى كل هذا خلال حرب الثلاثين عاما والتي فيها قامت القوة العظمى الكاثوليكية بالصراع، من قبل الجناح البروتستانتي، ضد البيت النمساوي في فرعيه.

وكان ريشيلو هو أول محفز لهذا الموقف. في هـذا المقـام هنـاك نـص عظـيم الأهميـة كتبـه الكونت دوق أوليبارس أو أوصى به عام ١٦٤٣م بمناسبة سقوطه، ألا وهو Nicandro. ففي هذا المدخل ينفي اتهامات أعدائه ومنها عملية مقارنـة برتـشليو. يقـول هـذا الـنص "أعترف أن الكاردينال دي رتشليو كان ظريفا في كثير من الأمـور، لكـن الوسـائل التـي استخدمها من أجل الوصول لأغراضه كانـت منفـرّة، فقـد طـرد الملكـة الأم مـستخدما شواهد زائفة، وأشعل النار بها في Campagne وتحالف مع جميع الهراطقة في أوربا الـذين هم أكثر من الكاثوليك وحاباهم وأنقذهم، قام بعقد تحالفات وفكّها دون أن يكون وفيـا لأي منها، وروى ميدان باريس بدماء الصف الأول من النبلاء، أما الآخرون فقد نفاهم. كانت تتم السخرية من الدين حيث كان يطلق عليه أنه اختراع البشر القلقين، حيـث أراد أن يُدخل في فرنسا حِكَم اللاهوتي خارّون (Charron) الذي كتب هذه الترّهـات. وإذا لم ير الكونت في كل ذلك أحداثا طيبة فيكفيه أنه حاول من خلال الوسائل التـي هيّأهـا الله ولم تخرج عن الـدين ولا عـن البيـت النمـساوي، وأنـه إذا مـا حـاول حمايـة الهوجونـت والتابعين لرتشليو وأنه أيد البروتستانتيين الألمان نظرا لمبـدأ حريـة الاعتقـاد في فلانـدس وساعد على وجود الحارات اليهودية في المملكة وتعامل مع البابا كـما يعاملونـه في فرنـسا لكان وفر الملايين وكذا حال دون الأحداث السيئة. وعلى هذا نرجو ألا تأسف جلالتكم لعدم السير ضد الأفعال المشينة التي قام بها رتشليو والتي كان يمكـن أن تكلفـه الكثـير، وما يهم بالنسبة لجلالتكم هو أن تتوجه بالشكر لله على ما حباك به أكثر من فقدان الممالـك وغزوها"[٦٣].

يُرْجى الانتباه إلى أن الكونت دوق يحاول أمام فليبـي الرابـع أن يـبرر تـصرّفاته في الحكم ويدافع عنها، فهو لا ينفي وجود نجاحات لريشليو ولا يبالغ فيما فعل هـو، كـما لا يخفي أن الملكية الإسبانية قد منيت بـضربات وانكـسارات. ومـا يؤكـده هـو أن وسـائل

(63) مذكرات الكونت دوق دي أوليجارس ورسائله" طبعة جون إتش ٦٠ بليون وخوسيه ف. دي لابينيا – مدريد ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ٢٦٨.

رتشليو غير مقبولة، وأن وسائل إسبانيا أي ما فعله وهو دوق أوليبارس إنما هي أعمال عادلة ويرضى عنها الله. وهذا هو ما يحاول أن يفوز به أمام الملك، وما يحاول أن يقدمه دفاعا عن سياسته. غير أن ذلك يعني أن السياسة الإسبانية كانت عبارة عن ذلك، وليست متمثلة في "فقدان الممالك وغزوها". وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو فكيف كان لأوليبارس أن يبحث عن مبرر أمام أفضل نجاح حققته حكومة مناوئة، وكيف كان له أن يحاول أن يستعيد رضا الملك إلا من خلال الاعتراف بأن أداءه قد أدى إلى فقدان ومصائب؟

عندما جرت كتابة Nicandro كان تمرّد قطالونيا في أوجه، وكذلك الحركة الاستقلالية البرتغالية، حيث بدأت هاتان الواقعتان عام ١٦٤٠م. كانت لحظة أزمة شديدة الخطورة تمر بها المملكة وتهدد بالتشتت — ومن المعروف أن هناك بوادر فتنة في أرغن وإقليم الأندلس – وكان إسهام فرنسا وإنجلترا واضحا: حيث كانت لفرنسا يد فيما حدث في قطالونيا ولإنجلترا يد فيما حدث في البرتغال في الأساس. كما أن رتشليو كان قد بدأ المشوار، وعندما توفي عام ١٦٤٢م سار على دربه خليفة ناثارينو Nazareno.

كان لدى إسبانيا انطباع أمام السياسة الفرنسية، ليس أنها منافس، بل انطباع بعدم تصديق ما يحدث. فعندما كان البلدان يحاربان من أجل السيطرة على إيطاليا في عصر الملوك الكاثوليك، كانت الأمور واضحة، كما أن الصراع بين فرانثيسكو الأول وكارلوس الخامس حتى معركة بافيا Pavía يدخل في إطار النظام المتعلق بالأمور السياسية، وبعد ذلك لا نقول إن مساري كل من فرنسا وإسبانيا يتصادمان ويدخلان في أزمة، بل إن الأمر بالنسبة لإسبانيا لم يفهم التوجه الفرنسي، الذي لم يخضع لأي معيار علوي، بل كان مجرد رغبة في الوصول إلى الضخامة والقوة. وبالدرجة التي قامت فيها فرنسا طوال القرن السابع عشر بقيادة حصار أوروبا أخذت تشعر إسبانيا بأنها بعيدة وأخذ شعورها بخيبة الأمل يزداد.

جنون أوربي:

بدا لإسبانيا أن انتشار البروتستانتية وتمكنها في أوربا هو نوع من الخروج على السياق. وأيا كانت الفكرة المتوفرة لديها اليوم عن هذا الموضوع، فإننا إذا ما أردنا أن نفهم إسبانيا القرن السادس عشر فعلينا أن نعترف بصلاحية هذا التحليل في يومنا هذا. فالكنيسة واحدة، وكان ذاك هو المعتقد الثابت منذ البدايات الأولى للمجتمع الإسباني بهذا الاسم. إلا أن ما حدث من قطيعة أولا ثم التفتت التدريجي بعد ذلك، إنما هو عبارة عن تغيرات تؤثر على واقع أوربا بشكل راديكالي، فقد جرى العيش في إطار مسيحية موحدة في مواجهة الإسلام، كما لم يكن الانشقاق الفاضح في الغرب والذي تمثل في وجود اثنين من البابوات يواجه الواحد منهما الآخر (وصل الأمر في بعض الأحيان إلى وجود ثلاثة باباوات) كان يتسم بأهمية كبيرة لأن الجميع كانوا ينادون بوحدة الكنيسة رغم أنهم كانوا مختلفين حول من يقوم بتمثيلها الشرعي. كانت الأخطاء الداخلية والفساد والحاجة إلى الإصلاح لكنها لم تكن عقبات كبيرة، ذلك أن الأهم كان وحدة العقيدة وتمامها. لكن الأمر منذ أن ظهر لوثر أصبح مختلفا وأكثر خطورة.

ولبعض الوقت تم النظر إلى الأمر على أنه عقبة طارئة سوف يتم تجاوزها. إلا أن الأمر السيئ هو أن "النقاش الحاد بين الرهبان" تحول إلى حركة عامة عظيمة الأهمية وقد تضمن تفسير الحياة ومعنى الثقافة وعلاقات السلطة. واختلطت السياسة بالإصلاح الديني. كان كارلوس الخامس في خضم كل هذا، ورأى نفسه منتصرا في Mühlberg (١٥٤٧م)، غير أن اتفاقية السلام Augsburgo(١٥٥٥م) أجبرته على الاعتراف بأن البروتستانتية قد توطدت دعائمها، وأن ألمانيا منقسمة وأن مبدأ Cujus region ejus religio قام بشكل نهائي بربط العقيدة الدينية بالسلطة الدنيوية Temporales. أما بالنسبة للرؤية الإسبانية فإن الخطأ مسيطر على جزء كبير من أوربا الأمر الذي جعل من انشقاقها عن المجتمع القديم مجالا لأن تشعر إسبانيا بأنها مختلفة وفقدت صوابها.

هناك لحظة رأى فيها بعض العقلاء من الإسبان أن متاعب إسبانيا كانت أوربا سببا فيها على الأقل. هناك في هذا المقام كلمات لكيبيدو في كتابه **دفاعا عن إسبانيا** (لا ننسى أنه يرجع لعام ١٦٠٩م) تعكس بوضوح ما نريد قوله: "لا يكفينا أن نكون مكروهين من جميع الأمم وأن العالم كله بالنسبة لنا سجن وعقاب واغتراب بينما إسبانيا بلدنا وطن ومكان ضيافة للجميع. من لا ينادينا بأننا يدبر؟ من لا يقول لنا إننا جانون وجهلاء ومتغطرسون، وأن ليس لدينا ميل أو هوى إلا ونحن لا ندين بصلتنا به من خلالهم؟ هل عرفوا في إسبانيا أي قانون كان فيه شبق التعارض مع قوانين الطبيعة، اللهم إلا إذا كانت إيطاليا مصدره؟ هل كانت هناك احتفالية متكررة وزاد معها الإنفاق في الموائد القشتالية إلا وكانت المعاطف tudexos قد أتت بها؟ كانت محاكم التفتيش ستكون دون محل من الإعراب إذا لم يجرؤ الميلانتون Melanton والكالفينيون واللوثريون والزوينجلز Zuinglios على الاعتداء على حرمة عقيدتنا. وفي نهاية المطاف لا يمكن أن يوجهوا لنا سبابا على شيء إلا إذا كان ذلك هو مصدر إحساسهم بالشرف وأن هذا الشيء – بعد التأكد منه – ما هو إلا نوع من التشبه بهم"[64].

جنون أوربا هو عنوان كتيب ألفه دييجو دي سابردا فاخاردو، ومن المؤكد أنه يرجع لعام ١٦٤٣ أي الذي يفقد فيه كونت دي أوليبارس خطوته. الكتاب عبارة عن "حوار بين ميركوريو ولوثيانو" وهو يدقق كثيرا في باب المشاكل الدولية التي كان سابدرا ضالعا فيها من الناحية المهنية. تضمن هذا الكتاب الموجز بعض الأفكار المهمة عن الطريقة التي كان الإسباني فيها متداخلا مع أوربا – أي أنه الأكثر أوربية على مدى العصور – ويفصح عن الأفق العام للقارة. في بداية الكتابة يقول ميدكوريو:

"وبعد القيام بجولة في أوربا ألقيت بنظرة طائر من علٍ وهو في الهواء حتى أستوعبها كلها وأتفحص كل أجزائها. رأيت كوكب المريخ ذا اللون الحمر القاني، حيث

---

(64) دولورس فرانكو "إسبانيا كحالة قلق" (١٩٨٠) ص ٣٩.

تقوم عدة أمم بخوض حرب ضد أخرى بناء على رغبة وأهداف فرد واحد حيث يشعل فيها نيران الحرب. كانت تعتبر أن جنونها يتمثل في ترك مآثر السلام وعذوبة أرض الوطن وما لديه من ثروات، كل ذلك في سبيل غزو الآخرين والقيام بالبحث عن شعوب جديدة وهم لا يكفون لملء أوطانهم، ويقومون بالتدمير الأراضي والقرى والمدن وإحراقها وهي الأماكن التي يريدون الحصول عليها. وأنهم قد عرضوا حياتهم للخطر وفقدوا لذلك ما يملكون والسبب أن هذا التاج أو ذاك لديه شبر من الأرض زيادة عن الآخر، وأنهم يعرضون أرواح الجنود لخطر اقتحام مكان ليس عليهم العيش فيه، أو حتى الراحة ليوم بعد الاستيلاء عليه، وأن طموح الأمراء قد أعماهم بريق الفخار والشرف وهذه هي العملة يستعملونها لبيع الموت"(٦٥).

تضفي الرؤية الأوربية سمتها وملامحها على فكر سابدرا فاخاردو، فهو يكتب عندما أوشكت حرب الثلاثين عاما على الانتهاء، أي خمس سنوات قبل السلام ويستفاليا Westfalia. تقوم أوربا بتدمير نفسها بطريقة بشعة، من خلال واحدة من المصائب العظمى في تاريخها. وهذا يبدو في نظر سابدرا أمرا عبثيا، إضافة إلى أمور أخرى: فالمصالح القومية تبدو في نظره منفرّة من خلال المنظور الأوربي: ما الذي يهم "أن يكون هذا التاج أو ذاك" لديه شبر من الأرض زيادة عن الآخر؟ من البديهي أنه يرى الحرب كحرب أهلية أوربية، ويخوض في تفاصيلها بدءا بألمانيا "ليس بالكثير من الإعجاب – يضيف(٦٦) – شهدت الأخطار العامة التي تحدق بالمسيحية".

يرى سابدرا كيف أن أوربا تنطلق من هذا الجنون العام الذي كان ريشيليو هو المحرك الأساسي له، مثلما فعل في إنجلترا، وكذا الموقف الإسباني الذي سيطر عليه تمرد قطالونيا وانفصال البرتغال. ويرى أن القشتاليين ارتكبوا أخطاء ولم يكونوا على قدر جيد من الرصانة

---

(65) الجزء الرابع من أعمال سابدرا فاخاردو. مطبعة جاردا، مدريد ١٨١٩م ص ١١٢ (الخط المائل من عندي).

(66) المصدر السابق ص ١١٩.

وخاصة أنهم لم يدركوا أن "التمرد في إقليم عادة ما يشعل النار بشرره الذي ينتقل إلى غيره من الأقاليم". ثم يتوقف لدراسة الحال البرتغالية.

يقول عن البرتغاليين في معرض حديثه عما قام به ملك إسبانيا من إخراج الحاميات الحربية من البرتغال للسيطرة على العصيان في قطالونيا "هذه الثقة بالنفس كان يجب أن يتم الإبقاء على الولاء بمقتضاها وعدم استغلالها بشكل يزيد على الحد تاركين ملكا شرعيا طاغية دون إعفائهم من اللوم على الثقة بالنفس بأنه تابع لهم، كما أن هذه الثقة لا يمكن أن تكون على نفس درجة الزهو والشهرة بأن من يحكمهم إنما هو ملك عظيم وأنه وقف بقوة ضد هولندا، بشكل يزيد على القوة ضد البرتغال بكثير، واستطاع الإبقاء على جزر الهند الشرقية المكتشفة والتي تم غزوها بفضل دماء وإقدام الأقدمين، وكان فتحا مصدرا لحسد الأمم حيث رأت قيمة الدم والثروة التي حصلت عليها قشتالة. ولا يجب أن يقللوا من شأن البرتغاليين من أن يضموا ذلك التاج إلى تاج قشتالة، فمن هذا التاج خرجت كمقاطعة وعادت إليها كمملكة، وليس الأمر هو الانضمام والالتحام بها كمملكة بل هو الازدهار إلى جوارها دون أن يمكن القول إن لها ملكا أجنبيا، بل ملك من أهلها، وليس الأمر عن طريق الغزو ولكن عن طريق الاستخلاف الشرعي في الإمساك بمقاليد المملكة بين الآباء والأبناء، وأن يتم حكمها بقانونها وأسلوب حياتها ولغتها لا على أنها قشتالية بل على أنها برتغالية. ورغم أن الملك يقيم في مدريد فإن نوره يتلألأ في لشبونة. لا يُرى في تروس البرتغال وأختامها رمز الأسد والحصن ولا في قواتها البحرية وأساطيلها، بل ما يرى هو لحاء الكينا، وهي رموز لخمس من الرايات التي قام باقتنائها بجرأة السيد ألونسو، أول ملك للبرتغال في معركة أوريك Orique من خمسة من الملوك المورو. كما لا يعطون ما فازوا به وجدارتهم للأجانب بل لأبناء البلد، كما أن هؤلاء كانوا يتمتعون بها لدى قشتالة ولدى المملكة جميعًا... كانت التجارة أمرا شائعا في كل مكان، وكذلك انتشار العقيدة والاسم العام بأنهم إسبان. إنه المناخ نفسه: باستمرار الأقاليم دون أن تكون هناك عوائق مثل الأنهار أو الجبال.

كان لكل من أرغن ونابارّة وجليقية ملوك خاصون بهم، **ولا يمكن لحكم على من يملكون حاليا بأنهم أجانب أو أنهم يعيشون أقل سعادة عن ذي قبل**"[٦٧].

قام سابدرا فاخاردو بدراسة متأنية مشابهة للسابقة تتعلق بدلالة التمرد الذي وقع في قطالونيا، حيث يرى أنه خطأ مدمر لقطالونيا وخاصة أنها سوف تصبح تابعة لفرنسا ومرتبطة بها، وهي الأمة الأجنبية والبعيدة عنها في كل شيء[٦٨]: "ليست هناك أي محافظة تتمتع بالكثير من المال ووفرة الحرية من قطالونيا، ذلك أنها كانت سيدة نفسها، وكانت تحكمها أعراضها (**هل هي أعرافها؟**) وطرائق معيشتها وعاداتها، وكانت تعيش في سلام كامل وطمأنينة ولها ملك قوي كانت مهمته الدفاع عنها والمتعة بحمايتها وأنعمها وأفضالها وليس ممارسة حق السيادة عليها. لم يكن يفرض عليها جبايات أو يجبرها على المساعدة... وفيها لا يتم تمثيل جلال ملك وإنما درجة الكونت، لدرجة أنه يمكن الشك في كثير من الأحيان فيما إذا كان سيدا أو مواطنا من برشلونة. وبعد قليل يضيف قائلًا: "**يوجد في أعرافها أساس مبادئها**، أو أن تكون من التابعين الأحرار، وهذا لا يهمها وخاصة عندما **يحكم ملك تزداد مملكته بهاء بتنوع أتباعها Vasallos**"[٦٩].

ليس من الصعب أن نجد في هذه النصوص الغضب من أوربا الذي أخذ يستشري بين الإسبان الأكثر حنكة من الذين يعرفونها. وعندما نأتي إلى العصر الحاضر ونتأمل أوربا الحديثة، أي أوربا هذه القرون، نجد أن الصورة التي تخطر على الأذهان هي أوربا المبدعين في العلوم والفلسفة والقانون والأدب والفن. وقد ساهمت إسبانيا بشكل جيد في تلك العملية الإبداعية بشكل ملحوظ – اللهم إلا في حالات استثنائية يجب الإشارة إليها وتوضيحها - إلا أن هذه الصورة التي تبدو لنا أنها الجوهر، لم تكد تكون إلا جزءًا لا يكاد يرى آنذاك في إطار المشهد التاريخي. وفي الوقت ذاته نجد الإسهام الإسباني وواقعها الكامل أخذ يخيم عليهما الكل.

---

(67) المصدر السابق ص ١٣٧ – ١٣٨.

(68) المصدر السابق ص ١٥٤-١٥٥.

(69) المصدر السابق ص ١٥٦-١٥٧.

الانكماش الإسباني:

تجب الإشارة إلى واحدة من السمات الأكثر خطورة في التاريخ الإسباني، التي كان لها أثر حاسم، في كثير من الأحيان، في القضاء على الفرص الثمينة وأحيانا الحيلولة دونها أو جعل الوقائع جامدة وإيقاف مسارها الطبيعي. إنني هنا أشير إلى توجه هو التقوقع أو الانكماش، حيث انغلقت إسبانيا على نفسها وانقطعت صلة تفاهمها مع العالم الخارجي، وسوف ينسحب هذا الاتجاه على إسبانيا خلال العقود الأخيرة من القرن السابع عشر، إلا أن هناك سوابق تساعد على فهم هذا الموقف.

لقد شهدنا الغضب الذي يتولد عند الإسبان وخاصة عند كارلوس الخامس، كما رأينا صمود وقوة البروتستانتية في أنحاء كثيرة من أوربا استقرارها، لكن إسبانيا قد تحررت من ربقة "التلوث" وأصبحت خالية من هذا التوجه غير الأمين. عندما تنازل كارلوس الخامس لابنه فيليبي الثاني عام ١٥٥٦م عن الأراضي الإسبانية، ثم في عام ١٥٥٨م عن التاج الإمبراطوري لأخيه فرناندو، كانت هناك اختلافات كثيرة: فالأراضي الألمانية كانت مقسمة من المنظور الديني، لكن إسبانيا ظلت كاثوليكية بالكامل، وانسحب كارلوس الخامس إلى يوست Yuste، وأخذ يتهيأ للموت لكنه ظل يراقب باهتمام الأحداث التي تمرّ بها المملكة، ويرسل لابنه التعليقات والنصائح. وظل على هذا الوضع الذي تتسم فيه تصرفاته بالقوة والصرامة الشديدة حتى وفاته عام ١٥٥٨م.

ظهرت في تلك الآونة بؤرتان من بؤر "اللوثرية" في إسبانيا، إحداهما في أشبيلية والأخرى في بلد الوليد. أقول "لوثرية"، ذلك أن هذه البؤر لم يكن من الواضح بشكل حاسم أنها هكذا، إذ كانت توجهات بروتستانتية غير واضحة المعالم في حقيقة الأمر، فقد كانت بالتأكيد أشكالا من الكاثوليكية النقدية وغير الراضية عما هو قائم ورغبة في الإصلاح كان يمكن النظر إليها على أنها مشروعة في ظروف مختلفة. ولدي الانطباع بأن هناك الكثير من المتهمين والمُدانين من قبل محاكم التفتيش كانوا على هذا النحو الذي

يمكن أن يطلق عليهم فيه أنهم "كاثوليك ما قبل المجمع الكنسي Preconciliar"، فهم حسبما نقول اليوم من الذين يقدمون إرهاصات تنبئ بأنماط في العقيدة التي ينظر إليها في زماننا على أنها أرثوذكسية واضحة الملامح.

يعرف الجميع ما كان عليه كارلوس الخامس من غضب وقلق ورد فعل قاس عندما كان يتلقى أنباء هذه المحاولات: كان الأمر يبدو له وكأن ما حققه مهدد، وأخذ يرى أن إسبانيا سوف يدخلها هذا الذي حاول جاهدا طوال حياته الحيلولة دونه. كان الأفراد الضالعون في الأمر قليلي العدد للغاية فهناك ما يقرب من عشرات في بلد الوليد وأكثر قليلا من مائة فرد في أشبيلية. إلا أن الخطير في الأمر هو أنهم في الأغلب الأعم أناس من ذوي الحيثية سواء كانت الاجتماعية أو الدينية: أي هناك رجال ونساء من النبلاء وهناك كهنة ورهبان وراهبات. يجب الحيلولة دون دخول البروتستانتية إلى إسبانيا مهما كلف الثمن، وأدت عملية إعدام الملحدين في كل من بلد الوليد وأشبيلية، عام ١٥٥٩م، إلى القضاء على هذه البؤر بأعنف شكل وذلك دون تمييز كبير بين ما يمكن أن يسمى بالفعل بأنه هرطقة وما ليس كذلك. وخلال السنوات الثلاث اللاحقة كانت هناك بعض التصرفات ذات الطابع القمعي العنيف.

ما يهمني في الأمر هو أنه في عام ١٥٥٩م ظهرت أول بادرة تقوقع لإسبانيا وكانت، بغض النظر عن إعدام الملحدين، ذات دلالة مختلفة، وتجلى ذلك في ثلاثة أحداث ذات دلالة: قرار فيليبي الثاني بمنع الطلاب الإسبان من الدراسة في الجامعات الأجنبية (باستثناء جامعة كويمبرا وبولونيا ونابولي وبعض الجامعات الأخرى)، بمقتضى أمر عال صدر في ٢٢ نوفمبر، هناك أيضًا ما نشر من خلال محاكم التفتيش حيث قام فرناندو بالدس بنشر أول فهرست بالكتب الممنوعة وهو أول فهرست إسباني بمعنى الكلمة (index Librum qui prohibentur)، وهناك بداية المشوار المناهض لأسقف طليطلة، فراي بارتولوميه دي كارّانثا. إذن واضحة معالم هذا التوجه الانعزالي، ويمكن بادرة لذلك فيما قام بالبرا بتسميته "سور الصين الذي أحاط بإسبانيا خلال القرن السابع عشر، وهذا أيضًا هو ما أطلق عليه أورتيجا

إي جاسيت بعد ذلك" جعل إسبانيا وكأنها منطقة التبت على زمن الملك فيليبي الرابع". غير أن علينا ألا نقع في الخطأ مترسخ الجذور الذي نشاهده في الأغلبية العظمى من التحليلات الخاصة بتاريخ إسبانيا، ألا وهو الخلط بين التوجهات والواقع ثم الإعلان بحدوث ذلك واكتماله، وفي نهاية المطاف الإقرار بأن كل شيء يمتد إلى ما لا نهاية على هذا الوضع.

لم تنعزل إسبانيا ولم تنكمش عام ١٥٥٩م. ففي ذلك العام تجلى دافع كان من الممكن أن يقلق الأذكياء وكانت له نتائج شديدة الخطورة بعد ذلك بقرن من الزمان تقريبا. غير أن قرنا من الزمان هو وقت طويل في الواقع رغم أنه قد يبدو فترة صغيرة في صفحات كتاب متعجل في السرّد. فقد ظلت إسبانيا موجودة في كل مكان وعلى جميع الأصعدة: هناك معركة ليبانتو ١٥٧١م، وهناك الحملة على إنجلترا عام ١٥٨٨م، وبناء الأسكوريال (١٥٦٣ – ١٦٨٤) وهناك انضمام البرتغال مصحوبة بإمبراطوريتها فيما وراء البحار (١٥٨٠) وهناك توطيد لدعائم حكم نواب الملوك في أمريكا واستعمار الفلبين، ولا ننسى في هذا المقام الإبداعات الأكثر ثراء في عالم الأدب والموسيقى والعمارة والرسم ابتداء من الأعمال الكاملة لثربانتس وحتى وفاة كالديرون دي لاباركا عام ١٦٨١م.

واعتبارا من بدايات حرب الثلاثين عاما، وخاصة في منتصف القرن السابع عشر، نجد أن الانكماش أخذ صورة فعلية، وهنا أقول إنه نوع من الانكماش الانتقائي: فإسبانيا موجودة في كل مكان وخاصة في أمريكا رغم أن هذا غير مرئي بوضوح، إلا أنها تباعد نفسها عن بعض الجوانب التي توجد في أوربا والتي تبدو لها أنها خاطئة أو غير ذات قيمة. فهل كانت كذلك؟ الإجابة على هذا السؤال هو أنه منذ القرن الثامن عشر حدث العكس تماما أي أن إسبانيا تركت خارجها ما كان ذا قيمة كبيرة في أوربا وأصبحت "على الهامش"، وهذا ليس غريبًا، ذلك أن تقييم التاريخ جرى من منطلق الرؤية الأوربية ونظرها إلى تلك الأمور التي ابتعدت عنها إسبانيا أو لم تولّها اهتماما. لكن يجب أن تكون هناك مراجعة لكل ذلك وإلقاء نظرة جديدة على الطرق التي سارت فيها أوربا ابتداء من ذلك الحين وحتى اليوم دون أن نواري شيئا من بعض السوءات الكبرى خلال القرن العشرين، حيث يمكن الكشف عن بوادر هذه الأحداث من خلال مبادئ بدت جديرة بالإعجاب طوال زمن طويل والتي لم تحظ بقبول الإسبان.

غير أنني أظل على الاعتقاد بأن الانكماش كان خطأ صراحا، فأن يبتعد المرء عما لا يبدو له أنه جذاب وأن يتجاهل كل ما يشعر أنه خطير أو خاطئ فهذا ليس تصرفًا جيدًا، و"الانعزالية" لم تخرج عن كونها محاولة لم تتم، وخاصة عندما يتعلق الأمر ببلد مثل إسبانيا - أو الولايات المتحدة في القرن الذي نعيش فيه - موجود في كل مكان، شئنا أم أبينا. أما الشيء الوحيد الذي يمكن اختياره فهو كيف يمكن أن تكون: إما نشطة ومبدعة أو سلبية، وأنها بالكاد. وفي هذا المقام نشير إلى أن محاكم التفتيش كان لها دورها الحاسم وليس هو الدور الذي عادة ما ينسب لها، وإنما كان دورا أقل ميلودرامية، لكنه ليس أقل إثارة للحزن. توضح الدراسات الحديثة حول محاكم التفتيش[70]. أن الصورة الموروثة والمسيطرة خلال الفترة من القرن الثامن عشر وحتى التاسع عشر غير قائمة على أساس كبير، وأن عنف محاكم التفتيش كان ضئيلا للغاية وأقل بكثير من ذلك العنف الناجم عن أسباب أو ذرائع دينية في أغلب أنحاء أوربا، وأن إجمالي أعداد ضحايا محاكم التفتيش، على مدار تاريخها، لا يصل لعدد ضحايا ليلة واحدة لسان بارتولوميه أو لما ترتب على المطاردات التي قام بها إنريكي الثامن، أو محاكمة ألمانيا للشعوذة، بغض النظر عن الإشارة إلى الحرب الدينية أو الثورة الفرنسية.

تتّسم هذه المراجعات بأنها عادلة وملائمة، لكنها يمكن أن تقود إلى ما يسمى "بالمصالحة" مع محاكم التفتيش وهذا خطأ فادح. فالمبادئ التي كانت تقوم عليها كانت منفرّة للغاية رغم أن أمما أخرى تشاركها فيها، فالخطوات التي كانت تقوم بها مناقضة للمسيحية تماما. كما أن حالة البلبلة التي تحدثها بعض الأمور التي ما زالت شديدة التأصل يمكن أن توضح أن هناك القليلين ممن رأوا ذلك ودون نتائج كبيرة. فعندما تتم الإشارة إلى مجموعة الأعمال الرائعة التي ظهرت خلال الفترة الأكثر نشاطا وعنفا في حياة محاكم التفتيش - ومن هؤلاء الباحثين نجد مننندث بيلايو على سبيل المثال - لتبرئتها من المسئوليات الثقافية، فإن هذا صحيح في باب تبيان أنها لم تمنع من إبداع هذه الأعمال أو تلك، إلا أن يتحول إلى خطأ محض إذا ما كان يراد القول إن سلوكيات محاكم التفتيش لم تكن مؤذية للغاية. وعندما يقال

(70) انظر على سبيل المثال كتابًا صدر حديثًا وعمّ صيته لهنري كامن "محاكم التفتيش الإسبانية" - دار نشر أليانثا - مدريد ١٩٧٣م مصحوب بقائمة طويلة من المراجع.

– مثلما يقول أورتيجا – إن محاكم التفتيش الإسبانية لم تحرق أي هرطوقي مهم (هؤلاء قد تم حرقهم في الخارج)، وإن الأمر الخطير هو أنه لم يكن هناك أي هرطوقي مهم لإحراقه، فإنه قد أصاب عندما أشار إلى قلة عدد الهراطقة الإسبان، وربما ينوه إلى أن إسبانيا لم تكن مغرقة في هذه الأفكار، إلا أنه لم يشر إلى أمر يبدو لي حاسما ألا وهو أن محاكم التفتيش أحدثت تأثيرها في تضاؤل بعض أنماط التفكير في إسبانيا سواء كانت هرطوقية أو أرثوذكسية – وسوف أوضح ذلك.

أعتقد أن الأذى الكبير الذي ألحقه وجود محاكم التفتيش في الحياة الثقافية الإسبانية لم يتمثل في ملاحقة كبار المبدعين واضطهادهم. نعم كان هناك هذا المسلك ضد البعض حيث تعرضوا للمطاردة أو المضايقة لكن هذا لم يقض عليهم. ما هو أذى، تمثل في الردع عن الدخول في قضايا معينة تلفت انتباه محاكم التفتيش ويمكن أن تكون سببا في رصد مقلق يضع من يقوم بذلك موضع شبهة. لم يكن على محاكم التفتيش في الأغلب الأعم أن تمارس العنف الفعلي: كان يكفي وجودها ومراقبتها غير المرغوب فيها، هذا قد حال قبل الوصول إلى مرحلة الخوف، دون رحابة التفكير والعقوبة التي تتطلبها بعض أنماط الإبداع. أي البحث عن الأفكار التي لا تتسم بأنها مثيرة للجدل ومتخذة موقفا والتي لا تعادي أحدا أو أي شيء، وإنما هي تلك التي تبحث عن الحقيقة بهدوء وسكينة ومرحة أحيانا.

وعندما يتوجه المثقف الإسباني نحو حقل معين فإنه لا يتوجه بشكل شبه آلي إلى تلك الحقول التي يمكن أن تجر عليه المضايقات. ومن ناحية أخرى فإن الهرطوقي كان من الممكن أن يتعرض للخطر بسبب شغفه بالمخاطر. ومن جانبه نجد الباحث النظري يوجه بصره نحو حقول لا يتوقع أن يصطدم فيها بأمور غير مرغوب فيها ويبتعد بشكل عفوي. عن تلك الأخرى التي يمكن أن تجر عليه الويلات والمتاعب. لقد عشت تجربة شبيهة فبعد الحرب الأهلية، كانت الفلسفة الجديدة بهذا الاسم أمرا سلبيا بما لا يدع مجالا للشك، وإذا كانت هناك ممارسة للفلسفة في إطار من الحرية والاستقلال، فلا يمكن أن ننتظر منها في ذلك إلا المتاعب وأن توصد الأبواب في الوجوه. ومن خَبِر ذلك يعرف ما

أقول. وعلى هذا عاش أغلب هؤلاء الذين كانت لهم توجهات فلسفية ولم يكونوا على استعداد للتحول عن ذلك فيتوجهوا نحو تخصصات أخرى، ربما كانت قريبة من الفلسفة لكنها أقل عرضة للمراقبة ولا تثير هذه العداوات حيث كان من الممكن العمل برحابة فكر وتحقيق نجاح اجتماعي ومهني.

أسهم الإسبان خلال العصر الذهبي بأعمال ثقافية تثير الدهشة، وواضحة القيمة للعيان، رغم أن الأعمال الأولى منها قد تضاءلت بفعل النسيان والجهل، أما الثانية فقد تعرضت للغمط بسبب أنظمة تقدير. غير أن ما يجب الإشارة إليه هو ما لم يفعلوه وكان من الممكن أن يتم، ألا وهو تلك المهام الثقافية التي حالت دونها روح محاكم التفتيش. هناك بعض أنماط الفلسفة والعلم التي كانت تبدو آنذاك أمرا عظيما وجرى النظر إليها نظرة سوء في بلدانها الأصلية – لكن بطريقة أقل استدامة وقوة – حيث لم تمارس أيضًا في إسبانيا. وهذه العناصر هي التي تبدو اليوم في نظرنا أبرز تبرير لما كان عليه القرن السابع عشر الأوربي، أي ما كان مصدر فخار في قرن تلفه الظلال. كان هذا التقوقع خطيرا للغاية على إسبانيا، ذلك أنه قد فقدت معه الروح التنظيرية ولم تعد للظهور في ثوبها الجديد. وعندما أصبح من الممكن ممارسة النشاط في مثل هذه الحقول، أي عندما كان يتم استيحاشها كان من الضروري اللجوء أولًا إلى الأدوات الثقافية من أجل هذا الغرض، وربما كان الذهاب في هذا المقام لما هو أبعد أي الموهبة الحية.

من هذه الزاوية نشأ انكماش إسبانيا والذي وصله إلى مرحلة "التبتية" في أبرز أشكاله في بعض جوانب الحياة وفي فترات زمنية محددة. أرى إسبانيا في ذلك الزمان مثل شخصية دون جوان Don Juan aux enfers وهي شخصية ازدرائية، لبودلير، حيث عبر Estigia وهو ملفوف بعباءته بين مناوئيه المهزومين وغزواته الكبيرة:

لكن البطل الساكن المنكفئ على سيفه

لم يكلف نفسه عناء رؤية شيء.

Mais le calme héros curbe sa rapière

regardait le sillage et ne daigniait rien voir

الفصل العشرون

مراجعة الانحطاط

أخطاء إسبانيا:

يتضمن تاريخ إسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر قائمة مطولة من الأخطاء. وهنا فإنني أستخدم لفظة "خطأ" في إطار مفهوم محدد للغاية، وإلا فإنها سوف تكون غير واضحة الملامح بشكل مبالغ فيه حيث يصبح المعنى غير محدد وغير قابل للتوكيد. فلا يمكن أن نعتبرها أخطاء تلك الأحداث التي تبدو في نظرنا غير جيدة لأن ذلك يعني رفض فهم عصر من حيث هو. ولا ندخل في حساباتنا "الفشل"، والسبب هو أن حالات الفشل كثيرا ما ترتبط بالظروف والمصادفة والأفعال الصادرة عن الآخرين وبالتالي لا تدخل في باب الأخطاء. أضف إلى ذلك سببا آخر وهو أن الإنسان ليس من الضروري أن ينجح، وأن عدم بلوغ النجاح ليس حجة ضده. ما أطلق عليه أخطاء هو تلك الوقائع التي تقف حجر عثرة أمام المشروعات الحقيقية، والتخلي عنها وإحلال أخرى أقل منها محلها، وكذلك عندما لا يوضع الواقع في الحسبان وخاصة ما يتعلق بمتطلبات تلك المشروعات. وبناء على هذا، فإن أخطاء إسبانيا يتضاءل عددها لكنها تكشف عن ملامح واضحة تساعدنا على فهم أفضل لتاريخها: وهذا هو ما أريده في هذا الكتاب وليس شيئًا آخر.

أشرت قبل ذلك إلى خطأ فادح كان سببا في إقرار وجود محاكم التفتيش ومطاردة اليهود أو الموريسكيين أو طردهم: وهو أن الاستنتاج القائل إنه لما كانت إسبانيا بلدا مسيحيا يجب أن يكون جميع الإسبان مسيحيين. لم يكن محور هذا الخطأ "أخلاقيًا" بل كان ثقافيا في الأساس: أي النظر إلى أنه لا يجب المطالبة بما لا يمكن طلبه، فقد جرت محاولة فرض سطوة القانون فيما هو مشروع من حيث أنه رغبة.

هناك خطأ ثان، شديد القرب من الأول وهو الخلط بين العقيدة الدينية والسلوكيات الاجتماعية، والربط بين المسيحية وعادات "المسيحيين القدامى" ونسيان أنهم جميعا ودون استثناء مسيحيون "جدد" بمعنى أنه تم تعميدهم وبدأت مرحلة الاعتقاد وبالتالي فإن هذا التمييز كان ضد جوهر المسيحية التي كان يراد لها البقاء والنقاء.

الخطأ الثالث كان متمثلا في التراجع أو الانكماش أمام الغضب – الذي له ما يبرره بدرجة كافية – الذي كانت تشعر به إسبانيا إزاء المسالك التي اتخذتها أوربا (أو الأعم الأغلب منها). وإذا ما تم النظر للأمر جيدا فإن تلك الأخطاء كانت تتجه بشكل مباشر صوب المشروعات الكبرى لإسبانيا، أي أنها تمثل زيغا عن المسارات الملائمة وبالتالي فهي أخطاء يمكن توصيفها بأنها **أخطأت الطريق** وخاصة بسبب عدم وضوح الرؤية. وبالتالي من السهل، وكما أوضحت قبل ذلك، رؤية تلك على أنها أخطاء ذات تأثيرات بعيدة المدى وهي أخطاء لا أريد بأي حال من الأحوال أن أخفيها أو أغض الطرف عنها. وما يبدو لي بديهيا أيضًا هو أنه لو نظرنا بنوع من الرؤية النقدية لتاريخ أي بلد – وخاصة البلاد الأوربية خلال تلك الفترة – لوجدنا سلسلة من الأخطاء ربما كانت أكثر عددا وأكثر خطورة.

ومع هذا فإن الأخطاء الإسبانية التي ورد ذكرها لم تكن هي الوحيدة، إذ كانت هناك أخرى أكثر تحديدا أو أنها أحدثت تأثيرها على جوانب خاصة في الحياة أو على بعض المراحل الزمنية وكان تراكمها ذا أثر شديد الخطورة. لقد أدى اللاتسامح مع البروتستانت

الفلامنك إلى خطأ يقع خارج الحدود الإسبانية، لكنه خطأ ارتكب قبل ذلك مع اليهود والموريسكيين. فقد قبل كارلوس الخامس للتو بالانقسام الديني الذي حدث في الدول الألمانية، لكنه لا هو ولا فيليبي الثاني يعترفان بمثل هذا الأمر في فلاندس، التي تنسب إلى التاج الإسباني. وقد أدى هذا في المقام الأول إلى العنف والقسوة اللذين أحدثا تأثيرهما السلبي على شخصية إسبانيا وسمعتها وسمحا ببعض المنطق في نشوء الأسطورة السوداء. ومن جانب آخر أدى إلى حروب دموية لا تنتهي، وهذه هي قاعدة تتكئ عليها الأمم المعادية لإسبانيا، ثم ما نشأ بعد ذلك من قيام هولندا ودخولها في صراع عدائي دائم.

لم يؤد محور المشروع المسيحي الذي يلتزم بالدفاع عن الكاثوليكية والحفاظ عليها إلى حمل الملوك الإسبان على الدخول في تبعية مؤقتة للباباوات، حيث حافظ الملوك الإسبان دوما على حقوقهم، لكنهم سمحوا للكنيسة أن تحتل في الأمة مكانة مبالغا فيها وأنها كانت تتجاوز كثيرا وظيفتها الروحية. هناك تضخم في تراكم الثروات التابعة للكنيسة، ومن الواضح أن الكنيسة كانت تقوم بأداء وظائف ضرورية مثل الأعمال الخيرية والتربية، إلخ، وبالتالي كانت في حاجة إلى أموال كثيرة، إلا أنه من الواضح أنها أقصت المجتمع الدنيوي بشكل لم يكن من المفروض أن يتم، أو فعلت ذلك مع التاج في كثير من الحقول غير ذات البعد الديني ووصل الأمر في هذا المقام إلى أن أصبح ما يسمى بـ Regalismo (مذهب أنصار امتيازات الدولة في علاقتها مع الكنيسة) خلال القرن الثامن عشر عبارة عن بذل الجهد في إقرار وجود دولة دنيوية في إطار الأمة الكاثوليكية وكان هذا مطلبا من المطالب الملحة للغاية. وعلى مدار قرنين من الزمان للأسرة النمساوية في الحكم نرى أن فرط نمو ما هو كنسي أحدث تأثيره على اختصاصات المملكة على المدى الطويل من الناحية الدينية كما كان التأثير اقتصاديا واجتماعيا. ورغم المبالغات الكثيرة في هذا المقام وبشكل غير مسئول في أغلب الأحيان، لا يمكن أن ننفي وجود الطوائف الدينية وانتشارها وتركز المال في أيدي الأساقفة وما تولد عن ذلك من نفقات مبالغ فيها

والتي تزيد عن الاحتياجات الحقيقية، حيث كانت بشكل ما نوعا من المنافسة بين الجماعات الدينية أو بين الأبرشيات وزاد عدد رجال الدين، الأمر الذي أسهم في إحداث الفقر العام.

وفي نهاية المطاف تم اكتشاف أخطاء ذات نتائج خطيرة للغاية بما في ذلك الحقل الديني الذي ارتبطت به باقي الحقول. ففي البداية كانت هناك مقاومة للإصلاح وكانت ذات طبيعة إيجابية وخلاقة في بداية الأمر، ومن الأمثلة الدالة على هذا نذكر جماعة اليسوعيين ابتداء من المقاصد الأولية التي وضعها إيجناثيو دي ليولا ومرورا بتكوين مجموعة مجددة في باريس وانتهاء بالتأسيس النهائي لها عام ١٥٣٩م، ثم توكيد ذلك في العام التالي، حيث نجدها نموذجا للإبداع الديني والثقافي الإسباني ثم فازت بعد ذلك بشهرة يونيفرسال. وأيا كانت الملاحظات التي يمكن أن تسجل على توجه القديس إيجناثيو ومن أتوا بعده فمن البديهي أنهم كانوا وراء عملية تجديد واسعة النطاق وتحولوا إلى القوة الرئيسية في العالم الكاثوليكي، أي في جميع أنحاء أوربا وكذلك الأمر في أمريكا وفي المشرق.

يمكن أن نقول الشيء نفسه عن الإسهام الإسباني في مجمع الأساقفة الذي عقد في ترنتو Trento (١٥٤٥ - ١٥٦٣)، وكان الإسهام من البداية وحتى الإسهام اللاهوتي العظيم. قام الكرادلة وعموم رؤساء الجماعات الدينية واللاهوتيين المستشارين - وخاصة اليسوعيين والدومنيكان - بأداء دور مهم، يجسد الموقف الإسباني من حيث خدمة الكنيسة العالمية في إطار ما هو كنسي. لم تكن هناك أبدا أي نية للانشقاق أو الاستقلال الذاتي بما في ذلك ما يتعلق بجوهر العقيدة، بمعنى أنه لم تتم أبدا محاولة خلق كنيسة "وطنية" (مثل الكنيسة الإنجيلية أو اللوترية) لكن لم تتم أيضًا محاولة خلق كنيسة "galicana" رغم الوزن المبالغ فيه الذي كان لها في المجتمع الإسباني على العموم، وما تلا ذلك من تركيز السلطة والتأثير في يد واحدة.

غير أن هذا الجهد التحديدي قد تم امتصاصه بعد ذلك، وأخذ يتحول إلى شيء فاقد للحياة وقليل التحديث وغير واثق، كما أنه يتخذ روما موقف الدفاع عن النفس. كما أن "الانكماش الإسباني" سوف يحدث تأثيره الواضح على الفكر، دون استثناء ذلك الجزء، حيث باسمه وقعت حالة انعزال وتجنب غير مقبولتين، كان ذلك في الجانب اللاهوتي وكذا في الجانب الديني بعامة. ولا يمكن أن تعتبر ما يجري في إسبانيا استثناء، فقد حدث في جميع أنحاء أوربا ابتداء من نهاية القرن السادس عشر وحتى وقت قريب من أيامنا هذه، حيث نجد الفكر الكاثوليكي وقد تغلغلت فيه عدم الثقة والتوجه نحو التكرار المميت لأفكار تم طرحها وكانت ذات أصالة شديدة في عصور مضت، ولهذا فإن اللاهوتيين قد فقدوا القدرة على الدفاع وفقدوا "المضاد الحيوي"، إذا ما صح التعبير، أمام أي رؤية دينية ذات قوة اجتماعية: فها هي الشهوانية Sensualismo خلال القرن الثامن عشر، والماركسية في القرن العشرين. غير أن ذلك الأمر كان أكثر خطورة في إسبانيا مقارنة بدول أخرى، نظرًا لتضاؤل حجم وجودة الفكر الدنيوي، كما أن تدهور الفكر الكنسي لم يجد المعادل الملائم.

وبغض النظر عن هذه الأخطاء الفعلية المناقضة للإلهام العميق الذي عليه المشروعات الإسبانية كانت هناك أسباب بعيدة عنهم، جعلت انحطاط القوة الإسبانية أمرا شبه حتمي. كانت إسبانيا، كما شهدنا، في طليعة تحديث أوربا، كما كانت متقدمة في مسار الوطنية وفي تنظيم شكل جديد للدولة من الناحية العسكرية، وفي تفجير ينابيع الفعالية التي لم تكن معروفة قبل ذلك. ويمكن فهم السيطرة الإسبانية على أساس تضافر هذه العوامل، غير أن الأمم الأوربية الأخرى أخذت طريقها إلى النضج في هذا المقام سواء كان ذلك بإيقاع سريع أو بطيء، وأخذت تتجسد فيها ملامح البنى الخاصة بالعصر الحديث، وأخذت تنضم إلى مستوى الزمن. إلا أن الميزة الأولية التي كانت لإسبانيا أخذ يخبو نورها وأصبحت وحدها في مواجهة الآخرين. كما أن ترامي أطرافها وكثرة المهام الملقاة على عاتقها وتشتت طاقاتها – بما في ذلك ما يتعلق بتعداد السكان – جعلها فريسة سهلة

للاعتداءات. وفي هذا المقام نشير إلى أن معظم الأمم كانت تتعرض لضربات تقوم بالانتقام لها أو تعويضها، كما أن جميع الأمم دون استثناء كانت تبحث عن شيء تكسبه على حساب إسبانيا. **فالانحطاط**، بمعنى التراجع على الوضع السابق، كان أمرًا لا مناص منه من الناحية الإنسانية وهذا ما خمّنه كيبيدو في سوناتا شعرية شهيرة، أي ما يبدو أنه يراه في سوناتة أخرى أكثر شهرة ومجالا بعنوان (هيراكليس المسيحي) Heráclito Cristiano، وهو ما يوجزه في نهاية المطاف في جزء من تلك الرسالة، التي ورد ذكرها كثيرا، الموجهة إلى السيد/ فرانثيسكو دي أوبيدو، التي كتبت في ٢١/ ٨/ ١٦٤٥، أي قبل ثمانية عشر يوما على وفاته.

قوطي اختبأ في كهف في الجبل.
تمكن من السيطرة على القشتالتين،
على بتيس وشنيل على كلا الشاطئين،
هؤلاء ورثة الملحمة الكبرى.

إلى تابارّة التي أعطتك عدلا وبراعة
وزيجة، في أرغن، بين الكرسيين
حيث تمكنت من السيطرة على صقلية ونابولي
كما ترافق ميلان الرائعة.

موت غير سعيد في البرتغال يسيطر
على قشتاليتك. نقل كولومبس القوط
إلى الجهة غير المضيئة من هذه الكرة.

وهذا أسهل. آه يا إسبانيا! بكثير من الطرائق
انتزعت من الجميع ما لهم وحدك

ويمكن أن ينتزعوا منك كل شيء وأنت وحدك"[٧١].

هذه السوناتا ليست أكثر من تحذير وتوقع لما يمكن أن يحدث إذا لم تتم الحيلولة دون ذلك. كما أن التضمين في المقدمة يقول "تحذير لإسبانيا التي جعلت الكثيرين يحلمون، وسوف تكون محل نقمة الكثير من الأعداء، ومطاردة، وأنها سوف تكون بحاجة إلى أن تستعد لهذه القضية". أما السوناتا الشعرية الأخرى فهي عبارة عن نظرة حزينة لموقف متأزم حدث وحلّ:

نظرت لأسوار وطني
التي كانت يوما قوية، وها هي تتهاوى
وتعبت من مرور السنين
من أجل من انتهت جرأته.

خرجت إلى الحقل، ورأيت الشمس تشرب
جداول الجليد التي انفكّ عقالها
والجبل الذي تشكو عليه القطعان،
وقد كسا اليوم بظلاله.

دخلت منزلي، فوجدت في الفجر
أشلاء غرفة قديمة
عصاي أكثر تقوّسا وأقل قوة.

شعرت أن ظهري هزمه العمر

(٧١) الأعمال الشعرية. طبعة خوسيه مانويل بليكوا. الجزء الأول ص ٢١٨.

ولم أجد شيئا يقع عليه بصري

إلا وكان ذكرى للموت[٧٢].

وفي النهاية تقول الرسالة: "يكتبون الكثير من السوء الذي حدث مؤخرا، ومن كل مكان ويضربون بعنف. والأسوأ أن الجميع كانوا ينتظرون حدوثه على هذا النحو. ولست أدري يا سيد فرانثيسكو فيما إذا كان ذلك آخذًا في الانتهاء أو أنه انتهى. الله أعلم. فهناك أشياء كثيرة يبدو أنها موجودة ولها كينونة، وهي ليست شيئا إلا لفظة أو شكلا".

متى يبدأ الانحطاط؟

إذا ما أخذنا شكاوى الإسبان على ظاهرها، وكذا تعليقات السفراء الأجانب لوجدنا أن الانحطاط الإسباني كان متزامنا مع تنامي العظمة والهيمنة والازدهار الثقافي في العصر الذهبي. دائما ما تكون هناك أخطاء وعثرات وآلام وأسباب للغضب. وإذا ما أريد أن تكون هناك مفاجأة أنصح بقراءة كتاب ألكسندر دوما **"قرن لويس الرابع عشر"**، وسوف يُرى ما كان يُعد طيبا، وما كان يحدث في أوج الازدهار والقوة. هناك توجه ملحوظ بين المؤرخين يتمثل في القبول آليا ودون نقد لكل ما قاله أحد ما، وربما كان مردّ ذلك قلة الأخبار المتعلقة بفترات طويلة من الزمن وليس لقلة القدرة على النقد. وهنا من الشائع قراءة عملية تشويه شخصية أو جانب كامل من جوانب الحياة في بلدنا دون أي مبررات، اللهم إلا من أجل كتابة الهامش أسفل الصفحة إشارة إلى رحالة فرنسي أو إنجليزي أو فلامنك، أو إشارة إلى سفير فلورنسي أو فينيسي، وهؤلاء جميعًا لم تكن تتوفر لديهم إمكانيات كبيرة لمعرفة ما يحدث فعلا وما هي دلالة التفاصيل التي يرصدونها ويعممونها.

---

(٧٢) المصدر نفسه ص ١٨٤-١٨٥. أنقل النص نفسه الذي قدمه بليكوا في طلب متن طبعته: وقد أورد في الهوامش تنويعات أخرى جرى حولها نقاش كثير. وعلى أي حال فالاختلافات غير ذات أهمية في السياق الذي نحن فيه.

غير أن الذي لا شك فيه هو وجود انحطاط. وقد رأينا أنه خلال العقد الثالث من القرن السابع عشر أن هناك رجلا شديد الفطنة وعالما ببواطن الأمور، بيكون، لم يكن يرى هذا الانحطاط في أي مظهر من المظاهر، حيث كان يعتبر إسبانيا قوة عظيمة قادرة على تدمير إنجلترا. وعكس هذا يحدث عندما بدأ القرن الثامن عشر حيث يرى فيلون إسبانيا كأمر مضى وانتهى وفي الرمق الأخير ولا أمل هناك. فما الذي حدث خلال الفترة بين التاريخين المذكورين؟ متى بدأ شيء يمكن اعتباره على أنه انحطاط الأمة وبشكل محقق؟

من البديهي أن عام ١٦٤٠م كان عاما حرجًا، ففيه بدأ الاتجاه الخاص بتفتت إسبانيا: هناك قطالونيا والبرتغال، وهناك نجد أرغن وإقليم الأندلس تتبدى فيهما أعراض انفصالية ولكن بدرجة دنيا، حيث شعرا بعدم التضامن مع المشروع الوطني المشترك الذي يتجسد في التاج. "إما الصعود وإما الهبوط"، هذه هي الأسطورة التي كانت مهمة سابدرا فاخاردو. كانت إسبانيا في تلك اللحظة تهبط، فحركة الصعود التي بدأت عام ١٤٧٤م توقفت وبدأت عملية الهبوط.

ولا شكّ أن إسبانيا جمحت في حضنها أكثر من اللازم، فقد أخذت الموارد القومية تتناقص وأصبحت قاصرة أمام تلك المشاريع الضخمة، فالقوات التي تقف ضد المملكة تتسم بالشدة وتقوم بأداء عملياتها في كل مكان، هناك نوع من القصور الذاتي يصيب بعض أشكال التنظيم بالتدهور، وأنها أشكال لا تتوافق مع الظروف الجديدة، هناك إرهاق وفساد وتشاؤم، كل ذلك أخذ ينفذ إلى الحكام وإلى رجالات الفكر. الشيء المهم هو تضاؤل الآمال، وأخذ الشك يتسرب إلى القول إن الأمور السيئة لها علاج. هذا يرجع في كثير من الأحوال إلى عدم الفهم أو عدم قبول الخارج له. وهنا لا ننسى أنها اللحظة الخاصة بالتاريخ الأوربي والمتمثلة في أن الأمم أصبحت حاضرة بالفعل، الواحدة للأخرى، وأن ما تفكر فيه وتقوله له تأثير فعلي على الآخرين. وما كان يجعل الإسبان لا مبالين بشأن الملوك الكاثوليك أو كارلوس الخامس أحدث تأثيره القوي على الإسبان في عصر فيليبي الرابع.

هناك توجه مسهب في تعداد "ما فقدته" إسبانيا على مدار القرن السابع عشر وخاصة ما يتعلق بالنصف الثاني منه. تبدو قائمة الخسارة مذهلة، وهي تهاوي إمبراطورية كبرى، غير أنه إذا ما تم النظر جيدا سوف يُرى أنها في الأغلب الأعم خسارات صغيرة لمدن أو أراضٍ لم يضعها أحد في الحسبان قبل فقدانها، بمعنى أن الأمر بالنسبة لمن عاشوا ذلك الزمان ومن هم في عصرنا من قراء اليوم يتمثل في أن الخبر الأول عن هذه الأماكن هو فقدانها. وإذا ما قورنت هذه الخسارات في مجملها بإجمال مساحة المملكة الإسبانية، فإنها خسارة الحد الأدنى، وهي جزء لا يؤثر على الرقعة الإسبانية المترامية الأطراف. غير أن هناك استثناء واحدا وهو انسحاب البرتغال ومعها أراضيها والتي كانت جزءا من الوحدة قبل ذلك بستين عاما، كما أنها هي وأراضيها أصبحت مكشوفة ومعرّضة للانفصال أمام هجمات الأجانب خاصة من قبل الهولنديين. عادت إسبانيا لتكون وحدها دون البرتغال مثلما كان الحال قبل عام ١٥٨٠م لكن إجماليها ظل شبه كامل حتى حرب الاستخلاف.

وابتداء من عام ١٦٤٠م اتضحت بجلاء ملامح الانحطاط مثل: سقوط الكونت دوق دي أوليبارس عام ١٦٤٣م، والتذبذب في السياسة الفعلية منذ ذلك الحين ووقوع أول هزيمة لوحدات الجيش الإسباني Los Tercios في روكروي Rocroy، وفي ذلك العام حلول السلام في ويسيفاليا جزئيا على حساب إسبانيا.... ومن الواضح أنه خلال السنوات نفسها نجد الثورة في إنجلترا وقطع عنق الملك كارلوس الأول، وحكومة كرونويل، وعودة ظهور ما يسمى(المناوئون لناثارينو- في أثناء الوصاية على لويس الرابع عشر) Frande de Francia، وكذلك التدمير الذي لا سابقة له للأراضي الألمانية خلال السنوات الأخيرة لحرب الثلاثين عاما. هناك أيضًا أحداث ذات درجة خطورة أقل أو أكثر مقارنة بالمصائب الإسبانية، لكن أحدا لم ينظر إليها على أنها أعراض للانحطاط.

الأمر الأكثر أهمية هو أنه منذ بداية القرن نجد أن هناك كثيرا من الإسبان الذين يشعرون أنهم في حالة انحطاط. غير أن الصعوبات ليست أكبر مما هي عليه في عصور أخرى – أي خلال العقود الأولى من حكم الملوك الكاثوليك التي اتسمت بالقسوة

الشديدة وبداية حكم كارلوس الخامس حتى تصفية الأقاليم Comunidades، وربما حدث أكثر من هذا – لكن إسبانيا اعتادت النصر والازدهار، كما أن الكبوات الجزئية تبدو في نظرها مشئومة. وعندما تقال عبارة: "الأمور لا تسير جيدا" فإنه من شبه المؤكد أن ذلك هو يوتوبيا على افتراض أن الأمور يمكن أن تسير بشكل جيد تماما، لأنه لا يُعرف الوضع المتأزم الذي عليه الواقع أو أنه قد نُسِيَ. وبالنسبة للإنسان الإسباني خلال القرن السادس عشر كانت الأمور تبدو في نظره عادية من حيث إنها ليست جيدة جدا، وكان يكتفي بالاقتناع بأنها "ذاهبة" إلى الأمام. أما إنسان القرن السابع عشر فقد آمن بها إيمانا مبالغا فيه وأخذ يرى أي أفول على أنه انحطاط. ولهذا فإن الانطباع بالانحطاط سابق على وقوعه.

ومن جانب آخر فعندما يقع الانحطاط فإنه جزئي فقط، ومن المؤكد أنه لم يؤثر على الثقافة التي لم تزدهر بشكل عظيم، مثلما كانت عليه في عصر فيليبي الثالث والرابع، وظلت محتفظة بقوة دفع جيدة في عصر كارلوس الثاني، حيث يفترض أن إسبانيا قد ألغيت. الشيء الذي يبرز – وهو ليس أقل خطورة – هو التقوقع الذي أشرت إليه قبل ذلك، وتزايد إغفال بعض القضايا التي يمكن أن تكون مثيرة للغضب وخاصة في اللحظة المتأخرة التي تجد فيها علاجا ناضجا وخلاقا في بلدان أخرى من أوربا. ولا ننسى أن الفلسفة الحديثة لم تبدأ حقيقة إلا مع ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠م)، أي حتى زمن فيليبي الرابع. وعلى زمن سواريث (١٥٤٨ – ١٦١٧) لا توجد شخصية قابلة للمقارنة به خارج إسبانيا، بمعنى أن هناك جمعًا بين ازدهار الفكر الأوربي الحديث وتقوقع إسبانيا. واعتبارا من تلك اللحظة، أخذ عدم التوازن يفرض نفسه بوضوح. وفي هذا المقام نجد أن الانحطاط أمر لا جدال فيه، كما أنه يحول دون إمكانيات كبيرة. أما بالنسبة للحقول الأخرى – الفكر الديني والأدب والرسم والعمارة – فلا يمكن الحديث عن انحطاط حتى العقود الأخيرة من القرن السابع عشر.

وها هو كل من سابدرا فاخاردو، وجراثيان، وبيلاثكيث، وتورباران، وألونسوكانو، ولوبي دي بيجا، وترسو دي مولينا، وموريتو، وروفاس يعيشون في أثناء حكم فيليبي الرابع. أما موريّو وكارّينو، وكلاوديو كويلهو، وبالدس ليال، وإيديرا الموثو،

ولوس سورّيجيرا، وكالديرون ونيكولاس أنطونيو فيظهرون على الساحة حتى فترة متأخرة من حكم كارلوس الثاني. وإذا ما كان هناك انحطاط في هذه الحقول، فإن بدايتها كانت متأخرة للغاية، لدرجة أنه يمكن الخلط بينها وبين الازدهار من جديد rebrote.

الانتقال:

تعتبر الرؤية الأوربية لإسبانيا السبب الرئيسي للخطأ عند محاولة فهم تاريخها، فباقي الأمم الأوربية الأخرى لها هذه الرؤية الوحيدة – ما عدا البرتغال – ذلك أنها هي الرؤية التي تخصها، لكنها لم تفهم أبدا الخصوصية الإسبانية. وقد يُستغرب أنني لا أشير إلى استثناء إنجلترا التي أنشأت إمبراطورية فيما وراء البحار، وجعلت من لغتها واحدة من اللغات العالمية وانتهى بها الأمر إلى تأسيس الكومنولث. إلا أنه يجب التمييز بين الأزمنة، فالتوسع الذي قامت به إنجلترا في المحيطات يعتبر شديد الحداثة بالمقارنة بالحالة الإسبانية، فالمنشآت البريطانية في أمريكا ترجع إلى القرن السابع عشر والأغلبية العظمى منها ترجع إلى النصف الثاني، وبشكل محدود للغاية، وظلت دون هوية حقيقية حتى القرن الثامن عشر. ومن جانب آخر، فإن هذه المناطق هي مستعمرات، أي أنها لمستعمرين إنجليز أقاموا في العالم الجديد، وليس الأمر عبارة عن بلاد سكانها من السكان الأصليين ومخلطين ولهم بنية سياسية تسير في كثير من الأشكال على النهج الإسباني، وتنضم كلها تحت لواء نفس التاج الملكي ولكن دون أن تكون لها تبعية مباشرة لإسبانيا. وعندما بدأت إنجلترا توسعاتها فيما وراء البحار، كانت الممالك الهسبانية في أمريكا قد تشكلت وتدعمت من حيث كونها جزءًا لا يتجزأ من المملكة الكاثوليكية. إلا أن الأوربيين لم يروا هذا على النحو المذكور – وكذلك الإسبان- بالشكل الكافي كما سبق القول في معرض الحديث عن الرؤية" الضئيلة للهند الغربية. وبالنسبة للصورة الإسبانية التي ثبتت خلال القرن السادس عشر، وسوف تستمر، فهي مقتصرة على إسبانيا وممتلكاتها الأوربية وبعض الأماكن المجهولة فيما وراء البحار التي تتلقى منها الذهب والفضة.

أما الواقع الحقيقي فقد تم تشويهه بقوة لهذه الأسباب، كما حدث ذلك بطريقة فيها تجديد تمثل في التحريف المستمر الذي تعرض له منذ بداية حركات الاستقلال، وخاصة منذ حركات استقلال دول أمريكا. وسوف نعود لذلك مجددًا.

كان هذا التشويه حاسما بالنسبة لفكرة الانحطاط الإسباني، ومع وجود كثير من التمحيصات فإن الأمر الذي لا شك فيه أن ذلك بدأ خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، غير أنه يجب أن نتساءل: أين؟ في إسبانيا، لكن لم يحدث على الإطلاق في أمريكا، حدث في هذه الممالك، لكن لا، بل على العكس، إذ حدث في تلك الممالك. وقد ألمح إلى هذا بفطنة كبيرة رجل لا يميل كثيرا إلى التنظير، ألا وهو أثورين، ففي خطاب انضمامه بالأكاديمية الملكية للغة الإسبانية عام ١٩٢٤م، الذي يحمل عنوان **"ساعة من تاريخ إسبانيا"** (١٥٦٠-١٥٩٠م)، وتحديدا في الفصل السادس والثلاثين، هناك عنوان له هو "الانحطاط الشهير". هنا أود أن أذكر بعض الفقرات:

"قديمة فكرة الانحطاط في إسبانيا، وقد تحدث الإسبان والأجانب على مدار فترة عن انحطاط إسبانيا، ولنا ردّ فعل ضد هذه الفكرة، لم يوجد ذلك الانحطاط فمتى يراد أن يفترض أنه كان موجودا؟ يتم افتراض ذلك تحديدا في الفترة التي تكتشف فيها إسبانيا عالما جديدا وتعمرّه، أي في الفترة نفسها التي تنشأ فيها عشرون أمة جديدة من سلالة إسبانية وتتحدث الإسبانية وتقوم بتعمير قارة... إن تجربة أمريكا يجب أن تكون حاسمة بالنسبة لرجل الفكر ورجل العمل... وعندما لا نكون في أمريكا نشعر بالشوق والحنين إلى مشاهدها المتعددة والرائعة.... حيث يبدو لنا أن هناك رعشة حميمة تنزل من الماضي وتتجه نحونا في شكل سلسلة من السابقين.

لم يوجد الانحطاط، فقد تم اكتشاف عالم جديد: هناك عشرون أمة قد نشأت، وأصبحت لغة واحدة هي السائدة وهي التي وارت وراءها عددا كبيرا من اللغات المحلية، وجرى إنشاء شبكة للري، وتعبيد الطرق، وجرت السيطرة على غابات وتنويرها

وتم اقتطاع أرض وزراعتها، وتم اكتشاف قمم جبلية شامخة وتم الإبحار في أنهار عريضة المسار للغاية، وتم تدريب العوام وتعليمهم. كما انتشرت الهيئات البلدية في آلاف من القرى والمدن، كما نجد نشوء الصناعة والتجارة والإبحار والزراعة والرعي في جزء جديد من الكرة الأرضية وأثرت الناس والأمم. فمن الذي قام بمثل هذا العمل الجبار؟ هل كانت أمم أوربا قاطبة؟ هل كانت جميع الأمم وقد اتّحدت على بذل هذا الجهد غير المسبوق؟ هل كانت فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا والنمسا وروسيا، أي كلهم عن بكرة أبيهم؟ لا، كانت هناك أمة، وحدها هي التي قامت بذلك دون عون من أحد، إنها إسبانيا. وكم كان تعداد سكان إسبانيا عندما تم تأسيس أكبر الإمبراطوريات في العصر الحديث؟ علينا ألا ننظر فقط إلى إسبانيا وجغرافيتها. فإسبانيا هي شبه جزيرة أيبيريا وعشرون شعبًا من أمريكا. تمكنت إسبانيا من خلال اكتشاف أمريكا وتعميرها من إنشاء جزء تابع كما كان لا بدّ أن يكون أكثر ضخامة من البيت الأم. فلا يمكن القول إن هناك بنكا يتعرض للإفلاس لأنه نقل أرصدته من منزل لآخر...".

سوف تزول فكرة الانحطاط بزوال المسافة الروحية القائمة بين إسبانيا وأمريكا، أي الانقطاع الذي نشأ على مدار قرنين أو ثلاثة. قديمة أصول مفهوم الانحطاط وكان المناخ خلال القرون السابقة مهيأ لها. وكانت الأمة مفعمة بتيارات الزهد. والحياة هشة وحزينة. والثروات الدنيوية محل استخفاف، والإنسان ما هو إلا جماع مجموعة من التعاسات، وكان الانتقال سهلا من العام والدائم إلى الخاص والعارض... وعندما ينظر إلى الكون بأنه إلى زوال، فماذا يهم لو كان عالما جديدا؟ لم يكن من الغريب أن يُرى نقصان إسبانيا على صعيد شبه الجزيرة بل الغريب ألا يرى، أو بدأ النظر إليه ألا وهو النضج الذي عاشته إسبانيا. وما كان يتم الشعور به برهافة لم يكن إلا واحدة من المتاعب المعتادة ومعها اللهو والغطرسة والعقم وعدم القدرة... وفوق كل هذا – وحتى نستكمل الصورة الحزينة – كانت تخيم الفكرة القائلة إن الانحطاط أمر رهيب ولا مناص منه"[٧٣].

---

(٧٣) لا ننسى أن أثورين لم يذهب إلى أمريكا أبدا، لكنه كان قارئا نهما. ولما كان كاتبا عظيما فقد كان قادرا على استخدام خياله، وهي صفة تكال لها الاتهامات.

لا يمكن القول بأفضل من ذلك، كما أن الرؤية دقيقة للغاية فيما يتعلق بالعناصر التي أدت إلى هذا المفهوم للانحطاط الذي لا ينتهي ودون أدنى قيود. والمثير للدهشة أن أغلب هذه العناصر حديثة، كما أن علم التاريخ تجاوز هذه البديهيات الواضحة، وقاوم مبدأ رؤية إسبانيا وواقعها بشكل عام، أي الملكية بجناحيها. وما حدث خلال القرن السابع عشر هو انتقال الازدهار. أخذت عملية التطعيم الكبرى الإسبانية للشعوب الأمريكية تتدعم وتؤتي ثمارها. جرى الحديث عن القرى القديمة التي تزول في إسبانيا لكن لم تُر المدن الجديدة التي أنشئت في أمريكا أو الفيلبين. هناك إصرار على المهارات والمهن التي يتم هجرها بينما هناك عمى غريب عن رؤية التقدم التقني في قارة تحولت إلى شيء لا نظير له بواقعها الأصيل اعتبارا من ذلك الحين. يُؤسف كثيرا على نقصان المدارس والجامعات وتُنسى الجامعات والمدارس التي تقام في العالم الجديد، والتي لم تكن مقتصرة على الإسبان أو الكرويو Criollo (المولّدين) بل شمل السكان الأصليين. يسلطون الضوء على تدهور الطباعة في إسبانيا خلال القرن الرابع عشر دون إدراك أنها انتقلت في أغلبها إلى أمبريس Amberes (جزء آخر من المملكة) وانتشرت في أمريكا حيث ظهرت خلال السنوات القليلة التالية للغزو كتب مكتوبة بالرومانث واللاتينية والكثير من لغات السكان الأصليين. حال تناقص التجارة الداخلية دون رؤية ازدهار التجارة فيما وراء البحار. كما لا يكاد يخطر على بال أحد أن يضم إلى قائمة الكتاب والرسامين والمعماريين في إسبانيا أسماء لا تحصى لإسبان أو من ولدوا في أمريكا حيث مارسوا نشاطهم في العالم الجديد. هناك مدن كاملة بشوارعها وميادينها وكتب وتقنيات الملاحة والمناجم وحقول ضخمة مزروعة وقطعان هائلة من الماشية غير المعروفة. كل هذا هو جزء من مكونات الانحطاط(٧٤).

---

(٧٤) هناك كتب كثيرة تناولت موضوع تقوية دعائم أمريكا، ومنها على سبيل المثال كتاب سلبادور دي مادارياما **"صعود وأفول الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا"** وكذا **"تاريخ أمريكا"** لفرانثيسكو موراليس بادرون. وكعينة على الثراء الفني – وخاصة التصويري – في واحدة من البلدان وخلال عصر بعينه انظر "المكسيك الباروكية" لجييرمو طوبار دي تيريسا.

حدود الانحطاط:

من البديهي رؤية تضاؤل القوة الإسبانية على الساحة الأوربية منذ الأزمة الكبرى التي بدأت عام ١٦٤٠، لكنها تعود في الأساس إلى توازن مع القوى الأخرى عندما بلغت هذه الأخيرة تطورها كاملا. أضف إلى ذلك، أن الهزائم الإسبانية ليست ذات طابع نهائي على الإطلاق. وإنما هي بالأحرى عثرات، وفي كثير من الأحيان تعقبها، سريعا، انتصارات. غير أن هو أن التاريخ – وخاصة ما يتعلق بتاريخ إسبانيا – عادة ما يتوقف عند العثرات وينسى ما حدث بعدها. وهنا نورد مثالا ألا وهو تدمير الأسطول الإسباني المسمى أيضًا (الأسطول السعيد) Felicisima Armada والذي جرت تسميته فيما بعد وعن قصد "الأسطول الذي لا يهزم" La invencible وهذا لا يعني فقدان القوة البحرية الإسبانية. فقبل وفاة فيليبي الثاني، أي في غضون عشرة أعوام، جرى بناء أسطول جديد أكبر من الأول، وكانت هناك كبوات وإنجازات طوال القرن التالي مع خفوت في الأداء خلال السنوات الأخيرة من ذلك القرن. غير أن القرن الثامن عشر شهد استعادة قوية لما كان عليه الأسطول والتي تمثلت في الفصائل الكبرى على عصر فيليبي الخامس، ثم أصبحت أكبر من ذلك في عصر فرناندو السادس، وعصر كارلوس الثالث على وجه الخصوص. كما أن سقوط القوة البحرية الإسبانية لم ينجم إلا في معركة ترافالجار Trafalgar، أي عام ١٨٠٥ وليس عام ١٥٨٨م. وهذا مجرد مثال نّقدمه ويمكن أن ينسحب على الباقي.

هناك إشارة إلى محاولة انفصال قطالونيا عام ١٦٤٠م، وتم تجاوز هزيمة الفرنسيين، وعودة القلاطنيين إلى الاعتراف بفيليبي الرابع، واعتراف هذا الأخير بحقوقهم عام ١٦٥٣م، أي تجاوز الأزمة اختصارا للقول.

يمكن أن نقول الشيء نفسه فيما يتعلق بجوانب أخرى في الحياة، فالقاعدة المستمرة هي استمرارية ما هو سلبي وأن كل عرض من أعراض الانحطاط لا مَرَد له، الأمر الذي يحدث خلطا بين الأشياء وينبئ بالشعور والأقوال التي لا مناص منه، ولو كان ذلك حقا

لأدى إلى ضياع إسبانيا بشكل أبدي من على الخريطة. ورغم أن ذلك لم يكن على هذا النحو لم يؤثر على زيف التحليل بل يتجنب اللااتساق.

انتهى كل هذا في المرحلة النهائية من القرن السابع عشر، أي في عصر كارلوس الثاني (١٦٦٥-١٧٠٠) حيث عاشت إسبانيا حالة انحطاط حادة لدرجة أنه كان من الصعب الحديث بإيجابية عن إسبانيا. هل هذا هو كذلك؟ كانت هناك صعوبات جمة في معرفة دقائق هذه الفترة، وما زالت قائمة حتى اليوم. وهنا فإن الافتراض العام هو أن الأمر لا يكاد يستحق البحث والدراسة وتم تعتيمه بطبقة كثيفة من الظلام. غير أن هذه الآونة الأخيرة شهدت محاولات قيمّة أدت إلى الإسهام في وضع صورة أكثر وضوحا واتساقا[٧٥]. ومن خلال عدة زوايا أخذت تتضح معالم العقود الأخيرة من القرن السابع عشر، كما أن النتائج متّسقة، لكن لم تكن كلها سلبية. وسنعمل على تحديد ملامح الصورة الجديدة.

حقا كان هناك نقص خطير في تعداد السكان في إسبانيا، وفيما يتعلق بأسباب ذلك هناك الكثير، وإليها أضاف الأوبئة الكبرى خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، ومنتصف القرن السابع عشر، ثم المرة الثالثة التي وقعت خلال الفترة من ١٦٧٦ حتى ١٦٨٥مز وكان لهذه الأوبئة، التي كان من الصعب مقاومتها، نتائج شديدة الخطورة مما يمكن أن نتصوره في أيامنا هذه. كما لا يجب أن ننسى وباء الأنفلونزا الذي وقع عام ١٩١٨ - ١٩٢٠م، والوباء الذي كان سببه فيروس لا يمكن إيقافه مثل "الأنفلونزا الآسيوية" منذ بضعة عقود، وما كان يمكن أن يترتب عليها لو كانت نهاية مطاف الإصابة بها هي الموت. وعلى مدار الأوبئة الثلاثة الكبرى التي ورد ذكرها يمكن القول إن

(٧٥) وبعد قراءة العمل الضخم الذي ألفه دوق ماورا "حياة كارلوس الثاني وملكه" (١٩٤٢م الجزء الثاني، طبعة ١٩٥٤م) يجب أن نأخذ في الحسبان الكتاب الذي صدر حديثا لهنري كامن بعنوان **"إسبانيا كارلوس الثاني"** (١٩٨١) وهو كتاب يقدم رؤية واسعة عن العصر، ورغم أنها غير كافية لكنها تمثل تقدما مهما. هناك أيضًا الدراسات التي كتبها خوسيه ماريا لويث بنييرو والتي اعتمد عليها كثيرا هنري كامن في باب الحقل الثقافي في أثناء هذه الملكية.

إسبانيا فقدت مليون نسمة، وهو عدد يجب إضافته إلى الثلاثمائة ألف موريسكي الذين تم طردهم عام ١٦٠٩م. ومن ناحية أخرى هناك زيادة ملحوظة في نسبة المواليد خلال تلك الفترة.

أدى فقدان السفن وفرض القيود على بنائها إلى قلة الاتصالات بين إسبانيا وأمريكا الأمر الذي يزيد الإحساس بالبعد. وهناك فترة من الفترات التي كانت الاتصالات الإسبانية بأوربا أقل، إنها الفترة التي يستحق فيها الواقع أن يوصف بأنه "تِبتّي". غير أن هذه الفترة قد اتسمت بأنها وجيزة للغاية، وأنه خلال حكم كارلوس الثاني، وبناء على تأثير كبير من لدن السيد خوان النمساوي، بدأت عملية نهضة ثقافية ومعرفة بما يحدث في أوربا بشكل أكثر مما هو مشهود حتى وقت قليل. كما أن النهضة الثقافية التي تنسب عن حق إلى القرن الثامن عشر قد بدأت نحو ١٦٨٠م"[٧٦].

وعلى أي حال فإن هذه الفترة قد اتسمت بالانعزالية وتضاؤل مستوى الإبداع إلى حد كبير، وهذا سوف يمتد لسنوات طويلة لاحقة: أي أن سنوات حرب الاستخلاف كانت عقبة في سبيل تطبيق النشاط الثقافي الرفيع. وتحديدا للقول نشير إلى أنه حتى عام ١٧١٤م لم تبدأ حركة النهضة التي كانت أكثر سرعة مما اعتاد البعض تصوره. ويمكن في هذا المقام الإشارة إلى إنشاء الأكاديمية الملكية للغة على أنها رمز للعصر الذي بدأ.

وإذا ما أردنا تحديد التواريخ الخاصة بالأحداث يجب أن نقتصر على ستين عاما عاشتها إسبانيا في انحطاط حقيقي. لكن علينا أن نباعد أنفسنا عن الدقة الصارمة وذلك لوجود اختلافات حسب الجوانب المختلفة، كما أن نهايتها متغيّرة مثل بداياتها. غير أن الأمر الحاسم في هذا المقام والذي كانت له آثار أطول هو الحالة النفسية التي كان عليها

---

(٧٦) انظر الفصل رقم ١٣ (نحو روح نقدية) من كتاب هنري كامن. ومنذ فترة أوضحت كيف أن ماركيزوي بيينا الذي كان يجب أن يكون المؤسس للأكاديمية الملكية للغة، كان يقرأ في خضم الحملة كتاب الديكارتي سيلفان ريجي S. Regis بعنوان Systéme de Philsosophie بعد سنوات قليلة على نشره عام ١٦٩٠م.

الإسبان وأغلب الأجانب، حيث كان الأولون متأثّرين بدرجة كبيرة بما قاله الآخرون. تأصل الانطباع بالانحطاط في الأذهان والأرواح -وهذا هو العكس تماما لما حدث خلال عصر الملوك الكاثوليك وحتى نهاية القرن السادس عشر- ولم تفلح الأحداث التي تناقض الانحطاط في كسر الاقتناع بوجوه وأنه لا مناص منه. وأخذ يسود اتجاه لتفسير الأمور تفسيرا سلبيا وتجلّى ذلك بشكل خطير في التقليل من شأن الواقع. ومن الأمور الدالة على ذلك تكرار عبارة تقول إن إسبانيا "أصبحت قوة من الدرجة الثانية" وهذا تأكيد فيه زيف بما في ذلك ما يتعلق بأسوأ اللحظات التي عاشتها إسبانيا في أثناء حكم كارلوس الثاني، حيث أصبحت "قوة ثانية" وهذا أمر مختلف.

كان الانحطاط عبارة عن **"أزمة أمل"** في المقام الأول. فالواقع الضخم للملكية الهسبانية لم يكد يتأثر في أغلب أجزائه (أمريكا)، وكان لإسبانيا وجودها في المناطق الرئيسية والجوهرية لها داخل أوربا، ولديها قدرة على استعادة زمام أمورها بشكل يدعو إلى الإعجاب خلال القرن الثامن عشر، ومع هذا ثم تناسى كل هذا وتم تسليط الضوء على التحليل السلبي وأنها قوة قاهرة. ما يميز ذلك العصر هو خيبة الأمل.

الفصل الحادي والعشرون

بناء إسبانيا خلال القرن الثامن عشر

تغيير الأسرة المالكة "والفرنسة":

توافق حلول القرن الجديد مع التغيير في الأسرة الحاكمة في إسبانيا، ففي عام ١٧٠٠م توفي الملك كارلوس الثاني، دون أن يكون له وريث مباشر، بعد سلسلة من المشاكل الدولية التي لم تجد حلا ومهدت الطريق إلى حرب الاستخلاف داخليا وخارجيا التي ظلت مستمرة حتى عام ١٧١٤م. وفي هذه اللحظة أخذت الحياة الإسبانية تعود إلى طبيعتها مع الملك الجديد من أسرة البوربون، فيليبي الخامس على رأس الدولة.

هناك صورة نمطية ومتكررة لآلاف المرات، وهي اختفاء الأسرة النمساوية وحلول أسرة البوربون محلها الأمر الذي يشير إلى فقدان الهوية الإسبانية ودورانها في الفلك الفرنسي. الفرنسة إذن هي حجر الأساس في التحليلات المتعلقة بالقرن الثامن عشر، وحقيقة الأمر كان هناك شيء من هذا: هناك التأثير الفرنسي على الملك الشاب وعلى السياسة الإسبانية وهو تأثير مهم، تعرضت إسبانيا لهزّة الاستخلاف وهزة الحرب والمقاومة العنيد لقطالونيا التي سرعان ما كانت من أنصار الأرشيدوق كارلوس دي النمسا وهي البلد الذي تقطعت أوصاله بشكل جزئي، حيث فقدت جزءا من قوتها، وكذا في ثقتها بنفسها، بينما نجد فرنسا تصعد إلى الصف الأول في أوربا.

غير أنني أرى مبالغة في أمر الفرنسة، والسبب في ذلك عندي هو عدم وجود وضوح في التواريخ التي سردها "القصور الذاتي"، حيث يتم النزوع إلى الفكر عندما تزول حالة اليقظة. كان التأثير الفرنسي مهما في أثناء الملكية السابقة وذلك بسبب صعودها العسكري والسياسي والثقافي في نهاية القرن السابع عشر. هناك لوحة لكلاوديو كويلهو في الأسكوريال عنوانها **"التعبد إلى الشكل المقدس"** (١٦٩٠) نلمح فيه تأثير الموضة الفرنسية في الملبس.

إلا أن ما يلفت الانتباه هو إطلاق صفة الفرنسة على أسلوب القرن الثامن عشر، على طريقة مصطلح "الأمركة" في عصرنا هذا. كانت فرنسا تقوم قبل ذلك بقيادة الدفة بقوة واقتدار في هذا المقام مثلما يحدث مع الولايات المتحدة. غير أن كل ذلك تقريبا خاص بالدولة الأوربية آنذاك، وهي الدول الغربية في الوقت الحاضر مع الفوارق في الدرجة والأسبقية. وعندما تتم الإشارة إلى ما هو فرنسي، الذي عليه أسرة البوربون، عادة ما يتم نسيان التأثير الإيطالي الكبير وخاصة ابتداء من عام ١٧١٤م توافقا مع الزيجة الثانية لفيليبي الخامس بإيزابل دي فارنسيو، كما أنها تأثيرات مستمرة، ذلك أن الملك كارلوس الثالث كان ملك نابولي على مدار خمسة وعشرين عاما (١٧٣٤ – ١٧٥٩م) قبل أن يحكم إسبانيا، وهنا نجده وقد حلّ مشبعا بما هو إيطالي ويرافقه مستشارون مهمون من نابولي.

هناك عنصر آخر، إضافة إلى ما سبق، يبدو في نظري عنصرا حاسما، وهو الأسبنة لأسرة البوربون، ففي المقام الأول، هذه الأسرة من سلالة الأسرة النمساوية بطريق مباشر، فالملك فيليبي الخامس، هو حفيد ماريا تريسا، التي هي حفيدة حفيد فيليبي الرابع وهكذا حتى نصل إلى الملوك الكاثوليك وإلى ملوك العصور الوسطى في كل من قشتالة وأرغن ونشير مرة أخرى إلى أن المفاهيم الخرافية، التي كان عليها حظ الذكور في الأسرة، ألقت بظلالها على الأمور مثلما نجد ذلك في حالة الملك كارلوس الخامس. نشير، في المقام الثاني، إلى أنه عادة ما يتم نسيان الأسبنة **السريعة** – يرى البعض أنها زائدة عن الحد – للملوك البوربون. كان الملك فيليبي الخامس يبلغ من العمر سبعة عشر عاما عندما اعتلى

عرش إسبانيا. هناك ستة وأربعون عاما في إسبانيا لها ثقلها الكبير على حياته، ويكفي هذا دون الإشارة إلى من خلفوه. وبالنسبة للارتباط بالسياسة الفرنسية والتحالفات الأسرية وغيرها من التحالفات فهذا أمر آخر. هناك الثقل النوعي للشخصية الإسبانية القوية وصيت التاج الأول في العالم والحيوية الملحوظة التي عليها البلاد، أسهمت هذه العناصر كلها في قولبة الملوك أكثر من قولبتهم للأمة. ومما لا شك فيه أن هناك انطباعا واضحا عن "إسبانيا القديمة" الذي نشهده خلال القرن الثامن عشر وحتى بداية تفككه – سارت أسرة البوربون على نهج التاريخ الذي بدأ مع الملوك الكاثوليك مع بعض التمحيص الطفيف.

ما حدث من تعديل جوهري هو عزلة إسبانيا السابقة على ذلك مباشرة. فعلى مدار أربعة عشر عاما حاربت الجيوش الأوربية في إسبانيا وخارجها في صراع على الاستخلاف على التاج، فالمنتصرون، أي أتباع فيليبي الخامس، كانوا شديدي الصلة بفريق فرنسا الذي كان يقود العمليات الحربية في الكثير من جوانبها، رغم أن ذلك كان أقل من الانطباع الذي يتولد عما كتبه فنلون والذي سبقت الإشارة إليه. كان وجود الإنجليز والنمساويين والسابوي Sabayanos ملحوظا وقويا. أما الفرنسيون والإيطاليون فكانوا يتدخلون في قضايا الحكم خلال الفترة الأولى من حكم فيليبي الخامس. واضحة وقوية تأثيراتهم في مجالات شتى، ابتداء من العمارة وانتهاء بالموسيقى. انتشرت اللغتان وأصبحتا معروفتين للمثقفين إلى جوار اللاتينية. هناك أيضًا تطور سريع في البحرية ابتداء من أول ملك من ملوك البوربون، الأمر الذي جعل الإسبان أكثر صلة بالبحار سواء في السلم أو الحرب مع بحارين من شعوب أخرى، والأنباء أكثر تواترا. وهنا لا يجب أن ننسى أنه خلال القرن السابع عشر بدأت تظهر المطبوعات الدورية، حيث بدأت الجازيت Gazeta عام ١٦٦١م وقد استقر اسمها اعتبارا من عام ١٦٩٧م على "جازيت مدريد". أضف إلى هذا ظهور مطبوعات دورية مناظرة على مدى القرن الثامن عشر.

أسهم كل هذا في زيادة الوعي عند كثير من الإسبان بأنهم مُبعدون ومتخلفون، كما يقدم علاجا لذلك. غير أنه إذا ما تم النظر إلى جماع الأمة وليس تلك القطاعات الضئيلة التي تعبر عن نفسها من خلال الكتابة لوجدنا أن الأمر البديهي يفرض نفسه وهو أن التغير ليس كبيرا: فإسبانيا النصف الأول من القرن الثامن عشر تبدو شديدة الشبه بإسبانيا النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ومن ناحية أخرى فإن صورة البلاد "المتقدمة" و"المستنيرة" التي أخذت تفرض نفسها في إسبانيا عند التفكير في بلاد أوربية أخرى وخاصة فرنسا وإنجلترا، وبروسيا أيضًا ومعها هولندا وإيطاليا إنما تستجيب لرؤية استثنائية ومجتزأة. تتولى مجموعة من جماعات المثقفين في باريس أو لندن، وكذلك البرلمان بشكل جزئي وبعض قطاعات الأرستقراطية تقديم السمات التي عليها كل واحدة من هذه الأمم، غير أنها - أي هذه البلدان - ظلت شديدة التقليدية بما في ذلك بدائية في كثير من الجوانب، وشديدة الشبه بإسبانيا وأحيانا ما تكون أكثر ريفية وقريبة من "مدن الأقاليم". هي شعوب لم تعش حتى ذلك الحين التجربة التاريخية الحاسمة بأنها كانت صاحبة الأمر في هذا العالم، أو أنها موجودة في كل مكان، طبقا لهذا التعبير الذي استخدمته عدة مرات. أما الانكماش الإسباني الملحوظ بشكل جيد فبعُد عن العالم الذي كانت فيه. وفي هذا المقام هناك فرق بين إسبانيا وبين هؤلاء الذين لم يذهبوا إلى العالم بعد.

إسبانيا كمشروع لنفسها:

هناك تحول في إسبانيا على مدار القرن الثامن عشر، لكنه ليس مثيرا وإنما من الصعب اكتشافه وبالتالي لم تتم لاحظته ورصده بالشكل الملائم. فإسبانيا، لأول مرة في

تاريخها، تتحول إلى مشروع لنفسها. أريد من هذا القول إن ما **تفعله** إسبانيا، وخاصة خلال الفترة من ١٧١٤ حتى ١٧٨٨م فهي **إسبانيا** وواقعها[٧٧].

رأينا كيف أن المشروع التاريخي لإسبانيا، ابتداء من حرب الاسترداد، تمثل في استعادة **البلد المسيحي**، في مواجهة الغزو الإسلامي الذي يعتبر غير مقبول. فإسبانيا المفقودة التي تجري محاولة استعادتها وإعادة بنائها هي الملكية القوطية من حيث إنها وحدة روحية قام الغزو العربي بتدميرها. وبانتهاء الاسترداد وعودة الوحدة الإسبانية في شكلها القومي، نرى استمرار المقصد القديم في إقامة الأمة الكبرى فيما وراء البحار، وكذا تحول إسبانيا إلى مدافع عن الوحدة الكاثوليكية في مواجهة الإصلاح وأن سياسة التكامل خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر تتسم بأنها "كاثوليكية" وليست "وطنية"، ووصل الأمر في هذا المقام إلى تبعية المصالح الإسبانية للمصالح الدينية، سواء كان ذلك في أوربا أو أمام الأتراك. ومما لا شك فيه أن هناك جزءا جوهريا من أسباب الانحطاط – هو موجود ولكن في الحدود التي أشرت إليها – يرتبط بذلك المشروع التاريخي الذي تبنته إسبانيا بقوة.

تغيرت الأمور ابتداء من العقود الأولى من القرن الثامن عشر. وليس الأمر أن إسبانيا يمكن أن تكون أقل تدينا عما سبق. فسوف تظل على ما هي عليه ولو أن ذلك سيظل حتى السنوات الأخيرة من ذلك القرن، كما أنها سوف تظل كذلك من حيث الجوهر إلى ما هو خارج حدودها. غير أن ما حدث هو أنه عندما تدخل في عملية اتصال قريب مع باقي الأمم الأوربية، وعندما تعيش أنماطا مختلفة للحياة، وخاصة عندما تقوم بمضاهاة سياستها مع السياسات القائمة في أوربا، نجد أنها – أي إسبانيا – تبدأ حالة **محاسبة النفس**، فالتجديدات التي قامت بها بعيدة بشكل كبير، وكانت مجهولة لدى

---

(77) يقدم لنا الكتاب الممتاز الذي ألفه جون ماك مانرز بعنوان **Death and the Englightenment** (دار نشر Clatendan press- أكسفورد – ١٩٨١) رؤية جديدة بالإعجاب ومصحوبة بالكثير من المعلومات من الدرجة الأولى عن فرنسا القرن الثامن عشر عند دراسة المواقف أمام الموت في جميع جوانبه على مدار القرن بكامله.

الآخرين ومنسية عند الإسبان. أخذ يسيطر الانطباع "بالتخلف"- وهو انطباع له ما يبرره ولو جزئيا - وأنها يجب أن تسير على "إيقاع العصر" وتستعيد الزمن الذي ضاع وتفعل ما فعله الآخرون بينما لم تفعل هذه ذلك. وبدأ التفكير في أن موقف أوليبارس، مثلما قدمته، في مواجهة ما قدمه رتشليو في كتابه Nicandro، بمعنى إعطاء أولوية لتمجيد الله مقارنة بهؤلاء الذين لا يفعلون ذلك وينجحون، لم يعد مهما. بقي القليل من الوقت حتى يمكن القول إن إسبانيا كانت خطأ حتى ذلك الحين، وبالتالي يجب أن تعدل مسارها. هذا الموقف لا يُلاَم عليه، بمعنى أنه يمكن أن يكون كذلك في حالة عدم المسارعة في اتخاذه. كان من الضروري تحديد ماهية الخطأ وعدم القبول بالفكرة القائلة إن خصوصية إسبانيا أمام الدول الأوربية كانت خاطئة، وبالتالي كان هؤلاء على حق. كثر النقد بدرجة متوسطة فعادة ما يكون نوعا من التحليل الدقيق لموقف ومصحوبا بقبول ساذج لما يتم تقديمه على أنه النقيض. كان من الممكن أن تكون محاسبة النفس عند التوجه المستنير أمرًا جديرًا بالإعجاب – وكان كذلك في بعض الحالات – إذا ما امتد إلى محاسبة للنفس أوربيا، وهذا ما نفتقده.

أما الجانب الإيجابي واضح الملامح خلال القرن الثامن عشر هو العناية بالواقع الإسباني ومعرفته بشكل أوسع وأدق عما كانت عليه معرفته سابقا، وهناك الاعتراف الصريح بجوانب القصور والرغبة في تجاوزها وأن تسترد إسبانيا نشاطها. هناك جهود ضخمة يتم القيام بها من أجل تحسين وضع الأمة، والإفادة من الموارد، والتخلص من الموروث الميت والخاص بماض ليس له واقع حقيقي. وفي هذا المقام نجد أن القرن الثامن عشر كان مثار إعجاب وأكثر قدرة إبداعية عما يُظَن فيه(٧٨).

---

(78) كانت المعرفة بالقرن الثامن عشر غاية في الهشاشة حتى قبل ذلك بربع قرن، ولا يستغربن أحد هذا. هناك أسباب متشابكة أدت إلى غمط ملامح هذا القرن وحواراتها. غير أن صورته الحقيقية أخذت تتضح ملامحها رويدا رويدا مثلما نجد في طروادة سيشلمان. كتبت كثيرا حول هذه الفترة وأحيل القارئ إلى ما نشرته في شكل كتاب حيث أشير فيه إلى الإسهامات المهمة لكتّاب آخرين. ففي الكتاب المعنون بـ "الإسبان" (١٩٦٢، في الأعمال الكاملة – الجزء السابع) نجد كاتبا مثل خوبيانوس Jovellanos، التوافق والاختلاف في إسبانيا"، و"الأب إيسلا وموراتين". وهناك "إسبانيا وأوربا عند موراتين". هناك كتاب مهم آخر بعنوان إسبانيا الممكنة على زمن كارلوس الثالث (١٩٦٣). وفي كتابي

كانت النتائج رائعة، وأخذ تعداد السكان الإسبان يزيد بسرعة وخاصة اعتبارا من عام ١٧٥٠م. كما انتعشت الصناعات، التي كان أغلبها تخبو نارها. وبالنسبة للوحدة القانونية التي أعدها فيليبي الخامس بعد انتهاء حرب الاستخلاف، كانت شائكة بالنسبة لقطالونيا وبلنسية من حيث أنها ألقت أو قللت من الاحتكام إلى الأعراف الخاصة بكل واحدة، كما أنها – الوحدة القانونية – قضت على فلول الإقطاع وتحسن وضع الفلاحين، وقضت على الجمارك الداخلية وساعدت على حرية مرور منتجات الأقاليم المختلفة. وكان الانفتاح التجاري مع أمريكا العنصر المكمل لهذه الحرية الاقتصادية، وجعل من الممكن هذا الازدهار السريع والمكثف الذي عاشته قطالونيا مقارنة بما كانت عليه سابقا من انحطاط.

غير أن الانطباع السائد، ليس اليوم فقط وإنما آنذاك، أن إسبانيا خلال القرن الثامن عشر أقل من القرون السابقة، فإذا ما عقدنا مقارنة بينه وبين القرن السابع عشر، وبالتحديد بالنصف الثاني منه، فإن واقع إسبانيا أعلى بكثير خلال القرن الثامن عشر. غير أن ما فُقِد هو المشروع الذي كانت إسبانيا تفعله وربما كان ذلك بشكل أجوف: أي الأشياء التي لم تكن إلا "مفردة وصورة" طبقا لهذه العبارة الرهيبة التي قالها كيبدو، وهو على فراش الموت. أخذ الأسرة المالكة، البوربون، تضبط حساباتها، وكانت أول عملية عاجلة لديها هي **قبول الواقع**، إذ اعترفت الأسرة بأن إسبانيا ليست الدولة المهيمنة التي كانت والتي لم تعد القوة

"**تأملات في المجتمع الإسباني**" هناك "تمرّد إسكيلاتشي" (١٩٦٦). وهذان الكتابان الأخيران ضمن الأعمال الكاملة الجزء السابع. نشرت أيضًا من خلال دار نشر "أليانثا" طبعة مختصرة **ليوميات** خوبيانوس مصحوبة بمقدمة. وفي الجزء الخامس من "التاريخ العالمي للطب" (سلبات- برشلونة ١٩٧٣) يمكن الاطلاع على المقدمة التي كتبتها تحت عنوان "ثقافة عصر التنوير" مع هوامش تفصيلية إلى التنوير الإسباني – هناك كتاب ريتشارد هير – The Eigheenth Century Revolution in Spain (١٩٥٨. هناك ترجمة إسبانية). حيث يشير إلى بداية طرح أكثر ملاءمة للمسألة. هناك أبحاث سيبولد، جليندننج، دومنجث أورتيث، كاسو، دولنج ويفرتو...إلخ. وقد أسهمت كثيرا في إيضاح ملامح ذلك العصر. وهنا يجدر أن نشير إلى إسهام مهم، وهو الجزء الثالث من كتاب خوان لويس أليورج **تاريخ الأدب الإسباني**، حيث عرض لأول مرة وبالتفصيل والتوثيق ما عليه القرن الثامن عشر، وهو عمل كان الكاتب فيه على جمر على مدار ألف صفحة.

الأولى في أوربا رغم أنها ما زالت من القوى التي تقف في المقدمة، وأن عليها أن تتعلم كثيرا من الأشياء التي كانت لا تعني بها، وعليها أن تعيش طبقا لإمكانياتها. وهذا يعني تقليل حجم المقاصد وفي الوقت نفسه هو عبارة عن تصحيح الموقف. قصُرت المسافة بين الموارد والمشاريع، فبدلا من مشروع كبير (وربما كان خاويا) سوف تقوم إسبانيا بتنفيذ مشروع متواضع تأملي ومليء بالمضمون.

ولأول مرة في تاريخها، تتخذ نفسها كمهمة حيث تولت بشكل مباشر **بناء إسبانيا**. استطاعت أن تستعيد وحدتها كاملة وهذا هو المهم. نعم، كان ذلك منذ عصر الملوك الكاثوليك وكانت وحدة أكثر قوة واكتمالا خلال القرن السادس عشر، لكن كان هناك الكثير من القيود، مع وجود الأجزاء القديمة التي كان لها في عام ١٦٤٠ توجه سيء لا يميل إلى القبول بالتنوع بل كان يميل إلى تقطيع الأوصال. من المهم الإشارة إلى أن اسم إسبانيا الذي كان له قبل ذلك معنى جغرافي بدائي سوف يحتل المقام الأول ليطلق على الأمة. كان الحديث قبل ذلك بشكل تفضيلي عن الملكية الكاثوليكية (أو الإسبانية)، ومن الأمور ذات الدلالة أيضًا هو أنه ابتداء من عام ١٧٨٥م هناك علم **إسباني**، سوف يحل محل باقي الأعلام والرايات والبيارق التقليدية والملكية التي كانت للممالك القديمة وللجماعات الحربية...إلخ. هناك تركيز يزيد على الحد على "المركزية" التي سارت عليها أسرة البوربون خلال القرن الثامن عشر وقد اتُّهم الكونت دوق دي أوليبارس بهذا الاتهام. كان الأمر **توحدًا** أكثر من كونه **مركزية**. كان أوليبارس يريد توحيد القوانين طبقا لقوانين قشتالة حيث كانت الجزء الأكبر والأهم ومقابل ذلك مشاركة تاج أرغن ونابارّة في جميع الشئون الوطنية. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الأسرة الحاكمة الجديدة.

اصطدمت هذه المهمة الهَّامة، التي كانت إنشاء إسبانيا، بمقاومة من أكثر من مكان، كان بعضها مشروعا ذلك أن أي تحول يجرح بعض الثوابت التي تحظى باحترام على أرض الواقع، غير أن بعضها الآخر كان باقيا وجامدا وغير ملائم أو غير مسموح به، أو كان نوعا من الأنانية والذاتية أو الغرور المحلي. اكتملت وحدة إسبانيا خلال القرن

الثامن عشر، خلال عصر كارلوس الثالث. وهي اللحظة التي شهدت تمام التكامل الوطني الذي هو أعلى مما كان سابقا وما لحق ذلك، أي التحول إلى القومية غير المكتمل خلال القرن السابع عشر وظهور القومية في القرن التاسع عشر. لم تكن إسبانيا موحدة بشكل حي وكامل لا متنوعة بشكل كبير مثلما كان عليه الحال في القرن الثامن عشر.

كان اكتمال الإدارة الإسبانية غير عادي وظل ذلك حتى عام ١٧٨٨م كحد أدنى، إذ كان انتقاء الحكام ناجحا لدرجة ليس فيها استثناء، وسرعان ما ارتفع مستوى الحياة في مختلف المجالات. كما تمت الاستفادة من الطاقات القومية وأخذت تتجه في مساراتها العقلانية، فلم يعد للملوك محاسيب أو مقرّبون بل هناك سكرتارية ومقدمو خدمة تم انتقاؤهم بناء على قدراتهم وحسن سيرتهم وليس بالضرورة أن يكونوا من الصف الأول من النبلاء بل من مستويات أخرى من المجتمع. هناك عملية ضبط لأداء المؤسسات التي أخذت تعمل بشكل أفضل من أي وقت مضى. كان هذا ممكنا وذلك لوجود مشروع قومي متسق، كما أنه يحرك أفضل الإسبان للقيام بجهد جبار أسهم في تجديد الفعالية القديمة في أشكال مختلفة. والأمر المدهش والأكثر أهمية هو أن هذا المشروع كان مكتوبا وجرت صياغته ابتداء من عام ١٧١٤، أي عندما تم إقرار السلام وبدأت الحياة المدنية لإسبانيا.

برنامج القرن الثامن عشر:

نشرت منذ سنوات طويلة مخطوطة فريدة لدي، وعلقت عليها وهي، **الطلب الخاص بالمقترحات التي قدمها اليد ميلتشور دي ما كانات إلى الملك السيد فيليبي الخامس عام ١٧١٤، في باب الحكم الجيد والسعادة للمملكة**. من المعروف أن السيد/ ميلتشور رفائيل دي ماكانات (١٦٧٠-١٧٦٠) يعتبر من الشخصيات المهمة في إسبانيا خلال مرحلة الانتقال من قرن إلى آخر. تربى وتأهل في عهد كارلوس الثاني وكان ممثلا لامتيازات الدولة في علاقتها مع الكنيسة، أي إقامة دولة دنيوية يكون للكنيسة فيها دور

روحي ولا تغزو الوظائف الخاصة بالمجتمع والتاج. كُلِّف بصفته النائب العام لمجلس قشتالة بكتابة تقرير خاص، ورغم أنه سرّي فإن رئيس محاكم التفتيش الكاردينال دي جيوديثي قد عرف به، وجرت إدانة هذا من قبل باريس. ورغم حماية الملك فإن هذه الواقعة قطعت مشوار ماكاناث، فكان عليه أن يغادر إسبانيا، وكان ممثلا ومستشارا للملك في جميع أنحاء أوربا. وعندما عاد إلى إسبانيا وهو طاعن في السن، عام ١٧٤٨م، أحيل إلى السجن وقضى فيه ما يقرب من اثني عشر عاما، ثم توفي في Hellin، مسقط رأسه بعد أشهر قليلة من خروجه من السجن[٧٩].

لم يتم نشر ما سمى طلب النائب إلا في عام ١٨٤١م، غير أنه تم تداول نسخ منه مكتوبة بخط اليد ومنها النسخة التي أشار إليها كبير محاكم التفتيش. هذا النص الموجز المكتوب بلغة حية وعامية ورشيقة ولاذعة وشديدة الاختلاف عن اللغة الفنية، رغم أنه الحامي والعارف بالقوانين الكنسية والعارف بالتاريخ الذي جرت فيه كتابة الطلب، حيث يقول في صفحات قليلة ما يجب أن يكون عليه الخط العام لسياسة الملك فيليبي الخامس ومن خلفوه وهما الملك فرناندو السادس وكارلوس الثالث، هو إذن برنامج القرن الثامن عشر الذي جرت صياغته في وقت مبكر.

رأى ماكاناث صعوبات مهمة لكنه كان مليئا بالأمل. فهو يسير على الفكرة القديمة الخاصة "بمدائح إسبانيا" في باب الثروة الطبيعية وكفايتها، غير أنه يفكر في الإسبانيات Españas أي في جماع مناطق المملكة الإسبانية إذ يشير إلى الذهب الوفير الذي كان هبة السماء "بالطبع" ويتحدث عن قلة السفن: "يرجي من جلالتكم ملء الخلجان الإسبانية بالسفن وماكينات الإبحار" ولهذا يقدم خطة تتمثل في بناء سفن بلا هوادة في كل من موانئ قادش وفيرّول وقرطاجنة وغيرها من الموانئ واستخدام المتسولين "الذين يرتدون عباءات

(79) قامت كارمن مارتين جايتي بدراسة قصة ماكاناث دراسة جيدة في دراسة بعنوان "مشروع ماكاناث. تاريخ دعوى" مدريد ١٩٦٩.

مهلهلة ويتجولون في الشوارع" هزءا من القوميين – أي من الأجانب – الذين يفيدون من الفقر الإسباني ليثروا.

وفي الوقت ذاته نجد ماكانث يرى ضرورة أن يعمل الجميع وأن يتغلبوا على احتقارهم للعمل التجاري وأن يتجاوزوا عقدة الوضعية الاجتماعية النبيلة، وتبسيط الجهاز الإداري، وتقليل البيروقراطية، وتقليل الشريط الأحمر (Red tape هكذا تقال بالإنجليزية حتى اليوم) الذي يربط به الموظفون حزم الملفات، كان يطلق عليها في إسبانيا balduque (نسبة إلى Bois-le-Dug أو S'Hertogenbosch أي المكان الذي كان تصنّع فيه). يجب تخفيض عدد الموظفين وأن تكون رواتبهم جيدة وأن يعملوا بهمة بينما اليوم يتم شغل وقت كثير في المجلس (تمييزا له عن البرلمان في باريس أو لندن) ولا يدور الحديث إلا عن الطقس، وفيما إذا كانت زوجة فلان قد تعبت من آلام المخاض كثيرا أو قليلا، أو ما إذا كانت الكوميديا جيدة أو سيئة...إلخ. وينتهي الوقت في هذا السياق بينما أصحاب المصالح المساكين وأصحاب الحاجات يظلون في العتمة".

كان ماكاناث التاجر الجيد يدافع عن التجارة الخارجية والصادرات التي ستكمل المعادن الثمينة وكان يؤمن بإلغاء "المكوس" أو الضرائب الداخلية التي تقف حجر عثرة أمام الاتصالات داخل إسبانيا، كما سلط الضوء بشكل خاص على المنافسة واختيار الأفضل وهذه هي القاعدة لكل سياسة محمودة. وأن يشغل المناصب القادرون على إدارتها وأن تتم العودة إلى الأخلاقيات العامة التي كان عليها الملوك الكاثوليك أو الملك كارلوس الخامس، والبعد عن أخلاقيات "الحكام المكفوفين" الذين سوف يتحدث عنهم مننديث بيدال في أيامنا هذه.

إلا أن النقطة الجوهرية والنشطة في هذا الطلب الذي قدمه ماكاناث هي ضرورة العمل على إضفاء الدنيوية على الإدارة والحياة الاقتصادية، وأن يقتصر رجال الدين على أداء مهامهم الخاصة بهم. كان ماكاناث شديد التدين ورجل دين جيدًا، ويتحدث بصفته

كاثوليكيا ومستشارا للملك عن تطهر العلاقة بين الكنيسة والمجتمع المدني حيث يأمل الرشاد والازدهار لكليهما. كان حظ ماكاناث تعسا، نظرا لوجود مقاومة نكدة بشكل عام وقوية لمقترحاته ولها مردودها السيئ عليه. غير أن الأبواب فتحت على المدى الطويل، والشيء المثير هو التطبيق الحرفي لهذه الأفكار التي اقترحها ماكاناث طوال عصر الملوك الثلاثة. يهمني أن أبرز كيف أنه في اللحظات الأولى من السلام والاستقرار في البلاد، أي عندما بدأ الإيقاع الطبيعي للحياة العامة في إسبانيا في ظل حكم أسرة البوربون، جرى وضع برنامج متسق تم تنفيذه وهو من الملامح الأكثر أصالة خلال القرن الثامن عشر نظرا لفعاليته.

الخلاصة التي قدمها فييخو عام ١٧٥٠م:

تزامن مع ماكاناث، وكان طاعنا في السن مثله، فراي بنيتو خيرونيمو فييخو (١٦٧٦-١٧٦٤م) أفضل من يمثل العصر الجديد. كان ما يهم ماكاناث هو التجديد في حقل السياسة والاقتصاد، أما بالنسبة لفييخو فالأمر يتعلق بالأفكار والتنوير في إطار كاثوليكية أكثر انفتاحا لكنها ليست أقل التزاما مقارنة بما عليه السلفيون، وتحديدا للقول كان فييخو يريد من خلال **المسرح النقدي** ومن خلال **"رسائل ضليعة وغريبة"** تحرير الإسبان من ربقة "الأخطاء المتأصلة" وهي ما يمكن أن نطلق عليها اليوم **المعتقدات الاجتماعية الخاطئة**. يرى فييخو أن محاكم التفتيش حالت دون تطور الهرطقة في إسبانيا ولم تكد ترتكب آثاما ضد العقيدة اللهم **إلا إذا كان خطأ** لكنها لم تفعل ذلك من باب المبالغة في الحرص. فالإسبان ظلوا يؤمنون بما يجب الإيمان به، لكنهم وقعوا فريسة الإيمان بأشياء كثيرة لا يجب الاعتقاد فيها. ومن ناحية أخرى هم في **حالة خطأ**. كان فييخو أول هؤلاء الإسبان – خلال القرن الثامن عشر – الذين نراهم اليوم على أنهم كاثوليك "متصالحون posconciliares" حيث إيمانهم لا لبس فيه لكنه منفتح وحرّ وخال من أي تعصب، كان هؤلاء أقل ألمعية من رجالات عصر التنوير في بلدان أخرى، وخاصة فرنسا، لكنهم

يبدون اليوم في نظرنا أقل زيغا عن الحقيقة بكثير، وهم في جوهر الأمر مستقلون. كما أن هناك جوانب في أعمال فييخو، الرجل الذي عادة ما ينظر إليه على أنه كاتب كبير، تثير استغرابنا ألا وهي حداثة نثره الذي نقرأه بتلقائية وكأنه كُتب في عصرنا، فعندما نقارن نثره بما كان يكتب حتى عصره نجد أن التجديد الذي أدخله على الأسلوب جدير بالإعجاب حيث يتسم بالطزاجة والعفوية حيث لا نكاد نصدق التجديد الذي أدخله وأنه كان مقدمة لما سيكون عليه النثر الحديث. وعندما نتأمل أنه طبعت أربعمائة ألف نسخة من كتابات فييخو على مدار نصف قرن في بلد لا يزيد تعداد سكانه على عشرة ملايين مع ملاحظة كثرة المناطق الريفية مقارنة بالحضرية، مثلما هو الحال في أوربا، وبالتالي قلة عدد القراء، فإن تأثير فييخو يصبح مثار دهشة.

هناك واحدة من إسهامات فييخو المهمة للغاية والتي لم أر أبدا أي إشارة إليها، وربما تم إهمالها طبقًا للجنس الذي تنسب إليه، ألا وهي الإهداء إلى الملك فرناندو السادس (**السيد فرناندو العادل**، هذه عبارة يقولها في الإهداء) وكانت في بداية الجزء الثالث من كتابه **رسائل ضليعة وغريبة**. هذا الإهداء مؤرخ في ١٢/٦/١٧٥٠م بمدينة أوبيدو- هناك أهمية كبيرة لتقييم الوضع الإسباني الذي قدمه في منتصف القرن، وهو الرجل متقد الذكاء والمطلع والمستقل والذي تقدمت به السن، وقد أشار في تقييمه إلى أنه لا مطمح له- وسوف أقوم بذكر الفقرات الجوهرية.

"سيدي، ترجع كل سوءات إسبانيا على مدى قرنين سبقا وحتى الآن إلى قلة القوات، أي قلة القوات البرية وقلة القوات البحرية، لست أدري يا سيدي ما إذا كانت غيبة القوة في هذا السلك السياسي مردها، كما يحدث في كثير من الأحيان بالنسبة للجسم الطبيعي، قلة النظام الذي كان قائما في أزمنة أخرى. لكني أعرف أن النظام القائم الآن ليس له مثيل قبل ذلك، وعلى هذا نرى أثره في إسبانيا لم يكن يُرى أبدا قبل ذلك. وهذه الأعمال العظيمة لا نصدق وجودها رغم أننا نراها رأى العين. نرى كثرة المواد الخاصة بزيادة القوات البحرية لدرجة أنه في غضون فترة وجيزة سوف نحظى بها في حالة رائعة.

نرى زيادة الحركة في المصانع حيث كانت إسبانيا تعاني نقصا كبيرا في هذا. نرى تحصين الموانئ وتصنيع سفن في ميناء فِرّول وقرطاجنة وقادش. نرى شق الجبال لتعبيد الطرق، نرى إنشاء السواقي لري الأراضي والمصانع، نرى زيادة حجم التجارة وإنشاء عدة شركات، نرى إنشاء مدارس للبحرية، والمدفعية، وغيرها من تلك التي يجب على ضباط البحرية معرفتها، نرى تكوين فريق طبي تحت إمرة المايسترو الشهير في هذا وهو السيد/ بدرو بيرخيليو حيث كانت إسبانيا في حاجة ماسة إلى مهنته، ذلك أنه نادرا ما يوجد في بعض القرى، بما في ذلك الكبرى منها، جراحون اللهم إلا هذه الفئة من ألأعياء التعساء emplastistas، كان عدد من يموتون كثيرا نظرًا لغيبة الجراحين وقد شهدت هذا أنا بنفسي يا سيدي في العديد من الحالات. نرى السداد السليم لمرتبات الوزراء في العديد من المحاكم. نجد أيضًا أن القوات تقوم بأداء مهامها بأمانة، نجد أيضًا العناية بتقديم المتحصلات الضريبية بأمانة حتى آخر قرش maravadi. نرى أيضًا تخصيص مائة ألف إسكودو دي vellón وذلك للتخلص من الديون التي كانت مستحقة على والد جلالتكم المتوفى. نرى تقديم رواتب كبيرة لبعض الفنانين الأجانب سواء في الرسم أو النحت أو مختلف العمارات الثلاث وهي المدنية والحربية والبحرية، أو في بعض الفنون الأخرى التي لا يُنظر فيها فقط إلا الجانب النفعي العائد من عمل هؤلاء في إسبانيا بل هناك نفع آخر أكبر وأعظم وهو تعليم الإسبان. نرى العمل قائما على قدم وساق في وضع نظام خاص بإسهام "الرعية" كل حسب إمكانياته المالية: وأرى أن هذا لن يكتمل إلا بالكثير من النفقات، لكن التمرات المتأتية سوف تكون عظيمة... "لكن كيف يمكن فعل ذلك؟ وما هي مصادر التمويل؟ هذه هي المعجزة الكبرى لحكم جلالتكم".

من – غير الذي يرى – لن يرى أنه لكي يتم تنفيذ كل هذه الأعمال العظيمة سوف يتم فرض المزيد من الضرائب على "الرعية" التي لم يعد لديها الكثير؟ العكس تماما: قبل ذلك كان يتم التخفيف عنهم بجزء ليس بالهين من الأعباء المقررة.

"أخشى يا سيدي، أنه عندما يأتي الدور على اللاحقين علينا لقراءة تاريخ هذه الفترة ومعرفة الكثير من الأشياء العظيمة التي تمت في غضون فترة وجيزة – عامين – من جراء التقليل من الكثير من حقوق التاج فإن الكثير منهم سوف يكون غير مصدق وربما ينكر آخرون ذلك بوضوح. وأتخيل أن هناك من يتساءلون ساخرين فيما إذا كان جلالتكم أو بعض وزرائكم قد عثر على سر "حجر الفلسفة"، أو فيما إذا في عصر الملك فرناندو السادس قد تحقق ما كان خيالاً عند ملك فريخيا (مملكة في آسيا الصغرى) Frigia الذي يتحول كل شيء إلى ذهب عندما يلمسه...

ليس لدي جلالتكم ما يمكن أن تحسدوا آباءكم عليه. فالمهمة الجليلة التي تقومون بها قد بدأت وأخذت تتقدم كل يوم لتحويل إسبانيا من حالة الذل التي كانت عليها بسبب مواد غير مواتية، لتكون مساوية لكل ما فعلوه جميعا، وذلك بأن قمتم بإنقاذها من الاضطهاد الذي كانت تعاني منه من الأفارقة...

إن المهمة الكبرى المتمثلة في قيام هذه المملكة باستعادة روح الملكية والحيوية التي كانت عليها قديما هو أمر عظيم من جلالتكم حيث لا تنظر جلالتكم إلى استخدام شجاعة الإسبان للدخول في حرب جديدة. نعم وقبل كل شيء تبذلون الجهد في سبيل سلام دائم... ربما دخلنا في عصر سعيد حيث نجد القوى الأكبر في أوربا ترى أن الحرب غير مجدية بالنسبة للجميع، وأن الأمة المنتصرة تعاني من الأشياء نفسها التي تعاني منها الأمة المهزومة ويبقى المستقبل محل تساؤل...

"السلام في مملكة ليس مفيدا فقط بل جماع فوائد ويكون السلام هو أداة ضمان الشرف والحيوات والمال الذي تعرضه الحرب للخطر في كل خطوة. وهذه ليست جماع الفوائد المترتبة على السلام بل هناك أخرى وهي جدواه لروح وسلام الأنفس. وحتى لو كانت هناك حرب عادلة فإنها تسبب الخراب للكثيرين. كما تعرف أن التعاسة والفقر عند الشعوب، والتي هي من الآثار العادية للحرب، تتسبب في الكثير والكثير من ذلك. وليقل الفلاسفة ما شاءوا عن مضار الثورة أو سطحية المال العارض- وهنا أقول

وسأقول إن المضار المترتبة على نقص الاحتياجات أكثر وأكثر مما لو كانت متوفرة- عن أي سبب آخر غير هذا الذي نراه في إسبانيا حيث هناك فريق يبكي على السرقات بينما يبكي فريق آخر على خفض الجناح بطريقة خرقاء؟"[80].

لا أظن أن هناك تعبيرا أكثر قوة وشمولا بشأن الموقف في إسبانيا القرن الثامن عشر مثل هذا المتعلق بالتوقعات الخاصة بالعقود التالية – أي خلال حكم كارلوس الثالث – إضافة إلى الحالة المعنوية لرجل جليل من أبناء ذلك العصر. لقد رأيت من المفيد التعريف بتلك الصفحات التي نادرا ما تقرأ، رغم أنها توضح بجلاء **الاستمرارية**، دون انقطاع، لتاريخ إسبانيا ابتداء من حرب الاسترداد، حيث تشبهها مهمة السلام والازدهار خلال عصر فرناندو السادس، يتم النظر إلى الماضي القريب (الذي كان طويلا بشكل زائد عن الحد) على أنه زمن الذل والإحباط، وعلى أنه **زمن عثرات** تاريخي نظرًا "لظروف غير مواتية"، وتتم الإشارة إلى أن هذه الأمة كانت "محل احتقار الآخرين"، ثم تتم الثقة في أن واقعها الحقيقي سرعان ما يعود إلى سابق عهده. كما أن عناية رجل الدين هذا بالعناصر الاقتصادية هي واحدة من ملامح العصر، وليس أقل من ذلك تقديره العميق للثروة بما فيها البعد الروحي، حيث يفضلها على الفقر الإجباري وعلى قلة الاحتياجات الضرورية. نجد أيضا حماسه الحارّ للسلام واقتناعه بأن الحرب هي أمر سيء بالنسبة للجميع حتى المنتصرين، وأمله في أنه قد آن الأوان لكي يفهم الأقوياء على هذه الأرض الأمر على هذا النحو.

يتحدث فييخو بدقة شديدة عما تم فعله في غضون عامين. ففي عام ١٧٤٨م جلس على سدّة الحكم السيد خوسيه دي كارباخال إي لانكستر، الذي ولد عام ١٦٩٦ ثم توفي شابا عام ١٧٥٤م. كان أحد رجالات الدولة الإسبان خلال القرن الثامن عشر حيث يتمتع بالكفاءة والنزاهة- لكن وفاة هذا الرجل لم توقف الاستمرار في هذا المسار الذي وصفه فييخو في صفحات تعتبر صورة غير مسبوقة لمهمة إعادة البناء القومي والتي

(80) رسائل ضليعة وغريبة. الجزء الثالث – مدريد ١٧٧٤ ص من ١٧ حتى ٣٠.

دخلتها إسبانيا – هناك روح السلام الذي ساد والذي يعكس الطابع الأكثر عمقا للقرن الثامن عشر فيما يتعلق بإسبانيا وهو العصر الذي كان التعايش يسوده وكذا التسامح على مدار تاريخنا بأكمله. وابتداء من نهاية حرب الاستخلاف وحتى الغزو الفرنسي ١٨٠٨ أي على مدار قرن كامل لم يكد يكون هناك عنف أو قمع أو صراعات على مدار قرن "أبيض"، وربما لهذا لم يثبت هذا القرن في الأذهان بشكل مناسب. يكفي القول في هذا الصدد إن الاستثناءات الوحيدة لهذا الاستقرار كان التمرّد علي اسكيلاتشي عام ١٧٦٦م وطرد اليسوعيين عام ١٧٦٧م. ورغم البعد السلبي لهاتين الحادثتين إلا أنهما تمثلان شيئا قليلا على مدار قرن من التوافق القومي.

تبدو الفقرات التي أوردتها من أعمال فييخو وكأنها وفاء ببرنامج ماكاناث، الذي صاغه في بداية هذه الفترة. غير أن ما يصعب فهمه هو أن أيا من هذين النصين لم يستخدما في تحليل المشروع الإسباني خلال القرن الثامن عشر.

الملك، رأس الأمة:

هناك مشوار مزدوج أخذ يتأكد خلال الفترة من حكم فيليبي الخامس حتى عصر كارلوس الثالث، فمن جانب هناك التنامي المتزايد للبعد القومي في إسبانيا دون قمع أو وجود قوميات أخرى، ومن جانب آخر هناك زيادة في **الشرعية الاجتماعية** للمملكة حيث إن الملك ليس "رئيس الدولة" بالمعنى المعروف – إذ كان هذا تعريفا غير واضح المعنى خلال القرن الثامن عشر – بل الأصح أنه **رأس الأمة**، وينسب إلى المجتمع أكثر من انتسابه إلى الجهاز السياسي، وهو السلطة العليا التي يمكن اللجوء إليها **ضد الحكومة** مثلما رأينا ما حدث في أثناء "تمرد إسكيلاتشي"*.

---

* إسكيلاتشي (ولد في صقلية وتوفي عام ١٧٨٥) كان سكرتيرا للمالية والعفو والعدل والتجارة والحرب. كان مجددا، حيث أمر بأن تحل العباءة القصيرة محل الطويلة والقبعة ذات الثلاثة أطراف محل القبعة التقليدية Chambergo، الأمر الذي أثار الشعب ضده وعرف هذا فيما يسمى التمرد على إسكيلاتشي. (المترجم)

أخذت المزايا تزول، وكانت هناك مقاومة، وشمل ذلك الكنيسة والجنود النظاميين والنبلاء والمدارس العليا في مواجهة الذين "يدرسون اللاهوت". ثم أخذت تنخرط في الحياة التاريخية بكل أبعادها، مناطق أخذت تتسع رقعتها شيئا فشيئا على المستوى الوطني. أدى إلغاء المكوس ومزايا التجارة مع أمريكا إلى المزيد من الازدهار وتسهيل مشاركة جميع الأقاليم في المهمة المشتركة. كانت جميع المناطق تشعر بأنها جزء من كل أكثر من أي وقت مضى وأكثر من بعد ذلك أيضًا، في باب الوحدة الوطنية وهذا ما شوهد في الحروب التي كانت على أيام الثورة الفرنسية وكذلك في أثناء حرب الاستقلال"[٨١].

---

(81) حاولت التوجهات القومية التي كانت نتاج الإقليمية خلال القرن التاسع عشر أن تقض من قوة هذا الفعل ثم ألقت على القرن الثامن عشر مواقف ظهرت خلال السنوات الأخيرة من القرن الثاني، ربما بعد قرن ونصف بعد الأحداث التي يريدون تحليليها. تحدثت عن هذا الموضوع بشكل مسرحي في كتاب "خمس سنوات من عمر إسبانيا" (سلسلة بوريال – مدريد ١٩٨١) حيث أشرت إلى مجموعة من النصوص = = ذات الدلالة المهمة في باب التعديل اللاحق للواقع التاريخي. وبعد أن التأمت جروح حرب الاستخلاف، شعرت قطالونيا بأنها تعيش حالة توسع كبرى من خلال ازدهار لم تشهده منذ نهاية القرن الرابع عشر، وهي فترة مليئة بالمشروعات والمهام والآمال. وفي عام ١٧٦٨م نجد كادالسو يمدح قطالونيا بحماس: "يمكن لملك المسيحيين أن يستبدل الأمريكتين بمحافظتين مماثلتين – يتوجه بحديثه هنا إلى المغربي جازل – حسن، كتب أ. روفيدا إي فرجيلي: "**خلال القرن الثامن عشر انتهى الانحطط في قطالونيا** واكتملت عملية **اللاإقليمية القطلانيين**. نسي هؤلاء الأصول العريقة للسلالة وسقطوا في **الدناءة** الخاصة بالتبعية للأسرة الحاكمة والإسبانية. وبعد عصر فيليبي الخامس جرى استقبال البوربون الذين كانوا يفدون إلى برشلونة استقبال **الفاتحين من قبل شعب نسى كبرياءه وتاريخه**. وخلال الثلث الأخير من ذلك القرن نجد أن أبرز **المستنيرين القطلان** أذعنوا للأمر الواقع وذهبوا إلى أبعد من هذا بمباركة الأمر... Campany- هذا الفخار القطلان الزائف، مثلما يطلق عليه جابريل ألومار وعن حق- بقوله "كان هذا هو الحافز الذي تلقته في العهد الرشيد للملك فيليبي الخامس، وهو عصر الذكريات الطيبة بالنسبة للازدهار العام في هذه الممالك". ويشير ميجل إس. أوليفر إلى **أن هؤلاء القطلان كانوا بعيدين كل البعد عن كراهية فيليبي الخامس والذي ظهر في المحافل الأدبية خلال القرن التالي**". (الخط الأسود من عندي). الأحداث لا يمكن مواراتها وليس هناك مجال للشك فيما كان عليه **الموقف الملكي** تجاه القطلان خلال القرن الثامن عشر. والآن نجد أنه يضاف إلى الأمر تحليل سلبي مضاد لجميع البديهيات التاريخية. وقد حاولت من خلال الكتاب المذكور أن أبرز المراحل التي أدت إلى هذا التشويه للواقع. وحول كامباني Company، الذي ربما كان الشخصية الأكثر أهمية في معرفة قطالونيا، **ومؤلف المذكرات التاريخية عن البحرية، والتجارة وفنون مدينة برشلونة** يمكن الاطلاع عليه إضافة إلى الكتيب المعنون "**الحراسة ضد الفرنسيين**" وهو المخطوطة الجميلة الموقعة باسم مستعار هو "بدرو فراندث" عام ١٧٧٣م والذي اكتشفته وطبعته تحت عنوان **إسبانيا الممكنة على زمن كارلوس الثالث**.

وبالتوازي مع هذا المسار الخاص بالقومية الذي يحظى بشرعية متنامية اجتماعيا في المملكة يذكر أن ملوك الأسرة النمساوية لم يمارسوا أي سلطة "شخصية" قط، رغم أن الملك كان أعلى سلطة، وبالتالي فإن الاستبداد يعني أنه لم تكن هناك سلطة أعلى، إلا أن سلطته تتم ممارستها طبقا للأصول الثابتة ومن خلال مؤسسات ذات صيت كبير ولها صلاحيات وخاصة مجالس كل من قشتالة والهند الغربية وأرغن ومحاكم التفتيش وفلاندس والبرتغال (في أثناء انضمام ذلك التاج). كان هذا الموقف مضمخا بالتأثير المبالغ فيه "للمحاسيب" أو "المعارف" خلال القرن السابع عشر. وبالتالي فإن الشرعية الاجتماعية الكاملة للملك أصبحت متأثرة بالموقف، ذلك بأن التوافق بالإجماع بأنه هو الذي بيده الحق في إصدار الأوامر، ومن خلال التنازل عن هذه الصفة لتكون في يد أحد المحاسيب الذي يُدخِلُ عنصر "عدم شرعية" رغم أنه بالتفويض.

اختفى هذا الموقف النشاز خلال القرن الثامن عشر، حيث لا أحد يغتصب حقوق الملك – وظل هذا حتى عصر كارلوس الرابع على الأقل – وبلغت الشرعية بذلك أقصى سقف لها. أضف إلى ما سبق أن الحكومة تُشَكَّل في ظل مراعاة شديدة للقانون وكان هناك نجاح مبهر في انتقاء الأشخاص. وبالنسبة للسلطة الملكية فإنها لم تكن أبدا أكثر منها عما كان عليه عصر كارلوس الثالث، الملك الرقيق والطيب والذي يحظى باحترام شديد لكنه لا يُخاف منه، فهو عدو العنف ومن أنصار الثقافة والازدهار الوطني[82].

هذا يفسر أمرا غاية في الأهمية سوف نعود إليه لاحقا، ألا وهو أن عصر التنوير الإسباني خلال القرن الثامن عشر، وخلافا لما كان عليه الحال في قرون أخرى، ورغم

---

(82) انظر الدراسة التي أعددتها بعنوان "التمرد على إسكيلاتشي" وخاصة المخطوطة غير معروفة المؤلف التي نشرتها هناك. وبالنسبة لشخصية كارلوس الثالث فبالإضافة إلى كتاب أنطونيو فيرّير دل ريو **تاريخ مملكة كارلوس الثالث في إسبانيا** – في أربعة أجزاء – مدريد ١٨٥٦م، هناك كتاب آخر له أهمية كبيرة عنوانه **حياة كارلوس الثالث** كتبه الكونت فرنان – نونيث – جزءان، مدريد ١٨٩٨م.

الميول، لم يكن أبدا مدمرا بل كان على العكس، إذا كان الوسيلة الأكثر فعالية في التنفيذ البناء لذلك المشروع الخاص الذي كان إسبانيا ذلك القرن.

الفصل الثاني والعشرون

المملكة الهسبانية خلال عصر التنوير

التاريخ وما هو داخل التاريخ Intrahistoria:

لا يوجد هناك مثال واضح لما كان يطلق عليه أونامونو **Intrahistoria** أكثر من أمريكا الإسبانية بعد الغزو. فعندما انتهت الفترة الدرامية المليئة بالترقب والمغامرة فيما يتعلق بالاكتشافات والتوغل في تلك الأراضي الشاسعة والصراع من أجل تأكيد السيطرة الإسبانية، التي لم تكن أقل قسوة مما هو قائم بين الغزاة أنفسهم، أخذ الموقف يستقر وتم تأسيس المدن وتنظيم نيابات الملك والقيادات العامة والمجالس وأخذت اللغة الإسبانية في الانتشار وكثرت حالات الزيجات المختلطة بالسكان الأصليين وأصبحت التجارة ذات إيقاع عادي، ولم يقتصر ذلك على البضائع بل شمل الأفكار والأجناس الأدبية والفنية والموضات. دخلت دول أمريكا (ولكن كانت الفيلبين بدرجة أقل) في فترة طويلة من الإيقاع الطبيعي، فلا تكاد توجد أحداث مثيرة. كما أن القرارات الأخيرة تتم في إسبانيا. أما مهمة نواب الملك فهي الحكم باسم الملك الذي لم تكن ظروف السفر مهيأة آنذاك تسمح له بزيارة ممالك ما وراء البحار. وهنا فإن البلاط القائم في كل نيابة هو انعكاس لما كان عليه حال البلاط في مدريد وكانت الاتصالات بين مختلف بلاد أمريكا ضئيلة للغاية نظرا لطول المسافات والصعوبات الجغرافية: من المعروف أن بنية المملكية

كانت دائرية Radial: فمن إسبانيا تبدأ خطوط الاتصال بالمناطق المختلفة في الهند الغربية، وكان الاتصال بها يتسم بأنه افتراضي أكثر من كونه فعليا، أي هو نوع من **التوازي** أسهم في خلق وجوه شبه عميقة رغم أن العلاقات الفعلية كانت محدودة للغاية.

ولما لم يكن هناك أي شيء مثير فقد ساد الإحساس بأنه لا يحدث شيء، إلا أن من الطبيعي أن الحياة اليومية تسير في طريقها وتتغير من حيث الشكل والمضامين، وأخذت الأجيال تتعاقب، وهناك **تاريخ** لهذه الشعوب تجاوز كل ذلك ولم يضعه في الحسبان، أما الخطأ الممكن والكامن في مصطلح "intrahistoria" هو فهمه على أنه ليس التاريخ. من الطبيعي أن يكون التاريخ، وهو أمر **تاريخي من الناحية الجوهرية** لكنه يتطلب منظورًا مختلفا عن المنظور التقليدي حيث ينظر فقط إلى ما هو غريب وغير عادي على أنه قابل للتأريخ. من المثير للفضول أنه خلال القرن الثامن عشر يُرَى أن موضوع التاريخ ليس ذاك وإنما هو الحياة نفسها، أي les moeurs et l'esprit des nations طبقا لمقولة فولتير، وهو الـ Vlksgeist طبقا للألمان، ومع هذا لم يخطر على بال أحد دراسة **تاريخ** شعوب أمريكا اللاتينية من هذا المنظور. كما أنه لم يتم حتى بعد الاستقلال حيث قام التاريخ بغض البصر تماما وعن قصد عن جميع قرون عصر نواب الملك وترك هذه البلدان دون تاريخ.

هذا كله يفسر الظاهرة التي أشرت إليها والمتمثلة في عدم "وضوح الرؤية" بشكل كاف لأمريكا. فخلال القرن الثامن عشر كان الأداء العام للمملكة كاملا وبشكل يثير الدهشة، كما يتسم بالاستقرار العام والسلام الذي **أُقِضَّ** مضجعه في مرات قليلة تعتبر الحد الأدنى إذا ما أخذنا في الحسبان اتساع الجغرافية وكذا طول الفترة الزمنية. وإذا ما قارنا **الوضع العادي** لتاريخ جميع أرجاء المملكة الإسبانية (أي إسبانيا والهند الغربية)، خلال القرن الثامن عشر، بما كان عليه الحال في بلد أوربي آخر لوجدنا أن المقارنة مذهلة. فالشيء الذي هو شبه استثناء لهذا هو التمرد على إسكيلاتشي، ولم تكن له أهمية كبيرة حيث اقتصر على مدريد وكانت له، بعض الأصداء خارجها، كما أنه لم يستمر طويلا. ثم

تأتي عملية طرد اليسوعيين عام ١٧٦٧م التي أحدثت تأثيرها على جميع أرجاء العالم الناطق بالإسبانية وكانت لها نتائج مهمة ربما كانت أكبر في أمريكا، وفي البيرو هناك تمرّد إيباك أمارو على زمن الملك كارلوس الثالث، وفي نهاية المطاف نجد في أمريكا أيضا هجمات الإنجليز على موانئ أمريكية أو على الأساطيل الموجودة في الهند الغربية، حيث كانت الهدف المفضل وشبه الحصري للحروب التي دارت بين إسبانيا وإنجلترا التي كانت نتيجة "الاتفاقات الأسرية". هذا كله يمثل الحد الأدنى من الواقع العام الذي كانت عليه هذه المملكة المترامية الأطراف.

إلا أن ما يتم تسليط الضوء عليه بالنسبة لأمريكا هو أيضًا حقيقة بالنسبة لإسبانيا حيث عاشت حالة استقرار مدهشة خلال القرن الثامن عشر. إنه القرن "الأبيض" أي دون دم أو عنف أو تمرد أو مطاردات، وبه أقليات نشطة تعمل بذكاء على النسيج الاجتماعي الذي هو عملية قصور ذاتي ضخمة. هناك فقرة لطيفة في كتاب **"رسائل مغربية"** لكادالسو، كتبها عام ١٧٦٨م حيث تشير إلى هذا النمط من الحياة الإسبانية: "هناك آلاف البشر الذين يستيقظون في وقت متأخر للغاية ويتناولون مشروب الشوكولاتة الساخن والماء البارد، ثم يرتدون ملابسهم ويخرجون إلى الميادين، يشترون زوجين من الدجاج ajustan un parde p.، ويحضرون القداس، ثم يعودون إلى الميدان ويتمشون قليلا، ويتبادلون الأخبار الخاصة بالقيل والقال في الناحية، ويعودون بعد ذلك إلى المنزل، ثم ينعشون أنفسهم، ثم يذهبون إلى الدردشة، ويلعبون الدرق malilla، ويعودون للمنزل ويصلون ثم يتعشون ويتجهون إلى أسرَّتهم". إذا ما باعدنا ما في النص من مبالغة وطرافة وتسلية أدبية لوجدنا صورة حياة رتيبة وشديدة الوداعة وحياة قصور ذاتي دون أي نوع من القلق. كما كتب قبل ذلك بقليل: "إن المدينة التي أُوجد فيها الآن هي الوحيدة من عدد من المدن التي زرتها والتي تبدو على شاكلة إسبانيا القديمة حيث قمت بوصفها لي مرات عديدة: فهناك اللون الحزين للملابس، والنساء محتشمات والرجال غيورون وكبار السن وقد اشتدت حالتهم المرضية والشباب يتعاركون، كما أن

باقي التفاصيل الأخرى تجعلني أنظر إلى نتيجة الشهور والسنين ألف مرة حتى أتأكد فيما إذا كنا بالفعل في العام الذي تذكرونه وهو ١٧٦٨م أم أننا في عام ١٥٠٠م أو ١٦٠٠م على أقصى افتراض حواراتهم ترتبط بعاداتهم، وهنا لا يجري الحديث عن الأحداث التي نراها اليوم أو عن الناس الذين يحيون بل عن المناسبات التي مضت وعن الناس الذين كانوا. ووصل الأمر بي إلى الشك فيما إذا كان ما أرى هو من فعل ساحر حتى يصور لي الأجيال السابقة"(٨٣). هناك عادة تتمثل في القراءة السطحية، أي "التزحلق على ما هو أسود" طبقا لمقولة أورتيجا، ذلك أن هذه الرسالة التي كتبها كادالسو فُهِمت في أغلب الأحوال على أنها وصف لإسبانيا التي يراها، وبالتالي تم نسيان ما جاء في بداية الفقرة، حيث تقول **"المدينة التي أُوجد فيها الآن هي الوحيدة من بين مدن أخرى كثيرة رأيتها** والتي تشبه إسبانيا القديمة" أي أن ذلك عبارة عن **استثناء**، وليس تعميم الأمر على إسبانيا ١٧٦٨م. وعندما يتحدث عن الماضي أي عن "إسبانيا القديمة" يجب أن نتساءل عما يقصد من ذلك. يميز رجال عصر التنوير خلال القرن الثامن عشر بشكل قاطع بين القرنين السابقين: إذ يتوفرون على نظرة شديدة السلبية للقرن السابع عشر، الذي يبدو لهم أنه عصر انحطاط وعصر مثير للأسف، لكنهم يقدرون القرن السادس عشر وما قبله بحماس. يقول كادالسو: "أقسِّم الإسبان الذين يتحدثون بحماس عن ماضي الأمة القديمة إلى فئتين: الأولى هؤلاء الذين يرون أن الأقدمية تخص القرن السابق، والثانية هي التي بهذا الصوت ترى أنه قبل الماضي وما سبقه من قرون". "القرن الماضي لا يقدم لنا شيئا يمكن أن يروي ظمأنا. تبدو لي إسبانيا، ابتداء من نهاية عام ١٥٠٠، منزلًا كبيرًا كان عظيما ومتين البنيان، غير أنه أخذ يتهاوى على مدار القرون ويطمر الناس تحته" وبعد ذلك هناك رسم مطول ومؤسف كما أنه غير سليم بكل الأبعاد ثم ينتهي بالقول "من إذن يمكن أن يفرح لذلك القرن؟" ثم يضيف بعد ذلك "لكن من منا لا ينتشي إذا ما جرى الحديث عن القرن الماضي بالقول إن كل إسباني كان جنديا محترما؟ أي عن القرن الذي كانت فيه

(83) الرسالتان رقم LXXXV، و XLIII.

أسلحتنا تغزو الأمريكتين وجزر آسيا وترسو في أفريقيا وتقلق كل أوربا بجيوش صغيرة العدد وعظيمة بشجاعتها وموجودة في كل من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وفلاندس وتنتشر في البحار فرقها العسكرية وسفنها الحربية والغاليونات والسفن، إنه حديث عن القرن الذي قامت فيه أكاديمية سلمنقة بإعداد أول ورق بين جامعات الدنيا، أي عن القرن الذي كانت لغتنا هي لغة الخطاب بين جميع علماء ونبلاء أوربا. ومن يستطيع أن يرفع صوته بالنقد الذي يخلط بين عصرين مختلفين بشكل كبير حيث تبدو الأمة فيها وكأنها شعبان مختلفان؟ هل هناك خطأ عند متوسطي الإدراك في أن ثلث الإسبان كانوا ضد تونس وعلى رأسهم الملك كارلوس الأول مصحوبا بحرس السواطير لكارلوس الثاني؟ في الجمع بين جارثيلاسو وبياميديانا؟ أو بين Al Brocense وأي من علماء الإنسانيات في عصر فيليبي الرابع؟ أو بين السيد خوان دي النمسا أخو فيليبي الثاني والسيد خوان دي النمسا ابن فيليبي الرابع؟»[84]

من الواضح عدم الحيادية، التي حملت كادالسو إلى البحث عن أسانيد له في أقاصي الفترة محلّ النظر، وخاصة من عصر كارلوس الأول حتى كارلوس الثاني، ولم يتحدث عن الشخصيات الكبرى خلال النصف الأول من القرن السابع عشر: ثربانتس ولوبي دي بيجا وكيبيدو وسابدرا فاخاردو وبيلانكيث وألونسوكانو وثورباران وموريو وسبينولا وتيرسو وكالديرون. هذا التقليل من شأن القرن السابع عشر والإعجاب بالقرن السادس عشر هو أمر شائع خلال القرن الثامن عشر، حيث يوطد هذا القرن من وضعه أمام العصر السابق حيث يريد القطيعة معه ويستند على القرن السابق عليه.

إذا ما قورنت إسبانيا في عصر أسرة البوربون بإسبانيا في عصر الأسرة النمساوية لاتضح أنها أقل درامية وحركة وتقلبا. وهي سلمية بما لا يدع مجالا للشك أو المقارنة حتى في أثناء الحروب التي دارت خلال القرن الثامن عشر والتي لم تكن قليلة، ما عدا فترة حكم فرناندو الرابع، حيث كان تأثيرها أقل بكثير على الأمة: كانت حروبا بحرية في

(84) الرسالة رقم XLIV.

أغلبها كما أن مسارح العمليات فيها كانت أمريكية في الأغلب الأعم، وكانت الأخبار عنها تصل ببطء وكل فترة. غير أنها تبرز أن إسبانيا لم تكن فقط مجرد أمة في أوربا بل هي المملكة الأطلنطية مترامية الأطراف والتي كانت نسخة من الغرب بالمعنى الذي لهذه الكلمة عندنا. هناك محاولات قليلة للكتابة تاريخ الممالك الأمريكية منها ما نجده في حالة البيرو حيث سطّر تاريخها أنطونيو دي أيُّوَا في صورة ملحق لكتاب مهم عنوانه "**سرد تاريخي للرحلة إلى أمريكا الجنوبية**"، الذي ألفه اثنان من القادة المشهورين للفرقاطة التابعة للبحرية الملكية، وهما السيد/ خورخي خوان، والسيد أنطونيو دي أيوّا (مدريد ١٧٤٨) وهي وثيقة من الطراز الأول كتبها رجلان من أصحاب القدرات العالية والثقافة، الأمر الذي يلقي الضوء على الكثير من الجوانب المتعلقة بأمريكا الإسبانية. يتولى أيُوا إعداد مختصر تاريخي يتعلق بأصول الإنك Incas* وسلسلة حكامهم، إضافة إلى حكام آخرين في البيرو". وابتداء من "مانكو كاباك" أو "الإنك المؤسس لهذه الإمبراطوية – الإنك – وحتى عهد السيد/ فرناندو الرابع بهذا الاسم، أي ملك إسبانيا إضافة إلى اثنتين ملكا للبيرو، بمعنى أنه يقوم بوضع تتابع الحكام بشكل مستمر سواء كانوا من الإنك أو الملوك الإسبان، مع الإشارة إلى نواب الملوك في كل مملكة، ثم يقوم برسم التاريخ المتسق لبلد هو بيرو رغم أنه بلد انتقل من عاهل إلى عاهل آخر. ولنقل أنه انتقل إلى أسرة حاكمة أخرى وكأن الأمر عبارة عن عملية تعاقب، من النمساويين إلى البوربون، ثم يضيف لوحة جميلة تضم صور الاثنين وعشرين ملكا لبيرو وهي صور متخيّلة. ولا شك أن تاريخ هذا المكان موجز للغاية لكنه الأصح وهو الذي يجب أن ينسحب على جميع أنحاء أمريكا الإسبانية إذا ما أُريد فهم تاريخها ابتداء من ماضيها خلال ما قبل تاريخ الاكتشاف وحتى اليوم. وغير ذلك ليس إلا ضربا من الخيال الموجّه لإحداث خلط في الأمور بشكل دائم.

---

* هي واحدة من الحضارات التي كانت في أمريكا اللاتينية وكانت تشغل رقعة جغرافية بها اليوم مجموعة من الدول وهي: بيرو وإكوادور وبوليفيا وشمال شيلي والشمال الشرقي للأرجنتين. نشأت هذه الحضارة خلال القرن العاشر الميلادي.(المترجم)

غير أن ما يهمني أن أبرزه هنا هو أن المملكة الإسبانية بكاملها، أي في أوربا وأمريكا، كانت تعني خلال القرن الثامن عشر سيطرة ما هو داخل التاريخ intrahistoria. وعندما انتهت حرب الاستخلاف، هدأت الأمور، ولم تقع أحداث كثيرة وأخذت البلاد تستعيد الإيقاع وتبرز، ليس الأمر "تقوقعا" مثلما كان عليه الحال في منتصف القرن السابق، بل كان العكس، فقد أصبحت إسبانيا على اتصال أكثر كثافة وتواترا مع باقي أوربا. الأمر إذن هو أنها أخذت تعنى بنفسها على طريقة ما نصح به جانيبت* في نهاية القرن التاسع عشر في كتابه idearium español (منظومة التفكير الإسبانية)، فالحياة العامة تخلي الطريق أمام الحياة الخاصة وتزداد درجة التموقع instalación، كان يمكن لإسبانيا أن تقول مثلما قال القديس خوان دي لا كروث "بيتي هادئ وساكن". الأمر هو ما الذي فعلته وما الذي كان يمكن أن تفعله ابتداء من هذا الهدوء.

الإسبانيات Las Españas:

هناك القليل من الكتب التي تقدّم فكرة أكثر وضوحا عما كان عليه الواقع الإسباني خلال القرن الثامن عشر أكثر من "سرد تاريخي للرحلة إلى أمريكا الجنوبية" لخورخي خوان وأنطونيو دي أيوا[85] كان كلاهما شخصين غير عاديين وهم من الأقلية المستنيرة في عصرهما: لديهما الكثير من المعرفة العلمية والفضول المعرفي والأمانة ووطنية إسبانية وأوربية ووعي بالعصر الذي يعيشان فيه، كما حظيا بتقدير معاصريهما ولم يقتصر ذلك على إسبانيا بل في أوربا والأراضي الأمريكية هناك صورة لهما مهمة كانت لهما خلال عصرهما مثلما يتضح ذلك في الكتاب كثير النفع وقليل الانتشار، الذي ألفه خوان سيمبير إي جوارينوس: مقال حول مكتبة إسبانية عن أفضل الكُتّاب خلال عصر الملك كارلوس

---

* هو أنخل جانيبت إي جارثيا (١٨٦٥ – ١٨٩٨) كاتب مقال ودبلوماسي أسباني. ولد في غرناطة.(المترجم)

(85) هناك طبعة رائعة مصورة من الطبعة الأولى. المؤسسة الجامعية الإسبانية – مدريد ١٩٧٨.

الثالث[86]. أما الجزء الذي يهمنا في هذا المقام، وهو التاريخي والوصفي، فقد كان العمل الرئيسي لأنطونيو أُيُوا، بينما وقع الجانب العلمي أساسا على عاتق خورخي خوان.

قام البحّاران بالتجوال في أمريكا الجنوبية، لم يكونا مجرد رحالة بل كانا دارسين يعنيان بكل شيء (بما في ذلك المشاكل الخطيرة وأخطاء الحكومة والمخاطر التي سيعرضانها على السلطات الإسبانية في **"الأخبار السرية لأمريكا"** والذي نشر لأول مرة في لندن عام ١٨٢٦م، وكان الهدف منه مناهضة الإسبان، بعد استقلال أمريكا الإسبانية القاريّة). الأمر المهم بالنسبة لقارئ اليوم هو الانطباع المزدوج الذي يتمثل في **مواصلة البقاء في إسبانيا** والقيام بزيارة بلاد **مختلفة وبعيدة**. وعلى ذلك فإن "الرؤية الضعيفة" لأمريكا التي ألححت عليها في موضع سابق من هذا الكتاب أخذت تتلاشى في هذا الكتاب المخصص لها. يصف أنطونيو دوي أُيُوا **بلادا** غريبة ولكن بعين مؤرخ وجغرافي ويكاد يصل إلى عالم اجتماع، لكنه يجد في هذه الدول هياكل حكومة وإدارة وكنيسة مثل الذي عليه الحال في إسبانيا، أنها العادات التي تشبه كثيرا تلك التي توجد بين الإسبان ونسلهم لكن يشارك فيها المولّدون والهنود والسود بدرجات مختلفة. يرى المؤلف مجتمعات متراكبة ليست "إسبانية" لكنها هسبانية بما لا يدع مجالا للشك. يسافر إلى مناطق مختلفة في بيته.

تبرز عملية وصف المدن الأمريكية – قرطاجنة الهند، وبورتوبولو، وبنما، وجواياكيل، وكيتو، وليما، وتروخيّو، وكوتوكو، وأريكيبا، وبوينوس أيريس وكونثبثيون، وسانتياجو، وبالباراييسو – ما كان عليه التطور الحضري في القطاع الإسباني في العالم الجديد، وقد جاء الوصف في صيغة علمية معتدلة (كما أنه لا يضم المدن الرئيسية أي مدن "إسبانيا الجديدة"). و ضمن ما ذكره نجد كل من قرطاجنة وكيتو وليما وكوثكو وأريكيبا حيث عاشت ازدهارا معماريا لم تشهده مدن أمريكا الشمالية طوال ذلك القرن. نخرج من

(86) الطبعة المصورة، دار نشر جريدوس، مدريد ١٩٦٩م.

وصف مدينة ليما قبل الزلزال الذي وقع عام ١٧٤٦م وكذا البلاط الخاص بنائب الملك بانطباع حي وأن الأمر يتعلق **بأكثر من إسبانيا أخرى**، أي بممالك حقيقية تقوم بإعادة إنتاج هياكل الملكية الإسبانية، أي المجتمع المطعَّم الذي يحكم الشعوب الأصلية في مسار أسبنة شديد الشبه بعملية الرومنة التي كانت على زمن آخر.

يمكن استكمال هذا الشاهد الذي قدمه أُيُوا بشهادة أجنبي لا حق عليه ومن مستوى رفيع، وهو شاهد كتب عشية الاستقلال تقريبا ويتعلق بالمكسيك: **مقال سياسي حول مملكة إسبانيا الجديدة**، كاتبه هو أليخاندرو هومبولت، من العارفين بعمق لأمريكا الجنوبية أيضًا، طاف بالمكسيك من ١٨٠٣ حتى ١٨٠٤م[87]. غير أن الأمر المهم هو أن هذا المؤلف يرى المكسيك على أنها **بلد، ومملكة ووطن** المكسيكيين ويرى أنها في الوقت ذاته جزء من الأمة الإسبانية الممتدة على جانبي الكرة الأرضية. ورد في إهداء هذا الكتاب ما يلي: "إلى صاحب الجلالة الملك الكاثوليكي كارلوس الرابع ملك إسبانيا والهند". ويقول إن هذا الكتاب "يحاول رسم لوحة لمملكة كبيرة حيث إن ازدهارها يا صاحب الجلالة من الأمور التي تروق لكم" ويأمل أن "يحث سكان إسبانيا الجديدة على دراسة أحوال وطنهم". "لقد أقمت في هذه المملكة الشاسعة لمدة عام". كما يتحدث عن دراسة "إحصائية مملكة المكسيك" والبحث عن "الأسباب التي أحدثت أكبر تأثير في تطور السكان والصناعة المحلية".

ويختتم هومبولت حديثه بعد النظر إلى ضخامة الأملاك الإسبانية في أمريكا بقوله: "وعلى هذا فإن اللغة الإسبانية قد انتشرت في مساحة تزيد على ١٩٠٠ فرسخ طولا. وتحت إشراف الإدارة الحكيمة للكونت دي فلوريدا بلانكا ثم إقرار اتصال منتظم بالبريد من باراجواي حتى الشاطئ الشمالي الغربي لأمريكا الشمالية. وهنا يمكن لراهب في مهمة

---

(87) نشر بالفرنسية: Essai Politique sur la Royaume de la Nouvelle-Espagne باريس (١٨٠٧ - ١٨١١). أشير هنا إلى طبعة بورُوا - المكسيك ١٩٧٣م.

تبشيرية للهنود الجواراني guaranís أن يراسل مبشرا آخر يعيش في المكسيك الجديدة أو في البلاد المجاورة وحتى رأس Mendocino، دون أن تبتعد خطاباته كثيرا عن قارة أمريكا الإسبانية. أملاك ملك إسبانيا في أمريكا أوسع بكثير من الأقاليم الشاسعة التي كانت لبريطانيا العظمى وأملاك تركيا في آسيا. تنقسم إلى تسع حكومات كبرى حيث يمكن النظر إليها على أنها مستقلة الواحدة عن الأخرى"(٨٨).

وبعد ذلك يقول هومبولت: "طبقا للقوانين الإسبانية القديمة فإن كل نيابة مملكة يتم حكمها لا على أنها موروث للتاج بل على أنها إقليم خاص بذاته وبعيد عن المدينة. توجد في المدن الإسبانية جميع الهيئات التي تمثل في مجملها حكومة أوربية، ويمكن مقارنة تلك الممالك بنظام دول كونفدرالية إذا لم يكن المستعمرون لم يُحْرموا من الكثير من الحقوق المهمة في علاقاتهم مع العالم القديم...الأغلبية العظمى من هذه الأقاليم (التي لم يكن الإسبان يطلقون عليها مسمى مستعمرات بل ممالك) لم تكن ترسل أي نوع من الأموال السائلة إلى الخزانة العامة"(٨٩).

يقارن هومبولت المكسيك بالولايات المتحدة الدولة الشابة، هذا البلد الآخر لم يكن يحظى بكرم الطبيعة كثيرا، لكن سكانه "كانوا يزيدون زيادة سريعة للغاية. ثم يضيف أنه لا يفهم كيف أن سكان المكسيك، الذي يبلغ تعدادهم مليونا نسمة ونصف المليون، هم من السكان الأصليين. هؤلاء الهنود الذين تَوَحّشوا بسبب طغيان الملوك القدامى من الأثتيك وبسبب المتاعب التي سببها لهم الغزاة الأُوَل تحميهم القوانين الإسبانية وهي قوانين حكيمة وإنسانية في عمومها إلا أنهم مع هذا لا يحظون على أرض الواقع إلا بالقليل من هذه الحماية بسبب بُعد المسافة عن السلطة العليا. هناك ميزة ملحوظة لمملكة إسبانيا الجديدة على الولايات المتحدة وهي أن عدد العبيد، الأفارقة ومن ذوي السلالة المختلطة، لا يكاد يكون موجودا"(٩٠).

---

(88) مقال، ص ٣-٤.

(89) المصدر نفسه ص ٥٣٩.

(90) المصدر نفسه ص ٦.

يفحص أيضًا وضع الهنود وخاصة الفلاحين منهم، ويشير إلى أنه يلاحظ نوعا من عدم التساوي في كل مكان، وبناء على ذلك يمكن أن يكون هناك "تقدم ملحوظ في جزء من الأمة دون أن يعني ذلك أن الطبقات الأخرى في حالة جيدة". "أغلب شمال أوربا – يضيف المؤلف – يؤكد لنا هذه التجربة الحزينة: ففيه توجد بلاد يعيش فيها المزارع في حالة الحضيض ويئن فيه على مدار ثلاثة أو أربعة قرون، رغم ما عليه البلاد من حالة تحضَّر تعيشها الطبقات العليا في المجتمع. هل نجد أن حالة الهنود أفضل من أولئك إذا ما قورنوا بالمزارعين في كورلانديا Curlandia وروسيا وجزء كبير من ألمانيا الشمالية... وعندما قام الإسبان بغزو المكسيك وجدوا الشعب في حالة التدهور هذه حيث كانت حالة لصيقة بالاستبداد والإقطاع في كل مكان.... وأدى الغزو إلى المزيد من تدهور حالة البسطاء من الناس.... لكن في القرن الثامن عشر أخذت تتحسن أحوالهم يوما بعد يوم... نظرت نيابات الملوك وكذلك المجالس بعناية إلى مصالح الهنود وشيئا فشيئا أخذت تزداد مساحات الحرية لديهم ووصل الأمر إلى حالة الرفاهية في بعض المحافظات. وقد اتخذ الملك كارلوس الثالث إجراءات حكيمة وحازمة أسهمت بشكل كبير في هذا المقام لدرجة أنه يمكن أن يطلق عليه راعي السكان الأصليين.... واتسمت عملية انتخاب الأشخاص الذين أولاهم البلاط مهمة المناصب المهمة مثل حكام المحافظات أو النُظّار بأنها كانت ذات نهاية سعيدة. فمن بين الاثني عشر فردًا الذين كانوا يحكمون البلد، عام ١٨٠٤م لم يكن هناك واحد منهم اتهمه الجمهور بالفساد أو سوء الخلق"[٩١].

ويجد هومبولت أن المكسيك بلد المتناقضات وعدم المساواة، فهناك مدن كبرى قريبة من بعضها، حيث يوجد سهل مركزي مليء بالقوى وأماكن صغرى مثل الأجزاء الأكثر كثافة في كومبارديا. وفي أماكن أخرى هناك أراض قاحلة حيث لا يوجد إلا عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصًا على مدار فرسخ مربع. "توجد في العاصمة وكثير من المدن

---

(91) المصدر نفسه ص ٦٦-٦٨.

الأخرى منشآت علمية يمكن مقارنتها بأوربا. هناك عمارة المباني العامة والخاصة وهناك جمال أمتعة المرأة والمناخ العام للمجتمع، كل شيء ينبئ عن عناية فائقة تتناقض بشكل صارخ مع العري والجهل والجلافة التي عليها السواد populacho من الشعب. هذا النوع من الهوة الشاسعة بين الثروات ملحوظ ليس فقط في سلالة البيض عن (أي الأوربيين والكريّو) بل يتجلى أيضًا بين السكان الأصليين"[92].

وعندما يتحدث هومبولت عن مدينة المكسيك نجد أن مستوى مقارناته يسهم في توضيح الصورة. لا بدّ أن "المكسيك تعد واحدة من أجمل المدن الجديدة التي أسسها الأوربيون في كلا شطري الكرة....فهذا المبنى المخصص لمدرسة المناجم، ساهم في بنائه أغنى الناس في البلاد حيث قدموا أكثر من ستمائة ألف بيزو، يمكن أن يكون أحد المباني التي تزدان بها ميادين باريس ولندن....فكل رحّالة يمر يتعجب، وعن حق، بالمبنى وسط الميدان الكبير في مواجهة الكاتدرائية وقصر نيابة الملك، وهو مقر ضخم مبلط ببلاط من الرخام السماقي Pórfido وأبوابه من حديد مطعم، بشكل جذاب، بالبرونز وفي داخله هناك التمثال الرائع لكارلوس الرابع، وقد وضع على قاعدة من الرخام المكسيكي... رأيت في غضون وقت قصير كل من ليما والمكسيك وفيلادلفيا وواشنطن وباريس وروما ونابولي وأكبر المدن الألمانية.... وفي إطار المقارنات التي يمكن أن تكون نتائجها في غير مصلحة مدينة المكسيك عليّ أن اعترف بما تركته هذه المدينة عندي من إحساس بعظمتها، وأنسب هذا الإحساس إلى الطابع العظيم الذي عليه موقعها وطبيعة الأماكن المحيطة بها"[93].

وابتداء من استقلال أمريكا كان تشويه الواقع على يد هؤلاء وأولئك قد بلغ حدا غير مسبوق، الأمر الذي كان نوعا من الهوس وكانت له نتائج خطيرة على إسبانيا وأكثر من ذلك على أمريكا الإسبانية. وهذا الذي يطلق عليه عادة **حالة خطأ** هو الموقف

---

(92) المصدر نفسه ص ٦٩.

(93) المصدر نفسه ص ١١٨-١١٩.

"العادي" في جميع أرجاء العالم الهسباني على مدار ما يزيد على قرن ونصف بكثير. كما انتقل بشكل ملموس إلى جميع الشعوب التي كان عليها أن تضم في صورتها العامة في العالم ذلك الجزء الخاص بما هو إسباني وهنا من الصعب قياس درجة الخلل التي سببها هذا على مختلف الأصعدة.

لم تكن الغاية من ذكر هذه المراجع التي أوردتها – والتي يمكن أن أسوق أضعافها من الكتب المعتبرة وغيرها – إلا تبيان الواقع الذي أُطلق عليه **الإسبانيات** وهو تغيير قد أصاب الحقيقة، وله هذه الصفة لأنه لا يقتصر على الإشارة إلى طابع **بلدان** والهسبان الذين كانت لهم **ممالك** أمريكية – إلا أن الاسم الأكثر ملاءمة هو **نيابة الملك** على أساس أن من يديرها هم نواب الملك باسم **الملك المشترك** – بل إن الاسم يضم أيضًا الطابع الخاص بإسبانيا حيث كانت **مقسمة إلى** أجزاء (مفتتة)، وهذا هو بعد القصور الجوهري أي أن إسبانيا **هي جزء من الإسبانيات**. أما غير ذلك فهو خطأ، وعلى الدرجة نفسها. وعلى نفس الدرجة التي يتم فيها الحفاظ على واقع العالم الهسباني – من خلال بعد آخر وبُنى أخرى – فإن هذا التفتت لا زال خطأ يحول دون فهم المكونات الأوربية والأمريكية والصورة الإجمالية على وجه الخصوص. كانت الأمور على هذا النحو منذ القرن السادس عشر، وعندما بلغت ذروتها على جميع الأصعدة كان ذلك خلال القرن الثامن عشر[٩٤].

القصور الذاتي والنقد:

دافعت منذ سنوات طويلة عن المجتمع الإسباني خلال القرن الثامن عشر وقلت إنه كان "قصورًا ذاتيا ضخما تعتوره تيارات نقدية". كان هذان العنصران حاسمين في علاقة ليست واضحة وعليّ هنا أن أقوم بذلك. فالطابع الذي يدخل في داخل التاريخ

---

(94) يمكن الاطلاع على كتاب صدر حديثا لماكسيمو إتشبكوبار، نهاية العالم الجديد، (بونيوس أيرس ١٩٨٤م). فالفصل الأول والثاني فيه مخصصان في الأساس لهومبولت في إشارة إلى الرسائل الخاصة التي تكمل المقال، وإلى السيد لوكاس ألمان مؤرخ المكسيك. الكتاب عبارة عن جهد ذكي لإيضاح تاريخ وحاضر أمريكا المتحدثة بالإسبانية.

intrahistorico الذي أشرت إليه، واستمرار "إسبانيا القديمة" على مدار حكم أسرة البوربون وصلابة الكثير من البنى التقليدية ومقاومة الإصلاحات هي أمور واضحة للعيان. لكن في الوقت ذاته هناك حسّ نقدي قوي ورغبة في التجديد حتى لدى هذه الشخصيات التي تنضم بعامة إلى هذا العالم.

في عام ١٧٤٤م نجد فييخو، في الفصل السادس عشر من كتابه **"رسائل ضليعة وغريبة"** يتساءل عن "أسباب التخلف الذي تعانيه إسبانيا في باب العلوم الطبيعية". إنه بحث دقيق عن الأسباب التي أدت إلى تخلف عام في الفكر حيث يعترف بها فييخو ويتألم لها ويريد أن يتجاوزها. ثم يقوم بلهجة فيها ألم وشغف ونوع من الفَكَه وبعض الأمل بذكر ستة أسباب رئيسية يمكننا أن نلخصها فيما يلي:

١- "قصور الرؤية عند بعض أساتذتنا" الذين "يفكرون في أنه لا يجب أن نعرف إلا هذا القليل الذي يعرفونه هم". يفكر فييخو في رجال اللاهوت الذين يجهلون الفلسفة والعلم الحديث، وأنهم لا يعرفون شيئا عن الفلسفة الديكارتية إلا اسمها "الفلسفة الديكارتية".

٢- "القلق الذي يسود إسبانيا ضد أي تجديد". "هو تجديد وليس حقيقة". وصل الأمر في هذا المقام إلى ترديد هذه العبارات في إسبانيا خلال القرن السابق. ومن الواضح أن فييخو لم يعرف أن هناك عبارات مختلفة قد قيلت قبل ذلك. وهنا نذكر مقالا، فقد كتب بدرو مارتر دي أنجليريا، في الثلث الأول من القرن السادس عشر، شيئا علقت عليه منذ قليل[٩٥]: "سوف يذهب Ayllón *، وسوف يتبعونه لأن هذه الأمة الإسبانية شديدة العشق لما هو جديد، حيث يمكن النداء عليها من أجل ذلك من خلال الإشارة أو صفارة فيأتون طيرانا، هو إنسان يترك ما هو مؤكد ويبني على الأمل في

(95) "الإسبان والتجديد" (صحيفة ABC، 21/11/1984).

* هو لوكاس باثكيث دي أيون (١٤٧٥؟-١٥٢٦) مستكشف إسباني من أسرة عريقة. (المترجم)

الوصول إلى أعلى الدرجات وبالتالي يدخل في باب ما ليس مضمونا...". وبهذه الروح التي عليها فييخو يعود من خلال أعراف ما هو جديد، مطالبا بحقه في أن يتم الاستماع إليه وأن يتم سبر أغواره وألا تتم إدانته بناء على الشبهات، ويذكر، عرضا، في هذه المقام أن كل ما هو قديم وموثوق منه كان جديدا ذات يوم دون أن يؤثر ذلك على أنه حقيقة. كان من الممكن لفييخو أن يتبنّى عبارة كانت نتاج خطأ إملائي باللغة اللاتينية جاء على قطعة من الزليج أملكها كانت قبل ذلك في كنيسة سانتا ليوكاديا بطليطلة، تقول: Ora pro novis "تضرّع من أجل الأشياء الجديدة".

٣- "المفهوم الخاطئ المتمثل في أن كل شيء يقدمه لنا الفلاسفة الجدد ينحصر في طرائف لا جدوى من ورائها" بمعنى أن النفعية المتأصلة التي عليها العلم الإسباني وهو علم تطبيقي دائما، الأمر الذي كان سببا في أنه لم يحلق عاليا وكان غير قادر على إبداع تقنية عليا وغير قادر على فعل شيء مفيد.

٤- هناك ربط الفلسفة والعلم الحديث بديكارت، وتجاهل ما عدا ذلك.

٥- "هناك توجّس ورع، نعم، لكنه غير رصين وغير قائم على أساس سليم: إنه الخوف، الذي لا أساس له، من أن النظريات الجديدة في باب الفلسفة، يمكن أن تكون مثار أذى على الدين. وبكلمات أخرى – لا يتجنبها فييخو – "هذا الخوف الديني" أي الخوف من أن يعتاد الإسبان على "الحرية التي عليها الأجانب". يرى فييخو أن فلسفة وعلم الهراطقة ليست أقل جودة عند الكاثوليك، طالما كانت فلسفة جيدة وعلما طيبا بمعنى أنها لا تتعارض مع المعتقد الحقيقي، ومن أمثلة ذلك إسهام نيوتن. وبعد ذلك – وعن قصد – يذكر بوجود المحكمة المقدسة التي تسهر على حماية العقيدة دون أن تفتح الباب أمام النظريات، ثم يضيف قائلا: "أقول إنه يمكن أن يكون هناك علاج تحفظي ضد الخطأ الضار بإغلاق الباب أمام أي نظرية جديدة. لكنه علاج شديد العنف لشيء غير ضروري. إنه يضع الروح في عملية استعباد

شديدة القسوة، وهو ربط العقل البشري بسلسلة قصيرة جدا وهو وضع فهم برئ في سجن ضيق والهدف هو الحيلولة دون عدوى، بعيدة الاحتمال، يمكن أن تحدث في المستقبل".

٦- "المباهاة (ربما أمكن أن تسمى باسم أسوأ) سواء كانت الشخصية أو الوطنية أو القطاعية". إنه يتحدث عن الذين يقفون ضد الفلسفة الجديدة والأدب، ثم يضيف هذه الكلمات الفطنة والقاطعة: "تسمع منهم نقدا لها وقدحا إما لأنها غير مجدية وإما لأنها خطيرة. ليس هذا الذي يحدث هناك في الداخل. إنهم لا يزدرونها أو يملون منها وإنما يحسدونها. ذلك الأدب لا يعجبهم بل الموضوع الذي يتجلى فيه" هذا الحقد أحيانا ما يكون شخصيا، وأحيانا أخرى قوميا "الضغينة ضد فرنسا"، وكان فييخو يسير على ما سار عليه باقي المفكرين الإسبان خلال القرن الثامن عشر، إذ لا يمكن له أن يتحمل محاولات "القومية المحلية"، وفي النهاية هناك حسد قطاع أو حزب من الناس. ثم تعود هذه الأحقاد لتكون بمثابة أحقاد شخصية. "**وهنا يدخل أمر الهواء المُعدْي القادم من الشمال** – حسب مقولة فكهة لفييخو – وهو تعبير ذاع وانتشر بين الكتّاب المتحذلقين.

يتحدث كادالسو بألم وانفعال مكتوم عن الضغوط الاجتماعية على التجديد، وعلى المصير الشائك أو المأساوي الذي يجثم على كاهل الكتّاب والمفكرين، وعن عدم الثقة التي يتوفر عليها المجتمع الإسباني الجامد والتي من خلالها ينظر إلى الأقليات من المبدعين الإسبان: "فلم تكد شبه جزيرة أيبيريا تقدم رجلا تفوق على الآخرين عندما أمطرت عليه تعاسات حتى إغراقه.... وعندما أرى أن السيد فرانثيسكو دي كيبدو، أحد العقليات الفذة التي خلقها الله، والذي ولد في سعة من العيش والرغد، فوجد نفسه في سجن حيث أصيب بالغرغرينا من جراء الجروح التي أصابته بها الجداجد، أجدني أميل إلى إحراق أي كتب تقع عليها عيناي. وأصاب بالذهول عندما أتأمل بما له من طبع متدين وبما يقوم به في الجامعة ثم بعد ذلك يعيش شظف العيش في سجن آخر وهو سجن يخشاه المسيحيون كما يخشون منصة

الإعدام. وهذا الأذى حقيقي ومؤكدة نتائجه ومنظره رهيب لدرجة أن الإسباني الذي ينشر أعماله اليوم يكتبها بحرص شديد ويرتعد عندما يحين وطباعته.... ومن هنا فإن كثيرا من الناس الذين يمكن أن ينتفع الوطن بأعمالهم يعجبونها.... وعن آخرين يمكنني التأكيد أنه مع كل ورقة ينشرونها فإنهم قد حجبوا تسعة وتسعين أخرى"[96].

لكنه يتحدث في الوقت ذاته عن أطقم المشاة الإسبانية وعن الشبان النبلاء الذين يشعرون بالفخر لأنهم جنود عاديون ويقومون بأداء الخدمة لمدة اثني عشر عاما أو أربعة عشر، دون مقابل، إذ ينفقون من مالهم الخاص حتى يصبحوا ضباطا وذلك ليفوزوا بشرف خدمة الملك[97]. كما أن أمله كبير في التقدم في الحياة الثقافية: لنعمل نحن في العلوم الوضعية حتى يصفنا الأجانب بالبربر: ليقم شبابنا بالأخذ بأسباب التقدم ما أمكنهم، وليحاولوا أن يقدموا أعمالا للجمهور تتعلق بمواد مفيدة، وأن يترك الطاعنون في السن ليموتوا كما عاشوا، وعندما يصل الفتية اليوم إلى سن النضج يمكن لهم أن يعلموا الناس ما يدرسونه اليوم خلسة. وخلال عامين سيكون قد تم نقل النظام العلمي لإسبانيا بشكل سلسل ودون تسرّع. وعندئذ سوف ترى الأكاديميات الأجنبية فيما إذا كانت على حق في معاملتنا بازدراء.... وشيئا فشيئا أخذنا نسمع أصواتا أخرى ونقرأ كتبا مختلفة، وإذا ما كنا قد فزعنا منها في البداية فإنها أعجبتنا، بعد ذلك نبدأ في قراءتها قراءة متأنية وكما شهدنا فقد وجدنا فيها آلاف الحقائق لا تقف ضد الدين في شيء أو ضد الوطن لكنها ضد القلق والركون، وأخذنا نطرد ونوقف هذه الدفاتر وتلك والكتب اللاهوتية حتى إنه لم يتبق أي شيء.... لننس كل ما مضى ولننظر إلى المستقبل ابتداء من اليوم، على افتراض أن شبه الجزيرة قد غرقت في منتصف القرن السابع عشر ثم عادت للظهور من جديد في نهاية القرن الثامن عشر[98].

---

(96) رسائل مغربية LXXXIII.

(97) المصدر نفسه XLV.

(98) المصدر نفسه LXXVIII.

هكذا كان يكتب كادالسو حتى عام ١٧٦٨م. يشير بوضوح إلى مشروع إصلاح الجامعات الذي قدمه أولابيدي. وعلى مدار عشرين عاما، ومع بعض العثرات، أي حتى وفاة الملك كارلوس الثالث عام ١٧٨٨م أخذت هذه الآمال تتأكد أكثر فأكثر: وظل كادالسو على هذا الأمل حتى وفاته أمام جبل طارق عام ١٧٨٢م. ويظل كذلك أنطونيو كامباني، والأب خوان أندرس وخوبيانوس في المقام الأول. ولم يُخْبُ الأمل (رغم العثرات الكبيرة) في عصر كارلوس الرابع وخاصة في أمريكا وهذا ما توضحه بجلاء شهادة هومبولت التي ذكرتها قبل ذلك. ومرة أخرى يجب النظر إلى "إسبانيات" Españas في إجماليها إذا لم تكن هناك رغبة في خلط الأمور.

هذا القصور الذاتي الذي يثير حنق النقاد، إما يزداد بالنسبة لآخرين ممن هم من ذوي النوايا غير الحسنة. كان رجالات عصر التنوير الإسباني يشعرون بالمقاومة لكنهم لم يدركوا الدور الإيجابي الذي كان لهم وكيف أنهم في جوهر الأمر جعلوا من الإصلاحات المرادة أمرا ممكنا. وبالنسبة للقاعدة الصلبة **لإسبانيا القديمة** كان من الممكن لديهم أن يقوموا بالتجديدات الضرورية والمرغوب فيها، إلا أن ذلك هو بالتحديد ما لم يكن يريده آخرون الأمر الذي أسهم في حدوث موجة جديدة وغريبة من الأسطورة السوداء، التي أخذت تتبدّى بشكل غير منتظر مع عدم وجود داع لها، في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا غاية في الاعتدال والتسامح – أكثر من باقي أوربا – وعندما كانت تعيش في وئام، سواء في شبه الجزيرة أو أمريكا، وعندما لم تكن عدوانية ولا تريد القيام بالغزو أو احتلال أي مكان، بل ركزت اهتمامها وقدراتها في القيام بالمهمة الخاصة بإعادة بنائها واستعادة الزمن الضائع ونسيان العزلة التي عاشتها في الماضي وأن تصبح على مستوى العصر[٩٩].

---

(99) انظر في المقام الأول "إسبانيا الممكنة في ظل حكم كارلوس الثالث". وكذا المقالات التي سبق الإشارة إليها حول الأب إيسلا وخُوبيّانوس وموراتين في (الأسبان).

الفصل الثالث والعشرون

الأزمة الثورية في أوربا

القوة الاجتماعية للأفكار:

كان الملمح الأساس للقرن الثامن عشر بالنسبة لأوربا زيادة مثيرة في القوة الاجتماعية للأفكار. فقد ظهر نوع جديد من المثقفين، وهو الذي سوف يسمونه فيلسوفًا، ثم بعد ذلك سوف يكون الرجل الموسوعي. هذا كله نسب إلى الأغلبية العظمى للدول الأوربية غير أنه في هذا المقام يجب الاعتراف بالسيطرة الفرنسية، فرجال عصر التنوير من الفرنسيين هم الذين يضبطون الإيقاع لأسباب مختلفة، فعادة ما يكتبون جيدا برشاقة وقوة، وبلغة تحولت إلى اللغة المشتركة للأقلية المثقفة بدلا من اللاتينية حيث بدأت حالة انحطاطها. كانت هناك أعمال ترجمة إلى اللغة الفرنسية من لغات أخرى ليكون لها انتشار عالمي، ومن أمثلة ذلك انتشار أعمال لوك Locke التي جاءت في الأساس عبر ترجمات بيير كوست، وهكذا الأمر في كثير من الحالات. وفي نهاية المطاف نشير إلى أن الفرنسيين كانوا يتوفرون على جهاز قوي للدعاية للأعمال الدورية والقواميس – وخاصة الموسوعة وطبعاتها المتوالية – وكذا لوجود باريس كمركز للجذب في جميع أنحاء أوربا، وكأنها "الميدان الكبير" الحقيقي الذي يلتقي فيه الجميع.

وفيما يتعلق بالأفكار نفسها فإن أبرزها مصدره القرن السابع عشر، وهذا ما رآه بوضوح ب. خوان أندرس، ويؤكده بول هازارد P. Hazard خلال القرن العشرين من خلال الكتب الرائعة التي قمت بترجمتها منذ خمسة وأربعين عاما: **أزمة الضمير الأوربي، والفكر الأوربي خلال القرن الثامن عشر**[100] يحمل أول هذه الكتب إشارة إلى الفترة التاريخية (١٦٨٠-١٧١٥)، يرى هازارد أن ذلك العصر شهد التحول الكبير فمعظم الأفكار التي من سمات القرن الثامن عشر جرت صياغتها قبل عام ١٧٠٠م.

الأمر الخطير أن هذا العصر شهد أيضًا بدء ما يسمى **باللامسئولية الثقافية** التي ستصبح من سمات القرن الثامن عشر وأنه ابتداء من ذلك لم يتم تجاوزها إلا بشكل جزئي مع وجود عثرات كثيرة. ويتخيّل المرء ما يعنيه اجتماع العنصرين: **القوة الاجتماعية واللامسئولية**. هذا التلاقي يفسر جزءا مهما من التاريخ الأوربي – وخاصة الغربي – خلال القرنين ونصف الأخيرين، وهذا وقت طويل للغاية.

هناك سيطرة لما هو سلبي على ما هو إيجابي، ليس هناك منح "لعائد الشك". يسير هذا الموقف بين جملتين، إحداهما ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر: يقول فونتنل Fontenelle: "إن شهادة من يعتقدون بشيء قائم ليست لها قوة لمساندتها، إلا أن شهادة من لا يؤمنون به لها قوة تدمير ذلك الشيء. فالذين يعتقدون يمكن ألا يكونوا قد تدربوا على الحجج حتى لا يؤمنوا، لكن ليس من الممكن أن يكون من لا يعتقدون غير مدرّبين على الحجج للاعتقاد". ويرى هيبوليت تين Hippolyte Taine أن "الإدراك هو نوع من الوهم الحقيقي" (La perception est une hallucination vrai). إنه موقف نقدي لا ينتقد نفسه وبالتالي سوف يكون من الضروري الوصول إلى كانط ليكون على هذا الموقف.

---

(100) ظهرت ترجمة الكتاب الثاني عام ١٩٤٦ قبل ظهور الطبعة الأصلية بالفرنسية: وقد قمت بذلك من خلال البروفة اللوحية التي أرسلها الناشرون الفرنسيون بناء على رجاء من المؤلف قبل وفاته بقليل.

عاشت المجتمعات الأوربية دائما – الأغلبية العظمى منها – باستثناء أقلية قليلة، بشكل أقوى، ذلك أن المعتقدات كانت أكثر أهمية بكثير من الأفكار وتجليها في الحياة الإنسانية. إلا أن المكان الذي كانت فيه الأفكار حاسمة، فإنهم يسيرون على هذا الإيقاع، أي أن ذلك شيء غير موثوق منه وعرضة للتحليل والنقاش ولا بدّ من وجود تبرير مستمر وتصحيح. وخلال القرن الثامن عشر فإن تلك القوة أو الفعالية التي كانت للأفكار أدت إلى أن يتم التعامل معها وكأنها ذات الشكل الأقوى، الأمر الذي يعني قلب حقيقة معناها. هناك نظام من الموارد الاجتماعية وآليات التعبير عن الرأي (كلها جديدة آنذاك) تجعل من الممكن تغيير الموقف. أضف إلى ذلك أن أغلب الأفكار المتداولة خلال ذلك القرن لم يبتكرها هؤلاء الذي يستخدمونها، كما فقدت قوتها والدقة التي كانت لها من لدن كل من ديكارت أو ليبنز Libniz أو نيوتن. اتخذت طابعا مثيرا للجدل ومشاكسا، وسوف تتحول إلى "قضية" دينية أو سياسية (أو توليفة مشتركة لكليهما)، وأصبحت تبتعد أكثر فأكثر عن الموقف النظري وعن البحث عن الحقيقة وصياغتها.

كان الضغط الناجم عن استخدام هذه الأفكار بهذه الطريقة عظيما، غير أن علينا أن نميز شيئا: أنها لا تقوم بتدمير المعتقدات كثيرا، بل تسهم في سرعة انحدارها ويُحَلُّ محلها **نظام عقدي آخر يتم تقديمه على أنه مجموعة من الأفكار**. هناك تكوين أقليات شديدة التنظيم ولها "رؤية تطبيقية un punto de aplicación" إذا ما كان من الجائز استخدام هذا التعبير الخاص بالميكانيكا وهي نقطة شديدة التحديد: لا ننسى أنها نقاط مُلهِمَة **للاستبداد خلال عصر التنوير**. معروفة طبيعة العلاقة القائمة بين جماعات التنوير والملوك وخاصة فيدريكو العظيم ملك بروسيا وكتالينا الثانية في روسيا. وكان تأثيرهم على الحكومات مهما، رغم أنهم أحيانا ما يواجهون صعوبات مع قوى اجتماعية أخرى. وهذه هي المرة الأولى في التاريخ الحديث – ربما كان ذلك في التاريخ الأوربي فقط – التي نجد فيها الصيت الثقافي مستخدما كمصدر للقوة. وعندما يتم التوصل إلى ذلك فإن الاستبداد السياسي يحظى بكل أنواع الاستلطاف، ذلك أنه يسمح بالعمل المباشر والفعّال في

المجتمع، غير أن هناك لحظة نجد فيها أن الرغبة في التحويل تتطلب نوعا من التسريع الثوري. ومن خلال الروح العقلانية يجري التفكير في أنه يجب إقامة مجتمع على أسس جديدة، ولا يكون ذلك، من خلال الإيقاع الرتيب للتاريخ بل طبقا للمبادئ، وأن ذلك التحول يجب أن يكون سريعا، أو مفاجئا، إذا ما أمكن، ونهائيا. هذا يفسر عملية الانتقال التي يمر بها المستنيرون بسهولة من الاستبدادية إلى الثورة.

الطرفان يتوافقان في رؤية التعددية والشمولية pluralidad في التاريخ على أنها لا عقلانية في حقيقة الأمر. فالرغبة الفردية إذا ما كانت تنويرية، بمعنى أنها تتصرف انطلاقا من مبادئ عقلانية – وهي مبادئ ساد الاتجاه في فهمها على أنها علمية أو رياضية إذا ما كان ذلك ممكنا – فإنها الأفضل والأكفأ في إمكانية تحقيق التغييرات المرادة. لكن نظرا لأن العقل يونيفرسال، وأنه هو الوحيد والصالح لكل زمان ولكل بلد فليس هناك مانع من نقل هذه القدرة على اتخاذ القرار إلى الأغلبية طالما أنها كانت جيدة التحليل والقيادة. وعندما أخذت فكرة التقدم تفتح الطريق أمامها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر (تورجوت، وكوندورست) أخذ يتحول إلى معتقد اجتماعي، وتم قبوله كشيء مؤكد وآلي، وأن العقلية الثورية سوف تكون أقوى في إطار معنى جديد لم يكن أبدا موجودا في "الثورات" في عصور سابقة، وسوف يسيطر ذلك على القرن التاسع عشر. حدث كل ذلك بشكل شبه متزامن في عدة بلدان، وفي أغلبها يمكن العثور على صياغات واضحة بشكل أو بآخر لهذه الأفكار. لكن قوتها الحقيقية الاجتماعية نجدها في فرنسا وهناك تلقت الأفكار قدرتها على الانتشار. لكن، إلى أي درجة يمكن تطبيق ذلك على إسبانيا؟

بزوغ الأسطورة السوداء من جديد:

يعتبر أول ظهور للأسطورة السوداء في بداية القرن السادس عشر أمرا مفهوما، وقد عملت على تبيان أصوله ودلالته، كما أن امتدادها في إطار القصور الذاتي يكمن في جوهرها نفسها ويفسر وجودها على زمن كيبدو أوسابدرا فاخاردو بعيدا عن الأحداث

(سواء كانت حقيقية أم زائفة) التي أدت إليها. إلا أن البزوغ العنيف لها في منتصف القرن الثامن عشر يصعب إيضاحه وبذلك يتطلب الأمر سبر أغواره بدقة.

زالت الأسرة النمساوية من الوجود وهي المناوئ لفرنسا، وأخذت أسرة البوربون تحكم إسبانيا، وهي أسرة ذات صلة قرابة بالملوك الفرنسيين، وارتبطت بهم من خلال تحالفات تكاد تكون دائمة، تخلصت إسبانيا من أملاكها في كل من فلاندس وإيطاليا وهي أملاك كانت السبب في النزاع بين الأمم الأوربية. كما أن الصراعات التي كان يقوم بها المتمردون البروتستانت الفلامنك ضد السيطرة الإسبانية قد زالت هي الأخرى. لم تعد إسبانيا القوة المهيمنة التي يشعر الجميع بتهديدها، كما أن سياستها لم تكن عدوانية على الإطلاق، وفي الداخل يسيطر وئام لافت للانتباه كثيرا، فليس هنا تمرد أو مطاردة أو طرد للمواطنين – ما عدا حالة اليسوعيين التي أوحت بها فرنسا وكانت على هوى مشجعي الأسطورة السوداء- كما فقدت محاكم التفتيش جزءا كبيرا من أهميتها، وجاء معظم هذا دون عنف واتضح أن ذلك أكثر إيجابية مثلما هو الحال في أغلب البلدان الأوربية مثلما هو الحال في باب العدالة الدنيوية (في باب محاكم التفتيش يمكن مقارنة محضر محكمة التفتيش ضد أولابيدي بالعقوبة البدنية الصادرة بحق Barre على سبيل المثال). أما فيا يتعلق بأمريكا فقد رأينا ماذا كان عليه حالها من التوازن والازدهار الملموس والتطور الثقافي. فلماذا إذن تظهر موجة جديدة للأسطورة السوداء، والتي ربما كانت الأكثر قوة وفعالية؟

العنصر الأولى هو **الجهل**، فالمستنيرون الأوربيون، وخاصة الفرنسيون، لا يكادون يعرفون شيئا عن إسبانيا، والأخطر هو أنهم يعتقدون أنهم يعرفون، ويفتقرون للفضول ويصدرون أحكامهم بشكل غير مسئول على ما يجهلون. وأكثر هذه الحالات إثارة للقلق هو ما يتعلق بمونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) وهو رجل واسع المعرفة وقدير، كرس كل حياته لدراسة القضايا التاريخية والسياسية والاجتماعية وله قامة ذات تأثير واسع، ألف واحدا من الكتب الأكثر شهرة وتأثيرا في القرن الذي عاش فيه، **روح القانون**، كما لا ننسى كتابا آخر له بعنوان **رسائل فارسية** Lettres Persanes، إضافة إلى الكثير من كتاباته

الصغرى الأخرى. يعتبر لويس ديث دل كورّال من المعجبين وشديدي المعرفة بمونتسكيو، وخصص له فصلا كاملا في كتابه "**المملكة الهسبانية في الفكر السياسي الأوربي**"[١٠١]- وليس هناك طريقة أفضل لمعرفة أن مونتسكيو لم يكن يعرف عن إسبانيا ولا عن الهند الغربية إلا القليل جدا، وهذا قد وصل إليه من خلال المصادر غير المباشرة والمشبوهة- لم يزر إسبانيا أبدا رغم أن Château de la Bréde كان قريبا، ولم تكن له مراسلات مع إسبان ولم يكن يعرف أن هنا إبداعا ثقافيا، كما أنه لا ينظر إليه باحترام. حاول لويس ديث دل كورّال أن يعالج هذا الانطباع وهذا هو الاعتراض الوحيد على كتابه لأن الأمر المهم في الواقع بالنسبة للمؤرخ هو الخلل الراديكالي الذي وجده في شخصية مثل مونتسكيو[١٠٢].

لنترك جانبا الرسالة الشهيرة رقم LXXVIII من **رسائل فارسية** (١٧٢١م) والتي تناولتها بإسهاب منذ سنوات طويلة. ودون أن نخرج من هذا الكتاب نجد أن ملاحظات مونتسكيو تكشف عن الكثير من العداء والجهل. "منذ تدمير أمريكا، فإن الإسبان الذين احتلوا الأرض مكان سكانها القدامى لم يستطيعوا إعمارها بالسكان، وحدث العكس فمن خلال حظ نكد، من الأفضل أن نسميه العدل الإلهي، قام المُدَمِّرون بتدمير أنفسهم وأخذوا يهلكون كل يوم" "الإسبان، عندما فقدوا الأمل في الإبقاء على الأمم المهزومة وفيّة لهم، اتخذوا القرار باستئصالها وإرسال سكان عندهم ولاء، من إسبانيا: لم يحدث أن وقع فعل فظيع مثل هذا، فلقد شوهد شعب كثير العدد مثل جميع شعوب أوربا قاطبة وقد زال من على ظهر الأرض عند وصول هؤلاء البربر، الذين بدوا عند اكتشافهم الهند الغربية أنهم كانوا يريدون في آن معا أن يبينوا للبشر ما هو آخر عصر من عصور

---

(101) مدريد ١٩٧٥ ص ٣٥٧-٥٠١.

(102) في ذلك الكتاب المذكور إسبانيا الممكنة على زمن كارلوس الثالث، أنقلها كاملة ومصحوبة بتعليقات كل من كادالسو وكامباني.

القسوة"[103]، ثم يضيف قائلا: ما فعله البرتغاليون كان على العكس فلم يلجئوا للقسوة ولهذا تم طردهم من الأماكن التي سيطروا عليها وخاصة على يد الهولنديين". وإذا ما جرت مقارنة عدد هنود البرازيل بهنود أمريكا الإسبانية لعرفنا الجهل الفاضح الذي عليه العالم مونتسكيو بذلك.

ولنترك جانبا **الرسائل الفارسية** الساخرة ولننتقل إلى العلم، إلى **روح القانون** حيث يقول "من أجل الحفاظ على أمريكا (فعلت إسبانيا) ما لا يفعله الاستبداد: أي أنها دمّرت سكانها. كان من الضروري أن تكون هذه المستعمرة مرتبطة بعنصر بقائها" وذلك من أجل الإبقاء على السيطرة عليها"[104]. "كم من الخير يمكن أن يفعل الإسبان للمكسيكيين! يمكن أن يقدموا لهم ديانة مخففة: لكن حملوا إليهم نوعا من التوجّس البشع. وكان من الممكن عتق العبيد، واستعبدوا الأحرار، وكان يمكن لهم أن يبرزوا في باب المبالغة في التضحيات البشرية، ولكنهم استأصلوهم بدلا من ذلك"[105]. يلاحظ أن مونتسكيو يرجع في هذا إلى توماس جاج Thomas/gage الراهب الإنجليزي الذي عاش خلال القرن السابع عشر والذي كان كاثوليكيا في البداية ثم إنجيليا ومعاديا للإسبان بعد ذلك، قام بشرح الهيمنة الإسبانية وكأننا أمام فن السحر، وقال إن من اعتبروا أرض أمريكا "هدفا للتجارة" أكثر رقة من الإسبان، بدلا من إقامة المدن الضخمة والمطابع والجامعات. "كانت ثروة الأسرة النمساوية الحاكمة شديدة الضخامة، وتلقّى كارلوس الخامس الراية من بورجونيا وقشتالة وأرغن وبلغ الإمبراطورية. وبحثا عن نوع جديد من العظمة امتد الكون وشوهد ظهور عالم جديد تحت طوعه"[106]. يعطي الانطباع بأن كل ذلك تم دون تدخل من أحد، مثلما تشير إليه البنية النحوية للفقرة التي أوردتها. ثم

---

(103) الرسالة رقم CXXII.

(104) الكتاب الثامن، الفصل الثامن عشر.

(105) الكتاب العاشر، الفصل الرابع.

(106) الكتاب الحادي والعشرون، الفصل الحادي والعشرون.

يضيف "نظر الإسبان إلى الأرض المكتشفة – أولا على أساس أنها هدف للغزو: أنها شعوب أكثر رفعة وهم الشعوب التي وجدوها هدفا للتجارة وإلى ذلك وجهوا أنظارهم"[١٠٧].

لماذا نواصل؟ يقص علينا ديث دل كورّال أن عقيدا إسبانيا تحدث إلى مونتسكيو وأثنى عليه كثيرا، وحدثه عن كتب فييخو وطابعه النقدي والمستنير. واستمع مونتسكيو لذلك بصبر ثم علق "أعتقد أن الكتب التي تتحدث عنها جيدة جدا بالنسبة لإسبانيا لكنها ليست ذات قيمة في بلدان أخرى أكثر استنارة"[١٠٨]. ولا ننسى أن مونتسكيو هو أكثر المفكرين اعتدالا وسعة صيت مقارنة بالمؤلفين الفرنسيين على عصره.

وعند فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) نجد العدوانية واللامسئولية أكثر، فهو شديد الكراهية للكنيسة الكاثوليكية لدرجة الهوس، فعند اللاهوتي رايانال Raynal الذي يحمل مُؤَلفه الجماعي عنوان التاريخ الفلسفي والسياسي للإدارات والتجارة التي قام بها الأوربيون في الهندين (عام ١٧٧٠، ثم جرى إصدار طبعة مزيدة ومنقحة عام ١٧٨٠م) كان التأويل القائم منذ ذلك الحين لها. وعند (Masson3de Movilliers 1782)، نجد أصول الثناء على دينا وكابانياس ونورنر[١٠٩]. وإجمالا للقول كان هذا منتشرا في التنوير الفرنسي وأصبت باقي البلاد الأوربية بالعدوى.

وربما كان الجانب الأكثر سوءا في هذا الموقف التزلف الشخصي إلى بعض الإسبان المهمين (سواء من الناحية الاجتماعية أو الثقافية) مع ما يصحب ذلك من التعبير عن ازدراء إسبانيا حيث يرونها مقبولة على هذا النحو. وسوف أورد مثالا واحدا: هناك رسالة بعث بها فولتير إلى ماركيز دي ميراندا، Camerir major du rai d'Espagne في العاشر من

---

(107) المصدر السابق.

(108) ص ٤١٣.

(109) انظر "إسبانيا الممكنة... الفصل الرابع.

أغسطس ١٧٦٧م، أي في أثناء حكم كارلوس الثالث وبعد حكومات كل من باتينو وكامبيو وكاربا فال وإنسينادا وكامبومانس وفلوريدا بلانكا وأراندا...، أي كذلك عندما تم تأسيس الأكاديميات الإسبانية للتاريخ، والفنون الجميلة، وتم إقامة الشركات الاقتصادية لأصدقاء باريس، وجرى هذا عندما نشر **قاموس السلطات** (قاموس اللغة الإسبانية)، وأعمال فييخو وأعمال Mayans ولوثان، وكذا **إسبانيا المقدسة** لـ P. **فلورث، وفراي خيرونديو دي كامباثاس**، تأليف الأب إيسلا إلخ... عند كل هذا يكتب فولتير:

"حضراتكم تجرؤن على التفكير في البلد جرى النظر فيه كثيرا إلى تلك الحرية على أنها نوع من الجريمة. كان هناك زمن في البلاط الإسباني وخاصة عندما كان اليسوعيون يحظون بالقبول، كان من شبه الممنوع استخدام العقل، وكان ملوككم يبدون وكأنهم دكاترة في الكوميديا الإيطالية، يختارون المهرجين على أنهم كاتمو أسرارهم ومن لهم حظوة عندهم، فالمهرجون هم قرويون. وعموما فإن لديكم وزيرًا مستنيرا حيث سمحتم بأن يكون كما أنه توفّر على ألمعية كبيرة، وخاصة أنه أدرك استنارتكم، غير أن الأهواء ما زالت قوية وفاعلة من حضرتك ومنه. فلا جدوى من أن يأتي كل من شيشرون وفرجيل إلى بلاطكم، حيث سيريان أن الكهّان والقساوسة لهم حظوة أكثر منهما، وسوف يضطران إلى الهروب أو أن يكونا منافقين. لديكم على بوابات مدريد جمارك الفكر حيث يتم مصادرة الأفكار عند الباب مثلها مثل البضائع القادمة من إنجلترا.

في بلدكم يودع بائع كتب غياهب السجن يعير كتابا لأحد ضباط البلاط وذلك ليزجي وقته عند مرضه. هذه المطاردة للروح الإنسانية هي أمر كريه بالنسبة لنا معشر الجمهوريين، سواء تمثل ذلك في بلاطكم أو ديانتكم. فاليونانيون العبيد لديهم مساحة من الحرية أكثر مائة مرة في القسطنطينية مما عندهم في مدريد...

كان هذا يا سيدي حال بلاطكم في وزارة السيد كونت أراندا، وحتى عصر رجل في مثل قامتكم أصبح قريبا من جلالة الملك.. لكن الطغيان الديني ما زال قائما حتى الآن...

"لقد ولدتم سعادتكم عبقرية كبرى، تكتبون أشعارا جميلة مثل شعر لوبي دي ييجا، وتكتبون نثرا أفضل من نثر جراثيان، ولو كنتم في فرنسا فسوف يظنون أنكم ابن الراهب Chaulieu ومدام Sevigné. وإذا ما ولدتم إنجليزيا لكنتم قد أصبحتم أكبر قامة في برلمان الأشراف. فما الذي يجدي نفعا من هذا في مدريد، إذا ما كنتم تضيعون سبابكم في كبح جماح أنفسكم؟ أنتم نسر حبيس في قفص كبير، نسر مخصص لليوم...

أجرؤ على القول إن ديانتكم قد أحدثت الكثير من الأذى للبشرية أكثر من الأذى الذي سببه أهل Atila* وتيمور لانك أصبحت الطبيعة حقيرة، فقد جعلت ممن كانوا أبطالا منافقين سفلة. وملأت بطون الرهبان والقساوسة بدماء الشعوب..."[110].

لا أعرف نصّا يضم عددا أقل من الأسطر ويتضمن الهدف العام: أنه تزلف لا حد له، واعتبار أن الشخص الموجّه إليه هذا الخطاب أنه شخص غير عادي – لوبي دي بيجا وجراثيان – وشفقة على مصيره الحزين، واحتقار شديد لبلده ما عدا هو وكونت أراندا (الذي يتزلف له فولتير ويستخدمه في آن ولكن في مواضع أخرى) اعتبار الديانة الكاثوليكية على أنها أساس كل سوء، والأمل في تأثير القلة، الذي تعرّضوا للغزو، في باب التبشير والسيطرة لا بقدر ما يتعلق بالرأي مثلما يتعلق بالقوة (بلاط كتالينا الثانية حيث يتم دَهْس أوهام الشعب).

وإذا ما أُرِيدَ عنصر آخر، أي أحد المكونات الجوهرية للأسطورة السوداء، وهو التنظيم، انظر كيف كان تأثيرها في "الحكم" على أولابيدي، وكيف تحركت "أوربا والتنوير" وكيف أخذت الأشياء تتغير وكيف أنه بعد بداية الثورة نجد أولابيدي الذي لم يتخلّ عن القناعات التي يمكن عليها اليوم قناعات ليبرالية، وجد نفسه بعيدا عما كان

---

* Alila (٤٠٦؟-٤٥٣) ملك الأونوس، وهو شعب بربري كان يعيش في تارتاريا. ثم هجم على أوربا خلال عصر الغزوات الكبرى.

(110) الأعمال الكاملة لفولتير – دار نشر Furne- باريس ١٨٣٧م – الجزء الثاني عشر ص ٨١٥-٨١٦.

يحدث في فرنسا، وأخذ يعود رويدا إلى ممارسة عقيدته حتى كتب "الإنجيل في حالة انتصار"[111].

الأسباب:

شهدنا أن من شجعوا على هذه الموجة الجديدة كان منطلقهم الجهل الخطير بما كانت عليه الإسبانيات، لكن يجب أن نضيف أن هذا الجهل كان في أغلبه جهلا إراديا وبالتالي فهو مذنب. عند الحكم على قيمة رجالات عصر التنوير يجب أن نشير إلى وجود نسبة كبيرة من الخطأ عندهم. وعلى النقيض من هذا نجد الإسبان الذين هم من العصر نفسه، ابتداء من فييخو وحتى موراتين، هو أقل لمعانا كما أنهم بالطبع أقل تأثيرا لكنهم على مستوى من الدقة والصدق لا يقارن، فمعظم ما كتبوه يبدو لنا اليوم مقبولا ومبررا وحقيقيا، ولدينا انطباع بأن إسبانيا لو سارت على ما يقولون لكان موقفها قد تغيّر بشكل جذري، ولعادت إلى الطريق الفعلي للتاريخ. نعرف أن الأمر لم يكن على هذا النحو: حيث نجد أنفسنا مرة أخرى، وبدرجة كبيرة، أمام صورة "إسبانيا الممكنة" التي لم تنته من تحقيق ذاتها، أي أمام "إسبانيا التي أمكن أن تكون" ولم تكن. وموجز القول هو أننا أمام مفترق مسارات.

إلا أن الجهل ومجرّد ارتكاب الخطأ لا يكفيان لتفسير لإثارة هذه الموجة الجديدة من الأسطورة السوداء فما هي الأسباب التي دعت جزءا مهما وحاسما من أوربا إلى اتخاذ مسلك قوي وقاس إزاء إسبانيا الوقور والمزدهرة طيبا والبعيدة تماما عن تهديد أي بلد، وبلد أقامت عدة بلدان أخرى تقف شامخة ومتفوقة عند مقارنتها بأمريكا الشمالية وكذا بأوربا في كثير من الجوانب؟

---

(111) انظر الدراسة الرائعة التي أعدها مارسلين دي فونو M. Defaurneaux بعنوان "بابلو دي أولابيدي أو المفرنس" (١٧٢٥ – ١٨٠٣) باريس ١٩٥٩م. وخاصة الفصل الحادي عشر "أور اللامستنيرة ومحاكمة أولابيدي".

قلت قبل ذلك إن إسبانيا كانت خلال القرن الثامن عشر تعيش "حالة قصور ذاتي ضخمة تعتورها تيارات نقدية". كان هذا القصور الذاتي الضخم الذي يتهالك بشكل متسق وينضم إلى أشكال جديدة، العقبة الكبرى. أمام ماذا؟ - يمكن أن يتساءل البعض - أقول أمام هذا المسار الثوري الذي بدأ في فرنسا وامتد إلى معظم أنحاء أوربا، بإسهام فعّال للأوتوقراط. ينادي فولتير "بالحقوق"، وضد قسوة العقوبات والظلم الذي فيه مسار Calas، وهذا شيء جيد للغاية لكنه يطرب وينتشي أمام تفكك بولندا ويقدم تهانيه على هذا لفيدريكو ملك بروسيا ولكاتالينا ملكة روسيا بينما يقوم بتوجيه إدانة شديدة "للمتخلف" كارلوس الثالث. يحدث الشيء نفسه مع الآخرين. وعن الأمور المثيرة على سبيل المثال، الغضب البارد الذي عليه d'Alembert عندما يترك حقل الرياضيات والميكانيكا ليتحدث عن أمور إنسانية. هناك أيضا روسو، وديدرو ود. هولباك d'Halbach وهلفيتيوس، والأصغر منهم. وعلى سبيل التقليد أو العدوى يصل الأمر إلى لينج وشيلر والإنجليز.

يتسم واقع إسبانيا بأنه ضخم رغم النظرة الازدرائية الموجهة إليها، فما زالت حتى ذلك المملكة الأكبر رقعة في العالم، ولها شبكة من الشعوب التي تتحدث اللغة نفسها، ولها قيم مناظرة على جانبي المحيط الأطلنطي وفي الباسيفيكي. كان استقرارها عظيما ويرجع هذا إلى عناصر منها ثباتها النسبي. ها هي هناك "إسبانيا القديمة" المسالمة والمفتوحة على التجديدات وكأنها كُلٌّ ضخم يؤكد استمرارية أوربا، وكأنها شجرة ذات جذور ضاربة في عمق التربة. لا **تفعل** شيئا في خضم الأزمة الثورية التي تنتشر في أوربا. **هي موجودة فقط**. وبالنسبة لأنصار التحول الراديكالي والقضاء على المسيحية يجدون أنفسهم أمام مجتمع لا يزال مجتمعا مسيحيا في الأغلب الأعم، بما في ذلك المستنيرين اللهم إلا استثناءات ضئيلة. ومن يتوفرون على مشروع إسقاط الملكيات يجدون أنها ذات شرعية اجتماعية في إسبانيا وقد قامت على التوافق المشترك universal دون تصدعات: إذ كان **أنصار امتيازات الدولة** على الكنسية هم أوائل من قاموا بهذا التحول وكانوا مدافعين أقوياء عن امتيازات التاج.

وفي الوقت الذي ظلت إسبانيا دون أن تُمَسّ، وخاصة إذا ما توطد ازدهارها، وأخذت قوتها البحرية والحربية تعود من جديد وثقافتها التي تنتشر اليوم في حقول أقل لمعانا لكنها قوية، ووحدتها الوطنية تتوطد مثلما حدث خلال الفترة من فيليبي الخامس وحتى كارلوس الثالث، فإن الثورة لا يمكن لها أن تنتصر بشكل نهائي في أوربا. وهنا فإن النقاد – كما شهدنا في حالة فييخو وكادالسو وخوبيانوس وآخرين – يعتقدون أنه يجب تغيير وتحسين الكثير من الأمور، وهم على درجة من عدم الرضا والحزن، لكنهم متضامنون بقوة مع بلدهم أي ذلك الفخار الأخير بالمشروع التاريخي لها، وما يؤنبونها عليه هو أنها لم تحقق مشروعها بالكامل وأنها تركت نفسها نهبا للعزلة أو التثاقل أو اللاتسامح أو التشاؤم.

أعتقد أن واقع إسبانيا هذا – وليس أفعالها أو سياستها – هو الذي يثير غضب السلبيين والمدِّمرين وهؤلاء الذين لا يقبلون التاريخ على أنه استمرار بل هو قطيعة متعددة، وهؤلاء الذين يتمردون على التحليل الشخصي للإنسان وهو تحليل جرى إعداده من الناحية الفلسفية في اليونان ثم جرى نقله إلى بعد آخر من خلال المسيحية ثم يتم تقليصه إلى شيء أو هيئة أو آلية أو شيء طبيعي ظاهريا ودون أفق يتجاوز العالم. ودون هذا يصبح من غير المفهوم البزوغ الجديد للأسطورة السوداء، التي تتسم بالعنف الشديد والفعالية في تأثيرها على الإسبان وإحداثها لمرحلة جديدة بينهم وهي مرحلة الاكتئاب التاريخي، وأمام هذا عمليات ثناء محمومة ومثيرة للسخط لم تنج منها إلا بعض النفوس القوية والفطنة والهادئة.

التنوير والشعبية Popularismo:

تتكون النواة الخاصة بإسبانيا القرن الثامن عشر من التوتر والشد والجذب وهو توتر خلاق في البداية، لكنه محفوف بالمخاطر إذا ما غابت المحفزات العليا بين روح عصر التنوير والأوربة والحياة طبقا للمبادئ، وبين الشعبية كعنصر جذب عليه نمط من الحياة الذي يحدث تأثيره على المجتمع بالكامل. والشيء الأكثر إيجابية والأكثر قيمة في إسبانيا

تلك، أي الشيء الذي نادرا ما تم إدراكه وتقديره بشكل ملائم، هو وجود شعب بالمعنى العميق للكلمة. هناك احتمال كبير في أن إسبانيا لم تعش أبدا فترة من الفترات مثل التي عاشتها في العقود الوسطى من القرن الثامن عشر وهي العقود التي يطلق عليها من لا يدركون حقيقة الأمور "السير على النهج الأجنبي" و"انحطاط".

يعني وجود شعب وجود مجموعة من أنماط الحياة التي يعيش عليها الأفراد حيث تجد مسارات الحيوات الفردية مكانا لها فيه، فالطبقات التي تسمى "بالشعبية" على سبيل التحديد تعيش على هذا النحو، بشكل عادي وخاصة عندما لا تشكل في حد ذاتها الشعب بل هي جزء رئيسي وذات حجم كبير، أريد القول إنه عندما يكون الشعب متكاملا من خلال التعايش بين تلك الطبقات والطبقات الأخرى. وهذا بالتحديد هو ما يحدث في إسبانيا خلال حكم كل من فرناندو السادس وكارلوس الثالث، وظل قائما – مع أعراض بعض التغيرات التي حدثت – حتى حرب الاستقلال، وبعد ذلك أصبح يعيش في مأزق خطير[١١٢].

تحدث هذه الأنماط الشعبية للحياة – طريقة الملبس والحديث والغناء والرقص واللهو – تأثيرها الجذاب على المجتمع بالكامل. "الشعبية" – وفي حالات قصوى يطلق عليها السوقية – هي السمة التي عليها المجتمع الإسباني خلال القرن الثامن عشر. تحول

(112) قارن في هذا السياق ذلك بالموقف الذي يصفه البارون هولباك خلال تلك الفترة هو «Enorgueillís dès le berceau, ou nourris dans l'ignorance de leurs devoirs, les grands et les riches ne savent pas que le pouvoir de faire du bien est la seule source legitime des distinctions établies entre les hommes. Plongés dans une mollesse fastidieuse, rassassiés de vains amusements, étrangers aux plaisirs du coeur, peu touchés de la tendresse de *leurs inférieurs qu'ils dédaignent,* ils ne jouissent qu'en idée d'une grandeur que l'on redoute et que leur morgue fait détester... *Perpétuellement écrasé sous les véxations et les dédains des hommes puissants, l'homme du peuple est aigre, brutal et sans moeurs... Il imite autant qu'il peut* leurs vanités et leurs travers; et par ses efforts impuissants il ne fait que redoubler son malheur» *(La Morale universelle, À* París l'An IV de la République Francaise vol. III, p. 127).

المسرح الشعبي – مسرحيات شعبية من فصل واحد والأغاني القصيرة – إلى التسلية الكبرى على المستوى الوطني إضافة إلى مصارعة الثيران. تحدث المستنيرون بشكل سيئ أحيانا عن أنماط الحياة هذه، التي تتسم بالبساطة في الفن الدرامي، غير أن نظراتهم تظل تبحث عنها كما يشعرون بطعمها الجذاب والرشيق. يعتبر خوبيانوس النموذج الكلاسيكي، مثلما عليه الحال بالنسبة لجويا وكادالسو وموراتين وكثيرين. وكانت المسرحيات الشعبية ذات الفصل الواحد واحدة من الأعمال "الشعبية" التي ألفها السيد/ رامون دي لاكروث، وتقدم لنا عالم اللطفاء والحدادين، لكن ليس هذا فقط، وليس هم وحدهم: فكما لاحظ أثورين، ذلك الرجل الشديد الفطنة، أن هناك شيوعا في ظهور الغندور والغندورة مثل الوسيم والجميلة. غير أن جوهر الأمر هو أنهما معا، يتعايشون ويراقب بعضهم بعضا ويُنجَبون ويزدرون ويقلد بعضهم بعضا ويبتعد بعضهم عن بعض.

هناك مسرحية شعبية من فصل واحد للسيد/ رامون دي لاكروث **بعنوان الرغبة في المقطوعات الشعرية Seguidillas*** ويبدو أن العنوان الجميل لهذه القصيدة مستلهم من الرسائل الشهيرة من جويا إلى صديقه ثاباتر Zapater، التي ذكرها أورتيجا إي جاسيت مرارا وتكرارا. أرسل جويا إلى ثاباتر، في عام ١٧٩٠م، بعض الأغاني الإسبانية القديمة Tirana وبعض المقطوعات الشعرية seguidilla، وكتب في مقدمتها "سوف تسمعها بكل ارتياح. أنا لم أسمعها حتى الآن والأمر المحتمل ربما لن أسمعها أبدًا لأنه خطر على بالي أنني يجب أن أحافظ على فكرة معينة والالتزام بنوع من الاعتزاز الذي يجب أن يكون عليه المرء، وبالتالي فلست شديد السعادة وهذا ما يمكن أن تصدقني فيه" هناك مشهد رائع في هذه المسرحية إذ يبدو أنه يقوم بإدخال الموضوع الذي يمكن أن نطلق عليه "ما هو إسباني والأوربة"، وهو شديد الارتباط بالتنوير والشعبية. يلتقي أربعة من الأصدقاء

---

* هي بحر من أبحر الشعر الإسباني (مجموعة من أربعة أبيات: يتكون كل من الأول والثالث من سبعة مقاطع أما الثاني والرابع فمن خمسة مقاطع. كما أن الثاني والرابع لهما قافية غير مكتملة. (المترجم).

ويستعدون لقضاء الأمسية، وليسمح لي القارئ أن أنقل المشهد بكامله فهو لا فضلة فيه كما أنه وثيقة تعكس الموضوع بوضوح:

- وعلى ذلك حتى حي لابييس
لا يمكننا التوقف يا سيد بدرو؟
- وأود أن يكون
هناك مقعد.
- أنت موهوب في المكر
يا صديقي - أعترف بذلك،
لكن كما قال الآخر
الله يفهمني وأنا أفهم نفسي
- وأين علينا أن نرسو،
فهو حي لا أعتقد أنني
أنني كنت فيه في حياتي؟
- استدر سيادتك إلى اليمين
سوف ندخل شارع
أوليبار - يا رجال!
ترتدون العباءات مبكرا؟
- يا سادة ما هو الشيء الجيد
هنا؟ - نحو الكوميديا
هنيهة، فليس هذا أوان
حب الوقوف في الشمس
- وكيف أنه في الأيام الأولى
من الموسم لا نجد
اثنين من الرجال المهمين

في دردشتنا؟ أنا
كان عندي هذا الإحساس
أو أنه كان على سبيل العادة،
أو على سبيل الرغبة
في مشاهدة كيفية تمثيلهم
لأول كوميديا، لكن
جاء الصديق إلى المنزل
وقدم لي ذريعتين
طريفتين وقويتين
وانتهى بي الأمر أنني لم
أجد بَدا من المجيء إلى لابابيس
- هل تم التجهيز للحفلة
الموسيقية؟ - لم يتم
لكن سوف نقوم بالتجهيز
إن شاء الله. لِيَدُم
لكم هذا الذوق الفاسد
والمنحط وشديد الابتذال!
- لا تكن أبله، يا سيد بدرو
سنذهب إلى الكوميديا
لنرى ماذا يقدمون من جديد.
- يمكن أن تقوم الماريانا
بغناء شيء - أو ربما سيكون
هناك رقص - هيا يا رجل.

- قل لحضرتك إنني لا أريد
فأنا من الأغاني arias والحركات البهلوانية
مُشبع حتى النخاع،
وأصررت على أن أسمع
فتاة ذات صوت قوي
تغني هذه المقطوعات seguidillas
من لامنشا، بآلتها
وأراها ترقص بكل ما
فيها من روح وجسد.
- هذه مزاجيتك! - ومزاجيتي
سوف تكون، لكنني أتذكر
أنني ولدت في إسبانيا،
ومن حين لآخر أريد
العودة إلى بلدي - أين
أنتم؟ - لست أدري حقيقة:
أعرف فقط أنني عندما أذهب
إلى الأرباض الخاصة بنا
أرى اللباس الخشن bayeta وتسريحة الكعكة
وقماشا قاتما مصحوبا بالرقع،
ونساء يقمن بالغسيل ويربين
ويعنين بقدورهن،
ورجالا يأتون متعبين
من العمل وسُعَالهم جاف
وفي كل تنهيدة

يبصقون شيئا على الأرض

- يا له من ذوق! وخاصة

أنا أرتوي عندما أرى

تلك النساء القويات

والنشطات وأولئك

الرجال الذين لم يحلقوا ذقنهم جيدا

وأطفالا عرايا

مثلما هو الحال في جبال

أستورياس حيث

كان القوط عرايا

خوفا من المشارقة

القوة الأعظم، وعلى هذا

يسكنون المناطق القاصية

هؤلاء الرجال القلائل

الذين بقوا لنا وقد هرب

من كثرة الجميلات

الخياطات والحلاّق

الذين حلقوا شارب

الوطن بالدم واللعب.

- عجبا! لديكم أشياء

لا تبدو حضرتك حقا

رجلا خيرا أو صاحب مزاج!

- بالنسبة لي أطيب ما هو جيد،

وقد حضرت حفلات موسيقية Zarzualas،

ورقص وكونشرتو
وملتزم غير أنه لما كانت
غذاء غير عادي
أقصد التدرج faisan عندي
فقد أصبحت مترعا، وتروق لي
حَلّتي القديمة وبها السَقط
ولحم الرقبة
- إذن لا تقله أمام
الكثيرين وبالهنا والشفا
- أما الناس كلها،
ماذا إذن؟ هل ذلك عيب
أو إخلال بالشرف أو الدين
القول إن الحفلات
في أرضنا تسليني؟
- يا صديقي، ما أراه
بعيدا عن الرياء،
أن الأجانب أنفسهم
وأبناء البلد الذين يرفضونها،
ولا يستسيغون سماع
هذه المقطوعات الجميلة Seguidilla
يقومون من على مقاعدهم،
وعندما يرون رقصة الفاندانجو
تتوتر أعصابهم

لا أعرف نصا بهذا الوضوح ودقة التعبير عن الموضوع حيث تناول جوهر المسألة. هذه الشعبية التي تصل في أقصى صور لها إلى "الغندرة الشديدة majismo" والتي كان يشكو منها دوق المُدَوّر، وهو الرجل الذي تحدثت عنه في **إسبانيا الممكنة على زمن كارلوس الثالث**، هي اتجاه نحو الأسفل، وهذا ضد المبالغة في الأزياء، كما كان عقبة أمام الجهود التي تبذل من أجل إصلاح المجتمع الإسباني، غير أنه في الوقت ذاته توجه نحو الجذور، وكان السبب في عدم تشتت المجتمع الإسباني

وأدى إلى تمتين بنيانه وقوته. الشعبية تعني الحياة بتلقائية وعدم اكتراث وتعني نوعا من **السعادة** الأساسية التي تنبع من إسبانيا القرن الثامن عشر رغم كل القيود المفروضة.

هناك تعبير رائع للسيد/ رامون دي لاكروث عن التقابل بين حياة التلقائية والحياة طبقا لمبادئ: هناك قاعدة يجب اتباعها، أي فكرة معينة للمرء عليه أن ينفذها، وبعض القيم التي يُرى أنها معرضة للخطر من قبل أنماط الحياة السوقية. فأمام ما هو محلي وخاص، والذي سوف يطلق عليه بعد ذلك "السلتي الأيبيري" هناك ما هو أوربي. وما هو من ملامح العصر، أي القرن الثامن عشر، قام المستنيرون بالتأكيد عليه بكل اعتزاز. ويتجلى الوعي بما يسمى "مواكبة الزمن" بشكل صادق آنذاك.

كانت دراما هذا الزمن – التي أصبحت واضحة اليوم – عدم كفاية كلا الموقفين اللذين هما على النقيض، أي عدم القدرة على الجمع بينهما في صورة خلاقة عليا: هناك التوتر أو الشدّ القليل والخلاف الذي عليه الأقلية وتوجهها إلى مجرد تقليد ما هو أوربي وتمثله بدلا من العمل على استيعاب أنماط أصيلة وإقامتها، وإدراك هذا النبض القوي الذي كان قائما آنذاك وأخذ أبعاده الحقيقية، ألا وهو الشعب الإسباني.

الفصل الرابع والعشرون

شقاق في إسبانيا وبين الإسبانيات Españas

هشاشة الإسبانيات Españas:

لم يكن العالم الهسباني أكثر اتساقا وتوحدا وسلاما وازدهارا وأفضل نظام حكم مثلما كان عليه الحال خلال القرن الثامن عشر. نجح ملوك أسرة البوربون الثلاثة، ابتداء من فيليبي الخامس وحتى كارلوس الثالث، ذوو السلوك الشخصي المثالي، كما أن الأخير كان أكثرهم وأكثر تأهلا بناء على خبرته كملك لنابولي، وكان نجاحهم مثيرا للدهشة في اختيار السكرتارية أو الوزراء وكذا الرجال الذين يكلّفونهم بالإدارة. كان كارلوس الرابع طيبًا لكنه ليس ذكيا، فقد ارتكب خطأ فادحا وهو أنه أولى السياسي الإسباني مانويل جودوي كل ثقته، والذي تجلت فيه شخصية المحسوب القديمة. وهنا يجب القول إن جودوي هو شخصية لها اعتبارها واستمر إلى المدى الممكن في باب حماية المستنيرين، وكذا في التنمية الاقتصادية والثقافية، ولما كانت أخلاقياته يعتورها الخلل فإنه لم يكن عنيفا أو دمويا ومارس سلطات واسعة ولكن باعتدال. أثارت تصرفاته الكراهية له وظلت هذه الكراهية لصيقة بذكراه، بغض النظر عن اعتبار ذلك منطقيا. ترجع "هذه الكراهية" في نظري، إلى أن الشعب شعر أنه "نبش" الملكية، وأنه أدخل السلطة الشخصية في إطار الشرعية الاجتماعية التي استنزفتها الملكية خلال القرن الثامن عشر.

وعندما سقط عام ١٨٠٨م فإن الآراء التي تحكم على مرحلته في الحكم عادة ما تكون متمة "بالاعتساف" أو "السلطة الجائرة".

وفيما يتعلق بأمريكا نجد أن أغلب نوّاب الملك كانوا ابتداء من القرن السادس عشر رجالا شجعانا من أغلبهم، وبالنسبة لمن حكموا خلال القرن الثامن عشر كانوا ممتازين في الأعم الأغلب، وهنا يمكن ذكر ما قاله هومبولت عمن كانوا يحكمون المكسيك عام ١٨٠٤م.

وإذا ما كان الأمر كذلك فلماذا تَطَال إسبانيا، مع بداية القرن التاسع عشر، الكثير من المصائب التي تؤدي إلى انفصال أمريكا وتفتتها، كما تبدأ عمليات صراع مطوّلة في كلا نصفي الكرة وذلك في موقف يبدو أنه يتعارض تماما ونقطة نقطة مع ما كان عليه الحال خلال القرن السابق؟ سيرى البعض أن مرجع ذلك هو الأزمة الأوربية الحادة التي بدأت مع الثورة الفرنسية وامتدت طوال العصر النابليوني، إلا أن هذه الأزمة تحدث تأثيرها على معظم أنحاء أوربا، ورغم خطورتها فهي أزمة عارضة، كما أن مختلف الدول تجاوزتها وأخذت تبني نفسها من جديد، وتواصل حياتها التي نعتبرها عادية. لم يكن ذلك حال إسبانيا وباقي العالم المتحدث بالإسبانية. كان لا بدّ أن يكون هناك سبب خاص بها يسهم في إدخال نوع من الهشاشة على ذلك المبنى الضخم، أي أن هناك أمرا نشازا قد انزلق إلى ذلك الجسد التاريخي الضخم والمثير للإعجاب.

ألححت في الفصل الحادي والعشرين – بحماس وإطراء – على تلك الواقعة بأن إسبانيا قد اتخذت نفسها مشروعا لها خلال القرن الثامن عشر، وأن بناءها وتطورها هو مشروعها على سبيل التحديد.

يبدو هذا مثار إعجاب ولا شك أنه كذلك. وقبل ذلك كانت إسبانيا قد وضعت لنفسها غايات لها الأولوية على المصالح القومية، ونتج عن ذلك الكثير من الأضرار.

لكنني لن أكون مطمئنا تماما لهذا الرضا، أي لهذا القرن الثامن عشر، القرن العظيم، ذلك أنه كان ذا "نهاية سيئة" بشكل ما، وترك الباب مفتوحا أمام قلاقل غاية في الخطورة على إسبانيا وعلى العالم الهسباني الذي انشق.

شهدنا على مدار صفحات هذا الكتاب استمرارية المشروع التاريخي الإسباني منذ البدايات الأولى، أي تحديد إسبانيا الوليدة على أنها "إسبانيا المفقودة" التي تفهم على أنها مسيحية (أي أوربية وغربية من المنظور التاريخي) وظل هذا المشروع قائما طول حرب الاسترداد، وبعد ذلك تجلت مهمة أمريكا، والمكانة في أوربا ابتداء من الإصلاح حيث كانت إسبانيا أمة حديثة. نعرف – وقد أشرت إلى هذا بشكل قاطع – أن هناك أخطاء تنزلق إلى ذلك المشروع، وهي أخطاء واضحة وقابلة للتحديد – أي أخطاء اتضح في نهاية الأمر أنها دينية أيضًا، رغم أنها مشتركة بين جميع الدول الأوربية بشكل أو بآخر – وهنا نتساءل عن المشروع نفسه، هل كان خطأ؟ أليست الحياة الإنسانية أن يضع المرء لنفسه ميثاقا، أليست مهمة كما برهن أورتيجا على ذلك؟ ليس الأمر أن يكون لها هذا بل هي مهمة. ألا يتضح أن هذا الطابع "الانتقالي" لإسبانيا منذ بداية العصور الوسطى، هو الذهاب إلى ما هو أبعد من ذاتها، وقفزها على مصالحها الآتية، حيث كانت تفوقها الحقيقي أي ذلك الذي تتكون هي منه؟

منذ بداية القرن الثامن عشر كان هناك أمر يلح على الإسبان الأذكياء وهو أن التاريخ الإسباني الحديث يتضمن عدد كبيرا من اللانجاح والخطأ والفشل، وأن إسبانيا قد انكمشت بشكل لم يكن من الملائم فعله وأنها بقيت في المؤخرة في حقول مهمة وأنه يجب استعادة الوقت الضائع. أي أنهم أخذوا يفكرون في أوربا تلك التي تنظر إلى إسبانيا بعداء وازدراء وأنها – أوربا – على حق بشكل ما. وتضم مراجعة تاريخ القرن الرغبة في التصحيح، لكن هناك قضية تحديدات: ما هي أخطاء الماضي التي تتطلب تصحيحا عاجلا؟ حاولت تبيان ذلك، لكنه لم يحدث خلال القرن الثامن عشر، إذ كان من الصعب تنفيذه.

كان المشروع الأصلي لإسبانيا هو الذي يحدد شخصيتها واتساقها وقوتها، وكان يجب تخليصه من الأخطاء المتلاصقة به، وكان يجب في المقام الأول أن يتم عيشه على أنه مشروع، أي أنه أمر دينامي ومتغير وفي حالة تشكل دائمة على أساس الظروف. وهذا ما فعلته إسبانيا في مصورها الإبداعية، وخاصة خلال الفترة من منتصف القرن السادس عشر وحتى منتصف السابع عشر.

إلا أن عدم الثقة تسرّب إلى روح الإسبان منذ نهاية هذا القرن. أضف إلى ذلك غيبة العقليات من الطراز الأول وذات القدرة الحقيقية على إدراك الواقع، واستيعاب أفق واسع. أدى قيام الآخرين بالحط من المشروع الإسباني إلى إحداث خلل لدى الحكام الإسبان كما أحدث تأثيره على المستنيرين، لم يتخلوا عن المشروع، وظلوا ثابتين على قناعاتهم المسيحية، لكنهم تركوا هذه القناعات في مناطق يبدو أنها بعيدة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والتاريخية ودون فقدان شيء مما كانت عليه إسبانيا – ومن هنا ألح على استمرارية إسبانيا القديمة طوال القرن الثامن عشر – فإن مشروعها "الداخلي" انفصل عن ذلك الذي كان العصب الرئيسي لتاريخها.

هناك غيبة التحول في المشروع الدائم وإعادة إبداعه في ظل الظروف الجديدة، ولم تتمكن من أن تجعله موتورا للمشروع الجديد الخاص بها، الذي كان مشروعا عادلا وضروريا وثريا. وأتى الإسبان الإحباط بناء على وعيهم بأنهم الأقل ولم يتمكنوا من إبراز نقط تفوقهم من أجل أنفسهم، وهي النقاط التي جعلت من إسبانيا مبدعة البناء العظيم للإسبانيات Españas. وعندما جاءت المناداة بجوانب التفوق هذه تم ذلك بطريقة فظة وتكاد تكون خشنة، حيث رفضوا قيمة ما كان ينقصنا وهذا ما يشير إليه حديث فورنر: "لم يكن لدينا ديكارتية أو نيوتنية: لنقلها بصراحة"، أو بمعنى آخر: "إن استخدام الرياضيات هو كيمياء الفيزياء الذي يضفي شكل الذهب على ما ليس كذلك"[١١٣].

---

(113) انظر الفصل الخامس من إسبانيا الممكنة على زمن كارلوس الثالث.

أخذ ينزلق هذا التذبذب وهذا اللايقين إلى أمريكا وربما بقوة أكثر مما كان عليه في إسبانيا كما أن قلة المعلومات تساعد على بلبلة الأفكار. فمن الأمور الثابتة أن أمريكا الإسبانية لم تعان من أنها أقل من أمريكا الشمالية وظلت في هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر - حتى ١٨٠٨ تحديدا - كانت عكس ذلك إذ كانت تمثل مستوى أعلى بكثير في التعمير والآثار والفنون والطباعة والجامعات، وظلت أعلى من الولايات المتحدة كشخصية سياسية، حتى استقلال هذه الأخيرة. لكن هذا لا يؤخذ في الحسبان، ويتسرب ازدراء ما هو إسباني بشكل عميق بين سكان أمريكا، وخاصة بين المتحررين من الإسبان بشكل مباشر، ويتطور ذلك إلى احتقار غريب لواقعها، والذي كان سيتوحد مع عملية إطار مثالي للإمكانيات الخاصة بمستقبل منفصل عن إسبانيا والقيمة التي عليها من يطرحون هذا المستقبل.

أعتقد أن البعد الخاص بالهشاشة يوجد في هذا، وهي تؤثر على المجتمع المتحدث بالإسبانية في أمريكا خلال القرن الثامن عشر العظيم، وسوف تجعله عرضة لأي شيء وسوف تكون العنصر الحاسم - عندما تتوفر الظروف غير المواتية - في حدوث الأزمة الأكثر خطورة التي تواجهها شعوبنا في اللحظة التي كانت على وشك التوصل إلى درجة غير مسبوقة من الاستقرار والازدهار والحرية.

التحول الحثيث إلى الراديكالية:

قمت بصياغة هذا المفهوم عام ١٩٥٥م، والذي يمكن أن يكون نوعا من المستوى التاريخي عندما دخلت للمرة الثانية في اتصال مع الولايات المتحدة. في مقال بعنوان "صحة المجتمع الأمريكي"[١١٤] في معرض التعليق على أفول نجم ذلك التوجه العارض

---

(114) في: الولايات المتحدة في صورة مقصَّرة.

الذي بدأه السناتور ماكارثي قبل ذلك بثلاث أو أربع سنوات (كتبت قبل ذلك عنه مقالا شديد القسوة)[115] حيث كتبت ما يلي:

"إنني أفهم أن ما حدث خلال السنوات الأخيرة في الولايات المتحدة يمكن أن نطلق عليه التحول الحثيث إلى الراديكالية" مستخدما تشبيها كهربائيا. ما معنى هذا؟ يعني أمرا غاية في البساطة. فعندما نجد في الخارج بعض الظواهر التي تصل إلى درجة خطورة غير متوقعة، فإن كل الأمور التي توجد في داخل بلد بعينه وكانت لها صلة أو شبه بتلك الأحداث يتغير شكلها ومعناها. فما كان قبل ذلك يبدو - وكان يبدو - وديعا وبالتالي كان مقبولا ومشروعا، سرعان ما يتضح أنه خطير ومثير للقلق. وما كان معتدلا يتحول آليا إلى التشدد، والسبب هو - ببساطة - تغير صلاته في إطار موقف عام، فالإشارات التي كانت في تاريخ معين عادية، لم تعد كذلك، بمبعد عن رغبة من يقومون بها. وأطلق على هذا "التحول الحثيث إلى الراديكالية": أي أن الشحنة الكهربائية الخارجية تقوم بكهربة الداخل، دون الحاجة إلى أن يكون قد حدثت تغيرات داخلية تلقائية".

والشيء الغريب هو أنني أضفت لما سبق على الفور ما يلي:

"إنه مسار يتكرر مائة مرة في التاريخ، ولنتذكر في هذا، وحتى لا نذهب قريبا، الدلالة التي كانت للمستنيرين الإسبان خلال القرن الثامن عشر مثل خوبيانوس وموراتين، عندما جاء "التحول الحثيث إلى الراديكالية" والذي تمثل في الثورة الفرنسية، وما هو الموقف الذي وُضِعوا فيه بشكل لا إرادي وبطريقة ظالمة، والذي أدى إلى نتائج طويلة الأمد في التاريخ الإسباني خلال المائة وخمسين عاما الأخيرة".

---

(115) "دفاع عن نمط حياة وولاء له" في الكتاب نفسه.

وبناء على تطبيق هذا المضمون، "التحول الحثيث إلى الراديكالية"، قمت بدراسة تفصيلية للغاية لموقف إسبانيا خلال نهاية القرن الثامن عشر، غير أنه ليس من الضروري هنا أن أعيد ما قلته في مواضع أخرى[116]. يكفي أن أذكر أنه بناء على تلك المصادفات المؤلمة والتي تتكرر كثيرا في التاريخ، بدأت الأزمة الفرنسية في الوقت الذي توفي فيه كارلوس الثالث وخلفه ابنه كارلوس الرابع الرجل الذي كانت قدراته محدودة للغاية كما لم يكن الشخص المناسب لمواجهة الموقف شديد الصعوبة. بدأ حكمه عام ١٧٨٨م، واشتعلت الثورة الفرنسية في العام التالي وهي ثورة كانت في حالة تكوين قبل ذلك في فرنسا. كان الانطباع الأول هو الشعور بالهول والسخط والخوف. شعر فلوريدا بلانكا ذلك الرجل الذي كان حاكما تقدميا ومستنيرا بالفزع وأراد أن يوقف الإصلاح، والتراجع إلى الوراء غير أن هذا مستحيل في التاريخ.

لكن الشيء الأخطر هو أن المستنيرين الإسبان الذين اتسموا بالاعتدال الشديد وأنهم من أشد أنصار الملكية، ومعظمهم من رجال الدين، وأغلبهم من الكاثوليك وأعداء الثورة التي بدت في نظرهم خطأ رهيبا **ونكوصا**، تم النظر إليه على ضوء الأحداث الرهيبة في فرنسا وتم ربطهم بأشخاص وحركات بدت لهم مرفوضة. هذا التحول الحثيث إلى الراديكالية الذي تولى تشويه الواقع جرى استخدامه بسرعة من لدن **الرجعيين** في ذلك العصر، وهم أناس لهم أسلوب أخلاقي وأدبي أصبح قائما منذ ذلك الحين، وغايتهم ضرب أي نوع من الحرية والتغيير والانفتاح. ولم يكن ذلك من أجل ما كانت عليه إسبانيا – فهذا الكتاب بكامله **يكذّب ذلك** – بل عملوا على وجود إسبانيا ضيِّقة ومتصلبة وغير متسامحة ترغب فيها، على هذا النحو، قلة حاقدة وعقيمة وغير قادرة على القيام بأي جهد خلاق.

---

(116) أورتيجا. **الظروف والميل** – مدخل ١، ٢ – **الإسبان** (الفصول المتعلقة بخوبيانوس والأب إيسلا وموراتين)، **إسبانيا الممكنة على زمن كارلوس الثالث** (الفصل التاسع على وجه الخصوص).

كان العقد الأخير من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من التاسع عشر، أي آخر ملكية "النظام القديم" واحدًا من مفترق الطرق التي يتم فيها، وعلى مدى طويل، اتخاذ قرار بمسار شعب. وهنا يجب القول إن التشدد كان خارجيا هذه المرة، إذ كان بمثابة ذريعة حتى يستعيد صورته، بشكل ظالم ومخيف على الرجال النموذجيين الذين كانوا يسهمون بذكاء وحسن نية في وضع إسبانيا على خارطة الزمن دون تلكؤ. ومن الأمثلة الأكثر وضوحا في هذا هو موقف خوبيانوس. في المقال المذكور الذي كتبته قمت بدراسة تفصيلية لكيفية حدوث ذلك مع الشخصية الأكثر نبلا ونقاء، والتي تكاد تكون ملائكية في إسبانيا عصرها، وجرى ذلك بحقد وسوء نية مثيرين.

ورغم بعض الأحداث غير ذات التأثير، ظل التعايش قائما، فقد قام التنوير بخطوات مهمة يعترف بها خوبيانوس، هي خطوات لم يكن جودوي Godoy بمبعد عنها. إلا أن حالة التوتر الأوربية وصلت إلى مداها: فبعد موت ميرابو Mirabeau، أي عندما تم تدمير إمكانية وجود الملكية الدستورية – وهو الحل الذي كان يجب أن يطبق خلال القرن التاسع عشر – وبالتالي سيطر العنف: هناك مجلس النواب Convención والرعب وإعدام الملوك والآلاف من الأشخاص من كل فئة والحرب العالمية، وفي النهاية تأتي القنصلية Consulado والتوسع الحربي النابليوني، أي الإمبراطورية التي تحاول – الآن – أن تكون ملكية يونفرسال من خلال الغزو. كيف أمكن الحفاظ على ذلك البناء الضخم الذي كانت عليه الإسبانيات في هذا الموقف؟ يتسم التوازن في كل من أوربا وأمريكا آنذاك بأنه يزداد صعوبة، ففرنسا تشتعل أمام عيون الإسبان في كل مكان التي تشعر بالفزع والدهشة والحماس".

تولد الشقاق في إطار هذه الظروف، وأخذ ينمو هذا الموقف الذي يتمثل في عدم إمكانية تحمل جزء ممن ينسبون إلى هذا المجتمع، وعدم القدرة على تعايش الجميع. وحتى يصل هذا الأمر إلى ثمانية فليس من الضروري إلا زيادة خطورة التوترات. وسوف يتولى نابليون هذا الأمر.

الغزو الفرنسي:

كانت حرب الاستقلال (١٨٠٨ – ١٨١٤) الحدث الأكثر خطورة الذي عاشته إسبانيا منذ وحدتها القومية حيث يمكن مقارنة ذلك فقط بالحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ – ١٩٣٩). معروفة للجميع أحداث الغزو النابليوني ونتائجها، ذلك أنها كانت محطة اهتمام شديد من قبل المؤرخين. إلا أن ما يهمني في هذا المقام هو ختام هذا التحول الذي غم عن تلك الحرب في إسبانيا ورؤية واضحة **للإمكانيات** التي كانت قائمة آنذاك، بمعنى **المسارات** المختلفة التي كان يمكن لإسبانيا والعالم المتحدث بالإسبانية أن يسيرا فيها. وبهذا فقط يمكن التوصل إلى فهم حقيقي لما حدث بالفعل. دخل ما أطلق عليه **"بالنظام القديم"** (أي الملكية المطلقة القائمة على توافق اجتماعي متكامل، أي المجتمع بطبقاته والحيوية الاجتماعية للدين المسيحي في مختلف مذاهبه) في أزمة بشكل مفاجئ في فرنسا ١٧٨٩م مع بداية الثورة. فمنذ سنوات طويلة، أي منذ حكم الملك لويس الخامس عشر، أي بالتحديد منذ عام ١٧٧٤م حيث بدأ لويس السادس عشر عمليات إصلاح عميقة، كان تأثير المستنيرين ضخما، كما أن الأفكار المتعلقة بالتنوير كانت تأخذ مسارا لها بسرعة كبيرة. وهنا فإنني دائما ما أفكر في أنه لم تكن هناك حرية سياسية في فرنسا حتى عصر لويس فيليب (١٨٣٠م) وأتساءل فيما لو لم تكن الثورة قد اندلعت لكان قد تأخر أمر حدوثها واحدا وأربعين عاما. يبدو الأمر غير محتمل بالمرة، لكنه حدث ملحوظ – ونادرا ما يتم الاعتراف به – كما أن التشدد هو أكثر معوِّق للتاريخ. وفيما يتعلق بالثورة الفرنسية نجد أن خوبيانوس قد تعرّف على ذلك بوضوح حيث كتب عام ١٧٩٤م: "سوف تقول سيادتكم إن هذه الإجراءات بطيئة. نعم، لكن لا توجد أخرى وإذا ما كان هناك علاج فلن أكون معه. لقد قلت ذلك: لن ألجأ أبدًا إلى التضحية بالجيل الحاضر من أجل تحسين الأجيال القادمة. حضرتك تقرّ بروح التمرد، أما أنا فلا – لا أقره، أقولها هكذا بوضوح، وأنا بعيد عن الاعتقاد بأن ذلك فيه الاستحقاق.... أعتقد أن أمة تسير في باب التنوير

يمكن أن تشهد إصلاحات ضخمة دون إراقة دماء، وأنه لكي نظل في عصر التنوير ليس من اللازم أن يكون هناك تمرد... التطور يعني سلسلة متدرجة وسوف يمكن مراقبة الخطوات من خلال حلقات السلسلة. وغير ذلك لن يطلق عليه تطورا بل شيئًا آخر"[117].

لم تقتصر الثورة الفرنسية على البلد الذي قامت فيه، وذلك بسبب مركزية فرنسا من حيث الموقع في تلك الفترة، كما أن الثورة تضمنت تنفيذ مبادئ، انتشرت في أوربا، باستخدام العنف، وكان انتشارها في الأعم الأغلب بفضل تشجيع الملوك الأكثر أوتوقراطية. وعلى سبيل المقارنة نجد أن الثورة الإنجليزية التي قام بها كرونويل Cronwell لم يكن يكون لها أي تأثير في أوربا رغم أنها قامت بإعدام الملك كارلوس الأول، واقتصر أمرها لتكون شأنا محليا. لكن ثورة ١٧٨٩ الفرنسية غيرت الموقف في باقي البلدان من أساسه. يجب اتخاذ موقف، فلقد تم إسقاط النظام القديم، وأصبح هذا موضع تساؤل في كل مكان، واختفى الاستقرار الطبيعي الذي عاشت فيه أوربا على مدار قرن من الزمان، أخذ ذلك النظام يتصدع أو أنه أخذ يؤكد ذاته (وهذا يعني أنها طريقة أخرى من تجليات الأزمة).

ظل الأمر قائما في إسبانيا ولكن بطريقة تميل إلى السوء ومصحوبا بتوترات خطيرة لكنها قابلة للسيطرة عليها. أخذ القصور الذاتي الذي تحدثت عنه، والذي لم يتم إدراك أهميته، يقوم بعمله ويسمح أن تأخذ التغيرات خطواتها، مع بعض التراجع اللحظي الذي تمثله المجتمع سريعا ثم أخذ يواصل مشواره. ومن الأمور الدالة على ذلك قراءة يوميات موراتين ورسائله"[118]. ويمكن أن نقول شيئا مشابها لذلك عن أمريكا حيث كانت الأخبار تصل متأخرة، وبالتالي يقل تأثيرها في اتجاهين: فهي أقل تحفيزا لكنها أقل إرعابا وتنفيرا، وتحولت أخبار أهوال المذابح وتنفيذ أحكام الإعدام إلى ما يشبه الأسطورة ولم تعد تمثل هزة عنيفة. فقد أخذت أفكار عصر التنوير تنفذ قبل ذلك في أمريكا وكانت ذات صيت

---

(117) رسالة إلى القنصل الإنجليزي جاردن Jardine، 3/6/1794م.

(118) انظر "إسبانيا وأوربا عند موراتين" في الإسبان.

عظيم وكان هنا نوع من الهالة التي تحيط بما هو فرنسي حيث ينظر إليه على أنه حديث مقارنة بتراث ينظر إليه على أنه أقل لكن يضرب بجذوره بعمق في المجتمع. هناك نص لأندرس بيُّو، كتبه ونشره عام ١٨١٠م، أي قبل شهور قليلة من الكفاح من أجل الاستقلال حيث كان أكثر عنفا في فنزويلا أكثر من أي مكان آخر في أمريكا الهسبانية، كما أن من الصعب للغاية مواءمته من خلال الهجمات على إسبانيا وهي هجمات أخذت تتكاثر على الفور، الأمر الذي يحدو إلى التفكير بأن ذلك كان نتيجة ضغوط قوية وقسر. يُرى في كلمات بيّو رد الفعل الأولى على الغزو النابليوني، انطلاقا من وعي قوي بالانتساب إلى المملكة الإسبانية ومن التضامن اللامحدود معها ومع المصير المشترك. وإذا ما فكر البعض في أن أندرس بيو رحل إلى لندن بعد ذلك بوقت قصير في مهمة دبلوماسية باسم الثورة التي بدأت ولم يعد بعد ذلك أبدا إلى فنزويلا ذلك أنه قضى كل حياته الطويلة في إنجلترا وشيلي، هنا يجب أن نتساءل مرة أخرى كيف أمكن أن تحدث تلك الأمور إذا لم يكن هناك تدخل قدري أو ما إذا كان رد الفعل مختلفا عن ذلك(١١٩).

---

(119) موجز تاريخ فنزويلا، ضمن الأعمال الكاملة، لأندرس بيو – كاراكاس ١٩٥٧م – الجزء التاسع عشر ص ٤٤٥. أشرت إلى ذلك النص في مقالي "أفكار ومعتقدات في العالم الهسباني" (والذي ضممته إلى كتاب **أسبانوأمريكا** – دار نشر أليانثا – بونيوس أيرس ١٩٨٤).

لكن يبدو لي مهما للغاية وغير معروف ولذلك أود أن أورد هنا بعض الفقرات منه: "مع نهاية القرن السابع عشر بدأ عصر إعادة التنشيط المدني لفنزويلا، في الوقت الذي تم الانتهاء فيه من غزوها وبداية الحياة في سلام لسكانها، وهنا دخل الدين والسياسة لاستكمال العمل العظيم الذي كان قد بدأه رجال أبطال يحدوهم الجشع لكنهم مع هذا تركوا صورة رائعة للشجاعة والإقدام والمثابرة وهي نماذج ربما لن تتكرر أبدا... كانت "مجموعة جيبوثكوا C. Guipuzcoanel...كانت الحدث الأكثر قوة في عهد الملك فيليبي الخامس في أمريكا... فقد اجتمع الغزاة ومن تعرضوا للغزو في إطار لغة واحدة وديانة واحدة في أسرة، ورأوا كيف أن العرق والكفاح المشترك كان له ثمرة تم ريُّها لصالح الوطن الأم وهي أرض جار عليها الاحتكار الهولندي... كان ذلك هو النظام حيث قامت السياسية بوضع معاييرها في الغزو والإعمار البشري وإعادة تنشيط ذلك البلد الجميل الذي يتكون من الوديان التي تغمرها المياه وهي وديان أورنوكو Orinoco وحتى شوائط أتشا Hacha الخالية من السكان، وكلها تشكل واحدة من المناطق الأكثر أهمية وتميزا ضمن أملاك المملكة الإسبانية، وهذه هي الأحداث التي اجتمع بشأنها السكان ليكونوا أسرة واحدة من أجل مصلحة الوطن، وبالتالي كانوا يتناغمون مع حالة السهر التي كانت عليها الحكومة في محاولة لرفع فنزويلا إلى الدرجة التي حبتها بها الطبيعة في أمريكا الجنوبية. هناك قرون ثلاثة من الالتزام الذي لم يتغير في جميع الأحداث، وهي فترة زمنية كافية لتأكيد هذا التراسل المتبادل الذي سوف يجعل كلا نصفي الكرة لا ينفصل الواحد منها عن الآخر. غير

كان الغزو الفرنسي لإسبانيا ذا دلالة وهي سقوط "إسبانيا الرسمية". واستعادت نفسها بعد التمرد الذي حدث في أرانخويث وسقوط جودوي والنزاع بين كارلوس الرابع وابنه فرناندو الأمر الذي أدى مؤقتا إلى تنازل الأول عن العرش للثاني، وسرعان ما استردها، وانصياع كلاهما لنابليون. وعندما يقوم هذا الأخير بتنصيب أخيه خوسيه، فإن الملكية قد تفككت وفقد هيبتها. هاجم الملوك الطاعنون في السن والملك الشاب وهم كارلوس وماريا لويسا وفرناندو ومعهم جودوي قد ذهبوا إلى فرنسا وأصبحوا رهن قرار نابليون، كما تاهوا في تبادل الاتهامات، وامتد فقدان المعنويات إلى النبلاء وكبار قادة الجيش وأغلب الأجهزة الحكومية. احتلت القوات الفرنسية أغلب الأراضي الإسبانية ومارست انتهاكات خطيرة. كان خوسيه الأول يفتقر إلى أي شرعية وسلطة. ولم يحدث في التاريخ، إلا نادرا، مثل هذا الإظلام التام لأمة قوية.

هناك جزء مهم من الأقلية المستنيرة يؤمن بأن قوة نابليون لا تُقَاوم ويجب العمل على هذا الأساس- بمعنى القبول بها والتعاون معها لمواصلة الطريق إلى الأمام- كان الكثير من هؤلاء الرجال نبلاء ومن ذوي النوايا الطيبة، فقد وضعوا كل إعجابهم وأملهم في فرنسا، ورغم هذا كانوا يؤمنون بها. ومن جانب آخر كانوا يرون الدونية التي سقط فيها "النظام القديم" الذي بدا لهم أنه دوني ولديهم بعض التحفظات والازدراء،

أن الظروف كانت تخبئ لفنزويلا ميزة أنها واحدة من أولياء البلاد في العالم الجديد حيث تم حلف يمين تلقائي وبالإجماع يقضي بكراهية أبدية للطاغية الذي أراد كسر تلك الصلات المتينة وتقديم آخر برهان على الاقتناع الذي كان عليه سكانها وهو أن استقرارهم وسعادتهم مرتبطان بالإبقاء على علاقات متينة كانت وراء بقاء أمريكا وعظمتها على مدار قرون. وفي الخامس عشر من يوليو ١٨٠٨، أُغلقت دائرة الأجراس في فنزويلا عندما جرى تذكر الوطنية النقية – بالغدر المشين والأبدي – حيث تم الحنث بيمين الحفاظ على تاج قشتالة كاملا والأمانة والولاء لها من قبل هذا الجزء من موروثها".

تعكس كلمات أندرس بيو الوعي بأن فنزويلا بلد مثل البلاد الأخرى في أمريكا، وأن الجميع يؤلفون مع إسبانيا الوطن المشترك، أي المملكة الإسبانية، التي توجد فيها إمكانية الازدهار والسعادة لأفرادها. وهذا يعني أن ذلك هو عكس كل ما سوف يتكرر اعتبارا من ذلك وبشكل لا كلل فيه. الطاغية هو نابليون، وهنا يرى أندرس بيو بوضوح أن هدف الطاغية تدمير تلك الصلاة. وحقيقة الأمر أنه تمكن من ذلك وذلك من خلال المساعدة الفعّالة التي قدمها الكثير من الإسبان والأمريكان. وحول هذا الموضوع فإن هناك أبحاثا دقيقة تتعلق به مثل كتاب ماكسيمو إتشيكوبار بعنوان نهاية العالم الجديد، وخاصة الفصل الثالث والرابع والخامس.

ويعتقدون أن ليس هناك مخرج آخر إلا القبول بالأمر الواقع والعمل على أن يكون الاحتلال حميدا والبدء في مسار جديد يتم استلهامه من فرنسا نابليون، حيث يعتقدون أنهم يرون فيه روح الثورة. كان هؤلاء هم "المفرنسون" بدرجات مختلفة تبدأ من التقدير وتنتهي بالانتهازية.

لكن هناك من جانب آخر "إسبانيا الفعلية"، عمق الأمة بما لها من فضائل ومثابرة وبما لها من ذلك القصور الذاتي الذي تحدثت عنه كثيرا، ولها طاقات نائمة تستيقظ بحافز الغزو. كان رد فعل إسبانيا "الأكثر قدما"، التقليدية، والجامدة كذلك واللاهوتية والمفعمة بعدم الثقة في كل ما هو أجنبي وخاصة الفرنسيين الذين كانت تراهم على أنهم ملاحدة وثوريّون وقاتلوا الملوك، هو ردّ الاعتبار لكبريائها القومي واستقلالها.

ظهرت المقاومة للاحتلال في كل مكان، وأيدته وساعدت عليه الإدارات المحلية، وانشقت الأرض عن المحاربين وأخذوا يكبلون الضربات للجيوش النابليونية، وقاومت المدن بقوة وصلابة لا تقارن، في الوقت الذي تراجعت فيه المدن الكبرى في أوربا أمام نابليون. وسوف يساعد التحالف مع إنجلترا ومع القوات التي أرسلها ويلنجتون تمكن على إعادة تنظيم جيش نظامي، واستمرت الحرب لستة أعوام وانتهت بطرد الغزاة من الأرض الإسبانية التي أُهلكت. القصة معروفة جيدا. إلا أنه من خلال هذه المقاومة البطولية، والتي تثير الإعجاب من أكثر من منظور، كانت تنبض بخطأ سوف يكون نواة الشقاق.

الشقاق:

لم يكن الشقاق كبيرا بين المفرنسين والمدافعين عن الاستقلال لكنه كان قويا بين هؤلاء، فسرعان ما ظهرت التصدعات الخطيرة الأمر الذي أدى إلى الحديث **لأول** مرة عن "إسبانيتين"، وسوف يتجلى هذا الشقاق في شكل جلي أو مستتر طوال القرن التاسع

عشر، وصحب ذلك دائما ظهور غير متوقع لهذا الشقاق مرة أخرى وكأنه نوع من الفيروسات التي تبقى كامنة ويمكن ظهورها في اللحظة غير المتوقعة.

ما الذي يدافع عنه هؤلاء المدافعون عن الاستقلال؟ وباسم ماذا – أيْ أيُّ إسبانيا – يكافحون بقوة؟ تولى التوجه الحثيث نحو الراديكالية إلى إيقاظ أصداء فعلية في بلادنا. أخذ ردّ الفعل الذي تولد قبل ذلك إزاء النموذج الفرنسي، الذي لم يتم السير على هديه، يتسم بقوة كبيرة، فالبعض يدافع عن إسبانيا التي تمثل ما هو أكثر انغلاقا وقتامة من إسبانيا التقليدية، ولم يكن ذلك من خلال تلقائية هادئة ولكن بتوتر عدواني ومحارب. أما البعض الآخر فينتهز الفرصة ليحاول أن يقضي على البنية القديمة وبناء جديدة وليست شديدة الأصالة بل تقوم على المبادئ التي عليها فرنسا التي تتم محاربتها.

هذا هو الخطأ الفادح في حرب الاستقلال، ففي دراستي عن خوبيّانوس[١٢٠] أبرزت كيف أن بعض الإسبان، بما فيهم هو نفسه وبشكل نموذجي، تجاوزوا هذا الشقاق، وظلوا أوفياء في آن معا لاستقلال إسبانيا ولمطالب الإصلاح التي كانت وسام القرن الثامن عشر، أي الأمر الذي أدى بالملكية على شاطئ المحيط الأطلنطي، إن الاستقرار والازدهار الذي حاولت البرهنة عليه. ها هو خوبيانوس الذي خرج من السجن الذي ظل فيه حبيسا لسبع سنوات، يقاوم جميع أنواع المغريات والمديح: فقد دعاه أصدقاؤه، جونثالو أو فارِّبل، وماثاريدو وأثانثا وكابارّوس، للتعاون والعمل على إيقاف مقاومة لا جدوى من ورائها. يتصل به مورات ليحضر إلى البلاط، ويريد خوسيه بونابرت أن يجعل منه وزيرا، ويداعبه الجنرال سباستياني بأن يتم تنفيذ المشاريع والرغبات التي حلم بها طوال حياته ولكن تحت النظام الفرنسي. ظل خوبيانوس ثابتا، ويكفي في هذا المقام أن نتذكر إجابته على سباستياني عام ١٨٠٩م.

---

(120) خوبيانوس: "الوفاق والشقاق في إسبانيا"، في "الإسبان".

"سيدي الجنرال: أنا لا أتبع حزبا بل أتبع القضية العادلة والمقدسة التي عليها وطني وهي التي اتخذناها حيث تلقينا من الوطن ذلك الشرف العظيم بالدفاع عنه وقيادته وأننا جميعا أقسمنا أن نسير على ذلك ونظل عليه طوال حياتنا. إننا لا نصارع، كما تريدون، من أجل محاكم التفتيش أو من أجل مشاكل قلقنا من أجلها ولا من أجل مصلحة الكبار في إسبانيا. إننا نصارع من أجل الحقوق العظيمة لملكنا وديننا ودستورنا واستقلالنا. ولا تظنوا أن الرغبة في الحفاظ على كل هذا بعيدة عن أي عمل يهدف إلى القضاء على أي عقبة يمكن أن تكون عائقا أمام هذه الغاية: الأمر عكس ذلك تماما، وأستعير منك عبارتك في هذا المقام بالقول إن الرغبة والمقصد في إعادة تنشيط إسبانيا والنهضة بها لتكون مزدهرة مثلما كانت عليه ذات يوم وسوف تكون كذلك في المستقبل إنما هو أمر ننظر إليه على أنه أحد واجباتنا الرئيسية".

وفي الوقت الذي تدور فيه رُحى الحرب، كانت الوحدة ضد الفرنسيين تغطي الاختلاف العميق، وعندما انتهت، أي عندما بدأت إسبانيا حياتها من جديد وأخذت في بناء نفسها، عاد الغموض المختفي والسيئ ليطل من جديد. ربما كانت نقطة التلاقي هي الملك فرناندو السابع "المحبوب" "el Deseado" غير أن هذا الملك الذي ربما كان يتصرف بدافع الخوف الذي عاش فيه منذ شبابه وربما ظل ملازما له طوال حياته اتخذ خياره من خلال ردّ فعل غاية في التطّرف واتخذ موقفا مضادا لهؤلاء الذين دافعوا عن عرشه في أثناء الغزو وحاولوا الإصلاح السياسي لإسبانيا طبقا لمتطلبات العصر. فالاستبدادية التي أقرها فرناندو السابع ليس لها علاقة بما كان عليه الملوك خلال القرن الثامن عشر، والتي لم يكن لها أي صلة بالسلطة "الشخصية"، أو أن تكون "دكتاتورية" أو "طغيانا". كانت تلك الملكية سلطة عليا لكن طبقا للقانون ولها مؤسسات تعمل بانتظام وتقوم على الوفاق الاجتماعي وهو أن صفة الحكم تنحصر في الملك. أصبح كل هذا غير ممكن بعد الثورة الفرنسية، والسبب ببساطة هو أن ذلك التوافق قد تحطم ويجب أن يحل محله آخر، إراديا وصريحا ومجددا كل فترة. يقوم الحكم المطلق الذي يقره فرناندو السابع عام ١٨١٤م على العنف وبعيدًا عن الاستخدام الهادئ للسلطة الذي كان سمة الممالك الأوربية السابقة على الثورة.

حقا، كان هناك توجه ديماجوجي يبدو خطيرا وكان يهدد السلطة الملكية. لكنه كان توجه أقلية، لا تكاد تذكر، وتكاد تذوب في أغلبية كانت تريد الحريات دون التقليل من كبرياء التاج ومزاياه. الأمر الأكثر خطورة هو أن فرناندو السابع قام بدور المحارب – وهذا ما لا يمكن للملك أن يفعله – دون أن يحول هذا من أن يكون غير أمين حتى على أنصاره شبه الرسميين.

وفيما يتعلق بأمريكا، فإن موقف اللاشرعية الذي عليه الملكية منذ الغزو النابليوني، كان بمثابة قلق عظيم، فغير معروف من هي السلطة الشرعية، هناك ملك دخيل فرضه نابليون، هو خوسيه بونابرت يقوم بالفعل بممارسة سلطة شديدة الهشاشة على أجزاء من إسبانيا التي هبت وحملت السلاح ضد الفرنسيين، وهناك ملك آخر أسير في فالنساي Valencay هو الملك فرناندو السابع، الذي لا يعرف فيما إذا كان سيحكم ذات مرة أم لا. أصبحت بلاد أمريكا ونيابات الملوك أو القيادات العامة وحيدة تعيش حالة يتم غريبة. ومن يقومون بإدارتها ليست لديهم سلطة كافية. وهنا فإن الغضب لم يتم كبح جماحه بواسطة شخص الملك كما حدث قبل ذلك حيث كانت كلمته مطاعة كما أنه يتم الرجوع إليه في المظالم والتجاوزات (لنتذكر هنا الوظيفة التي كان يقوم بها النظار طوال القرن الثامن عشر).

انتهزت الطموحات المحلية والشخصية هذا الموقف المؤقت، فجرى انتهاج سياسة "الأمر الواقع" التي قد تدخل تعديلا على التوازن في كل مكان – وليس بالضرورة بالنسبة لنيابة الملك كاملة: فالتفكك الذي حلّ بما كانت "بلادا" أمريكية، قد بدا قبل الاستقلال – وأخذ يشتد الاختلاف بين المدافعين عن البنية التقليدية وأنصار الإصلاح الراديكالي.

ونقيضا للصورة التي ظلت بعد ذلك، وخاصة في إسبانيا وأمريكا، نجد أن الحركات الاستقلالية ليست هي التي يقوم بها السكان الأصليون بل العكس تماما: إذ يقودهم ويحركهم الكريّوcriollos الذين هم من نسل الإسبان، بينما نجد الهنود

والمخلطين يميلون إلى "الواقعية"، أي الارتباط بالملكية الإسبانية. ومما لا شك فيه أن الأُوَل كان لديهم الأمل في الحكم بعد الانفصال، أما الآخرون فلم يكن لهم أي أمل في هذا أو أملا ضعيفا.

وليس حقيقة أيضًا على الدوام أن يكون الاستقلاليون من أنصار التقدمية في مواجهة الموقف التقليدي أو المحافظ: ففي بعض الحالات نجد الموقف المنفتح والمجدِّد في برلمان قاش، أي الذي يدق الأجراس ويدعو إلى الاستقلال، هناك تفضيل للحكم بشكل منعزل دون إصلاحات اجتماعية، وهذا عندهم أفضل من المشاركة في ملكية دستورية مفعمة بالليبرالية ومفتوحة على أفكار الإذعان والاعتراف بالحقوق السياسية للهنود والسود والمُوَلّدين.

يجب أن نتذكر في هذا المقام، على سبيل الخصوص، أنه رغم أن الشرارات الأولى للاستقلال تظهر نحو عام ١٨١٠م، في أثناء حرب إسبانيا ضد نابليون، فإن الحركة أخذت تزيد وتمت خلال السنوات العشر الأولى من حكم فرناندو السابع، حتى عام ١٨٢٤م (Ayacucho)، أي عندما كانت إسبانيا منقسمة على نفسها بسبب ما عليه من نزاع، أي عندما وصلت الصراعات السياسية إلى أشدها ووصل الاختلاف إلى الموقف المتعلق بانصياع أمريكا: ففي عام ١٨٢٠م هناك التمرد في لاس كابيثاس دي سان خوان C. des. Juan* في صفوف الحملة التي يرأسها رفائيل رييجو. وحتى عام ١٨٢٣ هناك الفترة الدستورية، التي تعرضت لمقاومة شديدة من قبل قطاع من الشعب الإسباني، كما تعتورها الديماجوجية الدائمة، وفي هذه الفترة أيضًا نجد الغزو الفرنسي الجديد الذي قام به "المائة ألف من أبناء سان لويس" وإعادة الحكم الاستبدادي والقمع الفرناندي الشديد.

---

* إحدى البلديات الكائنة في إسبانيا محافظة أشبيلية (المترجم).

لو لم يكن هذا الشقاق موجودا في إسبانيا، فإن استقلال أمريكا كان سيحدث في تاريخ آخر، وفي شكل آخر على وجه الخصوص. كما أن تراكم المَذَمّات التي يعددها بعض الإسبان لبعضهم الآخر أدى إلى ازدهار مناهضة ما هو إسباني الذي عليه دعاة الاستقلال من الأمريكيين، الأمر الذي حملهم على التنكر لكل واقعهم على مدى قرون ثلاثة مضت، والقيام بإحلال أنماط مصطنعة محله وإدخال الزيف في التفسيرات والتحليلات التي يقدمونها للبلاد التي يحاولون تأسيسها[١٢١].

كان الغزو الفرنسي، ١٨٠٨، ذا نتائج كارثية: عجّل بالشقاق الذي كان كامنا في إسبانيا، ولمّا يبدأ الغزو، وأدى إلى حدوث ما سوف يكون أمرا حاسما طوال القرن التالي: الشقاق بين الإسبانيات Españas.

---

(121) انظر الكتاب المذكور لماكسيمو إتشيكوبار.

الفصل الخامس والعشرون

بين التشنج والاستكانة

غزو السياسة:

كانت لفظة سياسة، بالمعنى الذي عليه في وقتنا الحاضر، موجودة في إسبانيا ابتداء من برلمان قادش (١٨١٠ – ١٨١٤) وبشكل مناظر في باقي البلدان، أي عندما بدأ تطبيق الديمقراطية والانتخابات والأحزاب السياسية أو ما يماثلها، وكذلك الصحافة السياسية بشكل خاص. جرى إدخال ما يمكن تسميته "الحياة السياسية" في المجتمعات الأوربية (والغربية بعامة وبعد ذلك في المجتمعات الأخرى) ودخل مع ذلك نمط إنساني – يمكن أن يصل إلى مهنة- إنه "السياسي". وقد رسم هذا ملامح شديدة الاختلاف للبلاد التي جاءت بعد الثورة الفرنسية. والتي سبقتها قبل ذلك في إنجلترا والولايات المتحدة منذ استقلالها خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر. من الواضح أن زمن الثورة نفسه وما تلاه من الحروب النابليونية قطع، أو غير، ما كان قد بدأ قبل ذلك بشكل ضيق، أي أن السياسة تسيطر على المجتمعات الأوربية منذ هزيمة نابليون، أو بمقولة أخرى، منذ عصر الإصلاح في فرنسا Restauración، وعودة الموظفين وبدء مُلْك فرناندو السابع في إسبانيا وإقرار "الحلف المقدس" وازدهار المجتمعات السرية أي جميع المكونات السياسية للعصر الرومانسي.

كانت إسبانيا مبكرة في هذا المقام، فقد بدأ النشاط السياسي، وبشكل حي للغاية، في خضم حرب الاستقلال. وتم سبك مسمى "ليبرالي" في إسبانيا بالمعنى السياسي للكلمة، وانتقل من لغتنا إلى باقي اللغات. وفي نهاية المطاف هناك دستور قادش الذي انتشر بشكل كبير في أوربا رغم أنه قد أُلغَّى على يد فرناندو السابع وبشكل سريع، أي عندما اعتلى العرش. وبالتالي لم يكن للدستور صلاحية إلا فترة قصيرة (١٨٢٠ - ١٨٢٣م). أدى "التراجع" الذي تمخض عن استباحة دم الدستور والليبرالية إلى إجهاض الأصالة التي كانت إسبانيا تبديها، وأسهم في دخولها في مرحلة جديدة من العزلة كما زاد من حدة الأزمة الأمريكية التي أضحت بلا علاج وبذلك بدأ تفكك الملكية القديمة.

غير أن ما يهمني أن أبرزه هنا هو تسييس الرؤية التي عليها المجتمعات وتاريخها، وهذا بدأ مع القرن التاسع عشر. أصبح كل شيء مفهوما من المنظور السياسي وعلى أساس الأحداث في ذلك الحقل. وأخذ الانتباه يتوجه أساسًا إلى الشخصيات الممثلة للسياسة، أما ما بقي فقد احتل مركزا ثانويا. ولما كانت السياسة سريعة "الحركة" - متقلبة في أغلب الأحوال - فإن متابعتها تتطلب الانتباه الشديد وتحتل مساحة كبيرة من الدراسات. السياسيون كُثر - وهذا ملمح عادة ما يُنسى - وهم يكافحون من أجل السلطة، ويخلف بعضهم بعضا في الحكم، ويقضون فترات قصيرة بشكل شبه دائم، كما أن السياسة عبارات expresa، تتكون من كلمات تؤخذ بشكل شبه دائم مثلا لواقع. وحتى يمكن فهم ما كانت عليه حياة أمة أوربية خلال القرون الماضية يجب سبر أغوار واقعها وتحليله، ومنذ بداية القرن التاسع عشر يفترض أنها أصبحت عبارة عن الذي كان يقوله السياسيون.

هذا أمر مبالغ فيه بما لا يدع مجالا للشك، فالسياسة لست أكثر من مكوِّن آخر - مهم - في الحياة العامة، ولا يمكن أن تستوعب هذه الحياة كاملة، ولا نقول ذلك بالنسبة للحياة الخاصة، التي تعتبر أكثر أهمية بكثير، كما أنها متأثرة بالفعل وتتعرض للتقلبات

بسبب السياسة، لكنها تسير تحتها وتعيش نوعا نسبيا من الاستقلال الذاتي كما تشكل لُحمة ونواة التاريخ[122].

كان وجود يوميات جلسات البرلمانات وكذا الصحف بشكل خاص بمثابة إغراء كبير، إذ وجد المؤرخون أنفسهم وأمامهم "المواد" التي يريدونها جاهزة وفي متناول أيديهم، واتجهوا إلى تحديد ملامح التاريخ أو أقل منها قليلا بدهاليز الحياة السياسية. أعتقد أن ذلك خطأ وأن من الجوهري عدم إدخال "التسييس" بشكل جيد على رؤية التاريخ خلال القرنين الأخيرين.

وهذا أمر ضروري في الحالة الإسبانية، فالسياسة الإسبانية خلال ذلك الزمن كانت تتسم بالتغير وعدم الاستقرار وعدم الاتساق بدرجة كبيرة، وهذا من المعطيات التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار لكنه يدعونا إلى التمييز بدقة بين الواقع الإسباني في إجماله والسياسة التي تمارسها إسبانيا.

وإذا ما أمعنا النظر في أمريكا الإسبانية وجدنا أن الموقف يزداد خطورة. هناك أسباب لذلك يجب بحثها وحولها سوف ألقي نظرة سريعة، تتعلق بأن السياسات التي اتخذتها الجمهوريات الأمريكية بعد الاستقلال كانت غير مستقرة بشكل كبير وكثيرا ما كانت مصحوبة بدرجة كبيرة من العنف. تركز الانتباه حولها بشكل يصل إلى درجة الهوس، ومن هنا كان الناتج أن النظرة الحالية لإسبانو أمريكا مؤسفة. وإذا ما كانت هناك بعض القيود يمكن القول إن السياسة الإسبانو أمريكية يمكن أن تكون "مؤسفة" (كنت أود أن تكون هناك صفة أكثر إيضاحا) لكنني لا أظن أن ذلك هو واقع الدول الإسبانو أمريكية.

---

(122) هناك مثال بارز على هذا وهو كتاب رايمون كار إسبانيا ١٨٠٨ – ١٨٣٩ (أكسفورد ١٩٦٦، هناك ترجمة إسبانية)، وهو كتاب لا يخلو من قيمة، لكنه تاريخ سياسي بشكل شبه حصري. ومن أمثلة ذلك أنه يعني بموقف الاحتجاج الذي كان عليه جيل ١٨٩٨م. بعد أن شرح واقع زمنه، وبالتالي لم يضع ذلك الواقع في الحسبان، يبدو من البديهي أن هؤلاء المؤلفين كانوا أكثر أهمية من أغلب السياسيين الذين يتحدثون عنهم بشكل تفصيص.

يجب أن نضع في أذهاننا مدى تأثير هذه الرؤية السياسية للأمور، واستبعاد جميع الرؤى الأخرى، على التباعد الحاسم بين إسبانيا وأمريكا الإسبانية وهو تباعد مشئوم بالنسبة لكلا الطرفين، كان مؤداه تحويل الاستقلال - الذي ربما كان سابقا لأوانه لكنه طبيعي للغاية وضروري على المدى الطويل، إلى نوع غريب من "الهوس" الذي أفقر الأطراف بشكل يعجز عنه الكلام وجعلها فريسة سهلة لجميع أنواع الاعتداءات. كان من الضروري أن يتم تجاوز هذا التسييس المتبادل - بدرجة ما - حتى تأخذ العلاقة بين الدول المتحدثة بالإسبانية طابعا عاديا، وتأخذ هي بالتعرف على جذورها المشتركة ومشاريعها المشتركة الممكنة.

ولهذه الأسباب السابقة وبناء على أن الأحداث السياسية أصبحت معروفة منذ القرن التاسع عشر فإنني سوف أقتصر في إشاراتي إلى الأمر على ما هو ضروري، وسوف أسلط الضوء على انعكاس ذلك على الواقع العام لإسبانيا (وعلى أمريكا في حالة حدوث ذلك)، وعلى الوظيفة التي كانت لهذه العناصر على جميع أبعاد الحياة. وفي هذا الإطار أقول لقد كانت السياسة مهمة بغض النظر عن الذبذبات المتعلقة بمحتواها الخاص أو التقييم الذي تستحقه مختلف الأحزاب أو الرجال الذين قادوها. أريد القول إن التصرفات الفعلية التي قاموا بها، ورغم معارضتهم، التي كانت متطرفة في أغلب الحالات، كثيرا ما كانت متوائمة Convergente وأن كل شيء كان "مساويا" بشكل غير متوقع، للحياة العميقة التي كان عليها المجتمع الإسباني في إجماليه. وانطلاقا من وجهة النظر هذه نشأت عملية "تجانس" على السياسة حيث يلاحظ أن الراديكالية الشائعة تنبئ باستقطاب كامل.

العزلة والانحدار:

هناك درجة من التبيتية tibetanización زادت منها سهولة الاتصال خلال ذلك العصر، وهي تمثل بالنسبة لإسبانيا ربع القرن الذي يبدأ من الغزو النابليوني وينتهي

بموت فرناندو السابع (١٨٠٨ - ١٨٣٣). تمثل الأعوام الست للحرب وكذا الغزو درجة كبيرة من الخلل في الحياة الإسبانية، ولم تتوقف الحياة مع هذا ذلك أنها لا تتوقف أبدا حتى في اللحظات الأكثر درامية أو ألما وكذا في مكوناتها العميقة وخاصة في الحياة اليومية، حيث تواصل سيرتها. وإذا ما قرأنا الأعمال التي تعكس ذلك العصر بشكل واضح، ومنها، على سبيل المثال، **ذكريات عجوز ومذكرات**، لأنطونيو ألكالا جاليانو سوف نجد البرهان على ذلك بسهولة.

الأمر الخطير هو أنها نهاية الحرب، التي كان يجب أن تكون تطبيع إسبانيا، لم تكن كذلك نظرا للطابع الذي يتسم بالحقد والرجعية الذي عليه الحكومات المستبدة حتى عام ١٨٢٠م. وبعد أن جرت إعادة العمل بالدستور ووجود فترة ليبرالية، أي بعد انقلاب مثّل خطوة أخرى في الطريق النشاز، اتضح أن ذلك لم يكن على الدرجة المثلى لأن ليبرالية الأعوام الاثني عشر قد زالت وحلّ محلها التطرف والعناد الذي كان عليه "الغلاة" (وهي أبرز تسمية لحزب سياسي)، وحل محلها كذلك الروح التي ترمز إليها أغنية Trágala (ابْلعَهْا) * الأمر الذي أدى إلى توتر حاد، ومرحلة جديدة من عدم التسامح وأدى إلى التدخل الفرنسي عام ١٨٢٣ لإقرار الحكم الاستبدادي لفرناندو السابع[١٢٣].

لم يسعد هذا من جانبه بممارسة تلك السلطة، وكان خارج السياق ومرفوضا من قبل أغلب الإسبان، وليس هذا فقط بل مارس عمليات قمع رهيبة هي محصلة الخوف المصحوب بروح الانتقام، وكانت النتيجة النهائية لذلك على النحو التالي: هناك، في المقام الأول، الهجرة المطولة التي قام بها الليبراليون - وخاصة إلى إنجلترا - وكان من بينهم شخصيات مهمة، كما استمرت موجة هذه الهجرة على مدار عشر سنوات، وفي المقام الثاني

---

* هذه الكلمة "ابلعها" كانت بداية أبيات شعرية لأغنية كان الليبراليون الإسبان يعنفون بها أنصار الحكومة الستبدادية خلال الثلث الأول من ق ١٩. (المترجم)

(123) انظر: "إسبانيا وأوربا عند موراتين" وخاصة في النهاية، وكذا "أنطونيو والكالا جاليانو (في الإسبان)

هناك مناخ الوشاية والشك الذي أربك الحياة العامة وذهب بها إلى العمل السري (الجماعات السرية، والمؤامرات...إلخ)، ثم يأتي في المقام الثالث العزلة عن باقي الدول والتقليل من أداء الهيئات الثقافية إلى أبعد الحدود وكذا المطبوعات الدورية وطباعة الكتب والإفادة من التجديدات الأوربية في ذلك الوقت.

أضف إلى ما سبق، أنه بمجرد وفاة فرناندو السابع بدأت الحرب الكارلية الأولى، وكان تأثيرها السلبي العام أقل مما يمكن تصوره، ثم عاد المهاجرون وأعيد الاتصال بالعالم الخارجي. غير أن الأمر الذي لا شك فيه أنه عنصر نشار – ملحوظ بشكل جيد في آخر ما كتب ماريانو خوسيه لارّا -- وامتد ذلك حتى عام ١٨٤٠ أي مرحلة اللااستقرار والاضطراب التي بدأت عام ١٨٠٨م.

الانحدار كان النتيجة التي لا مناص منها وظل ذلك خمسة عشر عاما (أي على مدى جيل كامل) عاشته إسبانيا في كثير من جوانب الحياة مقارنة بالدول الأكثر أهمية في أوربا. وفي عام ١٩٤٩، علقت على ذلك من خلال مقال لي بعنوان "صورة مصغرة للرومانسية"[١٢٤] وهو حدث واضح من خلال الأعمال الأدبية: أي أن الجيل الرومانسي الإسباني الأول ظل على نهج الكتابة الكلاسيكية الجديدة، أما الجيل الرابع، الذي يبدو أنه الجيل الرومانسي عن جدارة فهو ذلك الذي يخرج من الرومانسية وهذا ما يبرهن عليه الكتاب الذين طال عمرهم وعاشوا بعد الفترة الرومانسية بالمعنى الحرفي لهذا المصطلح.

إلا أن ما هو مهم وما أبرزته وأوضحته في هذا المقال القديم هو أن ذلك الانحدار لم يؤثر على **الحياة الفعلية**: كان الإسبان رومانسيين في الوقت نفسه الذي عليه الأوربيون، وكان هناك توافق بين الأجيال من الناحية التاريخية، بمعنى أن التأخر مرجعه بعض الأنشطة الثقافية على سبيل المثال، وكذلك الاقتصادية والفنية والسياسية، ولكنه لا يرجع

---

(124) ورد في المجلد المعنون **مقالات التعايش** (الأعمال الكاملة – الجزء الثالث). يتم العثور هناك على بيانات محددة حول الأجيال الأربعة من الرومانسيين، وتاريخ كل جيل وأسماء الشخصيات الأكثر تمثيلا لكل واحد من هذه الأجيال في إسبانيا وفي باقي أوربا، كما أن هناك إشارة إلى بعض الأعمال التي تعكس ملامح العصر.

إلى شكل الحياة. ومعنى هذا أن هناك انحدارا داخليا في إسبانيا لأن الأبعاد المختلفة للحياة لا تسير بشكل متسق ومتزامن. ولما كان الاهتمام قد تركز بشكل تفصيلي على تلك الأبعاد "المتأخرة" أو التي تعرضت لقلاقل من جراء ذلك الانحدار فإن الرؤية العامة لإسبانيا منذ بداية القرن التاسع عشر كانت عكرة.

ومما لا شك فيه أن هناك نوعا من التوازي مع الموقف في أمريكا: فبعد أعوام الصراع المرير من أجل الاستقلال هناك فترة تتسم بعدم الاستقرار في داخل البلدان التي كانت في مرحلة تشّكل. كما أن القطيعة مع إسبانيا أسفرت عن بدء فترة عزلة لم تعشها أمريكا أبدا منذ القرن السادس عشر. أضف إلى ذلك أن تركيز إسبانيا على شئونها الداخلية، وكذا عدم وجود دور كبير لما هو عَامُ، بشكل حقيقي خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر كان له انعكاسه المؤكد، والمفاجئ والمؤسف، على الوضع الذي كان عليه انفصال البلاد الأمريكية أي أنه لم يكن له صدى كبير. اتسم انعكاس الصراعات من أجل الاستقلال واكتماله بأنه محدود للغاية وهنا يعني وهَنًا قوميا غريبا"[١٢٥] وخاصة إذا ما وضع في الحسبان ماهية الموقف الإسباني قبل ذلك بوقت قليل جدا. فالبرلمان في قادش كان مكونا من أعضاء يسمّون "إسبان أوربيون" و"إسبان فيما وراء البحار" وهما مسميان متماثلان بشكل دقيق. وتقول المادة الأولى من دستور ١٨١٢م: "الأمة الإسبانية هي جماع جميع الإسبان في جزئي الكرة". وفي المادة العاشرة يتم تعداد العناصر التي تضم "الأرض الإسبانية"[١٢٦].

---

(125) انظر كتاب منشور فرنناندث ألماجرو **"إذعان أمريكا وانعكاس ذلك على الوعي الإسباني"**، مدريد ١٩٤٤م.

(126) الأرض الإسبانية تضم في شبه الجزيرة وأملاكها والجزر التابعة وأرغن وأستورياس وقشتالة القديمة وقشتالة الجديدة وقطالونيا وقرطبة وإكستريمادورا وجليقية وغرناطة وجيان ومولينا ومرسية ونابارّه، والمحافظات الباسكية، وأشبيلية ويلنسيه وجزر البليار والكناري وكذا الأملاك في أفريقيا. أما في أمريكا الشمالية فهناك إسبانيا الجديدة مع جليقية الجديدة وشبه جزيرة يوقطان وجواتيمالا والمحافظات الداخلية في الشرق والمحافظات الداخلية في الغرب وجزيرة كوبا مع فلوريدا الاثنتين، والجزء الإسباني في جزيرة سانتو دومنجو وجيرة بويرتوريكو والجزر التابعة لها والتابعة للقارة في هذا البحر وذاك. وفي أمريكا الجنوبية هناك غرناطة الجديدة وفنزويلا والبيرو وشيعي ومحافظات نهر دي لابلاتا وجميع الجزر التابعة في البحر الباسفيكي وفي الأطلنطي، وفي آسيا هناك جزر الفيلبين وتلك التي تتبع حكومتها".

لكن الأمر الأكثر أهمية هو أن الدستور موقع من قبل أعضاء البرلمان دون تمييز بينهم وبشكل غير منتظم، سواء كانوا من إسبانيا أو من الأراضي الواقعة فيما وراء البحار[١٢٧]. كيف كان من الممكن أنه، بعد عشرة أعوام أو اثني عشر، يُرى في إسبانيا أمر تفتيت ما كان على مدار قرون ثلاثة الملكية Monarquía، دون أدنى اهتمام؟

خوف إسبانيا من نفسها:

كانت حرب الاستقلال دوامة كبيرة من العنف، وكان الغزو الفرنسي مثار شؤم وغير رحيم منذ اللحظة الأولى أي منذ عملية الإعدام الجماعي رميا بالرصاص التي

---

(127) من الملائم ذكر القائمة كاملة وهي وثيقة مهمة لكنها غير معروفة بشكل جيد، أي قائمة الذين وقعوا في قادش يوم ١٨/ ٣/ ١٨١٢م. غير أنه لما كانت القائمة طويلة بما يزيد عن الحد سوف اقتصر على ذكر أسماء الوحدات الإدارية التي يمثلونها طبقا للترتيب الذي ورد: تروال، ومحافظة لايوبيلا دي لوس أنخلس، وجليقية، وبلنسية وكوبا وبلنسية، وبلنسية وأشبيلية، وجليقية وبنما والكناري وإكستريما دورا، وقادش والكناري وتلكسكالا وجليقية ومملكة غرناطة الجديدة ومحافظة ثاكاتيكاس ومرسية وكوستاريكا وإمارة أستورياس ومدينة بالما وسلسلة جبال رندة وإدارة أستورياس وشيقوبية، وقونقة ومرسية ومحافظة صوربا وألبا وغرناطة ولامانشا، والإدارة العليا لبرغش وجليقية ونيكاراجوا وجليقية وجليقية وجليقية وإكستريمادورا. وإكستريما دورا وليون ومملكة غرناطة ومحافظة قادش ومملكة جيان وليون والكناري وإمارة أستورياس والمكسيك وإدارة ميورقة وليون وسانيو دومنجو ومحافظة بلد الوليد وجوانا خواتو وأسبانيا الجديدة ودورانجو وعاصمة مملكة بيثكايا الجديدة وقونقة وأرغن وليون ومرسية وبلنسية وبلنسية وبلنسية وبلنسية وبلنسيا، ولامانشا ومدينة بنيسْكولا وبالنسيا والإدارة العليا في ليون وبرغش وتاباسكو ومونتفيديو وإدارة أشبيلية وقطالونيا وهافانا وجوائيمالا ومدينة ثوبيرا وأستورياس وثامورا وجليقية ومحافظة قونقة وإدارة قادش وكيريتارو وسان سلبادور وإسبانيا الجديدة وبيراكروث وإسبانيا الجديدة وبلنسيه وبالنسيا وأرغن وإكستريما دورا، لاينشا، وقطالونيا والفيليبين وجبوثكوا وبلنسية وإشبيليه ومرسيه وبيرو ويوينوس أيرس وأسبانيا الجديدة ولامانشا وماراكيبو ومدينة جيرونا وبيرو وبلنسية وبيرو وتروخيو دل بيرو، ونابارّة وميورقة وإكستريما دورا وإكستريما دورا والإدارة العليا لأرغن وقطالونيا وإكستريما دورا وقطالونيا ومحافظة أبيلا ومحافظة سلمنقة وقرطبة ومولينا وميورقة وجليقية ومدينة ماردة وميورقة وبلدية قطالونيا ويوكتان وبونيوس أيرس وبيرو وبيرو وجواياكيل وهندوراس وكوا ويلا ومدينة بطليوس وبيثكايا وشيلي ومملكة بيرو وطليطلة وبيرو وقادش وبلدية مرسية والمدن السبعة لمملكة جليقية وأورنسى في جليقية وقطالونيا وأستورياس وقطالونيا وقطالونيا ووادي الحجارة، وجزيرة الكناري وقطالونيا وقطالونيا وبلدية إكستريمادورا وقطالونيا وحليقية وبلنسية ومدينة بلنسية وإمارة أستورياس وقونقة وتورو وفنزويلا ومملكة غرناطة الجديدة وشيلي وفنزويلا وبوينوس أيرس وتشيابا ومحافظة بلد الولدي في مِيْتشوَا كان وأسبانيا الجديدة والبيرو ومدريد وليون.

وقعت عام ١٨٠٨م في مدريد والتي خلّدها جويا في لوحته. كان رد الفعل الإسباني شديد العنف أيضا وهنا تجدر محاولة شرحه.

في المقام الأول، نجد أن القوات النابليونية قامت بقض مضجع فترة سلام طويلة على مدار ما يقرب من قرن، فابتداء من عام ١٧١٤م لم تحدث هناك عمليات مسلحة على الأرض الإسبانية. وكانت الحروب التي دارت خلال القرن الثامن عشر حروبا بحرية بشكل يكاد يكون مصريا، فلم يكد يكون هناك إلا توغلات إسبانية محدودة في فرنسا، أو توغلات فرنسية في إسبانيا في أثناء الثورة. ومن جهة أخرى كان ينظر إلى فرنسا نظرة تقليدية على أنها الأمة الحليفة والصديقة، ورغم هذا فإن موت ملوكها بالمقصلة جعل الأفكار تتغير، كما أن التحالف مع نابليون (ترافالجار) جعل الناس ترى الغزو الفرنسي على أنه خيانة. وفي المقام الثالث نجد أن الأمر ليس حرب بين جيوش وإنما قام الغزاة بعدم احترام الملوك وأُسَرهم حيث أخذوهم إلى فرنسا وتم تدنيس العرش وأرسوا سابقة تفتقر لأي سند قانوني. تضافرت الخيانة مع الازدراء. وفي النهاية نجد الفرنسيين يمثلون اللارحمة واللادينية وتدنيس الكنائس ونهب معتقدات الشعب الإسباني. أسهمت كل هذه العناصر في تحريك الإسبان وإثارتهم إثارة ما بعدها إثارة بما في ذلك الغضب الشخصي. شعر الإسبان بأنهم تأثروا لا من حيث أنهم مواطنون في بلد ما بل من حيث ولائهم للملكية ومن حيث أنهم مسيحيون وفوق كل هذا من حيث كونهم رجالا ونساء، أي أشخاصا.

ولنتخيل أن هذا الموقف استمر لست سنوات في مواجهة الجيوش الأولى في أوربا يقودها عبقري الحرب، ويحاربون حربا ضروسا في جميع أنحاء الأراضي وأحيانا ما يخسرون وأخرى يفوزون، بمصاحبة الشاهد الدائم الذي هو العدوان والنهب والعقوبات والتدنيس. جرى كل ذلك على خلفيات مثل إعجاب قديم بالفرنسيين والصداقة الجريحة بسبب عدم الولاء. وخلال تلك الفترة الطويلة - أي ضعف زمن الحرب الأهلية الإسبانية - عاشت البلاد تحولا شجع عليه التطرّف.

وعندما حل السلام، أي عندما تحررت إسبانيا من غزاتها ومن الوجود غير المريح لحلفائها من الإنجليز، فبدلا من أن يعم الكرم والأخوّة، استمرت الانقسامات انطلاقا من السلطة (القوة) وجرت مطاردة أصحاب الكفاءات وأدين رجال من ذوي الكبرياء الرفيع والوطنية الخالصة.

وابتداء من ذلك أخذ العنف، الذي لم يظهر طوال ما يقرب من قرن من الزمان، يعلن عن وجوده بقوة وسرعة: هناك تمرّد وقمع ومؤامرات وجسارة ديماجوجية في أثناء الأعوام الثلاثة التي سرى فيها الدستور، وهناك غزو جديد تم التحفيز عليه من الداخل، وقابلها قطاع من البلاد بحماس، وهناك قمع فظ وأحمق بعد ذلك. وبعد موت الملك هناك صراع محموم ومستتر جزئيا أخذ يتحول من حرب مفتوحة إلى حرب أهلية

وفي أعماق روح الإسبان أخذ الشك يدخل إلى قلوب الإسبان في أن بلدهم مكونة من مادة متفجرة، سرعان ما تنفجر في أعمال عنف. وهؤلاء الذين لا يشعرون أنهم يميلون إليها ينتابهم الخوف، والأخطر من هذا الشعور ببعض الاشمئزاز. ومن خلال آلية شديدة الشبه بالآلية التي عليها الأسطورة السوداء، أخذ هذا الانطباع يُعّم: إلى ما وراء الأحداث المحددة التي يمكن أن تبرره، وأخذ يلقي بظلاله على جميع جانب الواقع الإسباني. وأخذ يظهر توجه يقول إن إسبانيا هي ذاك، أي عنف وأنها على استعداد دائم لأن تخرج من عقالها. لا يهم أن يكذِّب التاريخ ذلك، وأن يظهر أن إسبانيا ظلت طوال ألف عام بلدا أقل عنفا مقارنة بالآخرين – رغم أن الجرعة كانت فيها جميعا كبيرة بشكل محزن –، التاريخ إذن غير معروف وغير معنى به من قبل من يعرفونه أو أنه يجب أن يعرفوه.

أخذ الإسبان يخشون أنفسهم، وعدم الثقة في ردود أفعالهم والشك في أن ردود الأفعال هذه يمكن أن تأخذهم إلى حيث لا يريدون. وهذه هي ظاهرة اجتماعية شديدة الغرابة، كما اعتقد أنها ليست شديدة الشيوع، وهذا أمر جديد في تاريخ إسبانيا كاملا، لكنها ظاهرة مهلكة ومدمرة للقدرة على الاستشراف التاريخي. يرى الإسبان – أو يشعرون أنهم معرضون

للتشنجات وربما لن يكونوا قادرين على السيطرة على أنفسهم، وعلى تصرفاتهم الجماعية، وأنهم لن يستطيعوا أن يقودوا مساراتهم إلى حيث يريدون بل سوف "يطلقون" disparas. أعتقد أن هذه التعبيرات التشبيهية تترجم جيدا الشعور الذي يعيش أغلب الإسبان خلال القرن التاسع عشر، وابتداء من لحظة ما تحدث مرة أخرى في القرن الذي نعيشه.

هذا يفسر القرار المتخذ ضمنيا بالحيلولة دون التشنجات **بأي ثمن**، ومن أمثلة ذلك ما يتعلق **بالخمود** marasmo، وهي لفظة شاع استخدامها خلال السنوات الأخيرة من القرن، بمعناها المجازي، بعد معناها الطبي (الذي انضم إليه عام ١٨١٧) حيث يتم تعريف المفردة على النحو التالي: توقف، إيقاف، وعدم حركة سواء في باب ما هو أخلاقي أو ما هو فيزيائي". وفي مقالات لأونامونو بعنوان **"حول التعلق بالتقاليد"**، والتي نشرت في **إسبانيا الحديثة** عام ١٨٥٥م هناك عنوان: "حول الخمود الحالي في إسبانيا". ولا شك أنه لم يكن على الدرجة التي ظنها أونامونو، كما أنه هو نفسه كما يقول ألا يكون الأمر على هذا النحو. لكن الأمر الحقيقي هو أنه كان انطباعا مسيطرا وأن الخمود كان مقبولا من حيث أنهم هرب من التشنج.

غير أنني أعتقد أن من الضروري المزيد من التساؤل وعن قرب حول جذور هذا الخوف. يلاحظ أن العقود المتعلقة بالعصر الرومانسي، وتحديدا منذ بداية حرب الاستقلال وهي نهاية الحرب الكارلية، يكثر فيها الاهتمام **بالقيمة الشخصية** بشكل يثير الدهشة. فالصراعات المسلحة والمؤامرات وطريقة مواجهة عقوبة الإعدام وحالات الشجاعة والإقدام شديدة الشيوع، كما أرى أن ما هو شخصي هو الملمح الأكثر قيمة وطرافة في ذلك العصر. لا يمكن التفكير بجبن – وهذه ظاهرة تتكرر كثيرا في التاريخ، وعادة ما لا توضع في الاعتبار نظرا للاتجاه الذي ينحو إلى انتزاع الملمح الشخصي، والذي اتسم به علم التاريخ لحظة دراسته – وهذا من سمات المجتمع الإسباني الرومانسي. كان الخوف في الأساس من "انفجار" العنف، الذي يذهب إلى أبعد مما هو شخصي، وأنه يتجلى في الحرب وفي

الصراعات السياسية أو عمليات قمع المنشقين. كما أن هذه الانفجارات ليست **تلقائية** تخرج من مجتمع أصيب بالجنون، بل تم الإعداد لها سلفا من خلال أشخاص أو مجموعات قليلة العدد، أو بواسطة **مؤثرات** تساعد على حدوث هذه الانفجارات.

هناك أكبر حالات العنف خلال عصر الملك فرناندو السابع، سواء ضد الليبراليين ابتداء من عام ١٨١٤م أو ضد لواقعيين ابتداء من عام ١٨٢٠م، ثم تظهر من جديد ضد الليبراليين بعد عام ١٨٢٣م، هناك مذبحة الرهبان في مدريد عام ١٨٣٤م والأحداث العنيفة في الحرب الكارلية*. وهذان الحدثان تم تدبيرهما كما أنهما يعبران عن القابلية للانفجار، أي أنهما يشيران إلى إمكانية وجود **التلاعب** بها، إذ عندما تشتعل لا يمكن إيقافها. وهذا هو الذي يساعد على وجود حالة الخوف في المجتمع الإسباني – بمبعد عن شيوع الجرأة بين أفراده – وهذا العنصر السلبي هو الأكثر أهمية بين العناصر السلبية في التاريخ المعاصر.

كيف يمكن فهمه؟ ليس من السهل، كما يوجد فيه جزء يستعصي على الوضوح، لكن من البديهي أنه درجة من القلق واللانظام في المجتمع من حيث كونه نظام فعاليات sistema de vigencias. وهي التي كانت قد سيطرت على المجتمع الإسباني منذ العصور الوسطى، وكانت واضحة وجلية منذ القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر، ثم أخذت تضعف بسرعة. أعتقد أنه يجب أن نربط هذه الظاهرة بأزمة **المشروع التاريخي** لإسبانيا وهو المشروع الذي أخذ يتحطم خلال القرن الثامن عشر رغم ما له من مزايا. ومن الأمور ذات الدلالة هو تغيير وظيفة الدين، فقد أخذ يبتعد عن كونه عقيدة يكون عليها المرء (أو إيمان شخصي حَيّ في عدد متزايد من الأشخاص) ليصبح "موقفا"، و"أيديولوجية" ولكن بقليلين، حيث يحارب من أجل الأيديولوجية أو ضدها. ومن المؤكد أن الموقف القديم ظل قائما لدى القطاع العريض من السكان (وخاصة بين النساء والفلاحين: إذ تشهد لأول مرة انشقاقا بين الموقف الديني للرجال والنساء، وبين

الفلاحين والحضريين)، لكن يتجلى ما هو لاهوتي وما هو ضد اللاهوتي، وكان له تأثير ضخم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ولم يزل حتى يومنا هذا.

أخذت البنية القديمة للمجتمع الإسباني تعيش أزمة ولم تحل محلها بُنَى أخرى مثلها في المتانة الملاءمة. وعندما يشعر "بأنه يمكن أن يحدث أي شيء" فإن المحصلة هو أنه لا يمكن أن تكون هناك أي بنية، أو بنية ذكية على الأقل ومتسقة وتستحق العناء، وأخذت لغة الكلام تسود طوال القرن التاسع عشر. قلت منذ وقت أن في إسبانيا لا يقال ما يحدث بل يحدث ما يقال (جالدوس هو البرهان العبقري على هذا وليس من الناحية النظرية).

تُعتبر السنوات التي تبدأ من ثورة سبتمبر ١٨٦٨م (La Gloriosa) وحتى إعادة الملكية (1875م Restauración) حالة راديكالية من فقدان الاتجاه في بلد، فإذا ما قرأنا محاضر جلسات البرلمان التأسيسي لعام ١٨٦٩م نستغرب من موقف يسمح بأن يقال أي شيء طالما أن ليس له معنى أو أي صلة بالواقع. وكانت اللامسئولية هي العامل المسيطر على الجميع ابتداء من الديمقراطيين وانتهاء بالأساقفة اللهم إلا استثناءات قليلة مثل حالة كل من باليرا وكاستيلار.

يُفهم بشكل جيد للغاية أنه عند إعادة الملكية في شخص ألفونسو السابع، وعند البدء في مرحلة الإعادة كان الإرهاق قد حل بالإسبان الذين أصبحوا على استعداد للتعايش في سلام ووئام رغم أن ذلك يمكن أن يكون على حساب بعض القيود والتنازلات وتأجيل حل المشاكل الكبرى وتقليم المقاصد القومية وانعدام الطموح والميل إلى الرضا بما هو بسيط. أي أن الأمر ببساطة يعني القبول بفترة الخمود، وكأن ذلك مرحلة استجمام في التاريخ، قادرة على أن تعالج من خلال مرحلة أخرى أطول منها بكثير من مراحل التشنج.

لكنني قلت قبل ذلك أن التسييس خطأ لأنه لا يسمح برؤية ما هو قائم تحت غطاء السياسة، وهنا يجب التساؤل عما كانت عليه إسبانيا حقيقة بعد زوال النظام القديم.

الفصل السادس والعشرون

تفكك المجتمعات الهسبانية

الطبيعة والوضع:

لا يمكن فهم الأنماط الاجتماعية للحياة الإنسانية إلا إذا استخدمت الدرجات الملائمة، بمعنى أنه يجب رؤية الناس كأشخاص تحدد مشروعاتهم ملامحهم، وليس رؤيتهم كحصيلة لعناصر موضوعية. وعلى هذا فمن الجوهري التفرقة بين الطبيعة الوضع، فالأول عبارة عن ذلك الذي يكون عليه المرء، أما الثاني فيتعلق بوضعيته في ظل ذلك. يمكن أن يكون المرء غير راض عن الوضع وليس عن طبيعته التي يتسق معها تماما. وفي هذا المقام قمت أحيانا بوضع مثال للذّكر الذي لا تهتم به النساء: فوضعه يبدو مؤسفا في نظره، وخاصة أنه يشعر بأنه متسق مع طبيعته. هناك حالة الكاتب الذي لا يجد ناشرا أو لا يتلقى أي نقد أو أن النقد معاكس أو أن ليس له قراء، فيعتبر أن وضعه مؤسف لأنه مهتم بطبيعته ككاتب.

كانت الطبقات الشعبية خلال القرن الثامن عشر (وربما كان ذلك في إسبانيا أكثر من أي بلد آخر) غير راضية عن وضعها لكنها سعيدة بطبيعتها وما كانت عليه وهذا ما يفسر "الشعبية" المسيطرة وخاصة في النصف الثاني من القرن. وكان مؤدى هذا أن كان من

الممكن وجود "سعادة وسطا"[128] رغم الفقر النسبي والأمور المحزنة الأخرى وكانت هذه السعادة ذات مستوى مرتفع.

أخذ التغير يعتري هذا الوضع مع نهاية "النظام القديم"، ومن جانب آخر لا يمكن أن يُلاحظ أن هذه النهاية كانت شديدة الانحدار حيث جرى تحديدها بعنف بقوة الغزو الفرنسي وحرب الاستقلال. امتدت هذه الأنماط القديمة للحياة وقتا أطول مما عليه في باقي الدول الأوربية وكان ذلك بسبب القصور الذاتي الذي تحدثت عنه سلفا، والعزلة النسبية لإسبانيا وارتباطها بباقي أرجاء المملكة. هناك تسع عشرة سنة بين عام ١٧٨٩م وعام ١٨٠٨م، وهذا زمن طويل لكن تم الانتقال فجأة من التوازي السابق الذي له صبغة الجمود إلى الاستقرار والعنف والقطيعة مع أنماط الحياة والأمان الذي كاد أن ينعدم.

يحدث أمر شبيه في القطاع الأمريكي للمملكة الإسبانية، حيث طرأ تحول مفاجئ على الحياة الرتيبة التي عليها نيابات الملك والقيادات العامة الحربية التي كانت مستقرة منذ زمن مضى ومتدرّجة حيث لم تكن تحدث أمور كثيرة – لدرجة وجود انطباع زائف للغاية بأن **ليس هناك تاريخ** – وأصبح هذا التحول عبارة عن صراعات كثيرة غالبا ما تكون عنيفة وسط حيرة تسود الأفراد والجماعات التي تطمح إلى السلطة، ووسط تعدد في الاتجاهات غير المتصالحة ووسط تغير في التوازنات بين الإسبان والكريّو المنحدرين منهم والمخلطين والهنود والسود والمولدين mulato وكافة التنويعات الشعبية التي تتميز بها الإثنية الشعبية المكسيكية أو البيروانية. وعندما انتهت الحروب وتمكنت البلاد الأمريكية من الحصول على استقلالها كانت المشكلة الأولى التي تواجههم هي: من هُم، ذلك أن الوحدات القديمة قد تحطمت، في كثير من المناطق على الأقل، وأصبح هذا العالم المتسق مفككا ومثيرا للمشاكل.

---

(128) انظر البنية الاجتماعية. الفصلان الخامس والسادس.

علينا ألا ننسى أن أمريكا الإسبانية كان لها نظام صلاحيات التي هي حصيلة الصلاحيات الإسبانية لكنها مهجنة – بأشكال شديدة الاختلاف – في مختلف المجتمعات الأصلية. فالبلاد الأمريكية لم تكن متجانسة سواء فيما يتعلق بالأقدمية أو الأهمية وجودة العنصر الإنساني الأصلي، ولم تكن كذلك من حيث وجود المكونات الأفريقية (في حدودها الدنيا أو القصوى) التي هي شديدة الاختلاف من الناحية الإثنية ومرتبطة بالعبودية التي هي عنصر اقتصادي واجتماعي له تأثير كبير للغاية. كان العنصر الإسباني هو العنصر المشترك والموحِّد، لكن لما كانت حركات الاستقلال تقوم على معاداة الإسبان – حيث ارتكبت أكبر خطأ تاريخي دون الحاجة إلى ذلك – فإن البلاد الجديدة قد انتزعت من نفسها وبإرادتها أكبر عناصر استقرارها واستشرافها للمستقبل، لنقارن ذلك بما حدث مع الولايات المتحدة حيث لم يحدث ذلك، وسوف يُرى كيف أن كان هناك، منذ البداية، طرح مضاد للهسبان. أخذ الأمريكان في الشمال يكافحون ضد إنجلترا، أي أنهم يرفضون طاعة الملك ويحاربون الجيوش البريطانية لكن لا يوجد شعور "معاداة ما هو بريطاني"، ولم يسقطوا في فخ رفض طبيعتهم الأصلية.

طرحت عملية تفكك المملكة مصاعب جمة أمام جميع أعضائها القدامى: هناك الديماجوجية وعدم الحزم والمواقف البسيطة التي يتم تأكيدها من خلال طاقة تحاول أن تعادل غيبة الوضوح، وأدى كل هذا إلى درجة من البلبلة في العالم الهسباني المفكك. مشاكلها هي مشاكل ثقافية في المقام الأول.

ومن بين العناصر التي تفسر الموقف الصعب للشعوب الهسبانية في تلك اللحظة هي أنها (لأسباب شديدة التعقيد) تأخرت لفترة طويلة في أن تنشئ لنفسها لغة فلسفية. وقد فعل ذلك الإيطالي منذ عصر النهضة من خلال جيوردانو بروتو، والفرنسي من خلال مونتين ثم ديكارت على وجه الخصوص، والإنجليزي مع بيكون، وجاء الألماني بعد ذلك من خلال ولف، ومع كانط بشكل حقيقي خلال القرن الثامن عشر. لم تكن هناك كتابة عن الفلسفة باللغة الإسبانية حتى وقت متأخر، فقد كانت اللاتينية هي التي تكتب بها المؤلفات في

الدراسات الإنسانية. وكذا في أثناء الازدهار اللاهوتي خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، أي حتى سواريث. أما خلال القرن الثامن عشر لم تكن هناك فلسفة إبداعية. لم يكن ذلك خطيرا لأن الناس كانوا يعيشون في البداية على المعتقدات وليس على الأفكار"[129]. وعندما تبدأ سيطرة هذه الأخيرة – الأفكار –، أي عندما تصبح الفلسفة ضرورية للوصول إلى نظام عقلي قادر على توليد نظام معتمد يساعد على الاستقرار الملائم فإن الدول المتحدثة بالإسبانية نجد نفسها خاوية الوفاض ليس فقط من الفلسفة بل لانعدام الأداة اللغوية الملائمة لإبداع الفلسفة، ولن يتم هذا إلا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وجاء ذلك في الأساس على يد كل من أونا مونو وأورتيجا إي جاسيت – الأخير بصفة خاصة – مع وجود ميزة وهي أن اللغة الإسبانية بلغت آنذاك درجة النضج والكمال بعد مرور عدة قرون من الإبداع الأدبي والديني المثيرين للإعجاب، وكان هذا الإبداع أعلى بكثير مما لدى اللغات الأوربية الأخرى عندما تأسست فيها اللغة الفلسفية. وقد أدى هذا إلى أن تكون اللغة الفلسفية المكتوبة بالإسبانية تتمتع بمزايا ليست أقل مما عليه الأخريات، وربما كانت أعلى. غير أن هذا لم يحدث إلا حتى عصرنا، وقبل ذلك كان يعيش في حالة محدودة. كتبت ذات مرة أقول: "إن الشعوب الهسبانية عاشت على الاستعارة" de prestado وكانت تابعة لأنماط عقلية غريبة عليها وليس عليها سيطرة كافية كما أنها ليست ذات دلالة مهمة: أي أنها دون استقلالية تاريخية حقيقية. لم يكن أمامنا مناص إلا أن تكون مُقلدين وأن نكون من أبناء الأقاليم... الأمر الخطير هو أن ذلك حدث لإسبانيا وللشعوب التي تتحدث الإسبانية، وهي التي كانت من أكثر الشعوب إبداعا، **وكان يجب أن تكون كذلك إذا لم تكن تريد أن تسقط**. أدى هذا إلى حدوث بقاء مختال على ما هو قديم arcaismo في ثقافتنا. لم يقم الإسباني بإبداع اللغة الفلسفية التي كان في حاجة إليها في "الوقت المناسب" ولم "تنضج" المجتمعات المتحدثة بالإسبانية بطريقة متكاملة".

---

(129) "أفكار ومعتقدات في العالم الهسباني" (١٩٨٢) في أسبانو أمريكا. بونيوس أيرس، ١٩٨٤.

هذا يعني أن إسبانيا وأمريكا الإسبانية – بشكل شبه متزامن – تنحي باللائمة على نظامهما الاعتمادي السابق، وبدلا من إبداع الأفكار الأصيلة التي يمكن أن تكون حقيقة مشتركة بين الأغلبية وإعادة إقرار تموقع instalación، دخلوا في باب **الأفكار المتلقاة**. في إسبانيا هناك ردّ فعل ضد "النظام القديم" – وعندما يتم الدفاع عنه يتم ذلك من خلال أيديولوجية تقليدية مأخوذة عن جوزيف دي مايستري ولويس دي بونالد، وبعد ذلك عن لويس فيولوت L. Veuillot – أما هذا النظام في أمريكا فقد تم تحديده فيما هو إسباني وأخذوا ينحون جانبا كل ما له صلة بالتراث الأصلي للبلاد الأمريكية[130].

ومع هذا يجب التمييز بين العصور، هناك المرحلة الأولى، فرغم أن الموقف لم يكن جيدا فإن "الطبيعة" Condición تنجو من خلال درامية المهمة التي تقوم بدور مشروع منسق وسط الفوضى السياسية: إنها الفترة الرومانسية.

الرومانسية:

ازدادت حدة تلك المسألة الخطيرة المتمثلة في غيبة فلسفة مناسبة، في نهاية القرن الثامن، خلال العصر الرومانسي، حيث يُرى فيها عدم كفاية العقل – العقل المحض والعقل المجرد – إذ جرت محاولة العيش عليها في أثناء فعالية "العقلانية" وسوف يتم محاولة إدخال جانب آخر من الحياة الإنسانية إلى المشهد دون استبعاد قواه العميقة والمعتمة. ولهذا فإن الرومانسية كانت نوعا من استمرار الحياة ومن منظور الرومانسية بدا العصر السابق فقيرا ومثيرا للكدر.

"من الملائم العمل على تحليل إيجابي، للرومانسية – هذا ما كتبته عام ١٩٤٩[131]– فالحزن والكدر وفقدان الأمل، الذي هو مرض القرن، تمكننا من توجيه التفكير بأن

---

(130) رأي ماكسيمو إتشيكوبار ذلك بوضوح شديد في كتابه الذي أشرنا إليه سابقا. انظر أيضاً شجرة الكراهة لفيليب باول.

(131) "صورة مصغرة للرومانسية" في مقالات حول التعايش (الأعمال الكاملة – الجزء الثالث).

الرمانسيين شاحبي الوجوه وعلى استعداد للموت، يمثلون رفضا للحياة، لكن الحقيقة هي عكس ذلك تماما: انفتاح الرمانسيين على الحياة بينهم يحمل في طياته بعض الجزع. الأمر أنهم بدأوا حياة جديدة. غير أن هناك مساحات ضخمة من الحياة لم تُمَسّ وهي مناطق حرّضت عليها الرومانسية لهذا السبب وكذا بسبب مضمونها المختلف: يشعرون بنوع من السُّكر والهذيان في إطار خليط من الألم واللذة...

"هذا الانفتاح الحيوي للرومانسيين ذهب بهم إلى تلك الأنماط الحياتية ذات المذاق الخاص والطابع المكثف: إنها المشاعر والشغف والمتعة والحزن. نعم، كان الرومانسيون يعانون، لكن الحقيقة أنهم "كانوا يستمتعون" بالمعاناة. وتحت حركاتهم المبالغ فيها كانت تستكن متعة أسيئ مواراتها تتمثل في سعادة واضحة بالاستمتاع بالعيش، وموقف بالتوجه نحو الأشياء والاستمتاع الحميم بها وهذا أمر مختلف عن موقف التكهن والبعد الذي كان عليه الإنسان الذي عاش خلال القرن الثامن عشر.

"يتقدم الأنا إلى الصف الأول وأصبح صاحب الكلمة، فأن يكون المرء هي عند الرومانسي أن يكون فريدا، أو ذا أصالة كما هي العادة في التعبير... وبدرجة ما تحولت حياة الرومانسيين إلى أدب، ويمكن أن نقول ذلك بكلمات أخرى هي أن الحياة بلغت في ذلك الزمان حدا أدبيا واضحا، ومن خلال ذلك، أي بما كانت عليه من فانتازيا وخيال، بلغت هذا الامتداد الرائع الذي تحدثت عنه سلفا.

"انطلق الرومانيون على طريق استشراف حيواتهم عن طريق الخيال، ومن هنا انطلقوا في غزو المناطق التي لم يتم استكشافها بفضل ما لديهم من شغف ومشاعر. هم بذلك خلقوا ملامح ذلك الأسلوب الحيوي والتعبير الأدبي عنه، وحدث نوع من الإثراء المتبادل بينهم وبين الحياة. فقد تلقي الرومانسيون الطلعة البهية النبيلة والجدارة التي لا زالت تحدث تأثيرها فينا، أما الحياة فقد أصبحت مفعمة بالحرارة ومذاق جميل بطعم شيء مَعيش...

"وإلى جوار الروايات التي كتبها الرومانسيون يجب أن نضع الروايات الأخرى الرائعة التي حاولوا أن يعيشوها، وربما كان من الأمور الجذابة محاولة سردها مع ذكر بعض التفاصيل، وأن نكتبها نحن، وفي الوقت ذاته تحليل أسباب انحطاط هذا "النوع الأدبي" على مدار القرن.... (هناك موضوع قيل بين قوسين وله تأثير ضخم على الفهم التاريخي لذلك القرن. وعلى ضوء هذه الفكرة نجد أن تاريخ إسبانيا، الذي يبدأ من عصر فرناندو السابع وحتى عام ١٨٩٨م، سرعان ما يتضح بجلاء")(١٣٢).

هذا هو الجانب الإيجابي للحياة الإسبانية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وربما ظل ذلك حتى عام ١٨٦٠م. ورغم اللامعقول الذي يحدث على الصعيد السياسي يشكل شبه دائم ومعه الشقاق واللاتنظيم والتخلف عن المستوي الذي عليه أوربا الغربية ووسطها في كثير من الجوانب المهمة فإن المجتمع الإسباني خلال ذلك الزمن يفصح عن إيقاع مكثف ومذاق ورشاقة التصرف حيث لا زال كل هذا يأسرنا، وهو إيقاع أثار دهشة الكثير من الأوربيين من أصحاب الحسّ المرهف - مثل ستاندال ومالارميه Merimé وجوتيير وريتشارد فورد، قبل ذلك بيرون، ثم إدموند دي أميسس E. de Amicis بعد ذلك بقليل - وعندما ترى اللوحة التي رسمها إسكيفيل Esquivel حيث اجتمع فيها الكتاب الرومانسيون، فإن المرء، دون أن يقرأ أعمالهم، يشعر بإعجاب إنساني عميق بهؤلاء المؤلفين.

واعتبارا من وجهة النظر هذه، أي انطلاقا من أنماط الحياة ربما يمكن القول إن إسبانيا هي الدولة الرومانسية فوق كل اعتبار وهذا يرجع في جزء منه إلى المتاعب التي عاشتها وسوء الحظ. تمثل الأمر المميز لذلك العصر، كما رآه ماريانو خوسيه لارا، قبل

---

(132) سوف يُفهم السبب بأنني سمحت لنفسي بالاستشهاد بهذه الفقرات وأنها ليست مهمة تماما وبناء على توصية من أورتيجا قامت دار نشر "إسباسا كالبي"، قبل الحرب الأهلية الإسبانية بالبدء في نشر سلسلة طويلة بعنوان "حيوات إسبانية وأسبانوأمريكية خلال القرن التاسع عشر". وعلى أساس أن ما سأشير إليه هو وثيقة غير عادية، يرجي الإطلاع عليها وهي وثيقة جديرة بالإعجاب والثراء تحت إسراف إنريكي لافوينتي فِرّاري، وتتمثل في طباعة "سلسلة الأحداث الوطنية Episodios N."، لجالدوس. أوْربيُون - إيرناندو.

موست Musset، في **العيش في العراء**، بعد أن تم إغراق الأنماط القديمة وقبل أن يتم البدء في تشييد أنماط أخرى. يحدث هذا في إسبانيا أكثر من أي بلد آخر – قارن في هذا المقام بين فرنسا لويس فيليب مع فترة الوصاية الخاصة بماريا كريستينا وإسبارتيرو، – ولم يقل إيقاع الرومانسية في إسبانيا بسبب التصنيع والازدهار والتطور الذي عليه البرجوازية.

حالت شدة الصراعات – المؤسفة بالطبع – دون السقوط والابتذال والنفعية، وجعلت الإسبان الرومانسيين يشعرون بحيواتهم على أنها **مشروعات** موجهة نحو قضية أخرى وربما كانت مشروعات لا تستحق الاهتمام. هذه الجرأة الشخصية التي أشرت إليها سابقا، والليبرالية التي تنفذ إليهم – حتى إلى هؤلاء الذين كانوا من الأعداء السياسيين – وضع الحب في الحياة، كل ذلك هو ملامح تضفي جاذبية وأهمية كبيرة على عصر تراكمت فيه المصائب على إسبانيا. ربما كانت الحرب في أفريقيا عام ١٨٦٠م المرحلة الأخيرة التي شعرت فيها إسبانيا بتحركها بشكل جماعي في مهمة تحدوهم لبلوغ شيء عظيم. يقول مالدوس "كان الانتصار يبث في الجميع أفكارا وجوانب تفكير خاصة بالفرسان".

مرحلة الانتقال بين عصرين:

كانت الرومانسية نمط حياة، واستمرت لفترة كافية حتى أحدثت تأثيرها على المجتمع بأكمله وشكلت **عصرا حقيقيا**[١٣٣]. وما نطلق عليه "زماننا" – ابتداء من الجيل الأدبي ١٨٩٨م – هو جزء منه أيضًا غير أنه بين مرحلة وأخرى هناك فترة استمرار أقل وهناك ملامح أقل وضوحا. ويمكن أن يقال إنها فترة يطلق عليها مسمى غير دقيق هو "عصر الانتقال"، وهو مسمى غير دقيق لأن التاريخ كله هو مرحلة انتقال ويتمثل في الانتقال transive والمرور. ومع هذا ربما كان لهذه العبارة معنى ما: يمكن أن تكون فترات انتقال **بين عصرين** بالمعنى الكامل للكلمة.

---

(133) فيما يتعلق بمفهوم "الحد الأدنى من العصر" – وجود أربعة أجيال يعني المرور بستين عاما على الأقل – والعصور الصغيرة المد، انظر **البنية الاجتماعية**، الفصل الثاني....

عندما ضعفت حيوية الرومانسية وخاصة المشروعات التي تجعلها قائمة، لم تحل محلها مشروعات أخرى ذات واقعية وحيوية مساويتين لما كانت عليه الرومانسية. ما كان مسيطرا هو الإرهاق والغضب والتجربة السلبية بسبب الكثير من الأخطاء والعنف وعدم الاستقرار. هناك تفكك بديهي في المجتمع الإسباني مع نهاية عصر إيزابيل الثانية، يعكسه لنا رامون دل بايّ إنكلان [134] في شكل كاريكا توري مبالغ فيه ولكن بعبقرية وفعالية. وعلى مدار الأعوام العشرة التالية، هناك ثورة سبتمبر ١٨٦٨، والحكومة المؤقتة، والبرلمان التأسيسي ١٨٦٩م وفترة الحكم القصيرة لأماديو، والجمهورية الأولى ونظام "الكانتونات" وقيام بابيا بحل البرلمان، وهذه كلها - أي على مدار عقد من الزمان - بها القليل من القلق وعدم الأمل والبلبلة العقلية والفوضى السياسية. كما أن الرجال المسئولين مسئولية مباشرة قد طفح بهم الكيل، وعلى هذا نجد كاستيلار. أما باليرا فقد احتفظ بتفاؤله وموقفه الذي يحدوه الأمل وظل على هذا حتى عام ١٨٦٨. لكن سرعان ما واتاه فقدان الأمل. كل هذا يبين المناخ الذي جعل من إعادة الملكية Restauración أمرا مرغوبا فيه وفي استمراريته. كانت هناك انتقادات دائمة لهذه الفترة من التاريخ الإسباني وقد شارك فيها الكثير من ذوي النفوس الطيبة ابتداء من أنصار إعادة التنشيط وكذا خواكين كوستا وحتى أورتيجا مرورا بجميع كتابّ جيل الـ ١٨٩٨م. يبدو أن هذه الانتقادات لها ما يبررها [135] ومع هذا ليس أمامنا إلا أن نشعر نحوها ببعض من عدم الرضا إذ تترك لدينا الانطباع بالمبالغة والظلم [136].

---

(134) هناك مختارات من هذه الانتقادات في "إسبانيا كقلق".

(135) انظر أورتيجا الظروف والميل. الفصلان ٦، ٧.

(136) ورد في سلسلة الروايات "التاريخية"، "الحَلَبة الأيبيرية" (برلمان المعجزات، يحيا سيدي، وباتا دي إسباداس Baza de espadas). يمكن الإطلاع في هذا السياق على دراسة لي بعنوان "رامون دل بايّ إنكلان في الحلبة الأيبيرية" (١٩٦٦ وأعيد طبعه في الجزء المعنون صورة الحياة الإنسانية، - دار نشر El Alción - مجلة الغرب مدريد ١٩٧١.

كان هناك تحسن كبير طرأ على المجتمع الإسباني ابتداء من إعادة الملكية Restauración عام ١٨٧٥، وكذا تطبيق دستور ١٨٧٦م. وإذا ما كانت هناك مقارنة بالعشر سنوات السابقة على هذه الفترة مباشرة فهذا تقدم لا شك فيه. لكن إذا ما تم التفكير في العصر الرومانسي فإن ما نفتقده هو الشغف والتوتر الخلاق والمذاق القوي للحياة والأمل رغم أنه يتعرض للإحباط في كل لحظة. اتسمت الأعوام السابقة مباشرة على إعادة الملكية بحالة من التشنج الكامل دون عظمة ودون حكاية من تلك التي أسهمت في جعل الإسبان ينهضون في الأجيال السابقة: هناك توليفة من اللاعقلانية والابتذال. ليس من المستغرب أن يريد الرجال الأكثر تمثيلا لإعادة الملكية Restauración الحيلولة دون التشنج مهما كلف الثمن وألا يشعروا بأي خوف من الخمود. تسيطر "الإرادة" على هذه الفترة، على حساب الإلهام، وبعد ذلك تأتي أزمة عام ١٨٩٨م لتفصح أن الإدارة لم تكن جيدة ذلك أنه لم يتم التفكير في أن الإدارة لا يمكن أن تكون إذا ما افتقدت للإلهام. لماذا؟ السبب ببساطة هو أن الحياة الإنسانية، بما في ذلك الحياة الجمعية، هي واقع درامي له مضمون عبارة عن خيال ومشروع.

كان ناتج إعادة الملكية ممتازا من المنظور "الإداري": فقد تم إقرار شرعية جديدة متمثلة في ألفونسو والسابع، تقوم على الشرعية الدستورية التي استمرت حتى عام ١٩٢٣م. كانت للملك جاذبية شخصية واضحة، وإذا ما كان قد عاش أكثر من عشر سنوات، وهي فترة حكمه القصيرة، ربما لم تكن الحياة السياسية الإسبانية في موقف "الدفاع عن النفس" كما حدث بعد وفاته، إذ تمثل الأمر في إنقاذ التوازن مهما كلف الأمر. فهناك دولة القانون وهو ما لم يحدث بهذا الشكل قبل ذلك أبدا، لها حرياتها وانتخاباتها التي تبدو اليوم غير ديمقراطية بالكامل، لكنها لم تكن لتكون كذلك، نظرا للطابع الريفي الذي عليه أغلب أجزاء البلاد، أي أنها قطاعات بعيدة عن عالم السياسة. ووصل الأمر في هذا المقام إلى أن إقرار حق الانتخابات العامة (للذكور) عام ١٨٩٠م كان نوعا من التخلف فيما يتعلق بمصداقية الانتخابات بناء على الدور الذي لعبه أصحاب النفوذ في

كل منطقة caciquismo. أخذ التعايش بين الإسبان يعود إلى الحالة الغادية التي لم يشهدها منذ عام ١٨٠٨م، وأخذ مستوى المعيشة يرتفع وكذلك تعداد السكان، وبلغت الأحزاب السياسية درجة من الاستقرار. أكدت هذه "المرحلة السلمية" غيبة العنف السياسي، رغم ما عليها من تقليدية ووجود نوع من التدخل، كان هناك حكام جديرون بالتقدير نذكر منهم على الأخص كانوباس دي كاستيوّ وساجاستا.

غير أن هذه الفترة من تاريخ إسبانيا "انتهت بشكل شيء" بفضل أزمة ١٨٩٨م – وهذا أمر شبيه بتأثير الغزو النابليوني لإسبانيا خلال القرن الثامن عشر – الأمر الذي أحدث تأثيره السلبي على الرؤية الخاصة بها. غير أن هذه الأزمة كانت محط تدخل أخطاء غير ضرورية كان من الممكن الحيلولة دونها، وكذلك ظروف كان يمكن ألا تحدث. أريد القول بهذا إنه لو لم تحدث تلك الأخطاء والظروف لكانت عملية إعادة الملكية ظلت مستمرة دون عثرات خطيرة. أحدثت كثرة الانتقادات لهذه الفترة وخاصة في المرحلة اللاحقة تشويها لصورة إعادة الملكية التي بدت في عيون القرن العشرين على أنها مرحلة مؤسفة وبدائية إن لم نقل مثيرة للسخرية. غير أنه إذا ما تم سبر أغوار ما حدث منها بشكل جيد، أو وجود قراءة للكتّاب الذين أخذوا يعكسون واقعها مثل كتابات دل بابيّ إنكلان[١٣٧] نجد نوعا من التقدير لهذه الفترة ونوعا من الحنين إليها وخاصة عندما يفكر المرء في الذي كانت تنتظره إسبانيا خلال زماننا.

---

(137) وخاصة المقالات التي نشرها على مدار سنوات في صحيفة "الأمة" في بوينوس أيرس، والتي جمعت في كتب عناوينها، **رسائل أمريكية، وسائل أمريكية جديدة، أصداء أرجنتنية** كما أنها تعطي الانطباع "بالحضارة" والزخرف الذي يجب أن يتم الحفاظ عليه. هناك أمر شبيه نجده عن ذكريات وصوله إلى مدريد عام ١٨٩٥م، والتي كتبها أثورين بعد ذلك بسنوات كثيرة في كتابه مدريد، كما أني ذكرت ذلك في كتابي "الأدب والحياة عند أثورين" (**في الأدب والأجيال**) كان قد وصل للتوّ ولم تمر فترة طويلة على استقراره في غرفة كئيبة في منزل للضيافة، حتى رأيْ جماعة من الفرسان على باب مسرح أبولو – كان أحدهم يقرأ على الآخرين وريقات. شعر أثورين بإعجاب أليم بما عليه حال كاتب وما يفتقده هو. كان الضوء يسقط فوق الأوراق التي يقرؤها الكاتب الشهير على زملائه عند باب مسرح أبولّو وسط الهرج والمرج وعلى ضوء اللمبات البيضاء الكبرى في جو فيه طلاقة وعليه القوام وحداثة". هذه الكلمات الثالاثة: **الطلاقة وعلية القوم والحداثة**، هل هناك صلة بين الصورة النمطية لذلك العصر الذي يرتبط ارتباطا شديدا بمدريد على أنها "بلدة من إقليم لامانشا"، وبين الابتذال والصحراء التي ينمو فيها بعض الشوك؟. حتى نتمكن من

القيود المحيطة بإعادة الملكية:

عندما قال كانوباس أنه كان يُراد "استمرار تاريخ إسبانيا"، فهو على حق، إذا ما كان يشير إلى حالة القطيعة التي كانت عليها خلال السنوات السابقة. منذ زمن طويل كتبت أقول"[١٣٨]. أن المجتمع محدد في المقام الأول بالأشياء غير الممكنة فيه، لأن الجسم الاجتماعي لا يسمح بها. وفي منتصف القرن التاسع عشر كان كل شيء ممكن في إسبانيا وهذا يعني أن لا شيء مؤكدا: ويطلق على هذا **فقدان الاتجاه"** فالحياة العامة خلال السنوات التي يتحارب فيها الكارليون والجمهوريون، ولا يتفقون إلا على شيء واحد هو جعل ملكية أماديو مستحيلة، وتمثل فقدان الاتجاه أيضًا في الجمهورية الوليدة المعلنة والتي ترغب في أن تكون جمهورية فيدرالية لكنها تتحطم على صخرة الكانتونية، هناك تعاقب بين أربعة رؤساء في غضون فترة زمنية لا تصل إلى عام كامل وأصبحت البلاد على وشك الانهيار الكامل وبشكل أكثر درامية مما كانت عليه **الانقلابات** خلال العصر الإيزابيلي، حيث كانت سطحية نسبيا وتحت هذا الستار كانت البلاد تواصل حياتها. انتهى هذا الموقف بالعمل على إعادة الملكية، وكان ذلك أساسا بفضل ألمعية كانوباس Cánovas وحزمه، فهو الذي تخيل ذلك ونفذه، وهو من تمكن من تجاوز الحزبية العمياء – وهذا هو الأمر الحاسم – وتمكن من إيجاد تعاون بين القطاعات الأكثر مسئولية في الجسد الاجتماعي للبلاد.

لكن لم يكن الأمر كافيا بهذا. فالمجتمع من حيث هو كذلك لم يستعد نفسه بسهولة وخاصة فيما يتعلق بإمكانيات استشرافهَ المستقبل. في عام ١٨٩٥ قال أنونامونو "إن كل

تقديم تقييم لهذا الجيل العملاق، جيل الـ ١٨٩٨م، ليس من الضروري أن نتخيل إسبانيا جروتسكية سابقة. وها هو الآن قد بدأ الثناء على كلارين وخاصة بالنسبة لروايته الوصية (١٨٨٤-١٨٨٥) إلا أن هذا لا يدعو إلى مراجعة الأفكار حول اللحظة التي كتبها فيها، بل أن نأخذ في الحسبان تلك الجوانب الخاصة بالواقع والتي حولها إلى صورة كاريكاتورية وسخر منها. ومن بين أخطاء زماننا هو الخلط بين الأدب والوثائق نظراً للجهل بهذه الأخيرة والجهل بدلالة الأولى.

(138) أورتيجا، الظرف والميل 5 الأخير.

أسباي مثقف لا يكاد يختلف عن أي أوربي مثقف، لكن هناك اختلاف ضخم بين البنية الاجتماعية الإسبانية والأخرى الأجنبية"، فاستمرار تاريخ إسبانيا كان يعني أكثر مما كان يريد أن يقوله أنصار عودة الملكية: إذ لم يقتصر الأمر على "استئنافها" حيث نجد هناك عقدا من الزمان حال دون استمرارها قبل ذلك، ولكن هناك مواصلة الطريق إلى الأمام. ما ينقص هو عناصر التجديد. لم تجرؤ عملية عودة الملكية على أن تواجه القضايا الجديدة مواجهة حقيقية، وهي المشاكل الحقيقية التي تتطلب الاهتمام بها والتفكير فيها واتخاذ القرار. كان ذلك شديد الأهمية في الوقت الذي كانت تعيش فيه إسبانيا – آنذاك – تخلفا حقيقيا ومحدودا لكنه فعلي للغاية: أنه تخلف على مدار جيل بأكمله تقريبا تجره إسبانيا منذ عصر العزلة الذي كان خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر. فأن يحيا المرء لا بد من التجديد دوما، لكن الأمر في هذه الحالة هو أكثر إلحاحا عندما يكون وراء الواقع نفسه، وفي الوقت الذي يجب فيه بلوغ المستوى الذي يجب أن تكون البلاد عليه – حيث هي عليه في بعض الأبعاد –، فأن "تكون على إيقاع الزمن" هذه مهمة عاجلة سوف تتم ولكن بشكل شديد الجزئية.

كانت هناك مشاكل ثلاثة رئيسية على إسبانيا مواجهتها خلال الربع الأخير من القرن الماضي (التاسع عشر): المشكلة الأولى هي التي أخذ يطلق عليها آنذاك **بالقضية الاجتماعية**، وهناك مقصد **الاستقلال الذاتي** لباقي المناطق الواقعة فيما وراء البحار والمتبقية من الملكية القديمة وهي كوبا وبويرتوريكو والفيلبين، أما المشكلة الثالثة والأخيرة فهي الحركات الإقليمية التي أخذت تظهر أساسا في قطالونيا وإقليم الباسك. وبالنسبة للحالات الثلاث نجد حكام عصر إعادة الملكية – بموافقة ومباركة أغلبية المجتمع – يخشون طرحها طرحا عميقا وعرض المخاطر التي تترتب عليها، كانوا يفضلون – وهذه تعبيرات شائعة الاستخدام في ذلك الأوان كما أنها ذات دلالات مهمة – "التحايل" trampear أو "وضع ضمادة ساخنة"، الأمر الذي تمخض عنه ترك القضايا الأكثر خطورة دون حل، مع وجود توجه راديكالي تحت الأرض أخذ يظهر بعد ذلك.

ونظرا لأسباب العزلة وعدم الاستقرار الداخلي التي ذكرتها، تخلفت الصناعة في إسبانيا مقارنة بالدول الواقعة غرب ووسط أوربا، ولم تصل إلى أي مكاسب حتى منتصف القرن. فقد ظلت إسبانيا دولة زراعية – كل البلاد كانت زراعية لكن الصناعة أخذت تحتل مكانة متزايدة – أي أنها أكثر ريفية عنها حضرية وفي هذا الإطار ظلت هناك الكثير من ملامح المجتمع الريفي. غير أن التطور الصناعي بدأ خلال عصر إيزابيل الثانية، وزاد الإيقاع بشكل كبير منذ إعادة الملكية، وصحب ذلك زيادة "أعداد العمال" حتى أصبحت نمط حياة ونمطا إنسانيا، أي وجود البروليتاريا التي أدخلت عنصرا جديدا على المجتمع الإسباني. تمثلت صورة التصنيع في جميع أنحاء أوربا في زيادة الثروة وتحسّن المستوى الاقتصادي في الحياة والعمال خلال تلك الفترات الأولية، حيث كانت ساعات العمل طويلة والعائد قليل للغاية، ورغم هذا كانت تمثل ميزة مقارنة بالوضع السابق (لنتذكر ما قاله هومبولت عن الفلاحين الأوربيين في بداية القرن). غير أن مستوى الحياة ليس اقتصاديا فقط بل هو مستوى يتم العيش من خلاله. كانت عملية التصنيع سببا في تدمير أنماط الحياة والانتقال من الوضعية القديمة التي كان عليها العمال الزراعيون أو عمال الورش الأسرية إلى الوضعية الخاصة بالمصانع والأحياء العمالية، هناك القطيعة مع العادات والأنماط الخاصة بالتعايش، الأمر الذي أدى إلى وجود ضيق مكثف، رغم أن الظروف الاقتصادية كانت أفضل قليلا عن ذي قبل – في إطار الفقر بالطبع – وفي هذا الإطار نجد "البروليتارية": تمثلت في فقدان أنماط الحياة والغضب من الأوضاع رغم أن الأحوال قد تحسنت. كان الرجل الريفي، في نهاية القرن الثامن عشر، سعيدا بما كان عليه رغم أنه لم يكن يعرف كيف تسير به الأمور. أما العامل الصناعي خلال القرن التاسع عشر فهو لا يزال غير راض عن الوضع وخاصة عن الحالة الأولى وهي كينونته العمالية. كان من الضروري الوصول إلى القرن العشرين حتى يحدث تغيير موات على هذا الموقف، حيث حدث ذلك أولًا في الولايات المتحدة، وتأخر تطبيقه في أوربا الغربية.

هناك واقعة ضخمة لكنها لم تدرس بشكل جيد أبدًا، إنها الحركات العمالية في أوربا – وليس ذلك في الولايات المتحدة- باستثناءات قليلة جدا – التي دخلت سريعا في تحالف مع المواقف السياسية التي ليست في الأساس اجتماعية واقتصادية، والتي كانت تربط بين الإصلاحات الاجتماعية وتحول البلدان والقضاء على هياكلها وأنظمة المعتقدات فيها وخاصة المعتقدات الدينية. لا تنفصل الفوضوية عن الماركسية من حيث قاعدة طرح "القضية الاجتماعية" خلال القرن التاسع عشر. أدى هذا إلى إدخال عنصر من عناصر الصراع ولم يقتصر على البعد الاقتصادي أو "الصراع الطبقي" بل شمل مفاهيم عامة في الحياة. أسفر هذا عن تولد موقف راديكالي بدونه لا يمكن فهم تاريخ القرن الأخير. تضافرت المطالب العمالية – التي كانت في أغلبها عادلة وملحة ولكنها ليست ممكنة دائما في إطار الظروف الفعلية للاقتصاد – مع تعاضد التحول التي لم يكن هناك تبرير واضح لها، كما أنها بدت غير مرغوب فيها بالنسبة لقطاع عريض من الشعب.

ومعنى هذا أن هناك قطاعات كبيرة من المجتمع كانت تشعر بأنها مهددة بالغطاء الأيديولوجي للقضايا الاقتصادية وقضايا التنظيم المُحدَدَّة للغاية والتي يمكن علاجها بشكل موضوعي وهادئ، وهنا لا يجب أن نخفي أن كلا الطرفين كانا يرغبان في سلطة ويذهب كل طرف إلى ما هو أبعد بكثير من مجرد المشاكل التقنية للعمل والإنتاج والتوزيع العادل للثروة...إلخ. وفي إسبانيا نجد أن الفوضوية تطورت بشكل كبير عما كانت عليه في بلاد أوربية أخرى، وخاصة في إقليم الأندلس"(١٣٩). أما التنظيم الدولي لها فقد كان تأثيره أكثر بطاء ومتأخرا، حيث بدأ عام ١٨٧٠م (مؤتمر سرقسطة). وحتى عام ١٨٧٩م لم يؤسس بابلو إيجليسياس الحزب الاشتراكي العمال الإسباني بعد، وفي عام ١٨٨٦م ظهر صحيفة "الاشتراكي"، وفي ١٨٨٨م تأسس "الاتحاد العام للعمال، وكان كل ذلك تأسس بعدد قليل من المشاركين يسهمون باشتراكات ضئيلة كما أن هذا يمثل جهدا كبيرا. كان عمال فنون الطباعة من أوائل الذين شاركوا في هذه الحركات، إذ كانوا يقرؤون بناء على المهنة التي يمارسونها.

---

(139) انظر الاستامبا الرائعة لكل من باكونين وفرمين سالبو إتشيا في Baza de Espadas لرامون دل بايّ إنكلان.

وفي عام ١٨٧٢ هناك ردّ على توجهات المنظمة الدولية، وكان ردا قويا وذا مغزى نظريا، كما أسهم فيه أشخاص من ذوي الأهمية كما أن ذلك النشاط استمر حتى عام ١٨٧٤م: هناك مجلة اسمها "دفاعا عن المجتمع" أسسها خوان برابو موريوّ وهو سياسي شهير كما أنه مبدع لقناة إيزابيل الثانية[١٤٠]. يواتيني الانطباع بأن هذه المجلة غير معروفة[١٤١]. إلا أن الأمر الأكثر أهمية هو أنه خرج ردّ فعل مبكر على المنظمة الدولية قبل أن تشهد تطورات تلفت الانتباه في إسبانيا. وحقيقة الأمر هي أن محرريها والمتعاونين معها أخذوا يتابعون الموقف عن كثب، وبدقة غريبة، من خلال الحصول على المعلومات عن نشاط المنظمة الدولية في بلدان أخرى، وكذا جميع الأصداء في إسبانيا والتفاصيل الدقيقة الخاصة بالحركات العمالية واجتماعاتها وإضراباتها وما تنشره...إلخ.

غير أن كل ذلك كان من خلال الخوف والاقتناع بأن المنظمة الدولية ما هي إلا تراكمات سيئة. ليس من السهل أن تكون هناك رحابة كافية وذلك لطرح الموقف الجديد للمجتمع الإسباني بشكل ذكي، كانت تجري محاولة "الدفاع عنه" ببساطة. ومن الواضح أنه إذا ما تم النظر إلى الجانب الآخر – على سبيل المثال **إسبانيا المعاصرة** لفرناندو جارِّيدو، سوف نجد نفس العداء وعدم الفهم والرفض الشامل للدين وأن كل ماله قيمة يرتبط بالثورة وإضفاء هذه السمة إلى كل ما يروق للمؤلف[١٤٢].

---

(140) العنوان الجانبي هو "مجلة المصالح الدائمة والأساسية ضد نظريات وتوجهات المنظمة العالمية" ثم يضيف "هي بعيدة كل البعد عن أي حزب سياسي" أما الشعار فهو "الدين – الأسرة – الوطن – العمل والازدهار". ومن بين المتعاونين هناك : ألونسو مارتنث وأباريسي جيخارّو وأرّاثولا، فيرمين كابا بيّرو، وكانوباس دل كاستيّو، وكوليرو، وأورليانو فرناندث جيرّا، وخواكين مالدونا دو إي ماكاناث وخوان ماييي إي فلاكير وماركيز دي مولينا وسيخسموندو موريث وكانديدونوثيرال وأليخاندر بيدال وماركيز دي بيدال، وريوس روساس وإدواد وسابدرا وكونثبثيون أرينال وكونت دي تورينو وخوان باليرا وكامبو أمور وفرنان كابا بيرّو وهار ثنيو وتامايو وباوس.

(141) لم يذكر حتى في "تاريخ الصحافة الإسبانية – الجزء الثاني، (القرن التاسع عشر) لماريّا كروث سيواني (مدريد ١٩٨٣).

(142) جزءان كبيران، برشلونة ١٨٦٥ – ١٨٦٧.

أما المشكلة الثانية الكبرى فهي الحفاظ على حالة التماسك التي عليها إسبانيا مع ما بقي من المملكة، أي الأراضي الواقعة خارج أراضيها. كان الوضع في كل من كوبا وبويرتوريكو لا يقارن بالوضع في الفيلبين. إذ كانت الأوليان بلاد هسبانية بشكل واضح، حيث لغتها إسبانية وهناك أوجه شه كبيرة بإسبانيا شبه الجزيرة الأيبيرية (أو الجزر الملحقة بها) إضافة إلى الاتصالات المكثفة بهما. أما الفيلبيين فهي أرخبيل ضخم شديد البعد، ومن الناحية الإثنية شديدة الاختلاف، كما أن اللغة الإسبانية لم تكن أبدا اللغة الأولى للبلاد بل هي لغة مجموعات كبيرة من الأقليات (ومن ناحية أخرى فاللغة المحلية المسماة تاجالو مليئة بآلاف الكلمات الإسبانية)، وكانت مجتمعا مسيحيا في أغلبه وله صلة شديد ة بإسبانيا إلا أن الاختلافات كبيرة متنوعة.

كان قد بُدئ في إدخال عنصر اللامبالاة واللاأخلاق في الإدارة الإسبانية، وربما لم يكن أكثر مما هو موجود في إسبانيا لكنه كان يثير الحساسية لأنه قادم من الخارج حيث يبدو أنه نوع من "الاستغلال" أو التقليل من شأن حقوق السكان الأصليين لهذه البلاد. كان يوجد فيها كلها أقليات مثقفة درست بالطبع في إسبانيا، وكان الطموح إلى الاستقلال الذاتي أمرا يتسم بالقوة، غير أن الأمر السيئ هو أنه كان يصطدم بمقاومة أولية من قبل الحكومات الإسبانية وانتهى بها الأمر إلى منح الاستقلال الذاتي متأخرا، أي بعد عدة سنوات، عندما كان ينظر إليه على أنه غير كاف، وكانت تتم المطالبة بدرجة أقل منه، وقد تم منحها بعد التأخير الذي جعل هذا المزيد غير كاف. وفي نهاية المطاف ظهرت بعض التمرّدات في كل من كوبا والفيلبين (لكنها كانت ذات أصداء ضئيلة في بويرتوريكو) والتي تحولت إلى حرب حقيقية انتهزتها الولايات المتحدة عام ١٨٩٨م للتدخل وتدمير آخر ما تبقى من المملكة في نصفي الكرة.

وفي نهاية المطاف نتناول القضية الثالثة المعلقة، والمؤجلة ألا وهي البنية الإقليمية لإسبانيا، كانت قضية شديدة الحساسية مقارنة بالقضيتين السابقتين، وربما كانت ذات

النتائج الأكثر استمرارا. انتهت القضية الثانية للأسف بما يسمى "بالنكسة القومية" لعام ١٨٩٨م، أما الأولى فقد ظلت تثير النقمة بشكل متزايد في القرن العشرين حتى وصلت إلى الانفجار الكبير عام ١٩٣٦م وكانت سببا حاسما في هذا الانفجار رغم أنها لم تكن السبب الوحيد. وبالنسبة للقضية الثالثة التي كان لها أيضًا دور مهم في أصول الحرب الأهلية، فقد ظلت تقوم بدورها في المجتمع الإسباني طوال القرن العشرين ولم تختف من الأفق يجب دراستها بمزيد من الدقة.

القوميات:

بدأت في إسبانيا، بعد استعادة الملكية Restauración، حركات تذهب إلى ما هو أبعد من تأكيد شخصية الأقاليم التي كانت شديدة البروز بشكل دائم ولكن كانت هذه الأقاليم ينظر إليها على أنها جزء أو عضو في منظومة أكبر هي الأمة الإسبانية. أدى تقسيم إسبانيا إلى محافظات، الذي بدأ في أثناء السنوات الثلاث الدستورية في عصر فرناندو السابع، وبشكل نهائي عام ١٨٣٣م، إلى زوال الأقاليم من الناحية الإدارية، وهذه هي الصورة الحديثة للممالك القديمة أو الإمارات بمعنى أنه لم يعد هناك بين الأمة وبين التسعة والأربعين محافظة (هي خمسون محافظة عندما تم تقسيم الكناري عام ١٩٢٧) لا يوجد واقع بين هاتين من الناحية الرسمية، أما ليس هناك أي جهة إدارية أخرى اللهم إلا التقسيمات التي هي أكثر قربا من الواقع من المنظور الحربي أو اللاهوتي أو القضائي أو الجامعي. ظلت الأقاليم أكثر قربا من الواقع عن المحافظات" – رغم أن هذه الأخيرة أخذت تحدد هويتها الخاصة على مدار قرن ونصف من الزمان – كما أنها كانت تعيش وكأنها الوحدة الحقيقية المباشرة التي ينتسب إليها كل فرد. أشرت في البنية الاجتماعية إلى تسمية الأقاليم حيث أطلقت عليها "جماعات مولجة" ومن خلالها يدخل الفرد فعلا في الأمة.

يتسم الشعور الإقليمي بسمات خاصة في تلك الأقاليم التي تسودها لغة مختلفة إضافة إلى الإسبانية، حيث تتعايش الأولى مع الثانية. وكان هذا أساسًا في قطالونيا وفي إقليم الباسك (لكنه أقل قوة في كل من جليقية وبلنسية). وحتى مرور أعوام كثيرة على بداية استعادة الملكية لم يظهر موقف يمكن أن يطلق عليه "قومي". ولم يكن هذا موجودا بالطبع خلال القرن الثامن عشر أن في أثناء حرب الاستقلال أو في أثناء فترة حكم إيزابيل الثانية كاملة. ولا يوجد لذلك أثر في لاس بالماس أو عند مؤلفي عصر النهضة Renaixença الذي يعنون بالقطلانية يجب ابتداء من أريبو Aribau وما بعد ذلك، ولكن دون تأويلات سياسية قومية. لم يثر هذا الموقف أي نوع من الريبة في باقي إسبانيا. وفي عام ١٨٧٤ نجد في "الدفاع عن المجتمع" يجري الحديث بودّ شديد عن الحركة الأدبية في برشلونة وعن الاهتمام باللغة القطلانية ثم ينشر شعر بعنوان "Coliu" يحظى بثناء شديد ("من الصعب للغاية ترجمته" كما أنه حتى وكأنه "نار تحت الرماد" ورغم ذلك فلو كان مباشرا لأطلق عليه (Rescoldo" "جمرة"، في الترجمة التي ترافق النص الأصلي)[143].

ولم يكن "ما هو قطلاني" Lo catalanisme لفالنتي ألميرال (١٨٤١ – ١٩٠٤) توجها قوميا خالصا. كتب في عام ١٨٨٩م "إسبانيا كما هي عليه" حيث تحدث عن "مواطنته القطلانية" التي لا مراء فيها، إلا أنه يقول إن "القطلانيين هم إسبان خُلّص مثلهم مثل باقي أقاليم إسبانيا" وأنه "لا يمكن أن نكون غير إسبان". ومن جانبه يؤكد بي إي ماراجال، المؤيد للفيدرالية، الوحدة القومية لإسبانيا بحزم وقوة. إلا أن الأمور أخذت تتغير مع عام ١٨٨٨م (المعرض اليونيفرسال برشلونة)، وحديدا عام ١٨٩٢م (هناك قواعد مانريسا، ونشر "التقاليد القطلانية" للأسقف تورّاس إي باخس). وابتداء من ذلك الحين هناك توجه قومي كان التعبير الأكثر شهرة عنه "الجنسية القطلانية" فنريك برات دي لارينا (١٩٠٦م)[144].

---

(143) الجزء الخامس. ص ٦٧٥ – ٦٧٨.

(144) انظر كتابي خمس سنوات من عمر إسبانيا (١٩٨١) ص ١٨٣ – ٢١٣ – وكذلك كتاب ميلتشور فرنانديث ألماجرو التاريخ السياسي لإسبانيا المعاصرة (١٩٥٩م)

ظهرت القومية الباسكية بشكل شبه متزامن مع الأولى، وأطلق عليها في البداية bizkaitarrismo. كان لويس وسايينو دي أرانا قد درسا في برشلونة، حيث ألفا القومية القطلانية، ثم نقلوها إلى إقليم الباسك فتأثر بها الناس وتجلت في الاحتجاج على إلغاء الأعراف fueros في شكل اضطرابات في سان سباستيان دي أرانا وواكب ذلك إعلان مبادئ شديد التطرف ومستلهم من الموروث التراثي والثيوقراطي والعنصري كما أنه انفصالي بوضوح[١٤٥].

هناك قاسم مشترك بين جميع هذه الظواهر وغيرها من تلك الأخرى التي درسناها: الخصوصية particularismo – وهي السمة التي أشار إليها أورتيجا عام ١٩٢١ في كتابه "إسبانيا اللافقارية" من حيث هي عنصر حاسم: بمعنى اللاتضامن بين الجماعات الاجتماعية من أي صنف، أو التفاهم على أساس أنهم "جميعا"، أو على أنهم جزء من كل. وفي هذا الإطار كان مسار التفكك disociación وهو مسار له مسارات مماثلة يمكن العثور عليها في الصراعات المدنية للبلدان الأمريكية وهذا أخطر بشيء يحدث في عصر إقرار الملكية من جديد، كما أنه لا يجرؤ أن يواجه تلك الأحداث بذكاء وكرم وحزم، من أجل الاعتراف بما هو عادل في مطالب الإصلاح وقطع الطريق أمام روح الانقسام.

---

(145) المصدر السابق ص ٢٠٩ – ٢١٢، ص ٦٠٤ – ٦١٠.

الفصل السابع والعشرون

إسبانيا وفقدان الاتجاه الخلاق بين غرقين

الأوربة:

ما حدث في إسبانيا منذ قرن من الزمان أمر معروف للجميع ومستكن في أذهاننا. ومن ناحية أخرى قمت بدراسة هذه الفترة باستفاضة في كثير من كتاباتي، الأمر الذي سوف يجعلني مُوجِزا فيما يتعلق بالإشارات التاريخية، وعلى هذا فما يهمني هنا على وجه الخصوص هو تبيان دلالة تلك الأحداث، أو، بمقولة أخرى، مضمون الحياة الإسبانية منذ نهاية القرن التاسع عشر(١٤٦).

هناك بعض النقاط يجب تحديدها، فما اعتدنا أن نطلق عليه موقف "جيل الثامن والتسعين ١٨٩٨" لم يتمخض عن الأحداث الحربية التي جرت في ذلك العام، بل هو موقف سابق عليها: الكتاب الأكثر تعبيرا عن هذه الروح هو **حول الأصالة** لأونامونو، حيث ظهر في **إسبانيا الحديثة** عام ١٨٩٥م. كما أن أعمال أنجل جانبت سابقة على ذلك التاريخ فالكاتب توفي عام ١٨٩٨م، كما قلت في مرات سابقة بأن جيل الـ ١٨٩٨ ليس إلا تعبيرا عن الموقف الفعلي لإسبانيا بغض النظر عن الظواهر. لكن هذا لا يعني أنه لم تركب

---

(146) انظر الإسبان. الفصل الأول من المدخل إلى: **أورتيجا. الظرف والميل**، كذا أجزاء كتاب **إسبانيا الفعلية**.

أخطاء بعد ذلك مثل أن نلقي على الفترة السابقة بظلال ما كان "الكارثة القومية"،وكأن هذه الكارثة كانت محصلة ضرورية ودون أن نلاحظ عنصر المصادفة الذي لا ينفصل عن الحياة الإنسانية سواء على المستوى الفردي أو التاريخي: فاستنادا إلى الوضع الذي عليه فترة استعادة الملكية كان يمكن أن تحدث الأمور بطريقة أخرى، حاولت في الفصل السابق أن آخذ في الحسبان الإمكانيات الفعلية المختلفة وكذا عنصر الحرية الذي ينسب إلى ما هو إنساني.

الأوربة هي الفكرة القائدة التي تحدد مسار السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. كما أنها سابقة على عام ١٨٩٨ رغم أن انتشارها وحيويتها يرجعان إلى ما بعد ذلك وأصبحت على ألسنة الجميع بفضل كتاب خواكين كوستا "**إعادة بناء إسبانيا وأوربتها**" (١٩٠٠). وفي عام ١٨٩٥ كان أونامونو يقول شيئا ذا دلالة قوية: "قلة الحريات الداخلية تتجلى بوضوح أمام الحرية الخارجية، التي نعتقد أننا نتمتع بها لأن لا أحد ينكرها علينا". وبعد ذلك بقليل يقول "هل كل شيء يحتضر؟ لا، مستقبل المجتمع الإسباني ينتظر داخل مجتمعنا التاريخي في عمق التاريخ intrahistoria، في ذلك الشعب المجهول ولن يخرج هذا المستقبل بقوة حتى توقظه رياح أو عواصف قادمة من الجو الأوربي... لا زالت إسبانيا في طور الاكتشاف والأسبان المتأوربون هم الذين سيكتشفونها"[١٤٧].

فكرة غريبة هذه "الأوربة" التي تطلق على بلد أوربي، أي على بلد هو واحد من أوائل المبدعين لأوربا. ومن الطبيعي أن يفهم أنصار هذا الاتجاه أن الأوربة هي مجموعة من الجوانب الإيجابية التي عليها ثلاثة بلاد أوربية أو أربعة، وتجاهل أو نسيان باقي الدول الأخرى. ثم يضيفون إلى ما سبق تشويها مبالغا فيه للغاية لكل شيء تقريبا يتم في إسبانيا — أو تم التخلي عنه —. غير أن هناك نواة لها ما يبررها ومشروعة: هناك بعض الجوانب التي أصبحت فيها إسبانيا متخلفة على مدار خمسة عشر عاما مقارنة بالمستوى الذي عليه الجزء

---

(147) مقالات، الجزء الأول، ص ١٩٢، ٢١١.

الأكثر إبداعا في أوربا، بسبب العزلة النسبية التي بدأت مع الغزو الفرنسي ولم تتمكن من تجاوزها بشكل كامل. ليس الأمر إذن أن إسبانيا ليست أوربية بل تفتقر لبعض الملامح التي تشكل **اللحظة الراهنة** لأوربا.

أدرك دعاة "إعادة التنشيط" regeneracionistas من كل لون أن الأوربة تقليد لأوربا أو استيراد ما يوجد فيها وينقصنا. وسقطوا في الخطأ نفسه الذي وقع فيه المستنيرون خلال القرن الثامن عشر، فرغم ما لهم من مزايا لم يتمكنوا من تحقيق ما يطمحون إليه لأنهم لم يفعلوا ذلك **إبداعا من عندياتهم**. كان هذا الأخير من الأمور المنتظرة من جيل الـ ٩٨، وأكثر من هذا أورتيجا الذي أعطى معنى أكثر دقة لفكرة الأوربة. فالأمر لا يقتصر فقط على التقليد بل هو **عدم التقليد**. وتحديدا يمكن القول إن وضع إسبانيا يعود إلى أنه مرّ عليها قرنان من الزمان وهي تقلد أوربا. كتب في عام ١٩٠٨م "ألم تبدأ إسبانيا لعن إسبانيا خلال القرن السابع عشر والتوجه ببصرها نحو ما هو غريب والمناداة بتقليد إيطاليا وفرنسا وإنجلترا؟ ألم تقض هذه المائة عام الأخيرة بتؤدة وهي تطلّع على جميع التشريعات الأجنبية أو أغلبها من خلال مجلة الجازيت العفيفة؟" ويرى أورتيجا أن الأمر الخطير هو الحديث عن الأوربة ولا يتم تحديد ماهية أوربا. بينما يقوم الكاتب بفعل ذلك بطريقة قاطعة: "أوربا = علم: أما ما بقي فهو قاسم مشترك لها مع باقي الكون". أربا هي وجهة نظر، وأوربا سوف تنقذنا من الأجنبي – لأن أوربا ليست كذلك من وجهة نظر أوربي – إسبانيا هي المشكلة وأوربا الحل كما يقول أورتيجا. لكن ذلك ليس من أجل التكرار أو التقليد بل الوصول بإسبانيا لتكون **إمكانية أوربية** ولتصل **إلى التفسير الإسباني للعالم**.

الغرق الأول ١٨٩٨:

تركت "الكارثة القومية"، أي الهزيمة أمام الولايات المتحدة، وفقدان كل ما بقي من الملكية القديمة في شطري الكرة، الأقليات الأكثر يقظة وحساسية في إسبانيا فاغرة الفاه، غير أن ذلك كان في خضم لا مبالاة غريبة في البلاد بعامة. هنا يجب أن نبرز أمرين عادة ما يتم نسيانها رغم ما لهما من أهمية هذا إذا ما أردنا فهم الأمور حقيقة:

أولاها هو أن فقدان كوبا وبويرتوريكو والفيلبيين لم يَعْنِ تدهورا اقتصاديا بالنسبة لإسبانيا، بل العكس تماما، فقد تحسن حال الاقتصاد الإسباني بشكل ملحوظ خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، وأخذ ينمو بشكل ضعيف وهذا ما أبرزته عندما تحدثت عن استقلال أمريكا خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر، الأمر الذي يوضح أن التفسير "الكولونيالي" للأراضي الإسبانية الواقعة فيها وراء البحار غير سليم بالمرة.

أما الثانية فهي تتعلق بالواقع السياسي لإعادة الملكية Restauración. كان هناك تكرار لا يَمَلّ من أن ذلك كان مجرد خيال وزيف ووهم، وأسهم في ذلك الكثيرون ابتداء من كوستا Costa وحتى أورتيجا. كانت إسبانيا ملكية دستورية في يد ملكة وصية.

كانت ماريا كريستينا، باسم ألفونسو الثالث عشر، لا زالت طفلة، وهناك أحزاب تتبادل الانتخابات لكن يدمرها (أي الانتخابات) العصبيات المحلية caciquismo... إلخ. نشأ في ظل هذه الظروف التي تتسم فيها إسبانيا بالضعف الشديد، تقع الهزيمة العسكرية وتصفية ما بقي مما كان ذات يوم إمبراطورية. ولم يحدث شيء. أريد القول إن الدولة لم تتحطم أو أن هناك ثورة أو دكتاتورية. ظلت الشرعية قائمة لم تُمَس، وظلت الدولة الضعيفة تواصل أداءها ترأسها امرأة دون حدوث توقف للهيئات القانونية. ظل البرلمان يواصل أداءه، تجري الانتخابات، وبعد ذلك بأربعة أعوام أخذ ألفونسو الثالث عشر يحكم البلاد. هل كانت كل البُنى السياسية لمرحلة إعادة الملكية ضعفا وزيفا كما يقولون؟

لكن هل ننسى أن كل ما يبدو وكل ما يُعتقد هو أيضًا فعلي ويشكل جزءا من الواقع- الغرق- سوف يكون شيئا وجده الجيل الشاب، أي نقطة الانطلاق. ومع الفرق ينتهي ذلك العصر الذي لم يكتمل وتلا العصر الرومانسي وبدأ ما سوف يكون زماننا. في هذه الفترة لم يكن جيل الـ ٩٨ ينسب إلى الماضي بل كان بداية الحاضر، الأمر الذي أعطى لهذا الجيل "زخما" يفتقر إلى الجيل القائم في أغلب البلدان.

أجبر الانطباع بهذا الفرق على مواجهة الواقع بشكل راديكالي غير مسبوق حتى ذلك الحين. أشرت سلفا إلى أن من سمات جيل الـ ٩٨ **قبول الواقع**، وهذا موقف على أعتاب "الالتزام السلبي" conformismo (هناك أسباب كثيرة لذلك من بينها هو أنهم يرون الواقع غير مقبول). وهناك ما هو أبعد من هذا وهو أن هؤلاء الكتاب يمارسون نوعا من اللاقبول الذي يتجاوز حدود المضامين بشكل كبير لأنه سابق عليها: أي اللاقبول بالنسبة **للأجناس الأدبية**. أدى هذا برجال جيل الـ ٩٨ إلى عدم إقرار أي شيء على أنه حقيقة وعدم قبول التحليلات التي يجدونها في عالمهم، فأول شيء يفعلوه هو اتخاذ **موقف** من الواقع الإسباني على جميع الأصعدة: سوف يجوبون إسبانيا دون البقاء في مدريد أو كل في مدينته، وسوف يرونها بأعين جديدة وسوف يجدونها ويكتشفونها **ويبتكرونها** - كانت قشتالة على هذا النحو وبعد ذلك باقي أنحاء إسبانيا - وسوف يقرؤون الكتب القديمة التي حظيت قبل ذلك بالنفور أو التبجيل، وسوف يقومون بتقريبها وسوف يجعلونها تعيش مرة أخرى، سوف يعرفون التاريخ دون أن يهنأوا بالتحليلات التقليدية وسوف يبحثون في أصول اللغة كما سوف يستخدمونها استخداما خلاقا من أعمق أعماقهم. كلما مرّ الوقت تزداد دهشتنا بهذا الجيل ١٨٩٨م، وليس فقط لجودة إبداعه بل يرجع الأمر في الأساس إلى **جودة الإبداع** وإلى صدق منطلقاته من خلال البدائية الراقية - إن صح التعبير - حيث عاد إلى الجذور محملا بالكثير من المعارف والقراءات والآلام والآمال، وإذا ما كان هؤلاء الكتاب الذين ولدوا منذ ما يزيد على قرن من الزمان بكثير يتسمون **بالمعاصرة** وتصبح أعمالهم هدفا للقراءة أكثر من الدراسة ويتعرضون للهجوم والحرب عليهم في بعض الأحيان والجدل الدائم إنما يبين انتماءهم إلى العصر التاريخي نفسه الذي لا زلنا نعيش فيه[١٤٨].

---

(148) درست جيل الـ ١٨٩٨ دراسة تفصيلية في أبحاث أخرى لي عليّ ألا أود لتكرارها. فإضافة إلى كتابي "**ميجل دي أونامونو** (١٩٤٣م)، وبعض المقالات الأخرى التي نشرتها في "**مدرسة مدريد**" وفي "الإسبان"، يرجي النظر إلى "الأدب والأجيال"، ومقال "روبين داريو وجيل الـ ٩٨" (الأعمال الكاملة الجزء العاشر)، وكذلك الدراسة المطوّلة بعنوان "استمرارية أونامونو" (مدخل إلى الجزءين المخصصين له ضمن سلسلة "ملفات إدارية لعظام الإسبان")

إنه جيل مثير للجدل، وشديد النقد للأجيال السابقة – وهي أجيال سوف يتصالحون معها في مرحلة النضج – والسبب في هذا هو أن هناك عصر جديد يبدأ معه عصر جديد. وعلى العكس من هذا نجد الأجيال الثلاثة اللاحقة حيث أصبحت "أكداسا" بالمقارنة به، وقام هذا الجيل بإضافة وجهات نظره الخاصة بشكل متسق ودون انقطاع.

إلا أن الأمر الحاسم هو أنه من خلال هذه الأصالة الراديكالية وهذا النضج الذي عليه الغرقى الذين يحاولون جاهدين معرفة ما يستندون إليه، وبالتالي أخذ هذا الجيل يعمل وكل من خلال تخصصه وهذا بشكل لم يكن قد حدث منذ العصر الذهبي، وبذلك تمكنوا من القضاء على الانحدار التي كانت تجره إسبانيا منذ بداية القرن التاسع عشر. ومهما كانت وجهة نظر جيل الـ٩٨ بشأن الأوربة، فإنها تحققها بشكل فعلي عندما وضعت إسبانيا على إيقاع الزمن الذي تعيش فيه باقي الدول. حقيقة الأمر أن هذا صائب بالنسبة للعمل الشخصي لهؤلاء الكتّاب: فلم يكن لهم تلاميذ بالمعنى الحرفي للكلمة (باستثناء كبار المثقفين أو الباحثين مثل رامون مننت بيدال أو مانويل جومث مورينو أو ميجل أسين بلاثيوس). من المؤكد كذلك أن المؤسسات لم تبلغ هذا المستوى لكن الانحدار اختفى في القمة، أي في باب الإبداع الثقافي والأدبي: هؤلاء المؤلفون، ومعهم من هم في الصف الأول من الأجيال التالية، ليسوا أقل شأنا من أقرانهم في باقي الدول الأوربية.

هذه ظاهرة نادرة الحدوث في التاريخ، وتشكل بالتالي أصالة إسبانيا في نهاية القرن وبداية التالي. يتمثل الأمر في أن الأزمة الاجتماعية والسياسية أسفرت لا عن عملية إصلاح ملائمة لهذه الأبعاد بل عن تحول ثقافي، وتغير في الموقف لا يتجه مبدئيا إلى السياسة أو المشاكل الاجتماعية بل هو عبارة عن الرجوع إلى الأصالة في إثراء الفكر أو الأدب أو البحث التاريخي. ونذهب إلى ما هو أبعد من هذا وهو أن هؤلاء الكتاب الذين يتوجهون مبدئيا نحو السياسة – مثل أونامونو وكذا أثورين بدرجة ما – لا يقومون بشيء مهم، في حقيقة الأمر، في هذا الاتجاه، كما أنهم ابتعدوا عنها بعد وقت قليل. أما الذين

ظلوا على ما هم عليه مثل مايثتو Maeztu، فإنهم وضعوا قامتهم الثقافية موضع جدل. وخلاصة القول هو أن التوجه السياسي الذي عليه جيل الـ ٩٨، والذي اتسم بأنه كبير، إنما كان محصلة غير مباشرة لتجليهم في المجال الفكري والإبداع الأدبي.

ولا شك أنهم أكثر من ساهم في تغيير ملامح إسبانيا ومَدّ أفق الرؤية عندها من جديد. وعلّى القول هنا أنني لا أتذكر وجود حالة مشابهة لهذه، غير أن الحالة الأقرب تتمثل في كبار الكتّاب والمفكرين الألمان بعد احتلال ألمانيا على يد نابليون. ومع ذلك هناك اختلاف مهم وهو أن الحافز الإبداعي يرجع إلى ما سبق، أي إلى كانط وجوته وهردر وجاكوبي وSchleiermacher وفيشت Fichte وهيجل وبتهوفن وشيلر، حيث كان كل هؤلاء مبدعين ومؤثرين قبل الفترة النابليونية. وبها فإن ما أفرزه الغزو تمثل أساسًا في "التكثيف الاجتماعي" لهذا الصيت الذي عليه هذه الشخصيات الكبرى.

دخل جيل الـ ٩٨ "التاريخ" من هذا المنطلق عام ١٩٠١م أي مع بداية القرن العشرين. فعندما أخذوا يفكرون ويكتبون **انطلاقا من ذواتهم**، تمكن هؤلاء الكتاب من تطبيق مطلب "جودة الصفحة" التي أدت إلى تكثيف فريد وفعالية لكل ما يكتبون، كما أنهم عندما رفضوا التنميط الميت الذي لا يجدي نفعا بعد الغرق، كان عليهم أن ينظروا للواقع الإسباني بعيون جديدة، انطلاقا من المشهد العام وحتى التاريخ وأشكال الحياة اليومية، ولما كانوا كتّابا عباقرة فقد وجدوا التعبير الذي يرونه. قاموا بإعادة إبداع ما كان تأثر حتى ذلك الوقت بالقصور الذاتي. وهم من ذوي الشجاعة الثقافية والأدبية – وهذا أمر قليل الشيوع خلافا لما يبدو عكس ذلك – دون حدود. جرؤا على أن يكونوا من الأصلاء، وهم كذلك إذ ليس هناك مخرج آخر، وليس لأنهم يبحثون عن الأصالة خاصة. ومن خلال ما يعملون جعلوا إسبانيا تخرج من وهدتها ومن غرقها السياسي وتقنع نفسها في مستوى لم تعرفه منذ منتصف القرن السابع عشر، إنها القمم الأكثر علوّا وهذا مفهوم، كانت مشكلة القرن العشرين الإسباني هي النقطة الأبرز في هذا المقام.

ولهذا كله فإن القامة التاريخية التي بلغها جيل الـ ٩٨ لا يمكن مقارنتها بأخرى ولكن دون أن يكون لهذا أي أثر من الأحكام المسبقة على الأهمية الثقافية لهؤلاء الذين ينسبون إلى أجيال لاحقة. وبالنسبة لي أرى أن أورتيجا هو الشخصية الرئيسية الإسبانية، في باب الثقافة خلال القرن العشرين، ففي جيله والأجيال الأكثر حداثة هناك كتّاب من ذوي القامات الرفيعة ولا يضارعهم أو يحل محلهم أحد. لكن الوظيفة التي قام بها عشرة رجال يمثلون جيل الـ ٩٨ كانت فريدة لأنها وطيقة tectonica تكتونية (مركبة) إذا ما جاز التعبير: إذ قاموا بدور نهضة شامل لإسبانيا وجعلوها تدخل إلى ذاتها وتملك جماع نفسها مثلما لم تفعل ذلك على مدار قرون ثلاثة، بدأ هؤلاء العشرة طرائق جديدة في التفكير والكتابة وتجاوزوا التبعية بالنسبة لدول أوربية أخرى. وخلاصة القول أنهم جعلوا من الممكن أن تتموضع إسبانيا مرة أخرى في ذلك الوضع الذي كان على مدار زمن طويل ميزة فردية لبعض الرجال القلائل: أي الموقف الإبداعي.

أصالة أصيلة:

يمكن لهاتين الكلمتين أن تلخصا المعنى العميق لما عليه الحياة الإسبانية خلال العقود الأولى من القرن العشرين، وكذا الثقافة التي تنبت منها. كانت الأصالة تعني أي شيء ما عدا الهوى Capricho: كانت شيئا ينبع من الأصول والجذور التي رفضها البعض واتخذها البعض بلا جدوى حيث كانوا يسعدون بالاسم. ولم تحظ إسبانيا بتقدم مثل هذا منذ العصر الذهبي، كما أنها لا تحاول أن تعيش على الجزء الخاص بها متناسية أو مزدرية الأجزاء الأخرى. ولم يكن هناك أي إسباني مثقف بمعنى الكلمة يسعد مما عليه بلاده، فأصبح الجميع، يملكون بدرجات مختلفة ناصية ما تم وما يتم في أنحاء أوربا وكذلك في أمريكا منذ فترة معينة. إنهم يفكرون بالإسبانية لكنهم يقرؤون بمختلف أهم اللغات، من ثلاثة على أربعة، التي تتجلى فيها ثقافة عصرنا.

هم يهضمون كل هذا ويجعلونه خاصا بهم ويعيدون التفكير فيه وذلك حتى يتمكنوا من عمل جوهرهم، كما أنهم في الوقت نفسه ينزلون إلى أعماق الواقع الإسباني بحثا عن الجذور ويقدمون نقدا مؤلما يتضمن الميل والحب لذلك "الإحساس المؤلم" الذي تحدث عنه جارثيلاسو. ولهذا يمكن أن يكونوا أصلاء لأنهم يكتبون ويفكرون انطلاقا من أنفسهم وليس انطلاقا مما "يتم التفكير فيه" أو "ما يقال"، أو ابتداء من الموضات أو ما يقوله الناس. يفعلون ذلك إذ ليس أمامهم خيار آخر لأنهم في حاجة إلى معرفة ما الذي يجب أن يعنوا به، ولهذا يبحثون فيما هو موجود، وما يجدونه في باقي البلدان الأخرى، لكن هذا لا يكفيهم، والسبب هو أنهم يريدون أن يكون هذا لهم ويستولوا عليه انطلاقا من موقفهم، كما أن هذا الذي يجدونه ويثرون بهم أنفسهم لا يجدون فيه الكفاية حيث لا يصل إلى مستوى الراديكالية التي يتحركون فيها وأنه ضروري لهم.

كل شيء تحت الإنشاء، كما أن من المعروف كيفية عمله: يمكن أن تعبر هذه الصيغة عن موقف المبدعين الإسبان العظام خلال القرن العشرين. بدأ العمل في حقل الأدب ذلك أنه من خلال هذا الحقل يمكن بلوغ درجة الشخصية التي تجعل من الممكن استعادة الحِسّ النظري. ومن جانب آخر فمن خلال الفعالية يمكن للأدب أن يُعْدي الشعب الإسباني بالموقف الجديد الخاص بالأصالة والراديكالية. في عام ١٩١٤م حدد أورتيجا نفسه على أنه "أستاذ فلسفة in partitus infidelium". وبعد ذلك بعشرين عاما هناك ما سيطلق عليه "مدرسة مدريد"، وأصبحت معروفة تلك الكتب من الطراز الأول المكتوبة في أي مكان قبل أن تعرف في بلاد أخرى، وأصبح هناك كثرة كثيرة من الأقليات من غير المحترفين الذين يعنون بكتب الفلسفة ودوراتها وأخذوا يلتهمون كل ذلك كما لم يحدث من قبل في أي عصر وأكثر من أي بلد أوربي آخر دون استثناء. وحدث شيء مناظر لذلك في حقول معرفية أخرى وكان ذلك من خلال أدبيات ذات جودة عالية.

هذا كله معروف بصفة عامة في العالم عندما يتعلق الأمر بالرسم، وكذلك في الموسيقى ولكن بدرجة ما. لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للأدب والفلسفة والتاريخ.

لماذا؟ ربما يمكن التفكير في أن جودة المبدعين في هذه الحقول الأخيرة لا تصل إلى ما عليه الرسامون أو الموسيقيون. ولا يوجد إسباني مسئول يفكر أن هؤلاء كانوا أعلى من الفلاسفة أو الشعراء أو كتاب الروايات أو علماء الفيلولوجيا. ما حدث قبل كل شيء هو أن الرسم والموسيقى ليسا في حاجة إلى ترجمة وبالتالي فالولوج إليهما فوري. كانت الإسبانية غير مقروءة إلا قليلا في أوربا والسبب – هناك أسباب كثيرة وبعض اللا أسباب – أنه منذ زمن لم يكن يُنْتظر شيء غير متوقع على الإطلاق. ولما لم يكن هناك إلا قراءة قليلة فإن الترجمة كانت أقل، كما نعرف أن العمل يفقد شيئا مع الترجمة. أضف إلى ذلك أن الرسم ذو قيمة اقتصادية وهناك تجارة تدعمه بينما عالم الكتب التي تنتجها المطابع لا يكاد يساوي شيئا. وفي نهاية المطاف وهذا هو الأكثر أهمية، فإن من يكتبون يقولون شيئا، وهذا الذي يقولونه قد لا يروق ببساطة لهؤلاء أو أولئك من الإسبان الذين يسارعون لرفض قيمته، فبدلا من دعم الكتب يفعلون أي شيء لتدميرها.

من المهم الإشارة في هذه الحالة إلى التجديد في إسبانيا، وتموضعها في اتساق مع إيقاع العصر، وجاء ذلك من خلال نشاط أفراد، ولم يكن ذلك كما حدث خلال القرن الثامن عشر، أي – على سبيل المثال – انطلاقا من سلطة حكومية ذكية تستثير ردا اجتماعيا وتشجع – كلمة جوهرية – على ما يقوم به المجتمع. أيضًا لا نقارن بداية القرن العشرين بما حدث في نهاية القرن الخامس عشر، حيث كان موقف الملوك الكاثوليك حاسما بصفتهم المحركون للمهام الكبرى التي تثير حماس الإسبان ابتداء من تكوّن الأمة وحتى القيام بالمهام الكبرى التي تعطي لها معنى وقيمة. لكن هذا التأثير القادم من الأفراد أخذ يحدث في زماننا تحولات اجتماعية بطيئة يجب أن تكون حاضرة في الأذهان.

لا يجب أن ننسى السابقة الخاصة "بالمؤسسة الحرة للتعليم" التي أسسها فرانثيسكو خنير دي لوس ريوس عام ١٨٧٦م ومعه مجموعة من الأساتذة والكتاب الذين كانوا يسيرون على منهج كراوز Kraus الذي قام خوليان سانز دل ريو بإدخال توجهاته في منتصف القرن، لكنهم كانوا يخرجون منه. الأمر المثير للفضول هو أن هؤلاء الرجال،

الذين يعتبرون نموذجا يحتذى به في كثير من الجوانب، قاموا بإقامة "المؤسسة" وقاموا من خلالها بتطوير أنشطتهم وكانوا أكثر كفاءة من حيث كونهم مجموعة مقارنة بأعمالهم كمؤلفين أفراد. لم يحدث شيء من هذا مع جيل الـ ٩٨ الذين كانوا شديدي الفردية، وإذا ما كان هناك توافق بينهم فهذا بفعل تقوية كل لشخصيته.

إلا أن تأثير هؤلاء وأولئك جعل الجامعات الإسبانية تتحسن كثيرا خلال الثلث الأول من القرن وخاصة في باب الدراسات الإنسانية، وحدث شيء شبيه في العلوم والقانون والطب حتى وصلوا إلى درجة من الكمال لم تكن معروفة قبل ذلك أبدا خلال سنوات الأخيرة للسلام، أي قبل عام ١٩٣٦م. ولا ننسى في هذا المقام المستوى الذي بلغته المعاهد المتوسطة – كانت قليلة العدد لكنها عالية الجودة من حيث مستوى الأساتذة – الأمر الذي يعني الارتفاع العام لمستوى قطاع مهم في المجتمع، وكذا الإمكانية في أن يتحسن وضع الجامعة بطريقة ملائمة. حدث تحول كبير في المجتمع الإسباني بعامة بفضل "لجنة توسعة آفاق الدراسات" وبفضل البعثات للدراسة في الخارج – وخاصة في ألمانيا، وكذا مركز الدراسات التاريخية بأفرعه المختلفة، وتأسيس صحف جديدة (مثل ABC عام ١٩٠٥م وكذا Sol عام ١٩١٧) وكذا مجلات ذات جودة غير مسبوقة في إسبانيا حيث لم تكن أقل من الأخريات (مجلة الغرب، من عام ١٩٢٣ حتى ١٩٣٦)، وكذلك مجلة Cruz y Raya التي لم تعش إلا فترة قصيرة (١٩٣٣-١٩٣٦). زاد أيضا عدد القرّاء وعدد الذين يشهدون المحاضرات ذات المستوى العالي (كان لمقر إقامة الطلاب ومقر إقامة الإنسان تأثير شديد)، وأخذت تتأكد سمعة وصيت المثقفين والذين كانوا في الدرك الأسفل في هذا المقام في نهاية القرن التاسع عشر، وأفاد من هذا كل أولئك الذين ينتسبون إلى الأجيال اللاحقة على جبل الـ ٩٨، وخاصة جيل ١٩٠١م من حيث مركزية تاريخ الميلاد، أي من يسمون في العادة جيل الـ ٢٧"[(١٤٩)].

---

(149) انظر مقالي: جيل عام ١٩٢٧م؟ (الأعمال الكاملة – الجزء العاشر).

هذا الطابع الذي كان عليه المجتمع الإسباني خلال العقود الأولى من القرن العشرين كان بمثابة استمرار للعوائق – لا زال المستوى العام ضعيفا وكذا المستوى الاقتصادي الصعب والمتاعب التي تواجهها الهيئات الحكومية أو غيرها – إلا أن هناك حفاظا على الحيوية الخلاقة، والحفاظ على درجة مهمة من الأصالة، وثقة أولية في إسبانيا. ولم تكن الثقة كبيرة في الواقع الذي تعيشه وهو واقع متعب ومؤلم ولكن في الإمكانيات القائمة. كان زمن أمل يتلألأ.

فقدان الاتجاه اجتماعيا:

ومع كل هذا هناك شيء يقف عثرة دائمة في وجه الحياة القومية سوف يؤدي إلى أخطر أزمة في التاريخ الإسباني. فبعد التصفية السلبية لمسألة الأراضي الواقعة فيما وراء البحار، أخذت المشكلتان الأخريان الموروثتان عن عصر إعادة الملكية Restauración تزيدان خطورة. وكلما سارت إسبانيا خطوات في طريق التحديث وكلما أصبح للتصنيع ثقل أكبر في الاقتصاد والمجتمع كلما زادت حدة المشكلة العمالية. وإلى هذا تنضم حركات المقاومة أو، لنقلها بصراحة، حركات تستهدف قلب نظام الحكم مثل الفوضوية حيث امتدت إلى الريف حيث ظروف المعيشة هشة وخاصة في إقليم الأندلس (لنتذكر مقال أثورين "الأندلس المأساوية" عام ١٩٠٥م). فالتنظيمات أصبحت أكثر قوة وأكثر قدرة على الضغط، وكان ردّ الفعل على ذلك مصحوبا بالخوف أو القسر، أكثر من كونه رد فعل يحاول أن يجابه المشاكل بطريقة ذكية. ازدادت التوترات. وتم استغلال هذا الموقف لأغراض سياسية في المقام الأول وفي كلا الاتجاهين. لم يتم البحث – أو كان البحث قليلا للغاية – عن حلول فنية تعمل على زيادة الثروة الضئيلة للغاية وتوزيعها بطريقة عادلة. كما أن الميل الذي كان يشعر به بعض الكتاب المستقلين نحو الاشتراكية سرعان ما أخذ يتحول إلى خيبة أمل أمام سيطرة ما هو سلبي ومعادٍ. إنها الحالة التي كان عليها أونامونو

وأورتيجا. حدث شيء شبيه، فيما يتعلق بالميول التي عليها الفوضويون، عند آثورين في مقتبل شبابه. وانتهت سريعا عندما اكتشف ميلها إلى العنف(١٥٠).

فقد الحزبان التقليديان – الليبرالي والمحافظ – قوة دفعهما وتحولا إلى مجموعات ميتة تتصارع على السلطة، واتسم التوجه الجمهوري بأن عقليته جامدة، وبقي يداعب أفكارا ترجع إلى القرن الماضي، وعادة ما يصاب بالهوس في محاربة التوجهات الدينية. وعندما يتحالف الحزب الاشتراكي مع الجمهوريين فإن هذا الجمود يلقيّ بظلاله على حركة كانت تمثل شيئا جديدا له ما يبرره وله أصالته. ومن جانب آخر، فإن طابعها الماركسي أبعد عنها هؤلاء الذين كانوا يقاومون الربط بين ما هو اشتراكي وبين نظريات ماركس، أي هؤلاء الذين لا يقبلون بالصراع الطبقي ولا يرفضون ما هو قومي باسم ما هو دولي. زادت من خطورة الموقف بعض الأحداث مثلما وقع فيما يسمى "الأسبوع المأساوي في برشلونة (١٩٠٩م) أو الإضراب العام ١٩١٧م. وأخذت تزداد قوة توجهات محاولات قلب نظام الحكم والقمع، وهي مواقف تجعل الحوار مستحيلا، والأكثر من هذا المعالجة العقلانية للمشاكل الفعلية. أخذ الاقتصاد الإسباني يتنفس الصعداء قليلا بفضل الازدهار النسبي الناجم عن الموقف الحيادي الذي اتخذته إسبانيا في أثناء الحرب العالمية الأولى، وهدأ الوضع الاجتماعي قليلا، إلا أن الثورة الروسية جعلت الحركات العمالية أكثر راديكالية. حدث انشقاق في الحزب الاشتراكي ليتأسس الحزب الشيوعي (وكانت أعداده قليلة حتى بداية الحرب الأهلية)، غير أنه بقي في ذاك الحزب – الاشتراكي – بعض من التطرف أخذت قوته تزداد الأمر الذي أدخل على الحزب تفككا عميقا. وفي نهاية المطاف، خاصة في قطالونيا، في توجهاتها الفوضوية حدثت موجة من الإرهاب العمّالي، حيث تمت محاربتها في بعض الحالات بموجة أخرى ذات طابع مضاد وأخذ التوتر يصل إلى درجة شديدة الخطورة.

---

(150) انظر كتابي "أورتيجا – المسارات" – الباب الأول، الفصل الأول.

دخلت القضية الثالثة على مسرح الأحداث وهي القوميات. ساعد على ظهورها الازدهار الاقتصادي في كل من قطالونيا وإقليم الباسك – وخاصة في كل من برشلونة وبلباو – حيث اتخذتا موقف فيه عدم تضامن وذاتية، واتخذتا في بعض الأحيان طابعا عدوانيا ذا توجه نحو القطيعة مع الوحدة الوطنية. كان ردّ الفعل قويا وكان عامة مصاحبا لانفعال أكثر من الذكاء. زادت العثرات الناجمة عن حرب المغرب (وخاصة Annual, Monet Arruit عام ١٩٢١) من الكدر العام. أما العسكريون فهم منقسمون على أنفسهم بسبب الصراعات الداخلية بينهم، وبسبب جرح كبريائهم من جراء الهجمات القومية على وحدة إسبانيا وبالتالي شعروا بميلهم إلى قمع هذه الحركات بالقوة.

وإلى جانب كل هذا جرى التقليل من شأن النظام البرلماني، وهذا موضوع لنا فيه كلمة، في المقام الأول نجد أن الشيوعية الروسية والفاشية الإيطالية دمّرا الديمقراطية البرلمانية (من حيث كونها إمكانية ولدت منذ قليل في روسيا، وكانت واقعا في إيطاليا) وهما مَيْلان دائمان أمام أعين باقي الأوربيين ومن بينهم الإسبان، أما في المقام الثاني، هناك الديمقراطيات الأوربية القائمة التي تبالغ في البرلمانية على حساب السلطة التنفيذية حتى وصل بها الأمر لترك هذه الأخيرة تعمل بفعالية في أضيق الحدود. وتحول هذا إلى ميل للدكتاتورية التي سوف تشعر بها أوربا جميع بعد عام ١٩٢٠م.

كان من الضروري أن تكون هناك مجموعة من الأفكار الواضحة تنتشر بفعالية في المجتمع الإسباني، وذلك حتى يتمكن من رسم معالم طريقه في خضم الأزمة. كانت الأفكار موجودة وكانت تتسم بالجودة والمعاصرة مقارنة بما كان عليه الوضع في نهاية القرن التاسع عشر، لكن الخلل الداخلي في المجتمع الإسباني كان أكثر خطورة، أريد القول الفوضى العقلية وفقدان الاتجاه. وإذا ما جرت مقارنة المشاكل التي بدأ بها العقد الثالث من القرن العشرين بالأزمة التي وقعت عام ١٨٩٨م فمن البديهي أنها كانت أقل، غير أنه في الوقت الذي تمكنت فيه شرعية ملكية الوصاية من عبور الإعصار دون أن تصاب بشيء، بدأ في عام ١٩٢٣ فرض الدكتاتورية (كان البداية بالدكتاتور العسكري

الذي كان مؤقتا حيث اختفى بعد حل بعض المشاكل الملحة، ثم جاءت الدكتاتورية المدنية التي زيفت الحياة السياسية وشعرت بالميل إلى أن تظل بشكل مؤبدا) وبذلك تأثرت الملكية الدستورية، التي لم تُقابل بعثرات منذ عام ١٨٧٦م أي على مدار ما يقرب من نصف قرن.

قامت دكتاتورية بريمو دي ريبيرا بعدة عمليات عاجلة: إعادة النظام الذي هدده الإرهاب والانفصالية، وتحسين الوضع الاقتصادي - وساعد على ذلك حقيقة سنوات الازدهار في كل أوربا وفي الولايات المتحدة - والانتهاء من حرب المغرب. لكن كان على إسبانيا أن تدفع ثمنا باهظا: وهو فقدان شرعية الدولة، والحدّ من الحريات، وانتهازية السلطة المكلفة بوضع القيود الخاصة بها. شعر الناس بالدكتاتورية على أنها تقهقر، وخرق للحقوق التي كانت تبدو مؤكدة (والتي لم يتم معرفة الدفاع عنها جيدا). وربما كانت الدكتاتورية انتصارا على ما هو أسوأ وكانت كذلك على ما هو أفضل.

وبعد هامش الثقة في البداية أدت إلى حدوث عدم رضا عميق وخاصة بين المثقفين والطلاب والعسكريين في نهاية المطاف. وعندما انتهت باستقالة بريمو دي ريبيرا - الرجل الذي مارس سلطة متعسفة لكنها لم تكن فظة أبدا وبها الحد الأدنى من العنف كما أنه لم يتمسك بها عندما فقد ثقة الملك والجيش - في بداية عام ١٩٣٠م وترك الملكية مصابة إصابة قاتلة.

ما بقي هو أمر معروف تماما، فمقاومة الملكية لمواجهة القرار القومي في البرلمان التأسيسي أدى إلى إجراء الانتخابات البلدية في ١٢/ ٤/ ١٩٣١م وكانت انتخابات مُسَيَّسة بقوة وتحولت إلى خطأ ارتكبته الملكية. وفي يوم ١٤ من الشهر المذكور انسحب الملك ألفونسو الثالث عشر، وتم إعلان الجمهورية. وفي اليوم نفسه جرت محاولة إعلان الجمهورية القطلانية. يمكن حل هذه الأزمة لكن الإعلان كان واضحا، وكان له ثقله على الفترة الجمهورية القصيرة.

أثارت الجمهورية الكثير من الآمال، واندرج تحت لواء ذلك الكثير ممن كانوا لا يريدونها. كانت هناك إمكانية بأن تكون نوعا من المصالحة الوطنية رغم أنها كانت مليئة بالاختلافات لكن سرعان ما اتضح أن الأمر لن يكون على هذا النحو. فعلي كلا الجانبين هناك أعراض عدم التفاهم واللاتسامح، إذ سادت بين الجمهوريين رغبة واضحة في إثارة الهياج. أما في قطاع المناوئين لها هناك قرار إدانتها على أي حال بغض النظر عن سلوكها الفعلي. وقبل مرور شهر، أي في الحادي عشر من مايو، وقعت الحرائق اللامعقولة في أديرة مدريد ومدن أخرى، حث سمحت بها السلطات ولكن برفض سلبي، الأمر الذي قضى على إمكانية الوئام. وظهرت المجموعات "التي ترفض المصالحة" وهي مجموعات قليلة، لكن لديها قدرة عالية على المناورة. ثم أخذت تنمو بينهم فكرة عدم قبول أي شيء يفعله الخصم – حيث ينظر إليه على أنه عدو – وكذلك عدم القبول بنتائج انتخابات في غير صالحهم.

لم يكن من المهم أنه على مدار خمس سنوات، وهي عمر الجمهورية، أن يتم فعل شيء عظيم وخاصة في مجال التربية والتعليم مثل: تحسين جميع الهيئات وكذا الجامعات، وإنشاء الجامعة الدولية في سانتا ندير وعدد كبير من المعاهد، حتى أصبحت أكثر من المدارس. كما حظيت الجمهورية بتعاون جميع المثقفين من ذوي الصيت، لكن لم تحظ آراؤهم بالاهتمام، كما أن المستقلين منهم كان ينظر إليهم على أنهم غير مريحين. وهنا فإن الأزمات التي حدثت بالنسبة لأونامونو وأورتيجا لم تحظ بالقبول الجيد أو الاهتمام اللازم.

في العاشر من أغسطس عام ١٩٣٢، جرت محاولة انقلاب عسكري على الجمهورية، وفي عام ١٩٣٣ كانت هناك اضطرابات عمالية شديدة الخطورة، وأدى قمعها إلى زيادة التوتر. وكانت نتيجة الانتخابات التي جرت في نوفمبر ١٩٣٣م، بعد حل البرلمان التأسيسي سحب السلطة من يد الاشتراكيين والجمهوريين اليساريين، ليفوز كل من الوسط واليمين بالأغلبية، وخاصة الحزب الراديكالي وحزب (الكونفدرالية الإسبانية لحقوق الاستقلال الذاتي)CEDA. لم يقبل الاشتراكيون – بنتائج الانتخابات وعارضوا أن يقوم حزب CEDA بتسلم السلطة التي فاز بها ديمقراطيا. في شهر أكتوبر ١٩٣٤

اشتعلت ثورة أستورياس وكانت لها أصداؤها الفورية في برشلونة على يد القطلانيين وحكومة الجنراليتاد. وأصيبت الجمهورية بطعنة قاتلة متأثرة بالشِّقاق. أطلق البعض على العامين التي حكمت فيهما بأنهما "العامان الأحمران" على الأولى، أما الآخرون فقد أطلقوا عبارة "العامان الأسودان" على الفترة الثانية. وبغض النظر عن قصر مدة حكم الجمهورية، وهي فترة تاريخية متسقة، فقد تم النظر إليها على أنها صراع، أو كأنها رفض تام يتخذه كل معسكر نحو الآخر.

هذا لا يعني أن الحياة الإسبانية في تلك الفترة كانت تدعو إلى الهمة والنشاط، كما أنها كانت مليئة بالأمل إلا أن ما حدث لها كان أمرا يكاد يكون مستترا ومن المهم إيضاحه. أخذ التسييس يدخل الساحة بشكل متزايد منذ عام ١٩٣٣، ثم اتخذ هذا الموقف بجلاء عام ١٩٣٤، ومعنى هذا أن السياسية كانت محط الاهتمام الأول، وتم النظر إلى كل شيء من منظور سياسي وكذا الحكم على الأشياء والأفراد من زاوية السياسة الأمر الذي أدى إلى إيجاد نمط راديكالي من فقدان الاتجاه وسرعان ما صبّ هذا في باب الشقاق وعدم القدرة على التعايش مع الآخرين.

هناك فريقان متضادان قاما بالعمل في باقي المجتمع وتسببا في انشقاقه وذهبا به إلي مسارات متعارضة لم يكن ليريدها لو كان ذلك بإرادته. لم يجد ما تم إنجازه من أعمال إبداعية ضخمة ومتراكمة منذ بداية القرن، ولم يجد المستوى الذي بلغه المجتمع ولا الإمكانيات على مختلف الأصعدة – وخاصة الثقافية – والتي كانت تتبدّى بالفعل. حدث نكوص رهيب، وتبسيط للأمور وعودة إلى الفظاظة وإلى طرح الأمور بطريقة أقل ذكاء وأكثر تعصبا. هناك مجموعات صغيرة ليس لها قوة تأثير انتخابية وليس لها ثقل ديمقراطي، هذه المجموعات أصبحت هي العنصر الحاسم. غاب الاتساق وقوة المشروع التاريخي المشترك وأصبح التلاعب قادما من كل حدب وصوب[151].

---

(151) فيما يتعلق بهذه المسألة يرجى أن تطلعوا على المقالين الأخيرين لي في كتابي "خمس سنوات من عمر إسبانيا (١٩٨١) وهما: "وجهي العملة في الحرب الأهلية الإسبانية" و"كيف أمكن أن يحدث"، خاصة هذا المقال الأخير.

من الضروري أن نفهم كيف أن إسبانيا التي بلغت في أبعاد ما أفضل اللحظات في تاريخها على مدى ثلاثة قرون وبلغت قمة الإبداع الخلاق والاستمرار في ذلك لعدة أجيال، ثم تتعثر فجأة عام ١٩٣٦م في الشقاق الأكثر عنفا على مدار تاريخها، أي في التدمير الذي قام به الطرفان لكل ما قامت به على مدار أربعين عاما من جهد خلاّق.

الغرق الثاني: ١٩٣٦

نشرت في عام ١٩٨٠، في أثناء أسبوع الآلام، مقالا بعنوان "كيف أمكن أن يحدث؟" وكان الجهد فيه كبيرا من حيث توخي دقة التحليل الثقافي، لفهم السبب في الوصول إلى الحرب الأهلية أو ما معنى ذلك، وهنا أقول أنني لا أشعر أن لدي القدرة على تحسين ما قلته عن هذا الحدث الرهيب، وأحيل القارئ إلى المقال، غير أنه لا مناص من قول كلمة عنه في هذا الكتاب ليسمح لي القارئ أن أنقل بعض فقرات ذلك المقال وهي الفقرات الضرورية حتى تكون هذه الفترة من تاريخ إسبانيا ذات بعد جَليّ.

"في منتصف شهر يوليو ١٩٣٦، اشتعلت في إسبانيا حرب أهلية دارت رحاها حتى ١/٤/١٩٣٩م وهي حرب كان لها أثر ونتائج استمرت على مدار سنوات طويلة تالية. هذا هو الحدث الدرامي الأكبر في تاريخ إسبانيا خلال القرن العشرين، وقد خلّف تأثيرا رهيبا على مدار أربعة عقود، ولم ينته بعد هذا التأثير بكامله... نقوم بالاقتراب لنعرف **ما الذي حدث**. لكن هناك تساؤل عندي تركني في وضع محيّر منذ بداية الحرب الأهلية عندما بدأت أعاني ويلاتها وكان عمري آنذاك اثنان وعشرون عاما: **كيف أمكن أن تحدث؟** إذا ما كان هناك شيء حقيقي فهذا لا يعني أنه محتمل... كان لي تعليق عندما

هناك أيضاً الفصل الأول من "إسبانيا عند بداية الإقطاع في القرن العشرين" في المدخل إلى : أورتيجا، الظرف والميل. هناك البنود أرقام ٩، ١٠، ٧٧، ٧٨، ٨١-٨٤ من أورتيجا المسارات. تتضمن هذه النصوص إشارات مهمة إلى نصوص أورتيجا. وعموماً هناك بعض النصوص الجوهرية مثل: إسبانيا اللافقارية، وتمرّد الجماهير، وخلاص المحافظات، وتصحيح الجمهورية، وبعض المقالات التي نشرت في الجزء الحادي عشر من الأعمال الكاملة له.

رأيت أن تلك هي حرب أهلية وليس شيئا آخر - انقلاب، أو محاولة انقلاب أو تمرّد...إلخ - وهذا التعليق هو:

يا رب! يا لها من مبالغة! كانت تبدو في نظري، وهكذا كان موقفي دائما، على أنها **شيء يزيد عن الحد** desmesuración مقارنة بأسبابها وما يتمخض عنها والمنافع التي لا يمكن لأحد انتظارها. هي، بمقولة أخرى، **نشاز** اجتماعي تحول إلى نشاز تاريخي. **ومن هنا كان عدائي المبدئي للحرب.** فمن المنطقي أنها كانت العدو الأول وهي في هذا أكثر من أي من الطرفين المتحاربين، وبدا لي أن الطرف الذي يتحمل العبء الأكبر في المسئولية عن هذه الحرب هو ذلك الذي أشعلها أي ذلك الذي **أرادها**، رغم أن ذلك **لا يعفي** من الذنب تماما ذلك الذي دعا إليها وحفزها، والذي ربما **أرادها** في حقيقة الأمر.

"لم يكن أي شيء من هذا كافيا لقض مضجع الوئام إذا ما كان في إسبانيا **حماس** ووعي بوجود مهمة جذابة قادرة على جذب الإسبان، وكأنها ريح، لتوحدهم حولها رغم اختلافاتهم وخصوماتهم...

"عم قطاع كبير في إسبانيا شعور يمكن أن نطلق عليه **الشعور بالهول إزاء ضياع الصورة المعتادة لإسبانيا**: أي كسر وحدة البلاد (وشعورها بتهديد القوميات والإقليميات والانفصاليين دون تمييز واضح)، إنه شعور بفقدان وضع "بلد كاثوليكي" - رغم أن الكاثوليكية عند الكثيرين من الذين يعبرون عن فزعهم لذلك كانت خاوية أو بها عيوب - وهناك الاضطراب العنيف في الاستخدامات بما في ذلك اللغة، وكذا في النسيج الذي يجعل الحياة الأسرية هادئة وأكثر جلاء.

"أمام هذا الهول هناك أسطورة "الثورة" وفرض النظام "البروليتاري البرجوازي" والقلق والتهديد وإعلان "الإخلاء" الوشيك - إذا ما كان التعبير مناسبا - لكل أنماط الحياة أو الطبقات التي لا تدخل في إطار البنية التقليدية.

كانت الحرب نتيجة نزق هائل. هذه الكلمة تبدو الأكثر مناسبة في نظري، فقد شارك في ذلك السياسيون الإسبان – لا يكاد يكون هناك استثناء – وأغلب الشخصيات التي تمثل الكنيسة وعدد متزايد بشكل كبير من هؤلاء الذين يعتبرون مثقفين (والصحافيون بالطبع) وأغلب القادرين اقتصاديا (مثل رجال البنوك وأصحاب الشركات وكبار الملاك) وزعماء النقابات العمالية، نقول شاركوا في اللعب بالمواد الأكثر خطورة دون أدنى شعور بالمسئولية ودون تخيل نتائج ما يفعلون أو يخفون...

"كان كل هذا يحدث في لحظة ازدهار ثقافي رائعة حيث ظهرت إسبانيا بعض الرؤوس والقامات المهمة والمسئولة على مدار تاريخنا. وهذا يجعل من الفاضح والخطير أنه لم يتم الإنصات إليهم وأنه تم إهمال هذه القامات عن عمد رغم ما له من وعي ثقافي وبالتالي ما تتحمله من واجب في هذا المقام...

"لكن هل يمكن القول إن هؤلاء السياسيين والأحزاب والمصوّتين كانوا يريدون الحرب الأهلية؟ لا أعتقد ذلك؟ فلا يكاد يكون هناك إسباني أرادها. وهنا نتساءل: كيف أمكن ذلك؟ الأمر الخطير هو أن الكثير من الإسبان أرادوا ما اتضح أنها حرب أهلية. أرادوا: أ- تقسيم البلاد إلى معسكرين، ب- رؤية الآخر على أنه الشر، ج- ألا يوضع هذا الآخر في الاعتبار، ولو كان خطرا فعليا، أو حتى ينظر إليه على أنه خصم فعلي، د- القضاء عليه وإزالته من الساحة (سياسيا وكذا جسديا إذا ما كان ضروريا).

"سوف يقال أن ذلك كان جنونا. نعم كان ذلك (ولانعدم في هذا هؤلاء الذين أدركوا الأمر حينذاك، ورغم حداثة سني كشاب فإنني يمكن أن أعد نفسي بينهم). يمكن أن يكون للجنون أسباب عضوية، ويمكن أن يكون نتيجة إصابة، أو أن يكون نفسيا. ويمكن أن تكون له أصول حياتية biografico، دون الحاجة إلى نشاز فسيولوجي أو نفسي. إذا ما نقلنا هذا إلى الحياة الجمعية وجدنا إمكانية الجنون الجماعي أو الاجتماعي، وكذا الجنون التاريخي...

تكمن المشكلة القائمة خلال الفترة من عام ١٩٣١ حتى ١٩٣٦ في الصدع، الذي حدث في الجسد الاجتماعي وكان ذلك من خلال عملية شد مستمر من قبل الطرفين... وكيف تمت ممارسة هذا الشد؟ كان ذلك من خلال نمط من القياس الفاسد الذي يتمثل في تكرار شيء مفروغ منه.... أما الدفاع الوحيد في المجتمع أمام هذا الصنف من المناورات هو الرّد على أساس المبدأ القديم للمنطق اللاهوتي nego suppositum، أي أرفض المفروغ منه. وإذا ما جرى الدخول في نقاش وتُرِك هذا الأمر المفروغ منه جانبا والقبول به دون التأمل فيهن فقد ضاع كل شيء... يواتيني الشك – وواتاني منذ ذلك الحين – في أن المثقفين المسئولين فقدوا الأمل بسرعة أكثر من اللازم. وسوف يقال: هل كان فقدان الأمل أكثر من اللازم مع كل المقاومة التي كانوا عليها؟ نعم، ذلك أنه من المبكر دائما التنازل وترك الميدان لهؤلاء الذين لا عقل لهم...

هناك سلسلة من الأخطاء، كانت الحرب آخرها وأكبرها. لم يكن هناك أحد يفكر فيها فالذين أشعلوها بشكل مباشر، كانوا يظنون أن الأمر سوف يقتصر على انقلاب، أو عملية حربية بسيطة يساندها ويشجع عليها بعض السياسيين حتى تكون جسرا بين الجيش المنتصر والبلاد. هناك الذين استمروا زمنا يؤججون نار الفتنة، والذين حضوا العسكريين وأحزاب اليمين على التمرد، كان كل هؤلاء يحدوهم الأمل في أن يكون ذلك بمثابة الفرصة الكبرى للقضاء على "الديمقراطية الشكلية" وعلى "المحاذير القانونية" و"الجمهورية البرجوازية" ثم الانطلاق إلى الثورة الاجتماعية المرغوب فيها (والأمر السيئ هو أن هذا الغرض كان يتضمن ثورتين مختلفتين أخذت كل منهما تمسك بتلابيب الأخرى بعد ذلك بوقت قصير).

"نعرف جميعا أن الأمور لم تحدث على هذا النحو، فقد فشل التمرد وكذا محاولة إخماده أيضًا. وكانت الحرب الأهلية امتداد لكلا الفشلين دون تصحيح أو ندم...

"وبعيدا عن أنه لا مناص من الحرب فإن أصلها الحقيقي لم يكن الموقف الموضوعي لإسبانيا بل كان نوعا من تأويله. وبعد أن اشتعلت، وبدأت مع نهاية يوليو ١٩٣٦ أصبحت إسبانيا في حالة حرب. الحرب "حالة" أي شيء يكون فيه المرء. يستمر العيش في خضم الحرب وفي إطارها... كان هناك شعور وطني جارف لدى الطرفين يؤجج هذه الحرب... شعر عدد كبير من الإسبان أنه يجب دخول الحرب من أجل إنقاذ إسبانيا، وكان ذلك أيضًا بين هؤلاء الذين فكروا أنها تسير في طريق الهاوية حيث كانوا يعتقدون أن أحد جوانب المعضلة مفضلا بينها الآخر أكثر تدميرا، أو أكثر ظلما أو أنه لا مناص منه ولا رجعة فيه... ولا يجب أن نخفي أمر بديهيا وهو أن الإسبان استخرجوا من داخلهم طاقة هائلة ومقاومة وحماس....

أما قصة شهر مارس عام ١٩٣٩، التي لم تُسْرد بشكل جيد والتي ربما كنت أنا آخر شاهد حي عليها وله معرفة بها في مدريد، فهي مفتاح ما كانت عليه الحرب في آخر اللحظات... ربما أتمكن ذات يوم من تقديم ذكرياتي ووثائقي عن هذه الأسابيع القليلة التي يمكن أن يكون لها رمز جدير بالإعجاب هو خوليان بيستيرو J. Besteiro...

ساد المنطقة التابعة للجمهوريين إحباط لا حدّ له إضافة إلى التعب والإرهاق... فالمهزومون يعرفون أنهم مهزومون وقبل أغلبهم بذلك بموضوعية وكبرياء وانصياع. فكّر الكثيرون – أو كان لديهم شعور غامض – بأنهم كانوا يستحقون الهزيمة رغم أن ذلك لا يعني أن الآخرين استحقوا النصر. المهزومون عن حق، والمنتصرون ظلما، هذه الصيغة التي قلتها وكررتها كثيرا بعد أعوام، والتي تلخص في ستة كلمات رأيي النهائي حول الحرب الأهلية، ربما يمكن أن تترجم شعور هؤلاء الذين كانوا من المحاربين في صفوف الجمهوريين".

هذه الفقرات التي أوردتها من مقالي توضح وتكثف بقوة طريقتي في رؤية آخر غرق – وهذا ما آمله – تتعرض له إسبانيا في زماننا. لكن الغرق لا يعني أن يكون نهائيا، هناك عبارة Fluctuat nec mergitur تحت مركب في ترس مدينة باريس.

الفصل الثامن والعشرون

الحيوية الغاطسة

الصمت :

بدأت الحرب العالمية الثانية بعد خمسة أشهر من انتهاء الحرب الأهلية الإسبانية، وكان لهذا الحدث نتائج عديدة، أولاها أن أوربا، وبعد ذلك أغلب العالم، عندما دخلت في هذه الأزمة الضخمة تخلت بشكل شبه كامل عن إسبانيا الأمر الذي تركها في موقف منعزل وأدى إلى تأخر إعادة بنائها وعودتها إلى حياتها الطبيعية. أما الثانية أنه لما كانت كل من ألماني وإيطاليا من أنصار فرانكو وساعدتاه مساعدات مهمة، بينما كان الاتحاد السوفيتي والمكسيك من أنصار الجمهورية (وهي التي دافعت عنها كلاميا – وشيئًا آخر – الديمقراطيات الغربية) هناك انطباع – أو جرت محاولة بثه – بأن الحرب الإسبانية هي بمثابة تجربة للحربة العالمية أو الفصل الأول منها، وجرى البحث في تحديد هوية وموقف الأطراف المتحاربة. وأثناء ردح مهم من زمن الحرب نجد أن فرانكو أعلن وقوفه إلى جانب القضية الألمانية والإيطالية (وبعد ذلك اليابان) لكنه بعد ذلك أخذ يتملص من موقفه أو يواربه. وأسهم المهاجرون الإسبان، في أغلبهم، في تشويه الصورة، وليس التشويه لصورة النظام الحاكم في إسبانيا، فلو كان ذلك فهو أمر طبيعي، بل لكل ما يتم فيها حيث ينظر إليه علي أنه لغو في الرأي العام الأجنبي في معظمه. وما ساعد على هذا التفسير لصورة إسبانيا

وجود صعوبات مهمة في باب حرية التعبير بسبب الرقابة إضافة إلى ضغوط أخرى. وإيجازا للقول، في داخل إسبانيا، كانت هناك جرعة من الصمت التزم بها هؤلاء الذين لم يكونوا يمارسون السلطة أو يتمتعون بمزاياها، وكان الصمت أكبر، في جميع الأنحاء، حول الواقع الإسباني. هذه هي السمة الأكثر بروزا خلال الخمسة عشر عاما التي تلت الحرب الأهلية.

إلا أن ذلك الصمت لا يتوافق مع الواقع، إذ كان القمع شديدا للغاية عندما انتهى الصراع بهزيمة الجمهوريين،وجرى تنفيذ الإعدام في حالات كثيرة، كما تم سجن مئات الآلاف من الإسبان (كان أغلبهم في السجن لفترة قصيرة نسبيا، ومع ذلك هناك كثيرون ممن قضوا فترات طويلة في السجن): كانت هناك عمليات تطهير لا تعد وعمليات إقصاء من المناصب القيادية أو مناصب التعليم، أضيف كل هذا إلى عمليات الهجرة السياسية الكثيفة إلى فرنسا وإلى أمريكا بصفة خاصة (وكان هناك تركيز كبير نحو المكسيك)، كما تم إقرار نظام للرقابة شديد الصرامة يأخذ في الاعتبار ما هو سياسي وما هو صحافي بشكل خاص، لكنه أقل بكثير في باب الكتب. وكان مهما وله أشكال مختلفة في باب التعليم مع وجود مساحة هشة من الحرية بين الأساتذة. أخذ هذا الوضع يتحسن ببطء شديد مع وجود قفزات إلى الأمام (انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، وانفتاح واهن عام ١٩٥١م وبدء الازدهار الاقتصادي عام ١٩٦٠م) لكن كان ذلك مصحوبا ببعض العثرات أو المطبات.

في إسبانيا كانت هناك حيوية شديدة رغم كل الصعاب. وقد سبق أن أشرت قبل ذلك إلى "النمو" الناجم عن الجهد المبذول في الحرب الأهلية رغم التطبيق الكارثي له، وهنا فإن فرناندو تشويكا ألح على هذا الجانب المنسي دائما لكن لا يدحضه أحد: أي أن إسبانيا سخرت طاقاتها بشكل لم تفعله منذ قرن ونصف من الزمان، فلا يمكن الحديث عن أمة "بلا نبض" أو أنها تعيش حالة "الخمود". إلا أن الأمر المؤسف هو استخدام هذه الطاقات في أغلبها فيما هو مدمّر، ومع هذا فإن نتائج الجهد المبذول انضم إلى رصيد وضع الإسبان. وإذا ما كان الكثيرون يرون أن ظروف الحياة كانت قاسية عندما انتهت الحرب

فإن ذلك أسهم في استمرار التوتر. ويمكن قول الشيء نفسه عن المهاجرين الذين واجهوا ظروفا شديدة الصعوبة من خلال القدرة الرهيبة على العمل والإصرار والعزيمة حتى وصل الأمر إلى الإسهام بقوة في إثراء وتنمية البلاد التي تلقت كل هذا وخاصة في المكسيك، والأرجنتين ولكن بدرجة أقل في هذه الأخيرة.

كانت هناك رغبة في الحياة وسعادة وسط المُلِمّات والصعوبات، ما يبرر ذلك – على سبيل التناقض – هو الخبرة الرهيبة للحرب الماضية وكذا بذل هذه الطاقات التي أشرنا إليها قبل ذلك. وأصبحت الفكرة الشديدة الشيوع، والقائلة بأن إسبانيا قد انطفأ نورها وأنها مصابة بالعقم وحزينة، شديدة الزيف. ومنذ أن أخذت تتنفس الصعداء بعض الشيء من جراء الإنهاك الناجم عن الضغوط السياسية، خاصة وأن الجهود اليومية أخذت تخلق مساحة تسمح بالحركة، أصبح النشاط الداخلي في إسبانيا أكثر كثافة على جميع الأصعدة.

جرى نشر ستار الصمت عن كل هذا – وبذلك كانت طريقة شديدة الفعالية لتقوية النظام الذي يقال عنه أنه مثير للملل وينفي أي نوع من الحركة والحماس عن هؤلاء الذين يبذلون جهدهم لتعود إسبانيا النشاط من جديد، واستئناف مسار الثقافة الرائعة التي بدأت مع جيل الـ ٩٨. كانت أغلب الدراسات الأجنبية وكذا التي تجري على أقلام المتخصصين في الدراسات الإسبانية والمهاجرين باستثناء حالات محددة، تشير إلى أن إسبانيا لم يعد لها دور ثقافي، واعتبروا أن ذلك قد زال بشكل نهائي في مقال لي نشرته عام ١٩٥١م[152]. أبرزت كيف أن المهجر الجمهوري كان كبير العدد ومهما بدرجة أكبر مما كان يصوره بها أنصاره، وأن ابتعاده عن إسبانيا كان خسارة فادحة: لكن لما كان الأمر كذلك فإن إسبانيا تواصل وجودها في أوربا بهذه الطريقة، إضافة إلى عدد كبير من ذوي التخصصات العلمية والفلسفية والتاريخية والأدبية أو الفنية من المقيمين في إسبانيا حيث كانوا أكثر من

---

(152) "إسبانيا موجودة في أوربا". نشر في بداية الأمر بالإنجليزية (Spain in Europe) في مجلة Books Abroad الأمريكية. ثم بالأسبانية عام ١٩٥٦م في الجزء المعنون المثقف وعالمه (دار نشر أطلانتيدا – بوينوس أيرسو) ولم يكن ممكنا استيراده في إسبانيا. وبعد ذلك نشر في سلسلة أوسترال، وفي الأعمال الكاملة، الجزء الرابع.

المهاجرين، كما تزايد عددهم بعد ذلك لأن الهجرة الثقافية لا يمكن أن تكون مثلما عليه الأمة كاملة. أشرت كذلك إلى معرفة إسهامات المهاجرين التي جعلت الاتصالات ممكنة مع نهاية الحرب العالمية الثانية وكانت إسهامات تحظى بقبول شديد في إسبانيا ولم نعدم بعض التعليقات. "من يجعل للحقل بابا؟؟" كان هذا تساؤلي، وذكرت أن **القاموس الأدبي الإسباني** في مجلة الغرب (١٩٤٩) كان يتعامل مع الجميع من الكتاب المهمين بالدرجة نفسها التي يعاملون بها في أي فترة أخرى، أو كما لو كانوا لم يخرجوا من البلاد. كتبت معظم هذه المقالات بخط يدي.

يُرَاد لهذا الصمت أن يندرج من جديد على أربعين عاما من تاريخنا بغمط الحيوية والإصرار والجهد الخلاق الذي يبذله الكثير من الإسبان، هذا التشويه المتعمد كان يقوم به هؤلاء الذين لم يشاركوا في ازدهار هذا "القفر الثقافي" كما يقال[153] نظرا لتقدم العمر بهم أو عدم حماسهم أو فقدان القدرة الإبداعية.

موقف متناقض:

إذا ما أُريد فهم ما كانت عليه إسبانيا منذ عام ١٩٣٩ حتى ١٩٧٥، فأول شيء يجب عمله هو التخلي عن الأحكام المسبقة المتعلقة "بكيف كان يجب أن تكون" حتى تتم رؤية كيف كانت بالفعل. كان نظام فرانكو عبارة عن حكم شخصي مطلق ليس له حدود، كما كان يشمل كل شيء في البداية. ويفتقر في آن إلى مشروع أو برنامج. كنت أقول ساخرا أنه الحاكم الوحيد الذي يسير على نهج برجسون، حيث لا هدف آخر له إلا الاستمرار durée- الأمر الذي أسفر عن توليفة غريبة من العوز للحرية ووجودها. وليس أمامي

(153) انظر مقالي نبات القفر حيث هناك قائمة مهمة من الكتب التي نشرت في إسبانيا خلال الفترة من ١٩٤١م حتى ١٩٥٥م (في إعادة إسبانيا ١٩٧٧). ومؤخرا ظهر "قراءة متواضعة للأسطورة السوداء" (صحيفة AB 23/3/1985). عالجت هذه القضية، قبل ذلك وبشكل مسهب، في عدة مقالات في الإسبان ("الأصالة الإسبانية في الفكر الحالي"، و"المقال في إسبانيا" و"شخصية إسبانيا" و"عشرون عاما من الحياة الثقافية الإسبانية" و"الأفق الثقافي لإسبانيا" و"الموقف المعاصر للإنتليجنسيا في إسبانيا" و"إسبانيا المعاصرة في الثقافة العالمية").

إلا ذكر بعض الفقرات من مقالات لي عن "حالة الحرية". والسبب هو أنها كتبت ونشرت في أثناء حكم فرانكو، وليس بعده، أي في صيف عام ١٩٧٤م(١٥٤).

أسفرت الحرب الأهلية الإسبانية عن القضاء الكامل على الحرية السياسية، ولم يكن ذلك مجرد التطبيق الفعلي، بل كانت مسألة مبدأ. لم يكن هناك أي منصب حكومي مهما كان مستواه حتى عمدة القرية بالانتخاب. وامتد ذلك إلى التجمعات المهنية أو الثقافية – الجامعات والكليات والأكاديميات والأندية الممثلة للمهنيين – كانت الرقابة المسبقة إجبارية لجميع المطبوعات بما في ذلك كتالوج البذور. ويمكن قول الشيء نفسه عن المسرح والسينما والراديو. وكان من الضروري أن يكون هناك تصريح للانتقال إلى المدينة الأقرب، كما أن "الانضمام إلى النظام"، الذي يحتاج إلى وثيقة تثبته، كان شرطا للتقدم إلى أي منصب رسمي. جرى فصل المئات من أساتذة الجامعات لهذا السبب دون أن يفت هذا في عضد همة الكثيرين الذين شعروا بسخط شديد منذ عقد من الزمان على فصل ستة (أنا لم أكن أنتظر الكثير من هذا). لم يكن هناك حق في حيازة جواز سفر، وعندما يحصل المرء عليه كان من الضروري الحصول على تأشيرة خروج لكل رحلة، ويجب تقديم المبررات اللازمة، كان للسلطات الكنسية – وأظن أن لازال لها من الناحية النظرية – حق التدخل في التعليم وفي الكتب التعليمية على جميع المستويات، ابتداء من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة. أما الحياة الاقتصادية فكانت منظمة تنظيما محددا للغاية: هناك الواردات والصادرات والحصول على الماكينات والقروض. كان الإضراب ممنوعا منعا باتا دون أي استثناءات، ومن بين ذلك كل نوع من التجمعات اللهم إلا إذا كانت الرسمية.

"أما الكلمات التي كثيرا ما تحظى بإدانة رسمية أو شبه رسمية كانت الديمقراطية والليبرالية، وعادة ما تستخدم كلمة منقحرة بشكل احتقاري "الديموليبرال". ظل أورتيجا على مدار سنوات طويلة "الدابة السوداء" فلم يقتصر الأمر على عدم ذكر اسمه

---

(154) في صحيفة "الابانجواردیا" برشلونة، أعيد نشرها في إسبانيا الفعلية، مدريد ١٩٧٦.

في الجامعات ولم يقتصر فقط على حذف اسمه من العالم الرسمي وأية إشارة على صلته الثقافية بل تعرض لهجوم حاد عاما بعد عام...

"استخدمت في كثير من الأحيان التعبير الأكثر شهرة: **الحياة كحرية**. كنا كثيرون في إسبانيا، لحسن الحظ – رغم أنه لم يكن العدد كافيا – الذين كنا نريد ذلك (أغلب الناس لم "يكونوا يريدون" لكنهم يرغبون فيه على الأقل). وأخذ الحرية تنبت وتبزغ مثلما تنبت الحشائش على أسطح المنازل وفي ملتقي الكتل الحجرية. ربما كان من المثير والمهم كتابة تاريخ دقيق وحقيقي لميلاد الحرية في إسبانيا الذي يتسم بالخوف والتردد وعدم الأمان...

"وعندما أخذ الإسبان يعيشون أخذوا يفتحون الطريق إلى الحرية مثلما هو الحال بالنسبة للسباح عندما يفعل ذلك بذراعيه... اللاسياسة كانت أحد العناصر الإيجابية. وسوف أحاول أن أوضح ذلك. ظهرت الجمهورية على أنها وعد ودعوة إلى الحرية ومن هنا أثارت حماسي وحماس الكثيرين من الإسبان الذين رأيناها جديرة بالدفاع عنها. غير أنه لا يجب أن نغمط أمرا وهو أنه بمجرد اشتعال الحرب أخذت تسقط في أيد ليس لها من الليبرالية إلا القليل، وأن الوعد بالحرية تعرض لخطر شديد... كانت اللاسياسة الإجبارية نوعا من التحرير للتسييس الغريب الأطوار في نهاية الأمر، حيث سقطت في هذا قبل الحرب بقليل وقادت إليها.

"ومن الطبيعي أن هذه اللاسياسة تتعلق فقط بالمهزومين، غير أنه عندما أخذ خطاب المنتصرين يتعرض للتهالك من كثرة استخدامه وتكراره وغيبة الخيال عنه وخاصة عندما آذنت نتيجة الحرب العالمية بمواراة هذا الخطاب، عمت اللاسياسة وأخذ يحل محلها نوع من البراجماتية قصيرة الأمد حرمت المجتمع الإسباني من وجود برنامج ووجود مهمة، لكنها سمحت بالتنفس ولو مؤقتا. ولا يُنْسى أن ذلك هو الظرف الخاص بكل شيء. كان اللاتينيون يقولون Dum spirospero، أي طالما أتنفس عندي أمل...

"كانت التغيرات السياسية النظرية في حدودها الدنيا مقارنة بما سبق أن وصفته، كما أن تلك التي ظهرت – مثل وجود نوع من التأسيس institucionalización- ارتبطت بإرادة دون قيود حيث يمكن أن تلغيها في أي لحظة، وهذا يعني أن ليس هناك حرية حقيقية ذلك أنه لا يمكن الأخذ في الحسبان هذا التأسيس لاستشراف المستقبل أو من أجل أي عمل حقيقي...

"غير أن التغيرات الفعلية كبيرة، وأصبحت إسبانيا لا تشبه تلك التي كانت إلا في القليل. تمثلت الزيادة الرئيسية للحرية في الجانب الاقتصادي، وكان ذلك في اتجاهين، أولهما هو أن أكبر بقية من الحرية التي أنقذت من الغرق، الحفاظ على اقتصاد لا يمكن أن يطلق عليه اقتصادا حرا ذلك أنه كان يتعرض لتدخل شديد ومع هذا ظل محافظا على البنية العامة الخاصة باقتصاد السوق. هناك إمكانية التزود من هذا المحلّ أو ذاك والإنتاج الخاص وإمكانية إيداع المدخرات في بنك خاص ونشر الكتب في دار نشر غير حكومية أو الكتابة في صحيفة لا ترتبط بالدولة بشكل مباشر بغض النظر عن الرقابة، وحرية العمل دون تعاقد من جانب السلطات السياسية. كان كل ذلك رصيد الحرية وهو الذي سمح للمجتمع الإسباني العيش في إطار نوع من الوضع العادي في ظروف صحية.

"أما الخطوة الثانية هي التي يمكن أن نسميها الإثراء الذي فيه المجتمع الإسباني، وإذا ما كانت هذه الكلمة مبالغا فيها نقول أنها حالة الانتقال من ضيق ذات اليد إلى اليسر. كانت إسبانيا شديدة الفقر قبل الحرب الأهلية. وجاءت هذه الأخيرة لتدمر جزءا كبيرا من الثروة القومية. أما الأعوام التالية، هي أعوام العزلة بسبب الحرب العالمية والأزمة الداخلية وفقدان جزء كبير من الشعب – سواء في السجن أو المهجر ناهيك عن المقابر. الأمر الذي زاد من حدة الفقر العام الذي تحول إلى بؤس وسط الفئات الاجتماعية أو الأقاليم الأكثر فقرا...

وبعد عام ١٩٤٥م بدأ في أوربا الغربية وضع مبادئ الديمقراطية الليبرالية موضع التنفيذ ومعها القواعد الخاصة باقتصاد علمي حقا، وهذا عندما بدأت الدهشة بالانطلاقة

الاقتصادية التي قادت إلى الازدهار الأوربي الحالي، (وهو ازدهار نقوم نحن الآن بالعمل على تدميره بسعادة). ومن الطبيعي أن تكون خطة مارشال في الأذهان، لكن إذا لم تكن أوربا قد تصرفت بطريقة ذكية لأضحى الأمر وكأنه زفة مطر في الصحراء.

"انتهى الأمر بهذا الازدهار الأوربي إلى إحداث أثره في إسبانيا ولو كان ذلك متأخرا. الأمر هو أن بلدنا انتقل من كونه بلدا شديد الفقر إلى ألا يكون كذلك، رغم أنه ظل بعيدا عن الثروة (وبالتالي بعيدا عن تنمية ملائمة ومستقرة وعادلة). اتسم التغير الاقتصادي في إسبانيا خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة وخاصة خلال العقد الأخير بأنه كان عظيما، كما بلغ الأغلبية الساحقة من السكان ولكن ليس كل السكان. "هذا يعني أن موارد الإسبان تضاعفت، ولما كانت الموارد هي التي تجعل الحرية ممكنة فهذا يعني زيادة رائعة في مساحتها. ولكن لا يتعلق الأمر بالحرية السياسية – أو القليل جدا منها–، بل الحرية الاجتماعية والشخصية.

"وهذا ما لا يمكن أن يغيب عن بصرنا. وطالما أن الأمر لا يتعلق بالسلطة العامة يمكن للأسباني أن يفعل اليوم كل ما يحلو له، بدرجة كبيرة... جميع الحريات غير آمنة، وترتبط بخيط – أي يطلق اسم الخيط على إرادة الآخر –، ويمكن أن تلغي دون سابق إنذار. كل هذا يبدو في نظري غير مقبول وهكذا كان دوما عندي، وليس منذ فترة. لكن طالما أن الحريات لم تُلغ فإنها موجودة كما أننا معشر الإسبان نمارسها ونستخدمها وكلما زاد هذا كلما قلت إمكانية إلغائها".

ذكرت هذه الفقرات من مقالات قديمة جدا لي ذلك أنها تصف الموقف كما أراه، وليس هذا فقط بل تشكل برهانا عمليا على ما تحتويه، فهي مقالات تم التفكير فيها وكتابتها ونشرها في الوقت الذي كان يسود الوضع الذي كتبت فيه. أي أنها عبارة عن استخدام تلك الحرية وهو استخدام ممكن طالما كان هناك استعداد لدفع الثمن اللازم لذلك.

كانت إسبانيا تتمتع بالحيوية التي هي العنصر الأول في أي مجتمع، ولا يُنسى أنها كانت قادرة على وضع جيشين قويين للغاية موضع التأهب للحرب وهما جيشان يتناغمان مع مستوى من الطاقة غاية في القوة. كان هذان الجيشان أدوات دمار لكن القدرة استمرت. وعندما توجهت هذه الحيوية نحو تنمية البلاد وعدم تضيعها في الصراعات والأزمات الداخلية من خلال قواعد مفروضة ومليئة بكثير من العناصر غير الملائمة لكنها حالت دون التوجهات المدمرة والانتحارية، كانت النتائج غير عادية. هذا هو التناقض الذي يجب أن يُفهم إذا لم يرد المرء أن يبقى في أطر ثابت أنها تعتمد اللامبالاة إزاء ما يمكن أن يكون عليه الواقع.

غيبة المضمون:

من الصعب فهم النظام الدكتاتوري الذي عاش طويلا وعانت منه إسبانيا منذ عام ١٩٣٩ حتى نهاية ١٩٧٥م، وانتهى بموت من كان على رأس السلطة فيه دون أن تتمكن المعارضة السياسية من إزاحته من السلطة ولو ليوم واحد. هناك معارضة أخرى أكثر استمرارا وفعالية، أمكن من خلالها تغيير البلاد والإبقاء عليها حية ومستيقظة بمعنى أنها يمكن أن يكون لها مستقبل معقول وليس سقوطا في الجنون أو البلاهة أو البقاء على ما هو قديم.

أول سبب يفسر بقاء النظام هو قدرته على الردع واستعداده للجوء إلى العنف في حالة الضرورة. وأما ما أعيننا أنظمة قمعية تماما لا زالت قائمة في بلدان كثيرة منذ نحو ثلاثين عاما أو أربعين أو ستين، دون أن يُرَى في الأفق أي تحرّر، بما في ذلك موت الحاكم، فهم مزودون بآلية البقاء الأبدي. لم يكن ذلك حال إسبانيا كما رأينا، لكن إمكانية استخدام العنف فعلية للغاية وكان هذا يكفي مبدئيا دون أن تكون هناك حاجة إلى تطبيقها.

غير أن هناك أسبابا أخرى، إحداها **القصور الذاتي** للنظام وعدم وجود "مضمون" لديه خاص بمشروع. وتحديدا، يمكن القول أنه لا يمكن أن يفشل لأنه ليس له سياسة

تختلف عن سياسة استمراره. كان من المأمول حدوث تغيرات مرغوبة – دون فقدان الصبر – وأحيانا ما تكون هذه التغيرات معلنا عنها، وعندما لا تحدث كان ينتظر أن تحدث في النصف الثاني من العام (أي بين ١٨ يوليو وبداية العام الجديد). أدى هذا الإيقاع الشديد البطء – في حد ذاته – إلى استقرار غير متخيل للنظام، أضف إلى ذلك هو حدوث أمر شبيه فيما يتعلق ببرامج "المعارضة" التي عادة ما تتكون من مجرد استثمار ما هو قائم عند "الضد". كتبت في عام ١٩٥٦م: "الاستثمار الآلي لا يأتي إلا بالنيجاتف للواقع نفسه. هناك البعض من الذين يريدون مواصلة الطريق، وآخرون سواء كانوا وحدهم **أو على العكس**، وفي نهاية المطاف هناك آخرون نريد **شيئا آخر**. لكنه ليس أي شيء آخر"[155]. لم يكن سهلا أن تكون هناك شهية فعلية للتغيير إذا ما كان ذلك غير جذاب بدرجة كافية.

كان الإسبان محرومون من الكثير من الحريات، وهذا ما لم أقبله أبدا، لكن لم يكن كثيرون هؤلاء الذي يستوحشونها، ومن جانب آخر كانوا يتمتعون بحريات أخرى تؤثر أساسًا على الحياة الخاصة، وكانوا يشعرون بالخوف من فقدانها. كان أساس تقييد الحريات أحد نتائج الحرب الأهلية، لكن الأغلبية كانت تطاردها الفكرة القائلة بأنه لو كانت نتيجة الحرب عكس ذلك فإن وضع الحريات لم يكن ليكون الأفضل ذلك أن كلا الطرفين المتحاربين وعدوا بتدميرها وفعلوا ذلك في أثناء الحرب الأهلية. لم يكن من السهل أن تتحرك مصالح الإسبان نحو **استثمار** نتيجة الحرب، ولما كان ذلك هو الذي تريده القطاعات الأكثر تسببا في البلاد أدى إلى بقاء الأغلبية في موقف يتسم باللامبالاة النسبية. يمكن القول إن عددا كبيرا من الإسبان **كان ينتظر، دون تعجّل**، نهاية النظام، واعتاد الناس العيش دون وجود مضمون للحياة المشتركة، دون محفزات قوية آتية من أوربا – كانت الظاهرة الإسبانية عبارة عن تكثيف الموقف العام –، وكانت تتمتع بيسر

---

(155) "تأملات حول المجتمع الإسباني" (في الإسبان).

اقتصادي لم تعشه قبل ذلك أبدا، وبحرية خاصة كانت كافية لإشباع رغباتهم، وتخفي عن عيونهم قلة الحريات العامة، وبالتالي عاشوا في ظل فترة طويلة من الهدوء المحبب، والذي أحيانًا ما يتعرض لبعض التوترات السطحية من جراء بقايا وسائل التعبير عند النظام والحرب الكلامية التي تجري على ألسنة مجموعات مُسيّسة.

وسوف يقال: هل هو الخمود مرة أخرى؟ لا، إنه خمود في بعض جوانب الحياة. ذلك أنه في زمن اللافعل هذا يرتفع المتوسط العام للمجتمع. لم تكن الجامعات تحظى حتى بظل مما كانت عليه قبل ذلك أي قبل الحرب الأهلية: وذلك بسبب التطهير الذي حدث عام ١٩٣٩، وبسبب التعيينات اللاحقة وغيبة الحريات الأكاديمية والقلق السياسي المستمر للطلاب الذين كانوا يتحركون في شكل مجموعات من النشطاء ويلغون المهمة التعليمية. لكن رغم هذا كانت الجامعات تضم أعدادا أكبر من الطلاب الذين يلتحقون بالجامعة رغم أنها كانت ذات مستوى متدنٍ. كان عدد طلاب التعليم المتوسط لا يقارن بأي فترة من الفترات. وزادت أعداد التلاميذ في المدارس بشكل كبير وانخفضت نسبة الأمية بشكل ملحوظ للغاية. وجرى إنشاء مهن جديدة وخاصة بالنسبة للفساد. وزادت معدلات البناء بشكل غير مسبوق وزاد حجم المدن بشكل ضخم بكل ما تحمله الكلمة من أبعاد[156]. لكن لا يزال هناك الكثير من الإسبان الذين لديهم مسكن محترم. ودخلت الميكنة إلى عالم الزراعة وحلت الجرارات الزراعية والحصادات... محل الحمير والبغال. وتضاعف عدد السيارات حتى درجة الاختناق المروري وتحسن الغذاء وزادت متوسط القامة عند الإسبان بمعدل سبع سنتيمترات أو ثمانية...

كانت الحياة السياسية الإسبانية تبدو مشتلا، لكن في داخله كانت تجري تحولات سوف يتضح مضمونها عند رفع الستار.

---

(156) انظر كتاب فرناند تشويكا "تدمير الموروث الحضري الإسباني" (أسباب كالبي – مدريد ١٩٧٧).

الأوربة الأخرى:

كانت الأوربة الأولى عام ١٨٩٨م وكانت من نتاج أفراد مميزين وضعوا إسبانيا على القمة التي تستحق، وعلى إيقاع الزمن، وبذلك تمكنوا من إلغاء ذلك الانحدار الذي كانت تجره على مدار القرن التاسع عشر كله تقريبا. يجب القول أنه عندما انتهى هذا المسار، أي عندما بدأ المجتمع الإسباني، في إجماله، التموضع في ذلك المستوى، كانت أوربا هي التي أخطأت عام ١٩١٤م، وبالتالي هي التي كرست وقتا لتدميره – وربما كان هذا هو الأسوأ – والرفض المتبادل بين أجزائها وعدم الأمانة في نفسها[١٥٧].

أما الأوربة الجديدة لإسبانيا، بعد الحرب العالمية الثانية فهي جد مختلفة عن الأولى. أحدثت تأثيرها على الأغلبية وعلى المجتمع بعامة، وهي عبارة عن الارتفاع، لكن ليس إلى القمة ولكن إلى المتوسط العام. هي أوربة ذات طابع اقتصادي أكثر منها ثقافي. وترجع إلى عناصر ليست شخصية جدا: هناك الازدهار الأوربي الذي يلقي بشيء من عنده على إسبانيا وخاصة في مجال السياحة، هناك التواجد المستمر للأجانب، وسفر الإسبان للخارج بشكل متزايد: يسافر البعض للدراسة أو زيارة بلاد بعيدة، أما الآخرون، وهم كثر، فكان السفر من أجل العمل هدفهم مستفيدين من هذا الازدهار الذي يرونه، وهناك التحويلات النقدية ومدخرات العمال المهاجرين والسياحة. كل هذا أصبح مصدرا أساسيا للثراء الذي سوف يساعد على التنمية والتصنيع.

أصبحت المسافة الفاصلة بين إسبانيا وباقي أوربا أقل بكثير نحو عام ١٩٧٠، وأخذت تتلاشى الاختلافات التي كانت واضحة للعيان حتى عقود قصيرة مضت، مشتركة هي العناصر الظاهرية للتأهيل أما تلك العميقة فقد أصبحت أقل فعالية في جميع البلدان. ضعفت الحيوياتvigencias الخاصة بكل واحدة من هذه البلدان وأخذت تحل محلها أخرى عامة أكثر ضعفا وأكثر حرفية. هذا يعني تغيرا كبيرا في إسبانيا أكثر منه في أي

---

(157) انظر أورتيجا "المسارات" الباب الأول، الفصل الثاني.

مناطق أخرى ذلك أن الصلاحيات الإسبانية كان من المعتاد أن تكون حازمة وعميقة الجذور. فالنمطية الإنسانية للأسباني – وخاصة الإسبانية – أخذ يتغير بشكل متسارع اعتبارا من عام ١٩٦٠م.

يجب أن نأخذ في الاعتبار – مع كل ذلك – أن هذا **التغيير سطحي أيضًا**، وتحته ما زالت هناك الكثير من العناصر القديمة التي اعتراها التفسّخ لكنها لم تزل. ما يتغير إذن هو **التعبير العام** للمجتمع في الأساس. ونظرا لقوة وسائل البث انتشرت الصورة الجديدة بسرعة ويبدو أنها تعكس الواقع. واعتقد أنه من الخطأ النظر إليها بحرفية شديدة.

من الأمور ذات التأثير البعيد في جميع أنحاء أوربا هو التشوه الذي حاق بشخصية كل أمة. وهذه ظاهرة سلبية على الأصح لأنها لا تعني تشكيل أوربة **حازمة** – فأغلب البلدان يجهل بعضها بعضا لدرجة أنه قلت درجة الإعجاب المتبادل وحل محلها في بعض الأحيان تنافر – بل تعني نوعا من الوقوف على نفس المستوى والوهن النسبي. ولهذا الصنف من قلة الاختلافات وكذا الاهتمام المتبادل نتيجة تتمثل في إفقار **واقع** أوربا رغم أن ذلك ليس في قطاع الاقتصاد. ومن هنا فإن الدول الأوربية تضحى مثيرة للعلل وغير مُحفزِّة اللهم إلا استثناءات قليلة.

ولهذا فإن أوربة إسبانيا بالمعنى الجديد للكلمة – وهو معنى ملائم – خلفت وراءها خسارة مهمة – فقد أسهمت في إحلال السلام في المجتمع الإسباني لكن في الوقت ذاته ساعدت على إعادة "انتشاره" إلى جوانب أكثر ابتذالا في الحياة وأقل جاذبية من تلك التي كان عليها الوضع في زمن آخر حيث احتل مكان الصدارة. أدت الأوربة إلى فقدان الوعي بالخصوصية القومية، لمصلحة صيت وشهرة ما هو "أوربي" الذي سيطر على الإطار العام على مدار عدة أعوام. وفي الوقت ذاته حدث نوع من الإبراز للأقاليم، وهو تجريدي بدرجة ما، الأمر الذي حدا إلى ازدراء ما هو قومي، والذي انضم إلى الأوربة السطحية.

كان الناتج النهائي – إيجابي في مجمله وخاصة فيما يتعلق بتسهيل الانتقال إلى أنماط أخرى للحياة العامة – جاهزية الشعب الإسباني، وقد جرى بَرْدُ حوافه، واعتاد النفعية الأولية، واللذة التي كان يفتقر إليها كثيرا وأصبح أقل تصلبا بغض النظر عن كون ذلك سيئا أو حسنا.

يوجد في هذا الموقف عناصر مقلقة في نظري اللهم إلا بوجود هذه الحيوية المستكنة التي أراها في إسبانيا كما أنه تحت هذا المستوى العام المرضي توجد إمكانية بزوغ الأصالة إذا ما تم تحفيزها من خلال مشروع تاريخي جذاب.

الفصل التاسع والعشرون

حرية التخيل: البحث عن مسار

تحوّل:

في نهاية عام ١٩٧٥ بدأ تحول سياسي ضخم في إسبانيا، فلم تعد دكتاتورية، وعادت لتكون ملكية، ومنذ بدايتها أخذت تتجه لتكون ملكية ديمقراطية. جرت الدعوة إلى انتخابات عام ١٩٧٧م، وإعداد الدستور الذي تم إقراره في نهاية ١٩٧٨م، وظهر نظام الاستقلال الذاتي للأقاليم وأخذت آلية الديمقراطية في العمل. نحن نعيش الحاضر بكل حذافيره، وأصبحت الأحداث في أذهان الجميع وليست في الذاكرة.

تابعت بدقة هذا التحول في إسبانيا وليس ذلك في دولة إسبانيا بل في المجتمع والثقافة في إطار دراسة تحليلية مطوّلة للعشر سنوات الأخيرة حيث يمكن لي أن أعود إليها هنا وأسلط الضوء على مغزاها العام وعلى ما تعنيه كمرحلة في تاريخ إسبانيا، أي المرحلة الأخيرة التي يمكن أن تتوفر لدينا خبرة عنها[١٥٨] سوف أشير هنا إلى النقاط المهمة التي بدونها لا يمكن فهم هذا الذي حدث، أي هذا الذي نعرفه جميعا.

---

(158) يوجد في الأجزاء الأربعة التي نشرت بين عام ١٩٧٦ و١٩٨١، ضمن سلسلة "إسبانيا الملكية" إسبانيا الملكية، وإعادة إسبانيا، وأسبانيا في أيدينا، وخمس سنوات من عمر إسبانيا. أضف إلى ذلك الكثير من المقالات التي لم يتم جمعها بعد في كتاب.

كان الأمر الخطير في هذا النظام الذي سيطر على إسبانيا منذ ١٩٣٩ حتى ١٩٧٥ (وعلى نصف إسبانيا منذ ١٩٣٦م) هو عدم **شرعيته الاجتماعية**، وهذا أكثر أهمية من الشرعية القانونية. وطبقًا للمصطلحات التي استخدمها أورتيجا وتبدو عندي صحيحة فإن الشرعية الاجتماعية هي وجود ألقاب واضحة لممارسة السلطة، أي أن يكون هناك توافق اجتماعي على أن شخصا يجب أن يأمر، ومن جانب آخر نجد فرانكو يفرض نصرا غير **مشروط**[١٥٩]. وبذلك تصبح إسبانيا مقسمة بين "المحبين" afectos و"غير المحبين" desafectos، وأصبحت أي مشاركة مقتصرة على الأُوَل، واستبعد منها الآخرون، وعلى ذلك فهذا النظام كان يقصي التوافق من مجرد تعريفه، وهذا الرفض هو **اللاشرعية** الاجتماعية.

كان الميل المزدوج عند انتهاء هذا النظام إما القيام "بإصلاح" بسيط، أو إجراء "قطيعة" – هذان هما المصطلحان الأكثر استخداما – الأول يمثل الإصلاح في محاولة استمرارية اللاشرعية بوضع قناع فوقها، أما الثاني فكان يعني إحلال لا شرعية محل أخرى، وهذا ما تم بالفعل في تحديد مثير للدهشة يتسم بالأصالة الشديدة، وكان ابتداء من **القانونية القائمة** دون أن تكون هناك استمرارية ودون قطيعة مع التعايش، والهدف هو إعادة خلق شرعية. قام بإجراء تحول **جذري** ولكن دون راديكالية. وعندئذ قلت: **لم يتبق من النظام السابق أي شيء ولكن فيما تبقى من إسبانيا فقد بقيت كاملة.**

ومن خلال عملية تمت من الداخل لم يتم إسقاط الدكتاتورية أو تدميرها بل جرت **إذابتها** في المجتمع الإسبان الذي **امتصها** ضمن مسار تجديد وشرعنة. وكان ذلك **ممكنا** لأن الشعب الإسباني ظل حيا واتسم بالحيوية الحازمة ولم يتم دهسه أو إذلاله، واحتفظ بحرية شخصية، وكانت الملكية حالة نموذجية في ذلك التحول: ففي ٢٢/ ١١/ ١٩٧٥

---

(159) كان ذلك هو الخطأ الذي ارتكبه الحلفاء في نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم قاموا بعلاجه بعد ذلك من خلال إعادة وضع شرعية في الدول المهزومة.

أصبح الملك خوان كارلوس الأول ملكا بناء على القوانين السارية، لكن لم تكن له شرعية أسرّية أو ديمقراطية. أعلن منذ اليوم الأول نيته في أن يكون ملكا لكل الإسبان دون استثناء بغض النظر عن الشقاق القديم وتمكن من الشرعيتين من خلال تنازل الأب له عن حقوقه في وراثة العرش إلى السيد خوان دي بوربون، وبناء على الاستفتاء الديمقراطي بالكامل.

اعتقد أن التحول السياسي كان نجاحا كاملا للسياسة التي طرحها الملك منذ البداية، وبدأ تنفيذها منذ منتصف ١٩٧٦: **تحرير كل شيء** كخطوة أولية ليكون ذلك ممكنا، وبعد ذلك بعام **إرساء الديمقراطية** هناك نظام واسع من الحريات (حرية التعبير وإنشاء اتحادات وحرية النقد وتكوين الأحزاب...إلخ). الأمر الذي سمح بتكوين رأي عام لم يكن موجودا قبل ذلك وأدى إلى القدرة على الاختيار باعتدال ومسئولية دون خوف أو ديماجوجية. الليبرالية هي **التنظيم الاجتماعي للحرية**، وهذا ما تم التوصل إليه بسرعة مدهشة. وصلنا إلى وضع **لم يكن فيه أحد مستثنى**: بما في ذلك الذين كانوا يمثلون النظام القديم وكذا مناوئيهم في الداخل أو في المهجر من الذين تمكنوا من العودة إلى إسبانيا بناء على رغبتهم، ومارس الجميع دون استثناء حقوقهم معا لكن لكل ملامحه ودون أن يضع قناعا أو يختبئ.

وفيما يتعلق بالمشاكل الثلاثة الكبرى الموروثة عن عصر إعادة الملكية Restauración والتي لم يجرؤ أحد آنذاك على طرحها بعمق هناك مشكلة إسبانيا فيما وراء البحار التي اختفت من الأفق منذ عام ١٨٩٨م. أما المشكلة الثانية وهي "الاجتماعية" أي الخاصة بوضع العمال والفلاحين فقد بلغت أقصى تعبير عنيف لها خلال الفترة السابقة مباشرة على الحرب الأهلية وكانت عنصرا حاسما فيها. كما أن الانتصار العسكري عام ١٩٣٩ أراد القضاء عليها باعتبارها مشكلة سياسية في نظره وعندما فعل ذلك زاد من تأجيجها، إلا أن موجة الازدهار خلال السنوات العشرين أو الخمسة عشر الأخيرة من عمر النظام قللت من حدتها اجتماعيا وبدرجة لم تبلغها من قبل. لكن هذا لا يعني أنها قد

زالت من حيث كونها مشكلة سياسية مهيأة للعودة للظهور واستخدامها لتلك الأغراض بما في ذلك ضد المصالح الاقتصادية للعمال. بقيت المشكلة الثالثة وهي مشكلة الإقليمية التي زادت نارها بسبب سياسة النظام السابق الذي يعارض جميع أنواع المطالب الإقليمية جملة وتفصيلا، وكان من أنصار "المركزية" التي لم تكن في حقيقة الأمر مركزية قشتالة أو مدريد بل مركزية الحكومة التي كانت تمارس سلطاتها على جميع الأقاليم دون استثناء كما أنها لم تكن في يد قشتالين.

جرى ربط المسار الدستوري ربطا قويا بالتقسيم الخاص بالاستقلال الذاتي للأقاليم. يضم دستور ١٩٧٨م إقرار "لوائح الاستقلال الذاتي" ليس لقطالونيا فقط – إذ كان لها ذلك في أثناء فترة الجمهورية- ولا إقليم الباسك – الذي كان له ذلك في مرحلة الإعداد ثم وضع موضع التنفيذ في إطار ما هو ممكن عند بداية الحرب الأهلية – وإنما لجميع أقاليم إسبانيا حيث أخذ بعضها يطلق على نفسه تعبيرات غامضة مثل "قوميات nacionalidades". وفي نهاية المطاف جرى ضم هذه التسميات إلى الدستور[١٦٠].

اكتمل التحول التأسيسي لإسبانيا في نهاية عام ١٩٧٨م، حيث تحولت في غضون فترة قصيرة إلى واحدة من أكثر البلاد حرية في العالم، وعاشت في وئام كامل دون استثناء لأحد أو إقصائه، وعاشت في ظل أفق واسع من الإمكانيات المفتوحة وبأصلة غير متوقعة لم تعرفها إسبانيا منذ برلمان قادش عندما جرت صياغة المفهوم السياسي لليبرالية وجعلته يرفرف كأنه علم أمام أوربا.

---

(160) بدا لي الأمر خطأ لغويا وتاريخيا وله نتائج سياسية غير مواتية منذ اللحظة الأولى، وقمت بجهود جمة من منطلق صفتي كعضو مجلس شيوخ وككاتب حتى لا يتم اتخاذ ذلك. ويمكن الإطلاع على كتبي المذكورة وخاصة "إسبانيا في أيدينا" ص ٢٠٩ وما يليها، وكذا في "خمس سنوات من عمر إسبانيا" وخاصة ص ١٦٧ – ٢٢٣ و٢٩٠-٢٩٤: هناك أيضاً مقال [لم يتم إدراجه في هذه الكتب على سبيل الخطأ وهو "الصوت الأخير" (صحيفة الباييس ١٩٧٨/١١/٩)].

التجديد وما هو قديم arcaismo:

هيأت البنية السياسية الجديدة لإسبانيا طريقا يمكن لها من خلاله أن تعيش حياتها المشتركة، ولما كان لهذه الحياة حبكة أو مضمون، فيلزم أن يكون مضمونا محددا، أي أن يتجلى في مسارات ممكنة. الحياة الإنسانية **تجديد** شئنا أم أبينا وذلك بسبب الطابع المستقبلي الذي هي عليه، وذلك لأن الواقع صاعد كما أن كل موقف عارض ويؤدي إلى موقف آخر. يمكن أن يتعرض هذا **التجديد** الضروري، الذي لا يرتبط بإرادة خاصة، أو بأي نوع من النزق، لخطر أحد الميول التي تحل ببعض المجتمعات والتي تعتبر غاية في الكثافة في أوربا المعاصرة وخاصة اعتبارا من عام ١٩٦٠: أنه الميل إلى **ما هو قديم**. وفيما يتعلق بالمعنى الذي أعطيه لهذه الكلمة يتمثل الأمر في نسيان الماضي القريب. وهو تحديدا ليس ماض، بل هو بداية الحاضر الذي ليس آنيا بل له "كثافة" مؤقتة – وذلك للتعامل مع الماضي **المتباعد** وكأنه معاصر. هذا يؤدي إلى "قطيعة" فريدة للاستمرارية التاريخية التي يندرج تحتها نكوص أو تراجع ويصحب ذلك فقدان الإمكانيات المكتسبة في ذلك الحاضر الممتد ألا وهو حاضر التاريخ(١٦١).

إذا ما تم النظر إلى السنوات التي مضت منذ إقرار هذه الديمقراطية البرلمانية في إسبانيا سوف يُرى كيف يتعايش ويتواجه الاتجاهان: المجدد والرجعي أو القديم. سيطر الاتجاه الأول بشكل صريح على الخمس سنوات الأولى، وهي مرحلة التجديد والتنظيم والاستشراف. لكن سرعان ما برزت الأعراض القائمة لما هو قديم حيث تم تجاوزها من خلال استشراف المستقبل. كتبت في فبراير ١٩٨١م، خلال الفترة التي استقال فيها أدولفوسواريث وانقلاب ٢٣ فبراير – "أن ما يهم هو ألا يبدأ التراجع "المشئوم إلى الخلف" أي نحو ما تجربته وثبت فشله عند الطرفين، وأنه لا يجب أن تضيع الفرص التي

---

(161) حول هذا الموضوع هناك كتابي "التجديد والقديم" (دار نشر: El Alción- مجلة الغرب مدريد ١٩٧٣) هناك تطبيقات فلسفية لهذه الفكرة في الفصل السابع من: سيرة الفلسفة" في طبعاته الأخيرة (أليانثا – ١٩٨٠م، والأعمال الكاملة الجزء الثاني ١٩٨٢).

في يد إسبانيا والتي ساعدت على هذا التحول الرائع والخلاق والاستشراف الواعد لذلك نحو باقي الدول ذات الأصول الإسبانية"[١٦٢].

رأينا كيف أن هذين الميلين إلى ما هو قديم فيما يتعلق بتصفية الدكتاتورية (وهما "الإصلاح" و"القطيعة") جرت الحيلولة دونهما من خلال التجديد (أي إعادة خلق شرعية انطلاقا من القانونية والانفتاح على إمكانيات جديدة). أنه عدم البقاء جامدا أو التراجع ولكن مواصلة الطريق إلى الأمام. كان الاستقلال الذاتي للأقاليم، يعني الاحتفاء الفوري "للمركزية" و"الانفصالية". وفي نهاية المطاف فما أطلق عليه – باستخدام كلمة ليست مناسبة تماما أو محببة – "المركز" كان يعني أن نخلف وراء ظهورنا الفكرتين القديمتين وهما "اليمين" و"اليسار" حيث ظلتا طوال أمد طويل تخيمان على الأفق السياسي وقادتا إلى الاستقطاب وإلى الشقاق لسوء الحظ.

ومن جانب آخر، نرى الملكية تستعيد تراثا قديما وطويلا – مع وجود مراحل قطيعة لكنها قصيرة في إطار التاريخ الكامل لإسبانيا – لكن لم يكن ذلك بغية العودة إلى الوراء أو التمسك بأنماط غير ملائمة وغير مثيرة بل الاستمرار بشكل خلاق طبقا للظروف والموقف الفعلي للبلاد والعالم.

لا يمكن الحديث عن المركزية عندما تتدخل أمة بأكملها في تقرير مسارها، وعندما تكون هناك حكومة ممثلة للأمة وأن هذا التمثيل يضم جميع الأطراف. هناك خطأ فادح هو الخلط بين "الوحدوية" و"المركزية" مثله مثل الخلط بين "الاستقلال الذاتي" و"الانفصالية" – وهو خطأ يكاد يكون مقصودا بشكل دائم. أطلت التوجهات المناصرة للماضي برؤوسها على المسرح العام من خلال نمطين: النفور من الاستقلال الذاتي، وكذا من القومية nacionalismo. هناك فرق بين نقد العيوب أو الإجحاف الذي تمارسه الأقاليم المستقلة ذاتيا من خلال التكلفة العالية وتكرار الوظائف وعوائق مفهومة يجب

---

(162) خمس سنوات من عمر إسبانيا،

الإشارة إليها وتجاوزها، وبين رفض مبدأ الاستقلال الذاتي ورفض شخصية الأقاليم والميل إلى نوع غير مقبول من التجانس homogeneidad. وعكس ذلك هو رفض الطابع القومي لإسبانيا بشكل لا مبرر له، وذلك لتطبيقه بشكل مصطنع على مختلف أعضاء البلاد وهي التي لم تكن أمًا أبدا، وقشتالة ليست أكثر من الأخريات. ولما كان الولوج إلى مقالي "الصوت الأخير" غير سهل أود أن أورد هنا بعض فقراته التي تشير بشكل مباشر إلى هذه القضية (لا ننسى أنه كان مكتوبا في نوفمبر ١٩٧٨م بعد إقرار الدستور مباشرة من البرلمان قبل تطبيقه).

"هناك خطأ شائع للغاية، هو الاعتقاد بوجود حركات "انفصالية"، وإذا ما جرى طرح الأمر على هذا النحو فلن يُفْهم شيء. يمكن أن يكون هناك فرد أو آخر أو جماعة انفصالية في بعض الأقاليم الإسبانية لكن ليس لهم أي أهمية لكنهم ينشزون ويشوشون على مواطنيهم، فليس هناك أي إقليم يريد الانفصال عن إسبانيا، ولا يطرح ذلك أي حزب لديه الحد الأدنى من المسئولية، وبالتالي فإن الظواهر الانفصالية هي ببساطة لعبة من ألعاب السيرك يقوم بها هؤلاء الذين لا يجيدون استخدام وسائل أكثر نبلا للظهور والشهرة.

لكن هذا ليس كافيا رغم أنه جيد في حد ذاته، ففي بعض الأقاليم هناك قطاعات مهمة، ووجود مجموعات سياسية – خاصةً – تشكو من عدم **التضامن**. إسبانيا لا تهمهم في شيء على الإطلاق، ولا يرون إلا الموضوعات الخاصة بالإقليم الذي ينتسبون إليه، يزدرون الأمة، وإلى هذا تنضم نرجسية لا حدود لها في حب إقليمهم دون أي نقد. لا يخطر على بالهم "الانفصال" لأنهم في حاجة إلى إسبانيا قاطبة للبقاء من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية والسياسية، وحتى يقوم المجتمع بأكمله بسداد النفقات المترتبة على اللغات الخاصة وحتى تقوم سلطة الدولة تفرض هذه اللغات ولا تبقى خاضعة للتلقائية الاجتماعية والقوانين المشابهة المتعلقة بقانون العرض والطلب. يبدو لي أن هذا اللاتضامن طريف للغاية لكن ذلك ليس هو الأهم: الأمر الخطير هو أنه

خطأ نظرا لقصر النظر ذلك أنه دون ازدهار إسبانيا عامة فإن كل أقاليمها، دون استثناء، مدينة بالعيش حياة هشة، وهذا اللاتضامن يؤدي مباشرة إلى الكدر الذي يصب مباشرة وبالضرورة في المحلية أو الريفية.

"لكن هذا ليس أكثر شيء يثير قلقي. في بعض الدوائر السياسية - التي ليست أكثر الدوائر تشددا أو تفجّرا - هناك مؤشرات على الرغبة في تفكيك البنية القومية لإسبانيا. ومعنى هذا أنهم لا يقنعون بالتوصل إلى هذه الإجراءات أو تلك التي يرونها مناسبة لإقليمهم بل لديهم مصلحة بديهية في التلاعب بتلك الأشياء الأخرى التي يرونها بعيدة عنهم ويشعرون بعدم التضامن معها. كما أعتقد أن مثل هذا الموقف لا يوجد بين أبناء أي إقليم إسباني، أي إقليم في إجماليه أو أي جزء مهم من سكانه. الأمر إذن هو مجموعات ذات أقليات ضعيفة للغاية لكن لديها القدرة الكافية على الرقابة على الإضراب والاتحادات ووسائل الإعلام. كان تأثيرهم واضحا على ميلاد نص الدستور ولا تتسق مع أهميتهم الفعلية".

هذا هو نوع من التمسك بالقديم arcaismo، كما لا يبدو لي محل شك أن أعراض هذا التمسك زادت منذ كتابة هذه السطور. حدثت ظاهرة مزدوجة: فمن ناحية هناك نوع من التقليل من شأن الاستقلال الذاتي بشكل عام الأمر الذي يؤثر على الأقاليم المستقلة الأخرى - على الأقل وفي كثير من الأحيان - وليس في كل حالة - يكون هذا التأثير على الإقليم الذي ينسب إليه. ومن جانب آخر، هناك "ذاتية" حادة في بعض الأقاليم، فإذا ما نُظِر إليها جيدا فإنها ضد كل ما يمكن أن يكون ثريا وواعدا في البنية الخاصة بالأقاليم المستقلة ذاتيا في إطار الأمة. من المنتظر أن يحدث نوع من إعادة الضبط في غضون فترة قصيرة وأن يبدأ النقد الداخلي، وألا يبدو عدم ولاء للإقليم عدم القبول الأعمى لكل ما يفعله ممثلوه، وأن تؤدي قوة الأشياء إلى عمل جماعي ومتكاثف. لكن

ذلك ليس مؤكدا لأن هناك القدرة على حدوث "عدوى" اجتماعية وتتأصل الأمور رغم عدم ملاءمتها الواضحة.

والأخطر من هذا هو بزوغ التقابلية: "اليمين" و"اليسار" الذي كان يبدو أنه في طريقه إلى الزوال. البطء هو المحرك الأول ومقاومة الجهد الذي ينادي بابتكار شيء أكثر أهمية ورصانة يشعر الكثيرون بالحاجة الملحة إلى الاتكاء على ما هو قديم ومعروف – وفاشل – بينما يريد الآخرون بكل ما أوتوا من قوة "تقليص" الأمر إلى أنه قد رؤى كل شيء الأمر الذي يعني بعض الأصالة. سألت نفسي في مناسبات أخرى عن السبب في استمرار هذه المفاهيم مدة طويلة، وهي مفاهيم خارجية وشديدة الميكانيكية. ومن جانب آخر أتساءل عن الماهية العميقة لهذه المواقف. التبرير التاريخي "لليمين"، أي أن الجانب الإيجابي هو طبيعته **المحافظة**، بمعنى الاعتقاد بأن ما هو موجود، له سبب وقد أفصح على الأقل عن توافر الحيوية، وأنه لم يكن هناك استعداد للإلقاء بكل شيء جانبا لأي سبب، وقام بالإصلاحات منطلقا من خلفية ليست محل شك. لكن الجانب الآخر سلبي بوضوح، وقد شهدت ذلك بوضوح عندما تأملت شخصية "الحاكم" comendador في مسرحية J. Tenorio ضد النساء، لثورّيا. ولاشك أنه فكّر في والده ذلك القاضي المستبد، الذي احترمه وأحبه كثيرا لكن كان يخاف منه بشدة ولم يتفاهم معه أبدا. كان رجلا لا يخلو من فضائل، لكنه غير متضامن بالمرة. فعندما طلب السيد خوان تينوريو من الحاكم أن يغفر له ويقبله كزوج للسيدة/ إينس، فإن السيد/ جونثالو لا ينصت ولا يؤمن بالتوجه، وعندما يحذره السيد خوان بأنه سوف يفقد حتى الأمل في خلاصه، يرد عليه ببيتين من الشعر بهما حدة شديدة ولا رحمة فيهما ومتحجرين لدرجة لم نشهد أبياتًا بهذا الشكل في قرننا:

وما دوري أنا يا سيد خوان

في أمر خلاصك؟

وفيما يتعلق "باليسار" فهو الوجه الآخر للعملة، محركه الإيجابي هو مقصد "التضامن"، يشعر الإنسان اليساري بأن "كل شيء معه" وأنه يجب أن ينظمه ويعالجه وخاصة إذا ما كان يتعلق بالمضطهدين وذي الحاجة. ذلك هو حافز الكرم والتدخل وروح التبشير. أما الجانب السلبي فهو اليوبيا الزائدة والإطراء على ما هو بعيد – فكلما كان بعيدا وغير معروف فهذا أفضل – أكثر من القريب، أي الآخر القرب منه، هناك الرغبة في "إثارة الغيظ" واللامسئولية، وهواية التغيير من أجل التغيير دون أن يكون متأكدا أنه الأفضل، ويميل إلى هدم البيت ليعيد بناءه من جديد بناء على مبادئ مجردة.

كان هذان النظامان يبدوان أنماط تقادمت منذ زمن طويل، وخرجا عن المعاصرة وأصبحا غير قادرين على إثارة الأمل. لكن لا ينبغي أن نتجاهل البطء أو الكسل التخيلي عند الإنسان ومقاومة التفكير والميل إلى "العودة". هناك إضافة إلى ذلك المصالح المتراكمة التي أصبحت محط جدل وهو ما يمكننا أن نطلق عليه الاستثمارات المهمة التي تمت تحت الشعارين: "اليسار" و"اليمين" حيث لا يراد فقدانهما، وفي هذا هناك التهديد الأكبر التي توجهها الروح المجددة حيث تتعرض لخطر دائم هو التردّي.

استخدام الحرية:

الأمر الحاسم في الموقف الحالي لإسبانيا الحالية هو أفقها المفتوح. هناك الشرعية الملكية الكاملة التي يمكن مقارنتها بملوك القرن الثامن عشر مع فارق هو أنها تسير الآن على متطلبات العصر الذي نعيشه وهو الديمقراطية والتطبيع. (جاء هذا لأول مرة منذ وقت طويل) بين المجتمع والدولة، الأمر الذي يؤدي إلى وجود حياة سياسية في ظل الحرية. في المقام الأول نجد أن ما يُقّدم للإسبان هو أن "الدولة مثل غطاء أو جلد" في تقابل مع "الدولة كجهاز تعويضي" طبقًا لهذه المقولة الدقيقة لأورتيجا في باب التفريق

بين الحالتين. أقول "في المقام الأول" ذلك أن من الممكن دوما أن يكون هناك استغلال السلطة والجبروت الذي قد يولده الجهاز التعويضي في عقر الديمقراطية. ما يحدث هو أن الديمقراطية نظام سياسي يتولى عملية تصحيح ذاته بذاته، ولا يزدهر هذا الجبروت. وهذا يفهم بشرط يضعه المجتمع وهو أن يستخدم – المجتمع – الحرية.

يمكن أن يكون هناك إهمال واستقالة وعدم قدرة ووجل. علمتنا التجربة التاريخية أن **لا شيء مؤكد**، وعلى وجه الخصوص أن لا شيء يعمل بشكل آلي وكأنه ميكانزم. القوانين دون العادات لا قيمة لها، طبقا لما يقوله الأقدمون، لكن يجب أن نذهب إلى ما هو أبعد من حرفية هذه النظرية، وربما نذهب إلى ما هو أبعد مما فكّر فيه من صاغوها. فالدولة وكافة أجهزتها تقوم على **الواقع الاجتماعي**، أي على المعطيات الاجتماعية السائدة والنظام الحي للمعتقدات وعلى الاستخدامات والأفكار والتقديرات والمشروعات المشتركة: أي ما يستحق أن يطلق عليه **شعب** الذي هو قبل كل شيء عفوية، حية تتجلى من خلال منظومة من القواعد.

ولهذا فإن شعبا يقظا وفيه حيوية يمكن أن يتحمل نظاما لا أخلاقيا وقمعيا دون أن يتم إزالة الحرية تماما. وعكس ذلك هناك التساوي nivelación والتجانس الأمر الذي يقضي على التوترات ويلغي "الاختلافات الممكنة" وعملية طَرْق الأفكار أو شبه الأفكار المتماثلة في عملية التعليم وفي وسائل الإعلام، والخوف الغامض وغيبة الشخصيات المستقلة والمبدعة، هذا كله يمكن أن يؤدي إلى سلبية وإلى فقدان الهمة مما يؤدي من خلال البُنَى الممتازة إلى إلغاء الحرية.

عادة ما تجتمع هذه المخاطر مع الجهل بطابع جوهري للحريات، ألا وهو "**السستمة**" أي أن كل الأشياء تتضافر بشكل تبادلي وتتغذى على بعضها البعض، ويكون هذا بشكل فوري ما أمكن. وعندما يقال أن "حرية كل فرد تنتهي عندما تبدأ حرية الآخر" فإنه لم يعلن إلا عن جزء، وليس هو الجزء الأكثر أهمية في هذه الحقيقة،

الأمر الحاسم هو أن كل حرية تنتهي عندما تبدأ حرية أخرى. وهذا يعني أمرين مختلفين لكنهما متكاملان.

أولهما أنه لا يمكن تأكيد حرية بشكل لا محدود دون أن تؤخذ في الاعتبار الحريات الأخرى، ذلك أن هذا الخروج عن الحدّ يقض مضجعها أو يدمرها، أما الثاني هو أنه لا يمكن الدفاع فقط عن الحرية الخاصة التي تهم كل طرف - سواء كان فردا أو جماعة في المجتمع - وعدم العناية بالحريات الأخرى، فهذا يعني أنها تتعرض للتدمير واحدة واحدة أمام سلبية باقي المجتمع، ولن تتبقى أي حريات أخرى في نهاية المطاف. وعندما تكون هناك حرية مرفوضة أو واهنة تصبح باقي الحريات جريحة، ويصبح الأمر قضية انتظار.

لكن لا يمكن أن تضفي على ذلك معنى سلبيا أو دفاعيا: لا يتعلق الأمر فقط بحماية الحريات بل باستخدامها في الأساس وممارستها، وهذا يتطلب **خيالا** بدونه تصبح الحرية لا واقعية. الحياة - حياة الفرد أو الجماعة - هي **مشروع**، وفي حالة بلد ما هي مشروع تاريخي. قضت إسبانيا أربعين عاما بدونه وانحصر نشاطها في مشروعات قليلة جدا وسلبية في المقام الأول أو على مشروع قاحل، وانحصر أمرها في الاستمرار وبقاء لا محدود على موقف ولا شيء غير ذلك، أو أصبحت في وضع ترقب، التطور على أفضل الأحوال. إلا أن هذه الكلمة خادعة: التطور والانتشار والتنمية وكلها تعني تجلي شيء كان موجودا. إلا أن ما هو إنساني ليس له هذه الصفة. الأمر هو ظهور إمكانيات جديدة سواء تمت أم لا. هو تجديد غير مؤكد، يكاد يكون إبداعا.

تقوم المشاريع على عدة **مسارات** يجب الاختيار فيما بينها، فإما متابعتها أو تركها، وإما الفشل فيها أو تحقيقها وأن تتفرع إلى ما لا نهاية. ولهذا فإن الحياة تتسم دائما وخاصة في لحظات معينة بأنها مفترق طرق.

هذا هو الموقف الحالي لإسبانيا. لقد اجتمعت الشروط التي تشكّل الاستشراف التاريخي. لكن مع هذا فالاستشراف لم يتم. من الضروري في البداية أن يكون هناك خيال قادر على ابتكار مشاريع جذابة لها ما يبررها من داخلها، كما أنه من الضروري تقديمها بطريقة ملائمة بمعنى أن يتم تقديمها في أشكال تجعل من الممكن المساهمة فيها. وفي نهاية المطاف هناك القرار بممارسة الحرية للدخول حقا في المسارات المفضلة. أضف إلى ذلك سوف تكن هناك حاجة إلى أن تكون الظروف الخارجية مواتية للتنفيذ، وألا تقض المصادفة من مضجعها، أي مسألة الحظ. غير أن هذا كله ينفلت مما يقدر عليه أي إنسان أو جماع الناس كلها في بلد ما، وينفلت مما هو في يده. رأينا في هذا الكتاب مرات عديدة تدخل القدر أو إرادة آخرين ي شأن الإسبان الأمر الذي أسهم في قطع مسارات إسبانيا أو حولها عن توجهها. يمكن أن يحدث هذا مرة أخرى، لكن علينا في المقام الأول أن نفعل ما بوسعنا وما علينا أن نفعله. وإذا لم نفعل، فلن تكون لدينا حجة على ما اعتقد.

الفصل الثلاثون

مستوى إسبانيا

خلاصة التاريخ:

لم أقم في هذا الكتاب بسرد تاريخ إسبانيا، فالوقائع والأحداث معروفة بما فيه الكفاية، ولم أكتشف أي شيء ليس مسجلا وموثقا ومسرودا. ما أبرزته هو خلاصة هذا التاريخ والروابط بين الأحداث المكوّن منها وأفق الإمكانيات في كل موقف حاسم وتنوع المسارات المفتوحة والتي تم اختيارها بالفعل في كل حالة وتم تنفيذها، بدرجة أو بأخرى، أو إحباطها.

هذا هو معنى عبارة "المنطق التاريخي". أي أن التاريخ نفسه يقدم السبب في الواقع، ويسمح بفهمه، والجلاء التاريخي ليس ممكنا إلا من خلال السبب السردي، بمعنى السرد الذي لا يقتصر على "أحداث" والذي لا ينزل بما هو إنساني إلى درجة "الأشياء" الملموسة أو النفسية أو الاجتماعية بل يحتفظ بطابعة الاستشرافي والدرامي في الأساس.

من الطبيعي أن أول شيء مطلوب هو معرفة من يكون هذا وعمن يجري الحديث. ولهذا كان جزءا جوهريا من هذه الدراسة البحث عن جذور ذلك الواقع، الذي نعيشه،

والذي يطلق عليه إسبانيا، وعن تكوينه. إلا أن هذا أجبر على ألا يغيب عن نواظرنا ذلك المكان الذي حدث فيه ذاك الواقع ومكوناته في كل لحظة. لهذا كان من الضروري أن نرى تكوين إسبانيا في إطار البحر الأبيض المتوسط وفي أوربا وفي العالم الذي يمتد إلى ما هو أبعد من حدودها الأصلية. ويؤدي هذا إلى المهمة الضرورية بضم أمريكا - منذ لحظة ما - كمكون جوهري من إسبانيا وبدون ذلك **لن تكون صورة إسبانيا جلية**. غير أنه لا يكفي أن يكون العالم الأمريكي في أذهاننا كأنه ملحق أو مكمل، بل هو عالم له أحقية إذا ما أرنا أن نفهم الواقع الفعلي الذي كانت علية **الإسبانيات Españas**: فكل رؤية منعزلة لإسبانيا أو أمريكا الإسبانية مدينة بالفشل، وترفض آليا إدراك الأمر.

الشيء المثير للدهشة هو **الاتساق** الشديد للتاريخ الإسباني وهذا نقيض للصور المعتادة التي تصور ما كانت عليه إسبانيا. وتتوالى فصول الدراما الخاصة بهذا التاريخ في إطار **الضرورة الحرة** الخاصة بما هو إنساني. كما سيكون من الصعب العثور على شعب يتسم فيه **المشروع** التاريخي الذي كونه بالشفافية والوضوح والاستمرارية على مدار قرون وقرون. ولهذا فخلافا للفكرة السائدة في العصر الحديث أصبحت إسبانيا أكثر جلاء بدرجَة كبيرة شريطة عدم تشويه واقعها وأن تُلقى عليها نظرة شاملة تقبل ببنيتها ولا تشوهها نظرة أخرى ناجمة عن تأويل مسبق لا يولد من رؤية التاريخ نفسه.

هناك بعض النقاط الجوهرية التي كنت فيها مسارات إسبانيا مثيرة للمشاكل ألا وهي **مفترقات طرق التاريخ**، أي في تلك **اللحظات** التي يتم فيها التساؤل، وعن حق عن "إسبانيا التي أمكن أن تكون". وأحيانا ما كانت **المصادفة** هي التي لعبت دورها في هذا، أي بسبب شيء لا علاقة له بالمشروع الإسباني، يقوم بالدخول ويعطل المسار أو يفتح أمامه، طرقا جديدة. وفي هذه الحالة فإن ما ينسب أساسا إلى تاريخ إسبانيا هو **رد فعل** بلدنا على تلك المصادفة، وطريقة مواجهتها وهضمها وتمثُّلها وضمها إلى المشروع **الأصلي** - وربما مع بعض التفكك- وأحيانا أخرى نجد أن مفترقات الطرق ليس لها طابع المصادفة بل مردّها مسار التاريخ نفسه وكذا المواقف أو القرارات التي يتخذها الإسبان

والتي تعدِّل الأفق الخاص بإمكانياتها وتُدخِل تجديدا راديكاليا، وربما كان ذلك نوعا من التذبذب والحيرة التي تؤثر على السلوك في المستقبل.

لا شك أن الغزوات التي قام بها البربر للإمبراطورية الرومانية والغزو الإسلامي عام ٧١١م ينسبان إلى المجموعة الأولى. إنها صدف ضخمة (وهي مفهومة لا في حد ذاتها ولكن من منظور إسباني) واجهتها إسبانيا دون تدخل منها، كما أنها غيرت إمكانياتها بشكل حاسم. أما بالنسبة للمجموعة الثانية من الصدف هناك اكتشاف أمريكا والتوسع في ذلك لاحقا والتحول من أمة أوربية حديثة النشأة إلى ملكية في نصفي الكرة. وليكن معلوما بشكل جيد أن إسبانيا كان من الممكن ألا تكتشف أمريكا، أو تتركها بعد اكتشافها كما كان ينصح البعض بذلك، ولم يعدموا الأسباب التي تدعم ذلك – أو القيام "باستعمار" شبيه بذلك الذي بدأته دول أوربية أخرى في تلك القارة وقارّات أخرى، بدلا من الانخراط في واقع جديد شديد الأصالة وغير معروف حتى ذلك الحين.

كان من الممكن أيضًا أن تتخلى عن "الإصلاح"، أريد القول التخلي عن الإصلاح من حيث هو، في بعده الأوربي والاكتفاء برفضه في داخلها – وعدم فعل ذلك هو الذي كان يلومها فيه بيكون Bacon حيث بدا له الأمر مهددا ومثيرا للقلق – كان من الممكن أيضًا أن تفكر في أن الأتراك يشكلون تهديدا بالنسبة للآخرين، ولأسبانيا في بعض الحالات وأن يتركوهم يفعلون ما يشاءون طالما أنهم لا يواجهونها.

تكفي هذه الأمثلة لتبيان مفاصل مسار – أو مسارات على الأصح – إسبانيا، ومناطق الانحناءات والطابع الذي يطرأ أو الأصلي بالمعنى الأدق الذي عليه هذه الأزمات حيث يتم اتخاذ القرار بشأن توجه الحياة الإسبانية، وربما كان ذلك لفترة طويلة. ولما كان كل واحد من هذه القرارات يحوّل الواقع ويلزمه باتخاذ اتجاه معين فمن الواضح أنه إما أن يسد أو يفتح بعض الإمكانيات ويتحكم في المواقف المتتابعة وبالتالي يؤثر على الفترات التي سيكون فيها من الضروري اتخاذ خيار آخر أو تفضيل السير في طريق معين أو غيره.

الحرية الغريبة هي الافتراض الخاص بكل ذلك والذي يرتبط بالتاريخ. لأن الأمر هو واقع إنساني وليس آلية أو مجرد تطوّر أو انطلاق، ولا يمكن التكهن به مسبقا إلا من خلال تحليل للظروف والإمكانات المتوفرة في كل ظرف، وأن يكون هناك وعي كامل بأن من الممكن اختيار طريق أو آخر. التاريخ ليس محددا سلفا لكنه مشروط. الإمكانات محدودة وهناك العديد من الأشياء غير الممكنة. وعكس ذلك هناك عناصر غير قابلة للتعديل، يجب وضعها في الاعتبار. غير أن ما لا يوجد هو الحتمية التاريخية ومن هنا، يوجد دائما هامش من الحرية وعدم التوقع.

المشروع هو العنصر الجوهري الخاص بكل حياة بشرية سواء كانت فردية أو جماعية، وبدونه لا يمكن العيش وبناء على ذلك فإنه لو لم يكن حاضرا لا يمكن أن نسرد قصة حياة. يضم التاريخ، من حيث هو واقع، المشاريع، ولا ينحصر في أفعال،ولهذا فإن واقعه يتضمن مكونا أساسيًا من اللاواقع، التاريخ مستحيل من حيث هو معرفة، أي علم التاريخ، إلا إذا كانت هناك مشروعات تاريخية، يجب اكتشافها وضمها إلى السرّد. وهذا ما كان غائبا في تحليلات تاريخ إسبانيا، وكذا في بلدان أخرى رغم أننا لا نشعر بذلك إلا قليلا.

حاولت اكتشاف مضمون تاريخ إسبانيا وإعادة بنائه وتكوّن مشروعاته ومنعطفاته وتحولاته حتى يمكن فهم ما كانت عليه الحياة الإسبانية قبل أن توجد إسبانيا، بالمعنى الدقيق، حتى اليوم. غير أن مقصدي لم يكن تاريخيا فقط، أي لم يكن دوري دور مؤرخ فقط. فما يهمني هو التوصل لأن تكون إسبانيا جلية. وعندما أقول إسبانيا فهذا يعني إسبانيا الحالية. ولما كانت الحياة مستقبلية فهذا يعني إجمالي إمكانياتها ومشروعاتها، وبالتالي فالمقصد هو إسبانيا الغد. الأمر هو أن إسبانيا – مثلها مثل أي مجتمع أو بلد – واقع تاريخي، وبدون تاريخها الشامل لا يمكن أن تكون جلية. وهذا هو السبب الكامن وراء هذا الكتاب الذي يعمل على تبين أسباب كل شيء ومضمون تاريخها.

الأخطاء:

هناك الكثير من التحليلات لإسبانيا، ترى تاريخها على أنه مجموعة متراكمة من الأخطاء، سواء كانت تحليلات أجنبية أم إسبانية. وقد حاولت من خلال الفصل العشرين من هذا الكتاب تحديد ما يمكن تسميته "خطأ" في التاريخ. واستبعدت أن تعتبر بعض الأحداث أخطاء من منظور أنها "لا تبدو جيدة" بالنسبة لنا. أو أن "الفشل" الذي يرتبط بكثير من الأسباب الخارجية لا يمكن النظر إليه على أنه خطأ. وقلت "إن ما أطلق عليه أخطاء هو التصرفات المضادة **للمشروعات** الحقيقية، وذلك بتركها وحلول مشروعات أخرى محلها لكنها ليست على الدرجة الحقيقية نفسها، كما يمكن حساب الخطأ عندما لا يوضع الواقع في الحسبان وخاصة ما يتعلق بمتطلبات تلك المشروعات" ثم قمت بعد ذلك بتعداد سلسلة من الأخطاء الإسبانية في هذا المقام.

الأمر المهم هو أنه يجب اكتشاف تلك الأخطاء من خلال التحليل الداخلي لمحتوى التاريخ وذلك من خلال مقارنة الأحداث الفعلية بالمشاريع وكذا بالموارد التي تتوفر في كل لحظة أو تلك التي كانت مفتقرة آنذاك.

أما بالنسبة لهؤلاء الذين اعتبروا تاريخ إسبانيا على أنه مجموعة من الخطاء لم يعتادوا أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في هذه المسألة ولكن نظروا إلى ماضينا من زاوية ما يفضلونه أو من خلال تقييمهم الخاص بهم لكل لحظة "معاصرة". أو أنهم قارنوا الواقع الإسباني بباقي الواقع الأوربي وهذا ما يحدث غالبا. هذا الموقف يثير حيرتي، لأنه يفهم **أن ما حدث** هو ببساطة تاريخ أوربا، بمعنى أنه يتم تقديم تحليل ينطلق من العبارة الشهيرة "الحتمية التاريخية". غير أنه إذا كان الأمر كذلك، فما معنى الحديث عن "أخطاء" إسبانية؟ إذ سيكون تاريخ إسبانيا بهذه البساطة مجرد أحداث وقعت ولا شيء أكثر. فكيف إذن يتم تأنيبها وكيف يمكن القول إنه "كان يجب" أن تفعل كذا أو كذا؟ لماذا إذن ستقوم "الحتمية" بتقديم استثناء في هذا المقام؟

وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو، أي إذ لم يتم قبول تلك النظرية، وبالتالي القبول بالخطأ التاريخي، لا بد من التساؤل فيما إذا لم يرتكبه الآخرون. وحتى لا نخرج من إطار تاريخ إسبانيا، يبدو أن لا أحد خطر على باله أن يسأل فيما إذا كان العرب قد ارتكبوا خطأ عندما تحولوا إلى الإسلام، أو عند توسعهم الحربي نحو الشرق والغرب، وما إذا كان احتلال الإنجليز لفرنسا خطأ (أو عدم قبول الفرنسيين لذلك) أدى إلى حدوث حرب المائة عام، أو حتى يمكن اعتبار الإصلاح خطأ - هكذا رآه الإسبان-، أو الانشقاق الإنجليزي، أو الثورة الفرنسية...إلخ. لا أقول بأن كل تلك الأحداث كانت خطأ، بل أقول أنها كان يمكن أن تكون كذلك، ويمكن طرح مسألة ما إذا كانت هكذا أم لا. إنها المعادل الذي لا مناص منه عند التعمق في أخطاء إسبانيا، وليس ذلك من منظور العدل بل من خلال اعتبار غاية في البساطة وهو أن من الضروري أن تكون هذه الأخطاء جلية حتى يتحول هذا الاتهام إلى ما هو أكثر من الشتيمة التي هي درجة ذات قيمة تاريخية ضئيلة.

ولما لم يتم تطبيق ذلك إلا نادرا على الواقع الأوربي، وإن حدث فهو بشكل جزئي وهامشي، فإن هناك شك له ما يبرره يقول بأن تاريخ أوربا لم يتم سرده بشكل ملائم، وأن جلاءه ليس بالدرجة المرادة. الموقف العام قد لا يكون شديد الاختلاف عما عليه إسبانيا، والاختلاف ربما كان في تطبيق منظورين مختلفين بالنسبة لإسبانيا وبالنسبة لباقي أوربا. ربما كان هناك عيب يتعلق **بالاتساق الثقافي** coherencia intelectual وهو عيب يسهل اكتشافه في أغلب حالات التاريخ خلال العصر الحديث.

إذا ما قُرئ هذا الكتاب ببعض العناية سوف يجد القارئ قائمة طويلة (وتبريرا لذلك) للأخطاء الإسبانية. ولم يكن تاريخنا مُقِلًا في هذا المقام، غير أن ما يظهر أيضًا وعلى الدرجة نفسها هو البديهية التي تشير إلى أن بعض هذه الأخطاء كان بسبب عوامل خارجية سواء تمثلت في إبراز أحداث أو نمط أحداث أخرى وهذا لا يعفي الإسبان من

الذنب أو الخطأ أي عندما كان ردّ فعلهم خاطئا – غير صادق –إزاء هذه المواقف التي تسبب فيها آخرون. غير أن الأمر الحاسم هو أنه على مدار هذه الدراسة أخذت تتجلى لحظات يساورنا الشك فيها – وهو شك مؤسس – على أن باقي أوربا – أو أمريكا – ارتكبت أخطاء قابلة للحيلولة دونها" وبالتالي فهي متهمة بها ولا يمكن تحليلها على أنها "مُعيبة" أو أن ذلك هو مجرد "الواقع" دون أي شيء آخر. وهذا ما حدث وخاصة منذ ثلاثة قرون – وهذا وقت طويل للغاية في باب الإبقاء على خطأ – الأمر الذي يجعل من الضروري القيام بمراجعة لجميع هذه الافتراضات، هذا ما إذا كان هناك معنى للحديث بهذا الشكل بعد انتظار قرون.

يحاول هذا الكتاب – في ذلك السياق – أن يكون بمثابة إيضاح لإسبانيا حتى تكون أكثر جلاء، وأن تكون أوربا كذلك (ولو أن المقصد هنا كان ثانويا وغير مكتمل) وأمريكا الإسبانية. تركز الاهتمام على إسبانيا، أما بالنسبة للآخرين هناك غيبة في التفاصيل، إلا أنه تتم الإشارة – على الأقل – إلى خطوط أبحاث ممكنة تساعد على المزيد من استجلاء هذه التواريخ. وإذا ما جرت قراءة هذه التواريخ بدقة ثقافية، أي بغية **الفهم** وليس مجرد التلقي السلبي لسلسلة من الأحداث التي نادرا ما يتم تبريرها، يجب أن نعترف بأن ذلك ليس كافيا. ومع هذا ففي زماننا نجد أن أعلى درجة من اللاجلاء تحدث عندما يتم تطبيق نظريات على التاريخ تفهمه على أنه آلية ضرورية ولا مناص منها وله "توجه" لا يمكن تعديله، كما يقومون **"بالحكم"** على الأمور وعادة ما تتم إدانة أغلب محتويات التاريخ رغم أن ذلك قد يتناقض مع النظرية العامة التي كانت نقطة الانطلاق.

مسألة ضخامة:

خلافا لما عليه الرؤية الحالية المتعمدة على أن إسبانيا فسيفساء من الوحدات الصغرى، فإنها قبل أن تصل إلى هذا كانت غاية في الضخامة. كانت هسبانيا محافظة رومانية كبيرة (وعندما كانت مقسمة إداريا ظلت تعمل كوحدة واحدة وهذا ما توضحه

شبكة الطرق بشكل لا لبس فيه). تتسم إسبانيا القوطية بضخامة حجمها مقارنة بالتفتت الذي أصاب الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت بمثابة قطعة كبيرة موحدة حتى بداية القرن الثامن، وبعد ذلك جاء الغزو العربي وأحدث خللا في هذا وفي غيره: أصبحت إسبانيا مقسمة إلى جزأين غير متساويين هما إسبانيا الإسلامية وأسبانيا المسيحية، ثم بدأت حرب الاسترداد انطلاقا من بؤر صغيرة التي أخذت تكافح ضد الخفة القرطبية الكبيرة، وعندما أخذت هذه البؤر تتسع وترتبط ببعضها نجد تدمير الخلافة وتفتت الأندلس إلى ملوك طوائف.

لكن "إسبانيا الضائعة"، التي تحدثت عنها بإسهاب، حافظت على وحدتها المثالية وعلى المشروع التاريخي وعلى الثقافة، وأخذ كل شيء يتحقق، بمعنى أنه يتحول إلى واقع فعلي حتى اكتمل في نهاية القرن الخامس عشر. وخلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر، استقرت حدود إسبانيا التي ظلت كما هي لا تمس حتى اليوم وهذه حالة فريدة في أوربا (الاستثناء الوحيد هو التوسع: أي الاتحاد مع التاج البرتغالي من ١٥٨٠م حتى ١٦٤٠م). وعلى مدار العصر الحديث كله سوف تكون إسبانيا بلدا موحدا وكبيرا في إطار الأبعاد الأوربية، أي أنها أقل مساحة بقليل من فرنسا عندما بلغت وحدها الكاملة، بينما كانت إسبانيا أكبر منها حتى نهاية القرن السادس عشر. إنني أتحدث هنا عن إسبانيا بمعناها الحرفي، أي دون الأخذ في الحسبان الأجزاء التي انضمت إلى التاج الإسباني سواء في أوربا أو خارجها.

وإذا ما ضممنا هذه الأجزاء، بمعنى أنه إذا ما فكرنا في الواقع الفعلي لإسبانيا في أثناء ثلاثة قرون فإن ضخامتها **تبلغ شأوا آخر** مقارنة بباقي الأمم الأوربية. وهذا هو ما نسيه الجميع بسرعة غريبة، وبالتالي حدث ليس فيها يتعلق بالضخامة الحقيقية خلال فترة طويلة من العصر الحديث: فعندما تعود إسبانيا الحالية إلى حدودها التي كانت عليها في بداية القرن السادس عشر كان هذا بمثابة ستار يحول رؤية ما كانت عليه زمنا طويلا، الأمر الذي أثر على واقعها الداخلي وعلى أوربا.

غير أن هناك جوانب كمية أخرى يجب أن تكون ماثلة، أولها السكان. تتسم البيانات القديمة بأنها غير مطمئنة للغاية، إلا أنه من الملاحظ أن فرنسا - منذ العصور الوسطى - تفوقت في هذا على باقي البلاد الأوربية (باستثناء روسيا التي لم تنضم بفعالية إلى وسط وغرب أوربا إلا في بداية القرن الثامن عشر. ولا ننسى أن أهميتها في هذا المقام سوف تكمن أساسًا في الحجم). لم تكن إسبانيا الأوربية كثيفة السكان، كما انخفض تعدادها على طول القرن السابع عشر، ورغم أن العدد أخذ يزيد بشكل جيد على مدار القرن الثامن عشر، فقد انفصلت أمريكا، في بداية القرن التاسع عشر، وأصبحت إسبانيا بلدا صغير الحجم نسبيا مساحتها تشبه مساحة فرنسا لكن بنصف تعداد السكان، وأقل بكثير من تعداد السكان في إنجلترا، والنمسا والمجر، وابتداء من عام ١٨٧٠م كان أقل نسبة مما عليه الأمم الجديدة وهي ألمانيا وإيطاليا.

ومن جانب آخر هناك الثروة، ورغم جميع "المدائح لإسبانيا" فإنها لم تكن بلدا غنيا بطبيعته، هناك جفاف مناخها، وتضاريسها الجبلية وصعوبة الإفادة من أنهارها في الري والملاحة النهرية، الأمر الذي جعل اقتصادها الأولى متواضعا - دون مبالغة في الأمور. ومن الواضح أن إسبانيا، منذ بداية القرن السادس عشر، كانت تملك كميات من الذهب والفضة وبعض الثروات الأخرى التي تتجاوز بكثير ما عليه أي دولة أوربية أخرى. هل إسبانيا بلد "غني" إذن؟ يجب أن يكون الرّد بالنفي على هذا السؤال، وهذا رد حاسم، إذا استخدمت إسبانيا هذه الثروة في المشروعات التاريخية التي كرّست لها حياتها والتي تحدثتُ عنها بالتفصيل. لم تستمتع بالثروات ولم تتموضع في مكانة عالية من الناحية الاقتصادية. ظلت على حالة التقشف والتواضع الذي يصل إلى العوز الذي كانت عليه قبل أن تتوفر على هذه الأموال. يجري الحديث الآن بكثرة عن "الوظيفة الاجتماعية للثروة"، فقد كانت إسبانيا حالة تطبيقية ضخمة لهذه النظرية، قامت بإدارة الثروة ولا شيء آخر. وإذا ما قورنت الأراضي الإسبانية ومدنها وقراها ومبانيها وأطلال ما كان نمط حياة، بالبلاد المساوية لها مثل فرنسا وإيطاليا وفلاندس، وكذلك إنجلترا وألمانيا منذ

القرن الثامن عشر، يطفر أمام نواظرنا الفارق الاقتصادي: فأمام الأراضي الخصبة في أوربا تبدو إسبانيا أمة فقيرة، أما الاستثناء الوحيد – وهو نسبي – فهو القرن الثامن عشر حيث زادت الثروة القومية بشكل كبير. لكن الدمار الرهيب الذي أحدثته حرب الاستقلال أدى إلى السقوط مرة أخرى في هوة الفقر. وخلال القرن التاسع عشر فرغم أن الثروة الإسبانية أخذت في التزايد، كان إيقاعها أقل بكثير من الإيقاع الذي عليه إنجلترا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وشمال إيطاليا. وعلى سبيل المقارنة يمكن القول إن الفقر الإسباني هو أكبر مما كان عليه سابقا، إذ أن التدهور أكثر حدة. وابتداء من عام ١٩٦٠م يمكن الحديث عن نمو يتجه – نقول يتجه – نحو المواءمة nivelación، كما حدث في الوقت ذاته توازن سكاني يعود جزئيا إلى انخفاض نسبة المواليد في أوربا وانضمت إليها إسبانيا ولكن متأخرة بعض الشيء، مما جعل سكانها الذين يبلغون ٣٨ مليون نسمة يقتربون إلى ٥٤ مليون نسمة الذي كان في فرنسا أو إنجلترا. إنها لحظة أول عملية تصنيع قوية، وتضاعف أعداد السيارات والتطور التقني: وبالنسبة لما كانت عليه إسبانيا من أقلية كمية فإن هذا مسألة درجة وليس مسألة نوعية وبنيوية كما كان في السابق.

هناك عنصر مثير للقلق في حياة الإسبان، تمثل، منذ القرن التاسع عشر، في التذبذب فيما يتعلق بالحجم الطبيعي لأمتهم. ومن الغريب أن هناك أسبابا أيديولوجية أسهمت في هذا، وكانت في أغلب الأحيان أسبابًا سياسية. شعر هؤلاء الذين يسمون "بالتقدميين" – وكذا المسميات المناظرة في عصور أخرى – بأن من واجبهم اتخاذ موقف "نقدي" إزاء ملامح من النظام السابق، الأمر الذي أدى بهم إلى رؤية سلبية لواقع إسبانيا. كانت هناك نية مبيتة لاعتبار هذا الواقع على أنه "لا قيمة له". وما يمكن أن نطلق عليهم "التقليديين" بالمعنى العام، نجد أنهم شعروا بميل قوي للإعلاء من شأن إسبانيا ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى نوع من جنون العظمة، لكن كان ذلك أمرا تجريديا دون استثناء ودون معرفة بالواقع – وفي هذا يتلاقى معهم الأعم الأغلب من التقدميين –، والأمر الغريب هو أنهم انطلاقا من الميل إلى بعض الأنماط القديمة المخترعة في أغلب الأحوال التي تفتقر إلى أي

سند تاريخي) يدينون كل ما هو غيرها، وبالتالي يندرج ذلك على جزء كبير من تاريخ إسبانيا وإبداعاتها التي تعتبر في كثير من الأحيان الأكثر قيمة. أسهم هذان الموقفان اللذان ظلا حتى الآن في تعتيم جزء مهم مثل الوعي بأهمية المجتمع الذي إليه ينسبون.

السعادة المتوسطة:

في كتاب **البنية الاجتماعية** (١٩٥٥م) أدخلت مفهوما استعملته ذات مرة في أبحاثي اللاحقة، لكن لم يتم استخدامه وتطبيقه، على ما أظن، في حقول الأبحاث التاريخية والاجتماعية: هو "السعادة المتوسطة" في متجمع بعينه وفي عصر محدد[163]. القضية جد معقدة وحسّاسة ولا يمكن لي أن أدلف هنا إلى التحليل الذي قمت به في ذلك الكتاب. ما أريده هو تذكّر نقطة: "لا يتوافق حكمنا على السعادة التي يعيشها مجتمع مختلف عن مجتمعنا مع ذلك المفهوم الذي لدى أبناء ذلك المجتمع عن أنفسهم سواء في الماضي أو الحاضر. ربما بدوا لنا جديرين الشفقة بينما هم غاية في السعادة بمصيرهم، وسعداء بما هم فيه. ونستند في حكمنا على أن هذا قمة اللاسعادة. أو أن يحدث العكس، حيث نشعر بالحسد نحو نمط حياة يُنظر إليه على أنه تعس ولا مناص. إلا أنه يجب أن نميز – في المقام الثاني – بين "ما يراه" الناس بالنسبة للسعادة وبين "ما يشعرون به" منها: فعندما تسيطر فكرة أن الحياة هي آلام وأنها إلى زوال على مجتمع ما، فلن يقبل أحد بأنه سعيد. لكن ربما يشعر أن من وراء ذلك هناك توغل لسعادة قوية ولذيذة لم تعرفها مجتمعات تسود فيها الكفرة القائلة بأن السعادة موجودة على الأرض وهي في متناول الجميع".

لا أحاول تطبيق هذا المفهوم، الذي يبدو شديد الأهمية في نظري، على تاريخ إسبانيا، أي على مختلف المجتمعات التي تعاقبت على مدار التاريخ رغم أن ذلك يمكن أن يكون شيقا. الصعوبات كثيرة في هذا المقام، كما أن كثيرا من العصور تفتقر إلى الأسس

---

(163) الفصل الخامس – البند ٤٠ "مفهوم السعادة المتوسطة في عصر ما".

الكافية للوصول إلى خلاصة مسئولة. لكن أريد الإشارة إلى أنه تحت جو الشكوى السائد بين الإسبان وميلهم إلى تسليط الضوء على ما هو سلبي، هناك عصور تشهد تجلي سعادة مكثفة، وربما مرفوضة – بسبب الزهد أو عدم الرضا أو بسبب طموحات أعلى أو نزقا، أو طبقا لكل حالة – لكن الأذن المرهفة السمع يمكن أن تلتقط هذه السعادة بشكل لا لبس فيه.

يبدو أن هذه السعادة "ملحوظة" – ومبررة – عندما يتم حصاد أو الثمرات الناجمة عن الوحدة الوطنية وكذا المهام الكبرى على زمن الملوك الكاثوليك، وجزئيا على زمن كارلوس الخامس. وأحيانا أخرى تتوافق مع مواقف أقل ازدهارا بكثير من السابقة، ومتأثرة بنكوص خطير الأمر الذي يؤدي الشكوى والفقد في آن معا. فإذا ما قرأنا الكوميديا، وخاصة كوميديا Capa y espada على خلال القرن السابع عشر وخاصة من تأليف كالديرون دي لاباركا، وهي مسرحيات تمتد في القرن بطوله، سوف يلاحظ وجود سعادة بالحياة وميل للتسلية وابتهاج بالحياة في مدريد الأمر الذي يتناقض مع الرؤية المعتادة الخاصة بعصر فيه الكثير من المتاعب. هناك شيء من هذا يتجلى في **"رسائل يسوعيين"** رغم أن ما يتم سرده ليس إيجابيا دائما ولو عن بعد.

إلا أن المثل الأكبر لما أريد التنويه به هو النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أي الفترة التي كان فيها ما هو شعبي، وكذا أنماط الحياة ذات الجذور الشعبية والمسرح ومصارعة الثيران، يمثل نقطة التقاء بين عناصر المجتمع جميع. وفي هذا المقام نجد أن الفقرة التي ذكرتها قبل ذلك للسيد/ رامون دي لاكروث شاهد رائع على ما أقول. ومع بعض التنويعات يتم الرجوع إلى موقف مشابه مع نهاية القرن التاسع عشر، أي عصر الموسيقى "الثارثويلا"* وما يسمى بـ género chico "الدراما الغنائية" الذي يمتد في

---

* نمط من أنماط الموسيقى المسرحية. أو أنها جنس موسيقي مسرحي ظهر في إسبانيا تشارك فيه الآلات والأصوات والحوارات (المترجم).

البعد "الشعبي" الجديد الذي يبدأ من عند لوبث سيلبا إلى أرُدّتشس. وهذا الذي يوجد مركزه في مدريد لا يختلف كثيرا عن ذلك الذي توجد أصوله في أماكن أخرى في إسبانيا وهنا لسنا في حاجة إلى القول إن كل هؤلاء هم تلك الأنماط. وهنا أجدني أفكر في Serafi Pilarra في قطالونيا وفي Escalante في بلنسية وفي الأندلسيات التي يمكن أن يرمز لها آل Quintero وهكذا على التوالي.

وإلى جانب هذا كانت هناك ومضات من التجهم أو الهجر أو عدم الرضا وكلها قللت من "السعادة المتوسطة" وجعلتها أقل مما هي عليه في بعض البلدان وفي بعض العصور. وعندما اقرأ مقال "المُشَاهد" لأورتيجا الذي يرجع إلى عام ١٩٢٢م، وكذا "موضوعات رحلة" التي يقارن فيها بين إسبانيا وفرنسا ("أرض درامية وأرض هانئة"، و"حب الحياة وازدراء الحياة") فإن قبولي لإجمالي ما يقوله لا يحول دون أن أتساءل هل يمكن أن نقول الشيء نفسه اليوم بعد مرور ستين عاما. ربما كانت هناك عملية انتقال من الطرفين، إذ ربما حفت حدة ذلك الحب وذلك الازدراء ووصل الأمر إلى اختلاف ضئيل المستوى.

لا أعتقد أنه يمكن أن ننسى أن الحياة اليومية في إسبانيا كانت تتسم ببعض الكثافة بشكل شبه دائم وتتسم بالجاذبية وسهولة الاتصال وثراء المحادثات ودرجة من العفوية ومساحة من الرحالة، ومن الصعب العثور عليها في بلاد أخرى ويحدث كل هذا. أحيانا – بسبب بعض العوائق أو القيود الفعلية. يمكن قول شيء مشابه لذلك عن الشعوب الهسبانية أو الأيبيرية – تستوي التسميتان – في أمريكا حيث نجد أن الحياة يمكن أن تتضمن جوانب مؤسفة، وهي الجوانب التي يتم التركيز عليها اليوم، لكن هناك للحياة مذاق وطعم الأمر الذي يرفع من جرعة السعادة الفعلية رغم كل المصاعب والإحصاءات. من الطبيعي أن يؤذ هذا الموقف بكل تفاصيله في الحسبان، ويكون طبقا لكل بلد دون مساواة البرازيل بالأرجنتين، والمكسيك والبيرو، وبويرتو ريكو وكولومبيا، كما يجب التمييز

بين العصور. إلا أن مستوى السعادة في كثير من المناطق في هذه القارة التي عندما يذكر اسمها يُستخرج المنديل للبكاء عليها، أعلى بكثير مما عليه في بلاد أخرى تسير فيها الأمور بشكل أفضل وغير قابل للمقارنة كما أن مستواها الاقتصادي أعلى بكثير. ولن أملّ من الإشارة إلى أن مستوى الحياة يجب أن يعني المستوى الذي يُعَاش فيه. وهذا لا مناص منه إذا ما أُرِيد فهم إسبانيا، وهذا هو هدف هذا الكتاب.

مستوى الإبداع:

ليس هناك تساو بين الشعوب في الإبداع وليست كذلك متساوية على مدار التاريخ. ومن الأمثلة القوية على ذلك هي اليونان، فهي ذلك البلد المتوسطي الذي أسهم في إبداع الجذع الذي نشأت منه لثقافة الغربية، وسوف يعيش عليه طوال أكثر من ألفي عام في مرحلة قصيرة نسبيا وخاصة خلال الفترة من القرن التاسع حتى القرن الرابع قبل الميلاد ودون أن يكون من الممكن بعد ذلك مقارنة طاقته الإبداعية ولو من بعيد.

هناك إنجازات لأغلب البلدان وهي إسهامات مرتبطة بإبداع الموضوعات والأشكال والأدوات التي ساعدت على ألسنة الحياة وامتدادها في أنماط شتى. وعندي يبدو خطأ له أبعاد خطيرة القول "بالمساواة" الثقافية ذلك أن هذا يغلف كل شيء باللبّس ويقلل الإمكانيات الإبداعية في المستقبل.

حسن، يبدو من المؤكد أن إسبانيا منذ بدايتها – وتحديدا منذ قيام المجتمعات التي لم تكن إسبانية ولاتي منها جاءت إسبانيا بشكل لا لبس فيه – تتموقع بين الشعوب التي تركز فيها الإبداع. هل مجرد صدفة أن يكون سنيكا الفيلسوف الروماني الأكثر أهمية من مواليد قرطبة، وأن أكبر فيلسوف يهودي وأبرز فيلسوف بين العرب – ابن ميمونة وابن رشد – ولدا في المدينة نفسها؟ هل من قبيل الصدف أن تكون بعض الآثار المهمة الموروثة عن الثقافة الرومانية، وبعد الثقافة العربية هي جسر المياه في شيقوبية ومسجد قرطبة والخيرالدا والألكاثار في أشبيليه والحمراء في غرناطة، كلها موجودة على الأراضي

الإسبانية؟ وماذا عن سان إيسيدورو أكبر المحافظين الذين يمثلون الثقافة الكلاسيكية في أثناء تفتت الإمبراطورية الرومانية بفعل الغزوات، وسرعان ما بدأ الاسترداد أخذت إسبانيا المسيحية تنضم إلى الإبداع الأوربي خلال العصور الوسطى: الروماني والقوطي واللغات الرومانية والملاحم والرومانث ومراكز الالتقاء Convergencia مثل سانتياجو أو طليطلة، واستخدام اللغات الحية في مجال الفكر (الملك ألفونسو الحكيم ورامون لول).

ومنذ عصر النهضة ارتفع المستوى الإبداعي بدرجة لا تقارن، حيث تكاثرت التجديدات العظيمة في جميع الحقول، وخاصة في الإطار الذي يمكن أن نسميه البراجماتي: ابتكار العالم الجديد والدوران حول العالم وتحول الإسبانية إلى لغة يونيفرسال وتقنيات الإبحار والحرب، Weltpolitik، وانتشار المسيحية لدرجة أن أغلب المجتمعات الكاثوليكية اليوم هي الهسبانية. وفي مجال آخر هناك ابتكار الرواية الحديثة (فرناندو ودي روخاس وثربانتس)، وكذا أكبر الإبداعات المسرحية بعد المسرح اليوناني، والزهد، والتصوف مع التجديد فيهما. هناك شخصيتان رئيستان في عالم الفكر: ففي الدراسات الإنسانية نجد لويس بيبس، وفي عالم اللاهوت والمينافيزيقا هناك فرانثيسكو سواريث، هناك إسهامات شديدة الإبداع في العمارة مثل الأسكوريال، وفي عالم الرسم مثل بيلاثكيث، وجويا بعد ذلك. وإذا ما وصلنا إلى القرن الذي نعيش فيه وجدنا أن مستوى الإبداع في إسبانيا واحد من أعلى المستويات.

من المؤكد أن كانت هناك فراغات وغياب وهبوط وعقبات خطيرة أحدثت تأثيرا على حياتنا القومية وتضاعفت بسبب عدم معرفة معظم مفردات واقعنا ونسيانها. عندما عرفت الولايات المتحدة عام ١٩٥١م شعرت بالدهشة للدرجة عليها الأمريكان حو مضمون بلدهم لدرجة أن "السُّمْك" التاريخي الفعلي للولايات المتحدة ربما كان أكبر عنه في كثير من الدول الأوربية ذات التاريخ الأكثر طولا. وابتداء من ذلك الحين أخذ هذا السُّمْك يتضاءل، أما في أوربا فقد نشأ فيها اتجاه رهيب هو "اللامركزية descapitalización". غير أن ما يهمني هنا هو الإشارة إلى واقعة مؤسفة وهي أن

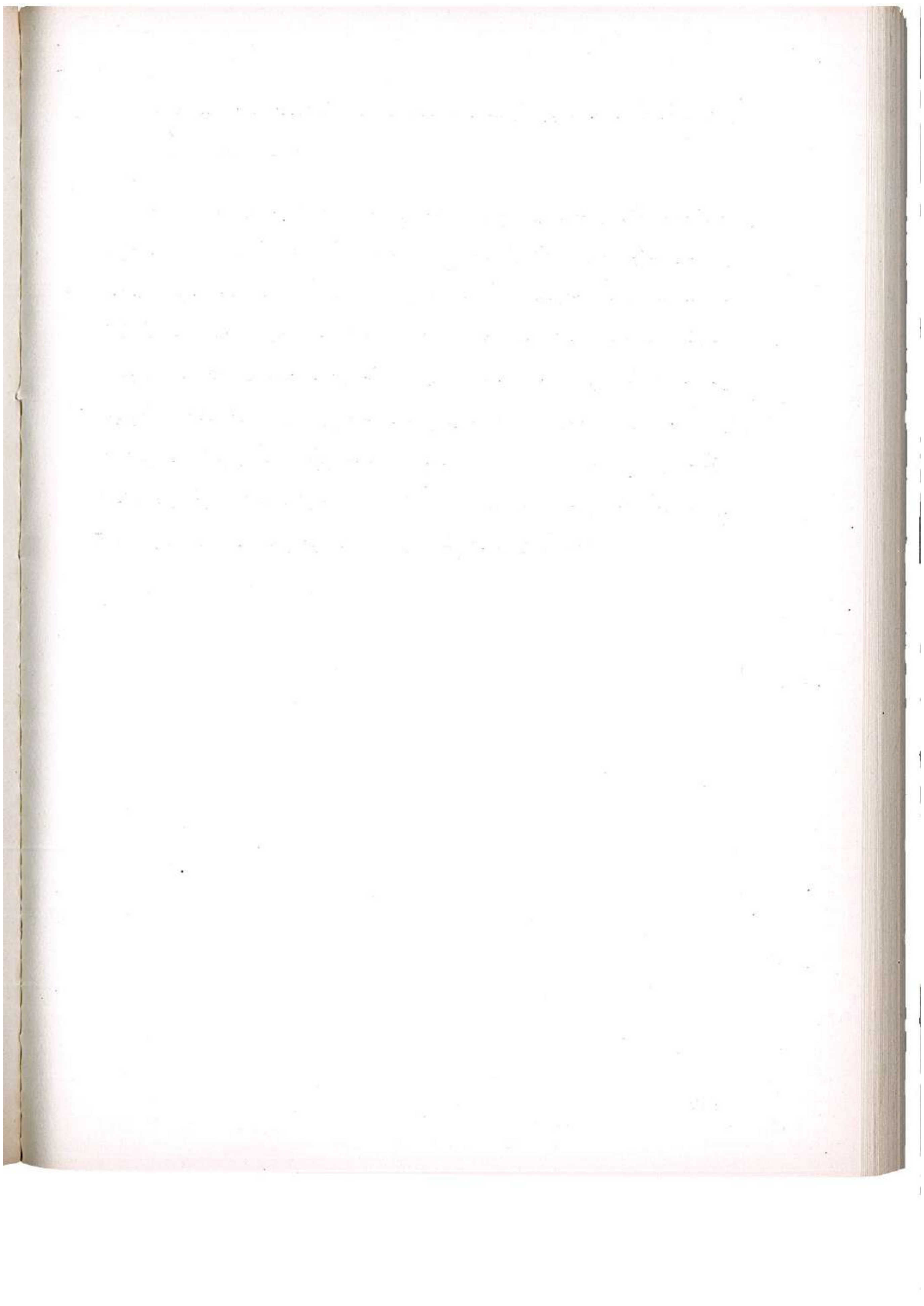
الأشياء – دون استثناء للمثقفين – يعيشون مع النسبة الدنيا من واقعهم. وهذا أمر خطير للغاية ومرده أسباب متعددة ابتداء من الكسل وانتهاء بالموضوعية أو الشغف بالسياسة، وهذه هي العقبة الأهم التي تواجهها إسبانيا في كل مرة تحاول فيها أن تبدأ مسارا مهما وواعدا.

يمكن أن نقول شيئا شديد الشبه بما عرضناه للتو عن الدول الهسبانية في أمريكا. ومن البراهين التي تدل على أن هذه البلاد لم تكن "مستعمرات" أبدا ما نجده من الطابع الخلاّق. فاللغة الإسبانية كانت في المقام الأول (وتوازيها البرتغالية في البرازيل) ومنذ وقت مبكر اللغة التي يتحدث بها الإسبانو أمريكيين، حيث تموقعوا فيها وعاشوا كثيرا مثل الإسبان. ولهذا كان من الممكن وجود أدب حقيقي في العالم الجديد، له أصالته ولم يكن مجرد انعكاس للأدب الإسباني بل هو جزء منه، أي من إجمالي الأدب المكتوب باللغة الإسبانية. كان هناك كتّاب حقيقيون، منذ زمن طويل، في إسبانو أمريكا، انضم بعضهم إلى المجتمع الإسباني مثل جارثيلا سو دي لابيجا – من الإنك – أو خوان رويث دي ألاركون، بينما نجد آخرين لم يفعلوا ذلك مثل خوانا دي إينيس دي لاكروث التي أقامت في ذلك البلد الهسباني الذي كان مملكة إسبانيا الجديدة، وبعد ذلك، أي بعد الاستقلال، كان هناك دوما كتاب أصلاء في إسباني أمريكا وكان لبعضهم قوة إبداعية كبيرة مثل روبين داريو، إضافة إلى كتّاب معاصرين لا يزال الكثير منهم حيًا يرزق.

هذه الطاقة الإبداعية نجدها أيضًا في حقول مختلفة عن الأدب ولو أن هذا بدرجة أقل، وبصفة عامة كان الإبداع ذا طابع مزدوج، وهنا من المهم الإشارة إلى أنه يتعلق بقامات الثقافة الإسبانية: أنه إبداع يضرب بجذوره في الأعماق وكذا الارتباط المباشر بالتيارات الكبرى في العالم ولو كانت الغربية على الأقل... وحتى نقدم مثالا على ذلك نشير إلى إسهام جيلبرتو فريري G. Fregre، الذي يتسم بأنه شديد البرازيلية وأكثر منه شديد التجذّر في إقليمه pernàmbuco كما تغذي على جميع الفكر الفلسفي والاجتماعي

والتاريخي، وليس ذلك فقط المكتوب بالبرتغالية والأسبانية وإنما باللغات المكتوب بها في باقي أوربا والولايات المتحدة.

تحركت إسبانيا على مدار تاريخها في مستوى رفيع من الإبداع، وهو مستوى له تعرجاته كما أنه أقل في حقول لم تم العناية بها لسبب أو لآخر، وله كبوات ومراحل انحطاط جزئية حيث تعيش في ظروف أدنى. **وخاصة تحت مستواها الخاص بها.** كثيرا ما كان الإسبان يشعرون بحساسية شديدة إزاء هذه العثرات تحققوا أنها قاصرة عليهم، وبدون أن يلاحظ أن الشعوب المبدعة الحقيقية هي قليلة العدد وأنها أحيانا ما تتعرض للهبوط أو تفتقر: الاحتمال ضئيل جدا أن تظل أي دولة محتفظة بقدراتها الإبداعية. لكن هذا الموقف الإسباني أدى بشكل معتاد، وأحيانا ما يكون مرتفعا، إلى نوع من التشاؤم القائم على الجهل بما لديها أو عدم تقديره، الأمر الذي جعل بعض هذه الفترات غير مثمرة، ولو كان ذلك بشكل مؤقت، في إطار الإبداع الإسباني الأصيل.



الفصل الحادي والثلاثون

مهمة زماننا

تحوّل المشروع:

إذا ما كان هذا الكتاب تاريخ إسبانيا، لوجب أن يتوقف عند اللحظة الراهنة. لكنه ليس كذلك بل هو تحليل لمحتوى هذا التاريخ ودلالته وذلك حتى يتم **استجلاء واقع** إسبانيا، الذي هو أمر معاصر وحالي ويتألف من استشراف للمستقبل، ولهذا من الضروري مواصلة السير إلى الأمام وإلقاء نظرة لا على إسبانيا التي كانت ولا على إسبانيا التي لم يمكن أن تكون فقط بل على إسبانيا التي يمكن أن تكون. علاقة هذا الكتاب بما هو **تاريخ إسبانيا** نظيرة لتلك القائمة بين كتابين قديمين لي: **سيرة الفلسفة** – بالنسبة للكتاب الأول الذي كتبته وهو **تاريخ الفلسفة**.

هناك عارض خطير تتعرض له إسبانيا، إذا لم أكن مخطئا، في لحظة كان يمر فيها كل شيء بأفضل حال ويحظى بكل تقدير عندي: إنه القرن الثامن عشر. سبق أن أشرنا في الفصل الحادي والعشرين إلى أن **إسبانيا جعلت من نفسها مشروعا لذاتها** ووضعت مصالحها القومية في المقام الأول وأخذت تشجع على ازدهارها واكتمالها. يبدو هذا مثيرا للإعجاب، وهو بالفعل كذلك. غير أننا عند الحديث في الفصل التاسع والعشرين في معرض الحديث عن هشاشة الإسبانيات Españas، وهي هشاشة واضحة في نهاية ذلك

القرن نفسه وخاصة عند بداية القرن التالي، كان علينا أن نلفت الانتباه إلى أن هذا الإحلال لمشروع جديد محل القديم الذي كان قائما منذ البدايات الأولى، حال دون أن تتوفر إسبانيا على طابع "انتقالي" يعبر عن أقصى أصالة لها وعن عصب إبداعها التاريخي.

نوهت في ذلك المقام إلى ضرورة وجود **تحول** في المشروع القديم حيث كانت الخطوة تحديدا هي اتخاذه على ما هو عليه، وعلى أنه شيء قابل **للاستشراف** وأنه يتم تنفيذه وإعادة تنفيذه بناءا على الظروف. ودون أن يرفض الإسبان القرن السابع عشر، تركوه جانبا وأدى هذا القصور في الخيال إلى إفقار المشروع العظيم الجديد الذي كان يجب أن يتصل بذاك.

هناك أمر أكثر خطورة يحدث مع البعد الآخر للمشروع التاريخي الإسباني، ألا وهو غير البعد الأول، لكنه ظل قائما في نهاية القرن الخامس عشر وجعل إسبانيا، تعيد إقرار تعددية ليست داخلية، مثلما كان عليه الحال في تفتت إسبانيا المفقودة خلال العصور الوسطى، وأنها أخذت تستعيد تكوينها في أثناء حرب الاسترداد، بل خارجية، أي عندما تحولت إلى الإسبانيات Españas. ألححت كثيرا على أن إسبانيا لم تعد منذ ذلك الحين أمة تجاوزت السياق الداخلي الأوربي وأنها لا يمكن أن تكون مفهومة إلا من خلال كونها ملكية تتجاوز الحدود وتصل إلى ما وراء المحيطات، وممتدة في نصفي الكرة في إطار مجموعة من البلدان المتحدة تحت التاج نفسه. لكن التاج لم يكن مجرد رمز أو جهاز دولة بل هو جماع تكوينها الحقيقي، وكان هذا المشروع الدائم الذي عندما بدأ عاشت أمريكا اتساعا ورحابة مدهشة.

أما فيما يتعلق بانفصال أمريكا في الربع الأول من القرن التاسع عشر فهذا معناه هو أن أمريكا **انفصلت عن إسبانيا**، وأن كل جزء من أمريكا ينفصل عن باقي الأجزاء – **أي أن أمريكا تنفصل عن ذاتها** – وليس هذا فقط **بل أصبحت إسبانيا منفصلة**. وسوف يقال أنها انفصلت عن أمريكا. نعم، ولكنها أيضا انفصلت **عن واقعها الحقيقي**.

من المهم أن نلاحظ أنه رغم أن إسبانيا ظلت حتى عام ١٨٩٨ م محتفظة بجزء مهم من مكوناتها فيما وراء البحار (كوبا وبويرتوريكو وكذا جزء الفيلبين البعيدة والمهمة في آن معا) لم تعد تعمل كما كانت عليه في الماضي. لماذا؟ لأنه انزلق إلى أذهان الإسبان ذلك التأويل القادم من بعيد والمُغرض والمشوِّه لكل ما كان من المملكة الهسبانية، وعندما انفصلت أمريكا – الجزء الكبير في حقيقة الأمر – اعتبر الأمر منتهيا ومحلولا، "استكانت" إسبانيا سريعا – وربما أقول "تعزي نفسها" –. كانت حائرة أمام بقايا أراضيها الواقعة فيما وراء البحار بين النظر إليها على أنها "محافظات إسبانية" بعيدة، أو أنها "مستعمرات". ربما كانت تنظر إلى كوبا وبويرتوريكو على أنهما محافظات، أما الفيليبين فعلي أنها مستعمرة، نظرا لبعدها وانخفاض درجة الأسبنة فيها. وعلى أي حال فقدت إسبانيا الوعي بما كان على مدار تاريخها الحديث: تحدثت عدة مرات عن "الرؤية" الضعيفة التي كان عليها الإسباني المتوسط نحو أمريكا، وبالتالي فهذا العنصر يمكن أن يساعد على فهم هذا المسار.

الأمر الذي لا شك فيه هو أن ما كان مشروعا إسبانيا أخذت تتوه معالمه ويزول في مرحلتيه وهما مرحلة حرب الاسترداد ومرحلة تكوين الإسبانيات. هناك اسم دائم الاستخدام خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وهم اسم يوجز في كلمتين جماع ذلك المشروع: الملكية الكاثوليكية. ومع بداية القرن التاسع عشر أخذت هذه التسمية تفقد معناها، وعندما تُذْكر ذات مرة لا تتجاوز كونها ذكرى تهفو إليها النفس وكأنها شيء من الماضي ولا تجري أي محاولة لنقله إلى المستقبل. أضف إلى هذا أن من يستوحشون الماضي الكاثوليكي و"الإمبريالي" لإسبانيا – هذا التعبير لم يكن يستخدم رغم أنه كان من الممكن أن يكون فعليا – إنما يفعلون ذلك من منظور النفور منه، إن لم يصل ذلك إلى حد الإدانة، في الزمن الذي يعيشون فيه، أي يستبعدون أي إمكانية فعلية لعودته. وحقيقة الأمر فإن أنصار إسبانيا "القديمة" والمعارضين لها يرونها على هذا الحال لكن دون أن يفكروا في إمكانية وجود أنماط معصرنة لما كان قد شكل الواقع الخلاق لبلادنا.

ورغم وجود جهود خلال القرن العشرين لعودة تأمل تاريخ إسبانيا واكتشاف إمكانية إنقاذ بدايتها واستمرارها في شكل مجدد في الوقت الحاضر فإنها لم تؤد إلى أن تعاود الأمة مسارها في ذلك الاتجاه، ومن جانب آخر هناك غيبة في باب التعاون الضروري من قبل البلاد الأمريكية في إطار ما يجب أن يكون بمثابة المهمة المشتركة، ألا وهو إبداع أنماط ممكنة للاستشراف المؤقت والولاء المطلق لذلك العالم الذي عليه أن يقوم بهذه المهمة. هناك غيبة التماسك الثقافي رغم وجود عقليات فذة في زماننا ورغم وجود أساس من الوئام الذي ينبض تحت سطح عدة مواقف. فما جرى هو العناية فقط بما يميز بما في ذلك الاعتسافات التي تؤدي إلى الجدل. وعندما نتأمل النقاش، الذي يدور بين شخصيات مهمة، والذي كثيرا ما يتسم بأنه حاد، نشعر بالدهشة بتوافق المتناقشين فيما هو جوهري الذي نغلفه اختلافات طارئة ناجمة عن غرور فردي وأحيانا ما تكون اختلافات بسيطة في نمطية اللغة المستخدمة أو صياغة الموقف. وهناك أيضًا الحزبية التي أسهمت في تحييد المشروعات المحفِّزة واختصارها في رؤى متعمدة ترتبط بما كان يجب أن تكون. وفي نهاية المطاف هناك قطيعة للتعايش تمثلت في الحرب الأهلية إسبانية – وبشكل مواز في أغلب بلاد أمريكا اللاتينية حيث يرجع هذا في الأعم الأغلب إلى "الصدى" غير المقصود لما كان يحدث في إسبانيا – حيث كانت العقبة الكئود في طريق وجود خيال محدد وانتقالي وله ذاكرة تاريخية طويلة ورؤية يقظة للعالم الفعلي ولإمكانياته.

إعادة بناء الإسبانيات Las Españas:

تطلق كلمة "عالم" في الوقت الحاضر على أي شيء، إذ يجري الحديث – على سبيل المثال، وكأن الأمر واقعا– عن "العالم الثالث" (وعندما ظهر هذا التعبير عرّفته على أنه ذلك الذي يتم التحكم فيه من خلال الثاني") ومن المعتاد أن يُفهم من خلال ذلك الاسم، عندما يُراد إعطاءه معنى، مجموعة الدول النامية، أي المستوى الاقتصادي – وغير ذلك فهو شديد التنوع –.لكن هذه السمة الاقتصادية لا يمكن أن تشكل عالما ولا تقر أي ارتباط بين الدول التي تعتبر نفسها جزءا منه، فهذا تشابه ظاهري فقط. وعندما أرى أن بعض بلاد إسبانو

أمريكا، وأحيانا البلاد الأبرز فيها، يُعلن أنها تنسب إلى "العالم الثالث" فإنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في أنهم لا يعرفون ما يقولون. فالعالم هو مجموعة من العناصر الاجتماعية المشتركة، والمعتقدات والعادات والتقديرات والمشروعات.

وهذا هو بالتحديد ما يشكل فعلا تلك البلدان شديدة الاختلاف والتي هي جزء من الملكية الإسبانية. وإذا ما كان هناك شيء يستحق أن يطلق عليه "عالما" فهو العالم الهسباني، إذ هناك اللغة المشتركة (تعتبر الإسبانية لغة "وسطا" عند البرازيليين، ويقرأ بها عدد كبير من الأقليات الكبرى)، هناك تاريخ مشترك على مدار ثلاثة قرون، وأنماط اجتماعية وعادات وقراءات ومعتقدات وأساليب حياة، هناك انطباع بأن الإنسان يشعر أنه "في بيته" وهو في أي من هذه البلدان الأمر الذي يؤدي إلى التفاهم الفوري. وهذه هي الحقيقة الآنية واليومية والبديهية في العالم الهسباني، والتي لا توجد بدرجة كبيرة حتى في إطار الدول الضخمة، بغض النظر عن الحديث عن عدم وجودها بين جماعات كبيرة منهم.

هذا العالم الهسباني مقسم إلى أجزاء صغيرة دون أن تتوفر الشروط لوجوده، كما أنه معرض دائما لعدم الاستقرار، نعم هناك إمكانيات في هذا المجال لكن تفت العزلة في عضده وعدم الكفاية، إضافة إلى تعرضه للانقلابات Subversión والقمع الداخلي والعدوان الخارجي. لا تقتصر هذه "الذاتية" التي تحدث عنها أورتيجا على أنها الميل الإسباني الأكثر خطورة على إسبانيا أو على أجزائها بل تؤثر أيضًا على البلاد الهسبانية في أمريكا. وقد حدث الأمر على هذا النحو منذ استقلالها الأمر الذي أدى إلى التشاؤم العميق الذي كان عليه سيمون بوليفار ولم يجد علاجا ناجعا أبدا. وفيما يتعلق بإسبانيا فقد أفصح هذا الكتاب، من مختلف الزوايا، عن طابعها غير المكتمل والمجدوع إذا ما فهم هذا الطابع على أنها منعزلة أو إذا ما نسبت إليها سمة "أنها داخل أوربا intraeuropea" تزيف ما كان واقعا فيها منذ بداية القرن السادس عشر كيف تم الوصول إلى هذا التفتت، والأدهى من ذلك كيف لا يزال قائما رغم أنه يتناقض مع ما كانت عليه هذه البلاد على مدار قرون أي وضعها الحقيقي الذي يستكن وراء الظواهر وخاصة الظواهر اللفظية؟

تتسم العناصر أو المكونات الخاصة بموقف ما بأنها غير فعالة من الناحية الاجتماعية والتاريخية، هذا إذا ما كانت موجودة بطريقة جامدة وكأنها مجرد "بيانات" بمعنى أنها لا تقوم بوظيفة استشرافية. هذه الأزمة الخاصة بالمشروع المشترك والناجمة على جانبي الأطلنطي منذ بداية القرن التاسع عشر تنتزع البعد الحقيقي والحيوي عن مجموعة من المضامين الشديدة الواقعية والتي تشكل أغلب عناصر الحياة اليومية، التي لا زالت قائمة في هذا البعد لكنها لا تتجلى في إطار الحياة المشتركة، وبالتالي لا تتجلى في الإبداع التاريخي. هذه هي الجذور العميقة للأمراض التي تحدق بالشعوب الهسبانية، مما يتسبب حدوث ضعف داخلي لديها ويقود إلى فشل المشروعات التي تولد فيها ويحول ذلك دون أن تكون هناك نتائج على المدى البعيد تتسم بأنها ضرورية. وإذا ما أيد الحديث عن "النشاز" فلا مانع من ذلك. غير أنه يجب أن نرى بوضوح أن الأمر لا يتعلق بأي نوع من الدونية عند الناس كأفراد أو الثقافة أو المبادئ المغذية لذلك أو حتى عدم القدرة على الحياة المشتركة بل إن هذه مشوشة منذ البداية، بالتفتت الذي دمر الأفق الحقيقي الاستشرافي **proyectivo**. ومن المتناقضات أن الماضي يحول دون انفتاح الشعوب الهسبانية على المستقبل.

اعتقد أنني فككت عقدة أسطورة إسبانيا "النشاز"، و"اللاعقلانية" و"المتأزمة" أي إسبانيا غير المفهومة. يكفي أن ننظر إلى الأمور دون غمط شيء منها ودون أن ننظر إليها من زاوية رؤى بعيدة عنها وذلك حتى يمكن فهمها. تاريخ إسبانيا جلي تماما وربما بدرجة كبيرة، بسبب وجود مشروع تاريخي واضح الملامح قامت إسبانيا بإبداعه وأبقت عليه. ومع هذا هناك لحظات يتعرض فيها الوضوح للوهن. وليس الأمر أن الوضوح غير موجود، بل يتخذ طابعا يثير الدهشة والقلق! يُفهم لماذا لا يُفهم جيدا وهذا ما يحدث منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر.

لا يمكن أن تكون مهمة عصرنا إلا إعادة "بناء الإسبانيات"، ويرتبط بهذا تضاعف إمكانيات كل واحدة منها أو أن تنحصر إلى الحد الأدنى الذي يتأثر أيضًا بقابليته للعطب

لانعدام الأفكار، فبالنسبة لإسبانيا هناك "الأوربة" الحصرية والسلبية – وهي في جوهرها مضادة للأمريكية – حيث تجري المحاولة لجعل إسبانيا في إطار أوربا فقط وإبعادها بهذا الشكل عن الجانب الأكثر إبداعا وعن أفقها الأكثر واقعية والواعد. الأمر الحاسم كما شهدنا هو أن إسبانيا الأوربية بشكل راديكالي والتي أبدعت جزءا مهما من مبادئها، كانت تتجاوز حدود أوربا traneuropea (مثل البرتغال) وهذا مكمن أصالتها الكبيرة.

وبالنسبة للدول الهسبانية في أمريكا، فإن الميل الأكبر تمثل في تلك الأسطورة المقصودة المسماة "أمريكا اللاتينية" وهي لفظة تم صياغتها لأغراض سياسية في منتصف القرن التاسع عشر، كما أن زيفها يتضح في أن كيبك Quebec لم تدرج في هذا الإطار. إذن نجد أن هذا التعبير يتخيل وجود وحدة كافية دون الإشارة إلى إسبانيا، أي دون إشارة إلى المبدأ الفعلي الذي يربط بين أعضاء هذه الجماعة. وإذا ما ألغى العنصر الإسباني في البلاد الهسبانية، يتبخر وجود أي مجتمع تاريخي كان قائما بينها وتختفي الجذور المشتركة ومعها جميع الصلات الاجتماعية التي يمكن أن تصوغ هذا المجتمع في شكل عالم متسق(١٦٤).

وسوف يكون ملحا العمل على الوصول إلى إعادة هذا البناء بشكل فيه نظرة إلى الوراء أو فيه حنين إلى الماضي تنتسب إلى الماضي تلك الأنماط التاريخية التي نشأت عليها الإسبانيات، والتي اتسمت بالتنوع لأنها كانت صاحبة تاريخ وهذا بعد جوهري تجري محاولة نسيانه. وانطلاقا من هذه الأنماط واستنادا عليها يكون الخيال ضروريا وهو خيال محدد ليسهم في الاختراع ولكن في إطار الظروف الحالية، ومن الأفضل هنا القول بالإسهام في إطار ظروف المستقبل ذلك أن المهمة التاريخية لا يمكن أن تكون إذا ما وضعت في الحسبان ما يتعلق بالحاضر فقط، وهو- أي ما يتعلق بالحاضر – لن يكون

---

(164) تأملت هذا الموضوع على مدار ما يزيد على ثلاثين عاماً. انظر كتابي "أسبانوأمريكا" – دار نشر – أليانثا – بوينوس أيرس – ١٩٨٤م.

كذلك عندما يتم التنفيذ. يجب تخيّل منطقة التلاقي **Zona de Convergencia** بين البلاد الهسبانية عند مد المسارات الممكنة والثرية لكل بلد منها.

تكمن الصعوبة الكبرى هنا، فلا شيء يكلف جهدا إلا **الخيال المحدد** الذي يقف على أرض الواقع ولا يبقى فيها. أما ما هو مجرد فهو سهل حيث ليس من الضروري البرهنة على ذلك في ظل الظروف الفعلية وبالتالي فهو لا مسئولية محضة. وأول خطوة هو الإمساك الكامل بكل ذلك الذي يجمع بيننا ذلك أنه معين مواردنا حتى نتمكن من الابتكار والتنفيذ. وطالما أن الإسبانو أمريكيين لا يرون أن كل ما تم في إسبانيا هو ملك لهم أي كل ما يدخل في مضمون هذا الكتاب – أي كل ما تم تخيله وسبر أغواره وابتكاره وإبداعه دون استثناء الأخطاء والفشل– وطالما أن هناك إسبان يؤمنون بأن بإمكانهم أن يفهموا بلدهم دون الخروج من أوربا ولا يعتبروا كل المضمون ملكا لهم والذي يوجد في أمريكا المؤسبنة، بما في ذلك ما كان هدفا للأسبنة بمعنى اللُّحمة السابقة على ذلك مع بقائها على قيد الحياة فلن يكون من الممكن السير في الطريق الفعلي للتاريخ.

وعندئذ فقط سوف تكون حقيقة وضعنا كرجال ونساء هِسْبان، وعندئذ فقط سنتمكن من البدء في حزمة مشروعات متعددة وذات قيمة كبيرة إذا ما كانت متسعة في الوقت ذاته. ما معنى هذا؟ يعني ببساطة استشراف الأفق الخاص بكل ومدّه، وعندما تنطق لفظة "نحن" فما الذي يُفهم في كل حالة؟ يعني ذلك بالطبع نحن معشر الإسبان والأرجنتينيين والبيروانيين والمكسيكيين...إلخ. لكن إذا ما انتهى الأمر عند هذا الحد فليس كافيا. يمكن لأي إسباني أن يفكر ويتوجب عليه ذلك: نحن معشر الأوربيين، ويمكن لكولومبي أو فنزويلي أو شيلي أن يقول نحن معشر الأمريكيين. هؤلاء وأولئك هم حقا نحن معشر الغربيين. لكن علينا أن نفكر على الفور، فيما يتعلق بمجتمع مشبع، في **أننا معشر الهسبان**. هذا ليس مجرد شعارات تتعلق بالمشاعر أو الحب – نعم لا نبتعد أبدا عن المشاعر والأدب – بل يعني منذ الوهلة الأولى وبشكل آلي **أن تؤخذ باقي البلاد**

الهسبانية في الأعتبار. وهو الشيء نفسه الذي يتوفر عليه أحد سكان مدينة أو مقاطعة بعينها – بغض النظر عن أي اعتبار له خيرا أم شرا، أو مطلبا أو غير ذلك، أو ضغطا أو إمكانية – أو بلده بالكامل وهنا علينا أن نلقي نظرة على أفق عالمنا ونضعه في الحسبان وأن نفكر أننا في البداية يمكن أن نتوفر عليه بالكامل ومسئولين عنه لأن ذلك يؤثر علينا مباشرة.

وإذا ما تم ذلك سوف تنشأ الصلات الفعلية التي سوف تجعل واقعنا العام كثيفا. حدث هذا في بعض الحقول: هناك على سبيل المثال ما يتعلق بالكاتب ذلك أن أفقه هو اللغة شاء أم أبى بغض النظر عن الانقسامات السياسية أو الأيديولوجية، والجغرافية أو الاقتصادية. لم يقترح ذلك أحد بل العكس تماما، أي فرضت قوة الأشياء. سوف تكون العفوية الحيوية للبلاد الهسبانية، وهذا ما يحاول البعض من هنا وهناك قلقلته، ولهم دوافعهم، تلك التي سوف تتمكن من تربيط -وإعادة تربيط -- الصلات التي أقرّها نحن معشر الحقيقيين. وليتخيل المرء وضع المشكلات التي تتطلب الحل، وتحظي بالموارد التي تقدمها جميع المجتمعات المكونة في جماعها من ثلاثمائة مليون شخص، والذي سوف يكون شفافا بالكامل، حيث أن كل شيء فيه له دلالته ويمكن فهمه من خلال إشارة.

يجب التساؤل فيما إذا كان في العالم الحالي مجتمعا قابلا للمقارنة بهذا، يتمتع بدرجة من الحيوية والقدرة الخلاقة والإطار المرجعي لنصف ألف عام من التاريخ المشترك والذاكرة الجماعية – اللهم إلا إذا تمكن منها النسيان – هذه المهمة، وهي إعادة بناء الإسبانيات، هي الإمكانية الوحيدة التي لها مستقبل وأن تظل إسبانيا بلدا جليا وواضحا.

صمود المشروع الأصلي:

لا أريد تجنب القضية الحاسمة، إذ يبدو لي أن هناك مطلبا قويا ذا طابع ثقافي وهو مواجهة المشكلات وليس تجنبها أو تأجيلها بشكل لا نهائي. ومنذ أعوام، وربما للشعور بأن الحياة لا حدود لها وأن الأسئلة الضرورية تتطلب إجابة، إذا ما كان ممكنا أو التأكد من أن

ليس لها إجابة – عند من يوجه السؤال على الأقل – وأنني أحاول أن أصل في نهاية المطاف إلى الواقع، وألا أتوقف قبلها، وألا أمارس الشعوذة أمام الصعاب أو الالتفاف حولها.

أبرز هذا الكتاب – وألح في ذلك – على تبيان كيف أن إسبانيا تتكون وهي متشجعة من مشروع تاريخي الذي يتفق تماما مع المسيحية الأمر الذي كان يضم تحت لوائه تأكيد بعده الأوربي والغربي. كان ذلك هو الاتجاه الذي سار فيه المجتمع الإسباني على مدار تاريخه، وبدون هذا المشروع، لا يمكن فهمه. شهدنا أيضًا أن هذا جعل إسبانيا ترتكب خطأ كبيرا: وهو الافتراض – منذ نهاية القرن الخامس عشر – القائل بأنه لما كانت إسبانيا مسيحية فإن هذا يفترض أن كل الإسبان يجب أن يكونوا مسيحيين وأن ذلك يمكن المطالبة به. ولأسباب درستها في الصفحات السابقة نجد أن ذلك المشروع يتم التراجع عنه بشكل تدريجي على مدار القرن التاسع عشر، كما أن محاولات التأكيد عليه تتسم بأنها ذات طابع مثير للجدل وسلبي فيما يتعلق بالحاضر، وأنها تعود مرة أخرى للسقوط في الخطأ القديم بشكل أو بآخر، تنزلق إلى أذهانهم الفكرة القائلة بأن الإسباني غير المسيحي ليس إسبانيا حقيقيا أو أن أسبانيته أقل. يبدو هذا غير مقبول في عيون من يعيشون في القرن العشرين الذين يرون بديهيا أن الإيمان الديني ليس مطلبا ضروريا – وعلى المسيحيين أن يضعوا في أذهانهم دائما أن ذلك فضل – وأن من الأمور الفعلية هو أن الكثير من الإسبان غير مسيحيين.

هل معنى ذلك أن ما كان المشروع التاريخي لإسبانيا لم يعد صالحا وأنه زال من الوجود؟ ألا يعني ذلك نوعا من القطيعة للاستمرارية التاريخية، بمعنى أننا لسنا في مجتمع مختلف بل في مجتمع آخر كانت إسبانيا خلال الفترة من القرن السادس وحتى القرن الثامن عشر؟ لنفكر في الوضع الحالي الذي عليه الشعوب الإسلامية. وبغض النظر عن الموقف الديني الشخصي للأفراد – فهناك تنوع ضخم بينهم – فإن الإسلام هو العنصر المحدد لهم، وأنه جزء جوهري من واقعهم وبدونه لا يمكن فهمهم. أمر شبيه يجب أن نفكر فيه بالنسبة للشعوب الغربية بالنسبة لجذورهم الرئيسية: العقل النظري ذو الأصول

الهلنستية، ومعنى السلطة والقيادة طبقا للقانون الذي ولد في روما، والرؤية اليهودية المسيحية المتعلقة بإله شخصي أب للبشر، يمكن أن تكون هناك علاقة شخصية وحميمة معه. وعلى أي حال فمهما كانت درجات التنوع التي عليها مواقف الأفراد، نجد أن الشعوب الغربية لا يمكن أن تكون مفهومة دون هذه المبادئ التكوينية، يمكن الاختلاف معها لكن هذا الاختلاف يقوم على قاعدة الشخصية الإنسانية التي رسمتها كل هذه السمات. وحتى في حالة الافتراض القائل بأن ليس هناك أي أوربي وأي غربي يعتنق شخصيا هذه الأسس فإن أوربا والغرب لن يكونا مفهومان إلا على ضوئها ولا يمكن لهما أن يستشرفا مستقبلهما دون أن يضعا في حسبانهما الوضع الذي كانتا عليه.

وبالنسبة لحالة إسبانيا، فإن ما يتعلق بالجذور اليونانية والرومانية صالح مثلما هو الحال بالنسبة لباقي البلاد الأوربية، أما فيما يتعلق بالمسيحية، فإن الموقف أكثر حدة. رأينا كيف أن باقي الدول الأوربية كانت مسيحية لكن لم تكن تتألف منها – وهذا ما تبرهن عليه مواقفها في البلاد المكتشفة والمستعمرة- لكن إسبانيا كانت قد حددت هويتها على مدار حرب الاسترداد على أساس التطابق بين المسيحية والعالم المسيحي في آن أي سواء فيما يتعلق بما هو ديني ومؤقت وتاريخي، وامتد ذلك بعد الوحدة الوطنية على مدار ثلاثة قرون تالية.

وردا على السؤال فيما إذا كانت إسبانيا جلية دون المسيحية، فإن الإجابة هي بلا، لكن ذلك لا يعني أن الإسبان مسيحيون بالضرورة أو حتى المشروع التاريخي لإسبانيا في الوقت الحاضر الذي يسبق المستقبل، وأنها تتوافق مع المسيحية. هذه هي الصعوبة الكبرى التي لا يمكن حلها، كما أن غيبة إجابة شافية أقضت مضجع المشروع التاريخي وأدخلت غموضا على طريقة الإسبان في الإحساس بالأمور، وأوقفت أو غيرت اتجاه المسارات الإسبانية على مدار ما يقرب من مائتي عام.

لنترك المسيحية جانبا بشكل مؤقت، لنلقى نظرة على الأبعاد الأخرى من الموروث الأوربي. تأويل ما هو واقع وخاصة بالنسبة للإنسان الذي يسم الواقع إما ينبثق عن

"العقل"، أي الأصول اليونانية التي جعلت فلسفة العلم ممكنة ومعها – وهذا لا يجب أن ننساه – فلسفة التقنية العلمية التي أصبحت اليوم سارية على المستوى العالمي. أضف إلى ذلك فكرة **القانون**، بأن الإنسان هو الذي يحمله، وأنه مواطن وأن القوة هي سلطة بداية. أي أن هذا يعني وجود تأويل **شخصي** للإنسان، القادر على فهم الواقع، وصاحب التصرفات التي يقوم بها وهو المسئول عنها والمجبر على الاختيار في كل لحظة، لأن حياته ليست جاهزة وإنما عليه أن يمارسها من خلال الأشياء وأن عليه أن يبرر اختياره ولو كان ذلك أمام نفسه على الأقل، وهذا عليه أن يفكر ويعقل، وبالتالي فهو طيب أو سيئ وليس محددا ذلك من خلال نظام من الغرائز بل من خلال قرار يتخذه وله أسبابه، وأنه يمكن أن يكون سعيدا أو غير سعيد وأن يتوخى السعادة حتى ولو لم تكن مستحيلة المنال، وأنه يريد أن يواصل العيش إلى ما لا نهاية دون أن يتخلى عن المشروعات.

وعندما أقول أن ذلك هو التأويل الشخصي للإنسان ليس من الضروري أن ندرج في هذا التعبير النظريات المختلفة حول الشخص. الأمر غاية في البساطة، وبالتالي أكثر أهمية وله تأثيره على جميع البشر وليس فقط على المثقفين أو على هؤلاء المتخصصين في الفكر النظري: التمييز الفوري والحي في باب استخدام اللغة بين ماذا ومن (شيء واحد، والعدم ولا أحد). لا أحد هناك يخلط بين هذه المصطلحات ولا أحد يسأل ماذا؟

عندما يتعلق الأمر بإنسان لم يعش "كشيء" بل مثل أحد من دم ولحم. أوربا تتكون من خلال هذه الرؤية،وكذلك الغرب، من خلال ما فعلته. ولا ننسى أن هذا أمر ثقافي بشكل محض ومنبثق عن ممارسة العقل.

وفي هذا المقام نجد التأويل المسيحي يتوافق حرفيا، من المنظور الديني، مع تلك الرؤية للواقع ثم يضيف إليها ملامح أخرى منبثقة عن الوحي: خُلق ذلك الإنسان من خلال واقعة حب شديدة الحرارة لله: على صورته وشاكلته وكأنها صورة نهائية للانهائي، في حالة تكون دائم، وهو حب لم يكتمل أو ينتهي. وذلك الإنسان يسمى الله بالأب ولهذا

يرى باقي البشر على أنهم إخوة. وفي النهاية تضيف المسيحية إلى الطابع اللاواقعي والذي يتجاوز حدود ما هو طبيعي واستشرافي ومستقبلي يكتشفه الفكر العقلاني، نقول تضيف صفة ما فوق الطبيعة Sobrenatural، والإسهام في الحياة الإلهية وإضفاء هذه الحياة نحو الأخرى الدائمة. وبالفعل كانت الديانة المسيحية هي التي جعلت ملايين الناس، على مدار ما يقرب من ألفي عام، يشاركون في هذه الرؤية لما هو فعلي وخاصة الحياة الإنسانية حيث نجد في ذلك التأويل الأكثر عما للفكر الغربي الخلاق.

حسن، هناك لحظة – في إطار فترة طويلة مقسمة إلى مراحل طبقا للقضايا والبلدان – حيث بدأت في أوربا حركة نكوص وتبسيط وبدائية. وجاء ذلك باسم العلم لكن ليس من خلال كبار العلماء (مثل جاليليو وكبلر وديكارت وليبنز ونيوتن) لكن من خلال من يتلقونه ولا يملكون ناصيته جيدًا، يعودون إلى ما قبل التاريخ ويتم تفسير الإنسان في "شيء" (وليس أحدا)، أي على أنه شيء وليس شخصا، وعلى أنه تكوين تشكّل صدفة وطبقًا للحاجة وليس له حرية أو معنى. أي أنه شيء مآله الزوال دون أمل أو أفق للاستمرار: فالآخرون لن يواصلوا العيش، ولا حتى كل واحد ولا من أجل كل واحد).

انزلقت هذه الطريقة في رؤية الأشياء، والتي تلغي الإبداع الضخم في الفكر الغربي، بطريقة ماكرة إلى الأذهان الأوربية منذ القرن الثامن عشر وأخذت تكتسب الكثير من الموارد العَمْدية في القرون التالية. كان ذلك هو الانحراف الكبير المقبول جزئيا من الأوربيين – بشكل جزئي كما هو واضح –، وأصبح هناك كثيرون من الغربيين يسيرون في الاتجاه. وإذا ما نظرنا إلى المسارات التي اتبعتها مختلف البلدان من المنظور التاريخي نتساءل: أليس من المشروع اعتبار أن جزءا من أوربا سقط في الميل إلى اللامصداقية والإفقار والبدائية والتخلف والسقوط في إطار أنماط أكثر فظاظة وغير مبررة مقارنة بتلك التي بلغها منذ وقت طويل؟ ألا يبدو أن هناك مبرر لموقف رافض من قبل إسبانيا التي اتسقت تماما مع المسيحية وكانت ترفض التخلي عن التأويل الشخصي للواقع الذي يحمله الإيمان الديني داخله؟

يجب أن نلاحظ أنه عندما وجدت إسبانيا نفسها في إطار الفكر الأوربي، في منتصف القرن الثامن عشر، كان ذلك الفكر قليل الإبداع وانساق وراء هذا التدهور والابتذال والبطلان الذي أشرت إليه توًا. وبالنسبة لإسبانيا بكل ما تعانيه من قصور ثقافي فإنها قد شعرت، وهذا له ما يبرره، أنها أقرب إلى الحقيقة – خاصة الحقائق الحاسمة – منها إلى السطحية الثقافية لأوربا.

الأمر الخطير هو أن إسبانيا بعد ذلك – والأكثر من هذا على غير الأوان – انضمت إلى تلك الرؤية "الجديدة" التي تشوه الواقع. لكن لم تنخرط بالكامل في هذا، حيث هناك مقاومة قوية ولكن دون الوضوح الكافي. ومن هنا **فقدان الاتجاه**، والفوضى العقلية التي تتسم بها إسبانيا خلال القرن التاسع عشر، والتي ستؤدي إلى الفوضى العملية، أي الخاصة بالتعايش. ويلاحظ أن التوجه إلى **التقليد** عندما يفقد الثقة في ذاته، وعندما يقبل التشويه الخارجي ويتمثله كأنه هو الذي فكر فيه سوف يجعله يتخذ ما هو أدنى بالذي هو خير، ويتخذ "التراجع" كأنه "تقدم".

لكن من خلال خط لم تستطع المصادفة أن تعمل الكثير بشأنه، نجد أن إسبانيا القرن العشرين شهدت الخطوات الأكثر تجديدا وثراء للفهم والتبرير والدفع إلى الأمام بالنواة التأويلية للواقع الذي كان الإبداع الكبير للغرب، أي الذي أكد تفوقه التاريخي طوال قرون عديدة. لم يتخل الفكر الإسباني عن الحقائق التي تم اكتشافها بعناء ابتداء من العصر اليوناني وحتى العصر الحديث، ووضعها موضع التجربة والتنقية والتبرير والنظر إليها من خلال رؤية جديدة واستخدام مناهج ملائمة وجعلها تتقدم وتتكثف ووضع نقطة انحناء في تاريخ الفكر، أي بدء عصر جديد.

يمكن أن تكون إسبانيا مسيحية أو لا تكون، وبالطبع يمكن أن يكون الإسبان كذلك أو لا يكونون لكن النواة الثرية، من الناحية التاريخية، والتي كانت الأصول الأولى للمشروع الذي ولّد إسبانيا، وتوحدها مع المسيحية، لا زالت قائمة بشكل مستقل،مع هذا، عن الدين. تتسم **الأصالة** الإسبانية في عالم الفكر بأنها متسقة مع الطريقة التي فهم

بها الإسبان أنفسهم منذ أن بدأوا يصبحون أسبانا. ونقولها بعبارة أخرى أي في إطار تاريخ إسبانيا بكاملها وقد انتزعت منها الإضافات والميول والهوى والأخطاء تتوافق إسبانيا التي أمكن أن تكون، والتي كان من الممكن أن تظل على مستوى ما تطلبه من ذاتها، دون السقوط أو الانحطاط، مع إسبانيا التي سيمكن أن تكون إذا لم تتخل عما هو أصيل فيها وخلاق وما يشكل ما هو ثمين وأصيل أسهمت به في هذا العالم.

بالنسبة لإسبانيا كان الإنسان دائما **شخصا**، وبالنسبة لعلاقته بالآخر (الصور أو اليهودي خلال العصور الوسطى، والهندي الأمريكي بعد ذلك) فهي علاقة شخصية. وفهمت أن الحياة مهمة ولهذا وضعت نفسها لخدمة مهمة تتجاوز ما هو شخصي، وحالت دون النفعية – وربما بدرجة من المبالغة التي عادة ما تقود إلى رؤية الإنسان على أنه شيء. وكانت تتحلى بروح التعايش بين الأشخاص وليس التبعية للجماعة وقاومت في باب تبعية الإنسان لماكينة الدولة وشعرت بالحياة كأنها غير مأمونة ولم تؤمن بأن تبريرها هو النجاح: ولذلك عاشت الحياة على أنها مغامرة، وشعرت بالتعاطف مع المهزومين. وبتنفس هذه الروح في رؤية الأشياء العمل الذي عبر من خلال الإسباني عن نفسه بقوة ونقاء، وهو رواية ثربانتس.

إذا ما استمر تلك المشروعات، وإذا ما وضعت على إيقاع الزمن وتحررت من العناصر التي أخذت رواسب التاريخ تضعها فيها، وإذا ما قامت بتأويل هذه المشروعات وصياغتها بدقة ثقافية، فإننا نجد العناصر الأكثر ثراء في الفكر الإسباني على زماننا. ففيه يمكن رؤية السرّ – الأكثر وضاءة عن أي وقت مضى – الخاص بها يمكن أن يكون الاستمرار التجديدي للمشروع التاريخي لإسبانيا الذي يمتد عمره إلى ما يزيد على ألف عام.

مدريد ١٩٨٥/٤/١٢